
نظرية الوظيفية
بالعمائر الدينية المملوكية
الباقية بمدينة القاهرة
د. محمد عبد الستار عثمان
ت: ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨ اسكندرية

نظرية الوظيفية
بالعمائر الدينية المملوكية
الباقية بمدينة القاهرة

أ . د. محمد عبد الستار عثمان
عميد كلية الآداب
بجامعة جنوب الوادى

الطبعة الأولى

٢٠٠٥م

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

إهـداء

إلى أستاذى الكريم الأستاذ الفاضل/ عبد الرحمن محمود عبد التواب.

أهدى إليه هذا العمل الذى كان له الفضل الأول فى إنجازه.

بفضل رعايته وتشجيعه وتوجيهه.

" تنــــويــه "

هذا البحث هو رسالة الدكتوراه للمؤلف، ولم يشأ المؤلف أن يغير فيها شيئا بالرغم من أن بعض المعلومات يمكن أن يضاف إليها .

وكان هذا الموقف من المؤلف ليبين للقارئ مدى أهمية هذه الرسالة فى الدراسات الأثرية وتأثيرها فى كثير من البحوث التى عرضت بصوره أو بأخرى للعمارة المملوكية الدينية سواء كان هذا التأثير فى المنهج أو فى تبنى بعض الأفكار والموضوعات الواردة فى متنِ هذا البحث وعرضها على أنها من إبداع ما تبنى وقد أفلح بعضهم فى التبنى وقد أخفق آخرون. ويكشف هذا وذاك نشر هذا الكتاب دون إحقاقة من الباحث.

والله من وراء القصد

أ . د . محمد عبد الستار عثمان

"مقدمة"

كانت دراستى لأثار السلطان برسباى المعمارية بمدينة القاهرة للحصول على درجة الماجستير من الأسباب الأولي التى دفعتنى لاختيار هذا موضوع هذا البحث" نظرية الوظيفية فى العمارة الدينية المملوكية القائمة بمدينة القاهرة " فأثناء إعداد هذا البحث وجدت تنوعا فى المنشآت الدينية التى أنشأها هذا السلطان ، وإختلافا فى تخطيطاتها ، ووجدت أن هذا التنوع والإختلاف ناتج من تنوع الوظائف التى تؤديها هذه المنشآت وإختلافها ، ودفعنى هذا بدوره للتعمق فى دراسة مفهوم الوظيفية أو "صفه الوظيفية ، أو نظرية الوظيفية" ووجدت أن الكثيرين من المؤلفين فى مجال العمارة يتحدثون عن الوظيفية ، ويقررون أنها نظرية حديثة أخذت شكلها الواضح فى نهاية القرن ١٩م وأن أول من دعى إليها فرانك لويدرايت ولوكوربوزيه وغيرهم ، وأشارت هذه الدراسات إلى أن مفهوم الوظيفية أو صفة الوظيفية حقيقة موجودة منذ فجر التاريخ وملازمة لنشأة العمارة والعمران ، وبالربط بين ما ذكرته هذه الدراسات ، وبين ما أوضحته دراستى لآثار السلطان برسباى بصفه خاصة ولآثار المملوكية بصفة عامة يتضح أن نظرية الوظيفية تحققت فى نتاج المعمار الإسلامى المملوكى والذى يعتبر عصره عصر النضج بالنسبة للعمارة الإسلامية، وأنه بدراسة فاحصة يمكن أن تتضح بجلاء مقومات هذه النظرية وعناصر اكتمالها بما يشهد للمعمار الإسلامى بأسبقية فى إدراك هذه النظرية وتحقيقه لها فيما أنشأه من عمائر بل إن الأمر لا يقف عند هذا الحد، ولكن يمكن الكشف عن جوانب أخرى فى هذه النظرية لم يدركها المعمار فى العصر الحديث ولم يضمنها بعد فى مبانيه، ومن جهه ثالثة يمكن بهذه الدراسة الكشف عن خصوصيات هذه النظرية باعتبارها مطبقة فى ميان لها صفة خاصة ومحددة بتعاليم خاصة نابعة من قيم الدين الإسلامى.خاصة عندما ندرس هذه النظرية فى منشآت دينية إسلامية. ومن جهة رابعة تبين

هذه الدراسة أن "نظرية الوظيفية" ما هى إلا تفسير تاريخى ينبثق من الحقيقة "الوظيفية" فهى ليست نهائية لا فى مجموعها ولا فى فحواها ولكنها تعكس التغير والتطور الذى يطرأ على المجتمع فى مختلف العصور.

وأمام هذه الفروض الأربعة تتجهه دراسة هذا الموضوع اتجاهان رئيسيان. الاتجاه النظرى فى البحث والذى نحاول من خلاله استخراج المعلومات النظرية التى وردت فى بطون أمهات كتب التراث الإسلامى، والتى تضمنتها الوثائق المخطوطة، وهى المعلومات التى تؤكد جوانب الأسس النظرية لنظرية الوظيفية، وهو أمر أنكره الكتاب المحدثون عن "نظرية الوظيفية" وتفاخروا أنهم أول من دون هذه النظرية ودرسوها وناقشوها وتعتبر مؤلفات التراث الإسلامى في علم الإجتماع السياسى من أهم هذه المصادر وهى مؤلفات تتعرض بالدراسة للظواهر الإجتماعية والسياسية والأخلاقية التى كانت داخل المجتمع الإسلامى على مر العصور وتضمنت بين فصولها وأبوابها بابا مهما يتصل "بالعمارة والعمران" ونظرياته المختلفة، وإذا كانت المؤلفان فى هذا المجال سلسلة طويلة متصلة الحلقات، وظهر من علمائها المسعودى والغزالى والماوردى، وبلغ أوج الشهرة أبن خلدون الذى يعتبر رائد الإجتماع الأول، والذى تغنى شهرته عن الحديث عنه، فإن ما كتبه إبن الأزرق، فى هذا المجال فى كتابه "بدائع السلك فى أخبار الملك"، يعتبر من الأهمية بمكان ولذلك آثرت الاعتماد عليه خاصة وأنه استند على مقدمة أبن خلدون وهى لازمة منهجية لمؤلف توفى بعد ابن خلدون بثمانين عاما، كما أنه خطا بالنظريات الإجتماعية السياسية لدى المسلمين خطوات أوسع، ووصل بهذه النظريات إلى مرحلة النضج، ومزج بين نظريات ابن خلدون ونظريات أخرى سياسية وإجتماعية، تستند على اتجاه آخر، يخالف اتجاه ابن خلدون السياسى البحت، وهو علم الأخلاق السياسى، فحاول أن يوفق بين نظريات أبن خلدون ونظريات ابن رضوان والطرطوشى، ثم يعمق هذه الدراسة باعتبار أنه كان فقيها أخلاقيا، ورواية حديث متثبت وقاض من قضاة المسلمين. [1] وأمام هذه الأهمية اعتمدت على هذا المصدر اعتمادا

---

[1] أبن الأزرق. بدائع السلك فى طبائع الملك ص ٦ ت:د على سامى النشار

رئيسيا فى عرض الأسس النظرية لنظرية الوظيفية فى العمارة الإسلامية" وكان فيما كتبه عن العمارة والعمران خير دليل على ان هذه النظرية كانت" تدرس وتناقش وتتبع اتباعا واعيا فى الفكر الإسلامى وزاد من أهمية هذا المصدر أن مؤلفه معاصر للعصر المملوكي ، فقد توفى سنه ٨٩٦هـ سنه م ويعتبر هو وأبن خلدون من أشهر المؤلفين فى هذا المجال فى ذلك العصر .

واستفدت فى هذا المجال أيضا بتلك الشذرات التى وردت فى كتب الأدب مثل عيون الأخبار لأبن قتيبة عبيد الله بن مسلم (ت سنه ٢٧٦ هـ ٨٨١م، فهو كتاب أدب يجمع نتاج العرب ، ووضع فى أبواب كل باب يتعرض لموضوع بعينه ، ويحتوى على سير الملوك ، ومختارات من الآداب وكلام البلغاء ، وقد تعرض فى فصل للبناء تكلم فيه على الدور ، وعرض نصوصا بالغة الأهمية تعكس الإدراك الإسلامى "لنظرية الوظيفية" وتثبت معانى هذه النصوص الأساس المتين لهذه النظرية الذى أخذ يتطور إلى أن بلغ درجة النضج ، فيما أورده أبن الأزرق فى كتابه سابق الذكر ، ومن كتب الأدب الأخرى التى تتضمن نصوصا تتصل بالدراسات الأثرية بصفة عامة لما بها من مادة غنية "كالبيان والتبين" ، و"الحيوان" للجاحظ المتوفى سنه ٢٥٦سنه م والعقد الفريد لابن عبد ربه (سنه٣٢٨هـ م) والأغانى للأصفهانى (سنه ٣٥٦هـ م) . وهذه المصادر الأدبية عموما قيمة المادة ولكن كثيرا ما يرد بها من الشعر ما يصعب تحديد زمن قائله بصورة محددة ، ويجب للمعتمد عليها أن يأخذ فى مواضع اعتباره صفتها الأدبية . كذلك فإن مصادر الحديث والسيرة والفقة تعتبر من المصادر المهمة لإتمام الدراسات الأثرية الإسلامية بصفة عامة وموضوع بحثنا بصفة خاصة فهى تتضمن أحكاما تحدد الوظيفة الحقيقية للمبنى وتضع إطارا أدق لهذه الوظيفية خاصة فيما يتعلق بالمنشآت الدينية مما يكون له تأثير على تخطيط هذه المنشآت. وقد تعددت هذه المصادر وتعددت الشروح الخاصة بها. وأهمها كتب الحديث المعتمدة صحيح البخارى ومسلم ، وسنن الدرامى ، وأبى داوود، وابن ماجد ، والترمذى ، والنسائى ، والمسند لأحمد بن حنبل ، ومن أهم الشروح لكتب الحديث شرح الكرمانى للبخارى ومن كتب السيرة وأقدمها السيرة لأبن أسحق (ت١٥١هـ/م) وسيرة أبن هشام (ت سنه٢١٨هـ). ومن الشروح لكتب السيرة

الروض الأنف للسهيلي (ت سنة ٥٨١هـ) والسيرة الحلبية للحلبي (ت سنه ١٠٤٤ هـ) وهذه الكتب مع المصادر الفقهية للمذاهب الأربعة وما يصدر عن علماء المسلمين من فتاوى ، وما يقدمه بعض الباحثين في دراسات تتخصص في موضوع بذاته أو مشكلة فقهية بعينها تقدم للباحث في مجال الدراسات الأثرية بصفة عامة فائدة كبيرة إذ أن بها ما يعين على تفهم وتفسير كثير من الظواهر المتعلقة بهذه الآثار .

وقد اعتمدت من بين هذه المصادر اعتمادا أساسيا على شرح الكرماني للبخاري ، وسيرة ابن هشام ، ومن كتب الفقه على إحياء علوم الدين للغزالي ، وكتاب شرح مراقي العبودية للنووي ، والجوهرة النيرة لمختصر القدروى والفقة على المذاهب الربعة الذى قامت على إصداره وزارة الأوقاف ، ومن الكتب التى تعرضت لموضوع بذاته إعتمدت على كتاب "إحياء القبور من أدلة أستحباب بناء المساجد والقباب على القبور" لإبراهيم السقا ، وكتاب "المنهل العذب لكل وارد في بيان فضل عمارة المساجد" ، وشرح ابن إسماعيل على الرسالة المسماه "تعليم المُتعلم طرق التعلم للزرنوجى" .

وقد تخيرت هذه المجموعة من المراجع لما بها من معلومات قيمة تتصل بموضوع بحثى فقد وجدت بكتب الحديث والسيرة معلومات عن الأساس المتين الذى قام عليه التدريس والتصوف الإسلامى خاصة وأن السنة المصدر الثانى من مصادر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى ووجدت فيها كثيرا من النصوص التى توصل ما يذكره الفقهاء في كتب الفقه عند التعرض لمسائل الفقه المختلفة . ووجدت في كتب الفقه المختلفة وشروحها مادة رائعة تفسر كثيرا من الظواهر المعمارية بالعمارة الدينية المملوكية . فيتعرض مثلا كتاب شرح مراقى العبودية للنووى والجوهرة النيرة لمختصر القدروى للوضوء وشروط الماء وعرضت لفرعيات كان لاتباعها أثر كبير في اتخاذ الميضأة تخطيطا معينا ، كذلك تعرضت إلى طرق التعبد والعمل والعلم وهو أمر إنعكس على المنشآت الدينية بصفة خاصة والحياة فيها .

ومن أروع المصادر في ذلك والتى أمدتنا بمعلومات كثيرة وافية كتب أبى حامد الغزالى وأهمها أحياء علوم الدين وبداية النهاية الذى قام بشرحه

محمد نووى الحاوى ، والرسالة المسماه بتعليم المتعلم طرق التعلم للزرنوجي وشرح ابن إسماعيل لها ، ومن خلال ماورد فيها من معلومات أمكن تصور إطار الحياة العلمية والدينية الإسلامية.

أما كتاب المنهل العذب لكل وارد فى بيان فضل المساجد فهذا الكتاب على صغر حجمه إلا أنه يتعرض بالشرح التفصيلى للآية الكريمة "إنما يعمر مساجد الله...." والتى كانت الأساس المتين لعمارة دينية إسلامية مزدهرة ، ولعل فى المقابلة بين ماورد فى هذا الكتاب وبين إحدى وثائق الوقف المملوكى ما يشير إلى تطابق المعانى والأفكار ، ويؤكد أن العمارة الدينية المملوكية تعكس التطبيق الحرفى للماليك فى فهم الدين الإسلامى وهو كتاب يحدد مؤلفه الأحكام الفقهية التى تؤثر على تخطيط المسجد ومواد بنائه والنشاط الدينى داخله أى أنه يتعرض لتخطيط ووظيفة المسجد من وجهة النظر الفقهية بصورة متكاملة، كذلك فإن كتاب إحياء المقبور من أدلة أستحباب بناء المساجد والقباب على القبور وعرض مؤلفه لمناقشات الفقهاء وآرائهم فى ذلك ومحاولة إثبات هذه القضية بالأدلة المختلفة كان معينا كبيرا بالنسبة لى خاصة وأن منشآت المماليك الدينية لا تكاد تخلو واحدة منها من ضريح أو قبة ، وقد وجدت فى هذا الكتاب ما يعين على تفسير تخطيطات العمائر المملوكية المركبة التى اشتملت على مدرسة وخانقاة ومسجد، وتأدية المنشآت الدينية المملوكية لأكثر من وظيفة. وقد إعتمدت على هذه المصادر من حيث أنها من متخصصين فى هذا المجال ولهم الكلمة الأولى فيه ، وتناولت أكثر هذه المصادر سهولة وتناولا وجمعت بين الأصول والشروح قدر الإمكان.

وقد اعتمدت بجانب هذه الكتب الفقهية السنية ، على مجموعة من المصادر التى تتعرض للتصوف الإسلامى باعتباره مؤثرا كبيرا من المؤثرات التى ساهمت فى النشاط الدينى الإسلامى. ولأن من المنشآت الدينية ما هو خاص بالمتصوفه أهل التصوف ، ومن بين هذه المصادر كتاب كشف المحجوب للهجويرى ، وعارف العوارف السهروردى ، والرسالة للقشيرى ، وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ، ونفحات الأنس لعبد الرحمن الجامى ، وقد وجدت بهذه المصادر من المادة العلمية ما أعاننى على تتبع حركة التصوف وحياة المتصوفة حتى أصبحوا كيانا تنشأ لهم المنشآت

الخاصة بهم والتى تطورت بعد ذلك وتداخلت وظائفها مع المنشآت الدينية الأخرى وخاصة فى العصر المملوكى والتى وصل التصوف فيه إلى درجة نقدها. المعاصرون أمثال الجوزى فى كتابه تبليس إبليس والمقريزى فى خططه ، وفى هذه المصادر من المعلومات ما يلقى الضوء على الخانقاة والرباط والزواية وتطور وظيفة كل منها وهو أمر أفادنى كثيرا فى التعرف على تطور وظيفة هذه المنشآت.

وقد كان لكتابات المؤلفين المحدثين فى هذا المجال أثرها على تفهم ما جاء بهذه المصادر مثل أبو العلا عفيفى ، وإبراهيم بسيونى وتوفيق الطويل وإسعاد عبد الهادى قنديل ، ومن المستشرقين نيكلسون.. وإذا كانت هذه المصادر أمدتنى بمعلومات للتعرف على وظيفة المنشآت الدينية قبل العصر المملوكى ونشأتها بصفة خاصة فإن وثائق الوقف المملوكية بما تضمنته من وصف دقيق للمنشآت الدينية ، وبما ذكرته من نصوص تحدد وظيفة كل وحدة من وحدات المبنى عند ذكر وصف هذه المنشآت ثم ما تذكره الوثيقة عن موظفى هذه المنشآت وتحديد المهام التى يقوم بها كل من هؤلاء ، ثم ما يضعه الواقف من شروط عامة تعتبر كاللائحة الداخلية لهذه المنشآت وتعمل بها من واقع هذه الشروط. كانت المصدر الرئيسى فى التعرض لوظيفة المنشآت الدينية المملوكية ، وقد تنوعت هذه الوثائق فبعضها لسلاطين وبعضها لأمراء وبعضها الآخر لقضاة وغيرهم وهذا التنوع والإختلاف كان مصدر إثراء للمعلومات فكانت جميعها هامة بغض النظر عن كونها لسلطان أو أحد عامة الشعب. وإذا كانت الوثائق من هذه الوجهة أفادتنى إفادة كبيرة ، فإنها تعتبر مصدرا غنيا لموضوعات العمارة والحرف والصنائع الإسلامية الأخرى لما تشتمل عليها من نوعيات العمارة المختلفة ، وما تكشف عنه من تطور تخطيطاتها ومصطلحاتها ووظائفها ، هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن تلقيه من ضوء على دراسة العملة والنقد وقيمه من عصر إلى آخر والخلاصة أن هذه الوثائق مرآة واضحة تعكس الحياة فى العصر المملوكى فى جوانبها المختلفة فهى لذلك تهم دارس الآثار والتاريخ والاجتماع والقضاء والاقتصاد والجغرافية وغيرها.

ونوعية أخرى من المصادر التى أعتمدت عليها فى هذا البحث كتب الحسبة والتى وجدت بها مادة ثرية عن الصنائع والحرف التى تتصل بالعمارة والتشييد ، وبالوظائف الأخرى التى تتصل بالمنشآت الدينية. ومن أهم المصادر التى أعتمدت عليها الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى ، وكتاب "معالم القربة فى أحكام الحسبة" لمحمد بن محمدين أحمد القرشى (٦٤٨-٧٢٩هـ ١٢٥٠-١٣٢٩م) الذىعرف بإبن الأخوة ، وقد حددت هذه المصادر الشروط الدقيقة لكل صناعة وحرفة وكيفية الإشراف الدقيق على هذه الصنائع مما كان له فضل رئيسى فى الإتقان والمتانة والمنفعة والإقتصاد والجمال وهى شروط يجب توافرها فى المبنى لكى يؤدى وظيفته على خير وجه ، وقد أفادت المعلومات التى وجدتها بهذه النوعية من المصادر فى التعرف على المواد وكيفية التنفيذ وهو أمر ضرورى للتعرف على طريقة الإنشاء التى تتصل اتصالا مباشرا بوظيفة "المبنى وربما تؤثر على تخطيطه ، والغاية مما ورد فى هذه المصادر تعتبر من الأسس النظرية "لنظرية الوظيفية" بصفة عامة. وقد أفادنى إلى جانب هذه المصادر كتاب معيد النعم ومبيد النقم "للسبكى الذى تعرض فيه لمختلف الوظائف الهامة فى الدولة ، وتحديد مهام كل وظيفة بما يلقى الضوء على وظيفة المنشآت وقد اعتمدت عليه اعتمادا رئيسيا هو وكتاب أبن الأخوة فى هذا المجال.

وإذا كنت قد إعتمدت على هذه المراجع لاتصالها مباشرة بمضمون البحث وعرضت لها من هذه الوجهة ، فإن ما اعتمدت عليه من مصادر أخرى تاريخية وجغرافية وأدبية ، وما تناولته يدى من كتب التراجم وغيرها كان له أثر كبير فى استكمال بعض ما ذكرته المؤلفات السابقة.

فمن المصادر التاريخية السلوك للمقريزى ، والنجوم لابن تغرى بردى، وإنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر ، وعقد الجمان للعينى ، ونزهة النفوس للصيرفى ، وبدائع الزهور لابن إياس ، وهذه المصادر تتضمن فى ثناياها نصوصا تتعلق بالمنشآت التى يبنيها السلاطين والأمراء وغيرهم ، وتواريخ إنشائها ، ومراسم الإحتفالات الخاصة بافتتاحها خاصة منشآت السلاطين والأمراء ، والمشرفين على عمارتها ، وأحيانا ما يعين بها من موظفين ، وقد تتضمن بالنقد الخفيف لعمارتها وكلها معلومات أفادتنى كثيرا

فى إلقاء الضوء على المنشآت الدينية فى عصر المماليك خاصة وأن هؤلاء المؤرخين معاصرون لهذا العصر ، فهم ينقلون الأخبار "ساخنة" لذلك لم تتضارب أقوالهم إلا فى القليل النادر . وقد انعكس فى كتابات هؤلاء أحيانا شخصية كل منهم فالمقريزى ساخط على بعض السلاطين والأمراء لأنه لم يجد مكانته عندهم وأبن تغرى بردى يعرف الأمور السياسية الهامة بحكم قربة من السلطان وإقامته بالقلعة فوالده أحد أمراء المماليك ، وأبن حجر مال بالتركيز على أخبار القضاة فهو أحدهم ، والصيرفى مال للحديث فيما يتصل بالعملة والنقد أكثر من أى شىء أخر ، وابن اياس يكمل حلقة هؤلاء السابقين له فهو آخرهم وأكثر من الخطأ فى تواريخ المنشآت السابقة على عهده، ولكنه يعتبر المصدر الأساسى لفترة نهاية العصر المملوكى. وإذا كانت هذه المصادر تتعرض أثناء ذكرها الأحداث للمنشآت الهامة فإن ما جاء بالمصادر المختلفة بتاريخ المدن ما يعد معينا كاملا.فى هذا المجال ، فقد إهتم للمؤرخين المسلمون بكتابة تاريخ المدن واتجهت هذه الكتابة اتجاهين : اتجاه يهتم بخطط المدينة وتاريخها السياسى من غير عناية برجالها أو من ورد إليها من العلماء والأدباء والمحدثين.. والاتجاه الثانى يسعى لذكر تراجم هؤلاء الذين أغفلهم كتاب النوع الأول. ويحسن هنا أن أشير إلى أننى اعتمدت على النوعيتين من المصادر فكانت خطط المقريزى أهم المصادر التى إعتمدت عليها بالنسبة للنوعية الأولى خاصة وأنه يتعرض للقاهرة وهو عمدة المؤرخين لها وأجدنى فى غنى عن أن أتعرض لما جاء بها وما استفدته منه فهو كله إفادة لدارس الآثار والتاريخ ولكن حسبى أن أعترف بأننى وجدت فيه مرشدا وعونا لتحقيق نقاط بحثى المتعلقة بالوظيفية فهو قبل أن يتكلم عن المدارس مثلا يعرفها ويعرف وظيفتها ونشأتها وتطورها ، بالإضافة إلى أنه يذكر من أخبار المنشآة ما يلقى الضوء على ظروف إنشائها وما تعرض لها من حوادث ، ومن خلال هذا وذاك تكتمل صورة المنشأة تاريخيا وأثريا ومعماريا وفى هذا الكفاية، ومن مصادر النوع الثانى كتاب تاريخ مدينة السلام بغداد للحافظ أبى عبد الله محمد بن سعيد بأبن الدبيثى ، (٥٥٨-٦٣٧هـ ١١٦٣ - ١٢٣٩م) والذى يتعرض فيه لتراجم علماء وأدباء هذه المدينة ، فقد كان أهتمامى بهذا المصدر لأن بها مادة علمية تفيدنى فى التعرف على

الحركة العلمية الإسلامية حتى هذا العهد الذى كان يعاصره وهو القرن ٦-٧هـ، ١٢ - ١٣م وخاصة فى الشرق من واقع التراجم التى وردت بهذا الكتاب للعلماء والأدباء، ويشكل هذا المصدر حلقة وصل بين تاريخ المدن وكتب التراجم والطبقات والأنساب التى اعتمدت عليها ومن هذه النوعية المختلفة والعديدة طبقات أبن سعد (ت٢٣٠هـ سنه ٨٤٥م) ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، والوافى بالوفيات للصفدى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، والدرر الكامنة لابن حجر ، والضوء اللامع للسخاوى، والمنهل الصافى لإبن تغرى بردى والطبقات للشعرانى فان هذه المصادر بما تتضمنه من تراجم تثرى بكثير من المعلومات التى أفادتنى فى هذا البحث وأخص منها الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لأبن حجر ، والمنهل الصافى لأبن تغرى بردى ، والضوء اللامع للسخاوى، والطبقات للشعرانى وهذا الأخير يعتبر من أهم مصادرى من كتب التراجم فقد ترجم لعديد من موظفى المنشآت الدينية ومن خلال هذه التراجم والمعلومات التى تحتويها إستفدت فى التعرف على الحياة الوظيفية للمنشآت الدينية فى العصر المملوكى خاصة فى فترة إزدهاره ، بالإضافة إلى ما تتضمنه التراجم عن بعض الشخصيات والوظائف الهامة التى تتصل بموضوع البحث كتراجم بعض المهندسين الذين نالوا شهرة كبيرة فى ذلك العصر، وتأتى أهمية هذا المصدر من أن صاحبه اعتمد على ما سبقه من كتب فى هذا المجال بالإضافة إلى ما كان يعلمه، علاوة على أنه غطى فترة هامة من فترات العصر المملوكى كانت قد تبلورت فيها وظائف المنشآت الدينية فى ذلك العصر.

كذلك تعتبر كتب المزارات من المصادر المهمة التى اعتمدت عليها فى هذا البحث وقد اعتمدت من بينها على تحفة الأحباب وبغية الطلاب للسخاوى باعتباره أهم هذه المصادر المعاصرة والذى تعرض فيه المؤلف لمزارات القاهرة محددا مواقعها وذاكرا كثيرا من المعلومات التاريخية الهامة المتعلقة بهذه المزارات وقد كان أحد مصادرى الهامة فى التعرف على الزاوية ووظيفتها إلى حد كبير.

هذا بالإضافة إلى كتب الرحالة ومنها رحلة ناصرى خسرو (ت

سنه٤٨١هـ) وعبد اللطيف البغدادى فى زيارته ورحلة أبن بطوطه (ت٧٧٩هـ لمصر ، وهذه الكتب تضمنت معلومات هامة بالنسبة لموضوع البحث وهى معلومات لها صفة خاصة فهى من غرباء أتوا إلى مصر يشهدون بآثارها من واقع ما عاشوه فى بلادهم ، ولذلك نأخذ فى الاعتبار اختلاف المصطلحات والتسميات التى قد تطلق على المنشآت فكل يستعمل لغة بلده ومسمياتها فأهل العراق يطلقون على مسمى الخانقاه فى مصر "الرباط" وأهل المغرب يطلقون عليها "الزاوية" ونأخذ فى الاعتبار أيضا رؤية هؤلاء العابرة المشدوهة بكل جديد ، ولكن وردت فى هذه المصادر ككتاب عبد اللطيف البغدادى مادة مهمة فيما يتعلق بالإنشاء والتخطيط والعمارة لها أهميتها ويمكن الاعتماد عليها لأنها تدل على خبرة فهى ليست مجرد مشاهدة رحالة.

كذلك فإن من الرسائل الصغيرة المتعلقة بموضوع البحث والتى تتصل به رسالة عن "الباذاهنج" لابن رجب وهى تختص بعنصر معمارى إنتشر فى العمارة المملوكية ومن قبلها فى المنشآت الإسلامية كعنصر من عناصر التهوية وهو يتحدث عن الأسس الهندسية لإنشاء الباذاهنج وتعتبر هذه وغيرها من الرسائل الصغيرة التى تتعرض لموضوعات تخصصية بعينها من المصادر التى يجب أن تنال رعاية المحققين والناشرين ، والدارسين لما تشتمل عليه من معلومات تفصيلية لموضوعات تغفل عنها المصادر الكبيرة ولعل فى رسالة أبى حامد المقدسى الشافعى أحد علماء القرن ٩هـ/ ١٥م المسماة كتاب الفوايد النفسية الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة. والتى ألفها بسبب بإصلاح شوارع القاهرة وما أثير حوله من أحداث. وقد تعرض فيها بالوصف لشارع ما بين القصرين وما به من أثار وما يتعلق بها من أخبار ، ثم تعرض للحكم الفقهى حول أصلاح شوارع القاهرة وهدم بعض المبانى والحوانيت مثال جيد لهذه الكتب الصغيرة أو الرسائل التى تتنوع وتختلف حسب موضوعاتها والتىتعتبر هى والمصادر التاريخية والوثائقية مصادر مهمة للبحث فى الآثار والتاريخ وغيرها.

ودراسة التطبيق العملى لنظرية الوظيفية فى العمارة الدينية القائمة بمدينة القاهرة التى كانت حاضرة المماليك ، والتى تشتمل على أمثلة لم تتوافر لغيرها من المدن الإسلامية فى أى عصر من عصور ، يمثل الاتجاه الثانى

فى هذا البحث ، وهو لا ينفصل عن الاتجاه الأول بل هو ملازم له ، فهو يستند على البحث التاريخى والأثرى من واقع المصادر السابقة ، وتحليل المبانى تحليلا معماريا يرقى عن مستوى التسجيل لنبين كفاءة ومقدرة المعمر الإسلامى ونظرياته ولاشك أن التحليل المعمارى لعناصر المبنى سواء كانت عناصر أنتفاع أو خدمة ، أو تهوية وإضاءة ، أو انتقال وحركة أو وقاية أو عناصر جمالية وغيرها ، هو السبيل الصحيح للتعرف على ذلك وإثبات النظريات التى كان يعمل بها المعمار الإسلامى. وهذه الدراسة تتطلب جهدا خاصا ولكن ما سبقها من دراسات وصفية تسجيلية يوفر بعض الجهد وليس الجهد كله خاصة وأن الدراسات التسجيلية السابقة لعدد كبير من الآثار المملوكية لم يقم منهجها على المحور الرئيس الأساس وهو المحور الوظيفى لهذه المنشآت. لذلك فإن إجراء هذه الدراسة يستدعى تسجيل هذا الآثار أولا من هذا المنطلق ثم تحليله فى ضوء ما ذكرناه من عناصر التحليل فى إطار يبرز تطبيق الأساس النظرى للوظيفية لدى المعمار الإسلامى فى العصر المملوكى.

ولذلك رأيت أن يقسم البحث إلى قسمين القسم الأول ويشتمل الدراسة النظرية والقسم الثانى يشتمل على الدراسة التحليلية التى تكشف عن التطبيق الفعلى للأسس النظرية. ويشتمل القسم الأول على ثلاثة أبواب متكاملة.

أما الباب الأول فيعتبر المدخل إلى هذه الدراسة ونتتبع فيه نشأة ووظيفة كل نوعية من نوعيات المنشآت الدينية وتطورها حتى نهاية العصر الأيوبى ، وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول لدراسة منشآت الصلاة والتصوف على الترتيب.

والباب الثانى نعرض فيه لدراسة وظائف المنشآت الدينية فى العصر المملوكى والظواهر المتعلقة بها ، وينقسم هذا الباب إلى أربعة فصول ، يتعرض الباب الأول منها لدراسة ظاهرة كثرة المنشآت الدينية فى العصر المملوكى وعلاقة ذلك بوظائفها أما الأبواب الثلاثة الأخرى فلدراسة وظائف المنشآت الدينية المملوكية بنوعياتها المختلفة سواء منشآت التدريس أو التصوف أو الصلاة على التوالى التى نبرز فيها ما توصلنا إليه من نتائج تحدد مضمون نظرية الوظيفية فى العمارة الدينية المملوكية بمدينة القاهرة.

والباب الثالث ينقسم إلى فصلين أولهما يتعرض لنظرية الوظيفية فى مصادر التراث الإسلامى بإيجاز شديد - لتأصيل هذه النظرية ، والفصل الثانى يتعرض لإبراز دور المعمار الإسلامى بصفة عامة والمملوكى بصفة "خاصة" باعتباره مهندسا يخطط المبانى ويقوم على تنفيذها من واقع علمى مدروس ، وليس مجرد بناء يقوم بتشييد المبانى حسبما اتفق .

أما القسم الثانى فيشتمل على الدراسة التحليلية للعمائر الدينية المملوكية "الباقية" ، وتقع هذه الدراسة في الباب الرابع الذى يشتمل على ستة فصول لدراسة عناصر الانتفاع وعناصر الاتصال والحركة وعناصر الخدمة وعناصر الوقاية وعناصر التهوية والإضاءة وعناصر الإنشاء على التوالى .

وفى الخاتمة عرضت للنتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة لنظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة .

"الباب الأول"

" وظيفة المنشآت الدينية قبل العصر المملوكى نشأتها وتطورها "

"مبانى الصلاة"

تعتبر الصلاة من أهم أركان الدين الإسلامى ، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، والصلاة هى صلة العبد بربه ، والصلاة بهذا المعنى سابقة على الإسلام ولكن الصلاة الإسلامية التى فرضها الله على المسلمين فى ليلة الإسراء والمعراج تختلف عن الصلوات السابقة على الإسلام فى مواعيدها ونظامها ، فالصلاة المفروضة الواجبة خمس صلوات فى اليوم تؤدى بطريقة وحركات لم نجدها فى غيرها من الصلوات ، وكانت حاجة المسلمين إلى أماكن إقامة هذه الصلاة ملحة فأنشئت المساجد لهذا الغرض ولكى تكون ملتقى للعشيرة الإسلامية. [1]

وقد مدح القرآن الكريم عُمَّارها فقال "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الأخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين [2] "ورغبنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى عمارتها فقال "من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة [3]" وكانت هذه الآية وهذا الحديث الأساس الذى دعى المسلمين إلى التسابق إلى عمارة بيوت الله ، وقال المفسرون فى تفسير الآية الكريمة "إعلم أن عمارة المساجد تعم أنواعها منها بناؤها ورمها أى إصلاح ما إنهدم منها ، ومنها قمها أى كنسها وتنظيفها ومنها تزيينها بالفرش ونحوها ، ومنها تعليق القناديل بها سرجها فيها ، ومنها إحترامها وصيانتها عن القاذورات ونحوها مم لم تبن له كالكلام الدنيوى ومنها لزومها وكثرة إتيانها. [4]

كذلك تعددت أحاديث رسول الله (ﷺ) فى فضل العمارة المساجد فقال "من بنى لله مسجدا قال بكير : حسبت أنه قال يبتغى به وجه الله بنى الله له

---

[1] كونل. الفن الإسلامى ص ٦

[2] قرآن كريم سورة التوبة آيه رقم ١٨

[3] الكرمانى (شرح البخارى جـ٤ ص ١١٠ وما بعدها)

[4] إبراهيم السقا. المنهل العذب لكل وارد فى بيان فضل عمارة المساجد ،المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم ص٥

مثله في الجنة"[1] وقوله "من بنى مسجدا بنى الله له سبعين قصرا فى الجنة[2]، وفى الحديث الصحيح سبع يجرى للعبد أجورهن بعد موته إلى أن قال: أو بنى لله مسجدا . وكذلك كان الصحابة من الدعاة إلى ذلك فقال عليٌ كرم الله وجهه: ست من المروآت ثلاث فى الحضر وثلاث فى السفر ، فأما اللآتى فى الحضر ، فتلاوة كتاب الله وعمارة مسجد الله واتخاذ الإخوان فى الله[3] كذلك إمتدت الدعوة إلى الجماعات لبناء المساجد وجعلت أجر كل واحد فى الجماعة الذين اشتركوا فى بناء المسجد كأجر الذين يبنى مسجدا بذاته ، فقد قال أبن العماد فى كتابه تسهيل المقاصد إن الله تعالى يبنى لكل واحد من الشركاء فى بناء المسجد بيتا فى الجنة ، كما إذا اشتركوا فى عتق رقبة فإنهم يعتقون من النار ، ولاشك أن من أصلح ما انهدم منها مشارك الأول فى بنائها . [4]

وضرب رسول الله (ﷺ) البيان العملى على ذلك فشارك بنفسه فى بنائها ، فقد ذكر الخطابى عن الشموش النعمانى قالت : كان رسول الله (ﷺ) حين بنى مسجده يأتى الحجر قد صهره إلى بطنه فيضعه "فيأتى الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره .[5] وكان ذلك بعد أن أخذ أرضه من بنى النجار برضائهم ومهد الموقع للبناء، فقد كان فى الموقع نخل وقبور للمشركين وخرب ، فأمر بالنخل فقطع وبقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت وصفوا النخل قبلة وجعلوا عضاديته من حجارة[6] هذا يعنى أن الرسول كان المخطط والمنفذ الأول لبناء المسجد فى الإسلام . وكان يشجع من يعمل معه فى بنائه أمثال عمار الذى كان يحمل ضعف ما يحمل أمثاله من الأخرين ، فقال له النبى للناس أجر ولك أجران .[7]

ومن هنا انطلق المسلمون عملا بالآية الكريمة ومعانيها وما وجدوا

---

[1] الكرمانى . شرح البخارى جـ٤ ص ١١٠

[2] لاينافى هذا قوله الأول "بنى له بيتا فى الجنة" لأن الإخبار بالأقل لا ينافى الإخبار بالأكثر ، كما أن البيت فيه عبارة عما أشتمل على تلك القصور المرجع نفسه ص ٥،٦

[3] المرجع السابق ص ٧

[4] المرجع نفسه ص ٧

[5] أبن فضل الله العمرى . مسالك الأبصار فى ممالك الأنصار جـ١ ص ١٢٨

[6] بن فضل الله العمرى . مسالك الأبصار جـ١ ص ١٢٤

[7] المرجع نفسه جـ١ ص١٢٥ . الكرمانى شرح صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٠٦

فى سنة رسول الله (ﷺ) قولا وفعلا لبناء المساجد وعمارتها وتتعلق تسمية المسجد بوظيفته فيقول ابن سيده : إن المسجد الموضع الذى يسجد فيه، وقال "كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد ، الا ترى النبى (ﷺ) قال "جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا" وقوله عز وجل "ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها أسمه" والمعنى هذا المذهب أنه من أظلم ممن خالف قبلة الإسلام، وقال سيبويه : وأما المسجد فإنهم جعلوا اسما للبيت، ولم يأت على فعل يفعل كمخزن ومكبس ومكسح ، والمسجد الجمرة المسجود عليها ، وقوله تعالى : إن المساجد لله" قيل هى مواضع السجود من الإنسان الجبهة واليدان والركبتان والرجلان "وكان حكمة ألا يجيء على مفعل لأن اسم المكان والمصدر من فعل يفعل أن يجيء على مفعل ولكنه أحد الحروف التى شذت فجاء على مفعل [1]"

وقد بدأت المساجد الأولى بسيطة فى تخطيطها وتنفيذ إنشائها ثم تطورت تخطيطاتها بتطور الوظائف التى تؤديها ، وارتقت أساليب إنشائها بارتقاء تطور فن العمارة لدى المسلمين.

وقد كان أمر الله إلى رسوله فى ليلة النصف من شعبان سنه ٢هـ/٦٢٣م بأن يغير قبلته من المسجد الأقصى ببيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة المكرمة فى قوله تعالى : قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره[2]" وهذايعنى أن تحويل القبلة حسب هذا الأمر السماوى كان أول سبب فى تعديل تخطيط المسجد بحيث تكون قبلته تجاه مكة ، ولبى النبى أمر ربه فبنى سقيفة أخرى تجاه الكعبة جعل بجدارها محرابا فى هذا الاتجاه فأصبح المسجد يتكون من سقفتين ، ثم استلزم ازدياد عدد المسلمين وحاجاتهم إلى المسجد أن يتسع لهم، وما تبع ذلك من تطور فى البناء والعمارة أن سقف الجانبين، فأصبح المسجد يتكون من ظلات أربع يتوسطها صحن مكشوف

---

[1] المقريزى، خطط جـ٢ ص ٤٠٧-٤٠٨

[2] قرآن كريم سورة البقرة آية رقم ١٩٩

فظهر تخطيط المسجد الإسلامى.[1] وهو تخطيط ساد العالم الإسلامى وظل هو التخطيط الشائع – لصلاحيته – حتى نهاية عصر المماليك. إلى أن أدخل الأتراك تخطيطات أخرى.

وألحقت بهذا التخطيط كثير من الوحدادت المعمارية والأثاث المتعلق بالمسجد ووظائفه وأصبحت من مميزاته ومن الأشياء الدالة عليه ، كالمئذنة والمنبر ودكة المبلغ وكرسى المصحف وغيرها ، فى مراحل مختلفة تبعا لحاجة المسلمين إليها.

وإذا كنا نتكلم عن تخطيط المسجد ، فلا بد من الإشارة التى تلك الأحكام الفقهية التى تتصل بهذا التخطيط ، وتحديد الإطار الذى يحكم أفكار المعمار الإسلامى عند تخطيطه للمسجد.

وتسير هذه الأحكام فى تسلل منطقى لتبين لنا الأحكام الصحيحة الواجبة سواء بالنسبة للواقع أو التخطيط ، أو التنفيذ والإنشاء. وبالنسبة للموقع فإن هذه الأحكام الفقهية تجيز بناء المسجد على أى بقعه من الأرض استنادا إلى قول رسول الله (ﷺ) جعلت لى الأرض مسجدا طهورا "كما أجاز الفقهاء بناء المساجد فى موضع قبور المشركين إستنادا إلى ما فعله الرسول بناء مسجده[2]، كذلك أجاز الفقهاء بناء المسجد ولو فى موضع كنيسة ، ولذلك لم يجد المسلمون غضاضة فى أن يحولوا كثيرا من الكنائس إلى مساجد أو أن يدخلوا بعضها فى مساحة المسجد كما حدث بالنسبة للجامع الأموى فى دمشق[3] ولكن لم تجز الأحكام الفقهية بناء المسجد على أرض مغتصبة ، بل لابد أن يكون البناء على أرض غير مغتصبة مأخوذة – إن أخذت – برضاء أصحابها بالهبة[4] أو بالبيع أو بالاستبدال ، كما حدث فى عصر المماليك.

ومن الأحكام الفقهية المتعلقة بتخطيط المسجد ما ذكر عن مالك من أنه كره "أن يبنى مسجدا وتتخذ بيوته مسكنا فيه" وفى فتاوى البغوى منع مكث

---

[1] أرنست كونل. الفن الإسلامى ص ٤-٦

[2] أبن فضل الله العمرى. مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار جـ١ ص ١٢٤

[3] د. فريد شافعى. العمارة العربية فى عصر الولاة جـ١ ص١٥٠

[4] أبن فضل الله العمرى. المرجع نفسه ص ١٢٨

الجنب فى هذه المساكن لأنها فى هواء المسجد"[1] وكان لذلك أثره على تخطيط المنشآت الدينية التى حوت مساكن لموظفيها كالمدارس والخنقاوات والربط والزوايا والترب وغيرها فحاول المعمار قدر الإمكان أن يعزل بيوت السكن عن موضع المسجد فى هذه المنشآت حتى أنه فى هذه المنشآت يمكن فصل المسجد عن المساكن دونما أى مساس يسىء إلى التخطيط العام للمنشأة.

ومن هذه الأحكام أنه يجوز فتح الخوخة والممر فى المسجد فقد كان مسجد رسول الله (ﷺ) متصل بحجرات زوجاته الملاصقة للمسجد[2] وفى البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله (ﷺ) خطب : فقال إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله ، فكان رسول الله (ﷺ) هو العبد ، وكان أبو بكر أعلمنا فقال يا أبا بكر لأنك آمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا من أمتى لأتخذن أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته لايبقين فى المسجد باب إلاسد إلا باب أبى بكر[3]" وكذلك كان أمر عمر بن الخطاب لعامله على البصرة أن يبنى بيت المال ملاصقا لحائط القبلة فى المسجدُ بعد ماتعرض للسرقة. وقد كان لكل هذا أثره على تخطيط المساجد بعد ذلك خاصة تلك التى تلحق بها أو تتصل بمساكن خاصة أو مسكن الوالى والأمير وقد حدث هذا فى المساجد الإسلامية الأولى كمسجد عمرو ، ومسجد ابن طولون والمسجد الكبير ببغداد ، ثم اختفت هذه الظاهرة وعادت لتظهر من جديد فى العصر المملوكى فقد ألحقت بالمنشآت الدينية وحدات سكنية خاصة وهذا يستمد شرعيته من هذا الحكم الفقهى.

ومن هذه الأحكام ما يتعلق بأبواب المساجد ، فقد قال أبن بطال يجب اتخاذ الأبواب للمساجد لتصان وتنزه عما لا يصلح فيها من غير الطاقات وفى صحيح البخارى قال ابن أبى مليكه لابن جريج : لو رأيت مساجد بنى عباس وأبوابها ، أى لرأيت عجبا وحسنا لاتقانها فحذف الجواب ، وفيه أيضا من

---

[1] إبراهيم السقا. المنهل العذب لكل وارد فى بيان فضل عمارة المساجد ص ٨

[2] أبن فضل الله العمرى . مسالك الأبصار جـ١ ص ١٢٦-١٢٧

[3] إبراهيم السقا. المرجع السابق ص ٩-١٠ الكرمانى. شرح صحيح البخارى جـ٤ ص ١٢٦-١٢٧

حديث أبى عمر أنه (ﷺ) فتح الباب ودخل الكعبة ، وفى هذا دليل على جواز غلق باب المسجد فى وقت الصلاة ، وخالف فى ذلك أبو حنيفة ومنع من غلقها بحال قال الصيمرى فى الكفاية وفعله فى شرح الروض وأقره وفى بعض كتب الحنفية يكره غلق باب المسجد فى أى وقت كان لقوله "ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه" وخولف فى ذلك فقيل كان هذا فى زمان السلف الصالح ، أما فى زماننا هذا وقد كثرت الخيانات فلا بأس إغلاقه إحتياطيا لمتاع المسجد وتحرزا ممن يثب على بيوت الجيران منه[1] وقد كان لذلك أثره على تخطيط المساجد من وجوب اشتمالها على مداخل منيعة لإحكام غلقها ، وفى تعيين بوابين عليها لحراستها أثناء الفتح ولإغلاقها والقيام بمهامها وما استوجبه ذلك من إقامة بعض هؤلاء فى المساجد وتوفير حجرات خاصة بهم ضمن ما اشتملت عليه وحدات المنشآت الدينية بالإضافة إلى وجود المكاسل على جانبى الأبواب ليستريح عليها أثناء قيامه بمهمة الحراسة كذلك تلك المصطبة التى تتصدر الدركاوات عادة فى المنشآت المملوكيه الدينية.

وفيما يتعلق بالمحراب نجد ان بعض السلف كره اتخاذ المحاريب المجوفة وفى وصف عبد الرازق عن الحسن أنه صلى واعتزل الطاق ، وقيل كره الصلاة فى طاق المسجد سعيد بن جبير ، والمراد بطاق المسجد المحراب الذى يقف فيه الإمام، وقال الضحاك بن مزاحم أول شرك كان فى أهل الصلاة اتخاذ هذه المحاريب. لكن الجواز بلا كراهية ولم يزل عمل الناس عليه بلا نكير ، وإن كان اتخاذها بدعة[2] وأول من إتخذها عمر بن العزيز أيام أسس مسجد الرسول (ﷺ) لما هدمه وزاد فيه حين كان عامل الوليد بن عبد الملك على المدينة كما ذكره القضاعى فى الخطط وسمى ذاك

---

[1] أبراهيم السقا. المرجع السابق ص ١١-١٢ الكرمانى شرح صحيح البخارى جـ٤ ص ١٣١-١٣٢

[2] لقد ورد فى الأثر أن النبى (ﷺ) عندما بنى مسجده بدأ ببناء محرابه وذكر أن للمحراب عضادتين أى كتفين وهذا يعنى أن المحراب الذى شيده الرسول كان مجوفا فوجود كتفين يعنى إنفصال لأستمرار جدار القبلة يحده كتفى المحراب وهذا الإنفصال سد ببناء على الجانب الخارجى للكتفين. وهو أمر يعنى أن يأخذ المحراب شكلا مجوفا

الطاق محرابا لأنه أشرف بقاع المسجد ن ومنه قيل للقصر محراب لأنه اعظم المنازل ، وقال أحمد بن عبيد المحراب فى الأصل إسم لمجلس الملك وسمى بذلك لإنفراد الملك فيه ، وتباعد الناس عنه ، وسمى محراب المسجد بذلك لإنفراد الإمام فيه ، وقيل سمى بذلك لأن المصلى يحارب فيه الشيطان بطاعة الرحمن [1] والمحراب هو القاعدة الأولى التى تتحكم فى تخطيط المسجد وإتجاه جدرانه ، ومن هنا كان المحراب ينال أهمية خاصة عند البناء. فقد ذكر خيثمة أن رسول الله (ﷺ) حين أسس مسجده كان هوأول من وضع حجرا فى قبلته ، ثم صار أبو بكر بحجر ووضعه ، ثم جاء عمر فوضعه إلى جنب حجر أبى بكر ثم أخذ الناس فى البنيان [2] كذلك كان يراعى بناء المحراب بمادة متينة فإذا كان البناء باللبن جعل المحراب بالحجارة [3] ومن هنا كان اهتمام المعمار الإسلامى بعمل المحراب وتطورت العناية به حسب أساليب البناء فى العصور المختلفة فكانت المحاريب الجصية والحجرية والمكسية بالرخام ، بل وقد صنعت المحاريب الخشبية المستقلة [4] وأصبح المحراب فى المسجد تحفة فنية راقية.

ومن النصوص الفقهية ما يتعلق بالميضأة والمراحيض ، وقد أجازت هذه النصوص "بناء المطاهر بالقرب من المساجد والوضوء منها ، فعن إبراهيم النخعى أنه قال إنهم كانوا يتطهرون من مطاهر المساجد ، وروى فعل ذلك عن على وأبى هريرة رضى الله عنهما [5]"وكان لهذا أثره فى بناء الميضأة والمراحيض خارج المسجد قريبة منه ، بل إن المعمار الإسلامى واءم بين طبيعة اتجاه الرياح فى الموقع وبين إختيار موقع الميضأة قدر الإمكان فكانت عادة – فى مساجد مصر – فى الجهة الجنوبية الغربية من المسجد لتجنب ما لعله ينبعث فى روائح كريهة وكان لشروط الماء والوضوء أثره الكبير على التخطيط التفصيلى للميضأة والمراحيض التى تشملها هذه

---

[1] إبراهيم السقا. المرجع السابق ص ٦

[2] أبن فضل الله العمرى. مسالك الأبصار فى المماليك الأمصار جـ١ ص١٠٧-١٢٤

[3] أبن فضل الله العمرى. مسالك الأبصار فى مماليك الأمصار جـ١ ص ١٠٧-١٢٤

[4] د. فريد شافعى العمارة العربية فى عصر الولاة جـ١ ص

[5] إبراهيم السقا. المنهل العذب لكل وارد فى بيان فضل عمارة المساجد ص ١٦-١٧

المطاهر بما يتناسب وهذه الشروط.

كذلك كان من هذه النصوص ما يتعلق بكراهية " غرس الأشجار وحضر الآبار في المساجد لأنه من فعل السلف ، وبكراهة الغرس جزم فى الروضة وهو وجه ، والصحيح تحريمه لما فيه من التضييق وجلب النجاسات من ذرق الطيور ، وفى فتاوى أبن البرزى قطع العراقيون بمنع الزرع والغرس في المسجد ، وقال الغزالى لا يجوز الزرع ، وقال الرافعى فى كتاب الوقف لا ينبغى أن يغرس فى المسجد شجر لأنه يمنع المصلين ، قال فى الروضة فلو غرس قلعه الأمام ، وكلام الأصحاب فى موجبات الضمان – يجوز الحفر إذا دعت إليه ضرورة ، وقال القاضى حسين لايجوز الغرس فى المسجد ولا الحذر ولا يبنى فيه منارة ولا أن تضرب فيه اللبنات وتوضع فى زواية منه أو يجمع الحشيش فى موضع منه لأن هذه الأشياء تشغل موضع الصلاة والذى يعول عليه ما أفتى به قاضى حماة شرف الدين البارزى ، وهو أنه إذا ضيق غرس الأشجار على المصلين حرم وإن لم يضيق وجعلت للمسجد فلا يحرم لوجود النفع [1] ونجد صدى لذلك لدى المعمار الإسلامى فى تخطيطه للمسجد فجعل بئر الماء خارج الجامع قريبا منه في معظم الأحوال ، كذلك كانت المئذنة متجنبة فى موضعها أن تشغل مساحة من المسجد ، وإذا أراد المنشىء زرع أشجار أو إلحاق بستان بعيدا عن ساحة المسجد مجاورا له ذلك بحيث لا يخالف هذه النصوص ولا يوجد كراهية وهناك من الأمثلة الكثيرة الذى تؤكد ذلك فقد جعل لمسجد القرافة بستان لطيف يقع فى غربه وكذلك كان لجامع البستانى [2] وجامع برسباى بالخانكة بستان مجاور له.

وكان لهذه النصوص صدى فى تخطيط المنشآت الدينية التى تقوم بوظائف مختلفة فعندما ألحقت مكاتب الأيتام أو الأطفال التى تقوم بتحفيظ القرآن وتعليمهم الخط العربى بالمساجد برز صدى هذه النصوص على تخطيط هذه المساجد والمكاتب الملحقة بها ، فعندما سئل القفال عن تعليم

[1] إبراهيم السقا، المرجع نفسه ص ١٧

[2] المقريزى، خطط جـ١ ص ٣٤٤

الصبيان فى المساجد فقال الأغلب عن الصبيان الضرر فيجوز منعهم ، وقال القرطبى منع بعض العلماء من تعليم الصبيان فيه ، ورأوا أنه من باب البيع والشراء فيه وهذا إذا كان بأجر ، أقول لو تبرعا فهو ممنوع أيضا لعدم تحرى الصبيان عن القذر ، فيؤدى إلى عدم تنظيف المساجد ، وقد وردت الأمر بتنظيفها وفى الحديث الصحيح جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم [1]"

وتطبيقا لذلك فقد بدأ تعليم الصبيان فى العهد الإسلامى المبكر – على ما يبدو – فى أماكن منفصلة [2] بعيدة عن المساجد لتجنب ما هو مكروه ، ومن هذه المكاتب المنفصلة "دار القرآن الرشائية" التى أنشئت فى حدود سنة أربعمائة[3] ، ثم بعد ذلك ألحقت هذه المكاتب بالمدارس والمساجد [4] وراعى المعمار الإسلامى ذلك بقدر الإمكان حتى أننا نجد أن المكاتب الملحقة بالمنشآت الدينية شبه مستقلة منعزلة عن أماكن الصلاة، كذلك فإن استمرار وجود أمثلة للمكاتب المستقلة [5] يؤكد الصدى القوى لهذا النص – بكراهية تعليم هؤلاء الصبيان بالمساجد.

وهناك من النصوص ما يتعلق بمواد البناء التى تستخدم عند إنشاء المساجد، فقد قال القاضى أبو الطيب لا يجوز بناء المسجد باللبن المعجون بالماء النجس ويطهر بالغسل ظاهره دون باطنه على المعتمد وصريح قوله لا يجوز الحرمة لكن المعتمد كراهيته ، كما نص عليه الإمام الشافعى فى الأم ، وكذا بل الطين نجس وفرشه فى المسجد[6] وكان لهذا أثره على اختيار مواد الانشاء فلا شك أن بناء المساجد بالحجر أو الآجر يجنب الوقوع فى هذا المكروه بالإضافة إلى أنه يزيد من متانة البناء ، ولذلك ندر وجود مساجد مبنية باللبن وإن وجدت فوجب التحرز عند بنائها الوقوع فيما هو مكروه.

---

[1] إبراهيم السقا، المرجع السابق ص ١٧

[2] نوى، عيون الأخبار جـ٥ ص ١٣١-١٣٤-١٦٦-١٦٧ النعمى الدارس فى أخبار المدارس جـ١ ص ٧-١٧

[3] ناجى معروف تاريخ علماء المستنصرية جـ١ ص ٢٦

[4] ناجى معروف تاريخ علماء المستنصرية جـ١ ص ٢٦

[5] إبراهيم السقا، المرجع السابق ص ٨

[6] إبراهيم السقا، المرجع نفسه ص ٨

وحددت بعض النصوص الشكل الذى يكون عليه البناء ، فقد روى البيهقى عن أنس مرفوعا : إبنوا المساجد واتخذوها جما بضم الجيم وشد الميم قال : أبو عبيد الجم الذى لاشرف له[1] بل أن بعض هذه النصوص تعرضت لزخرفة المسجد ، فقد روى أن إبن مسعود مر بمسجد مزخرف فقال : لعن الله من زخرفه ، وذكر أبو نعيم حديثا مرفوعا اذ ساء عمل قوم زخرفوا مساجدهم ، وقال البغوى فى شرح السنة لا يجوز نقش المسجد بمالا أحكام فيه ، فإن عثمان رضى الله عنه بنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجارة المنقوشة[2] والقصة، وعن أنس يتباهون بها ثم لايعمرونها إلا قليلا، وقال إبن عباس رضى الله عنهما "لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى" واللام فى قوله لتزخرفتها لام القسم والفعل بعدها جواب القسم وقوله كما زخرفت اليهود والنصارى أى بيعهم وكنائسهم حين أضاعوا الدين، وعولوا على الزخارف والتحسين ، وفى صحيح البخارى أن عمر رضى الله عنه أنه أمر ببناء المسجد النبوى وقال للصانع أياك أن تحمر أو تصفر[3] فتفتن الناس، واستنبط من ذلك كراهية زخرفة المساجد لأشتغال قلب المصلى بذلك أو إضاعة المال فى غير وجهه ، ونعم إذا وقع ذلك على سبيل التعظيم للمسجد ، ولم يكن الصرف عليه من بيت المال فلا بأس به ، وذكر بعضهم أن الوليد بن عبد الملك أنفق على عمارة مسجد دمشق وتزيينه مثل خراج الشام بثلاث مرات ، وقال أبن المنير لو أوصى بتزيين مسجده وتحميره وتصفيره ونفذت وصيته لأنه قد حدث للناس بقدر ما أحدثوا وقد أحدث الناس مؤمنهم وكافرهم تشييد بيوتهم وتزيينها ولو بنينا مساجدنا باللبن وجعلناها متطامنة أى منخفضة بين الدور الشاهقة وربما كانت لأهل الذمة لكانت مستهانة ، وتعقب إذا كان المنع لاتباع السلف فى ترك الرفاهية فهو كما قال وإن كان لخشية شغل بال المصلى فلا لبقاء العلة [4] ولما كانت الغيرة على دين الله قوية ولما ازداد ثراء الدولة الأسلامية قامت بتشييد مساجدها على أروع ما يكون البناء حتى يباهى بها المسلمون وقد بدأ هذا الاتجاه جليا

---

[1] إبراهيم السقاء المرجع السابق ص ٨

[2] ابن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار جـ١ ص١٢٩

[3] المرجع نفسه جـ١ ص١٢٤

[4] إبراهيم السقاء المرجع السابق ص ٢٠-٢١ الكرمانى، شرح البخارى جـ٤ ص ١٠٥

فى منشآت خلفاء بنى أمية كقبة الصخرة والجامع الأموى.

ومما سبق يتضح أن هذه النصوص الفقهية التى تتنوع بين الكراهية والجواز والمنع كانت الإطار الذى يحكم المعمار الإسلامى عند تخطيطه للمسجد ، وداخل هذا الإطار كانت تتفاعل عوامل أخرى كظروف التنفيذ عند الإنشاء مثل استخدام صناع من بلاد أخرى لها تقاليدها المعمارية كهؤلاء الذين استخدمهم الوليد عند بناء مسجد دمشق وأتى بهم من بلاد الروم ليشاركوا فى بناء المسجد الأموى[1] وما يتبع ذلك من إدخال عناصر معمارية جديدة وبعض التأثيرات المعمارية المختلفة، بالإضافة إلى ما يحدث من ضرورة مواكبة التطور الحضارى فى العصور المختلفة، وهو التطور الذى تؤثر فيه ظروف العصر وحياة معاصرية والوظيفة التى يؤديها ، المسجد.

"وظيفة المسجد"

كان المسجد فى عهد الرسول (ﷺ) يمثل بالنسبة للمسلمين المركز الرئيسى الذى يبحثون فيه جميع أمور دينهم ودنياهم هذا بالإضافة إلى أنه مكان العبادة الذى يقيمون فيه صلواتهم وأذكارهم وعباداتهم ، ولذا فإن المسجد كان يقوم فى بداية عهده بالعديد من الوظائف التى تطورت بعد ذلك وأصبحت لها منشآتها الخاصة ومنها التدريس والتصرف.

فقد استحب عقد حلق العلم وذكر المواعظ والرقائق فى المساجد ، وقد أشارت إلى ذلك كثير من الأحاديث الصحيحة ، فقد روى ابن ماجدة عن أبى هريرة عن النبى (ﷺ) أنه قال : من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أو يعلمه كأنه كالمجاهد فى سبيل الله ولافرق فى هذا بين المعتكف وغيره وكان الاشتغال بالعلم فى المساجد مباحا بحيث لا يعطل أو يمنع قيام الصلاة ، الوظيفة الرئيسية للمسجد ، ولذلك وجدنا أن الفقهاء يكرهون عقد حلق العلم يوم الجمعة قبل الصلاة ففى سنن داود من حديث عبد الله بن عمر أن رسول

---

[1] راجع الكرمانى، شرح صحيح البخارى جـ٤ ص ١١٧

الله (ﷺ) نهى عن الحلق[1] قبل يوم الجمعة وأخرجه خزيمة فى صحيحه وقد كان كره الاجتماع قبل الصلاة للعلم للأمر بالاشتغال بالصلاة والإنصات للخطبة ، وقد دعت تعاليم الإسلام إلى توفير الجو الملائم للمشتغلين بالعلم فى المسجد ، فقد قال العلماء رضوان الله عليهم بمنع الناس من استطرق حلق الفقهاء والقراء ومن الرافعى والماوردى والرويانى واستدلوا بحديث رسول الله القائل "لاحمى إلا فى ثلاث وذكر منها حلقة القوم اى جلوسهم للتشاور والحديث فحلق العلم أولى[2]" ويؤكد هذه الحقيقة ما نقرأه فى تاريخ جامع عمرو والجامع الأزهر على سبيل المثال والتى كانت تعقد بها حلقات العلم قبل أن تنشأ المدارس بل وبعد إنشائها.

وكذلك بدأ المتصوفون حياتهم فى المسجد ، ولعل أهل الصفة على عهد رسول الله كانوا أول الجماعات الإسلامية التى بدأت هذا النوع من العبادة، وكان ذلك بمسجد الرسول ، واستمر رواد المتصوفة فى دعوتهم للتصوف من المسجد مركز الدعوة الإسلامية الأصيل ، وظل الحال كذلك إلى أن بدأت تظهر المبانى الخاصة بالمتصوفة كالخنقاوات والربط والزوايا بل إن أهل الخنقاوات والربط الذين لم تشتمل خنقاواتهم على مساجد جامعة كانوا يؤدون صلاتهم الجامعة بتقاليدهم الخاصة فى المسجد الجامع ولعل متصوفة خانقاه سعيدا السعدا بالقاهرة الذين كانوا يحرصون على أداء صلاة الجمعة بجامع الحاكم ويخرجون لها فى هيئة خاصة أكبر دليل على ذلك. كذلك فإن اشتمال هذه المنشآت الدينية الجديدة سواء المدارس أو الخنقاوات والربط الزوايا على مسجد لأداء الصلاة غير الجامعة ثم تحويلها بعد ذلك إلى مساجد جامعة بإضافة منبر وتعيين خطيب لها يؤكد أن المسجد هو الأصل الذى نشأت عليه هذه المنشآت ، ثم إن المسجد ظل رغم إنشاء هذه المنشآت أيضا مكانا لتعبد المتصوفة وتأكدت هذه الحقيقة فى العصر المملوكى بعد أن تعددت وظائف المنشآت الدينية فكان يعقد بها حضور للتصوف بعد صلاة العصر

---

[1] المقصود حلق بكر الحاء وفتح اللام جمع حلقة وليس حلق بفتح الحاء وسكون اللام كما فهم البعض. راجع إبراهيم السقا. المرجع السابق ص ٢٨ . الكرمانى - شرح صحيح البخارى جـ٤ ص ١٣٤-١٣٤

[2] إبراهيم السقا. المرجع السابق ص ٢٨

كما هو حال الخنقاوات.

كذلك فإن المساجد الجامعة كانت تقوم بدور سياسى هام ، فمن على منابرها كانت تعلن المراسيم ، وكان الإشارة بخلع سلطان وتعيين آخر لذلك فقد عدت الخطبة من شارات الحكم والسلطان وأمام هذه الأهمية للمساجد جعلها مؤرخو التاريخ السياسى الإسلامى من الأركان الهامة التى يعتمد عليها الحكم الصحيح وأشاروا إلى وجوب العناية بها وإلى أهميتها ، وأشاروا إلى أن من أهم مهام الحاكم تولية من يؤم المسلمين نيابة عنه بها وحددوا الشرط التى يجب مراعاتها عند اختيار الإمام أو من يقومون بالتدريس بها. [1]

وكانت تعقد أيضا بالمساجد مجالس الفقهاء والقضاة وكان من الحكام من يجلس بها للحكم [2] فأخذت المساجد لكل هذه الأمور الصبغة السياسية ولعل أكبر دليل يشير إلى ذلك أنه عند إفتتاح أى مسجد جديد للصلاة كان لا يفتح إلا إذا حكم السلطان بصحة الصلاة فيه. [3]

ونظرا لهذه الأهمية كان المسجد الجامع أول منشأة يفكر الحاكم فى إنشائها عند بناء مدينة جديدة أو فتح مدينة قديمة ، وكان المسجد الجامع فى كل المدن الإسلامية النواة التى أمتد العمران بجانبها وفى تأريخ المدن الإسلامية كالبصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وسامراء والعسكر والقطائع والقاهرة والقيروان وغيرها ما يؤكد هذه الحقيقة.

وأمام هذه الأهمية لم يبخل الحكام بالأموال على بناء المساجد والتفاخر بها ، فقد تكلف بناء جامع دمشق على سبيل المثال أربعمائة صندوق بكل أربعة عشر ألف دينار ، ولما سئل الوليد عن السبب وراء إنفاق كل هذا على البناء المسجد فقال الوليد "يا أهل دمشق إنى رأيتكم تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون المسجد الخامس" [4] ومن مظاهر إهتمام الحكام بالمساجد تلك الأوقاف الكثيرة وقفت عليها حتى تستمر

---

[1] أبى عبد الله أبن الأزرق. طبائع السلك فى أخبار الملك جـ١ ص ٢٣٦-٢٣٨ ص ٢٤٧-٢٤٨ تحقيق د. على سامى النشار.

[2] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٢٤ الكرمانى. شرح صحيح البخارى جـ٤ ص ١١٧

[3] السخاوى. التبر المسبوك ص ١٨٥

[4] أبن فضل الله العمرى. مسالك الأبصار جـ١ ص ١٨٨

إقامة الشعائر بها ويصرف من ريعها على من بها من موظفين وما تحتاجه من حاجات كزيت الإضاءة وأدوات التنظيف والحصير أو السجاجيد[1] وغيرها، هذا بالإضافة إلى أن المساجد نفسها يوقفها منشئوها لله ويصبح حقهم فيها حق أى واحد من المسلمين[2].

ولما كان السلاطين والأمراء يخرجون إلى المساجد لأداء الصلاة، فقد أنشئت لبعضهم المقاصير بها، وكان أول من اتخذها معاوية بجامع دمشق، وقيل إن أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليمانى[3] وقيل أن الخليفة عثمان أولهم ثم أتخذها الخلفاء من بعده سنة فى تمييز السلطان عن بقية الناس من المصلين، ويرى الفقهاء انها بدعة، وروى أن الحسن البصرى كان لا يصلىفى المقاصير لحدوثها بعد النبى (ﷺ) والمسجد يطلق لجميع الناس،[4] وكان لهذا الرأى - فيما يبدو - صداه على عدم استمرار وانتظام وجودها بالمساجد، وإن وجدت فهى لظروف خاصة تحيط بذهاب السلطان إلى الجامع والخوف عليه، وما يواكب ذلك من تقاليد عند جلوسه وقيامه، ولعل فيما كان يحيط بالخلفاء الفواطم من نظم وتقاليد عند خروجهم للصلاة وعند جلوسهم بالجامع للصلاة،وإقامتها ووجوب تخصيص مكان للخليفة بجوار المنبر تحت القبة[5] التى تتقدم المحراب وما يحيط به عند جلوسه من رجال الدولة حسب مراتبهم بترتيب معين ما يدل على أهمية هذه الرسوم، وما تبعها من عمل مقاصير او تحديد أماكن خاصة للخوف على سلامتهم، وما كان لذلك من انعكاس على تخطيط المسجد، ولعل وجود أبواب السر بالمنشآت المملوكية صدى لما عساه كان موجودا بذلك العصر من المكائد والفتن وعدم الأمان بالنسبة لوقوعها فى أى وقت.

ومما يدل على أن هذه المقاصير كانت تستخدم في ظروف خاصة أنه

---

[1] المقريزى، خطط جـ٢ ص ٤٥٤، جـ٢ ص ٢٧٢ ناصر خسرو سفرنامة تحقيق د. يحيى الخشاب القاهرة ص ٦٥

[2] د. محمد أمين، تاريخ الأوقاف في مصر فى عصر سلاطين المماليك ص ٣١-٣٢

[3] ابن خلدون، المقدمة ص ١٨٨

[4] إبراهيم السقا، المنهل العذب لكل وارد فى بيان فضل عمارة المساجد ص ١٥-١٦

[5] أبن تغرى بردى النجوم جـ٥ ص ٣٣

بعد انتهاء هذه الظروف كانت تستخدم بغير الأمراء والسلاطين فقد كان مؤذنو جامع عمرو يؤذنون داخل المقصورة التى كانت به إلى أن أبطل الخليفة المعتصم العباسي ذلك وأمر بأن يؤذنوا خارجها [1] ولعل أقدم الأمثلة الباقية لهذه المقاصير تلك المقصورة الخشبية بجامع القيروان التى تحمل أسم المعز بن باديس وتؤرخ فيما بين سنتى ٥٤٤-٥٤٦هـ [2] سنتى ١١٤٩ – ١١٥١م.

ومما يتعلق بحجز أماكن الصلاة ذلك السياج الخشبى الذى يعمل لحجز مواضع الصلاة عن الصحن كذلك الذى عمل بجامع عمرو [3] وهناك مثل باق فى مساجد المماليك بجامع الماردانى.

ومما سبق يتضح اهتمام السلاطين بانشاء المساجد بحكم ولايتهم الدينية والسياسية وبدافع رغبتهم أيضا فى تخليد أسمائهم وذكراهم من خلال هذه المنشآت [4] وكان الحكام المثل للرعية الذين تسابقوا أيضا فى إنشاء المساجد فالناس على دين ملوكهم.

وقد أنشئت بجانب المساجد الجامعة فى هذه المدن وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون "مساجد الفروض الخمسة" لكى يؤدى المسلمون بها صلواتهم غير الجامعة دون اضطرار للذهاب إلى المسجد الجامع خاصة إذا كان بعيدا عنهم، وكان عمر بن الخطاب أول من أمر بذلك فقد كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجد للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد فإذا كان يوم الجمعة إنضموا إلى مسجد الجماعة ، كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك [5] فأنتشرت "مساجد الخمسة" بجانب المساجد الجامعة.

ويتميز المسجد الجامع عن المسجد بأنه تقام فيه الصلوات الجامعة

---

[1] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٢٥٢

[2] فريد شافعى. العمارة العربية فى عصر الولاة مجلدا ص ٦٥٠

[3] المقريزى. المرجع نفسه جـ٢ ص ٢٥٢ توجد العديد من أمثلة ذلك كما كان الحال فى الجامع الأزهر وجامع الصالح طلائع وجامع الصالح طلائع بقوص والأمثلة عديدة على ذلك.

[4] أرنست كوتل. الفن الإسلامى ص ٦

[5] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٢٤٥

كصلاة الجمعة والكسوف والخسوف والاستسقاء"[1] ولابد من وجود منبر وخطيب يخطب بالناس من على هذا المنبر • وقد اتخذ رسول الله صلى عليه وسلم المنبر لإلقاء الخطبة[2] فعن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله (ﷺ) بعث إلى إمرأة من الأنصار واسمها عائشة أن مرى غلامك النجار واسمه باقوم الرومى أو ميمون أو مينا بكسر الميم أو قبيصه يعمل لى أعوادا أى منبرا مركبا منها أجلس عليهن أى الأعواد ، وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن أمرأة من الأنصار قالت لرسول الله (ﷺ) يا رسول الله ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه فإنه لى غلاما نجارا ، قال إن شئت ، فعملت له المنبر فلما كان يوم الجمعة قعد النبى على المنبر الذى صنع[3] وكان منبر الرسول (ﷺ) من خشب الأثل على الأصح وكان ثلاث درج غير الدرجة المسماة المستراح ، وكان (ﷺ) يقوم على الثالثة ، فلما خطب أبو بكر نزل درجة ثم عمر درجة أما عثمان فإنه إرتفع لما كان النبى (ﷺ) يخطب عليه ، ثم زاد فيه معاوية ست درج من أسفل فصار تسع درج ، وكان الخلفاء يقفون على السابعة وهى أولى الأول ، وقيل إن الذى زاد الست مروان بن الحكم فى زمن معاوية وسبب ذلك أن معاوية كتب إليه أن يحمل المنبر إليه ، فأمر به فقلع فإنكسفت الشمس وأظلمت المدينة حتى رؤيت النجوم ، فخرج مروان وخطب معتذرا ، وقال إنما أمرنى أن أرفعه ثم رده وزاد فيه ست درج لما كثر الناس واستمر كذلك[4] وقد حدد الفقهاء مكان المنبر بالمسجد وحجمه ، فقالوا يستحب جعل المنبر على يسار القبلة تلقاء يمين المصلى إذا استقبل ، وقال الصيمرى والدرامى وغيرهما مما وقع فى شرح المهذب للنووى من استحباب جعله على يمين المحراب سهوا إلا أن يريد يمين مستقبله ، قال الصيمرى وينبغى أن يكون بين المنبر والقبلة قدر ذراع أو ذراعين قال الرافعى ويكره المنبر الكبير الذى يضيق على المصلين إن لم يكن المسجد

---

[1] وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨

[2] قال المفسرون إن الآية فى قوله عز وجل "مقام كريم" تعنى المنبر راجع الدينورى عيون الأخبار جـ٥ ص ٢٥٨

[3] إبراهيم السقاء المنهل العذب لكل وارد فى بيان فضل عمارة المساجد ص١٢-١٣ الكرمانى – شرح صحيح البخارى جـ٤ ص ١٠٨

[4] إبراهيم السقاء المرجع السابق ص ١٣-١٤

متسعا ،وقال القاضى حسين إذا كان يضيق على المصلين لا يجوز ، وظاهرة التحريم وهو ظاهر لتعطيله بقعة من المسجد من غير حاجة ، وهذا كله فى منبر لا يزال من مكانه أما لو كان له خزانة وراءه يرد إليها عقب الخطبة حالا فلا إذ لا صلاة حال الخطبة ، قال الغزالى فى الإحياء إن المنبر ونحوه يقطع الصف الأول ويفوت تفضيله[1] وأمام هذه النصوص الفقهية حاول صانع المنبر قدر الإمكان أن يوافق بين حجمه وحجم المسجد حتى لا يشغل مساحة كبيرة ولعل ذلك ما يفسر أرتفاع درجاته عن المستوى المعروف.[2]

وكان أول من إتخذ منبرا فى مصر عمرو بن العاص وقد نهاه عمر لكنه عاد إلى أمره وانتشرت المنابر فى المساجد الجامعة بالمدن والقرى فلم يكن يخطب بالقرى إلا على عصا إلى أن ولى عبد الملك بن موسى فأمر باتخاذ المنابر فى القرى وكان ذلك سنه ١٣٢ [3] سنه ٧٤٩م وكان الخطيب يخطب من على المنبر وفى يده قضيب[4] أو سيف ، وقد أصبح المنبر لما له من أهمية من علامات العز والسلطان واستخدم الشعراء كلمة المنبر بهذا الإيحاء والمعنى.[5]

وكانت الصلاة الجامعة تقام فى المسجد الكبير بالمدينة الإسلامية دون غيره من المساجد كجُامع عمرو بالفسطاط ، وجامع بن طولون بالقطائع أو الأزهر بالقاهرة ثم الحاكم. وظل هذا الأمر سائدا إلى أن تعددت إقامة الخطبة فى مصر فى أكثر من مسجد بل وحول كثير من المساجد والمدارس إلى مساجد جامعة[6] وقد كان لذلك أثره على مساحة المسجد ففى المساجد الأولى نجد ان مساحتها كانت كبيرة لتتسع للأعداد الكبيرة من المصلين فى المدينة

---

[1] إبراهيم السقا. المرجع السابق ص ١٤-١٥

[2] أرتفاع الدرجة فى المستوى العادى من ١٢:١٥ سم ولكن يلاحظ أن درجات المنبر تصل إلى ما بين ٢٥-٣٠ سم وذلك لتوفير إمتداد مسقط المنبر أفقيا فيشغل مساحة كبيرة من المسجد ويقطع أكثر من صف من صفوف المصلين.

[3] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٢٤٧

[4] الدينورى. عيون الأخبار جـ٥ ص ٢٥٩

[5] المصدر نفسه جـ٥ ص ٢٥٨-٢٥٩

[6] يجوز أقامة الخطبة فى أكثر من مسجد ، بل أن صلاة الجمعة تنعقد بإثنى عشر شخصا راجع الفقه على المذاهب الأربعة إبراهيم السقا. المرجع السابق ص ٦٧

الواحدة ولعل فى سبب بناء جامع أبن طولون ما يشير إلى ذلك "فقد ذكر ان السبب فى بنائه ان أهل مصر شكوا إليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه فأمر بإنشاء الجامع[1]"ولذلك بلغت مساحة هذا الجامع عشرة أفدنة ، ثم بعد أن تعددت الخطبة في المدينة وتوزع المصلون بين المساجد لم تعد هناك حاجة إلى تلك المساجد الجامعة ذات المساحة الضخمة كجامع ابن طولون فصغرت مساحتها. [2]

ولما كانت نظافة المساجد ضرورية لاستمرارها فى أداء وظائفها فقد بين رسول الله (ﷺ) فضل قمها وكنسها بقوله "نظفوا مساجدكم وأخرجوا القمامة منها ، فإن إخراج القمامة مهور العين ، وعنه (ﷺ) من أخرج من المسجد كف التراب أى ملىء كف كان فى ميزانه كأحد ، وورد من أخرج من المسجد أذى بنى الله له بيتا فى الجنة[3]"واستحب الفقهاء تجمير المساجد بالبخور خلافا للإمام مالك رحمه الله فقد كان عبد الله المجمر يجمر المسجد إذا قعد عمر على المنبر وأنكره مالك ،واستحب بعض السلف تخليق المسجد بالزعفران والطيب ، وروى بن أبى شيبة عن أبن أبى نجيح بفتح النون أن ابن الزبير لما بنى الكعبة طلى حيطانها بالمسك ، كذلك فإنه فضل تزيينها بالفرش ونحوها فمن حيث أنه من جملة احترامها المطلوب وأول من فرش الحصير فى المسجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان المسجد فى زمن رسول الله (ﷺ) مفروش وذلك أن المطر جاء ذات ليلة فأصبحت الأرض مبتلة ، فجعل الرجل يأتى بالحصباء فى ثوبه فيبسطها تحته ليصلى عليها رسول الله (ﷺ) قال ما أحسن هذا البساط ، وأمر أن يحصب جميع المسجد أى يفرش الحصباء[4] وقد أتبع الولاة فى الأقاليم هذه الطريقة ، فجامع بالفسطاط فرش بالحصباء ثم أستخدم الحصير بعد ذلك[5] وقياسا على تفضيل الأحسن تطورت أساليب فرش أرضية المساجد حتى صارت تبلط

---

[1] المقريزى، خطط جـ٣ ص ٢٦٥ ط التحرير

[2] هناك أسباب أخرى أدت إلى صغر هذه المساحة أيضا لأنتشار العمران وعدم توفر مثل هذه المساحات الضخمة.

[3] الكرمانى، شرح صحيح البخارى جـ٤ ص ١١٨-١٢٥

[4] إبراهيم السقا، المرجع السابق ص ١٨-١٩

[5] المقريزى، خطط جـ٢ ص ٢٤٧

بالحجر أو الرخام وتفرش بالسجاجيد .

كذلك كان من الأمور التي تساعد على أن تؤدى المساجد وظيفتها على خير وجه إضاءتها ليلا إضاءة صناعية حيث أن ثلاث أوقات من أوقات الصلاة تكون بعد غروب الشمس وقبل شروقها أى فى أوقات لا تتوفر فيها الإضاءة الطبيعية ، وقد بين رسول الله فضل من يقوم بذلك فروى الثعالبى فى الدرة الفاخرة أن (ﷺ) قال من أسرج سراجا فى مسجد سبع ليال حرم الله عليه سبعة أبواب من أبواب جهنم ونور قبره يوم يوضع فيه وكان له نورا يوم القيامة بين يديه نورا وخلفه نورا ، عن يمينه نورا ونورا عن يساره ، وقال (ﷺ) من علق قنديلا . يعلى بالمسجد - صلى عليه سبعون ألف ملك ، وعن أنس رضى الله عنه من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام فى ذلك المسجد ضوءه. وأنس لا يقول هذا من رأيه . لأنه لايقال مثله بالرأى بل يتوقف أى تعليم من النبى (ﷺ) وقيل إن سليمان بن داود عليهما السلام أمر باتخاذ ألف وسبعمائة قنديل من الذهب فى سلاسل من الفضة لتعلق فى بيت المقدس وذكر أن مسجد النبى (ﷺ) كان إذا جاءت العتمة يوقد فيه سعف النخيل ، فلما قدم تميم الدارى المدينة صحب معه قناديل وحبالا وزيتا ، وعلق تلك القناديل بسوارى المسجد وأوقدت فقال (ﷺ) نورت مسجدنا نور الله عليك ، أما والله لو كانت لى بنتا لأنكحتها هذا. فقال رجل يا رسول الله أنا أزوجه إبنتى فزوجه إياها ، وقال بعضهم إن أول من وضع المصابيح بالمسجد عمر بن الخطاب فإنه لما جمع الناس على أبى ابن كعب فى صلاة التراويح علق القناديل فيها يعلئ المساجد ، فلما رآها على كرم الله وجهه تزهر ، قال نورت مسجدنا نور الله قبرك يا ابن الخطاب. ولعل المراد تعليق ذلك بكثرة فلا يخالف ما مر عن تميم ذكره فى روح البيان. وهذا دليل على ما يفعل بالمساجد فى شهر رمضان [1] ولذلك تفانى المسلمون فى إضاءة مساجدهم وصنعوا لها من أدوات الإضاءة ما تفنن فى عملة الصناع رغبة فى تحصيل هذا الثواب ومشاركة فى تعمير مساجد الله. لقد عمل الخليفة الحاكم بأمر الله على سبيل المثال لجامع عمرو تنورا من فضة فيه مائه ألف درهم فاجتمع الناس وعلق بعد أن قلعت عتبتا الباب حتى أدخل. [2]

---

[1] إبراهيم السقا ، المرجع السابق ص ٢٢-٢٣

[2] المقريزى، خطط جـ٢ ص ١٤٧

وحتى تقام الشعائر بالمسجد وتستمر نظافتها وإيقادها ليلا كان يعين بكل مسجد جامع خطيب وإمام ومؤذنون ومرقى وميقاتى لإقامة الشعائر ، ووقادين وفراشين وقومة للقيام بمهام نظافتها وقد استوجب ذلك اشتمال بعض المساجد على حجرات يستخدمها هؤلاء عند أداء وظيفتهم كخلوة الخطابة التى يستعد فيها الخطيب لإلقاء خطبته أو للإقامة إذا قطن أحدهم بالمسجد ، أو كحواصل للتخزين لخزن البسط والفرش والقناديل والسلاسل أو زيت الإضاءة ونحوه وهو أمر يكشف عن علاقة هؤلاء بتخطيط المسجد معماريا فيكون التخطيط السليم الذى يوفر للمسلم مساجد يقيم فيها صلاته فى ملاءمة تامة بالإمكانات المتوفرة فى عصر إنشاء المسجد ، وكان تطوير هذا التخطيط دائما نحو الأفضل ، وتسابق المسلمون حكاما ورعية فى ذلك.

وكانت الدعوة إلى تعمير هذه المساجد بالذكر والصلاة مكملة لذلك ولعل فى آيات القرآن الكريم الكثيرة التى تتحدث عن فضل الصلاة بالمسجد إجمالا وفى حديث رسول الله الذى يبين ذلك الفضل تفصيلا ما يؤكد هذه الدعوة ، فقد روى عمر بن حبان فى صحيحه عن حديث ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا ، أن العبد إذ أقام يصلى أتى بذنوبه فوضعت على رأسه أو عاتقه فكلما ركع أو سجد تساقطت حتى لا يتبقى منها شيء ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى عمل أحب إلى الله قال الصلاة لوقتها ، وورد أيضا أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن وجدت تامة قبل منه سائر الأعمال وإن وجدت ناقصة رد عليه سائر عمله ، وحكى فى شرح المهذب للإمام أحمد وجماعة من التابعين أن من ترك الصلاة متعمدا حتى خرج وقتها كفر ، كذلك الدعوة إلى صلاة الجماعة ، فصلاة المرء فى جماعة أفضل من صلاته منفردا بسبع وعشرون درجة كما فى الحديث الشريف الصحيح، وأفضل المصلين أبعدهم فأبعدهم من المسجد فمشي، فعن جابر بن عبد الله عنهما قال: كانت ديارنا بعيدة من المسجد فأردنا أن نبيع بيوتنا ونشترى بقرب المسجد فنهانا رسول الله (ﷺ) وقال إن لكم بكل خطوة درجة رواه مسلم، ففضل المشى إلى المساجد عظيم وفى الحديث بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة، وإذا كان هذا بالنسبة لمن يسكن بعيدا عن المسجد فإنها على من يسكن بجوارها

واجبة[١] كذلك إهتم علماء المسلمين بوضع المؤلفات لعمار المساجد حتى أن الغزالى وضع فى كتابه بداية النهاية برنامجا يوميا لما يجب على المسلم فى عبادته وهو برنامج يصور مدى وجوب إرتباط المسلمين بالمساجد وهو امر ينعكس على الإهتمام بالمساجد ذاتها بالتبعية من جانب الحكام والرعية. وملخص هذا البرنامج الذى يبدأ بصلاة الفجر فيصلى المسلم ركعتى الفجر إن لم يكن قد صلاها ببيته ثم ينوى الإعتكاف ويدعو دعاء رسول الله بعد ركعتى الفجر ثم بعد الدعاء لا يشتغل إلى وقت الفرض إلا بفكر وتسبيح أو قرآن ثم إذا سمع الأذان ردده خلف المؤذن ، ثم يدعو الله بقبول صلاته ثم يدعو ما شاء من الدعاء ثم يصلى الفرض ، ثم يقضى الفترة ما بعد الصلاة حتى طلوع الشمس فى الدعاء أو قراءة القرآن أو التفكير فيما ارتكبه من ذنوب ، والفترة بعد طلوع الشمس وحتى الزوال على المصلى أن يصلى فيها ركعتين إذا ارتفعت الشمس قدر رمح فإذا أضحى النهار ومضى منه قريب ربعه يصلى صلاة الضحى أربعا أو ستا أو ثمانيا مثنى مثنى ، وما تبقى من الوقت يقضيه فى طلب العلم أو العبادة والذكر والتسبيح والقراءة أو أن يشتغل العبد بما يدخل السرور على قلوب المؤمنين أو يتيسر به الأعمال الصالحة للصالحين كخدمة الفقهاء والصوفية وأهل الدين وما إلى ذلك أو أن يعمل الإنسان لاكتساب رزقه ، ثم بعد ذلك يستعد لصلاة الظهر قبل الزوال وتقدم القيلولة إذا كان العبد يسهر، والقيلولة هى النوم قبل الظهر فإذا قل يقوم قبل الزوال ويتوضأ ويحضر المسجد ويصلى وينتظر المؤذن فيجيبه ، ثم يصلى أربع ركعات بعد الزوال وهى سنة مؤكدة ثم يصلى الفرض ثم يصلى بعد الفرض ركعتين فهما من الرواتب الثابتة ، ويقضى الفترة حتى العصر فى تعلم علم أو إعانة مسلم أو قراءة قرآن أو سعى معاش ، ثم يصلى أربع ركعات قبل العصر فهى سنة مؤكدة ، ويقضى الفترة بعد العصر فيما قضاها قبله فتضييع الوقت مكروه ويجب على المسلم أن يرتب أوراده فى ليلة ونهاره ، ثم إذا اصفرت الشمس فيعود إلى المسجد قبل الغروب ، ويشتغل بالتسبيح ، ثم إذا أذن المؤذن يجيبه ، ويصلى الفرض ، ثم يصلى ركعتين بعد

---

[١] إبراهيم السقا. المرجع السابق ص ٢٩-٦٥-٦٧ الكرمانى شرح صحيح البخارى ص ١٨٣ وما بعده.

المغرب وإن صلى أربعا بعدها يطيلهم فهي سنة ، وإن أمكنه الاعتكاف حتى العشاء يعتكف ويقضي هذه الفترة في الصلاة ، ثم إذا دخل وقت الصلاة يصلي أربعا قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين ثم الفرض ، ثم يصلي ركعتين راتبة ، ثم يصلي أربعا ثم يصلي الوتر فإذا كان المصلي عازما على قيام الليل يؤخر الوتر ، ثم يشتغل بعد ذلك بمذاكرة علم أو مطالعة كتاب ولا يلهو فيكون ذلك خاتمة أعماله قبل النوم.[1]

ومما سبق عرضه تتضح الوظائف التي كان يقوم بها المسجد والعوامل التي تؤثر على تخطيطه وهي وظائف وعوامل كان المعمار الإسلامي على إدراك كاف بها فكانت تخطيطاتها لتلائم هذه الوظائف بقدر الإمكانات المتاحة له وحسب ظروف عصره.

وإذا كانت المساجد والمساجد الجامعة هي منشآت الصلاة الرئيسية ، فإنه توجد منشآت أخرى للصلاة تلزوي أهميتها أمام المساجد ولكنها تدخل في إطار منشآت الصلاة، ومن هذه المنشآت مصليات الأموات التي أنشئت لإقامة صلاة الجنازة بها على الأموات ولكن هذه المنشآت لم تقو على الزمن وكل ما تعرفه عنها ببطون الكتب وهي بحكم وظيفتها كانت تقع بالقرافات وقريبة من المقابر ومن أمثلتها في مصر مصلي خولان ومصلى المؤمني ومصلى العيد وغيرها [2] وقد ضاعت ولم يتبق منها ما يعين على دراستها من الناحية المعمارية.

ومن منشآت الصلاة أيضا مصلى العيد ، فقد جاء في الأثر أن النبي (ﷺ) كان يصلي العيد في الخلاء الذي يتسع لكافة المسلمين ، وحتى يشعر المسلمون ببهجة العيد وفرحته ويتصافحون جميعا ويهنيء بعضهم بعضا، ولم يصل النبي العيد في المسجد الجامع الأمرتين وبسبب المطر، ومن أجل هذا أنشئت مصليات خاصة بصلاه العيد ، وتشير الروايات التاريخية إلى وجود مثل هذه المصليات وما عمل بهما من منابر مبنية في عصر الخلفاء

---

[1] الإمام الغزالي، بداية النهاية ص ٢٥-٤٣

[2] ابن تغري بردي النجوم جـ١ ص ٢٠٥-٢٠٤،٢٢٧، جـ٧ ص ٢٨٩

الراشدين فيروى أن كثيرا بن الصلت بنى منبرا[1] من طين ولبن[2] فى مصلى العيد خطب من عليه عثمان بن عفان ، ثم تركه فاستعمله مروان بن عبد الحكم عند صلاته فى المصلى. [3] كما يروى أن مروان هو الذى أحدث المنبر فى المصلى وأنه كان أول من خطب قبل صلاة العيد فى هذا المكان. وأنشأ الفاطميون مصلى للعيد كانت تقع فى شرقى "القصر الكبير خارج باب النصر ، وهذا المصلى بناه القائد جوهر لأجل صلاة العيد فى شهر سنه ٣٥٨/ سنه ٩٦٩م ثم جدده العزيز بالله وإتخذ فى جانب منه موضع مصلى الأموات" - على حد قول المقريزى.

وقد وجد بأسوان مصلى للعيد تبقت للعيد تبقت كثير من معالمها خاصه حائط القبله الذى يشتمل على أربعة محاريب ، ومنها مبنى بالطوب اللبن وهو يعتبر النموذج الوحيد الباقى لهذه المصليات فى مصر.

---

(1) أبو الحسن بن عبد الله السمهودى. وفاء الوفا ص ٩-١١ صحيح الترميذى جـ٣ ص ٣-٤

(2) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٦ ص ١٧٧-١٧٨

(3) السمهودى. وفاء الوفا جـ٢ ص ٩-١١

الفصل الثانى

"وظيفة المدارس ونشأتها"

لا تقام المبانى أصلا إلا لوجود غرض عملى تخدمه ، وفائدة إنتفاعية تؤخذ منها ، فالفائدة العملية من المبنى "الوظيفية" موجودة إذا ، وهى ليست موجودة فحسب بل هى تتواجد قبل المبنى نفسه ، وهى السبب الأصلى فى وجوده وفى تبرير وجوده ، والغرض الغالب عليه والمصدر الرئيسى فى التأثير على التصميم وإتخاذ المبنى الشكل الذى هو عليه[1]

وإذا كانت الوظيفة هى المختبر الذى تقاس به مدى صحة التصميم فلا بد من التعرف على الوظيفة التى أنشئت من أجلها المبانى الدينية سواء كانت المدارس ، أو مبانى التصوف ، أو منشآت الصلاة من مساجد ومساجد جامعه ، ومصليات للأموات وغيرها - ونشأتها ومعرفة الظروف المصاحبة لذلك والمؤثرات المختلفة ، لما لذلك من ضرورة المعرفة عند الحكم والتقدير والكشف عن الجوانب المختلفة والأسس التى قامت عليها نظرية الوظيفية فى العمارة الدينية المملوكية ولأن هذه المبانى أنشئت لتفى بحاجات المسلمين المادية والنفسية والروحية الفردية والجماعية فى حدود أوسع الإمكانيات بأحسن الوسائل المتوفرة فى ذلك العصر وأنشاها معمار على وعى وإدراك بأحوال بيئته وظروف العمل فى عصره ، وفى هذا الفصل نتعرض لوظيفة المدارس ونشأتها.

دعى الإسلام إلى العلم دعوة صريحة وكانت أول آية نزلت من القرآن "إقرأ بأسم ربك الذى خلق[2]" وقد رفع القرآن من قدر العلماء فى قوله "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات[3]" وقوله "هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون[4]" وحث رسول الله صلى الله عليه وسلم على طلب العلم بالأشادة إلى قيمة العلماء وفضل ثوابهم مرة ، وفى الدعوة

[1] د.عرفات سامى. نظرية الوظيفية فى العمارة ص ٢١،٢٢

[2] قرآن كريم سورة العلق آية رقم١

[3] قرآن كريم سورة   آية رقم

[4] قرآن كريم سورة الزمر آية رقم ٩

إلى طلبه مهما كلف ذلك من جهد ومشقة مرة أخرى ، ومن جهة أخرى حث العلماء على الإفادة : فقال: "غدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة"، وقال "يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء" ، ثم قوله: "لموت قبيلة أيسر من موت عالم" ، وقوله "لا خير فيمن كان ليس بعالم ولا متعلم" وقوله: "الناس عالم ومتعلم والباقى همج" وقوله: "لايزال طالب العلم عالما حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل [1]" وفى هذا دعوة إلى الاستمرارية فى التحصيل ، وقد بين الرسول فضل كل مرحلة من مراحل التعليم حثا على طلب العلم بالإفادة والاستفادة فقال "تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسبة ، وطلبه عبادة ، ومذكراته تسبيح والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة• رواه عبد البر بن معاذ . [2]

ويقسم علماء المسلمين العلوم إلى علوم عقلية يهتدى الانسان إليها بفكره ، وعلوم نقلية وضعية مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها العقل إلا فى إلحاق الفروع فى مسائلها بالأصول وزاد أبن خلدون على ذلك فقال "إن العلوم العقلية أو الطبيعية مشتركة بين الأمم لأن الإنسان يهتدى إليها بطبيعة فكره ، أما العلوم النقلية كلها فمختصة بالملة الإسلامية[3] ، وقد ربط علماء المسلمين بين الفرعين فى إطار أشمل وأعم إنطلاقا من الآية الكريمة "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"[4] فعرفوا العلم بأنه العلم الذى يخدم الدين[5] فواجب المسلم أن يتعلم من الحساب ومن الطب وغيره من فروع العلم العقلية ما يعين على القيام بواجبات الدين ، ويؤكد هذا المفهوم من

---

(1) عبد الحليم منتصر تاريخ العلم ص ٥٤

(2) محمد قطب• قبسات من الرسول ص ٤٤

(3) أبن خلدون• العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ١ ص ٣٦٣-٣٦٤

(4) قرآن كريم سورة الذاريات آية رقم ٥٦

(5) أبن حامد الغزالى بداية النهاية ص ٣٤-٣٥

أنه عندما قيل لمحمد بن الحسن "ألا تصنف كتابا فى الزهد قال صنفت كتابا فى البيوع" يعنى الزاهد من يتحرر من الشبهات والمكروهات فى التجارات" ويؤكد هذا المفهوم عدم اعتراف المسلمين بالتنجيم كعلم [1] وإذا كان هذا هو المفهوم السائد فى العصور الوسطى ، فإن المدارس التى أنشئت تتخذ صفة المنشآت الدينية تخصصا وتصميما فقد أنشئت أصلا لتدريس علوم الفقه ودرس فى بعض منها العلوم العقلية الأخرى ومن هنا تعتبر المدارس من صميم المنشآت الدينية ، وذلك لارتباط النشاط العلمى والإسلام بالحياة الدينية ارتباطا كاملا.

وإذا تتبعنا حركة التعليم منذ ظهور الإسلام ، فإننا نجد أن عدد المسلمين الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة على عهد رسول الله (ﷺ) كان قليلا ، وقد استخدمهم الرسول كلهم أو جلهم للكتابة بين يديه وكذلك الراغبين فى تعلمها ، وكان هذا التعليم يجرى فى منازل المعلمين وربما خصص هؤلاء حجرة فى بيوتهم لاستقبال الطلاب وتعليمهم. [2]

وتعتبر عملية تدوين القرآن منذ عهد خلافة أبى بكر وإتمامها على يد عثمان بن عفان. [3] من أولى وأهم العمليات التعليمية التى قام بها المسلمون الأوائل ، وكان فى إرسال نسخة من هذا المصحف إلى كل إقليم من أقاليم الدولة، وما تبعه من ضرورة إرسال مبعوثين للإرشاد والتوجية والتفقيه أثر كبير فى إنتشار الجيل الأول من الصحابة فى الأقطار ، وأقام كل منهم مركزا علميا فى البلد الذى حل فيه ، فحلقة فى اليمن وثانية فى الكوفة وثالثة فى مصر ، ورابعة فى البصرة وخامسة فى المدينة وهكذا. [4] وعقدت حلقات الدروس بالمساجد الجامعة [5] التى أنشئت فى هذه البلاد وظلت هذه المساجد

---

[1] الزرنوجى تعليم المتعلم طريق التعلم ص ٥

[2] عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ص ٤٩

[3] د. محمد عبد العزيز مرزوق المصحف الشريف ص ٦-٨

[4] عبد الحليم منتصر المرجع نفسه ص ٧١

[5] لعل فكرة إلحاق التعليم بالمعابد فكرة قديمة ترجع إلى عهد الفراعنة فقد الحقت بالمعابد دراسات لذوى المهن والطب ، وكان لزاما على أى منهم أن يأخذ إذنا خاصا من المعبد لمزوالة نشاطه. عبد الحليم منتصر تاريخ العلم ص ٢٠

مراكز الإشعاع العلمي إلى أن انتشرت المدارس في القرن ٥هـ/١١م.

ولم تكن حلقات الدروس بالمساجد مقصورة على الدراسات الدينية وإنما تعدتها إلى سواها من المعارف ، فقد درست بالمساجد علوم اللغة والمنطق والطب والميقات [١] وكان بالمسجد أكثر من حلقة لأكثر من درس وغدت القيمة العلمية للطالب تتناسب مع عدد الشيوخ الذين حضر عليهم طلبا للعلم وعدد الرحلات التي قام بها في سبيل ذلك. [٢]

وإلى جانب المساجد كانت تعقد حلقات العلم في أماكن مختلفة كقصور الخلفاء والأمراء ومنازل العلماء والمكتبات ، فقد كانت دار ابن سينا ملتقى لطلبة العلم فيقول الجورجاني كان يجتمع كل ليلة في دار أبن سينا طلبة العلم وكنت أقرأ معه الشفاء ، وكان يقرىء غيري من القانون نوبة وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير شمس الدولة وقضينا على ذلك زماننا [٣]"وكذلك كانت تعقد حلقات الدرس في منزل أبو سليمان السجستاني. [٤]

كذلك كانت منتديات الأدب والعلم من الأماكن التي يلتقي فيها رجال الفكر والأدب ويدعو إليها الخلفاء والأمراء وقد ساهمت هذه المنتديات في النهضة العلمية ، ولكن لم تستقبل هذه المنتديات كل الراغبين وإنما كان يسمح لطبقة معينة بالدخول ، وكانت مواعيد الحضور محددة ، وكذلك مواعيد الانصراف ، وكان لهذه المجالس تقاليد معينة يجب مراعتها. [٥] وقد بدأت هذه الندوات الأدبية تعقد بقصور الأمويين فقد بدأها الخليفة معاوية وإزدهرت في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك.

وكذلك كان الخلفاء العباسيين يعدون أنفسهم حماة العلم ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مراكز تشع منها الثقافة يلتقي فيها العلماء والأدباء، وقد ذكر أن المعتصم بالله خصص في قصره دورا ومساكن ورتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعلمية ،

---

[١] عبد الحليم منتصر تاريخ العلم ص ٥٤

[٢] الزرنوجي تعليم المتعلم طريق التعليم ص ١٤-١٥

[٣] منتصر تاريخ العلم ص٥٠ ، ٥١د. حسن الباشا دراسات في الحضارة ص ٩٩

[٤] منتصر تاريخ العلم ص٥٠،٥١د. حسن الباشا دراسات في الحضارة ص ٩٩

[٥] د. عبد الحليم منتصر. تاريخ العلم ص ٥٠

وأجرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علما أو صناعة أو رئيس ما يختاره ليأخذ عنه.[1]

وفى عهد العباسيين أخذت المنتديات أهميتها العلمية التى تناسب ذلك العصر ، فأصبحت تعقد فى أوقات منتظمة وشملت قصور الأمراء من العظماء إلى جانب قصور الخلفاء واتخذت لها من الأثاث الفاخر والرياش المناسب لرفاهية ذلك العصر ، وتنوعت هذه المنتديات فكان منها الأدبى ومنها العلمى والفنى والموسيقى[2] ولعل من أشهر خلفاء العباسيين اهتماما بعقد هذه المجالس الرشيد والمأمون.

ويعتبر عصر المأمون نقطة تحويل خطيرة فى تاريخ النهضة العلمية الإسلامية ، ومن أهم مظاهر الحياة العلمية فى عصره : حركة الترجمة التى استعان فيها بالعلماء من كل جنسية ، وقد بلغت الترجمة أوجها فى عهده، وقد قيل إن الذى أسس بيت الحكمة الرشيد وجعلها مكانا للعلماء من المترجمين وأكمله المأمون وراعاه فازدهر بيت الحكمة على يديه[3] إزدهارا كبيرا ولعل نظرة فى مؤلف الفهرست لابن النديم تشير إلى أسماء المترجمين الذين عملوا فى بيت الحكمة وإلى مبلغ أزدهار حركة الترجمة فى ذلك العصر.

وبفضل حركة الترجمة إنضم تيار آخر من التيارات العلمية إلى جانب تيار الدراسات الدينية واللغوية الإسلامية فتنوعت النهضة العلمية واتسعت آفاقها.

و يعتبر بيت الحكمة ، أول مكتبة عامة ذات شأن فى العلم الإسلامى، ولعله أول جمعية علمية أو جامعة اسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس، ولجأ إليها الطلاب فكان بذلك مركزا علميا شمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها.[4]

---

(1) المقريزى. خطط جـ٢ بولاق ص ٣٦١-٣٦٢

(2) منتصر تاريخ العلم ص ٥٢

(3) د. محمد جمال الدين سرور تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ١٢٥ يذكر د. حسن الباشا أنه ربما أول من أنشا القصور دراسات فى الحضارة الإسلامية ٩٩٥

(4) منتصر، تاريخ العلم ص ٩٣ ،د. محمد جمال الدين سرور تاريخ الحضارة الأسلامية فى الشرق ص ٢١١

ويعتبر عصر المأمون أزهي عصور بيت الحكمة فقد كان يهب العلم وقته ورعايته ويهب العلماء عطفه وعنايته فقد كان المأمون أول من نادى ألا يكون نشاط بيت الحكمة متوقفا على سخاء الخلفاء والأمراء فهيأ للعلماء أرزاقا سخية يتقاضونها فى أوقات ثابتة يفيض ريعها عن المصارف المطلوبة لهذه المنشأة العظيمة وكان هذا أساسا سار عليه كل من كان ينشيء منشأة علمية أو دينية.

كذلك ساهمت المكتبات التى أنشئت فى ذلك العصر بدور كبير فى النهضة العلمية الإسلامية ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مكتبة أبى سوار بالبصرة التى أنشئت فى عهد عضد الدولة سنه ٣٨٣ هـ/ سنه ٩٩٣م، وكان التدريس عنصرا هاما بها بجوار الكتب ، وكان بها عشرة آلاف وأربعمائه مجلد ، وقد أوقف عليها صاحبها أوقافا ينفق من ريعها عليها فكانت بذلك مركزا علميا هاما ، وأهداها الباحثون والعلماء نسخا من مؤلفاتهم. [1]

وكان للمكتبات الخاصة التى ألحقت بقصور الخلفاء والأمراء دور هام فى النهضة العلمية مثل مكتبة الناصر لدين الله ومكتبة المعتصم بالله وكذلك مكتبة الفتح بن خاقان ، ومكتبة حنين ابن إسحق ومكتبة أبن الخشاب وغيرها. [2]

ولما ضعف أمر الخلافة فى بغداد إنتقل الثقل إلى الممالك الإسلامية المستقلة أو شبه المستقلة التى انقسم إليها العالم الإسلامى ، فقامت أسر حاكمة تنافس بعضها بعضا فى محاباة العلم ؛ فالحكام المستقلون يتطلعون إلى تدعيم نفوذهم عن طريق الظهور فى صورة حماة الدين والعلم فضلا عما يتوافر لهؤلاء من حرية الحركة والتصرف.

وقد سايرت مصر الحركة العلمية الإسلامية منذ الفتح العربى وازدهرت هذه الحركة العلمية في مصر بوجه خاص بعد أن نزح إليها عدد كبير من الصحابة.[3] وقد بلغ عدد هؤلاء الصحابة حسب تقدير بعض المؤرخين أكثر من مائة وأربعين صحابيا[4] وقد كان نشاط هؤلاء منصبا فى

[1] منتصر . المرجع نفسه ص ٦٤

[2] منتصر . المرجع نفسه ص ٦٥ د. حسن الباشا دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٩٩

[3] د. سيده إسماعيل كاشف . مصر فى عصر الولاه ص ١٣٧ وسعيد عاشور مصر فى العصور الوسطى ص ٧٦

[4] السيوطى . حسن المحاضرة جـ١ ص ٧٨

الناحية الدينية وكان جامع عمرو بالفسطاط مركز هذا النشاط.[1]

وقد ساعد استقلال البلاد فى عهد الطولونيين والإخشيدين على إزدهار الحركة العلمية[2] وكانت قصور الطولونيين أهل العلم كذلك كانت تلقى البحوث التاريخية فى بلاط الإخشيد كل مساء وأصبح كافور حاميا للعلم والعلماء.[3]

وإذا كانت حركة الترجمة قد شغلت العلماء فى القرنين الثانى والثالث الهجرى فإنه فى القرن ٤هـ/١٠م بدأ الأنتاج الشخصى للعلماء ، ونمت كذلك فى هذا القرن الحركة الفقهية ونبغ الفقهاء من كل مذهب وإزدهر حال الآداب وعلوم اللغة ونبغ فيهما وأشتهر كثير من العلماء.[4]

وكان الاشتغال بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه هو السائد فى بلاد الشام ومصر فى العهد الطولونى والإخشيدى ، وكان لارتحال العلماء بين أقاليم الدولة الإسلامية أثره الكبير فى الإفادة والاستفادة وفى تنشيط الحركة العلمية. وقد نبغ فى هذه العلوم كثير من العلماء أمثال الربيع إبن سليمان المرادى المتوفى سنه ٢٧٠هـ /٨٨٣م ويرجع إليه الفضل فى نشر أحاديث الإمام الشافعى وفقهه فى مصر .[5]

وقد نشطت كذلك حركة تجلى فيها اهتمام بعض الكتاب بتدوين كتب التاريخ والخطط أمثال عبد الرحمن بن عبد الحكم القرشى المصرى المتوفى سنه ٢٧٦هـ/٨٨٩م صاحب كتاب فتوح مصر والذى يعتبر الرائد الأول فى مصنفات الخطط التى بلغت ذروتها على يد المقريزى ، ومنهم أيضا الكندى المتوفى سنه ٣٥٠ هـ/ ٩٦١م وإبن زولاق وهو الحسن بن إبراهيم المتوفى سنه ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧م وإزدهرت الحركة الأدبية كذلك أزدهارا كبيرا فى بلاد

---

[1] د. سيده إسماعيل كاشف مصر فى عصر الولاة ص ١٨١

[2] د. سيده إسماعيل كاشف أحمد بن طولون ص ٢٣٢ ، مصر فى عصر الأخشيديين ص ٣٠٣

[3] منتصر تاريخ العلم ٥٣

[4] د. جمال الدين سرور تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ط ١٩٧٦ ص ٢١٣

[5] المرجع نفسه ص ٢١٤-٢١٦

الشام ومصر .[1]

وبعد أن قامت الدولة الفاطمية فى مصر اتجهت الحركة العلمية اتجاها آخر ، فقد أدى مجيئهم إلى مصر إلى ضرورة القضاء على المذهب السنى وإقامة مذهبهم الشيعى الذى يقوم على أسس ودعائم تخالف مذهب أهل السنة ، وكان من نتائج ذلك أن إنقسم العلماء إلى فريقين يعمل أولهما على تأييدهم ويفند الفريق الآخر آراءهم[2] وقد أبدى المصريون من أول الأمر حرصهم على عدم التحول عن مذهبهم السنى وكتب لهم جوهر الصقلى أمانا يتضمن التزام العقيدة وإتخذ الفاطميون منهجا خاصا لنشر دعوتهم وتدعيم وسائل نشرها فعينوا لها رئيسا يعرف بداعى الدعاة[3] يعاونه إثنى عشر نقيبا ونوابا فى سائر البلاد، وكان داعى الدعاة يعقد المجالس فى المكان المخصص له بقصر الخليفة وبالجامع الأزهر .[4]

وقد وجه الخليفة المعز لدين الله الدعوة توجيها علميا فكان يؤلف الرسائل والمحاضرات التى تتضمن أصول المذهب الإسماعيلى وخصائصه ويبعث بها إلى قاضى قضاته أبى حنيفة النعمان المغربى فيليقها على الناس ، فيحدثنا هذا القاضى بأنه "لما فتح المعز لدين الله أمير المؤمنين باب رحمته، وأقبل عليهم بوجه فضله ونعمته أخرج إلى كتابا من علم الباطن وأمرنى أن أقرأه عليهم فى كل يوم جمعة فى مجلس قصره المعمور بطول بقائه فكثر إجتماع الناس وغص بهم المكان وخرج احتفالهم على حد السماع وملأوا المجلس الذى أمر بإجتماعهم فيه[5]"

---

[1] د. محمد جمال الدين سرور . تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ٢٠٧-٢٣١

[2] أحمد أمين . ظهر الإسلام جـ٣ ص ٤٨٣

[3] القلقشندى . صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٨٣

[4] د. محمد جمال الدين سرور . مصر فى عهد الدولة الفاطمية ص ٤٧٠ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٦٤-٣٤٥

[5] أبن خلكان. وفيات الأعيان جـ٢ ص ٤٤٠ -٤٤١ المقريزى الخطط جـ٢ ط بولاق ص ٣٤٠

ومن أشهر علماء الدعوة الفاطمية يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز ، وكان له أثر كبير في نشاط الحياة العقلية في مصر ، فيذكر المؤرخون أنه رتب لنفسه مجلسا في كل ليلة جمعة وثلاثاء يقرأ فيه مصنفاته على الناس ويحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وغيرهم من وجوه الدولة فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدون المدائح. وكان في داره قوم يكتبون القرآن وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب حتى الطب وقد نبغ ابن كلس في دراسة الفقه الفاطمي حتى أنه ألف فيه عدة كتب [1] ويحدثنا المقريزي أن الناس كانوا يفتون بكتابه في الفقه كما درس فيه الفقهاء بجامع عمرو [2]

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلي وتشجيعهم فقهاءه ، فقد ظهر في عهدهم علماء مذاهب السنة ، وكانوا يلقون دروسهم على جمهور المستمعين ، ومن فقهاء المالكية برز محمد بن سليمان المعروف بأبي بكر محمد النعالي المتوفى سنه ٣٨٠هـ/٩٩٠م وكانت حلقته بجامع عمرو تدور على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها [3] ومنهم على بن الحسن بن محمد الفهري الذى ألف كتاب فضائل مالك ، كما شرح الموطاء[4] وكذلك لمع من علماء المذهب الشافعي أبو الحسن على بن الحسن الموصلي المتوفى سنه ٥١٨هـ/ سنه ١١٢٤م [5].

وقد عمل هؤلاء من خلال الأمان الذى أعطاه جوهر الصقلي لأهل السنة ، واستنكروا تعاليم المذهب الفاطمي ووسائل نشر دعوتهم ، لكنهم لم يعلنوا ذلك جهرا خشية أن يتعرضوا لاضطهاد الدولة الفاطمية ، وحدث مثل ذلك عندما أمر الظاهر فأخرج من بمصر من الفقهاء المالكية. [6]

---

[1] راجع محمد جمال الدين سرور . تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ٢٣٤
[2] المقريزي خطط جـ٢ ص ٣٤١
[3] المقريزي خطط جـ٢ ص ٣٤١
[4] السيوطي. حسن المحاضرة جـ١ ص ٢١٢
[5] السيوطي. حسن المحاضرة جـ١ ص ١٨٨ ، الفقه على المذاهب الأربعة طبع وزارة الأوقاف ص ٦٣
[6] المقريزي خطط جـ١ ص ٣٥٤

وإذا كان الجامع الأزهر ومجالس الدعوة فى قصور خلفاء الفاطميين من مراكز نشاط الفاطميين فى تنظيم دعوتهم فقد كان إنشاء المكتبات سبيلا أيضا لذلك ، فألحقوا بالقصر الشرقى الكبير مكتبة تعد من مفاخرهم ، وكان بهذه المكتبة أربعون خزانة كتب فى سائر العلوم ، وتحتوى كل خزانة على رفوف ، والرفوف مقطعة بحواجز وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف مجلد فى الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء.[1]

وفاقت مكتبة القصر الفاطمى غيرها من مكتبات العالم الإسلامى، وأولى هذه المكتبات دار الحكمة ببغداد التى يقال أن الرشيد وضع أساسها ، والثانية مكتبة أنشاها الحكم المنتصر بن عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى بقرطبة بالأندلس سنه (٣٥٠هـ - ٣٦٦هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦م) على أن هاتين المكتبتين لم تصلا فى عظمتهما وجلالهما إلى ما وصلت إليه مكتبة الفاطميين وقد وصفها المقريزى بأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها". [2]

وكانت دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م من أشهر المراكز العلمية بالقاهرة وقد أطلق عليها هذه التسمية رمزا إلى الدعوة الشيعية لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة. [3]وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم ويصف المقريزى هذه المكتبة فيقول "وجعل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بجعلها من سائر العلوم والآداب مالم ير مثله مجتمعا لأحد من الملوك وأباح ذلك لسائر الناس على طباقتهم والنظر فيها.. وحضرها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلم وجعل فيها ما يحتاج إليه الناس من الحبر والأقلام والورق والمحابر [4]"

---

[1] المقريزى خطط جـ١ ص ٤٠٨

[2] المقريزى، خطط جـ١ ص ٤٠٨

[3] سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ٢٣٨

[4] المقريزى، خطط جـ١ ص ٤٥٨

وكان الطلاب فى دار الحكمة يتلقون إلى جانب فقه الشيعة كثيراً من علوم اللغة والفلك والرياضة والفلسفة والمنطق وهكذا إختلفت مناهج التعليم فى هذا المعهد عن مناهج التعليم بالمساجد فى العصر الفاطمى إذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية العقلية ، بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية، فقد كان بدار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب[1] وقد استطاعت دار الحكمة بفضل أساتذتها وما كان لها من جمع بين مناهج فنون جمعت بين الدراسة العلمية والفقهية أن تجتذب كثيرا من أعلام الشرق أمثال ناصر خسرو الرحالة الفارسى والداعى ابن الصباح اللذان وفدا إلى مصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى.[2]

وقد أدى الصراع العقائدى بين الشيعة والسنة إلىغلق دار العلم هذه فترة من الزمن فقد حدث أن الوزير الأفضل بن أمير الجيوش فى سنه ٥١٦ هـ/ سنه ١١٢٢م أمر بإغلاقها بسبب ما وصل إليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاث الشافعى والحنفى والمالكى ، يترددان على دار العلم وأن كثيرا من الناس أصغوا إليهما ، واعتنقوا هذا المذهب ، ولكن فترة لم يطل أمدها فقد أعاد فتحها الخليفة الأمر بعد وفاة الأفضل.[3]

وكان للشدة المستنصرية أثرها على نهب كثير من كتب مكتبة القصر الفاطمى.[4] ولكن بعد إنتهاء هذه الشدة إستطاع الفاطميون أن يعوضوا بعض ما فقدوه ، فجلبوا إلى مكتبة القصر كثيرا من الكتب الجديدة حتى أصبح فى قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة[5] ولكن الأيوبيين للأسف الشديد قضوا على هذه المكتبة برغبة القضاء على المذهب الشيعى.

---

[1] خطاب عطية. التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ص ١٥٨ . د. محمد جمال الدين سرور . تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ٢٣٨

[2] سرور . المرجع نفسه ص ٢٣٨-٢٣٩ . منتصر . تاريخ العلم ص ٦٥

[3] المقريزى خطط جـ١ ص ٤٥٩ ، د. محمد جمال الدين سرور . تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ٢٣٩

[4] المقريزى خطط جـ١ ص ٤٠٩ منتصر تاريخ العلم ص ٦٥

[5] د. زكى محمد حسن – كنوز الفاطميين ص ٢٦

وكان لإهتمام الخلفاء الفاطميين بالدعوة أثر كبير فى نشر المذهب الشيعى ، فقد أجرى العزيز بالله لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير يلازمونه ، أرزاقا تكفيهم فى كل شهر وأمر لهم ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى صلاة العصر ، وكان لهم من مال الوزير أيضا جملة فى كل سنة وعدتهم خمسة وثلاثون رجلا ، وخلع عليهم العزيز بالله في يوم عيد الفطر وحملهم على البغال [1]"وقد أصبح الجامع الأزهر نتيجة كل هذا فى نهاية القرن ٤هـ/ ١٠م معهدا علميا أكثر منه مسجدا، [2]كذلك وقف الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر وبيت الحكمة أوقافا عظيمة ، ويذكر المقريزى أن الحاكم كان يؤكد أن هذه وقفية دائمة للأبد لا يوهنها تقادم السنين [3]كذلك كان الحاكم يكرم الفقهاء والعلماء يدعونهم إلى حضرته وإهدائهم الخلع.

ومما سبق يتضح أن ازدهار الحركة العلمية فى العصر الفاطمى كان مرتبطا بمجهود الفاطميين فى نشر المذهب الشيعى والدعوة له والإقناع به ، وهو المجال الذى قام فيه الجامع الأزهر بدور كبير بالإضافة إلى دار الحكمة ومجالس العلم الأخرى.

وكان نتيجة نشاط الفاطميين فى نشر المذهب الشيعى أن وصل المد الشيعى إلى العراق ، ووصل بغداد على يد البساسيري سنه ٤٥٠هـ ١٠٥٨، وقد بث الظاهر سنه ٥٢٥هـ/١١٣١م دعاته ببغداد أيضا عند إختلاف الأتراك بها ، فكثرت دعاته هناك ، وأستجاب لهم خلق كثير.[4] وكان لابد أن تواجه الحكومات السنية فى الشرق هذا المد الشيعى ، فكتب ببغداد محاضر تقدح وتشكك فى نسب الخلفاء الفاطميين إلى على بن أبى طالب وسيرت هذه المحاضر إلى الآفاق.[5]

كذلك وقع عبء هذه المهمة على دولة السلاجقة الفتية التى عملت على تقوية المذاهب السنية والقضاء على الحركات الشيعية التى وجدت لها

---

[1] المقريزى خطط جـ١ ص ٣٤٠ . منتصر : تاريخ العلم ٢٣٧

[2] منتصر. تاريخ العلم ص ٧٤-٢٣٧ .

[3] المقريزى. خطط جـ١ ص ٣٤٠

[4] المقريزى خطط جـ١ ص ٣٥٤

[5] المرجع نفسه جـ١ ص ٣٥٤

تربة خصبة بين الطبقات الشيعية وكان إنشاء المدارس السنية هو النهج السليم لتحقيق هذا الهدف. ولهذا فإن ظهور المدارس يعتبر رد فعل لنشاط دور العلم الشيعية إذ كانت الوظيفة الأساسية للمدارس نشر المذاهب السنية ومحاربة المذاهب عن طريق العلم والتدريس. [1] فلم تعرف المدارس زمن الصحابة ولا التابعين ، ويذكر المقريزى "أنه حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ، وبنى بها الأمير سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أخو السلطان محمود بن السبكتكين مدرسة ، وبنى أيضا المدرسة السعيدية وبنى بها أيضا مدرسة رابعة. [2]

وكان إنشاء المدارس كمنشآت تعليمية مراكز إنتقلت إليها مجالس العلم ومنتديات الأدب من قصور الخلفاء والمساجد خاصة بعد أن تعددت حلقات الدرس فى المساجد فى نفس الوقت مما كان يحدث الضوضاء والضجة مماعد معوقا ، واتضحت صعوبة استخدام المسجد للتدريس والصلاة. [3]فحلت المدارس هذه المشكلة.

وتسمية "المدرسة" لم تنتشر قبل القرن ٥هـ/ ١١م فقد اتخذت معاهد العلم التى أنشئت بجوار المساجد أسماء أخرى كدار الحكمة و "بيت الحكمة" "ودار العلم" بالإضافة إلى المكتبات ، ولكن فيما يبدو أن تسمية هذه المنشآت بالمدرسة كان له صلة وثيقة بالوظيفة التى أنشئت من أجلها فهى تقوم لدراسة الفقه السنى القائم أصلا على دراسة كتاب الله العزيز ويبدو أنه كان لدعوة كتاب الله إلى دراسته أثر كبير فى هذه التسمية ، وقد جاء نص ذلك فى أكثر من موضع فى قوله تعالى :"وكذلك نصرف الأيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون.[4] وقوله :"ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا من دون الله ولكن كونوا ربابين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون"[5] وقوله : "فخلفوا من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله

---

[1] د. حسن الباشا. دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٠٠

[2] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٩٢ . د. حسن الباشا دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٠٠

[3] منتصر . تاريخ العلم ص ٥٥

[4] قرآن كريم سورة الأنعام آية رقم ١٠٥

[5] قرآن كريم سورة آل عمران أية رقم ٧٩

يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعلقون"[1] وقوله :"إن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ان كنا عن دراستهم الغافلين".[2]

وإشتقاق التسمية فى اللغة يؤكد هذا المعنى فقال أبن سيده : درس الكتاب يدرسه درسا ودراسة ، ودراسة من ذلك كأنه عاوده حتى انقاد لحفظه، وقد قرىء بهما وليقولوا درست ، ودارست ، ذاكراتهم ، وحكى درست أى قرئت"[3] وقال أبن جنى ودرسته إياه وأدرسته ومن الشاذ قراءة أبن حيوه "وبما كنتم تدرسون" والمدرس : الموضع الذى يدرس فيه "[4]

وكانت أول الأمر لتعليم العلوم الدينية ثم عرفت العلوم الدنيوية كالطب وغيره طريقها إليها ، فقد أمر المستنصر أن يعين طبيب حاذق بمدرسته المستنصرية يثبت عنده طلاب من المسلمين يشتغلون عليه فى علوم الطب ويوصل إلى الجميع ما يوصل إلى الفقهاء والمحدثين من أجور .[5]

وقد أنشئت المدراس فى أول الأمر علي نفقه المدرسين أنفسهم ففى نيسابور أسس ابن فورك مدرسة على نفقته ، وفى مرو شيد أبو حاتم السبتى مدرسة تشتمل على مكتبة وغرف لإيواء الطلبة الغرباء[6] وكذلك كان الحال فى المدارس التى أنشئت بنيسابور ، فالبيهقية أسسها البيهقى وأخرى أسسها أبو سعد إسماعيل بن على بن المثنى الإسترابادى الصوفى الواعظ ، وثالثة بنيت على يد أبى أسحق الإسترايينى[7] وقد كان ذلك منطقيا إذ أن علماء المذهب السنى كانت مسئوليتهم قبل غيرهم دفع الخطر الشيعى ودعم المذهب السنى ، هذا بالإضافة إلى أنه فى قلب إيران الشيعية كان الإمام الشافعى أحد أئمه الفقه الإسلامى قد أوجد مراكز دينية سنية وجدت متنفسها بعد ذلك بإنشاء

---

(1) قرآن كريم سورة الأعراف آية رقم ١٦٩

(2) قرآن كريم سورة الأعراف آية رقم ١٥٦

(3) المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٦١ ط. بولاق.

(4) المقريزى. خطط ج٢ ص ٣٦١ ط. بولاق.

(5) د. ناجى معروف. تاريخ العلماء المستنصرية جـ١ . ط الثالثة ص ٢٥

(6) د. حسن الباشا. الفنون الإسلامية والوظائف جـ٢ ص ١٠٤٨

(7) جرجى زيدان. تاريخ التمدن الإسلامى جـ٣ ص ٢٠٠-٢٠١

هذه المدارس .

ولكن هذه المدارس التى أسسها هؤلاء لـم يكن لها الصبغة الرسمية ولم يكن لها المظهر المعمارى اللائق إلا بعد رفعة الأتراك .[1] ثم أخذ الحكام من منطلق سياسى بيد هؤلاء العلماء فأعطوا المدارس الصفة الرسمية وأصبح إنشاؤها على يد الدولة ، وكانت المدرسة السعيدية التى أنشأها نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي أمير نيسابور من أوائل المدارس التى أنشئت على يد الدولة [2]"

والحق أنـه منذ بداية منتصف القرن ٥هـ/١١م بدأت الدول تسهم بطريقة فعالة فى حركة تأسيس المدارس بحيث صارت منشآت رسمية أو شبه رسمية ذات معالم واضحة محددة ويزاول فيها المدرسون مهامهم التعليمية.[3]

وقد إزدهرت حركة بناء المدارس فى عصر السلاجقة وكانت الرغبة فى نشر المذهب السنى ومحاربة المذهب الشيعى السبب الرئيسى وراء تأسيسهم للمدارس ونشرها فهم يريدون كسب ولاء الدولة العباسية التى إعتمدوا عليها لدعم نفوذهم والتى كانت فى الوقت نفسه قد فقدت قوتها السياسية بحيث أمن السلاجقة تهديدها لنفوذهم وسلطانهم ويريدون من ناحية أخرى القضاء على المذهب الشيعى الدعامة الفكرية والعقائدية للدولة الفاطمية والذى إمتد خطره حتى وصل إلى العراق وإيران ولذلك كان اعتمادهم على مدرسين من الفقهاء السنيين ولا سيما الشافعية الذين صاروا من أشد فقهاء السنية تعصبا ضد الشيعة على إختلاف نحلهم السياسية[4]

وكان نظام الملك من أوائل السلاجقة الذين فطنوا إلى أهمية المدارس والمدرسين ، فأسس مدارس فى كثير من أنحاء الدولة السلجوقية ، وعين لها المدرسين من أشهر العلماء المعاصرين ، وبذل لهم العطايا والمنح ، ورتب

---

[1] أرنست كونل . الفن الإسلامى ص ٤١ د. حسن الباشا دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٠٠

[2] أبن تغرى بردى النجوم جـ٥ ص ١٦٤ ، جرجى زيدان تاريخ التمدن الإسلامى جـ٣ ص ٢٠٠-٢٠١

[3] د. حسن الباشا . دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٠١

[4] د. حسن الباشا . دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٠١

لهم الأرزاق فكانت المدارس النظامية مثالا يحتذى به فى المدارس التى أنشئت بعد ذلك.[1]

ومنذ منتصف القرن ٥هـ/ ١١م أخذت المدارس تنتشر فى الدولة السلجوقية وآسيا الصغرى على نمط المدارس النظامية ، وكانت المدرسة تقام بها الصلوات وتشتمل على مساكن للطلبة.[2] وكانت لها أوقافا يؤخذ من ريعها مصارف المدرسة وما تحتاج إليه من عمليات ترميم وبناء والباقى ينمى لصالح المدرسة فأصبح بذلك للمدرسة نوع من الإستقلال الإقتصادى فى مصارفها.[3]

وقفى الأتابكة على آثار السلاجقة فى العناية بتأسيس المدارس ، فأمتدت المدارس فى عهدهم نحو الغرب ، فبنيت فى الموصل وإربل وسنجار ونصيبين وغيرها. كما أنشئت فى سوريا المدارس التى دخلت فى صراع عقائدى مع المذهب الشيعى الفاطمى والكنيسة الصليبية وبإنتصارها عليهما تأكد نظام المدارس السنية.[4]

وتولى نور الدين محمود بن زنكى فكرة تشييد المدارس سائرا على نهج السلاجقة ، وفى عهده انتشرت المدارس فى الشام والجزيرة ، وأنشئت فى دمشق وحلب وحماة وبعلبك وحمص والرقة والبصرة ومنبج وكان يفد

---

[1] المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٦٢ ، أبن تغرى بردى. نجوم جـ٥ ص ١٢٥ ، ص ١٨٦ جـ٦ ، ص ٢٣٢ ، ناجى معروف، التوقيعات التدريسية ص ٢٦٧، أرنست كوتل الفن الإسلامى ص ٦١ ، د. أحمد فكرى. مساجد القاهرة ودراستها جـ٢ ص ١٠٨ د. حسن الباشا، تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠٢ عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ص ٧٣-٧٤

[2] د. حسن الباشا. تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠٤

[3] القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٠ ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

[4] د. حسن الباشا. دراسات الحضارة الإسلامية ص ١٥٥

إليها العلماء من نيسابور وبغداد وقرطبة وغرناطة ومراكش.[1]

ولم يكن الأمراء والسلاطين وحدهم منشئو المدارس فقد تسابق القادرون على إنشائها من أقارب الأمراء وأعوانهم [2] والقضاة[3] والفقهاء[4] وكان القادر منهم ينشئ أكثر من مدرسة[5]، وكذلك تسابقت النساء إلى إنشاء مثل هذه المدارس.[6]

وكان من نتائج تيارات هذه الحركة أن حول كثير من الدور إلى مدارس. [7] وأصبح إنشاء منشآت تدعم المذاهب السنية من مدارس وخنقاوات وربط قاعدة تتبع عند تعمير المدن فيذكر أبن واصل أن الظاهر عندما قام بإعادة تعمير حلب كانت هذه المنشآت موضوعة في التخطيط فيذكر أن "تقسمت فى البلد القاعات والمدارس والخانقاهات والربط"[8].

وقد أسلم نور الدين نهضة إنشاء المدارس إلى خلفه صلاح الدين بعد أن تلقاها وراعاها عن سلفه العظيم نظام الملك ، ويرجع الفضل إلى صلاح الدين فى نشر المدارس السنية فى مصر كوسيلة من الوسائل الرئيسية التى إتبعها فى القضاء على المذهب الشيعى والدولة الفاطمية.

وقد اتبع صلاح الدين سياسة متكاملة للقيام بهذه المهمة العظيمة ، تنوعت أساليبها ومسالكها فى وضع نهاية للدولة الفاطمية والقضاء على مذهبها وإتحدت على هذا الهدف ، وقد بدأ هذه المهمة عندما كان وزيرا للعاضد آخر خلفاء الفواطم - فكثر القول منه ومن أصحابه فى ذم العاضد ، وتحدثوا بخلعه وإقامة الدعوة العباسية بالقاهرة ومصر.. فضيق على أهل

---

[1] د. حسن الباشا دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٠٥ منتصر تاريخ العلم ص٧٣

[2] أحمد فكرى. مساجد القاهرة ومدراسها جـ٢ ص ١٠٩

[3] أبن واصل. مفرج الكروب جمال الشيال جـ٣ ص ٦٠، ابن تغرى بردى النجوم جـ٦ ص ٢٨٠

[4] ابن واصل. المرجع نفسه جـ٣ ص٩

[5] ابن تغرى بردى النجوم جـ٥ ص ١٢٥

[6] المرجع نفسه جـ٥ ص ٢٧٨ ، جـ٦ ص ٧٩ ،جـ٧ ص ١٨١

[7] المرجع نفسه جـ١٠ ص ٢٩٨

[8] المرجع نفسه جـ٦ ص ٥٥

القصر وصار العاضد معتقلا تحت يده ، وأبطل من الأذان "حى على خير العمل" ، وأزال شعار الدولة وخرج بالعزم على قطع خطبة العاضد [١] وإتخذ إجراءاته فى القضاء على الشيعة فعزل قضاة مصر الشيعة وقلد القضاء صدر الدين عبد الملك بن درياس الشافعى وجعل إليه الحكم فى إقليم مصر كله ، فعزل سائر القضاة ، وإستناب قضاة شافعية ، فتظاهر الناس من ذلك سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م بمذهبا مالك والشافعى رضى الله عنهما واختفى مذهب الشيعة إلى أن نسىمن مصر"• [٢] على حد قول المقريزى•

وقد عمل صلاح الدين على تدعيم المذهب السنى فى مصر بإنشاء المدارس ، كما فعل أسلافه فى بلاد إيران والعراق والشام• [٣]والمعروف أن مصر كانت قبل الفواطم سنية المذهب كسائر أقاليم الدولة التى كانت تدين بالمذهب السنى بفروعه الحنفى والشافعي والمالكي والحنبلي والتى اتبعها المسلمون فيذكر ابن خلدون "أن التقليد عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات فى العلم، ولما خشى منه أسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه ، فصرحوا بالعجز والإعواز،وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء فكل له من اختص من المقلدين وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم يبق إلا نقل مذاهبهم ، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقيه غير هذا ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الإسلام إلى اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة•[٤] ويذكر المقريزى أنه عملت لأهل هذه المذاهب المدارس والخوانك والزوايا والربط بين سائر ممالك الإسلام ، وعودى من تمذهب بغيرها ، وأنكر عليه ، ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد مالم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب ، وأفتى فقهاء هذه الأمصار فى طول هذه المدة

---

[١] ابن واصل• مفرج الكروب جـ٢ ص ١٨٦-١٨٧

[٢] المقريزى• خطط جـ٢ ص ٣٥٨

[٣] المرجع نفسه جـ٢ ص ٣٥٨

[٤] الفقه على المذاهب الأربعة • طبع وزارة الأوقاف ص ٣١-٤٥ المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٣٣

بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ماعداها والعمل على هذا إلى اليوم.[1]

وكان انتشار هذه المذاهب فى مصر على قدر متفاوت ، وكان المذهب الحنفى ما شيا فى مصر مدة تمكن الدولة العباسية فيها ، وانتشر أيضا مذهبى مالك والشافعى ، ولم ينتشر مذهب الحنابلة بمصر إلا فى القرن ٧هـ/١٣م ، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا فى القرن ٤هـ/١٠م وفى هذه الأثناء حكم الفاطميون مصر فتوقف النشاط السنى إلى أن عاد على يد صلاح الدين[2] وكان يتولى القضاء حنفيون تارة ومالكيون أو شافعيون تارة أخرى ، وقد بقى الحال كذلك إلى أن غلبت الدولة الفاطمية على مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م فولوا القضاة من الشيعة ، فظهر مذهبهم وصار هو المعول عليه فى الفتيا والقضاء. أما العبادات فقد أتيح للناس - كما ذكرنا - أن يتبعوا أى مذهب من مذاهب أهل السنة ، ولكن فى عصرهم خبا مذهب أبى حنيفة لأنهم كانوا يغضون منه ، وقد استظهر بعض الباحثين أن ذلك ناشئا من أنه مذهب الدولة المناوئة لهم فى الشر[3]

ولما جاء صلاح الدين واستوزر للفواطم ، بدأ العمل على إحياء هذه المذاهب بسياسة جديدة تحكمت فيها ظروف القضاء على الدولة والمذهب الشيعى.

فمع نهاية العصر الفاطمى ، ومع ضعف الخلفاء الفواطم ، بدأ ظهور المدارس السنية فى مصر ، وكانت أولى التى أنشئت بالإسكندرية لبعدها عن القاهرة عاصمة الفواطم ولانتشار المذهب المالكى بها ، وقد أنشئت هذه المدرسة على يد راضوان بن ولخشى وزير الخليفة الفاطمى الحافظ سنه ٥٣٢هـ ١١٣٧م وكانت للمالكية[4] ثم أعقب ذلك بناء مدرسة ثانية للشافعية

---

[1] المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٤٣

[2] الفقه على المذاهب الأربعة ص ٤٢

[3] الفقة على المذاهب الأربعة ص ٢٧

[4] أنشئت هذه المدرسة للفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوف المتوفى ٥٨١هـ/ سنه ١١٨٥م، راجع المقريزى. إتعاظ الحنفا حوادث سنه ٥٣٢هـ تحقيق د. جمال الدين الشيال وأعلام الإسكندرية ص ١٢١ لنفس المؤلف. غنيمة. تاريخ الجامعات الإسلامية ص ٨٢-٨٣ ود. أحمد فكرى مساجد القاهرة ومدارسها جـ٢ ص ٥٠

على يد الوزير العادل سيف الدين على إبن السلام وزير الخليفة الظاهر سنة ٥٤٤هـ ١١٤٩م[١] .

ولما تولى صلاح الدين وزارة الخليفة الفاطمى العاضد ، كان ذلك بداية عهد جديد لإنشاء المدارس السنية في مصر فقد كانت من دعائمة الأولى للقضاء على المذهب الشيعى ونشر المذهب السنى ، وقد بدأ صلاح الدين حربه الفكرية والمذهبية ضد الشيعة بإنشاء مدرستين، سنه ٥٦٦هـ ١١٧٠م بجوار جامع عمرو ، خصص إحداهما وهى التى تعرف بالناصرية للشافعية، وخصص الثانية التى عرفت بالقمحية للمالكية[٢] وما أن قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية حتى واصل سياسة إنشاء المدارس للسنية فى أنحاء البلاد وإقتدى به أمراء ورجال دولته ، وسار خلفاء صلاح الدين من سلاطين وملوك بنى أيوب على نهجه فى إنشاء المدارس . [٣]

وقد خصصت بعض هذه المدارس لمذهب واحد [٤] ومنها ما أنشئ لمذهبين . [٥] ثم تطورت المدارس بعد ذلك فأصبحت للمذاهب الأربعة .[٦] وكانت المدرسة المستنصرية التى أنشئت ببغداد من أولى المدارس[٧] التى خصت للمذاهب الأربعة[٨] ، وكانت الصالحية التى أنشاها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٨ أولى هذه المدارس فى مصر .[٩]

---

[١] ابن خلكان . وفيات الأعيان جـ٣ ص ١١٨ ويقول ابن خلكان "كان العادل ظاهر السنيين شافعى المذهب ، ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفى إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به ثم صار العادل المذكور واليا به ، وزاد فى إكرامه وعمر له مدرسة فوض تدريسها إليه ، وهى ومعروفه به إلى الآن ، ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعية سواها .

[٢] المقريزى . خطط جـ٢ ص ٣٦٢ ابن تغرى بردى النجوم جـ٦ ص ٥٤-٥٥ جـ١٠ ص ٣٣٧ أحمد فكرى مساجد القاهرة ومدارسها جـ٢ ص ٥٠ وما بعدها .

[٤] المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٤٢

[٥] المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٦٤ ابن تغرى بردى النجوم جـ٦ ص ١١٦، ٢٨٠ جـ٥ ص ٣١٠، جـ٦ ص ١٩ د. أحمد فكرى . مساجد القاهرة ومدارسها جـ٢ ص٥٠

[٦] المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٩٠ د. أحمد فكرى مساجد القاهرة ومدارسها جـ٢ ص ١١٢

[٧] أرنست كونل . الفن الإسلامى ص ٦١-٦٢

[٨] د. ناجى معروف تاريخ علماء المستنصرية جـ١ ص٢٥

[٩] د. سعيد عاشور . تاريخ العصور الوسطى ص ٣٩٣

وكان لإنتشار المدارس فى مصر فى العصر الأيوبى أن قام ديوان الأحباس والأوقاف بالصرف عليها٠[1] لينتظم العمل بهذه المنشآت التعليمية ويستمر ٠ وقد وجد كل طالب علم بمصر فى العصر الأيوبى بالمدارس مسكنا يأوى إليه ، ومدرسا يعلمه ، وراتبا يقوم بجميع أحواله بفضل تلك الأوقاف التى وقفها الأيوبيون على هذه المنشآت[2] وإن كان هناك من المدارس ماليس له أوقاف ٠[3]

ومما سبق يتضح أن حركة إنشاء المدارس فى مصر والشام إزدهرت إزدهارا كبيرا على يد الأيوبيين ، وكان الهدف الرئيسى من ذلك تدعيم المذهب السنى للقضاء على المذهب الشيعي الفاطمي ، وقد تكونت للمدرسة فى هذا العصر شخصيتها المعمارية التى تلائم وظيفتها من وجوب إشتمالها على أواوين للدراسة ومكتبة ملحقة بها يتزود الطلبة منها بما يحتاجون من مراجع[4] ومالحله يكون بها من قاعات أخرى للإقراء[5] وقد ألحق أحيانا ببعض المدارس ببمارستانا لمداواة الطلبة ، فقد أمر صلاح الدين بإقامة واحدة من هذا الطراز حيث أن أبن جبير يذكر "ونصب صلاح الدين لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ووكل به أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشترون بها من علاج وغذاء وكان ذلك لطلبة مدرسته التى أنشأها باللإسكندرية [6] وكانت تبنى بعض المدارس معلقة٠ [7] ليشغل الدور السفلى فى عمل حوانيت ومخازن تدرريعا للمدرسة ، كذلك كان يبنى بالمدارس مساكن للطلبة والمدرسيين بها[8] وما يستوجبه ذلك من مرافق ومنافع أخرى كالميضاة ودورات المياة والحمام والمطبخ

---

[1] محمد أمين٠ تاريخ الأوقاف رسالة دكتوراه جـ١ ص ٢٩٨-٢٩٩

[2] منتصر تاريخ العلم ص ٧٠-٧٤

[3] أبن تغرى بردى النجوم جـ٥ ص ٥٥ ، جـ٧ ص ١٣٢

[4] أبن تغرى بردى النجوم جـ٦ ص ١٣٢

[5] أحمد فكرى٠ مساجد القاهرة ومدارسها جـ٢ ص ٥٢

[6] أبن جبير ٠ الرحلة ط بيروت ص ١٥

[7] المقريزى٠ خطط جـ٢ ص٣٦٣

[8] أبن تغرى بردى ٠ النجوم جـ٦ ص ١٣٤، جـ١ ص ٤٩ هامش٠

وغيرها .[1]

وكانت هذه المدارس تشغل مساحة كبيرة من الأرض لما يلحق بها من منشآت فالمدارس الصالحية [2] كانت تشغل مساحة لا تقل عن ٦٠٠٠متر٢[3] وكان بناء المدرسة يتم تحت إشراف دقيق من أهل العلم فهم أعرف بما يريدون ومايحتاجون في منشآتهم ، فعندما عمر صلاح الدين مدرسة الشافعي بالقرافة تولى الشيخ نجم الدين الخبوشاني عمارتها[4] وكان المهندس يوائم بين متطلبات رجال العلم وبين الموقع الذى تنشئ عليه المدرسة ويستغل ذلك أحسن أستغلال ومثال ذلك المدرسة الخاتونية التي تعتبر من أعاجيب الدهر كما يذكر المؤرخين حيث" يمر بصحنها نهر بانياس ونهر القنوات على بابها[5] .

وأمام هذا الأهتمام جاءت المدارس فى أحسن صورة فيقول أبن جيير عن المدرسة النورية الكبرى التى أنشئت سنه ٥٦٣هـ/ سنه ١١٦٨م أنها أحسن مدارس الدنيا مظهرا وهى قصر من القصور الأنيقة به كل ما يحتاج إليه أى معهد علمى للدراسة العليا وبه قسم داخلى مكتمل المرافق.[6]

وقد حدث فى العصر الأيوبى تطور هام فى تخطيط المدارس وأصبح فيما بعد - بعد تدعيم المذهب السنى فى العصر المملوكى - من الأسباب الرئيسية فى إنشاء الكثير من المدارس والخنقاوات والمساجد الجامعة .

ويتمثل هذا التطور فى إلحاق ضريح بالمدرسة وكان السلطان نور

---

[1] منتصر تاريخ العلم ص ٥٦

[2] سميت مدارس ربما الأن السائد قبل ذلك أن المدرسة كانت تنشأ لمذهب واحد أو مذهبين على الأكثر وكانت هذه أول منشأة تضم المذاهب الأربعة فى مصر فكان الجمع ولكن ظلت كل مدرسة وحدة قائمة بذاتها أو شبة مستقلة.

[3] أبن تغرى بردى . النجوم جـ٦ ص ١٦١

[4] المرجع نفسه جـ٦ ص ٧٦

[5] أبن تغرى بردى . النجوم جـ٦ ص ١٧٩ هامش . راجع نزهة الأنام فى محاسن الشام لأبى البقاء عبد الله بن محمد البدوى المصرى الدمشقى ص ٧٦ ط مصر .

[6] منتصر . تاريخ العلم ص ٥٧

الدين أول من فعل ذلك فقد بنى لنفسه ضريحا بمدرسته بالشام[1] وإستقر هذا النظام فى سورية منذ ذلك الحين ثم ثار من التقاليد المتبعة فى عصر المماليك وبمقتضاة صار مؤسس المدرسة يدفن تحت قبة فيها .[2] وتؤكد الحوادث التاريخية هذه الحقيقة فعندما توفي السلطان الملك الظهر أبو منصور غازى صاحب حلب ابن السلطان صلاح الدين دفن بقلعة حلب ثم نقل بعد ذلك إلى مدرسته التى أنشاها[3] وتكرر هذا الحال عندما نقلت رفاة الملك العادل أبى بكر سنة ٦١٩هـ/ سنة ١٢٢٢م من قلعة دمشق إلى مدرسته عند دار العقيقى فدفن بها[4] وهناك من دفن مباشرة فى مدرسته أمثال خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبى الفضل الدولعى فى سنه٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م[4] ولعل فى أوصاف المؤرخين للمدارس ما يؤكد هذا المعنى ، فقد وصف أبن خلكان المدرسة المعزية التى أنشاها عز الدين مسعود بالموصل فيقول "كان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والخنفية فدفن بهذه المدرسة بتربة داخلها - رحمه الله - ورأيت هذه المدرسة والتربة وهى من أحسن المدارس والترب .[5]

ويبدو أن فكرة إنشاء تربة كان لصيقا بفكرة إنشاء المدرسة فعندما أنشاء أبو منصور ملك الدين سليمان بن شروه بن خلدك أخو الملك العادل أبى بكر مدرسته ، وكانت أول الأمر دارا له فحولها مدرسة بنى بها قبرا له دفن فيه بعد وفاته فى المحرم من سن ٥٩٦هـ/١٢٠٠م وأوقف عليها أوقافا .[6]

ويتأكد هذا المعنى من إنشاء المدرسة عندما نعلم أن الملك الأمجد مجد الدين

---

[1] أبن تغرى بردى ٠ النجوم جـ٦ ص ٢٥٣،ص٣٠٢،ص٢٢٣،٣٨٢د٠ حسن الباشا دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٠٦

[2] أبن تغرى بردى النجوم جـ١ ص٢١٧

[3] المرجع نفسه جـ٦ ص ٢٥٣، جـ٣ ص١٧١

[4] المرجع نفسه جـ٦ ص ٢٥٦، جـ٦ص ١٧١

[4] المرجع نفسه جـ٦ ص ٣٠٢

[5] أبن واصل٠ مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٢

[6] النعيمى ٠ الدارلس فى أخبار المدارس ٠ نشر نصر الحسينى جـ١ ص ٤٧٣١-٤٣٢

حسن توفى فى حياة والده ودفن بالقدس الشريف فى مدرسة بنيت له.[1]

ومما سبق يتضح أن إنشاء المدارس فى الإسلام كان مرتبطا بالسياسة أيما إرتباط فيضيف المقريزى عن عملية إنشاء صلاح الدين سنه ٥٦٦هـ/١١٧٠م مدرسة للشافعية بأنه ذلك كان من أعظم ما نزل بالدولة.[2] الفاطمية وتبعا لهذا صار للمدرسين دور سياسى هام إلى جانب وظيفتهم التعليمية فلم يقتصر المدرسون أن يكونوا معلمين أو مجرد مجهزين لموظفين فحسب بل صارت لهم أهميتهم فى مجال السياسة الداخلية والخارجية ، كما كان يختار منهم فى كثير من الأحيان رجال الدولة والإدارة كالولاة وأصحاب الشرطة والوزراء والسفراء وغيرهم كما كانوا بمثابة سند للولاة والأمراء[3] ولا شك أن لهذا دوره المستقل فى تدعيم إنشاء المدارس

ويزيد من قوة تأثير المدارس فى الرأى العام أنها لم تكن مقصورة على طلب العلم ، بل كان يحضر الدرس بها من العامة الكثير ، فنجد مثلا أن مجلس الواعظ أرد شير بن منصور أبو الحسين العبادى بالنظامية ببغداد كان يحضره ثلاثون ألفا.[4]

وأمام هذه الأهمية للمدارس تابع الأيوبيون إنشاءها وتابعوا عنايتهم كذلك بالمذاهب الأربعة ، وقد ظهر الإهتمام واضحا بالمذهب الشافعى عند إنشاء المدارس وربما كان ذلك لأنه أكثر المذاهب تشددا بالنسبة للشيعة فمقابل مدرسة واحدة للمالكية أنشا صلاح الدين ثلاثة للشافعية ، وتابع خلفاء صلاح الدين سياسته فى انشاء المدارس وكان بعض هذه المدارس يتخذ الصفة الرسمية وهى التى أنشاها الأمراء والوزراء وأفراد الأسرة الأيوبية. أما بقية المدارس الأخرى فيمكن اعتبارها مجرد بيوت يجلس فيها الشيخ مع تابعيه وتلامذته ، وكانت إحدى هذه المدارس للمذهب الحنبلى ، وقد أنشئت بدافع

---

[1] أبن واصل مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٧٤ وفى هذا العصر بنيت كذلك قباب منفصلة للدفن بجانب قباب المدارس، راجع النجوم لأبن تغرى بردى جـ٦ ص٢٨٩ جـ٦ ص ٥٣-١٢٥ ص ١٤١ هامش

[2] المقريزى . خطط جـ٢ ص ٣٦٢

[3] د. حسن الباشا. دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٠١

[4] أنب تغرى بردى . النجوم جـ٥ ص ١٨٦

شخصي فقد أنشاها عز الدين عبد الوهاب بدون مساعدة الدولة أو المسئولين وكان ذلك بدون تدخل الدولة نفسها ، فكانت هذه المدرسة نتيجة التسامح أكثر من كونها مدرسة رسمية. [1]

ويعتبر تأسيس دار الحديث الكاملية سنه ٦٢٢هـ/١٢٢٦م إشارا إلى تطور أيوبى آخر ، فبينما كانت المدارس الرسمية تختص بدارسة المذاهب الفقهية ، فإن دار الحديث ركزت على فن الحديث وهو المصدر الثانى من مصادر التشريع[2]

وكان إنشاء دار الحديث الكاملية المثال الأول من نوعه فى مصر وكان الثانى بالنسبة للعالم الإسلامى. ذلك أن أول من بنى دار للحديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمد بن زنكى بدمشق [3] ويلاحظ أن المؤرخين المعاصرين لا يطلقون عليها أسم "المدرسة"لما لذلك من اتصال بمدارس الفقه ، ولكن المحدثين يسمونها أحيانا بالمدرسة الكاملية "وربما كانت السبب فى ذلك أن الأمير حسن كتخدا عندما جدد هذه الدار جعل على بابها لوحة منقوش عليها "أحيا هذه المدرسة الكاملية" دار الحديث" بعد الإندراس وأعادها محكمة البناء والأساس الأمير حسن كتخدا مستحفظان الشعراوى صانه الله من المساوئ وكان له وقاية فى الدارين وسببا فى الجمع بين الحسنيين سنه ١١١٦هـ". وبالرغم من أن النص يتضمن إسم المنشأة الأصلى "دار الحديث" فقد كان إسم المدرسة هو الشائع فى ذلك الوقت على أى منشأة تعليمية حتى أن بعض الباحثين إعتقد أنها كانت تودى نفس الوظيفة للمدارس الأخرى وأشار إلى أن المقريزى لم يشر إلى المذهب الذى كانت موقوفة

---

(١) Lapidus .Ayyubid Religious Policy angd deveploment of schools of law in Cairo.P.١٨٢.

٢ Lapidus. Ibid. P.١٨٢.

(٣) المقريزى خطط جـ٢ ص٣٧٥

عليه!؟[1]

وأعتقد أن الصحيح أن تظل هذه المنشأة بمسماها الأصلى "دار الحديث" لأن تسميتها مأخوذة من الوظائف التى كانت تؤديها ، فهى بذلك تمثل نوعا من المنشآت الدينية التى أنشئت أصلا لدراسة الحديث النبوى الشريف .

وإذا تتبعنا تطور هذا النوع من المنشآت الدينية فنجد أن دار الحديث كانت تشارك أحيانا مع دور القرآن "الكتاتيب" فتبنى دور مشتركة للقرآن والحديث معا مستقلة عن مدارس الفقه ، أو تجعل فى المساجد كما فى مسجد "قمرية" بالجانب الغربى من بغداد ، وظلت دور الحديث كذلك إلى أن أنشئت المستنصرية حيث صارت دور الحديث على الأغلب تلحق بمدارس الفقة إلى إلى جانب مدارس الطب ، ودور القرآن . أسوة بالمستنصرية ويلاحظ فى الوقت ذاته أن دور الحديث ظلت تؤسس مستقلة حتى بعد هذا التاريخ كدار حديث منبج ، ودار السنة النورية بالموصل ودار الحديث المها جرية بسكة أبى نجيح بالموصل أيضا . وأستمرت دور الحديث ودور القرآن المشتركة تقوم بمهمتها العلمية كما كان الحال فى مسجد قمرية على أننا نجد بعض المنشآت الدينية التى لتجميع بين دراسة القرآن والحديث والفقة[2] بعد أن أدمجت وظيفة دراسة الحديث مع الوظائف الأخرى ، ويظهر هذا بوضوح عند التعرض لوظائف المنشآت الدينية فى عصر المماليك .

وإستمرار إنشاء المدارس الأيوبية بعد إنشاء دار الحديث الكاملية يؤكد أن هذه النوعية لها خصوصيتها ، وأن إنشاء المدارس كان هو الاتجاه العام ، فقد شيدت ثلاث مدارس بعد الكاملية بالإضافة إلى إحدى وعشرين مدرسة شيدت فى المدة من سنه ٥٦٦ إلىسنه ٦٢٢هـ (١١٧٠ - ١٢٢٥م) وهو مؤشر يبين قوة بداية إنشاء المدارس فى بداية العصر الأيوبى وصحة الهدف الرئيسى من إنشائها وهو القضاء على المذهب الشيعى .

---

[1] د . أحمد فكرى . مساجد القاهرة ومدارسها جـ٢ ص ٥٤ وقفت هذه المدرسة أصلا للحديث وتذكر بعض المصادر أن الواقف نصح بأن تكون للفقه إذا تعذر عمل دار للحديث .

[2] ناجى معروف . تاريخ علماء المستنصرية جـ١ ص ٢٦

وخلاصة القول أن السياسة الأيوبية مثلت فترة خاصة وهامة فى تطور السياسة الدينية بمصر ، فبالرغم من مرور عدة قرون على الحكم الفاطمى فقد ظلت المذاهب السنية باقية وان كانت تنمو ببطء عن بقية العالم الإسلامى، وكانت مهمة الأيوبيين هى أن يعدوا أجيالا من الفقهاء لمنشآت دينية متطورة تتصف بالسة الرسمية ، فكانت سياستهم لدعم المذاهب الفقهية بإنشاء المدارس وبإجراءات أخرى ساعدت على ذلك ، وقد بدأ الأيوبيون سياتهم بتفضيل المذهب الشافعى فقد كان أعمق المذاهب بمصر وكان يعتنقه غالبية الشعب المصرى ، وكان نظام القضاء يسير عليه[1]، بالإضافة إلى أنه أقوى المذاهب عداء للشيعة كذلك كان مذهب مالك قويا بالإسكندرية - كما ذكرنا - ولكنه بدى أكثر ضعفا بالقاهرة ولكن أسست له المدارس المالكية ، وإن لم يسمح للمالكية بتولى القضاء ، ولم يكن للمذهب الحنفى شخصية واضحة فى مصر ، ففى عصر الدولة العباسية كان القضاة الذين يعينون فى مصر إما عراقيين أو إيرانيين لاعتبارات سياسية أكثر من أنه كان ممثلا لمدارس الفقه ، وفى عصر الفواطم لم نجد ما يشير إلى أحد الحنفية بمصر حتى قدوم صلاح الدين ، وعلى العكس من ذلك نجد أن بلاد الرافدين وسوريا بها مدرسة حنفية فقهية رسمية للفئة الزنجية ، وجاء المذهب الحنفى إلى مصر وأسست لهم مدرسة جديدة[2] ولكن أنكر حقهم فى القضاء ، وبالرغم من أن الحنفيين قويت شوكتهم بعد ذلك إلا أنهم بقوا ضعاف نسبيا فى العصر الأيوبى ، أما الحنابلة فد كانوا أضعف هذه المذاهب وظلوا كجماعة فقهية ليس لها أى صفة رسمية ، وبالرغم من أنه أسست سنه ٥٩٥هـ/١١٩٩م مدرسة لهم فى القاهرة فأنهم لم يشاركوا فى العصر الأيوبى مشاركة جادة ولهم يفكر أحد فى طردهم[3]

وقد قويت نتيجة هذه السياسة المذاهب الأربعة وكان لاختلاف تشجيع الأمراء والسلاطين للمذاهب المختلفة كل حسب معتقده[4] أثر كبير فى ذلك .

---

[1] وزارة الأوقاف الفقه على المذاهب الأربعة ص ٣٨،٣٧ وقد كان صلاح الدين يميل إلى هذا المذهب وإستند إلأى أحكامه فى كثير من أجراءاته لمحاربة الشيعة وقد أغلق الجامع الأزهر وأقر الخطبة بجامع الحاكم إستنادا إلى إمتناع إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد كما يقول الشافعى [المقريزى خطط جـ ص ٢٧٤]

[2] المقريزى . خطط جـ٢ ص ٣٤٢

[3] المقريزى . خطط جـ٢ ص ٣٤٢

[4] المقريزى . خطط جـ٢ ص ٣٤٢

أما بالنسبة للعقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى تلميذ أبى على الجباتى ، وشرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعى فى القَرافة ، والمدرسة الناصرية التى عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو والمدرسة المعروفة القمحية بمصر وخانقاة سعيد السعدا بالقاهرة[1] وهكذا وضع الأيوبيون الأساس الذى سار عليهم خلفهم من المماليك فإقاموا بناءهم على هذا الأساس وفق ظروف الحياة فى عصرهم.

[1] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٤٢

الفصل الثالث

" وظيفة مبانى الصوفية

ونشأتها قبل العصر المملوكى"

إن دراسة نشأة التصوف الإسلامى وتتبع مراحل تطوره تعتبر الأساس الأول لدراسة منشآته وتتيح التعرف على تخطيطات مبانى الصوفية ووظيفة وحدات هذه المبانى فلا شك أن الطريقة التى كان يعيش بها الصوفية ومراحل حياتهم فى التصوف وتنسيق العلاقة بين الشيخ ومريديه انعكس على تخطيط منشآتهم ، بل إن هذه الحياة هى الوظيفة التى أنشئت من أجلها هذه المبانى ، فالصوفية بزهدهم وتعففهم ومحافظتهم على أداء الفروض والاستغراق فى العبادة ، وما يسلكون من حب للخلوة والإنفراد وما يرونه من رغبة فى التعرف على خلق الله والرحلة فى طلب العلم والإنتقال والترحال على أرض البسيطة وعدم إنكارهم للرزق ، كل هذا وغيره من صلات ربطت بينهم وبين من حولهم اتفاقا واختلافا كعلاقتهم بالأمراء والسلاطين أو علاقتهم بالفقهاء والفلاسفة كل ذلك كان له أثره المباشر أو غير المباشر على تخطيط منشآتهم ، وكلما اختلفت أو تطورت طريقة حياتهم تطور شكل مبانيهم انعكاسا لهذا التطور وتصديقا للنظرية المعمارية التى تقول : إن الشكل يتبع الوظيفة[1]

وسنتتبع فى هذا الفصل نشأة التصوف الإسلامى ، ونتتبع وظيفة التصوف حتى بداية العصر المملوكى لنتعرف على الوظيفة التى كانت تؤديها منشآت الصوفية فى ذلك العصر ٠

"نشأة التصوف الإسلامى"

نشأ التصوف الإسلامى نشأة إسلامية فقد ظهرت بذوره الأولى فى نزعات الزهد التى سادت العالم الإسلامى فى القرن الأول الهجرى ، وكان قوامه الانصراف عن الدنيا ومتاعها والعناية بأمور الدين ومراعاة أوامر الشريعة ، وكانت غايته التى يتطلع إليها العباد والزهاد هى الظفر برضوان

[1] د٠ عرفان سامى ٠ نظرية الوظيفية فى العمارة ص ١٨

الله والنجاة من عقابه.[1]

ولما كان الزهد هو النواة التى قام عليها التصوف الإسلامى فإن مصدر التشريع الأول وردت به مادة زهد التى اشتق منه الزهد مرة واحدة فى قصة يوسف فى قوله تعالى "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين"[2] وليس لها أي معنى يتعلق بالتصوف فهى هنا مستعملة فى مقام اللوم والتأنيب ، ولكن كلمة التبتل التى هى أقدم من كلمة الزهد موجودة فى القرآن فى قوله تعالى "وأذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا"[3] والمراد بها نوع من العبادة التي أمر الله بها ، ومن الألفاظ التى وردت فى القرآن فى وصف لفظ السائحين والسائحات فى قوله تعالى "التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف."[4] وقوله "مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات "[5]

وإذا كان القرآن مصدر التشريع الأول قد ورد به هذه الأيات المتعلقة بالزهد ، فإن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدر التشريع الثانى وجد بها ما يشير إلى تكريم حياة الزهد والزاهدين وما يشير إلى احتضان الرسول لأهل الصفة [6] وثنائه على السلوك الصوفى ، فقد كا ن للنبى فريق من الصحابه رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يلازمون مسجده ووهبوا أنفسهم للعبادة وكفوا أيديهم عن الدينا وأعرضوا عن الكسب وإن الله عز وجل عاتب

---

[1] الهجويرى. كشف المحجوب . ترجمة وتعليق د. أسعاد عبد الهادى قنديل سنه ١٩٧٥ ص ٢٨

[2] قرآن كريم. سورة يوسف آيه رقم ٢٠

[3] قرآن كريم سورة المزمل آيه رقم ٨

[4] قرآن كريم سورة التوبة آيه رقم ١١٣

[5] قرآن كريم التحريم آيه رقم ٥

[6] أهل الصفة هم جماعة من فقراء المسلمين آووا إلى مسجد رسول الله واستظلوا بسقيفته. ويعتقد البعض ان اشتاق صوفى رَاجع إلى اهل الصفة هؤلاء راجع الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص ٢٢٧

النبى من أجلهم فقال تعالى " ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه [1]"وكتاب الله ناطق بفضلهم ، وللرسول فى مناقبهم أقوال كثيرة، فيروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى (ﷺ) قال "وقف رسول الله (ﷺ) على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال"أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضيا بما فيه فإنه من رفاقى فى الجنة[2] وقال رسول الله (ﷺ) أيضا من سمع صوت أهل التصوف فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين[3]

ومما سبق يتضح أن مصدرى التشريع عند المسلمين بهما إشارات كافية لإقامة حياة الزهد وتشجيع الزاهدين ، فكانت النواة التى قامت عليها دعائم التصوف الإسلامى الذى يختلف عن الرهبانية شكلا وموضوعا ، بل إن القرآن نفسه صرح بأن الرهبانية بدعة إبتدعتها المسيحية فى قوله تعالى " ورهبانية إبتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله [4] "وقال محمد (ﷺ) قوله الشهير "لارهبانية فى الإسلام" وهكذا يتضح الطريق الذى رسمته مصادر التشريع للتصوف الإسلامى بغض النظر عن تلك الحالات الفردية التى تحدثنا بها أخبار الأوائل من المسلمين بأن فئة منهم سكلت هذا الطريق ومن هؤلاء بهلول بن ذؤيب الذى خرج إلى جبل بجوار المدينة ولبس لباس الشعر وربط يديه خلف ظهره بسلاسل من حديد وجعل يصيح "يا رب أنظر إلى بهلول يرسف فى الأغلال ويعترف بذنوبه ، وكذلك أبو لبابه لما ندم على خيانة إرتكبها ربط نفسه إلى عمود فى مسجد المدينة ، وبقى على هذا الحال

---

[1] قر آن كريم سورة الأنعام آيه رقم ٥٢

[2] الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص ٢٨٥

[3] الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص٢٢٧ وهذا الحديث يعنى وجود تسمية أهل التصوف "فى عهد رسول الله وهو نص سابق لأستخدام لفظ "صوفى" الذى بدأ بعد سنه ١٥٠هـ لكن ليس للحديث سند،

[4] قرآن كريم سورة الحديد آيه رقم ٢٨

حتى أيقن أن الله غفر له[1] "ولكن كما يبدو هذه حالات فردية.

وقد انفرد القرن الأول الهجرى بكثير من العوامل التى شجعت على ظهور الزهد بإنتشار الحروب الأهلية الطويلة الدامية التى وقعت فى عهد الصحابة وبنى أمية ، والتطرف العنيف فى الأحزاب السياسية ، وازدياد التراخى والاستهتار فى المسائل الأخلاقية ، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية Theocracy التى حاول المسلمون إرجاعها ، كل هذه العوامل حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدينا ، ومتاعبها وحولت أنظارهم إلى الخلوة ووضعت أمالهم فيها ، ثم دخل إليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية إلى أقدم صورة نعرفها للتصوف الإسلامى ، وظلت هذه الحركة تحمل طابع مذهب أهل السنة الدقيق طيلة حكم بنى أمية أى نحوقرن من الزمان. وكان القائمون عليها من أشهر أتقياء المسمين بل كان كثير منهم من القراء وأهل الحديث وعلماء الدين ، ومن هؤلاء جميعا أستمدت قوتها وشبابها ، ومن أشهر الشخصيات فى الزهد التى تمثل روح ذلك العصر أبو الحسن البصرى الذى يمكن إعتباره مؤسسا لمدرسة البصرة فى الزهد والتصوف[2]"

وبينما كان هؤلاء الزهاد الأوائل بعض العلماء الذين كانوا يعيشون فى المدن ولم يحرموا أنفسهم الإختلاط بالناس ، نرى أن حركة الزهد تغلغلت فى نفوس العامة الذين نظروا إلى الحياة ومتاعها نظرة إستخفاف وإحتقار ، وفروا من الحياة إلا جتماعية فرارا لا جئين إلى الكهوف والمغارات والمقابر هائمين على وجوههم فى الصحارى والجبال وسواحل البحار[3]

ومما سبق يتضح أنه فى القرن الأول الهجرى ظهرت بذور التصوف فى نزعات الزهد القوية التى سادت العالم الإسلامى فى هذه الفترة ، وسرعان ما تحول الزهد إلى التصوف ولذلك فإن أبو الحسن البصرى وهو من أشهر ممثلى حركة الزهد ، يعد فى نظر الصوفية واحدا منهم.

---

[1] نيكلسون فى التصرف الإسلامى وتاريخه ص ٤٣

[2] نيكلسون فى التصرف الإسلامى وتاريخه ص ٤٦.

[3] المرجع نفسه ص ٤٨

وفى القرن الثانى الهجرى بالغ الزهاد فى حياة الزهد وتركوا متاع الدنيا ، وكان لابد وأن يتسموا باسم خاص فأطلق عليهم إسم الصوفية ، وكان تصوف هؤلاء امتدادا لزهد زهاد القرن الأول الهجرى مع شئ من المبالغة[١]، ويذهب القشيرى إلى أن كلمة صوفى قد استعملت قبل نهاية القرن ٢هـ [٢] فقد أطلقت أول ما أطلقت على أبى هاشم الكوفى المتوفى سنه ١٥٠هـ/٧٦٧م [٣] بينما يرى البعض أن جابر بن حيان كان أول من تلقب بذلك [٤] ومن قائل كلمة صوفى فى أول أمرها كانت مقصورة على الكوفة[٥] ولم تأخذ لفظة "الصوفى" معناها الاصطلاحى إلا بعد منتصف القرن ٢هـ،٨م فقد أخذت تشتهر بعد ذلك وتطلق على من تميز سلوكهم بما يوافق هذا الاصطلاح ، وكأننا كنا نطلق الكلمة قبل وصولها إلى مدار الإصلاح والإشهار على كل من أتسم بخصوصية فى التعبد أو التزهد ، وهذا أمر طبيعى فى نشأة المذاهب والنحل لأنها لا تصل إلى مرحلة التقنين والاصطلاح إلا بعد مرورها بشعاب مختلفة تتجمع شيئا فشيئا لتأخذ أتجاها واحدا.[٦]

أما التصوف فى القرن الثالث الهجرى فقد ظهر فى صورة جديدة تختلف عن سابقتها ، وقد ظهر بهذا القرن رواد التصوف ولعل أبرزهم ذى النون المصرى الذى توفى سنه ٢٤٢هـ/٨٥٦م والذى هو أحق رجال

---

[١] الهجويرى. كشف المحجوب جـ١ ص ٢٨

[٢] القشيرى - الرسالة ص ٥٤ ط مصر سنه ١٣٣٠هـ إختلفت الأراء حول إشتاق كلمة صوفى وتعددت الأراء فى أصلها هى من الصفة أو الصفاء أو الصوف واللاستزادة راجع الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص ٢٢٧-٢٣٠والمقريزى خطط جـ٢ ص ٤١٧ د. إبراهيم بسيونى نشأة التصرف الاسلامى ص ٩-١٦

[٣] جامى. نفحات الأنس ص ٣٤ د. إبراهيم بسيونى نشأة الترف الإسلامى ص ١١٣،١١٤

[٤] د. إبراهيم بسيونى. نشأة البعوث الإسلامية ص ١١٣-١١٤

[٥] دائرة المعارف الإسلامية . مادة تصرف جـ١ ص ٢٦٦

[٦] د. أبراهيم بسيونى. المرجع نفسه ص ١١١

الصوفية على الإطلاق بأن يطلق عليه أسم واضع أسس التصوف[1] ومما يذكر عنه أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع[2] التى هى من أهم تقاليد المتصوفة.

وقد سار تطور التصوف فى طريقتين : أولهما تنظيم التعاليم الدينية التى كان لها وجود بالفعل قبل التصوف والتوسع والتدقيق فى معانيها ، وثانيها اكتساب تعاليم ورسوم جديدة.[3] فقد كان التصوف فى بادئ أمره صورة من صور الحياة الدينية لا يأخذ بها إلا الأفراد ولا يأخذ عن هؤلاء الأفراد إلا خاصة أصحابهم ، ثم أصبح رويدا رويدا حركة منظمة ومدرسة يتخرج فيها الأولياء ولها قواعدها ورسومها من حيث سيرة المريدين وأخلاقهم وعبادتهم فأصبح المريد يتلقى قواعد الطريق الصوفى على أستاذه ، ويخضع لهذا الاستاذ خضوعا أعمى.

وهناك من الأدلة الواضحة ما يشير إلى أن رجال التصوف فى القرن ٣هـ/٩م لم يقتنعوا بحياة الزهد والعزلة عن الناس ، بل تطلع المريد الذى سلك طريق القوم إلى أن أصبح شيخا عظيما ومرشدا ملهما يظهر فى الحفلات العامة ومن حوله أتباعه الكثيرون المعجبون به.

وقد بدأت محاضرة الناس فى التصوف فى هذا القرن ، وكان يحيى بن معاذ الرازى المتوفى سنه ٢٥٨هـ/٨٧٢م أول من حاضر الناس فى التصوف، ثم قفى على آثاره من بعده أبو حمزة البغدادى المتوفى سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م الذى كان أول من صاغ المعانى الصوفية وشرحها كتابة وأنه كان يعلم التصوف سرا فى بيوت خاصة وفى السراديب[4] فى حين كان الشبلى المتوفى سنه ٢٣٤هـ/٨٤٨م يتكلم فى مسائل التصوف علانية، ومن هنا نستنتج أن الخليفه المتوكل أعاد إلى أهل السنة سابق نفوذهم ، وأن الخلفاء العباسين كانوا أكثر تسامحا وأقل إضطهادا للصوفية منهم لرجال المعتزلة

---

[1] أبو العلا عفيفى. فى التصرف الإسلامى وتاريخه ص ٧

[2] المرجع نفسه ص ٨

[3] المرجع نفسه ص ١٩

[4] جامى نفخات الأنس ص ٣٦

والمعروف أن الصوفية فى بادئ عهدهم لاقوا أنواعا شتى من الإضطهاد فى بغداد واتهموا بالزندقة ولعل حادثة ما يعرف بمحنة الصوفية فى بغداد أكبر دليل على ذلك[1]

وقد وضع صوفية القرن ٣هـ/٩م ومن بعدهم صوفية القرن ٤هـ/١٠م نظاما متكاملا فى التصوف من ناحيتيه النظرية والعلمية وصار للصوفية أساتذه وتلاميذ وقواعد للسوك ، وبذلوا ما وسعهم من جهد للتوفيق بين تصوفهم وبين القرآن والسنة اللذين إتخذوهما أساسا لجميع أقوالهم وأفعالهم[2]

وهكذا تبلورت حياة المتصوفة وأصبحت حاجتهم إلى مبنى يعيشون فيه حياتهم الخاصة حاجة ضرورية ، فظهرت الخنقاوات والربط الزوايا ، وإنتشرت الخنقاوات والربط منذ نهاية القرن ٤هـ/١٠م وعم إنتشارها فى القرن ٥هـ/١١ وما بعده٠

وقد ذكرت المراجع إشارت سابقة عن إنشاء مبانى للصوفية ، فيذكر المقريزى "أن أول من أتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة ، وليس لهم تجارات ولاغلات فبنى لهم دورا وأسكنهم فيها ، وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس[3]" وكان هذا فى خلافة عثمان بن عفان وكان المكان يسمى بيتا للعبادة٠ ثم ذكر جامى أن أول خانقاة أسست لمتصوفة المسلمين كانت بالرملة فى فلسطين وكانت قبل نهاية المائة الثامنة الميلادية على ما يظهر وأن مؤسسها كان راهبا مسيحيا[4] ثم يأتى نص آخر يؤكد على وجود خنقاوات فى هذا العهد المبكر فيذكر أبو تراب النخشبى المتوفى سنه ٨٥٩م ما يشير إلى أستنكاره للقعود فى الخنقاوات فيقول "من لبس منكم مرقعة فقد سأل ومن قعد فى الخانقاة أو فى المسجد فقد سأل ومن قرأ القرآن فى

---

[1] جامى٠ نفخات الأن ص ٢٨ نيكلسون فى التصرف الإسلامى وتاريخه ص ٢٠

[2] نيلكسون المرجع نفسه ص ٢٠

[3] المقريزى٠ خطط جـ٢ ص ٤١٣ ط بولاق

[4] جامى٠ نفخات الأنس ص ٣٤ - نيكلسون - فى التصرف الإسلامى وتاريخه ص ٣ ص ٥٦،ص ٥٧

المصحف أو كيما يسمع الناس فقد سأل[1]"

وإذا كانت هذه الإشارات المتفرقة تشير إلى الأمثلة الأولى لمبانى الصوفية فإن الصوفة إلى جانب أستخدامهم هذه المبانى التى أنشئت خاصة بهم استخدموا المساجد فى القرن٣هـ/٩م لنشر الدعوة إلى التصوف • ويمكن القول بأن المساجد[2] كانت هى المقر الرئيسى للمتصوفة قبل إنتشار الخوانق فى نهاية القرن ٤هـ/١٠م وبداية القرن ٥هـ/١١م خاصة وأن مؤلفات التصوف فى القرنين الرابع والخامس [3] الهجرين لم تشر إلى مثل هذه الخنقاوات• ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزى من أن الخنقاوات" حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة وجعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى[4]"

والخوانق جمع خانقاة وهى كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها خونقاة أى الموضع الذى يأكل فيه الملك[5]ثم أصبحت تطلق على البيوت التى يختلى فيها الصوفية للعبادة.

الربط أيضا من المبانى التى خصصت للمتصوفة، والمعروف أن الربط كانت فى بداية أمرها منشآت تنشئ على حدود الدولة الإسلامية وثغورها يرابط بها المرابطون للدفاع عن هذه الحدود وتلك الثغور ، وكان يقيم بها هؤلاء الجند إقامة تامة معيشة وعبادة ، ولما استقرت الدولة الإسلامية تحولت وظيفتها الحربية إلى وظيفة دينية فأصبح الرباط مكان يرابط فيه المتصوف للعبادة ، وكان الرباط يحتوى على الشبان والشيوخ على السواء ، وعلى أصحاب خدمة وأرباب خلوة وفيه زوايا خاصة للخلوة ، وحجرة عامة يسمونها "بيت الجماعة" ويقول السهروردى أن المشايخ بالزوايا أليق ، نظرا لما تدعوا إليه النفس من النوم والراحة والإستبداد والحركات والسكنات• أما

---

(1) أبو العلا عفيفى• فى التصرف الإسلامى وتاريخه ص ٤٦ نقلا عن الحلية جـ١٠ ص ٤٦ س ٣

(2) الهجويرى • كشف المحجوب جـ١ ص ٣٨-٧٦،٢٦٦

(3) من هذه المؤلفات حلية الأولياء لأبى نعيم ، قوت القلوب لأبى طالب المسكى والرسالة للقشيرى

(4) المقريزى• خطط جـ٢ ص ٤١٣

(5) المرجع نفسه جـ٢ ص ٤١٣

الشبان فيقعدون فى بيت الجماعة حابسين أنفسهم حارسين لها، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو واللفظ فالأولى أن يلتزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة ويؤثر الشيخ الشاب بزوايته وموضع خلوته ليحبس الشاب نفسه عن دواعى الهوى والخوض فيما والخوض فيما لا يعنى ، وعند ذلك يحل الشيخ محله فى بيت الجماعة لقوة حاله وصبره على مدأراة الناس وحضور وقاره بين الجميع فينضبط به الغير ولا يتكدر هو"[1]

ومما سبق يتضح أن الرباط من المبانى التى أنشئت للمتصوفة من الشبان الذى يبدأون حياتهم الصوفية وأن الرباط كان له نظام خاص به ووضعت المؤلفات التى تبين وتشرح تفاصيل حياة المتصوفة داخلها.

وكذلك كان الحال بالنسبة للخنقاوات فقد أسس النظام الذى يسير وفقه الصوفية داخلها ويعزى إلى أبى سعيد بن خير - وهو أحد أعلام التصوف فى القرن ٤-٥هـ/ ١٠-١١م أنه أول من أسس نظام الخنقاوات فى الإسلام فقد كان يعيش بين مريديه فى عدد من هذه الخنقاوات ووضع لحياتهم بها القواعد والأسس.[2]

وهكذا يمكن القول بأن الصرح الكامل للتصوف الإسلامى الذى خلد على الزمان وبدأ متين الأساس شامخ البنيان ، قد أرسى قواعده وأسسه رجال الصوفيه الذين عاشوا فى القرنين ٣-٤هـ/ ٩-١٠م، فانتشر الصوفية فى هذين القرنين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وأخذوا ينظمون أنفسهم فى جماعات وفرق لها طرقها الخاصة وشيوخها وسالكوها وكانت هناك مدارس كثيرة للتصوف فى هذه الفترة لكل منها طابع معين [3] وقد أنشئت لهؤلاء المتصوفة الخنقاوات والربط كأماكن للإقامة والتعبد.

وظهرت فى القرن ٤هـ/١٠م أيضا مؤلفات الصوفية فى محاولة لصد حملات النقد التى أخذ يتعرض لها الصوفية ولإرسال قواعد أسس التصوف

---

[1] راجع كتاب عوارف المعارف لشهاب الدين عمر السهرودى المتوفى سنه ٦٣٢هـ ١٢٣٤م وهى مخصص لحياة المتصوفة داخل الربط لاسيما فى الفصول ١٢،١٨،٤٨،٥٢

[2] الهجويرى. كشف المحجوب جـ١ ص ٦٧

[3] المرجع السابق جـ١ ص ٣١

وشرح تعاليمه وتوضيحها ، وكانت البداية بتأليف الكتب فى مقامات الصوفية[1] ولاشك أن انتشار حركة التأليف فى التصوف دعمت تياره فزاد انتشاره وازدهاره ،

وقد ساعدت الظروف التى عاشها القرن ٥هـ/١١م على إنتشار وإزدهار التصوف ، فقد سادت الإضطرابات والمنازعات فى النواحى السياسية والدينية والعلمية فكانت الخلافات مستمرة بين الخلفاء العباسيين فى بغداد ومن يوالونهم من الحكام السنيين كالغزنويين والسلاجقة فى إيران وبين الفاطميين فى مصر وأتباعهم من الشيعة والباطنية الذين انتشروا فى أنحاء كثيرة من العالم الإسلامى وخصوصا فى إيران ، ففى الناحية الدينية كانت الخلافات المذهبية على أشدها وكثر النزاع بين الفرق الإسلامى ولم يكن النزاع مقصوراً على السنة والشيعة بل تعدى ذلك إلى المذاهب السنية فيما بينها ، أما الناحية العلمية فلم تكن أحسن حالا فقد سرت العداوة والبغضاء بين أهل العلم وأستحكم الخلاف بين الفقهاء والفلاسفة بحيث إنقرض البحث وركد كل ما كان مخالفا للدين والسياسة ،[2]

وعلى الرغم مما أوجدته هذا الاضطرابات والقلاقل والمنازعات من أثر سئ فى شتى المجالات إلا أنها أحدثت نتائج عكسية فى مجالين هما مجال التصوف الإسلامى والمجال العلمى ،

وفى مجال التصوف ساعدت هذه الاضطرابات على انتشاره كبيرا ذلك أن أضطراب الحياة السياسية وتفرق الناس فى مذاهبهم شيعا وأحزابا ، وجنوح كل فريق إلى التعصب أشاع فى الناس اليأس والقنوط وملأ نفوسهم بالخوف والقلق ، فلم يجدوا لهم ملجأ غير التصوف ،

ومن ناحية أخرى فإن الإنشغال بالإضطرابات السياسية والمنازعات الدينية هيأ الفرصة للصوفية لترويج مبادئهم ونشر تعاليمهم وكان لبعدهم عن

[1] من بين هذه الكتب كتاب اللمع لأبى نصر السراج المتوفى سنه ٣٧٨هـ/٩٨٨م والتعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى المتوفى سنه ٣٨٠هـ وقوت القلوب لأبى طاهر المكى المتوفى سنه ٣٨٦هـ/ سنه ٩٩٩م راجع الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص ٣١

[2] الهجويرى، كشف المحجوب جـ١ ص ٣٣

المجادلات المذهبية أثر كبير فى أحترام الناس والأمراء والسلاطين لهم أدى إلى إنتشار التصوف وبروز المتصوفة[1]

وظهر فى هذا القرن كثير من رجالات المتصوفة الذين صاروا أعلاما فى حركة التصوف الإسلامى [2] وكثرت كذلك مؤلفات التصوف أيضا كالرسالة للقشيرى وكشف المحجوب للهجويرى وهى مؤلفات اتضح من نهجها الحرص على تصحيح حركة التصوف وتنقيتها من المندسين فيها نتيجة انتشار هذه الحركة ، ثم كان كتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى الذى ألفه فى أواخر القرن٥هـ/١١م والذى يعتبر مصدرا للتصوف السنى [3] بغير جدال وأوضح أن لا خلاف بين الشريعة والحقيقة فصالح ما بين الفقهاء والتصوفة.

واستقر صوفية القرن الخامس الهجرى فى الخنقاوات التى بدأت فى الإنتشار منذ نهاية القرن ٤هـ/١٠م[4] وإزداد انتشارها بشكل ملحوظ فى أواخر القرن ٥هـ/١١م حتى عمت جل أنحاء العالم الإسلامى ، وكان هناك عدد كبير من هذه الخنقاوات فى خراسان والعراق وفارس وأنحاء كثيرة من إيران [5] وكان يديركل خانقاة من هذه الخنقاوات شيخ من شيوخ الصوفية المعروفين، ونجد على رأس هؤلاء أبا سعيد بن أبى الخير الذى يعتبر - كما ذكرنا - أول من شرع نظام الحياة فى الخنقاوات ، وأدار عددا منها[6]

وكان للطرق العديدة التى ظهرت فى الفترة ما بين ٤٥٠-٦٥٠هـ/سنه ١٠٥٨م - سنه ١٢٥٢م أثر كبير فى انتشار طرق التصوف كالعدوية والقادرية والرفاعية وهى التى توالى ظهورها سريعا.

ولاشك أنه كان لصلة الود والعلاقات الطيبة بين المتصوفة وشيوخهم وسلاطين السلاجقة وأمرائهم أثر طيب على انتشار وازدهار التصوف فى هذا

---

(١) د. عبد النعيم حسنين سلاحقة إيران والعراق والقاهرة ١٩٥٩ ص ١٨١

(٢) الهجويرى. كشف المحجوب جـ١ ص ٣٣

(٣) حنا الناضورى. تاريخ الفلسفة العربية بيروت ١٩٥٧ ص ٣٤٧

(٤) المقريزى . خطط جـ٢ ص ٤١٣

(٥) محمد بن المنور أسرار التوحيد ترجمة د. إسعاد عبد الهادى القاهره ١٩٦٦ صفحات ٤١-٨١،٢٥٢،٢٨٢

(٦) الهجويرى - كشف المحجوب جـ١ ص ٣٧

العصر .

ومما سبق يتضح أنه فى القرن الخامس نضح التصوف الإسلامى وانتشر فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ووصل من الشرق إلى مصر على يد صلاح الدين الأيوبى وكان نشر التصوف وإنشاء الخنقاوات فى مصر من أساليبه فى القضاء على المذهب الشيعى وتدعيم ونشر المذهب السنى وكانت أول خانقاة فى مصر سعيد السعدا ، وكانت دارا تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء وهو الأستاذ قنبر ويقال عنبر .. فلما استبد الناصر صلاح الدين بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد عمل هذه برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م وولى عليهم شيخا[١] وهكذا دخل التصوف مصر وإنتشر على يد صلاح الدين الأيوبى ، ولما ورث المماليك دولته إنتشر التصوف فى عهدهم وساعدت ظروف العصر المملوكى على ذلك. [٢]

"حياة المتصوفة"

بعد أن عرضنا بصورة موجزة لتاريخ التصوف الإسلامى حتى بداية العصر المملوكى ، نشير إلى جوانب حياة المتصرفة لأن ذلك يساعد التعرف على الوظيفة التى كانت تؤديها مبانيهم ، بل إن شكل هذه الحياة أثر فى تخطيط وحدات هذه المبانى تأثيرا مباشرا.

وقد امتاز المتصوفة[٣] بحياة خاصة فى ملبسهم وطعامهم وعبادتهم وسلوكهم ، وقد كانت الثياب المصنوعة من خشن الصوف علامة على الزهد

---

[١] المقريزى خطط جـ٢ ص ٤١٤ ط بولاق - أرنست كونل الفن الإسلامى ص ١١٠

[٢] د. سعيد عاشور تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ٥٤٧-٥٤٨

[٣] هناك فارق بين الصوفى والمتصوف والمستوصف فالمتصوف فى مرحلة أدنى من الصوفى ولكن يجمعها طريق واحد ولذلك آثرت أن أستخدم لفظة متصوف لأن كل صوفى يمر بمرحلة المتصوف وليس بالعكس. (راجع نيكلسون فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٣٠-٤١ الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص ٢٣١

قبل الإسلام ، وفى هذه حاكى العرب رهبان المسيحين[1] ، وقد شاع هذا النوع من الثياب بين المسلمين الأوائل ومنه كما يذكر البعض اشتق إسم الصوفية الذى استعمل قبل نهاية القرن ٢هـ ، على أن أسماً آخر أطلق على هؤلاء الزهاد بسبب لباسهم ولكنه كان أقل أنتشارا من إسم الصوفى وهو "مسوحى" نسبة إلى مسوح جمع مسح وهو اللباس من الشعر[2] وقد جرت العادة على أن يلبس الزهاد رجالاً ونساء جبة أو مدرعة من الصوف وأن تلبس المرأة أحيانا غطاء على الرأس بعد ذلك ، وقد حلت محل هذا الملبس تدريجيا - بعد ذلك- المرقعة[3] وكان لا يلبسها إلا من وصل إلى مرتبة عالية من التصوف ولعل الوصف المجازى لها يشير إلى ذلك فيقال إن "خير الإشارات فى المرقعة القول بأن يكون فيها من الصبر ، وكماها من الخوف الرجاء ، وإبطاها من القبض والبسط ، ووسطها من مخالفة النفس وجيبها من صحته اليقين ، وسجافها من الإخلاص[4] وشرط للبس المرقعة لبس الكفن لأنهم يقطعون الأمل فى لذة الدينا يطهرون قلوبهم من راحتها ويقفون عمرهم كله على خدمة الحق جل جلاله ويبرأون تماما من الهوى ومن ثم يعر الشيخ المريد بإلباسه الخلعة وهو يقوم بحقها ويجتهد تماما فى أداء هذا الحق ويحرم على نفسه غياتها[5]"

وكانت هذه الثياب عادة ذات لون أزرق وهو لون يتحمل السفر والسياحة عكس اللون الأبيض الذى لا يبقى فى السفر على حاله ويصعب غسله ويطمع فيه كل شخص ثم إن لبس الأزرق شعار أصحاب الوفاة والمصائب وهو لأناس رداء الحزن والدنيا دار محنة وخربة المصيبة ومغارة الغم وآفة المبتلين بالفراق وحصة البلاء فلما رأى المريدون أنهم لم يبلغوا

---

[1] أبو العلا عفيفى ، المرجع نفسه ص ٤٨

[2] جامى ، نفحات الأنس كلكتا ١٨٠٩ سطر ٩٠،٨٩

[3] أبو العلا عفيفى ، التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٤٩

[4] الهجويرى ، كشف المحجوب جـ١ ص ٢٥٢

[5] الهجويرى ، كشف المحجوب جـ١ ص ٢٥٢

مقصودهم فى الدنيا لبسوا الأزرق وجلسوا فى مأتم الوصال[1] وكانت هذه الملابس قصيرة عملا بالآية الكريمة "وثيابك فطهر "[2]" أى فقصر حتى لا تلحق بها الأدناس ، وقد كان فى اختيار المتصوفة للباس الصوف تنفيذ لسنة رسول الله (ﷺ) الذى حبب النفس فى لباسه[3] وتبعه فى ذلك الخلفاء الراشيدين أبو بكر وعمر[4] وإرتداه الأوائل من الصالحين كالحسن البصرى والإمام الأعظم أبى حنيفة.[5]

أما فى طعامهم فقد كان المتصوفة يقبلون عليه مادام من حلال وقد امتنع البعض عن أكل اللحم امتناعا تاما ولكن لا يظهر أنهم إتخذوا من ذلك عادة لهم بل المعروف أنهم كانوا يأكلون اللحم ، وكان من تقاليديهم أخذ العهود على أنفسهم ألا يقربوا ألوانا خاصة من الطعام كالجزر والتمر مثلا يقصدون من ذلك حرمان النفس بعض مشتهياتها لتطهيرها وإيصالهم إلى مرتبة أعلى.[6]

وكان الزهاد يصومون إلى جانب فريضة رمضان أنواعا أخرى من الصيام تختلف مددها ودرجاتها من الشدة وأصبح هذا النوع من الصيام مع الزمن جزاءا لاغنى عنه فى الزهد الإسلامى وكانت الغاية منه إماتة البطن وإحياء الروح وتحصيل المعرفة الحقة والابتعاد عن المعاصى[7]

وعلى العموم فقد إختلف المتصوفة فى درجة حبهم للطعام أو رغبتهم عنه . ولكن كان لابد أن يتناول كل منهم ما يستطيع به الإستمرار فى الحياة كحد أدنى وقد وجد متصوفة الخنقاوات والربط والزوايا مورد الرزق من

---

[1] كشف المحجوب جـ١ ص ٢٥٠ وهناك من أتخ ألوانا أخرى من ملابسه كأصحاب الطريقة الرفاعية راجع. محمد عبد الستار عثمان الآثار المعمارية للسلطان برسباى بمدينة القاهرة رساله ماجستير ص ١٤٩

[2] قرآن كريم. سورة المدثر آية رقم ٣ الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص ٢٤١

[3] الهجويرى. كشف المحجوب جـ١ ص ٢٤١

[4] المرجع نفسه ص ٢٤١

[5] المرجع نفسه ص ٢٤١

[6] نيكلسون. فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٥٠

[7] المرجع نفسه ص ٥٠

الأوقاف التى كانت توقف عليها لسد رمقهم[1] وقد وضعت الخنقاوات والربط نظاما دقيقا للإطعام فلم يكن يسمح للمتصوفة بالربط أن يأكل أكل الرباط إلا إذا شغلته العبادة والإتصال بالله إلى حد لا يستطيع معه كسب قوته، أو أقعدته السن عن العمل ، أو سمح له الشيخ بإذن خاص يأكل من هذا الطعام فى مقابل عمل قام به ، ومن قواعد العامة التى أخذت بها جميع الربط أنهم لم يسمحوا بأكل طعام الرباط لعاطل ، إلا إذا كان من شروط الوافق على الرباط صرف لجميع أهل الرباط بلا أستثناء.[2]

هناك من الطرق الصوفية ما يعظم نعمة الطعام ويحرص عليه كالطريقة الرفاعية التى ينصح قطبها أحمد الرفاعى بذلك.[3] ولذلك تضمنت الوحدات المعمارية للخانقاة أو الرباط أو الزواية مطبخا لطهى الطعام لساكنيها من المتصوفة أو الواردين عليها.

أما بالنسبة للصلاة فلم تكن الصلوات الخمس المفروضة على كل مسلم كافية فى نظر الغيورين على الدين الجديد ولم يلبث الزهاد أن يجدوا مستندا إليه فى القيام بضروب أخرى من العبادة فقد ورد فى القرآن "ذكر الله" فى آياته كثيرة تعالى "ياأيها الذين آمنوا إذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكره وأصيلا "[4] وقوله "اذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون"[5] وقوله "فاذكرونى أذكركم"[6] وقوله "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر[7]"

ومن هنا بدأ الزهاد الأوائل بذكر الله على نظام خاص لأن الدعوة إلى الذكر لم تحدد طريقا معينا ، ولكنهم سرعان ما عقدوا مجالس الذكر وكانت تقرأ فيها الأدعية والأوراد ويتلى فيها القرآن وأكثروا من صلاة النوافل ومن ذكر أسم الله وتكرير عبارات أخرى كقولهم "لا إله إلا الله"

---

[1] السبكى – معيد النعم ومبيد النقم ص ١٢٥-١٢٦

[2] أبو العلا عفيفى. فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٥٩

[3] محمد عبد ستار عثمان. الآثار المعمارية للسلطان الأشراف برسباى بالقاهرة رسالة ماجستير ص ١٩٥، أحمد الخرمة تذكره السامعين ومقيد السالكين ص ٢٥

[4] قرآن كريم سورة الأحزاب آية رقم ٤١

[5] قرآن كريم سورة الأنفال آية رقم ٤٥

[6] قرآن كريم سورة البقرة آية رقم ١٥٢

[7] قرآن كريم. سورة العنكبوت آية رقم ٤٥

ونحوها.

وقد إعتبر الصوفية الذكر ركنا من الدين بل عدوه الركن الأساسى فى العبادة فيقول القشيرى هو "ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة فى هذ الطريق ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر[1]، بل إن القشيرى نفسه رغم اعترافه بأن الصلوات المفروضات أكمل ضرب من ضروب العبادة فإنه اعتراف بفضل الذكر عليها فى بعض الأوقات والذكر فى القلب مستدام فى عموم الأحوال[2]"

وقد قام رواد التصوف وعلماء الدين بوضع المؤلفات الكثيرة التى تصنف هذه العبادات فى أوقات الليل والنهار وفى نظام دقيق ولعل مؤلفات أبى حامد الغزالى تعتبر أساسا سليما لذلك نوضح النهج الذى يجب على المسلم أتباعه من صلوات وذكر وأدعية واوراد.[3]

وقد كانت مجالس الذكر من أهم عبادات المتصوفة وقد إستمدت هذه المجالس شرعيتها مما جاء عن الذكر صريحا فى حديث رسول الله (ﷺ) عن أنس مالك عن النبى (ﷺ) ما رياض الجنة فى الدنيا ؟ قال حلق الذكر، ويبدو أن مجالس الذكر قد ظهرت وإنتشرت فى نهاية العصر الأموى، ومن أمثلة ذلك مجلس الحسن البصرى فى مسجد البصرة الجامع، ومجلس عيسى بن زادان فى الأيلة سنه ١٢٠هـ/سنه ٧٣٨م، والمتوقع أن يكون الذكر قد تطور فى هذه المجالس ولم يكن مقصورا على تكرار اسم الله وما يشابهه من الصيغ البسيطة.[4] وكان يحضر هذه المجالس من الناس من لهم ميل خاص إلى العزلة والزهد، أو من كانوا يكرهون أحاديث القصاص أو خطب المحترفين من الوعاظ، ولكن الصوفية أنفسهم لاحظوا خطر الترديد الآلى فى الذكر وما شاكله ولذلك لم يشجع صوفية بغداد فى القرن ٣هـ/ ٩م هذه

---

[1] القشيرى. الرسالة ص ١٠١

[2] المرجع نفسه ص ١٠٢

[3] راجع إحياء علوم الدين، وبداية النهاية للإمام أبى حامد الغزالى، ومراقى العبودية للشيخ محمد نووى الجاوى وهو شرح لمؤلف بداية النهاية للغزالى.

[4] د. إبراهيم بسيونى. نشأى التصوف الإسلامى ص ١٦١

الأساليب في العبادة لأنها كانت مجالا لإظهار الرياء[1] وبالرغم من ذلك فقد أنتشر في هذا القرن القوالون والمنشدون في مجالس السماع[2] وإنتشر الرقص في هذه المجالس حتى أن يحيى بن معاذ المتوفى سنه ٢٥٨هـ/ ٨٧٢م يقول

دققنا الأرض على رقص لعبد هائم فيكا
وهذا دقنا للأر... ض إذ طفنا بواديكا

وبهذا يدنوا من أرباب الفنون لأنهم أولا وقبل كل شئ أرباب قلوب وأذواق[3]

وقد أثار السماع بمجالس الذكر خلافا حول تحليله وتحريمه حتى أن أحد أئمة الحديث في مرو في القرن ٤-٥هـ/ ١٠-١١م ألف كتابا في إباحة السماع ، واعترض بعض أئمة التصوف على ذلك أمثال الهجويري لاعتقاده أن السماع أصل الفساد[4] أما القشيري فقد قسم الذكر إلى قسمين ذكر اللسان وذكر القلب وبذكر اللسان يصل الإنسان إلى استدامة ذكر القلب فإذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه حال سلوكه[5]" وقد استمر السماع في مجالس الذكر التي كان يندمج بها الصوفية حتى أنه كان من عاداتهم تمزيق الخرق في هذه المجالس نتيجة اندماجهم بها.[6] وكانت هذه المجالس تعقد في أوقات محددة واختلفت هذه المجالس بإختلاف الطرق.[7] وقد رتب لهذه المجالس أشخاص يساعدون في عقدها كالمادح والمنشد.[8] فكانت تسير وفق نظام معين دقيق.

---

[1] نيكلسون. في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٦١

[2] د. إبراهيم بسيوني . نشأة التصوف الإسلامي ص ٦٢

[3] د. إبراهيم بسيوني. نشأة التصوف الإسلامي ص ١٦٢ وقد تطوت فكرة الحركة داخل حلقات الذكر ودخلت الألات الممسيقية وتلاءم تصميم منشأة التصوف مع ذلك ومن الأمثلة الجيدة على ذلك تكية المولوية التي يعتبرها بعض الباحثين "مسرحا إسلاميا".

[4] الهجويري . كشف المحجوب جـ١ ص ٧٧،٦٤

[5] القشيري. الرسالة ص ١٠١

[6] الهجويري المرجع نفسه ٢٤٨

[7] راجع. محمد عبد الستار الأثار المعمارية للسلطان برسباي بالقاهرة ص ١٩٤

[8] السبكي - معيد النعم ص ١٠٩

وقد استمرت هذه المجالس في العصور التالية وشهد العصر المملوكي اهتماما كبيرا بها مما كان له تأثير على تخطيط مباني التصوف.

وسار المتصوفة الأوائل كذلك على منهج الزهد الذى أقره جمهور المسلمين وهو أن الزهد فى الحرام واجب وفى الحلال فضيلة ، وهو رأى يتفق مع آيات كثيرة من القرآن الكريم كقوله تعالى "قل متاع الدينا قليل والآخرة خير لمن إتقى ولا تظلمون فتيلا[1]" وكان ينحصر فهم المسلمين للزهد فى أول الأمر فى حرمان النفس من الأمور المادية وحدها كالزهد فى الأكل والنوم والإختلاط بالناس وسائر اللذات البريئة فإذا كان لأحدهم رداء واحد - مثلا - ظن أنه سيكون له السبق فى دخوله الجنة على جاره الذى له رداءان [2] ولكن لما بالغ الزهاد فى تضييق دائرة الحلال بحيث لم يعد وصف الحلال عندهم يتفق إلا على القليل من الأشياء حتى كادوا يقولون أنه لاحلال فى الدنيا ، ولما عدوا من واجبهم ترك غير الحلال أنه لا غناء فيه سهل عليهم القول بالزهد فى الدنيا بأسرها بل لم يعتبروا الزهد فى الدنيا بأسرها زهدا حقيقيا [3] أى أن هؤلاء المتصوفة الأوائل يعتبرون أن الزهد الحقيقى مكانه القلب لا الجوارح أو ترك ما يشغل القلب عن الله ، والزهد يكون فى النفس خاصة فإن إنكار الذات هذا إنكار رغبات النفس.[4]

وقد لزم معظم المتصوفة الأوائل حياة العزلة مع قليل من إخوانهم ومريديهم الذين كانوا لهم نفس الهدف ، وكان كثير منهم متزوجا ، بل تزوج بالنصاب الشرعى الكامل من الزوجات كحاتم الأصم البلخى الذى توفى سنه ٨٥١م.

ويقال إن بشر الحافى الذى ظل أعزب طوال حياته كان يفضل على نفسه أحمد بن حنبل الذى اتبع السنة وتزوج [5] وبالرغم من كل هذا ظهر فيما بعد من دعا إلى حياة العزوبية لكنهم لم يفعلوا دائما ما كانوا يقولون ، فنجد

---

[1] قرآن كريم. سورة النساء آية رقم ٧٧

[2] ابى نعيم حليه الأولياء جـ١ ص ٤١

[3] أبو العلا عفيفى. فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٥٣

[4] المرجع نفسه ص ٥٤

[5] أبى طاهر المكى. قوت القلوب جـ١ ص ١٣١ جـ٢ ص ٢٤٧

الحسن البصرى مثلا يقول "إذا أراد الله بعبد خيرا لدينا لم يشغله بأهل ولا ولد [1]"وكان رباح بن عمرو القيسى يقول "لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام ويأوى إلى منازل الكلاب [2]" ويرى أبو سليمان الدارانى أنه "فى الزواج رجوعا إلى محبة الدنيا وأن من صبر على الشدة فالتزوج له أفضل ، وأما الوحيد الأعزب يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجده المتأهل. [3]"ولكن هذه الأراء لم ينعقد عليها إجماع المسلمين فى يوم من الأيام لأنها تتعارض مع النظرية الإسلامية القديمة وهى أن واجب الرجل نحو بيته لا يقل أهمية عن واجبه نحو دينه ، ولهذا لم تكن العزوبية فى وقت من الأوقات شرطا من شروط الدخول فى طريق التصوف. [4] ووجد بين المتصوفة ما هو أعزب وما هو متأهل.

ومنذ البداية كانت العزلة والاختلاء هو ما يسعى إليه المتصوفة فقد أسمتهم خراسان "السكفتية" نسبة إلى السكفت وهو المغارة لأنهم ينعزلون عن الحياة ويهربون إلى الكهوف والمغارات[5] ويقول سهل بن عبد الله "التصوف قلة الطعام والسكون إلى الله والفرار من الناس"[6]

ويؤكد داود الطائى هذا المعنى فينصح قائلا "فرعن الناس فرارك من السبع فما خالط الناس أحد إلا نسى العهد. [7] ويرثى أبن السماك داود هذا قائلا "ياداود ما أعجب شأنك أهنت نفسك تريد كرامتها وأذللتها تريد إعزازها ووضعتها تريد تشرفها وإتبعتها ، كنت أنس ما تكون إذا كنت بالله خاليا وأوحش ما تكون إذا كنت مع الله جالسا قبرت نفسك قبل أن تقبر وأمتها قبل

---

(1) الشعرانى. الطبقات جـ1 ص ٢٥

(2) الشعرانى. الطبقات جـ1 ص ٤٠

(3) قوت القلوب ط ١٣١٠ جـ٢ ص ٢٤٧

(4) نيلكسون. فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٥٦

(5) د. إبراهيم بسيونى نشأة التصوف الإسلامى ص ١١٢

(6) المرجع نفسه ص ١٤٣-١٤٤

(7) د. إبراهيم بسيونى المرجع السابق ص ١٥٧

أن تموت ، وحاسبت نفسك قبل أن تحاسب وعذبت نفسك قبل أن تعذب. "[1]

ويقول أبو العباس البغدادى:

أنست بالوحدة من بعدها — كنت من الوحدة مستوحشا

فصرت بالوحدة مستأنسا — وصارت الوحدة لى مجلسا[2]

ويقول الشبلى "إلزام الوحدة وامح إسمك عن القول وإستقبل الجدار حتى تموت. "[3]

وكانت الصحراء ملجأ المختلين الأوائل فهذا إبراهيم بن أدهم " يخلع ثوب الإمارة ويرمى به بعيدا ، ويبدله بأطمار سائل ثم يغادر قصره ويهجر كل ما يربطه بالعالم حتى زوجه وأولاده ويأوى إلى الصحراء حيث يعيش سائحا عابدا ، [3]ويرى إبراهيم هذا خارجا من الجبل ويقول "جئت من الأنس بالله" ، وهناك من اتخذ صومعة للاختلاء بها مثل أبو قيس بن أنس. [4]

وكان المتصوفة يختلون بالليل ويجدون فيه أنسب الأوقات لذلك حتى أنهم كانوا يحبون الظلام ويستأنسونه. [5] وقد كان ذلك واضحا فى أشعارهم حيث تقول ريحانة:

حب المحب من الحبيب بعلمه — إن المحب ببابه مطروح

والقلب فيه إن تنفس فى الدجى — بسهام لوعات الهوى مطروح[6]

ويقول ذى النوى المصرى راويا عن أحد المجانين من أهل الطريق:

أعميت عينى الدنيا ورؤيتها — فأنت والروح شئ غير مفترق

إذا ذكرتك وافى مقلتى أرق — من أول الليل حتى مطلع الفلق

وما تطابقت الأجفان من سنة — إلا رأيتك بين الجفن والحدق[7]

---

[1] المرجع نفسه ص ١٣١

[2] السهرودى عوارف المعارف ص ١٥٠

[3] د.إبراهيم بسيونى نشأة التصوف الإسلامى ص ١٤٣-١٤٤

[3] المرجع نفسه ص ١٣٢

[4] أبن سعد الطبقات٤/١-٩٤، إبراهيم بسيونى نشأة التصوف ص ٢٨

[5] إبراهيم بسيونى المرجع نفسه ص ٩٩

[6] المرجع نفسه ص ١٦١

[7] المرجع نفسه ص ٢٠٥

وقد وجد المتصوفة فيما بعد في مثل هذه النصوص ما يحثهم على الخلوة فقد وجدوا أن إختلاطهم بالبشر يفسد عليهم أوقاتهم ⋅ [1] ووجدوا فى تحنث رسول الله وخلوته ما يحثهم على الهروب من زحمة الحياة والأحياء فطلبوا الإنفراد لدخول الآفات عليهم بالإجتماع حتى لا يخوضوا فيما يغنى، فرأوا السلامة فى الوحدة[2] وكان الإختلاء يمتد لسنوات فهاهو أبو سعيد بن أبى الخير يقضى سبعة أعوام معتكفا فى زاوية داره [3] ولما كانت الخلوة تهيئ السبيل إلى سلامة الذكر وتمامه على الوجه الأكمل فإننا نجد أن واضعى نظام الحياة الصوفية داخل الخنقاوات والربط يضعون لها نظاما خاصا ، فينصح السهروردى فى كتابه عن الحياة داخل الربط - بالخلوه أربعين يوما كل عام تقضى فى الصلاة والصيام وهى المعروفة عندهم بالأربعينية ، وإذا ذهب المريد إلى الخلوة وجب عليه أن يجرد نفسه عن العالم وعن كل ما يملك ، وإذا أيقن بطهارة ثيابه وسجادته وجب عليه أن يركع ركعتين ويتوب عن معاصيه ويتضرع إلى الله ، وألا يغادر خلوته إلا لصلاة الجماعة أو صلاة الجمعة وفى هذه الحال يجب عليه أن يستمر فى ذكر الله وألا ينظر إلى ما يسمعه أو يراه ، لئلا تشغل نفسه عما هو فيه ، وفى أثناء خلوته أن يديم التطهر بالوضوء ، وألا ينام إلا إذا غلب عليه التعب وألا ينقطع عن الذكر حتى يكل لسانه فإذا كل لسانه ذكر الله بقلبه من غير حركة من اللسان[4]"

وكان المتصوفة يقومون برحلات لمشاهدة خلق السماوات والأرض⋅[5] والإلتقاء بأقطاب التصوف فى جميع أنحاء العالم الإسلامى والإقامة بمراكز إشعاعه للإستفادة والإفادة ومن هؤلاء على سبيل المثال الهجويرى الذى قام برحلات واسعة النطاق فى أنحاء العالم الإسلامى ، والتقى خلالها بعدد كبير من شيوخ الصوفية الكبار ورؤساء المذاهب وقد

---

[1] إبراهيم بسيونى ⋅ المرجع نفسه ص٢٠٥

[2] السهروردى⋅ عوارف المعارف ص ٧٩ الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص ٣٥

[3] الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص٦٦

[4] السهروردى عوارف المعارف راجع الفصول ٢٦-٢٨

[5] الهجويرى كشف المحجوب جـ١ ص ٦٦

أصبحت مصر في العصر المملوكي مركز الإشعاع الأول فتوافد عليها المتصوفة من شرق العالم وغربه •

ومما سبق يتضح أن حياة المتصوفة تقوم على الزهد والبساطة والتفرغ للعبادة سواء فى آداء الفروض أو عقد مجالس الذكر الجماعية أو فى الخلوة والإنفراد ، وكانوا يأكلون من الطعام ما يقيم أودهم ويلبسون ما يسترون به أنفسهم ، ولذلك كان على المعمار أن يضع أن كل هذه الاعتبارات فى حسبانه عند وضع تخطيط أى مبنى للمتصوف سواء كان خانقاة أو رباط أو زاوية كل حسب ظروفه وإمكاناته ، وهذه الاعتبارات هى القواعد التى حكمت المعمار المسلم عند إنشائه منشآت المتصوفة فى العصر المملوكى ، مع مراعاة ظروف العصر المملوكي الأخرى التى تميز بها والتى كان لها أثر كبير ، وفى ضوء دراسة ظروف ذلك العصر وما ألقته هذه الدراسة لنشأة التصوف الإسلامى ومبانيه يمكن تحليل هذه المنشآت من الناحية المعمارية لبيان جوانب نظرية الوظيفية فيها •

"الباب الثانى"

"وظيفة المنشآت الدينية فى العصر المملوكى"

"الوظيفة وكثرة المنشآت الدينية فى عصر المماليك"

تعتبر ظاهرة كثرة المنشآت الدينية فى عصر المماليك من الظواهر التى تحتاج إلى البحث فى أسبابها لأن ذلك يساعد على الكشف عن الجوانب الوظيفية لهذه المنشآت.

ولقد تنوعت هذه الأسباب بتنوع ظروف الحياة فى العصر المملوكى، فإذا كان القضاء على المذهب الشيعى هو السبب الرئيسى وراء إنشاء المنشآت الدينية السنية فى عصر الأيوبيين ، فإنه بعد أن تم القضاء على الدولة الفاطمية ومذهبها لم يعد هذا السبب من أسباب كثرة المنشآت الدينية فى عصر المماليك ، وإنما وجدت عوامل أخرى كثيرة متشابكة ومتداخلة أدت إلى ذلك.

ومن بين الأسباب حرصُ السلاطين والأمراء المماليك على الظهور فى صورة حماة الدين والعقيدة السنية ، العاملين على نشرها وذلك ليتسنى لهم رعاية ماضيهم الذى ارتبط بالرق ، فضلا عن اغتصابهم الحكم من سادتهم بنى أيوب ، وكذلك حرص المماليك وهم الغرباء عن الثقافة واللغة العربية عن أن يظهروا المتصلين والمشجعين للثقافة واللغة العربية ولاسيما بعد انتهاء الأخطار الخارجية الكبرى التى تمثلت فى الصليبيين والمغول والتى أتاحت الفرصة لسلاطين المماليك الأوائل أن ينتزعوا من رعاياهم ومن العالم الإسلامى أجمع إعترافا بأنهم حماة الإسلام[1]، وعندما خفت هذه الأخطار نسبيا لم يجد سلاطين المماليك وأمراؤهم بدا ولاسيما فى عهد الجراكسة – من الإكثار من إنشاء المنشآت الدينية والتقرب إلى العلماء وليعوضوا شعورهم بالنقص ، وهذا يعنى أن المماليك حاولوا تطويع الدين لتدعيم موقفهم السياسى، ولذلك شهد العصر المملوكى نشاطا دينيا منقطع النظير ، فليس هناك أقوى من المشاعر الدينية التى يمكن استغلالها على أساس أن المماليك مسلمون حرصون على إقامة شعائر الدين[2] بإنشاء المنشآت الدينية ،

---

[1] محمد أمين. تاريخ الأوقاف فى عصر المماليك جـ١ ص ٣٠

[2] سعيد عاشور المجتمع المصرى فى العصر المملوكى ص ١٥٧

والظهور بمظهر التقوى والورع مما جعل عامة الشعب تغض النظر عن البحث فى مدى أحقية السلطان القائم بالعرش ، وفى أصل المماليك ومدى أحقيتهم فى تولى الحكم على أساس أن السلطان حاكم تقى ورع ٠ ومما يوكد هذا القول مقارنة بسيطة بين ما أقامته مصر فى عصر المماليك من منشآت دينية وبين ما كان بالدول الإسلامية المجاورة ٠ ولا غرابة فى حرص المماليك على التركيز على رابطة الإسلام إذ أنها الرابطة الوحيدة التى تربط بعضهم ببعض من ناحية ، وبينهم وبين الشعب من ناحية أخرى وبينهم وبين الدول الإسلامية المجاورة من ناحية ثالثة٠ وهو أمر يكشف عن أى الهدف السياسى كان فى المقام الأول وكان هو المحرك لهذا الشعور الدينى الذى إنعكس فى كثرة المنشآت الدينية فى عصر المماليك ، ولذلك نجد أن تطبيقهم لفرائض الدين كان تطبيقا حرفيا أو شكليا فقط ، وهو أمر يفسره وتؤكده كثير من الظواهر المعمارية بمنشآتهم الدينية التى لا تتفق والأحكام السنية الصحيحة ٠

ومما سبق يتضح أن المماليك ورثوا أسلوب استخدام الدين فى تحقيق أهدافهم السياسية وإن اختلفت طبيعة الهدف ذاته ، ولاشك أن ما سبق به الأيوبيون ساعد المماليك كثيرا فى تحقيق أهدافهم ، فقد وجد المماليك أساسا متينا تمثل فى وجود العديد من المنشآت الدينية السنية كالمدارس وغيرها ، وفى وجود جيل من الفقهاء ورجال العلم والدين فكان دافعهم فى الإنطلاق قويا نحو تحقيق أهدافهم٠

وإذا كان الهدف السياسى قد حرك الشعور الدينى ، وأضاف قوة إلى قوته التى تدعمت أسسها على يد الأيوبيين ، فإنه من الصعب أن نرجع قوة الشعور الدينى فى العصر المملوكى إلى ظروف العصر وحدها على أساس أن العصور الوسطى هى عصور الإيمان سواء فى الشرق أو الغرب ٠[1]

وأمام هذا الشعور الدينى الجارف الذى تدعم أساسه على أيدى الأيوبيين كثرت المنشآت الديني فى العصر المملوكى ومما يؤكد أثر الشعور الدينى فى كثرة العمائر الدينية ماذكره ابن تغرى بردى، فعندما ما تحدث عن

---

[1] محمد أمين٠ تاريخ الأوقاف جـ١ ص ٢٢٢ (١)

سلطنة جقمق عقب على تجديد السلطان لبعض المساجد بالقاهرة بقوله : "قلت والناس على دين ملوكهم وهو أنه لما كانت الملوك السابقة تهوى التنزه والترف عمرت فى أيامهم بولاق وبركة الرطلى وغيرها إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق وسار فى سلطنته على قدر هائل من العبادة والعفة... فعندما تاب أكثرهم وتصولح وتزاهد وصار على أحد منهم بتقرب إلى قاصده بنوع من أنواع المعروف فمنهم من صار يكثر من الحج ومنهم من تاب وأقلع عما كان فيه ، ومنهم من بنى المساجد والجوامع[1] "

كذلك كان إزدهار الاقتصاد فى العصر المملوكى من العوامل التى لعبت دورا هاما فى الإكثار من إنشاء المنشآت الدينية أو المدنية ، وقد اشتهر عصر المماليك بالثروة والمال نتيجة الدور الذى قامت به دولتهم فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، ومع المال والثروة يكون البذخ والرغبة فى التأنق والتفنن.[2] وأمام هذه الرغبة ازدهرت كافة الفنون ومن بينهما العمارة، ولم يقنع المعمار فى العصر المملوكى بالجهد البسيط فى عمله وإنما أصبح يبالغ وهو مطمئن تماما إلى أنه سيجد من التقدير وحسن الأجر ما يحفزه إلى مزيد من الجهد والعناية فأخرج تحفا فنية معمارية لم تقف عند حد مستوى الإتقان والجمال بل دفعت المغاصرين لإنشاء ما يوازنها فى الدقة والعظمة لرغبة التنافس[3] فكثرت أعداد المنشآت الدينية . كثرة مطردة.

ومما يشير إلى أهمية العامل الاقتصادى إختلاف أحجام ونوعية وروعة العمائر الدينية بإختلاف قدرات أصحابها السلاطين والأمراء وغيرهم[4] وكانت هذه العمائر انعكاسا صادقا لحالتهم الإقتصادية بل إن تنوع هذه المستويات الإقتصادية للمنشئين كان لها أثرها فى تنوع المنشآت الدينية وتعددها ما بين خنقاوات ومدارس كان أغلب منشئيها من السلاطين والأمراء

---

(1) د. سعيد عاشور . مصر فى العصور الوسطى ص ٥٦٨

(2) أبن تغرى بردى ٨ النجوم جـ٧ ص ١١٨-١١٩

(3) أبيحامد المقديسى . الفوايد الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة مخطوط ص١٩٠

(4) وثيقة برسباى ٨٨٠ ، وثيقة الجمالى عبد الله أحمد الشهير بالمعصرانى رقم ١١/٦٩ سنه٨١٤هـ وثيقة جمال الدين محسن الأخميمى ٥/٣٣ ، بهاء الدين سنبل ٣/١٦

وربط وزوايا كان أغلب منشئيها من ذوى الحال المتوسط من التجار والشيوخ ورجال العلم والدين • وكان لهذا انعكاسه أيضا على خريطة توزيع هذه المنشآت فى القاهرة إذا علمنا أن كل منشئ كانت منشاته من مسكن أو منشأة خيرية تأخذ إلى حد كبير صفة التجميع فى منطقة واحدة ، فتوزعت هذه المنشآت وارتبط توزيعها بارتباط سكن منشئيها بغض النظر عن ارتباط الموقع بوظيفة المبنى نفسه ومدى الحاجة إليه وكان من نتيجة ذلك أن تجاورت المنشآت الدينية وكانت تسمع صلوات المصلين فى كل منها من المنشأة الأخرى.

ومن العوامل الهامة بل والأساسية التى أدت إلى الإكثار من المنشآت الدينية تلك الأوقاف التى كانت توقف على هذه المنشآت حتى تستمر فى أداء الوظائف التى أنشئت من أجلها • فقد أجاز الفقهاء الوقف على طلب العلم وإعتبروا ذلك من وجوه البر •[1] وأن هذا الإنفاق يعادل الجهاد فى سبيل الله إستنادا إلى الأحاديث النبوية التى فيها مرتبة العلم والعلماء أعلى من مرتبة الجهاد والشهداء •

ونظرة فاحصة إلى وثائق العصر المملوكى التى اشتملت على أوقاف وقفت على منشآت دينية تكشف عن حقيقة هامة وهى أن السلاطين وأمراء المماليك استغلوا إجازة الوقف على المنشآت الدينية وطلبة العلم بها فأوقفوا الكثير من الأوقاف عليها بما يزيد كثيرا عما تتطلبه هذه المنشآت وجعلوا لذريتهم نصيبا من هذا الوقف ، وهو هدف كان القصد منه تأمين الذرية فى عصر كانت الفتن والمنازعات هى الظاهرة الغالبة عليه من جهة وكان نظام الإقطاعات[2] هو المعمول به وهو نظام لا يأمن معه المماليك مستقبلهم لذلك لجأ سلاطين وأمراء المماليك إلى إنشاء المنشآت ابلدينية ليقفوها ويوقفوا عليها

---

[1] أبن عابدين • رد المختار جـ٣ ص ٣٨٧

[2] قسمت أرض مصر إلى إقطاعات وكان لكل شاغل وظيفة اقطاع من هذه الإقطاعات يستغله طوال أستمراره فى وظيفته ويقطع منه إلى تركها، هذا التقسيم على أساس أن أرض مصر اربعة وعشرون قيراطا إختص السلطان منها بأربعة قراريط ، والأمراء بعشرة وما تبقى خصص للأجناد (د• سعيد عاشور • مصر فى العصور الوسطى ص ٥٣٩)

ما يريدون من أوقاف يخصصون نصيبا منها لذريتهم لتأمين مستقبلهم عن هذا الطريق ، وقد أكد أبن الأزرق هذه الحقيقة بقوله"•• وذلك أن الأمراء من الترك يخشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق والولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا الربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاء لولدهم ونصيبا منها مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال فكثرت لذلك الأوقاف وكثر طالب العلم ومعلمه ومتعلمه بكثرة جرايتهم منها"[1] ولعل فى حرص الواقفين على الإعلام عن أوقافهم حتى يعرف الناس على إختلاف طباقتهم بالوقف وشروطه عن طريق "زف الوقف بالأغانى فى شوارع القاهرة"[2] فضلا عن الإحتفالات التى كانت تقام عادة عند إفتتاح المنشآت الموقوفة•[3] بل ونقش نص الوقف أحيانا على جدران وواجهات المنشآت - كما فعل برسباى بمدرسة الأشرفية فى الإيوان القبلى وبواجهة منشآته بالصحراء• ما يؤكد هذه الحقيقة كذلك فإن حرص البعض على تعيين من لهم جاه فى منشآتهم إعتقادا منهم بإن هذا الأمر يساعد على الحفاظ على هذه الأوقاف يؤكد ما نذهب إليه.

ولا أحد ينكر أن الأوقاف قامت بدور كبير من أجل تدعيم المنشآت الدينية وتمكينها من آداء وظيفتها ، ويمكن أن نقول أن الشعور الدينى الذى ساد مصر فى العصر المملوكى واكبه إزدهار الأوقاف وإنتشارها[4] يؤكد ذلك ما جاء فى إفتتاحية وثيقة وقف السلطان حسن بما نصه "الزاد ما إدخر الإنسان ليوم الميعاد وقدمه بين يدى خالقه عند قيام الأشهاد ، وأقرض الله قرضه الحسن ، ففاز بنيل المراد - الصدقة التى يرجو بها المتصدق الأجر والثواب••• وتكون له طريقا موصلة إلى دار النعيم ، دافعة عنه ما يخشاه من عذاب الجحيم ، لقوله صلى الله عليه وسلم إتق النار ولو بشق تمره••

---

(1) أبى عبد الله بن الأزرق • طبائع السلك فى أخبار الملك تحقيق د• سامى النشار جـ٢ ص ٣٤٥

(2) المقريزى• خطط جـ٢ ص ٥٨٩

(3) المقريزى• خطط جـ٢ ص ٤٠١ ـ٢ ص ٣٠٤ السلوات جـ٢ ق -ص ١١٤-١١٥

(4) د• محمد أمين • تاريخ الأوقاف ص ٢٢٢-٢٢٣

سيما صدقة الأوقاف التى هى أنفس الصدقات وأسناها ، وأرفعها قدرا عند الله وأعلاها ، ولاستمرار تسطيرها فى الصحاف الحسان.. فهى لصدقة الجارية والذخيرة الباقية وقد بدأ صلى الله عليه وسلم بذكرها ، فقال اذا مات العبد إنقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية ، أو علم نافع أو ولد صالح يدعو له وقال صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه فى صحيح السنة مقال أخبر فيها بعظم المنة " من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنه " ويمكن القول بأن إزدهار الأوقاف أدى بدوره إلى تقوية الشعور الدينى واستمرار تدفق المشاعر الدينية عن طريق المنشآت الدينية وهذا التأثير المتبادل أدى إلى كثرة المنشآت الدينية فى العصر المملوكى.

كذلك كان للعوامل الشخصية أثرها على كثرة إنشاء المنشآت ولعل أهم هذه العوامل تلك الرغبة الملحة لمنشئ فى إنشاء ضريح له يضم رفاته ويخلد ذكراه ، وهى فكرة أساسية تبعها إلحاق مسجد أو مدرسة أو خانقاة ، بمعنى أن الضريح كان النواة الأساسية لإنشاء كثير من المنشآت الدينية بالقاهرة ، ويؤكد هذه الحقيقة ما نراه فى معظم منشآت المماليك الدينية بالقاهرة من إشتمالها على ضريح للمنشئ ، بل إن فيما تشير إليه وثائق الوقف وكتب التاريخ فيما يتعلق بهذه المنشآت ما يؤكد هذه الحقيقة ، فعلى سبيل المثال عندما أنشأ السلطان برسباى مدرسته الأشرفية بشارع المعز لدين الله – جعل بها ضريحا وإيوانا للدفن وقفه لدفنه إذا توفاه الله ولدفن ذريته معه[1] وبعد أن توفيت زوجته فاطمة وولدهما الناصرى محمد ودفنا بالقبة بهذه المدرسة رغب السلطان عن أن يدفن بها وقرر بناء ضريح له بالصحراء[2] كان نواة منشآته بقرافه المماليك.[3] كذلك فإن خانقاة فرج بن برقوق بالصحراء كان نواتها ذلك الضريح الذى وصى برقوق أن يبنى عليه، ولعل فى دلالات لفظ "تربة" فى العصر المملوكى من أنها لم تكن مقصورة

---

(1) وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ١٩

(2) وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ، المقريزى السلوك جـ٤ ق٢ ص ٧٦٦ ، العينى جـ٥ ص ٥٩٦

(3) محمد عبد الستار عثمان. الآثار المعمارية للسلطان الأشراف برسباى بمدينة القاهرة ص١١١ ص ١٥٠ ومابعده

على الدفن بل كانت تشتمل في الغالب على مسجد للصلاة أو مسجد جامع وكان يقرر بها دروس وينزل بها متصوفة ما يؤكد هذه الحقيقة٠٠ ثم إن عدم التناسب بين تلك الأعداد الضخمة من المدارس والخنقاوات والمساجد الجامعة التى أنشئت فى العصر المملوكى فى القاهرة والتى اشتملت على أضرحة للدفن وبين ما كانت تحتاجه القاهرة بالفعل يؤكد هذه الحقيقة٠

والرغبة إلحاق ضريح بالمسجد أو المدرسة أو الخانقاة أو إلحاق كل من هذه المنشآت بالضريح وافقت الشرع الشريف ، ويحسن بنا أن نستعرض رأى الفقهاء فى هذه المسألة لما له من أثر كبير ومن دلالات معينة تتعلق بمنشآت المماليك الدينية وتخطيطها المعمارى٠

والمعرف أن الحديث فى هذه النقطة يتعرض لأمرين هامين أولهما جواز البناء على القبر من عدمه ، وثانيهما إلحاق المنشأة الدينية بالضريح أو العكس٠

والمعروف أن البناء إما يكون قبل الدفن أو بعده ، وإما يكون فوق الدفن٠٠أو بجواره ، والدفن فى البناء لاشبهه فيه ، وإن كان ابن حنبل يرى أن الدفن فى مقابر المسلمين أفضل مُراعاة لعمل أكثر الناس ، وكان دفن النبى فى بيته للتميز ولكن دفن عمر مع النبى فى بيته يمكن أن يكون ذلك مثلا للسماح بالدفن داخل البيت "المسجد" والبناء بعد الدفن إختلفت الفقهاء فى أمره فالبعض يرى جوازه إذا كان للتأمين على الجثة وخوفا من للبش القبور، ومنهم من حرمه إذا كان للمباهاة ، ومنهم من حدد شكل البناء كأن يكون بغير سقف وعلى قدر الجثة وأرتفاع جدرانه قليل كالأحواش التى أجازها الأكثرون، وأتفق قول المحققين على البناء ولو كان بيتا[1] كذلك وردت الإشارة إلى كراهية البناء فى أرض موقوفة للدفن٠ وكان لهذا الاتفاق فى بعض الأمور والإختلاف على البعض الآخر أثره البالغ فى اتخاذ المقابر والبناء عليهما أشكالا متعددة من القبر البسيط والحوش والتربة والضريح والضريح الملحق به مسجد أو مدرسة أو الذى يلحق به مساكن كذلك ، ولعل

---

[1] الفيض السيد أحمد الإمام أبى عبد الله السيد محمد الصديق، إحياء المقبور من أدلة إستحاب بناء المساجد والقباب على القبور٠ مطبعة دار التاليف شارع يعقوب بمصر ص ٤-٥.

الرغبة في تخليد الذكرى والحرص على الجثث المدفونة في عصر المماليك الذي اتسم بالمنازعات والفتن وكذلك الإشارة إلى كراهية البناء في الأرض الموقوفه للدفن شرعا ، ربما كان له أثره في عدم وجود كثير من المباني ذات الأهمية المعمارية داخل القرافات للدفن وبالتالي انتشار المباني الضخمة ذات الأهمية المعمارية داخل المدينة أو مساحات جديدة اختيرت لهذا الغرض في عصر المماليك كالصحراء خارج أسوار القاهرة وما تبع ذلك من إضفاء صفة "الحياة المدنية" على تلك المساحة التي اتخذ منها المماليك موقعا لإنشاء منشآتهم الخاصة بالدفن ملحقا بها مدارس وخنقاوات أو زوايا وفي بعض الأحيان ألحق بها سكن خاص .[1] وهو أمر لا يخالف الشريعة فقد قال إبن حزم المحلى "فإن بنى عليه بيت أو قائما لم يكره ذلك وقال أبن مفلح في كتاب الفروع من فقه الحنابلة وذكر الصاحب في المستوعب والمحرر "لا بأس بقبة وبيت وحظيرة في ملكه لأن الدفن فيه مع كونه كذلك مأذون فيه" وهو قول أبن القصار وجماعة من المالكية كما حكاه الحطاب في شرح المختصر .[2]

وقال الفقهاء بجواز بناء القباب على أولياء الله الصالحون حفظا لقبورهم والإنتفاع بزيارتهم والدليل على ذلك أن العز عبد السلام افتى بهدم الأبنية بالقراقة ماعدا قبة الإمام الشافعي لأنها مبينة في دار ابن الحكم وهو أعتراف منه بناء القباب على الأولياء مادامت في ملك ولكنه منعها إن كانت في أرض وقف[3] وكان لذلك الجواز أثره ، إذ أدى إلى كثرة إهتمام الأمراء والسلاطين بهؤلاء الأولياء وبناء أضرحة [4] وزوايا لهم ليتبرك الناس بهم وكان يدفن بكل زاوية غالبا – صاحبها . وفي شرح زين العرب على

---

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ وثيقة قرقماس أمير كبير ٩٠١ .

[2] السيد أحمد بن عبد الله . إحياء القبور ص ٦

[3] المرجع نفسه ص٧

[4] تعتبر أمثلة القباب "الأضرحة" الفاطمية اقدم النماذج للأضرحة بمصر وقد أنشأها الفاطميون بكثرة في أواخر عهدهم ، ومعظمها تنسب إلى آل البيت وقد ظهرت في أواخر العصر الفاطمي في الوقت الذى ضاعت فيه هيبة الخلفاء وإشتدت فيه منافسة الوزراء ، وكأنما أقدم الفاطميون على الإكثار من بناء هذه المشاهد ذات القباب إستردادا لهيبتهم في نفوس الشعب وتذكيرهم بانتسابهم لآل البيت سيما إذا عرفنا أن المقريزى يقرر أن هذه المشاهد قد أنشئت عمارتها فوق الأعضاء الشريفة . وظهرت كذلك في العصر الفاطمي الأضرحة الملحقة بالمساجد وهي تعتبر النماذج الأولى لما أنتشر في العصر المملوكي .

المصابيح "أن السلف قد أباحوا البناء على قبور العلماء والمشهورين والمشايخ المعظمين ليزوروها الناس وليسترحوا بالجلوس فى البناء على قبورهم مثل الرباطات والمساجد ."[1] وفى هذا النص إشارة إلى أن الرباطات كانت تقام أيضا على قبور العلماء والصلحاء بالإضافة إلى الإشارة إلى وظيفة من وظائف تلك المنشآت الملحقة بالضريح .

وهذا ينقلنا للنقطة الثانية التى أشرنا إليها وهى فكرة إلحاق منشأة دينية بالضريح ، وقد أشارت أقوال الفقهاء إلى جواز ذلك ، ففى رسالة الشيخ إسماعيل التميمى التونسى ما يشير إلى "جواز البناء على القبور إذا كان حولها كالقبة والبيت والمدرسة وكان فى ملك البانى " وذهب اللخمى للمنع وذهب أبن القصار إلي الجواز وافقه ابن رشد[2] وهذا النص يشير إلى أن بناء القبر كان هو الأصل ويؤكد ما نشير إليه من أن إلحاق المدرسة بالقبر فى بعض منشآت المماليك الدينية وليس العكس . كذلك يلاحظ أن الفقهاء دائما يؤكدون عند الجواز أن تكون المنشآت فى ملك وليست على أرض وقف ، وهو أمر يفسر إبتعاد المماليك عن البناء فى القرافات[3] فقد تركزت عمائرهم الدينية فى المدينة أو فى الصحراء حيث أرض تملك ، وأنهم كانوا حريصين على أن تكون الأرض المنشأة عليها مبانيهم ملكا لهم بأى وسيلة كالإستبدال أو الشراء أو غير ذلك .

ومما يشير إلى أن بناء الأضرحة :كان محل بحث دقيق من جانب الفقهاء عدم إقتصار هذا البحث على جواز البناء من عدمه بل تعرضهم أيضا لمواد البناء ، فقد أشارت كذلك أراء الفقهاء إلى كراهية بناء القبر بما مسته النار كالآجر والجص فقد قال أبن أبى شيبة فى مصنفه عن ثابت عن زيد بن أرقم قال : مات ابن لزيد يقال له سويد فاشترى غلام له أو جارية حصا وأجراء ، فقال له زيد ما تريد ، قال : أردت أن أبنى قبره وأجصصه ، قال : جفوت ولغوت لايقربه شئ مسته النار ، وقال أيضا حدثنا عبد الرحمن أين

---

(1) المرجع نفسه السابق ص ٧.

(2) المرجع السابق ص٨.

(3) هناك أسباب أخرى دفعت سلاطين وأمراء المماليك للبناء فى قلب المدينة من أهمها تخليد الذكرى والمباهاة وحب الظهور .

مهدى ، عن ليث عن هيثمة بن سويد بن عقلـه قـال : إذا أنـامت فـلا تؤذونـى بأحد ، ولايقربونى جصا ولا آجرا ولا عودا ولا تصحبنـا إمـرأة "وقـال أيضـا حدثنا ابن مهدى عـن سـفيان عـن منصـور عـن إبراهيم قـال كـانوا يكرهـون الآجر فى قبورهم ، حدثنا وكيع عن سفيان عن مغيرة عن إبراهيم قال: كـانوا يستحبون اللبن ويكرهون الآجر ويستحبون القصب ويكرهون الخشب[1]

أما فيما يتعلق باتخاذ المساجد على القبور ، فقد كـان التحريـم ظـاهرا فى بداية عهد الإسلام حتى لا يعبد الناس الميت ، ثـم بعـد أن إستقر الإسـلام فقد زالت العلة، وكذلك كان من أسباب التحريم التزلف الشـديد للقبـور وهذا من الجهلـة ، ولما كان ذلك لمن يكون له بناء ومن ليس له بناء ، فالبناء ليـس الأصل فى ذلك ، وقد ذكر البعض أن تحريم بناء المسـاجد علـى القبـور كـان خشية العبادة باتخاذها قبلة عند الصلاة والنهى عندئذ يكـون خاصـا بمـا جعـل القبر فى قبلته ، أما ما جعل القبر فيه ملاصقا لجداره الغربى بحيـث لا يمكـن الصلاة إليه أصـلا فهـو خـارج عـن النهـى ، ولذلـك نجـد أن معظـم المسـاجد الملحقة بالقبور على هذه الكيفية ، وكان لهذا الحكم أثـره فـى تخطيـط زوايـا إفريقية ، فقد قال الأستاذ أبى لب فى بعض فتاويـه : مـن أن النهـى فـى هـذه المسألة مخافة أن تعبد القبـور كمـا اتفق لمـن سلف قبـل هـذه الأمـة ، وأفتـى بجواز بناء مسجد بمقبرة إندثرت إذا أمن نبش القبور فـإن يكـون البنـاء فوقهـا دون حفر يصل إلى موضع العظام للأمن فى هذه من خشية العبادة المعلل بها النهى ، وعلى هـذا إذا بنـى المسجد مـع القبر بلصـق الحـائط المواجـه للقبلـه بحيث لا يمكن الصلاة فيه أن يكون القبر خلف المصلى كما هو بزوايا كثيرة فى بعض أعمال إفريقية جاز للأمن من الصلاة فيه.[2]

والخلاصة أنه مادام الرأى الشرعى جـوز وجـود الميـت داخـل البنـاء فقد جوز البناء ، إذ لا فارق بين أن يوجد بعد الدفن أو قبله لأن الغاية واحـدة والصورة متفقة وهى وجود القبر داخل البناء إذا جاز ذلـك فـلا فـرق بيـن أن يكون البناء بيتا أو قبة أو مدرسة لأن الكل بناء والعلة فى ذاته لا فـى أشكاله

---

[1] المرجع السابق ص ١٤.

[2] المرجع السابق ص ١٤.

وصوره فليس النهى متعلقا بصورة القبة أو المدرسة بل بذات البناء كيفما وجد حيث أجاز الشارع الدفن فى البيت الذى هو بناء علما أن النهى مخصوص بالبناء الذى هو فوق القبر للعلل السابقة غير عام فى جميع البناء.. والدليل على جواز بناء المساجد على القبور أنه عندما بنى مسجد أبى بصير إلى قبره أيام النبى لم يأمر النبى بهدمه[١]

ومما سبق يتضح جواز إلحاق المساجد والمدارس والخنقاوات بالقبور أو العكس فى حدود شروط معينة منها ألا تكون الأضرحة فى اتجاه القبلة وهو أمر لاحظناه فى المنشآت الدينية المملوكية بصفة عامة ولم يشذ عنها سوى مثال واحد هو مدرسة السلطان حسن. كذلك فإن المعمار المسلم من جانبه حاول أن يجعل هذه الإضرحة شبه مستقلة فى تخطيط المنشآة الدينية فقد جعلها فى ركن من أركان هذه المنشأة ، وكان التخطيط المتعامد من أهم التخطيطات التى أتاحت ذلك بكفاءة تامة، أماما أنشئ من الأضرحة مستقلاً فلا مشكلات تتعلق بتخطيطها.

وفى إطار الجواز الشرعى لإلحاق المساجد والمدارس بالقبور والرغبة فى تخليد الذكرى وتذكير المسلمين بصاحب المنشأة للترحم عليه ، مع الشعور الداخلى بأن إنشاء منشأة دينية يخفف وطأة الحساب[٢] عن هؤلاء المماليك الذين بعدوا عن أخلاق الإسلام لما تقوم عليه حياتهم من الغصب والنهب والمكر والخديعة والفتن والمنازعات كان تخطيط المنشأة الدينية فى العصر المملوكى انعكاسا لذلك وكثرت هذه المنشآت وتعددت بتعدد الأمراء والسلاطين وأصحاب الثروة والجاه.

كذلك كان لحب سلاطين وأمراء المماليك للعمارة أثره البالغ فى تعدد هذه المنشآت الدينية المملوكية ولعل خير مثال لسلاطين المماليك البحرية السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقد أكد المؤرخون هذه الحقيقة فيذكر ابن أيبك أنه "فى أيامه علا منار الإسلام وعزت أمة النبى عليه السلام... ومما يؤيد هذا المقال ما تجددت فى أيام دولته من بيوت "أذن الله أن ترفع ويذكر

---

[١] المرجع السابق ص ٤٤-٤٦

[٢] ابن أياس . بدائع الزهور ط بولاق جـ١ ص ١١٦.

فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال" وهم عدة[1] ثم عدد أبن أبيك الجوامع التى أنشئت فى عهده بمصر والقاهرة وضواحيها وذكر أنها سبعة وعشرين خطبة [2] وكذلك تفاخر الأمراء بإنشاء المنشآت الدينية حتى أنه ظهر فى أواخرعصر المماليك البحرية من تلقب بلقب "بانى المدارس والمساجد"[3] مثال صرغتش الذى تلقب بهذا اللقب الذى جاء ضمن نص إنشاء مدرسته بالقاهرة بتاريخ ربيع الآخر سنه ٧٥٧هـ/١٣٥٦م كما أن التنافس بين الأمراء بغية المباهاة والتخليد وكان له أثره على كثرة المنشآت الدينية المملوكية بالقاهرة، ونضرب لذلك مثالا بذلك التنافس الذى صار بين كل من قوصون وبشتاك وهما من أمراء الملك الناصر محمد حتى أن كل منهما بنى جامعا وخانقاة كما فعل الآخر •

وكان لكل هذه العوامل السابقة أثرها فى إنشاء الكثير من المنشآت الدينية المملوكية، وهى كثرة أنعكس صداها فيما ذكره المؤرخون من حصر لهذه المنشآت فقد ذكر القلقشندى "أنها أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى"[4] ويذكر أبن شاهين أنه "قيل إن بمصر والقاهرة داخل السور وخارجه ألفُ خطبة ونيف عن ذلك"[5] ويبدوا أن هذا الرقم مبالغ فيه إذ أن المقريزى ذكر ان عدد المساجد التى تقام بها الجمعة "مائة وثلاثين مسجدا فيما بين مسجد تبر خارج القاهرة من بحريها إلى دير الطين قبلى مدينة مصر"[6] وهو أقرب إلى الصواب • وقد أثارت كثرة هذه المساجد دهشة الرحالة الأوربيين فى ذلك العصر"[7] وهو أمر لا يستغرب إذا علمنا أن كافة

---

[1] أبن أبيك الدر الفاخر فى سيره الملك الناصر ط القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٨٨.

[2] جاء فى كتاب سلاطين المماليك الذى نشره ريترشتين لمؤلف مجهول معاصر للناصر محمد أنها ثمانية وعشرين مسجدا ص ٢٢٥-٢٢٦ محمد أمين تاريخ الأوقاف ص ٢٢٢.

[3] حسن الباشا• الألقاب ص ٢٢٢.

[4] القلقشندى• صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٦٥

[5] أبن شاهين • زبده كشف المماليك ص٣١

[6] المقريزى• خطط جـ٢ ص ٢٤٥

[7] د• سعيد عاشور المجتمع المصرى المملوكى ص١٦٠

المنشآت الدينية سواء المدرسة أو الخانقاة او الرباط أو الزوايا وغيرهم كانت تؤدى وظيفة المسجد نتيجة لتداخل الوظائف التى تؤديها المنشآت الدينية فى العصر المملوكى.

ومع تأكد فعالية هذه العوامل وإزدياد الشعور الدينى بتقدم الزمن نجد أن الرغبة فى إنشاء المنشآت الدينية فى عصر المماليك الجراكسة كانت أشد وأقوى[1]، ومع تقدم أساليب البناء والعمارة وتأصل هذه العوامل ظهرت المجموعات المعمارية الضخمة التى تضم أكثر من منشأة مع ظهور أمثلة للتخطيط الذى إشتمل على إيوانين وسدلتين فقط والذى ربما كان متأثرا بالمساحة أكثر من أى شئ آخر، هذا بالإضافة إلى تبلور كثير من الظواهر المعمارية الآخرى التى تكشف عنها الدراسة التحليلة المعمارية لهذه المنشآت.

هذا وتجنب الإشارة إلى أن إنشاء هذه المنشآت الدينية قد إمتد خارج القاهرة فأنشئت المساجد والمدارس بالأقاليم بكثرة أيضا فقد أنشئ بقوص وحدها ست عشر ة مدرسة[2] وتذكر لنا وثيقة السلطان الغورى مدرسة بقرية فيشة إحدى قرى محافظة المنوفية [3] كذلك كان للسلطان قايتباى مدرسة فى دمياط وجامع فى ناحية القرين، ويذكر الرحالة أبن بطوطة تدعيما لهذا القول أن "المدارس بمصر فلا يحيط بحصرتها لكثرتها[4] كذلك أنشأ سلاطين وأمراء المماليك العديد من هذه المنشآت بالشام والحجاز وكافة الأقاليم التى كانت تخضع لحكمهم.

---

[1] أبن تغرى بردى النجوم جـ٧ ص ١١٨-١١٩

[2] أبن دقمان الأنتصار بواسطة عقد الأمصار

[3] وثيقة الغورى ٣٧ إنشاء هذه المدرسة شخص يدعى شمس الدين محمد بن وهيب القيسى.

[4] أبن بطوطة الرحله ط القاهرة ص ٣٣

"المدرسة فى العصر المملوكى"

سار المماليك على نهج الأيوبيين فى تدعيم المذهب السنى ، واستقرت المذاهب الأربعة بعد أن استقر وضعها الرسمى عندما عين السلطان الظاهر بيبرس القضاة من المذاهب الربعة ، فأتاح هذا القرار نوعا من المساواة بين هذه المذاهب ودفع إلى تدعيم موقف كل منها حتى أن هذا القرار يمكن أن يعد من الأسباب التى أدت إلى إنشاء كثير المنشآت الدينية المملوكية وخاصة المدارس • وبمقارنه يسيرة بين الظروف التى أدت إلى نشأة المدارس بمصر فى العصر الأيوبى وبين ما كان عليه الحال فى العصر المملوكى فإننا نجد أن سياسة التعليم فى العصر المملوكى كان هدفها الاستمرار فى تأييد المذهب السنى وتفريخ أجيال من الشيوخ والقضاة والعلماء تفى بحاجة الدولة من هؤلاء وهما هدفان كانت سياسة الأيوبيين قد خطت خطوات كبيرة فى تحقيقها ولذلك فإنه يمكن أن نقول إن سياسة التعليم فى العصر المملوكى كانت سياسة شخصيةً تتوقف على الرغبة أو قدرة السلطان وأمراء المماليك أو غيرهم من أصحاب الثروة والجاه ومدى إقبالهم على الخير وإيمانهم ، ودفعت هذه السياسة إلى المنافسة وحب الظهور بين السلاطين والأمراء لتخليد ذكراهم وحفظ أموالهم التى توقف على هذه المنشآت •

وقد ساعدت العوامل الخارجية كغزوات المغول فى الشرق ، وسقوط الأندلس الإسلامية نهائيا فى يد المسيحية سنه ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م علي أنتقال مراكز العلم من الشرق والغرب إلى القاهرة ، ووفود عدد كبير من العلماء والفقهاء إلى مصر التى صارت "محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء"[١] كما ساعدت العوامل الداخلية وخاصة نظام الوقف وتشجيع الأمراء والسلاطين ورعاية بعضهم وتعظيمهم لأهل العلم على أزدهار التعليم فى مصر أنذاك[٢] هذا بالإضافة إلى تعدد المدارس التى أنشئت فى العصر الأيوبى وما أنشئ فى العصر المملوكى وأثره فى تخرج أجيال من الفقهاء

---

[١] أبن خلدون• المقدمة ص ٤١١-٤١٢ أبن الأزرق طبائع السلك فى أخبار الملك جـ٢ ص ٣٤٥

[٢] السيوطى حسن المحاضرة جـ٢ ص٨٦

والعلماء أخذوا بيد النهضة العلمية وعمقوا مسارها.

وكان من أهم ما يميز التعليم فى العصر المملوكى تلك الحرية التى كانت ركنا أساسيا فيه والمناهج الدراسية المرنة التى لم تكن محددة مقيدة ، وقد ساعد هذان العنصران على نبوغ كثير من العلماء والفقهاء والأدباء ، أضف إلى هذا وجود خزانات للكتب النفيسة التى لا يمكن إنكار فضلها فى التكوين العلمى بصفة عامة.

وإذا كانت المكتبات قد بدأت منفصلة بذاتها فإن إلحاق مكتبة بالمدرسة المملوكية يدل على تبلور الفكرة التعليمية فى المدرسة المملوكية ، فقل أن نجد مدرسة مملوكية بدون خزانة كتب ، وكان الواقف يضع بها كتبا من مختلف العلوم والفنون لتعين المدرسين والطلاب وغيرهم من المنتفعين بها فى ذلك الوقت الذى لم تكن هناك غير نسخة خطية واحدة فى معظم الأحيان للكتاب الواحد.

ومما يدل على إرتقاء الدور الذى كانت تقوم به المدرسة المملوكية أنها كانت تأخذ بالنظام المفتوح بمعنى أنها لم تقصر خدماتها على الطلاب المقررين بها بل كانت تقوم بالخدمات التعليمية إلى العامة ممن يريدون حضور الدرس أو الإطلاع على ما بالمكتبة من كتب ومؤلفات.

وكان لرغبة السلاطين والأمراء فى التعليم ورعايتهم أثرها الواضح فى دفع الحركة العلمية ، فتحدثنا كتب التاريخ عن ولع بعض السلاطين مثل الظاهر بيبرس وبرسباى بسماع التاريخ[1] وحرص البعض الآخر على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة بل والمشاركة فى المسائل العلمية التى كانت تثار فى تلك المجالس كالسلطان المؤيد شيخ وططر وبرسباى والغورى[2] أما أمراء المماليك فقد وجد منهم من اشتغل بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية بل تعدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم[3]

---

[1] ابن تغرى بردى النجوم جـ٦ص ١٨٢ محمد عبد الستار عثمان الآثار المعمارية للسلطان برسباى بمدينة القاهرة ص ٢٣ وما بعدها.

[2] محمد عبد الستار عثمان. المرجع نفسه ص ٣٤ عبد الوهاب عزام مجالس الغورى ص ٤٩

[3] د. سعيد عاشور المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٤٢

وكان التعليم فى العصر المملوكى تعليما إسلاميا - إستمر فى النهج الذى سبق أن أشرنا إليه، وكانت الدراسات إسلامية بقدر استمدادها من المعين الإسلامى وهو ما نلاحظه حتى فى تلك الرسائل والكتب الموضوعية فى مختلف الميادين والتى تزخر بالمباحث القانونية والإجتماعية والإقتصادية والتى تعالج موضوعات الحياة المختلفة المادية.

وتبعا لذلك يمكن القول بأن المدرسة المملوكية كانت منشأة دينية توفرت لها أسباب النضج والإكتمال لتقوم بوظيفتها خير قيام ، ولعل فى إلقاء الضوء على الجوانب المختلفة الدقيقة فى نظام هذه المدارس والعاملين بها ما يكشف عن الجوانب الوظيفية لها ويوضح العوامل المؤثرة فى تخطيطها وإنشائها من الناحية المعمارية.

فعندما يفكر المنشئ فى إنشاء المدرسة كان عليه أن يبدأ باختبار الموقع الملائم لها فإذا كانت ملكا له قبها ونعمت ، وإن كانت غير مملوكه له فهو يسعى إلى شرائها أو إستبدالها[1] وذلك لأن الشرع لا يسمح ببنائها على أرض مغتصبة خاصة وأنها كانت تقوم بوظيفه المسجد. ولعل فيما ذكره المؤرخون مثلا عند إنشاء برسباى للمدرسة الأشرفية بشارع المعز لدين الله- من تعليقات ما يوضح هذا الأمر ، فبينما يذكر المقريزى أنه "استبدل بها أملاك أخر من غير إجبار المستحقين وجعل الإختيار لهم فيما يستبدل به حتى تراضوا ولم يشق عليهم"[2] نجد أن ابن حجر يعلق على استيلاء برسباى على المكان الذى أنشئت فيه المدرسة فيقول "وأخذت الدور التى كانت هناك وغالبها أوقاف فتحيل فى إبطالها بوجوه الحيل"[3] وهنا تجب الإشارة إلى ما قد يحدث من مشاكل قد تؤثر على شكل المساحة التى تنشأ عليها المدرسة ، خاصة داخل القاهرة التى ازدحمت بالمبانى فى ذلك العصر بل وامتدت امتدادا كبيرا خارج الأسوار الفاطمية حتى أنه ويمكن القول بأنه ما من مدرسة أنشئت فى داخل القاهرة إلا وكان فى موضعها بناء سابق تحكمت مساحته فى تخطيط المدرسة وشكلها ، كذلك فإن الشوارع التى أستقر

---

(1) المقريزى. السلوك جـ٤ ق ٢ ص ٦٣٦، ٦٣٧
(2) ابن حجر . إنباء الغمر جـ٣ ص ٣٠٥
(3) الصيرفى. نزهه النفوس والأبدان جـ٣ ص ٢٧

تخطيطها قبل إنشاء هذه المدارس كان لها هى الأخرى أثرها على شكل هذه المساحات وبالتالى على تخطيط البناء كله. وبنظرة سريعة على تخطيطات المنشآت الدينية عموما داخل القاهرة وبين تلك التى أنشئت بالصحراء – قرافة المماليك – على سبيل المثال نجد هذا الفارق ، والصورة واضحة فالمساحات غير منتظمة محدودة والخطوط غير مستقيمة فى المنشآت داخل القاهرة والعكس تماما فى منشآت الصحراء. ولذلك فإن الجهد المبذول من المعمار كان مضاعفا للتغلب على هذه المشاكل فى المنشآت داخل المدينة

وكان المنشئ يكلف أحد الثقاة من تابعيه بالإشراف على عملية البناء، وكان هؤلاء المشرفون عادة من ذوى الهمة الظاهرة والقدرة على إنجاز العمل فقد كان العمل يتطلب جهدا كبيرا كما أنه كان يستمر لسنوات عديدة. وكانت تفتح المدارس عند إكتمال إيوان القبلة وقبل الإنتهاء من بنائها، ولعل هذا يفسر تضارب أقوال المؤرخين عادة عند ذكر تاريخ الإنشاء لأى منها ، ويفسر كذلك ما تذكره هذه المصادر عن الوظائف التى كانت تؤديها هذه المدرسة أو تلك ، وتطورها نحو الاكتمال ، ولعل خير مثال نضربه لذلك ما حدث بالمدرسة الأشرفية برسباى ، التى إفتتحت سنه ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م وتقرر أن تكون مدرسة للحنفية [١] ثم بعد أن إكتملت المدرسة قرر السلطان برسباى فيها بقية المذاهب سنه٨٣٣ / ١٤٣٠م[٢] وهوأمر يشير إلى أن المدرسة فى العصر المملوكي لم تكن يشترط أن تقوم بتدريس المذاهب الأربعة ولكن هذا الأمر أصبح محكوما بإرادة الواقف الذى كان يحدد ما يدرس بمدرسته من فقه المذاهب الأربعة أو غيرها من الدراسات كالحديث والنحو وغيره من العلوم التى كانت تدرس بالمدرسة المملوكية[٣] وهى عملية كان يحكمها كما أعتقد عوامل شخصية كقدرة الواقف المادية أو فى تحيز الواقف لمذهب معين أو غير ذلك كرغبة بعض الواقفين فى تدريس بعض العلوم كالطب[٤] بجانب

---

[١] ابن حجر. أبناء جـ٣ ص٤٤ . الصيرفى نزهه النفوس جـ٣ ص ٥٣-١٦٦-١٩٧

[٢] السخاوى. الضوء جـ٥ ص ٢٧٧ وثيقة برسباى. أوقاف ٨٨٠ ص٩٩ المقريزى خطط جـ٢ ص٣٧٨-ص٢٩٩

[٣] حجه السلطان حسن ٤٠ محكمة. أبو زكريا يحيى ١٥٤ محكمه. حجه حسام الدين لاجين ١٨،١٧ محكمة

[٤] وثيقه برسباى أوقاف ٨٨٠ الكشاف للزمخشرى والمفتاح للسكاكى كتابان مختصان بفن البلاغة

تدريس الفقه وعلوم الدين.

ولم يقف الواقف عند تحديد ما يدرس بمدرسته من مذاهب الفقه أو العلوم الأخرى بل إمتدت سيطرته إلى تحديد المناهج الدراسية التى تدرس ، فقد إشترط برسباى مثلا أن يقوم شيخ الحنيفة بمدرسته بإلقاء الدروس من الكشاف للزمخشرى والمفتاح للسكاكى والهداية فى فقه مذهب أبى حنيفة ومن البردينى فى أصول الفقه"[1] مع أن هذا الأمر – فيما أعتقد – من خصوصيات أهل العلم والقائمين على التدريس أنفسهم وكان العلماء فى ذلك العصر قد حددوا هذه المناهج وطرق تدريسها وما ينبغى أن يدرس فى كل مرحلة منها فى كل تخصص[2] ولكن هذا التدخل يشير إلى أهمية الدور الذى يلعبه الواقف فى وظيفة المنشأة الدينية فى العصر المملوكى.

وعلى أية حال فقد كانت المواد الدراسية السائدة فى المدارس المملوكية تتنوع ما بين العلوم الشرعية من فقه وأصول وحديث وتفسير وقراءات ، أو لسانية لغوية من نحو وصرف وبلاغة كما وجدت العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق والطب بأنواعه والكيمياء الطبية "الصيدلة"والفلك وعلم الهيئة والهندسة[3]

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا توجد علاقة ثابته إذن بين ما يقرر من دروس بالمدرسة وبين عدد الأواوين بها فقد تشتمل المدرسة على أربعة إيوانات ولايقرر بها سوى درس واحدا لأى من المذاهب أو العلوم ، وقد تشتمل على ايوان واحد ويقرر بها عدة دروس ولعل أروع الأمثلة التى تؤكد ذلك مدرسة أيتمش البجاسى الذى قرر بها درسين للمذهب الحنفى يعقدان بالإيوان فى وقتين مختلفين للتغلب على مشكلة المكان، بل إنه قرر حضور للتصوف بعد العصر يجتمع فيه الشيخين والطلبة المقررين فى الدرسين السابقين الإشارة إليهما على أن يعقد أيضا هذا الحضور بإيوان القبلة، كذلك قرر الواقف المذكور درسا لتلقين القرآن العظيم لمن يرغب فى ذلك من العامة

[1] ابن الأزرق طبائع السلك جـ٢ ص ٣٥١-٣٦٣

[2] حجه قلاوون محكمة ١٥، حجة حسام الدين لاجين محكمة ١٨،١٧، السلطان حسن محكمة ٤٠ وثيقة أبو زكريا يحيى محكمة ١٥٤

[3] ابن خلدون المقدمة ص ٤١٢-٤٥٢ ابن الأزرق طبائع السلك جـ٢ ص ٣٥١-٣٦٣

وترك للناظر حرية تحديد الموعد لذلك ، وكذلك درسا الحديث فى أيام الإثنين والثلاثاء وهما يومان أشترط الواقف عدم التدريس فيهما لشيخى المذهب الحنفى بالإضافة إلى يوم الجمعة الذى تبطل فيه الدروس عادة لإقامة الجمعة[1] وتهيئة المكان لذلك. ومما سبق يتضح أن العملية عملية تنظيمية بحتة تختص بالمواعيد بحيث يمكن تدريس عدة دروس فى مكان واحد وهو أمر يوضح أن لكلّ منشأة ظروفها الخاصة بها وأن تخطيط هذه المدرسة يتحدد بطبيعة المساحة والقدرات المالية للمنشئ على البناء ، وهو أمر أنعكس على تنوع تخطيطات المدارس ، ومن الخطأ أن نتوهم أن تخطيط المدرسة وقف عند ذلك التخطيط الشائع ذو الأواوين الأربعة المتقابلة ، فقد وجد من المدارس ما إشتمل على إيوان واحد ومنها ما إشتمل على إيوانين ومنها ما إشتمل على ثلاثة وهو أمر يعنى أن المعمار لم يقف عند تخطيط بذاته بل تنوعت هذه التخطيطات . أما ما يرد من إشارات إلى تحديد الأواوين وتخصيصها للمذاهب كما فى مدرسة السلطان بيبرس والناصر محمد والسلطان حسن فإن ذلك لا يعدو أن يكون من دواعى التنظيم والإدارة ولا علاقة له بتحديد تخطيط بعينه للمدرسة المملوكية.

وقد عنى سلاطين وأمراء المماليك بإختيار العلماء والمدرسين للتدريس بمدارسهم من بين الأفذاذ المعروفين بالعلم والفضل من ذوى المذاهب ، وذلك لأن مركز الأستاذ فى ذلك الوقت كان يفوق مركز المدرسة لأن الطلاب كانوا يرتحاون إليه بالذات أينما كان ويحصلون منه على الإجازات العلمية[2]

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له توقيعات من ديوان الإنشاء تختلف بإختلاف المادة التى يدرسها المدرس تفسيرا كانت أو حديثا وفى هذا التوقيع يقدم السلطان النصح للمدرس بأن يظهر " مكنون علمه" للطلاب ويقبل على الدرس وهو طلق

---

[1] وثيقة أيتمش البجاسى ١١٤٣ مكرر أوقاف

[2] ابن تغرى بردى. المنهل الصافى جـ١ ص ٣٨٧ . عبد اللطيف إبراهيم. وثائق الغورى ص ١٥١

الوجه منشرح الصدر ليستميل إليه طلبته ويربيهم كما يربى الوالد ولده كذلك طلب من المدرس أن ينظر فى طلبته ويحثهم فى كل وقت على الاشتغال.[١]

وقد أشارت كثير من المصادر إلى وظيفة المدرس تفصيلا فيذكر السبكى أنه "حق عليه أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين ، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم مالا يناسبهم من المشكلات بل يدربهم ويأخذهم بالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق وأن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الواضحات بل يدخل بهم فى مشكلات الفقه ويخوض بهم عبابه الزاخر وأن يلقى الفقه مثلا فى ما يدرسه الفقهاء غالبا ولكنه ينوع فى بعض الأيام فيذكر تفسيرا أو حديثا أو غيره من العلوم الشرعية فالقصد التنويع على الطلبة وبعث عزائمهم[٢]

كذلك فإن وثائق الوقف للمنشآت الدينية المملوكية قد حددت الشروط التى يجب توافرها فى كل موظف يقرر بها تحديدا دقيقا وكان يتم اختيار هؤلاء الموظفين طبقا لهذه الشروط دون النظر لأى اعتبارات أخرى وقد اتفقت هذه الشروط فى وجوب اتصاف المدرس بالعلم والدين كشرط أساسى ، وأختلفت فى تفصيلات أخرى كالمذهب والجنسية والتخصص وغيرها من الأمور مما أكسب المدارس المملوكية تنوعا إنتهى بالتعليم فى العصر المملوكى إلى مرتبة التكامل وإختصت بعض المدارس بتدريس مذهب معين وبعضها بتدريس المذاهب ، وتقرر بالبعض الأخر تدريس الحديث والقراءات وغيرها من العلوم ، وشرط بعض الواقفين ألا يلى أحد من العجم وظيفة من الوظائف بمدرسته واشترط أن "يكون من العرب دون العجم" [٣] وأشترط أخر فى مدرسى مدرسته أن يكونا عالمين بالعلوم العربية ومشكلاتها متكلمين بلسان العربى والعجمى والتركى ، وإلا فباللسان العربى وأحد اللسان المذكورين فيه وهذه الشروط وغيرها لها دلالاتها خاصة إذا علمنا أن إدخال

---

[١] القلقشندى صبح الأعش جـ٥ ص ٤٦٤ د. سعيد عاشور العصر المماليك فى مصر والشام ص ٣٦٢

[٢] السبكى. معيد النعم ص١٠٥-١٠٦-١٠٧

[٣] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٦٨-٣٦٩

المدارس إلى مصر على يد الأيوبيين تبعه تعيين أساتذه من خارجها من سوريا وحماة والقدس ومن المغرب وأسبانيا ومن بغداد ونيسابور وشرق إيران أتى ثلثى الأستاذه ، وفى بعض الأحيان كان الأبناء يرثوا آباءهم الأستاذة فى المدارس وكانوا بطبيعة الحال منحدرين من صلبهم فكانوا بذلك يحرموا غيرهم من الحصول على هذه الوظائف فكانت شروط بعض الواقفين إنعكاسا أوصدى لهذا الحال ، كذلك فإن كثيرا من التراجم تشير إلى أن كثيرا من الدارسين أتوا إلى مصر من خارجها وقد دفعت الظروف السياسية التى صاحبت غزو المغول وظهور القاهرة كمركز علمى متقدم فى عصر المماليك الطلاب خاصة فى شرق العالم الإسلامى إلى النزوح إلى مصر وتلقى العلم بمدارسها لذلك لاغرابة أن نرى بعض الواقفين يقدر ظروف هؤلاء الطلاب الذين قد ينزلوا ويعين لهم مدرسين يجيدون التحدث باللسان العجمى أو التركى وإن كان ذلك يكشف عن بعض التعصب الجنسى إلا أنه يوضح أن أى مدى أرتبطت القاهرة بمدارسها من ناحية المبدأ بالعالم الإسلامى للتبادل المستمر للدارسين مما جعلها محورا للعالم السنى الكبير .

ولذلك وجدنا أن هناك كثيرا من الشيوخ والمدرسين والطلبة والموظفين داخل المنشآت الدينية المملوكية من أتوا من خارج البلاد ودفعت بهم ظروف بلادهم السياسية وما يلاقونه فى مصر من رعاية علمية متمثلة فى وجود العلماء[1] ومن رعاية مادية متمثلة فيما يأخذونه من مرتبات ومميزات عينيه أخرى كالسكن والخبز والكساء والهبات فى المواسم والأعياد، إلى المجئ إلى مصر والاستقرار بها ولذلك فإن توفر المساكن بالمدارس المملوكية كان من المتطلبات التى روعيت فى تخطيط المدرسة المملوكية .

---

[1] العلماء فرق كثيرة منهم المفسر والمتحدث والفقيه والأصولى والمتكلم والنحوى وغيرهم وتتشعب كل فرقه من هؤلاء شعوبا ، وقبائل ويجمع الكل أنه حق عليهم برشاد المتعلمين وإفتاء المستفتين ونصح الطلابين وإظهار العلم للسائلين. السبكى معبد النعم ومبيد النقم ص ٩٧

وتكملة للإهتمام بأداء وظيفة المدارس كان الواقفون يباشرون العمل بمنشآتهم ، وكان لأسلوب الثواب والعقاب الذى اتبعوه أثره البالغ فى استمرار هذه المنشآت فى أداء وظائفها التى أنشئت من أجلها على خير وجه ، ونضرب لذلك مثالا بالسلطان برسباى الذى كان كريما وسخيا مع شيخ مدرسته ابن الرومى فأرسل إليه فى شهر رمضان القمح والسكر والذهب كما أتاح له أداء فريضة الحج وأوصى به من حج معه من الأمراء[1] وكان فى نفس الوقت حازما معه حينما قرر عزله من مشيخة المدرسة بسبب أن شيخا من الصوفية بالمدرسة مات وخلف مالا جزيلا فاحتاط عليه ونقل عنه أمورا فاحشة .[2]

وكان شيخ المدرسة المسئول الأول عما يدور بها ، ولا يقبل تدخلا من أحد فى ذلك حتى ولو أدى إلى أن يستقيل من منصبه ، خاصة وأن الأمراء كانوا يحاولون التدخل فى شئون المنشآت الدينية[3]

وكان يتوقف سير العمل بالمدرسة على درجة حزم شيخها ولعل فى إمتداح المؤرخين لهذه الصفة ، فى بعض المشايخ ما يشير إلى ذلك فيذكر السخاوى أن محمد بن كزلبغا ناصر الدين الذى آلت إليه مشيخة المدرسة الأشرفية برسباى كانت "له حرمه تامة على أرباب الوظائف بها كالمؤذنين والفراشين ونحوهم[4]

وكان الأبناء – كما ذكرنا – يرثون الوظائف بالمنشآت الدينية عن آبائهم مادام هؤلاء الأبناء صالحين لها حسب شرط الواقف ، وقد تضمنت وثائق الوقف المملوكية ما يؤكد هذه الحقيقة ومما يشير إلى أن وثائق الوقف كانت اللائحة التنفيذية التى يسير عليها النظام بالمدرسة ، أنه عندما كانت تحدث مشكلة ما بالمدرسة فإن نص الوقف كان الأساس الذى يحتكم إليه ، ونضرب لذلك مثلا بعلى بن عبادة الذى إستقر مع أخيه بعد أبيها فى تدريس

---

[1] أبن حجر أبناء • جـ٣ ص ٣٢٨

[2] أبن حجر • أبناء جـ٣ ص ٣٦٥

[3] المقريزى • السلوك جـ٤ ق ٢ ص ٨٣٧ السخاوى الضوء جـ٢ جـ٣ ص٦٤ العينى عقد الجمان جـ٢٥ ص ٦٢٨

[4] السخاوى الضوء جـ٥ ص ٢٨٥

المالكية بالمدرسة الأشرفية برسباى ، بعد أن نازعهما فى ذلك ناصر الدين ابن المخلطة الذى استقر فى وظيفة والدهما بالمدرسة فاحتجوا بقول الواقف "من كان له ولد فيه أهليه للتدريس بها فلا يقدم عليه غيره" وساعدهما جماعة من الأكابر أعظمهم شيخ المدرسة الأقصرائى[١] فانتزعت لهما عملا بشرط الواقف فإنه ليس ما يمنع التشريك أيضا ، واستمر معهما حتى ماتا ، ثم ورثها عنهما ولد أحدهما واستنيب عنه العلامة نور الدين على السنهورى المالكى[٢]

وهذه الرواية التى ذكرها السخاوى تبين أمورا عدة منها أهمية نص الوقف الذى يكون بمثابة القانون الذى يحتكم إليه فى تنظيم العمل والتوظيف داخل المدرسة ، كما أنها من ناحية أخرى توضح إسم شيخ المدرسة الذى ورد فى الوثيقة ثم إنها من جهة ثالثة تبين لنا بالإضافة إلى نظام التوريث بالوظائف نظامان اخران يدخلان فى إطاره أولهما نظام التشريك أى أنه يرث الوظيفة أكثر من شخص من أبناء الشاغل السابق لوظيفة مادام هذا الأمر لا يتعارض وما شرط الواقف من شروط ، والنظام الثانى هو نظام الإنابة بمعنى أنه إذا وجد من يرث الوظيفة ولم يكن قد تأهل بعد لشغلها فإنه يستنيب عنه من يقوم بها إلى أن يتأهل لشغلها فيشغلها. وهو أمر له دلالته الهامة فقد أصبحت الوظيفة بهذا الشكل كما لو كانت حقا مكتسبا لشاغلها ، وربما فعل المماليك ذلك كسبا لجانب هؤلاء الوظفين لتحقيق مكاسب سياسية سعوا إليها.

وتحقيقا للكسب المادى عمل بعض المدرسين فى أكثر من مدرسة[٣] وكان البعض يرغبون عن التدريس فى أماكن معينة للتدريس بمدارس أخرى طمعا فى الزيادة فى الرزق[٤]

كذلك جرت العادة على تعيين معيد أو اكثر لكل مدرس ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحصفوه ، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح[٥] ولذلك كان عليه قدر زائد على سماع الدروس إذ يساعد المدرس - الذى يتبعه فىالمذهب ومادة التخصص - ويحضر الدرس مرتبطا به مستمعا

---

(١) المرجع نفسه جـ٥ ص ٢٣٤

(٢) السخاوى الضوء جـ٦ ص ١٨٠.

(٣) السخاوى. الضوء جـ٤ ص ١٣٦ ابن تغرى بردى النجوم جـ٨ ص ٨٢ الصيرفى نزهة النفوس جـ٣ ص ٢٧٩ ابن أياس بدائع الزهور جـ٣ ص ٤٤

(٤) السخاوى. الضوء جـ٦ ص ١٠٧

(٥) السبكى. معيد النعم ص ١٠٨ د. سعيد عاشور العصر المماليكى ص ٣٣٢

إليه ، وعندما ينصرف المدرس يقوم بالإعادة والتوضيح[1]

وقد يشغل المعيد فى مدرسة ما وظيفة مدرس فى أخرى مثال ذلك الشيخ ظهير الدين التزمنتى الشافعى الذى كان معيدا بمدرسة الشافعى ومدرسا بالمدرسة القطبية ، وقد يكون ذلك راجعا إلى إختلاف المستوى العلمى بين هذه المدارس ، وقد يكون راجعا إلى تأثير مرتبات المدرسين والطلاب بما كانت تصاب به الأوقاف أحيانا من العدوان عليهما وأمتداد أيدى السوء إليها وخاصة فى عهد الجراكسة مما أدى إلى خلو المدارس أحيانا من المدرسين واقتصارها على المعيدين[2] وهو أمر يشير إلى الدور الخطير الذى كانت تلعبه الأوقاف فى وظيفة المنشأة الدينية فى ذلك العصر .

ولم تكن الرغبة فى تحصيل العلم هى الدافع الوحيد للطلبة للالتحاق بالمدارس المملوكية ولكن مع تلك الرعاية التى كانت تقدم لهم المرتبات التى كانوا يتحصلون عليها ، كانوا يتنافسون على الالتحاق بهذه المدارس ، وكان يتم إلتحاق الطلبة بهذه المدارس بعد إجراء إمتحان لهم ، فقد تنزل محمد الصفدى بالمدرسة الأشرفية برسباى بعد إمتحان شيخ الشافعية بها القاياتى بما أحسن جوابه[3] كما أنهم كانوا يتنزلون عن طريق وساطة أحد الشيوخ [4] أو الأمراء[5] كذلك كان لصلة الرحم والنسب أيضا دورها فى هذا الأمر[6]

ومما يكشف أن الغرض المادى كان وراء سعى الطلبة إلى الإلتحاق بالمدارس أنه كان لبعضهم وظائف أخرى مشابهة فى بعض المدارس الأخرى أو وظائف دنيوية هدفها الكسب المادى[7] وأنهم كانوا يتحركون من المدرسة إلى أخرى بسبب أرتفاع المرتبات فى هذه عن تلك .

---

(1) القلقشندى ، صبح الأعشى جـ٥ ص ٤٦٤ المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٧٠ حاشيه ٣ حجه السلطان حسن محكمه ٤٢ أوقاف ٨٨١ ص ٤٣٦-٤٤٣ السبكى معيد النعم ص ٣٨ المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٧٣١

(2) عبد اللطيف ، وثائق الغورى ص ١٥٤

(3) السخاوى ، الضوء جـ٥ ص ٢٧١ جـ١٠ ص ٢٣

(4) السخاوى ، الضوء جـ١٠ ص ٣٧

(5) السخاوى ، الضوء جـ٦ ص ٣٠١

(6) السخاوى ، الضوء جـ١ ص ٢٣٧

(7) السخاوى ، الضوء جـ٤ ص ٣٧-٣٨ جـ٥ ص ٣١٥

وكان من الطلبة ببعض المدارس ما يشغل وظائف التدريس فى أماكن أخرى مثال ذلك على بن أحمد الشيشى الذى تولى تدريس الحنابلة بالصالح بعد موت شيخه أبن الرزار[1] وقاسم بن قطلوبغا الزين الذى تولى تدريس الحديث بقبة البيبرسية[2] وهما من طلبة المدرسة الأشرفية برسباى. وهو أمر يشير إلى مستوى الطلاب العلمى ، بل إن ما يشير إلى إرتفاع ذلك المستوى أن طالبا بالمدرسة الأشرفية برسباى يدعى عمر بن محمد التركمانى أراد أن يتولى وظيفة عبد الوهاب بن الشرف أحد مدرسى المدرسة من بعده ، ولكن لم يتمكن من ذلك لالكونه طالبا بل لكونه كان شافعيا وكان المدرس حنيفا[3] وهذا ينقلنا إلى نقطة أخرى وهى أنه كان لكل مذهب وظائفه الخاصة بتابعيه لا يصح أن يشغلها إلا تابعى هذا المذهب ، وقد تحايل البعض على هذا بالتحول من مذهب إلى آخر بغية الحصول على وظيفة ، وهذا يشير إلى أى مدى كانت غلبة الغرض المادى ، فقد حدث على سبيل المثال أن تحول جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنيفة فى درس يلبغا بجامع إبن طولون لهذا الغرض.[4]

وقد أوضحت وثائق الوقف ما يشير إلى تحديد أعداد الطلاب لكل مذهب وأماكن ومواعيد الدراسة ، فقد وردت إشارات كثيرة لتحديد إيوان معين لمذهب معين ، أو لدرس تفسير أو حديث أو طب[5] كذلك مواعيد الدراسة وإنتهائها سواء كانت فى الفترة الصباحية أو بعد الظهر ، وكذلك العطلات التى كان محددا لها المواسم والأعياد وأيام المطر المانع والرياح العاصفة والسفر والحج.[6] وهو تحديد إختلف من مدرسة إلى أخرى حسب ظروف هذه المدرسة المتعلقة بمساحتها والدروس المقررة فيها وعدد الطلاب

---

(1) السخاوى. الضوء جـ٥ ص ١٨٧-١٨٨

(2) السخاوى. الضوء جـ٦ ص ١٨٤

(3) السخاوى. الضوء جـ٤ ص ١١٨

(4) المقريزى. خطط جـ٢ ط بولاق ص ٢٦٨

(5) وثيقة المؤيد شيخ ٩٣٨ اوقاف - صرغتمش ٣١٩٥ محكمة - السيفى ازدمر ٢٤١ محكمة. السيفى بيبرس ٣١٢ محكمة

(6) وثيقة برسباى ٨٨٠ ص ١٩

ونوعيتهم مبتدئين أو منتهين وغير ذلك ، وهو تحديد كان يراعى فيه دائما المواءمة بين كل هذه الظروف فكان إيوان القبلة الذى كان عادة أكبر أواوين المدرسة يخصص لطلاب المذهب الأكثر عددا ، والأواوين الأصغر لطلاب المذاهب الأقل عددا[1] ، أما إذا إزدحمت المدرسة بالدروس التى يقررها الواقف ويضيق المكان بها كما كان فى مدرسة أيتمش فإن الواقف يلجأ إلى الترتيب الزمنى بمعنى أن يجعل درسا فى الصباح وآخر فى المساء ، أو يجعل أياما لدرس معين وأياما أخرى لدرس آخر بحيث يستطيع المكان الواحد تحمل أكثر من درس دونما خلل.[2]

كذلك فإن وثائق الوقف تحدد كذلك تعيين الأساتذة لكل تخصص وأحيانا مواد ومناهج الدراسة وغير ذلك مما يرد ذكره عن مساكن الطلبة والمرتبات والأجور لأرباب الوظائف والقومة.

ومن دراسة وثائق الوقف المملوكية للمنشآت الدينية يتضح أهمية الوقف وأثره المباشر على وظيفة المنشأة الدينية فوثيقة الوقف بما تتضمنه من وصف وثائقى دقيق للمبنى تحدد شكله ومحتوياته مسجلة حتى يبقى على حاله، ويعمل المباشرون للوقف على المحافظة عليه وإعادة ما يتهدم منه فى إطار هذا الوصف الموثق ، كما أنه فى هذا الوصف حماية للمنشأة من أى إعتداء على أى جزء منها قد يتعرض للنهب والاغتصاب ، وفى ذلك ما يساعد على بقاء المنشأة واستمرارها فى أداء وظيفتها التى أنشئت من أجلها بصورة طبيعية ، كذلك فإن وقف وحدات المنشآة المعمارية يحدد الوظيفة التى تقوم بها هذه الوحدة مما يساعد على الإستغلال السليم للوحدات كل حسب وظيفته ، كذلك فإن الإشارة إلى من يعين بالمنشأة من موظفين وما يقرر لهم من مرتبات يتحكم فيها ما يوقفه الواقف على المنشأة من أوقاف وهى أمور تتأثر بما يتملكه الواقف من عقار وأراض يوقفها على هذه المنشآت أو تلك ، فتحدد بذلك الوظيفة الحقيقية التى تؤديها المنشأة بغض النظر عن تخطيط المبنى ذاته. بل إن شروط العمل والتوظف داخل المنشأة و التى تحددها

---

[1] وثيقة أيتمش البجاسى ١١٤٣

[2] السلطان حسن ٨٨١ ص ٤٣٦-٤٤٣ صرغتمش ٣١٩٥

وثيقة الوقف حسب ما يراه الواقف والتي إختلفت من وثيقة إلى أخرى تبين إلى أى مدى أرتبطت وظيفة المنشأة الدينية بالوقف.

والحقيقة أنه بدون الأوقاف كان لا يمكن أن تقوم لوظيفة للمدرسة فى ذلك العصر قائمة فيحدثنا المقريزى عن ثلاث مدارس مماليكية ، ولكن لا يوجد بأى منها مدرس ولا طلبة ، وأولى هذه المدارس الخروبية التى مات مؤسسها "قبل إستيفاء ما أراد أن يجعل فيها فليس فيها مدرس ولا طلبة"[١] والثانية مدرسة إينال لم يعمل بها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره[٢] ، والثالثة مدرسة المحلى لم يجعل بها مدرسا ولا طلبة"[٣]

ويؤكد أهمية الأوقاف بالنسبة للمدارس واستمرارها فى أداء وظائفها تلك العبارة التى ذكرها المقريزى عند كلامه عن المدارس، إذ يقول مثلا عن المدرسة الناصرية "ولولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت ، فإن الكيمان ملاصقة لها بعد ما كان حولها أعمر موضع فى الدنيا"[٤] وقد أحاطها الخراب ولولا ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت[٥] وهذا يعنى أن ريع ما يوقف على المنشآت الدينية كان المصدر الأساسى والوحيد لغالبية المنشآت الدينية فى العصر المملوكى ، ولما كانت الموارد المالية للمدرسة محددة بريع الوقف فقد حدد الواقفون عدد الطلبة الذين يتلقون العلم فى المدرسة تبعا لذلك. وعلى أية حال فإنه لم يزد عدد الطلبة للمذهب الواحد عن "ستين نفسا" وهو العدد الذى قرره الأمير صرغتمش لطلبة المذهب الحنفى بمدرسته وهو المذهب الوحيد الذى قرره بمدرسته بالإضافة إلى خمسة عشر طالبا يدرسون الحديث.[٦] أما مدرسة السلطان حسن والتى تعد أكبر مدرسة أنشئت فى العصر المملوكى والتى قيل "إن متحصل وقفها فى كل سنة ينيف عن

(١) المقريزى، خطط جـ٢ ص ٣٦٨-٣٦٩
(٢) المقريزى، المرجع نفسه جـ٢ ص ٤٠١
(٣) المقريزى، المرجع نفسه جـ٢ ص ٣٦٨-٣٦٩
(٤) المقريزى، خطط جـ٢ ص ٣٦٣
(٥) المقريزى، خطط جـ٢ ص ٣٠٦
(٦) وثيقة صرغتمش ٣١٩٥ أوقاف

متحصل مملكة ضخمة"[١] فكان عدد الطلبة الذين قررهم الواقف لكل مذهب مائه طالب نصفهم من المبتدئين والنصف الثانى من المنتهين أى أنهم كانوا فرقتين وأقصى عدد تضمنته الفرقة خمسين طالبا نصفهم يقطن المدرسة والنصف الاخر يتردد عليها[٢]

وكان الطلبة يتمتعون بحرية إختيار المواد التى يدرسونها بحيث "لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة بما يختاره من أنواع العلوم الشرعية" وكثيرا ما إعتمد هذا الإختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية بحيث طالب العلم من بلد بعيد ليتتلمذ على فقيه أو محدث مشهور ، ولما كان الأمر كذلك فإن تحديد مدة الدراسة لحصول الطالب على الإجازة كان متعلقا بقدرة الطالب على الاستيعاب ورؤية الشيخ وتقييمه لذلك حتى إذا رأى الشيخ أن تلميذه أتم دراسته وتأهل للفتيا أجاز له وكتب له إجازة يذكر فيها إسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك [٣]

وإذا كانت المصادر التاريخية ووثائق الوقف التى أشارت إلى كل ما يتعلق بشئون المدارس صغيرا وكبيرا فإنها لم تحدد على الإطلاق مدة معينة لكى ينتهى فيها الطالب من دراسته فى المدارس المملوكية ، وهو الأمر الذى نرى له تحديدا فى بلاد أخرى أنشئت فيها مدارس فقد كانت المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس ستة عشرة سنة بالمغرب وخمس سنين بتونس [٤] فإن ذلك الأمر يكشف عن الفارق الكبير بين حال التعليم فى العصر المملوكى وحاله فى بلاد إسلامية أخرى ، ثم هو يكشف عن حقيقة هامة مرتبطة بالوضع السياسى للماليك ومحاولتهم كسب رضاء أهل العلم والدين لتدعيم هذا الموقف • فأصبح إطلاق وتنزيل الطلبة بالمدارس المملوكية دون تحديد مدة معينة يتمكن فيها الطالب من تحصيل العلم ونيل الإجازة نوعا من الرعاية الإجتماعية لهذه الطبقة من الشعب •

---

[١] أبن شاهين • زبدة كشف المماليك ص ٣١

[٢] السلطان حسن ٨٨١ أوقاف

[٣] د • سعيد عاشور العصر المماليك فى مصر والشام ص ٣٣٢

[٤] ابن الازرق طبا نع السلك فى أخبار الملك جـ٢ ص٣٤٠

وقد ساعدت الأوقاف التى يصرف ريعها على الطلبة فى هيئة رواتب شهرية وعطايا على بقاء الطلبة بالمدارس مدة طويلة فى كثير من الأحيان لا لطلب العلم لذاته بل للتعيش الإرتزاق ، أو كما يقولون من أجل الخبز والزبد من معين مؤبد لا ينضب[1] وقد أعتبر الطلبة هذه المرتبات والعطايا حقا مكتسبا لهم ، حتى أننا نرى مثلا أن طلبة المدرسة الأشرفية برسباى وشيوخها قاموا برفع دعوى أمام القضاء ضد السلطان برسباى يطالبون فيها بزيادة مرتباتهم[2] بعد أن تغير وضع العملة نتيجة إصلاحاته المختلفة والمتعددة لها.[3] وهذه الحادثة تكشف عن أمرين أولهما أن الوظائف الدينية لم يكن السعى وراءها بوازع دينى ولكن كان السعى وراءها دافعه مادى فى المقام الأول ، ثم إنها أصبحت حقا مشرعا ثابتا لهم حتى أنهم طالبوا برفع المرتبات وبأسلوب رسمى ورفع الدعوى على السلطان نفسه الذى أنشأ المدرسة يؤكد هذا الأمر.

ولما كانت للأوقاف هذه الأهمية الكبيرة بالنسبة للمنشآت الدينية فإن الحرص عليها أمر وارد فقد سعى واقفو هذه المنشآت إلى تعيين من له وجاهة فى وظائف منشآتهم الدينية ومن بينها المدارس فى وظائفها التخصصية المتعلقة بالتدريس والتصوف ، ويكون كل منهم مساعدا له فى إبقاء الوقف إذا حدث له أمر بعد حين ، مثال ذلك ما فعله الشهابى أحمد بن عبد الرحيم بن العينى فقد رتب جماعة من علماء مصر فى مدرسة جده البدر العينى ومدرسة أبن الغنام " على معلوم المدرسة بل من جهات وقفها" ومن هؤلاء العلماء الشيخ أمين الدين الأقصرائى الذى إستقر شيخ الصوفية ويكون حضوره بعد العصر بعد الفراغ من حضوره الأشرفية.. لأنه شيخ الشيوخ بها "وإلتقى بالشيخ المثمنى الحنفى شيخ تربة قايتباى الجاركسى بإستقراره فى مشيخة قراءة الحديث النبوى بها ، وأبن الصيرفى عضد الدين شيخ البرقوقية بإستقراره فى درس الحديث والتفسير ، والتقى أبو بكر الحصنى الشافعى بأستقراره مدرس العلوم العقلية ، ثم نزل جماعة كثيرين من

---

(1) عبد اللطيف إبراهيم – وثائق الغورى ص ١٥٠

(2) وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف

(3) محمد عبد الستار عثمان. الأثار المعمارية للسلطان برسباى بمدينة القاهرة ص٦-١١

القضاة والأعيان صوفية بالمكان المذكور ورتب للمشايخ والصوفية معاليم ، ويذكر أبن تغرى بردى أن الناس تعجب من غرضه لأنه لم يقرر إلا من له وجاهة فى وظيفة وكان يمكنه تقرير غيرهم من العلماء الذين ليست لهم وظيفة ويقع ذلك فى محلة ويؤكد أبن تغرى بردى أن الشهاب أحمد ما فعل ذلك إلا محافظة على وقفه ليكون كل منهم مساعدا له فى إبقاء الوقف ، ويعقب على ذلك فيقول "ففاته الحزم فيما قصد ليكون الأقرب لما قصده تقرير من هو مستحق لما يكون عنده من الإلحاح فى الطلبة والمنازعة فى الحق وغيره بخلاف الأغنياء المستكفين عن هذذا المعلوم لا يبالون منه إن حصل إن لم يحصل[1] وتؤكد هذه الرواية ما ذهبنا إليه من أن المتنزلين بالمنشآت الدينية كانوا يعتبرون ما يتحصلون عليه من رواتب حقا مكتسبا لهم يسعون إلى ذلك بشتى الطرق ويحرصون على المحافظة على الأوقاف التى تدر عليهم هذا الدخل.

ولاشك أن الإشراف القوى على الأوقاف له أثره الفعال فى بقاء المنشآت الدينية وإستمرار فى وظيفتها ، فقد إنهارت على سبيل المثال المدرسة الصاحبية البهائية بعد وفاة شمس الدين محمد بن الصاحب سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م والذى كان يلى نظرها والتدريس بها ، ويعلل المقريزى سبب ذلك فيقول "فوضع بعض القضاة يده على ما بقى لها من وقف فأقامت هذه المدرسة مدة أعوام معطلة من ذكر الله وإقام الصلاة لايأويها أحد فاستولى على عمد الرخام التى كانت بها الناصر فرج ولم تلبث أن هدمت فى أواخر سنه ٨١٧هـ/١٤١٤م بعد أن كانت "من أجل مدارس الدينا وأعظم مدرسة فى مصر"[2]

وقد تعرضت أوقاف المنشآت الدينية ومن بينها المدارس لإستغلال ألأمراء والمباشرين والنظار واستغلوها ، مما كان يهدد هذه المنشآت بالتوقف والإندثار ولذلك نجد فى المقابل عناية بعض السلاطين بهذه الأمور ومحاربة هذا الفساد من آن لآخر مثال ذلك ما فعله السلطان برسباى والذى شكل

---

[1] أبن تغرى بردى منتجات من أحداث الدهور ص ٥١٧-٥١٨

[2] المقريزى، خطط جـ٢ ص٣١٠

مجلسا من القضاة يتولى النظر فى كتب أوقاف هذه المدارس ومراجعة شروطها للتحقيق من التزام النظار بهذه الشروط ، وأسند رئاسة هذا المجلس لابن حجر ، ولكن المجلس لم يستطع أن يؤدى مهمته أمام نفوذ الأمراء والمباشرين والنظار"[1]

وهذا الأمر يشير من جهة أخرى إلى أهمية وثيقة وقف المنشأة التى تعد القانون الذى يحتكم إليه فى جميع ما يخص المدرسة ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة تلك المشكلة التى قامت بخصوص مدرسة ابن سويد والتى لم تنص وثيقة وقفها على أن تقام بها خطبة ، ثم عملت بها خطبة وألغى الدرس وقرر معلوم المدرس للمؤذنين والخطيب ثم ألغيت الخطبة بعد أن إحتج على إقامتها وثار الجدل بين الفقهاء والقضاة وكان الفيصل فى الحل ما قرره الواقف فى وثيقة وقفه[2]

ومما يشير إلى مدى وجوب ما يقرره الواقف من نظام بمدرسته حسب مايراه هو بغض النظر عن جارى العادة فى ذلك مايذكره السبكى عن وظيفة البواب حيث يقول "ومن حقه المبيت بقرب الباب بحيث يسمع من يطرق عليه والفتح لساكن فى المكان أو قاصد مقصدا دينيا عن صلاة أو أشتغال أى وقت جاء من أوقات الليل وما فعله بعض البوابين من غلق الأبواب فى وقت معلوم من الليل أما بعد صلاة العشاء الاخرة أو فى وقت آخر بحيث إذا جاء أحد السكان أو المريدين للصلاة بعده لا يفتح له غير جائز إلا أن تكون مدرسته شرط واقفها ألا تفتح بأبها إلا وقت معلوم وفى صحة من شرط هذا الشرط نظر وإحتمال أما لو شرطه فى مسجد أو جامع فواضح أنه لا يصح[3]

وهذا النص يكشف بجانب أهمية شرط الواقف عن حقيقة هامة تفرق بين المدرسة والمسجد الجامع وهو أنه توجد شروط يمكن السماح بها لواقف

---

(1) ابن حجر ، أبناء جـ٣ ص ٥٣٨-٥٣٩ أبن تغرى بردى النجوم جـ١٥ ص ٥٥-٥٦ الصيرفى نزهه النفوس جـ٣ ص ٣١٤

(2) السخاوى ، التبر المسبوك فى زيل السلوك ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر المحمية سنه ١٨١٤م ص ٩-١١

(3) السبكى معيد النعم ومبيد النقم ص ١٤٤

المدرسة لا يسمح بها لواقف الجامع أو المسجد ، وشرط غلق الأبواب في المدرسة وجوئز وتحريم ذلك بالنسبة للجامع أو المسجد ، كذلك يشير هذا النص إلى إحتمال وجود غرف للبوابين بالمنشآت التى تقومون على حراسة أبوابها ، وهى تعتبر من عناصر الخدمة بالمنشآت الدينية هى ومثيلتها من غرف الفراشين والسواقين والطباخين وغيرهم وهى عناصر لا تظهر بوضوح فى المنشآت الدينية لطبيعة الحياة بها كما هو حال المنشآت المدنية ، ولكن وجودها يؤكد إدراك المعمار المسلم لها وتوخيه تخطيطها فى منشآته الدينية .

وتعتبر المكتبات من الأركان الأساسية لتحصيل العلم فى أى زمان ومكان فبدون الكتب والمكتبات لا تستيطع المنشآت التعليمية أن تؤدى مهمتها ولا يستطيع المعلمون والمتعلمون أن يواصلوا رسالتهم ، لذلك لا عجب فى أن يشهد العصر المملوكى نشاطا منقطع النظير فى التأليف من ناحية وفى جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية أخرى ، وكان سلاطين المماليك أول من قدر أهمية الكتب فأحتفظوا فى قلعة الجبل بخزانة جليلة القدر حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية وغير الدينية وقد ظلت هذه المكتبة عامرة بالكتب محتفظة بأهميتها حتى بعد الحريق التى تعرضت له على عهد الأشراف خليل سنه ٦٩١هـ/ ١٢٩٢م[١]

وكان الطبيعى أن يلحق بالمدارس المملوكية مكتبات تؤدى خدماتها لكل من المدرسين والطلبة والقراء وغيرهم وخصصت بالمدارس أماكن لحفظ هذه الكتب سواء كان قاعة كبيرة[٢] أو كتبيات صغيرة بجدران الأواوين[٣] وكانت هذه المكتبات تزود بالكتب من مختلف العلوم والفنون لتعين الطلاب والمدرسين وغيرهم من المنتفعين بها فى ذلك الوقت الذى لم تكن هناك غير نسخه خطية واحدة فى بعض الأحيان للكتاب والذى كانت تتكلف النسخة الواحده منه جهدا وتكاليفا كبيرة لإخراجه بالصور المطلوبه ، وقد سعى واقفوا هذ المدارس لهذا الغرض حتى أننا نجد مثلا أن جمال الدين الأستادار

[١] الدكتور سعيد عاشور العصر المماليكى ص ٣٣٣

[٢] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف

[٣] وثيقة جوهر اللالا رقم ١٠٢١ أوقاف ١٤أ / ١٥أ محكمة

قد أشترى مكتبة مدرسة الأشرف شعبان ووضعها بمكتبة مدرسته ثم نقلها السلطان فرج بن برقوق إلى القلعة بعد أن قتل هذا الأمير خنقا[1] وكانت عملية تغذية هذه المكتبات بالكتب مستمرة بالإضافة إلى مجموعة الكتب التى يحبسها صاحب المدرسة على خزائنها ، وقد كانت المكتبات تحصل على جديد من الكتب إما عن طريق الهدايا أو الهبات[2] وهكذا كان بكل مدرسة تقريبا خزانه كتب عُامرة بالكتب الثمينة فى مختلف العلوم والفنون من كتب الفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والتفسير والحديث واللغة والتاريخ والتراجم والفلك والكيمياء والطب وكان فى متناول الأساتذة والطلاب ليستفيدوا منها فى القراءة والدرس والنسخ والتأليف .

ونظرا لأهمية الإطلاع والدور التعليمى الدينى للمكتبة إنتشرت فى المنشآت الدينية المملوكية عموما ، لذلك لم يقتصر وجودها على المدارس بل ألحقت كذلك بالخنقاوات والجوامع وذلك تحقيقا وتعميما للفائدة العلمية المرجوة خاصة بعد أن تداخلت وظائف المدرسة والخانقاة والجامع وأصبح كل منهما يؤدى وظيفة الأخر .

وكان غالبا ما يكتب على هذه الكتب والمصاحف والربعات الشريفة عبارة "وقف" أو نص صريح بالوقف وشروطه وشهادة الشهود على ذلك ، وشهرة كتب الوقف وكونها فى متناول أيدى الباحثين جعلتهم لا يشترون كتبا[3] أحيانا لإعتمادهم عليها ، ومن هؤلاء أبو حيان الغرناطى الذى يقول "وإذا أردت كتابا إستعرته من كتب الأوقاف وقضيت حاجتى[4] ولهذا نشير إلى الدور الذى كانت تقوم به مكتبات المنشآت الدينية التى يوقفها أصحابها للإطلاع فى وقت غلا فيه ثمن الكتاب لتكاليف النسخ والورق والتجليد بل إن بعض جلود هذه الكتب بلغت درجة درجة عالية من الروعة والجمال والتكلفة

---

[1] السلوك جـ١ ملحق ٩ ص ١٠٠١ وعبد اللطيف إبراهيم على وثائق الغورى ص ١٥٤-١٥٥

[2] الصيرفى نزهه النفوس جـ٣ ص ٩٦-٩٧

[3] كان سوق الوراقين الذى كان يقع على ناصية تقاطع شارع المعز لدين الله مع شارع الأزهر حاليا فى الجانب المقابل للغورية مصدرا لشراء الكتب فقد كان يعمل به النساخون والمجلدون وكانت تمثل "مركز النشر" فى ذلك العصر برسباى ٨٨٠ أوقاف

[4] عبد اللطيف إبراهيم وثائق الغورى ص ١٥٤-١٥٥

فقد كانت محلاة بنقوش وزخارف رائعة كما كانت بعض صفحاتها ذات ألوان جميلة مكتوبة بالذهب واللازورد[1] مما جعل الحرص على حفظها والعناية بها بالغا ٠

وكان يعين للمكتبة أمينا يتولى "نفضها وعمل مصالحها ويتفقدها على ما جرت به العادة[2] من أعمال الفهرسة والترتيب والتسجيل والمحافظة[3] عليها وضبطها وتفقد أحوالها ليسهل إستعمالها وكان يساعد الخازن عادة مناولون أو خدم من القومة بالمدرسة ٠

وقد حرص الواقفون على أن يتولى هذه الوظيفة أحد العلماء ليكون عونا للباحثين في إرشادهم إلي ما يحتاجون إليه من المراجع[4] وقد كان هذا من قديم عهد فمثلا نجد أن القاضي الحارث بن سكينة الذى تولى قضاة مصر فى الفترة ما بين سنه ٩٤٨ – ٩٥٦م / ٣٣٧هـ-٣٤٥هـ أول القضاة الذين عينوا أمناء على المصاحف بالمساجد ٠[5]

وقد حددت الوثائق نظم الإستعارة فقد ذكرت الوثيقة فرج بن برقون ما نصه " على أن من حضر إليه "خازن الكتب" يطلب شيئا من ذلك "الكتب الموقوفة" فإن كان أهلا لمطالعة ذلك والإشتغال وكان من أهل المكان وممن يوثق به دفع إليه وأخذ خطه منه فإذا أعاده دفع إليه خطه، ولا يمكنه من التأخير مدة يخشى منها حصول النسيان بل يتعاهده بالسؤال وأخذ ما أخذه منه، فإذا طلب غيره أجابه لذلك وفعل كما فعل أولا[6] وكان من الواقفين ما يشترط أخذ رهن فكان يشترط على الخازن ألا يخرج الكتاب ولا برهن يحزر قيمته،

---

[1] من هذه الماذج الرائعة مجموعة المصاحف المملوكية بدار الكتب ومن أروع أمثلتها ومصحف الغورى رقم ٧٣ كذلك يوجد مصحف منها بمتحف الحضارة تحت رقم ٥٦٧٦ نقل من متحف الفن الإسلامى وهو مكتوب بخط أبو الفضل الأعرج٠

[2] دكتور عبد اللطيف إبراهيم المكتبة المملوكية ص ٢٩

[3] السبكى٠ معيد النعم ص ١١١

[4] د٠ سعيد عاشور المجتمع المصرى فى العصر المملوكى ص ١٤٦

[5] الكندى٠ الولاة والقضاة ص ٤٦٩

[6] وثيقة فرج بن برقوق رقم ٦٦ محفظه ١١ محكمة

ويعلق السبكى[1] على ذلك ويقول "وهو شرط صحيح معتبر فليس للخازن ألا يعتبر إلا برهن صرح به القفال فى الفتاوى والشيخ الإمام فى تكملة المذهب وذكر أنه ليس هو الرهن الشرعى وإذا كان المستعير من الخارج "سلم إليه مايريد إستعارته يطالع نهارا[2] ومما سبق يلاحظ أن الإستعارة الخارجية كانت محرمة تحريما تاما حرصا على الكتب وخوفا عليها من التلف أو الضياع.

وإلى هذه المتكيات يرجع الفضل فى صيانة الكثير من التراث الفكرى الإسلامي من نفائس الكتب والمخطوطات وتذكر لنا بعض وثائق الوقف أسماء مئات من الكتب الموقوفة ومن ضمنها كتاب تاريخ إبن قايتباى وتاريخ الظاهر قنصوه وتاريخ الملك الأشرف جان بلاط وكتاب الدرر السلطانية وهذه الكتب لأبن البرقى[3] وهذا يشير إلى الحرص الشديد على الكتب من جانب واقفيها لدرجة أنهم سجلوا أسماء هذه الكتب بوثائق وقفهم ، ومما يدل على هذا الحرص أيضا معاقبة من كان يهمل من الخزنة فى أداء وظيفة ، ولعل ضرب فخر الدين عثمان المعروف بأبن الطاعن خازن كتب المدرسة المحمودية بين يدى السلطان برسباى لإهماله شئون المكتبة التى يعمل بها مثال يؤكد ذلك[4]

ومما يشير إلى ما كانت تشتمل عليه مكتبات المدارس المملوكية ما ذكره السخاوى عن مكتبة المدرسة الأشرفية برسباى فيقول "إن – على بن أحمد – كان يحكى لنا فى شأنها أنه حضر مبيع كتب مخلفة عن بعضهم من جملتها لسان العرب فى اللغة بخط مؤلفه ، فلم ينته إليه أحد فرام أخذه لحسن موقعه عنده ، وزاد فيه ، فانتدب عند ذلك الزيارة من بعض الأعيان بحيث بلغ ثمنا كبيرا لا ينهض الشيخ بالوفاء به وخشى من الزيادة فيه أن يلزم فى

---

[1] السبكى. معيد النعم ص ١١١

[2] وثيقة جمال الدين الأستادا رقم ١٠٦ محفظه ١٧ محكمه وللأستزادة عن نظم الأستمارة يمكن مراجعه الوثائق التالية السلطان حسن ٨٨١ص٤٥١ الجمالى يوسف ناظر الخاص محكمه ١٠٥ برسباى ٨٨٠ ص١٩١ لاجين محكمه ١٧، ١٨ تغرى بردى محكمة ١٩٨ زيك من ططخ ١٩٨ محكمة قايتباى ٨٨٦ أوقاف.

[3] د. عبد اللطيف إبراهيم وثائق الغورى ص ١٥٧

[4] إبن حجر أنباء العمر جـ٣ ص ٢٩٩ .

الحال بثمنه فلا يقدر فربما يكون ذلك سببا لشئ ، فأعرض عنه مع تعلق خاطره به ، فلما صارت إليه هذه الوظيفة كانت النسخة بعينها أول شئ أخرج له حين التسليم والعرض والإعمال بالثبات [1] وهذه الرواية تبين صفات الخازن وهوايته للكتب من ناحية ، ومن ناحية أخرى تبين أن مكتبة هذه المدرسة كانت تتضمن أغلى الكتب وأندرها ويمولها بذلك الأعيان[2] ، ومن جهة أخرى تبين أن طرق التسليم والتسلم "إنتقال العهدة" من شخص إلى أخر كانت متبعة فى ذلك العصر . وما سبق يتضح أن الحرص على الحفاظ على الكتب كان عظيما حتى أننا نجد أن بعض الواقفين يشترط ألا يطلع على هذه الكتب الموقوفة أحد من الحكام أو أرباب المناصب أو أحد من جهتهم بحيلة أو بغيرها مطلقا[3] وربما كان ذلك خوفا من إعتدائهم عليها وطمعهم فيها ، ولم يكن مثل هذا الشرط ليعوق المكتبة عن أداء مهمتها بالنسبة للمحتاجين إليها من العلماء والشيوخ والمدرسين والطلاب والعامة مما لا يقدرون على إقتنائها مع المحافظة على هذه الكتب محافظة تامة والحرص عليها من الضياع والإهمال ، وحتى يتم هذا على خير وجه نجد أن بعض واقفى هذه المنشآت الدينية خصص بالمدرسة لخازن الكتب مكانا للإقامة بها حتى يظل ملازما لها فى كل حين وقد إنعكس أثر ذلك كله على تخطيط المدرسة فقد أصبح يراعى عند تخطيطها مكان المكتبة سواء كانت كتبيات صغيرة بالأواوين أو قاعة كبيرة قد يلحق بها مسكن للخازن ، وكذلك كان لغرض الحفاظ على الكتب أثره فى أختيار الموقع بعيدا عن مصادر التلف كالماء وغيرها[4]

المساكن فى المدارس

يعتبر إلحاق مساكن للمدرسين والطلبة من الأمور الهامة التى تميزت بها المدارس المملوكية فتوفير المساكن بالمدارس يساعد على تحقيق إنقطاع

---

[1] السخاوى. الضوء جـ٥ ص ١٦١ السخاوى التبر المسبوك ص ٤٤-٤٦

[2] الصيرفى نزهه النفوس والأبدان جـ٣ ص ٩٦-٩٧

[3] حجه الأبشادى المالكى محكمه ٢٧٨ د.أحمد شلبى تاريخ التربية الإسلامية ص ١٢٨-١٣٠

[4] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف وثيقة جمال الدين الأستادار رقم ١٠٦ محفظة ١٧ المحكمة

الطلبة للعلم والتفرغ للتحصيل والدرس وفراغ البال من أمر المعيشة وخاصة الطلبة الغرباء ، فقد كان الطلبة فى ذلك العصر يأتون من جميع الأنحاء إلى القاهرة التى إرتحل الناس إليها فى طلب العلم من العراق والمغرب وتفوقت فيها أسواق العلوم وزخرت بحارها[1] كذلك فإن توفير المساكن للمدرسين والشيوخ بهذه المدارس يوفر لهم نوعا من الراحة يتناسب ومكانتهم ويساعدهم على تحقيق أكبر فائدة.

وقد إشتهرت المدارس المملوكية بجودة مساكنها وتنافس الطلاب على سكناها ، مثال ذلك المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر بيبرس بالقاهرة سنه ٦٦٢هـ-١٢٦٣م، وكان "للناس فى سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه إليه الحكام"[2] وكذلك المدرسة الصاحبية التى أسسها الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا سنه ٦٥٤هـ-١٢٥٥م ، فكان يتنافس طلبة العلم على النزول بها ويتشاحنون فى سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الإثنان من طلبة العلم والثلاثة[3]

ولم يكن جميع الطلبة الملحقين بالمدرسة يسكنون بها بل كان هناك من يسكن بالمدرسة ومن يقطن خارجها يؤيد ذلك ما جاء بوثيقة صرغتمش من "أن الطلبة المذكورين يبيتون بالمدرسة المذكورة ويفسح لستة أنفس منهم يعنيهم المدرس المذكور بالمبيت خارج المدرسة المذكورة[4] وفى وثيقة السلطان حسن ما يشير إلى أن نصف الطلبة كانوا يسكنون بها والنصف الأخر كا يتردد عليها[5] وذلك يعنى أنه لم يكن بالضرورة أن تشتمل المدرسة على مساكن لجميع الطلبة المقررين بها بمعنى أنه ليس هناك علاقة عددية بين عدد الطلبة المقررين بالمدرسة المملوكية وبين ما تشتمل عليه من وحدات سكنية ، وقد دعت إقامة الطلبة بالمدارس أبن ظهيرة أحد علماء

---

[1] ابن الأزرق طبائع السلك فى أخبار الملك جـ٢ ص ٣٤٥

[2] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٧٦

[3] المقريزى خطط جـ٢ ص٣٢٤ وهذا يشير إلى أتساع الوحدات السكنية بها حتى أن البيت المعد لطالب واحد كان يتسع لإثنين أو ثلاثة.

[4] وثيقة صرغقش ١٣٩٥ أوقاف.

[5] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف ص ٣٢٦

القرن التاسع الهجرى إلى القول بأن "غالب مدارس مصر معمورة بعبادة الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار وتجد فى كل مدرسة جماعة من الطلبة يشتغلون بأنواع العلوم[1]

وأعتقد أن إشتمال المدارس على مساكن مخصصة للطلبة تشبه خلاوى الصوفية بالخنقاوات إلى حد كبير أكد التقارب والتداخل الذى طرأ على كل من وظيفة المدرسة والخانقاة بعد أن اتفقت وجهات النظر بين الفقهاء والمتصوفة حتى أن كثيرا من الواقفين إشترط أن يكون طلبة مدرسته من المتصوفه وأن يعقد بها حضور للتصوف فأدت المدرسة وظيفة الخانقاة وقد أصبح ذلك ظاهرة غالبة فى معظم المدارس المملوكية منذ نهاية القرن٨هـ/ ١٤م٠

ومما يوضح أهمية السكن بالمنشآت الدينية فى العصر المملوكى تلك الشروط الدقيقة التى وضعها الواقفون لهذه المنشآت ولعل أروع الوثائق التى تبين ذلك تفصيلا دقيقا وثيقة جمال الدين الأستادار[2]

المرتبات

وإذا كانت المساكن نوعا من الرعاية التى تقدم لبعض طلاب المدارس ومدرسيها فإن ما كان يحصل عليه الطلبة والمدرسين من مرتبات عينية أخرى كان يمثل لونا أعم من الرعاية المادية المقصودة التى تنم عن الأهداف الحقيقية وراء إنشاء هذه المدارس ورعاية الطلاب والمدرسين بها٠ والواقع أن المدارس فى عصر المماليك تمتعت بدخل مالى ثابت مصدره تلك الأوقاف التى كانت توقف على هذه المدارس وقد مكن ذلك المدارس من أداء رسالتها وتدعيم نظامها ، خاصة وأنه من ريع هذه الأوقاف كانت تصرف مرتبات المدرسين والطلاب والموظفين وكانت هذه المرتبات تصل إلى

[1] ابن ظهيره الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس القاهرة ١٩٦٩ ص ١٥٠ كذلك أعتقد أنه كان للبرامج القرآنية التى كانت بالمنشآت الدينية المملوكية ومن بينها المدارس والتى كانت تستمر طوال الليل والنهار أثر فى هذا القول أيضا

[2] انظر ملحق رقم ٤

أصحابها سنويا أو شهريا[1] وكانت تصرف بصفة منتظمة[2] حسب شرط الواقف، وكان يصرف لهم بالإضافة إلى المرتبات خبز يومى ، وفى مواسم والأعياد كان يصرف لهم الكعك والخشانك فى عيد الفطر ، واللحم فى عيد الأضحى ، وفى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام[3] ولذلك ألحق ببعض المدارس مطابخ لتقوم بهذه المهمة ، وأصبح المطبخ من وحدات المدرسة المملوكية المعمارية[4].

كذلك قدم واقفو المنشآت الدينية ومن بينها المدارس لونا من الرعاية الطبية للمترددين والقاطنين بهذه المدارس ، فقد أشارت وثيقة السلطان حسن إلى أن الناظر "يرتب رجلين مسلمين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان ، والثانى عارف بصناعة الكحل على أن كل منهما يحضر فى كل يوم إلى المكان المذكور يداوى ما يحتاج إلى المداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين بالأماكن المذكورة أعلاه وممن يحضر إليها من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس له سكن بالمكان ومن مرض من المقيمين بالأماكن المذكورة أعلاة يوجه إليه الطبيب فى مكان إقامته ، ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب ويصرًف إليهما فى كل شهر مائة درهم وأحد وعشرون درهما نقرة لكل منهما ستون درهما نقرة ويرتب الناظر رجلا جرائحيا مجدا يحضر كل يوم المكان المذكور ويفعل نظير ما شرط على الكحال والطبيب فى أعالية فيصرف إليه فى كل شخص فى كل شهر أربعون درهما[5]

المدرسة وأداء شعائر الصلاة

كانت المدرسة فى العصر المملوكى تؤدى وظيفة المسجد أو المسجد الجامع ، فقد عين بهذه المدارس من تقوم بأداء شعائر الصلاة ، فكان يعين بالمدرسة خطيب يخطب بالناس أيام الجمع ويوم الناس بعد الخطبة ، وكان

---

[1] السخاوى. التبر المسبوك ص ١٦٢

[2] السخاوى. الضوء جـ٣ ص ٩-١٠

[3] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٩١

[4] أنظر وثيقه برسباى ٨٨٠ أوقاف وثيقه السلطان برقوق ٥١/٨محكمه١ .

[5] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف ٤٥٧-٤٥٨

يعين الواقف مع الخطيب مرقيا يخرج أمامة يوم الجمعة فيؤذن أمام المؤذنين تجاه المنبر ويروى الحديث النبوى[1] ولما كانت وظيفة الخطيب مقصورة على إمامة المصلين فى الصلوات الجامعة فقط ، فقد كان يعين إمام يؤم المصلين فى الصلوات الخمس وصلاة التراويح فى شهر رمضان كل سنة[2] كذلك تعتبر وظيفة الميقاتى من الوظائف المتعلقة بإقامة شعائر الصلاة فى المنشآت الدينية ، فهو الذى يحدد وقت الصلاة بما كان يستخدم فى ذلك العصر من ساعات شمسية[3] نهارا أو غيرها من الوسائل ليلا كالساعات الرملية والآلات الزمنية .

ومما يشير إلى أهمية هذه الوظيفة تلك الشروط التى وضعها واقفو المنشآت الدينية لمن يشغلها فقد أشترط فى شاغل هذه الوظيفة أن تكون "لرجل عالم بالأوقات يتولى مباشرة أوقات ألأذان فى الصلوات الخمس ليلا ونهارا[4] ومن الطريف أنه كان هناك أكثر من ميقاتى فى منشأة واحدة فقد

---

[1] المرقى من الترقية ، وقد أجمعت المذاهب الأربعة على أنها بدعة ، وبالرغم من ذلك فقد أختلفوا بين جوازها وتحريمها ، وعلى أى حال فقد أصبحت الترقية من الوظائف السائدة فى العصر المملوكى يدل على ذلك وظيفة المرقى التى وردت ضمن الوظائف الدينية بالمنشآت الدينية التى تؤدى وظيفة المسجد الجامع والمرقى هو الذى يعلن بالأذان عند ظهور الخطيب من خلوة الخطابة ويقرأ الآية الكريمة "إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها النبى الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما" قرآن كريم . سورة الأحزاب آية رقم ٢٥٦ ، كما يعلن بالأذان عند صعود الخطيب المنبر فيما يعرف بالأذان الثانى ، وعليه أيضا رواية الحديث النبوى الشريف فى معنى الإنصات "إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والخطيب يخطب فقد لغوت "(راجع الحسين بن مبارك التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح جـ١ ص ٧٢ الفقه على المذاهب الأربعة . وزارة الأوقاف ص ٣٥٧ وما بعدها وثيقه الغورى ٨٨٢ ص ٥٤ دراسة عبد اللطيف إبراهيم (رقم ٨٨٢ سطره ١٣٩٥ وما بعده .

[2] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ١٨٠

[3] كانت تحفر ساعات شمسية أو مزاول على جدران المنشآت الدينية للتعرف بها على دخول أوقات الصلاة والأمثلة الباقية عديدة فتوجد واحدة بجامع الناصر محمد بالقلعة ، وكان يوجد بالمدرسة الأشرفية برسباى واحدة حفرت على بدن المئذنة ، ولكنها ضاعت فيما يبدو عند تجديد هذه المئذنة فقد ذكر الجبرتى أن جده حفر مزولة على بدن المئذنه الأشرفية "الجبرتى . عجائب الآثار جـ١ ص ٣٩٧-٣٩٨) وقد كانت تستخدم ليلا الساعات الرملية كالآلات الزمنية الأخرى (لاجين ١٨،١٧ محكمة السلطان حسن محكمة

[4] وثيقة برسباى ٨٨٠ ص ١٨٠

أشارت وثيقة فرج بن برقوق إلى تعيين "إثنين "يعرفان بدخول الأوقات المشروع بها الصلوات [1] ومما يشهد لشيوعها فى المنشآت الدينية بصفة عامة ما يذكره السخاوى عن محمد بن أحمد الذى يشغل هذه الوظيفة فى المدرسة الأشرفية برسباى وجامع الصالح والمنصورية.[2]

كذلك كانت وظيفة المؤذن من بين الوظائف الدينية الهامة الخاصة بأداء شعائر الصلاة ويلاحظ كثرة عدد المؤذنين الذين عينوا فى المنشآت الدينية المملوكية حتى أن السلطان برسباى على سبيل المثال عين تسعة من المؤذنين ليؤدوا وظيفة الأذان بالمدرسة وكان هؤلاء المؤذنون" يقلبون بالأنابة كل ثلاثة منهم نوبة إلا فى يوم الجمعة فيجتمعون على المئذنة وعلى الدكة التى تجاه الخطيب ويؤذنون الأذان المشروع وبعد فراغ الصلاة يسبحون ويحمدون ويذكرون الله تعالى.[3] وكان المؤذن يعلن فى الأوقات المحددة لذلك بعد دخول الوقت ، فلو وقع بعضه قبل دخول الوقت فلا يصح إلا فى أذان الصبح فإنه يصح قبل دخول الوقت.[4] وهذا يبين أهمية الميقاتى الذى يحدد الأوقات بالضبط ، ثم هو يبين أن ما كان يقوم به المؤذنون من إنشاد فى الأسحار من فوق المأذنة فى العصر المملوكى غير مخالف للشريعة[5]

وكان الأذان السلطانى شائعا فى العصر المملوكى ، وهو أن يجتمع للأذان جماعة من المؤذنين يؤذنون معا بحيث يأتى كل واحد بأذان كامل ، وهو أذان صحيح وتحصل به إقامة شعيرة الصلاة ، وهو أمر يبين أن ما كان يحدث بالمنشآت الديني المملوكية حيث كان يعلن بالأذان ثلاثة من المؤذنين فى وقت واحد كان فى إطار شرعى ، وقد تضمنت بعض المنشآت الدينية المملوكية سكنا للمؤذنين[6] كنوع من المزايا التى تمتع بها موظفو المنشآت

---

[1] وثيقة فرج ٦٦/١١ محكمة

[2] السخاوى، الضوء جـ٣ ص ١٨٨

[3] الفقه على المذاهب الأربعة وزارة الأوقاف ص ١٨١

[4] الفقه على المذاهب الأربعة ، وزارة الأوقاف ص ٢٧١

[5] وثيقة برسباى أوقاف ٨٨٠ ص ١٦١ فرج بن برقوق ٦٦/١١ محكمة

[6] الفقه على المذاهب الأربعة، وزارة الأوقاف عبادات ص ٢٧٠ وكذلك حددت شروط يجب توافرها فى المؤذن منها أن يكون مسلما فلا يصح من غيره وأن يكون عاقلا فلا

الدينية المملوكية ، وربما كانت أنسب تلك المساكن المؤذن تلك الحجرات التى يوفرها المعمار عند بنائه للمئذنة ولعل أروع أمثله ذلك ما وجد بمئذنتى خانقاة فرج بن برقوق بالصحراء.[١]

كذلك وجدت بالمدارس المملوكية برامج لتلاوة القرآن وقراءة الحديث فقد كان من الطبيعى أن يكون لتلاوة القرآن الكريم مكانة عظيمة داخل هذه المنشآت الدينية ، وكان يشترط فى القراء أن يكونوا ذوى أصوات حسنة ونغمات مستحسنة وطريقة فى التلاوة جيدة جهرية الأصوات عارفين بالقراءات مع الجماعات[٢].

وكان القراء فى الغالب ينقسمون إلى قسمين ، قراء المصحف وكانوا عادة ثلاثة قراء يقرأون بالتناوب فى المصحف فيما بينهم بحيث يقرأ القرأن فى كل يوم من قبيل الظهر إلى صلاة الظهر ومن قبيل صلاة العصر إلى صلاة العصر ، وأما القارئ الثالث فيقرأ يوم الجمعة[٣] وكان هؤلاء القراء يقرأون فى مصحف شريف بالمدرسة على كرسى خشبى كبير. وكانت هناك قراءة جماعية ، فقد كان القراء ينظمون فى جوقات أشارت إليها بعض الوثائق كوثيقة الأستادار التى تشير إلى أن "كل جوقة ثلاثة أنفس بريس وأن تتناوب الجوقات المذكورة القراءة بالشباك الكائن بصدر الإيوان الشرقى على محجة الطريق المسلوك"[٤] وكانت هذه الجوقات تستمر فى القراءة ليلا ونهارا بحيث يمكن أن نقول أن قراءة الكريم كانت مستمرة بهذه المنشآت لا

(=) يصح من مجنون أو سكران أو مغمى عليه ، وأن يكون من ذكر فلا يصح من أنثى أو خنثى. (المرجع نفسه ص ٢٧٠-٢٧١) والمعروف أن الأذان شرع فى السنة الأولى للهجرة ، وكان يعلن بالأذان فى أول الأمر من خارج سور المدينة أو من أعلى جزء بها ، ثم من على سطح المسجد ، ثم شيدت المأذن لتفى بهذه الحاجة وتفنن المعمار المسلم فى بنائها حتى وصلت إلى الذروة فى العصر المملوكى الشركسى (للأستزاده راجع السبكى معيد النعم ومبيد النقم ص ١٢٥ . وثيقة فرج ١١/٦٦ محكمة، البخارى . الكرمانى جـ٤ ٦

(١) الإسحاقى. أختبر الأول ص ١٤٠

(٢) وثيقة فرج بن برقوق ١١/٦٦ محكمة السبكى معيد النعم ص ١١٠-١١١ المقريزى خطط جـ٢ ص ٢١٣

(٣) وثيقة الغورى ٨٨٣ سطر ١٤٠٩-١٤١٦

(٤) وثيقة جمال الدين الأستادار ص ١٠٦ محطه ١٧ محكمة.

تنقطع.[1]

ومما يشير إلى أن الإهتمام بقراءة القرآن كان بالغا فى العصر المملوكى حتى أن بعض السلاطين كان يختار المقرئين وبنفسه من أمثال السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى كان يختار أحسنهم صوتا وأكثرهم إجادة للقراءة[2] وكانت العناية باختيار القراء واستمرار القراءة ليلا ونهارا[3] من الأسباب التى دعت أبن ظهيرة إلى القول بأن "غالب مدارس مصر كانت معمورة بعبادة الله آناء الليل وأطراف النهار"[4]

وكان بعض القراء يتخذون من الشبابيك المطلة على الشارع الرئيسى الذى تطل عليه المنشآة مكانا لهم عند قراءتهم القرآن بل إن هذا المكان انسحب على تسمية بعض القراء فأصبح هناك ما يعرف "بقارئ شباك" وربما كان لهذه الظاهرة أثرها فى حرص المنشئ على أن يجعل بالايوان المطل على الشارع "شبابيكا" لهذا الغرض ، كما أن ذلك ربما يكون من أسباب حرص المنشئ على أن يجعل القبة الملحقة بالمدرسة مطلة على الطريق فحاول المعمار جاهدا أن يجعل بها شبابيكا تستعمل لهذا الغرض خاصة وأن معظم القراء كانوا يعينون للقراء بهذه القباب. وهذا الأمر يشير إلى وظيفة أخرى للشبابيك بالأضافة إلى التهوية والإضاءة.

كذلك كانت قراءة الحديث النبوى وشرحه من البرامج التى حرص الواقفون على تقريرها بمدارسهم ومنشآتهم الدينية بصفة عامة.فقد قرر البعض ترتيب قارئ للحديث وقارئ ميعاد وذلك لإلقاء درس دينى للوعظ والإرشاد والحث على التقوى ، ويبدأ هذا الدرس الدينى بقراءة بعض آيات القرآن والوعظ ، ثم يعقب ذلك تفسير بعض الأحاديث النبوية ولاسيما من باب الرقائق لما فيها من الوعظ[5] وإكتفى البعض الآخر بترتيب قارئ

---

[1] وثيقة عبد برسباى ٨٨٠أوقاف ١٩١ راجع أيضا محمد عبد الستار عثمان الآثار المعمارية للسلطان برسباى بمدينة القاهرة ص ١٠٤-١٠٥

[2] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣١

[3] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٨١

[4] أبن ظهيرة. الفضائل الباهرة فى مصر القاهرة ص ١٥٠

[5] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف ص٣٤٣-٣٤٤ . المقريزى . السلوك ج١ ق٢

للحديث من صحيح الإمام البخارى أومسلم أو غيرها من كتب الحديث فى شهر رجب وشعبان ورمضان[1] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن إدخال الوظائف الدينية بالإضافة إلى ما كانت تقوم به المدرسة فى الأصل من وظيفة التدريس كان له تأثيره على تخطيط المدرسة وما تشتمل عليه من وحدات تخدم القيام بهذه الوظائف ، فقد اشتملت بعض المدارس على خلوة للخطابة يستعد فيها الخطيب لإلقاء خطبة الجمعة[2] كذلك كان وجود المئذنة ضروريا للإعلان من فوقها بالأذان بالإضافة إلى ضرورة وجود المنبر ودكة المبلغ فى المدارس التى تؤدى وظيفة المسجد الجامع كما أنه وجد بالضرورة ميضآت بهذه المدارس يستغلها المصلون فى التوضؤ ، هذا بالإضافة إلى وجود مساكن ببعض المدارس للإمام والمؤذنين[3] لتوفير نوعا من الراحة والتكريم ولقد كان المعمار على إدارك عميق بذلك فتوخى هذه الإعتبارات عند تخطيطه وإنشائه للمدرسة المملوكية.

مكاتب الأيتام :

تعتبر مكاتب الأيتام من المنشآت الدينية التعليمية فقد كانت تقوم بدور المدارس الإبتدائية إذا وضعنا فى الإعتبار أن المدارس المملوكية كانت تقوم بدور الجامعات فى العصر الحديث وجدت وقد هذه المكاتب منفصلة مستقلة[4] تعلو الأسبلة المنفصلة والمستقلة عادة كنوع من الاستغلال الرأسى لمبنى السبيل ، كذلك فإنها وجدت ملحقة بالمدارس المللوكية والمنشآت الدينية الأخرى بصفة عامة فى اطار التجميع المعمارى الذى أخذ يتبلور فى عمائر المماليك الدينية مثله مثل المكتبة والضريح فأصبحت المنشأة تشتمل فى الغالب على سبيل و مكتب أيتام و ضريح و مكتبة بالإضافة إلى

ص٥٥٧ .وثيقة أيتمش البجاسى ١١٤٣ أوقاف

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١١٠ وثيقة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف /الغورى ٨٨٢ ص٥٠٥ دراسة عبداللطيف تحقيق ٦٥٨

[2] وثيقة عبد الغنى الفخرى ١٢/٧٢ محكمة

[3] وثيقة الغورى ٨٨٢ وثيقة برسباى ٨٨٠ الإسحاقى أخبار الأول ص١٤٠

[4] وثيقة أيتمش البجاسى ١١٤٣ ،وثيقة جمال الأستادار ١٠٦ محفظة ١٧ ،وثيقة القاضى عبد الباسط ١٣/٨٤ محكمة

الأخرى من أواوين ومساكن للطلبة والمدرسين ومطابخ ودورات مياه " ميضأة ، بل وأحيانا طهر للإغتسال والتطهير ".

وارتباط مكاتب الأيتام بالمدرسة ارتباط وظيفى تعليمى فكلاهما يشارك فى العملية التعليمية الدينية ومن هنا فقد كان أغلب المدارس المملوكية لتعليم الأيتام.

ويحسن بنا قبل أن نتعرض بالدارسة لمكاتب الأيتام الملحقة بالمدارس[1] المملوكية خاصة بالمنشآت الدينية بصفة عامة أن نتحدث عن طرق تعليم الصبيان فى العالم الاسلامى للكشف عما وصل إليه المستوى فى العصر المملوكى بصفة خاصة . فقد اختلفت طرق تعليم الصبيان فى الأمصار الإسلامية وقبل بيان ذلك نشير إلى أن "تعليم الولدان القرآن من شعائر الدين ومراسمه أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه لما يسبق به إلى القلوب رسوخ الإيمان وعقائده ، إذ هو أصل التعليم المبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات ، وذلك لأن تعليم الصغار أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لأنه السابق الأول إلى القلوب كالأساس للملكات وعلى كل حال الأساس يكون حال ما ينبى عليه" [2] ولذلك كان القرآن الأساس المشترك فى التعليم فى المكاتب الإسلامية رغم إختلاف طرق التعليم فى الأمصار الإسلامية ، فقد أقتصر أهل المغرب على تعليم القرآن فقط ، بينما اقتصرت طريقة أهل الأندلس على تعليمهم القرآن والكتابة ، ولما كان القرآن أصل ذلك ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا فى التعليم وخلطوا به رواية الشعر والترسيل وحفظ قوانين العربية اما طريقة أهل إفريقية فهى خلط هذا التعليم بالحديث فى الغالب ودارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم باستظهار القرآن على إختلاف روايات قراءته أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع ذلك ، أما طريقة أهل المشرق فتتركز فى عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم فى زمان الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط لاختصاص المنتصبين لتعليم قوانينه على انفراد كسائر الصناع ، فلذلك لا يتداولونه فى المكاتب واذا كتبوا لهم

---

(1) يلاحظ أن نفس مواصفات وطرق التعليم بالمكاتب الملحقة بالمدارس هى التى كانت متبعة فى المكاتب المستقلة ولذلك فإن هذه الدارسة تنسحب على المكاتب المستقلة أيضا فالفارق مكانى فقط .أنظر وثيقة أيتمش ١١٤٣ أوقاف

(2) ابن الأزرق بدائع السلك فيأخبار الملك ج٢ ص٢٦٤

الألواح فبخط قاصر عن الإجادة ومن أراد تعلم الخط إبتغاء من أهل صنعته[1].

وقد جمعت المكاتب فى العصر المملوكى بمصر بين المنهجين تحفيظ القرآن وتعليم الكتابة والقراءة بحيث تؤهل الصبى عند سن البلوغ لتحصيل العلم فى المدارس المملوكية التى تمثل مرحلة التعليم العالى بالمفهوم الحديث فيمكن القول بأن المكاتب فى العصر المملوكى لتنهض بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم فى ذلك العصر[2] يصلح بعدها الصبى لأن يكون طالبا مبتدئا بإحدى المدارس المملوكية ثم يتعمق فى الدارسة لأن يصل إلى مرتبة الطلبة المنتهين[3] فيحصل على الإجازة . وهذا يعنى أن هناك ارتباط بين المكاتب والمدارس فى توزيع البرامج الدارسية التى تناسب الدارس فى كل مرحلة وكان لهذا التوزيع أثره فى إختلاف طريقة التعليم بالمكاتب فى مصر فى العصر المملوكى عن نظيراتها فى بلاد الأندلس التى كانت يتحصل فيها الطالب على قدر دسم قد يفوق طاقته وربما كان ذلك لعدم انتشار المدارس وتوافر فرصة التعليم بها كما كان بمصر الافى عهد متأخر..

ويلاحظ أن حق التعليم والمكاتب المملوكية اقتصرعلى الأيتام ممن لا عائل لهم من الوالدين أو الأب فقط [4] وكذلك الفقراء منهم الذين لا يقدر آباؤهم على تعليمهم[5] وفى هذا نوع من الرعاية الاجتماعية التى وضع أساسها الاسلام الحنيف وحث عليها لليتيم [6] والتى وضعها المماليك فى اعتبارهم كنوع من العمل الخير والتقرب إلى الله والظهور بمظهر من يرعى حقوق الدين . ولاشك أن هذا النوع من الرعاية –من الناحية الاخرى –كان يجنب هؤلاء الايتام والفقراء أن يضلوا طريق الحياة ويعطى هؤلاء فرص التعليم

---

[1] ابن الأزرق بدائع السلك فى أخبار الملك ج٢ ص٢٦٤

[2] د.سعيد عاشور . المجتمع المصرى ص١٥٠. مصر فى العصور الوسطى ص٥٥٤

[3] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ ص٣٢٦

[4] وثيقة وقف الجمالى يوسف ناظر الخواص ١٠٥ محكمة

[5] وثيقة الأتابكى أزبك من ططخ ١٩٨

[6] الإستزادة من حق اليتيم فى الاسلام وتربيته راجع تربية النشئ فى الإسلام رسالة دكتوراه جامعة الازهر د.محمود محمد عمارة

مثلهم فى ذلك أبناء القادرين وقد كان التعليم مقصدا فى المقام الاول يدل على ذلك ما ورد بالوثائق من تحديد شروط يجب توافرها فى هؤلاء الأيتام وأهمها أن تكون لهم رغبة فى التعليم [1] حتى لا يكون الأمر وسيلة للإسترزاق والإستفادة لما كان يتحصل عليه الأيتام فى هذه المكاتب من مميزات مادية تتمثل فى المرتبات الشهرية والكسوات السنوية والهبات الأخرى.

وكان يقوم على تربية الأطفال المؤدب والذى أطلق عليه أحيانا لقب "الفقيه"[2] وقد تحدث السبكى عن وظيفة معلم الكتاب فأشار إلى أنه ينبغى أن يكون صحيح العقيدة فقد نشأ صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة لأن فقيههم كان كذلك فأول ما يتعين على الآباء الفحص عن عقيدة معلم أبنائهم مثل البحث عن دينه فى الأصول ثم البحث عن دينه فى الفروع ، وحق على معلم الصغار أن يعلمهم شيئا من القرآن ثم بعده حديث النبى ولا يتكلم معهم فى العقائد بل يدعهم إلى أن يتأهلوا حق التأهل ،ثم يأخذهم بعقيدة أهل السنة والجماعة وإن هو أمسك عن هذا الباب فهو الأحوط ولا يمكن للصبى المميز عن كتابة القرآن فى اللوح ومحوه وحمل المصحف وهو محدث [3] .

وقد أكدت وثائق الوقف على تلك الشروط التى يجب توافرها فى المؤدب كان يكون "خيرا دينا أمينا على أطفال المسلمين متين الخلق عفا متزوجا عارفا بصناعته صالحا للتعليم [4] فقد كانت وظيفة المؤدب مهنة وصناعة ووسيلة للكسب والرزق وتحصيل القوت ولم يقم بها-فقط-إبتغاء مرضاة الله وإرشاده عباده وكثيرا ما كان يشغل هذه الوظيفة فى بعض المكاتب أحد الصوفية بالمنشأة الملحق بها المكتب [5] وقد يعين بالمكتب الواحد أكثر من فقيه فقد عين السلطان قلاوون بمكتبه الذى أنشأه فقيهين "يعلمان من كان صغيرا من أيتام المسلمين كتاب الله "[6].

---

[1] وثيقة فرج بن برقوق ١١/٦٦ محكمة وثيقة قايتباى ٨٨٥ ص٢٠٣ حجة الغورى ٨٨٣ سطر ١٥٤١ دراسة د.عبد اللطيف ابراهيم.

[2] المقريزى ز السلوك ج١ ملحق ١ص١٠٠١ القلقشندى ج٦ ص٢٢ وثيقة قايتباى ٨٨٦ص١٤٩ أحمد شلبى التربية الاسلامية ص٣٦

[3] السبكى . معيد النعم ص١٣٠

[4] وثيقة برسباى ٨٨٠أوقاف ص١٩٢

[5] وثيقة جمال الدين الأستادار ١٠٦ محكمة محفظة ١٧ ، ومغلطاى الجمالى ١٦٦٦ أوقاف برسباى ٨٨٠ص١٩٢ أوقاف

[6] النويرى .نهاية الارب ج٢٩ص٢٨٢-٢٨٣

كذلك كان يعين بالمكتب عريفا يساعد المؤدب في تعليم الأطفال خاصة المتخلفين منهم وكان الأطفال يعرضون عليه ألواحهم في غيبة المؤدب، وقد يوجد بالمكتب أكثر من عريف وذلك إذا ما تطلبت كثرة عدد الأطفال ذلك بحيث أنه يقرر لكل منهم عددا معين يقوم بالإشراف عليه وتعليمه [1] وكان العريف أحيانا من جملة الأيتام المنزلين بالمكتب ولو كان بالغا [2]

وكانت مناهج التعليم في هذه المكاتب [illegible] وتحفيظ القرآن والحديث ، وتعليم أداب الدين فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر [3]

وقد حدد منشئ هذه المكاتب أحيانا مواد الدارسة بالمكتب تحديد دقيقا فجاء بوثيقة السلطان حسن مانصه أن " يقرئهم المؤدب ما يطيقون قراءته من القرآن العظيم ويعلمهم ما يحتملون تعلمه من الخط العربي وهجائه بمساعدة العريف المذكور على العادة [4].

وهناك من المكاتب من عين صاحبه فيه معلما خاصا لتعليم الأطفال الخط العربي ، وهو لون من ألوان التربية الجمالية له أهمية خاصة في تربية الذوق وتكوين الإحساس عند الناشئين في ذلك العصر[5] ولما كانت وظيفة الخط من الصنائع القائمة بذاتها وكان على من يريد تعلم الخط أن يبغيه من أهل صنعته [6] فإن إدخال ذلك ببعض المكاتب المملوكية يعد تطويرا في مهمة الكتاب في العصر المملوكي

---

[1] د.سعيد عاشور العصر المماليكي ص٢٣٢

[2] انظر وثائق قاني باى الرماح ١٠١٩ أوقاف قايتباى ٨٨٦ ص١٣٥ أزبك من ططخ ١٩٨ محكمة المؤيد شيخ٩٣٨-بدر الدين الوفائي ٢٢١ محكمة -السلطان حسن ١١٤ محكمة لاجين ١٨،١٧ محكمة

[3] السبكي معيد النعم ص١٣٠ ابن خلدون المقدمة ص٤٣٢-٥٣٩ ابن الأزرق ج٢ ص٢٦٤

[4] وثيقة السلطان حسن ٨٨٣ أوقاف ص٤٥٥-٤٥٦

[5] حجة صرغتمش ٣١٩٥ الغوري ٨٨٣ سطر ١٥٤٣ دراسة عبد اللطيف ابراهيم ص١٤٧

[6] ابن الأزرق طبائع السلك في أخبار الملك ج٢ ص٣٦٦

وكان اليوم الدارسى يبدأ بالمكتب من الصباح الباكر حيث يأتى الصبيان إلى المكتب ، ويجلسون على أرضيته المفروشة بالحصير ومعهم ألواحهم التى غالبا ما يحفظونها بالخزانات أو الكتبيات الحائطية الموجودة بالكتاب ، ويواصلون دراستهم حتى أذان العصر عدا يومى الثلاثاء والخميس[1] فتتوقف الدارسة عند الظهر ، أما العطلة الأسبوعية فكانت يوم الجمعة بالإضافة إلى العطلات الرسمية فى المواسم والأعياد والأعذار الشرعية كيوم المطر المانع والحر الشديد[2] .

وكان المؤدب يباشر صبيانه سواء فى قراءتهم الجماعية أو فى حفظهم الفردى [3] وكان هناك من المكاتب ما يخصص يوما لتعليم الهجاية والخط العربى،[4] وكان يصرف للأيتام ما يحتاجون إليه لذلك من أقلام ومداد وألواح ودوى وحصر يجلسون عليها.

وكان الحال يستمر على هذا المنوال طوال العام ، فإذا أتم أحد الصبية حفظ القرآن أحتفل به إحتفالا كبيرا يسمى الإصرافة [5] أما إذا بلغ الصبى الحلم ولم يستطع تكملة حفظ القرآن ، فإذا كان يرجى فلاحه إستمر حتى يكمل حفظه ، وإن لم يكن يطرد من المكتب[6] .

وكان التعليم فى مكاتب الأيتام يقتصر على قدر من التحصيل يمكن للصبى بعدها أن يحترف حرفة أو مهنة ، أو يقوم بعمل مافى ميادين العمل

---

[1] وثيقة الغورى ٨٨٣ أوقاف وثيقة قايتباى ٨٨٦أوقاف

[2] وثيقة الغورى ٨٨٣ أوقاف وثيقة قايتباى ٨٨٦أوقاف

[3] وثيقة قراقجا الحسنى .دراسة عبد اللطيف ابراهيم مجلة كلية الأداب عدد رقم ١٨

[4] وثيقة صرغتمش دراسة عبد اللطيف ابراهيم ص٣٥ يذكر د.محمد مصطفى نجيب أن التعليم كان جماعيا ولكن الاشراف الفردى كان واجبا لإختلاف الأيتام فى قدر ما يحفظون.

[5] ففى هذا الاحتفال كانت تزين ارض المكتب وحيطانه وسقوفه بزينة من قلائد الذهب والعنبر ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقا فيها ثياب صبيان المكتب ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته ، وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأم صاحب الإصرافة فتعطيه ما تقدر عليه من المال " سعيد عاشور العصر المماليكى ص٣٣٦)

[6] وثائق قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف، برسباى ٨٨٠ ص١٩٢ أوقاف، إبن الحاج المدخل ص٣٢٣-٣٣٤ د.أحمد شلبى التربية الاسلامية ص٢٨٧

فى الحياة للحصول على رزقه ، أو قد يقرره الناظر على الوقف التابع له المكتب فى إحدى الوظائف الشاغرة بالمنشأة الملحق بها المكتب إذا كان صالحا بها [١] كأن يقرر قارئا أو طالبا أو غير ذلك أو أن يصرف له من ريع الوقف مبلغا من المال يستعين به فى حياته العملية[٥] وفى هذا أقصى حد من الرعاية الاجتماعية السليمة.

وقد ساعدت المرتبات الشهرية والكسوات السنوية والمكافآت التى كان يأخذها الصبى والمؤدب عن ختم أحدهم القرآن بالإضافة إلى الرعاية الصحية [٢] التى كان يتمتع بها هؤلاء ، على تأكيد وظيفة المكتب والإقبال عليها ، كذلك ساعد على ذلك طرق التربية وأساليب التعليم التى اتبعت فيها والتى اتسمت بالحسن والملاطفة وعدم التشدد والقسوة ولعل ما جاء بالوثائق المملوكية ما يؤكد الحرص على هذه الأساليب التى تتسم بالإحسان والتلطف بما يرغبهم فى القراءة ويطيب لهم الإشتغال بالعلم ، ومن أتى منهم بما لايليق أدبه بما أباحه الشرع الشريف ويوجهه دون قسوة [٣] ذلك أن القسوة على المتعلمين تضرهم وهو الأمر الذى أكد عليه مؤرخو ذلك العصر كابن خلدون وابن الازرق واللذان يناديان بعدم العسف أو القهر فى التربية أو الاستبداد أو الكبت فى التأدب حتى لا يؤدى ذلك إلى الكسل أو الكذب أو غير ذلك[٤] وكذلك كان المحتسب أيضا يأمر معله ى المكاتب أيضا بأن لا يضربوا الأطفال ضربا مبرحا ولا فى مقتل [٥] .

ولما كان هذا هو دور المكاتب فى الحياة العلمية الدينية للأيتام المسلمين فقد أقبل الخيرون على إقامتها أما مستقلة قائمة بذاتها ، أوملحقة

---

[١] وثيقة جمال الدين الأستادار ١٠٦ محفظة ١٧ محكمة وثيقة تغرى بردى البكلمشى محكمة ٣٨

[٥] وثيقة جوهر اللالا أوقاف ١٠٢١

[٢] الغورى ١٩٣ دراسة عبد اللطيف سطر ١٥١٣-١٥١٤

[٣] وثيقة الشسلطان حسن ٤١ محكمة فرج بن برقوق ١١/٦٦ محكمة جمال الدين الأستادار ١٧/١٠٦ محكمة

[٤] ابن خلون المقدمة ص٥٣٨ ابن الأزرق طبائع السلك ص٣٢٩

[٥] الشيرزى نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ت.انبذ العرينى ص١٠٣=١٠٥

بمنشآتهم الضخمة كالمدارس والخنقاوات والجوامع وأوقفوا عليها الاوقاف رغبة فى الثواب ليستمر فى أداء وظيفتها

ومما سبق تتضح وظيفة الكتاب التى كان يؤديها فى العصر المملوكى وقد أدرك المعمار المسلم هذه الوظيفة سواء كان المكتب ملحقا بالمدرسة أو منفصلا قائما بذاته ، ففى المكاتب الملحقة بالمدارس أو المنشآت الدينية الأخرى وضع فى إعتباره عزل المكتب وجعله شبه منعزل بالنسبة للمنشأة وخاصة بالنسبة لموضع الصلاة بها حتى يجنبه المرور فيه من جانب الصبية خاصة لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات [1] وتأكيد لذلك جعلها فى الطابق الثانى وكانت عادة ما تعلو السبيل الملحق بالمنشأة والذى بنى مستقلا كذلك فاستغل مساحة السبيل إستغلالا رأسيا لإنشاء المكتب.

هذا وقد راعى المعمار المسلم العوامل الأخرى كذلك كإزدحام المكتب بالأطفال وما يحدثونه من ضوضاء وما يحتاجون إليه من مصدر للشرب وغير ذلك مما سنعرض له عند التحليل المعمارى لها كذلك نجد أنه ألحق ببعض المنشآت سكنا خاصا للمؤدب يقيم به وكلها عوامل كانت فى إعتبار المعمار عندما ألحق بالمدرسة مكتبا الأطفال وهى عوامل بلا شك كان لها تأثيرها فى تخطيط المدرسة فى العصر المملوكى.

الأسبلــة

ولم تقتصر خدمات المدرسة المملوكية على الوظيفة التعليمية فقد ألحق بها فى معظم الاحوال سبيلا لخدمة العامة ، وقد كانت ضرورة إنشاء الأسبلة بالقاهرة ملحة فى ذلك العصر فقد كانت تقوم بالدور الذى تقوم به شبكة إمداد القاهرة بالماء حاليا بالإضافة إلى ما كان يحفر من آبار يرفع ماؤها بالسواقى ، وكان يستخدم ماء الأسبلة للشرب أما مياه الآبار فكانت تستخدم غالبا فى الإستعمالات الأخرى وقد حددت الوثائق المملوكية مواعيد الشرب فى هذه الأسبلة واختلفت هذه المواعيد حسب شروط الواقفين ، وكان يعين للسبيل مزملاتيا يتولى تسبيل الماء به وكان المزملاتى يقوم بمهام السبيل من تسبيل الماء على المارة وتنظيف السبيل وأدواته ويعمل ما يلزم السبيل فى

[1] القالسى الرسالة المفضلة ص٣٢٤ د. شلبى التربية الاسلامية ص٣١

جميع شئونه وحسب ظروفه فقد كان مزملاتى سبيل مدرسة الغورى "يتولى تعليق السحابتين المعدتين لشباكى السبيل المذكور البحرى والغربى فى زمن الصيف إذا مالت الشمس عليها ونفضها وطيها وشيلها فى كل يوم بالحاصل إذا قرب الغروب وامتد الظل ويتعهد الرخام والدهاليز بالكنس والمسح فى كل وقت ويكون المبلغ المذكور له ولمن يستعين به من صبيانه ولما يحتج إليه من ثمن الكيزان والبخور وثمن الآلة التى يحتاج إليها"[١] وهذا يشير بالإضافة إلى ما كان يقوم به المزملاتى ويشير إلى ما كان يلحق بالسبيل من حواصل لحفظ الأدوات ، ويشير أيضا إلى أن بعض المزملاتية كان أحيانا يستعين بالصبيان لأداء وظيفته.

كذلك كان الواقف يرصد ميزانية لشراء الماء العذب وأدوات السبيل التى يحتاج إليها المزملاتى فى عمله[٢] وكان تخزين الماء سنويا بالسبيل ، ولذلك كان يحتاج إلى بناء صهريج ضخم أسفل السبيل فى تخوم الأرض يملأ بالماء كل سنة ويسبل منه طوال العام.

وقد أثر إلحاق السبيل بالمدرسة عبى تخطيطها كذلك كان يفضل أن يطل السبيل بشبابيكه التى توضع بها كيزان الشرب على الشوارع التى تطل عليها المدرسة فكانت واجهة السبيل تشغل لذلك جزءا من الواجهة الرئيسية للمدرسة ، وهى الواجهة التى كانت ضريح الملحق بالمدرسة يشغل هو الأخر جزءا منها وكان الجزء الباقى يشغله المدخل الرئيسى المدرسة وواجهة أحد أواوين المدرسة وهو أمر يشير إلى أن ذلك كله كان من المؤثرات التى أثرت على تخطيط المدرسة والذى صار فى أغلبه تخطيطا متعامدا يحقق هذه المطالب فى سهولة ويسر.

ويعتبر إلحاق سبيل فى معظم المنشأت الدينية ومن بينها المدارس ضرورة شبه ملحة لسببين أولهما أن هذه الأسبلة كانت تمد العامة فى القاهرة بالماء الذى لم يكن من السهل الحصول عليه بطريقة ميسورة ومما

---

[١] وثيقة الغورى ٨٨٣ أوقاف سطر ١٥٩٢ وما بعده دراسة د.عبد اللطيف ابراهيم على

[٢] كانت هذه الادوات عبارة عن الأزيار والطسوت والكيزان والبخور وأدوات المسح والتنظيف كالسفنج وغيره " راجع وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٩٤ وثيقة الغورى ٨٨٣ أوقاف نشر د.عبد اللطيف على سطر ١٥٥٢.

يدل على أهمية وجود الماء ما نراه فى الوثائق المملوكية كتحديد مواعيد الشرب التى حددها منشئو هذه المدارس وقد جاء بوثيقة يشبك بن عبد الله أن المزملاتى " يتولى تسبيل الماء المذكور للمارين عليه كل يوم من الظهر إلى العصر ماعدا شهر رمضان فإنه يسبل كل ليلة من المغرب إلى العشاء "[1] كذلك فإن الشروط التى وضعت بخصوص شراء الماء لهذه الأسبلة كانت مرنة وتتلاءم مع ظروف السبيل خاصة فى تلك الأسبلة التى كان يشترى لها الماء شهريا فقد جاء بوثيقة قايتباى أنه "إذا رأى الناظر على ذلك أن القدر المعين صرفه فى كل شهر لثمن ماء السبيل الكائن تحت الربع الظاهرى يفضل منه شئ فى أيام الشتاء لقلة شرب الناس فيه فيدخر الفاضل من أيام الشتاء لأيام الصيف ويزيده فى ثمن الماء المسبل فى أيام الصيف فيصرف الناظر فى ذلك ما يرى فيه المصلحة بحيث لا يفرط فى ذلك ولا يفرط ولا يخرج فى سلوكه عن السنين المتوسط[2].

كذلك كان تخزين الماء فى صهاريج هذه الأسبلة يساعد على تزويد ما كان يلحق بالمدارس مما يسمى " بالمزملة " لخدمة من بداخلها من الطلبة والمدرسين والموظفين والمترددين عليها[3] وقد ألحق ببعض المدارس أكثر من مزملة لأداء هذه الوظيفة فقد جاء بوثيقة الغورى مانصه"ومن ذلك خمسماية درهم فى كل شهر تصرف لثمن رويتين فى كل يوم من الماء يصب فى المزملتين ويسبل لها على المصلين والمترددين للمدرسة المذكورة [4] وهذا النص يشير إلى طريقة من طرق تزويد المزملة بالماء العذب للشرب ولكنها لم تكن الطريقة الشائعة فقد كانت تزود المزملة من ماء الصهريج عادة والذى كان يوجد عادة أسفل السبيل ويمتد إلى أسفل المزملة التى تكون بأرضيتها فتحة مستديرة "خرزة " يؤخذ منها الماء مباشرة لتزود أزيار المزملة وهو أمر يشير إلى علاقة ارتباط التجاور بين المزملة والسبيل فى المدرسة المملوكية.

---

[1] وثيقة يشبك بن عبد الله المحمدى رقم ١٢١ محفظة ٢٠ محكمة

[2] وثيقة قايتباى رقم ٨٨٦ أوقاف ص١٥٧

[3] وثيقة قايتباى رقم ٨٨٦أوقاف ص١١٦

[4] وثيقة الغورى ٨٨٣ أوقاف ص٢٨٢

الخدم :

للحفاظ على المنشآت الدينية ونظافتها ومن بينها المدرسة عين بهذه المنشآت عدد من الموظفين للقيام بهذا الغرض ، ومن بين هؤلاء البواب الذى يتولى غلق باب المدرسة وفتحه وملازمة المكان[1] وقد عين ببعض المدارس أكثر من بواب حسب تعدد أبوابها وفتحها ومن يتطرق إليها من أرباب التهم والفساد على جارى عادة أمثالهم فى مثل ذلك ويصرف إليهم فى كل شهر مايتا درهم وأربعون درهما نقرة "[2] ومما يشير إلى أهمية وظيفة البواب أن مرتبها كان يفوق مرتب كثير من الوظائف الدينية بالمنشأة الدينية المملوكية [3]

ولما كانت وظيفة البواب تستوجب أن يقيم بالمدرسة فقد خصصت له حجرة ببعض المدارس يقيم بها[4] وقد راعى المعمار المسلم عند تخطيطه وإنشائه مداخل المنشآت الدينية بصفة عامة وظيفة البواب وضرورة ملازمته للمكان فكان وجود مكسلتين على جانبى المدخل ومسطبة فى صدر الدركاه عادة يمكن أن يستغلهم البواب للجلوس ومراقبة المكان ، هذا بالإضافة إلى الحاقه سكنا له لبعض المنشآت وتحتم ظروف عمله أن يكون فى موضع ملاءم يستطيع منه البواب مراقبة المنشأة وصيانتها فكانت عادة حجرات البوابين تطل على الدهليز للمدرسة الذى يربط المدخل بقلب المدرسة[5] .

كذلك عين واقفو المنشآت الدينية فراشين لهذه المنشآت وما حولها وميضآتها ولما كانت المنشآت الدينية بصفة عامة والمدارس بصفة خاصة يستمر العمل بها فترة من الليل فإن عملية إضاءتها ليلا كانت من الأهمية بمكان لذلك عين بها وقادون لإضاءة مصابيحها ومسحها وطفيها وتعميرها

---

[1] وثيقة برسباى أوقاف ٨٨٠ص١٩٤

[2] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف

[3] محمد عبد الستار عثمان الأثار المعمارية للسلطان الأشرف برسباى بمدينة القاهرة ص٣١٢

[4] وثيقة السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٥

[5] وثيقة السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٥

والقيام بمصالحها [١] كذلك رصدت الميزانيات لشراء أجود أنواع الزيوت المستخدمة فى الإضاءة – وهو زيت الزيتون –أو ما يقوم مقامه عند تعذره[٢] ولما كان زيت الزيتون قد لا يتوفر على مدار السنة لذلك نجد أن بعض الوثائق نصت على أن يشترى منه ما يحتاج إليه طوال العام " ويدخر فى مكان لحفظه "[٣] وفى المدارس الضخمة كمدرسة السلطان حسن استدعت حفظ الزيت وتوزيعه على الوقادين والطلبة تعيين موظف للقيام بهذه الوظيفة " يدعى أمين الزيت " وكان الزيت يوضع " تحت يد الامين المذكور بأعاليه ويصرف منه فى كل يوم لكل طالب من الطلبة المقيمين بها سدس رطل بالمصرى وما يحتاج إليه فى عمارة المصابيح بالقبة والمسجد والجامع والأواوين والمدارس وما هو من حقوق ذلك من ميضأة وطهارات وغيرها على جارى العادة فى ذلك ويصرف من الزيت المذكور أو ما يقوم مقامه ما يحتاج إليه فى توسعة الوقود فى ليلة النصف من شعبان وفى شهر رمضان وفى ليلة الختم من الشهر المذكور فى الأماكن المذكورة والمآذن المذكورة على جارى العادة فى ذلك"[٤]

وكان الزيت المستخدم فى الغالب " زيت الزيتون الطيب " أو ما يقوم مقامه فى الأستصباح عند تعذره وكان يوضع فى مسارج من الخزف أو المعدن ذات فتيل للإستعمال من شعبة أو أكثر[٥] او يوضع فى القرايات وهى قناديل من الزجاج عادة فوق كمية من الماء التى توضع بدورها فى المشكاوات المموهة بالمينا أو التنانير المصنوعة من النحاس" [٦] .

---

[١] وثيقة برسباى ص١٩٧

[٢] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ ص٤٦٠

[٣] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ ص٤٦٤،٤٦٥

[٤] وثيقة السلطان حسن ٤٦٤-٤٦٥

[٥] يوجد بمخازن الفسطاط عدد هائل من هذه المسارج ذات الأشكال وألوان مختلفة أو أحجام مختلفة قام بتصنيفها عدد من الآثاريين تحت اشراف الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب الذى يعد دراسة أثرية عنها

[٦] يمتلك متحف الفن الإسلامى عددا كبيرا من القرايات والمشكاوات والتنانير والثريات التى كانت تستخدم فى عملية الإضاءة الصناعية فى العصر المملوكى ولعل اروع مجموعة منها تلك المشكاوات التى نقلت من مدرسة السلطان حسن إلى المتحف والتى تعرض فى قاعة خاصة بالمتحف.

وكان الشمع يستخدم أيضا فى الإضاءة خاصة فى شهر رمضان فى وقت صلاة الترويح[1] وربما كان لضوء الشموع الهادئ لقلة الحرارة المنبعثة منه عند الإشتعال أثره فى تفضيل إستخدامه فى الإضاءة أثناء صلاة التراويح التى يغيشها نوع من الخشوع ويتناسب هذا الضوء الخافت و تلك الصلاة التى تستغرق وقتا طويلا من اى صلاة وتزدحم المنشآت الدينية بالمصلين فيها.

وقد راعى المعمار المسلم هذه الوظيفة وما تتطلبه من وجود حواصل لحفظ الزيت وأدوات الإضاءة ثم ما عـلـه من حوامل خشبية تعلق عليها المصابيح فى الأواوين والأروقة أو داخل القباب أو أعلى المآذن.

ولم يكن هؤلاء الموظفون جميعا دون رقيب يضبط غيابهم وحضورهم فقد عين بالمنشآت الدينية عادة كاتبا للغيبة يتولى ضبط غياب الموظفين بها وتقديم ما يدل على ذلك وقت صرف المرتبات ليخصم من الموظف الغائب مدة غيابه ويضم إلى حاصل الأوقاف[2] ومن الأشياء الملفتة للنظر التى تدل على الإهتمام برعاية وشئون هؤلاء الموظفين "الخدم" ببعض المدارس أن بعض الواقفين عمل على محو أميتهم فقد عين السلطان برسباى الشيخ شرف الدين موسى المكتب الرومى بمدرسته " ليتعاهد أرباب الوظائف لتعليم رسم الكتابة "[3].

ولما كان استمرار المدرسة فى أداء وظائفها بل وبقاءها كمنشأة معمارية قائمة مرهونا بإستمرار تحصيل ربع الأوقاف الموقوفة عليها ليصرف منها المرتبات وغيرها من مصارف المدرسة ويرم منها ما قد يتهدم من بناء المدرسة وما يحتاج إلى إعادة تعمير ، فقد عين الواقفون لهذه الأوقاف من يقوموا بجمع ريعها ومباشرة ذلك من النظار والمباشرين والجباة

---

(1) انظر وثائق بيبرس الجاشنكير ٢٣،٢٢ محفظة ٢٤ محكمة السلطان حسن ٨٨١ص٤٦١-٤٦٢ صرغتمش ٣١٩٥ أوقاف المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف برسباى ٨٨٠ أوقاف الغورى ٨٨٢ أوقاف ٥١١.

(2) وثيقة جوهر اللالا ١٠٢١ أوقاف-وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٩٠-السبكى معيد النعم ص١١٢-١٣٠

(3) وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٩١

وغيرهم [(1)].

وحتى لا تستغل هذه الأموال التي تدرها الأوقاف لغير ما عنيت له نجد أن البعض الواقفين عينوا عاملا للوقف " يحضر يوم النفقة ويكتب بذلك قوائم يسجلها الشاهدان بخطهما ويعمل حساب الوقف ويضبط أصول الاموال ومصارفها فى كل سنة ويدفع ذلك الناظر ويشمله بالإمضاء بعد تحرير ما يجب تحريره أصلاً وخصما على عادة مثل ذلك " والشاهدان المذكوران شرط الواقف ان يكونا من اهل الخير والدين وطلب العلم الشريف يكونان شاهدين بالوقف المذكور ويحضران عند النفقة فى كل شهر ويشهدان على المستحقين بقبض جوامكهم كذلك فإنهما كانا مسئولين عن تجديد كتب الوقف كل عشر سنوات [(2)] لتستمر هذه الأوقاف تدر ريعها على ما خصصت له.

كذلك عين بعض الواقفين مشرفا على تفرقة الخبز الذى كان يوزع فى بعض المدارس على المقررين لها من الطلبة والموظفين ولاشك أن هذا العدد من الموظفين الإداريين من ناظر الأوقاف إلى المشرف على تفرقة الخبز بذلك النظام الدقيق الذى كانوا يسيرون عليه لتنفيذ واجباتهم التى تتمثل فى جمع ريع الأوقاف الخاصة بالمدارس وصرفها على موظفيها يعطى فكرة واضحة عن الإدارة المالية المنضبطة لهذه المدارس وقد كان هؤلاء الموظفين يقومون بوظائفهم خير قيام بشهادة المؤرخين كالسخاوى[(3)] وهو أمر ساعد على إستمرار هذه المنشأت فى وظائفها التى أنشئت من أجلها المدرسة المملوكية وأحداث العصر.

ومما يدل على أهمية المدارس اا ملوكية اتصالها بكثير من أحداث العصر المملوكى فقد تلقت مدارس القاهرة كثيرا من وفود الطلاب والفقهاء والعلماء الواردين من بلاد الشرق أمام دفع هجمات المغول على بلادهم ، ومن الغرب الاسلامى بعد سقوط الأندلس فى أيدى المسيحين نهائيا سنة ١٤٩٢ م وقد رغبتهم فى ذلك رعاية سلاطين وأمراء المماليك وتعظيمهم

---

(1) وثيقة برسباى أوقاف ٨٨٠ ص١٩١ السخاوى التبر المسبوك ص١٢٢-السخاوى الضوء اللامع ج١ ص١٤٩ ج٨ ص٤٣ ج٢ ص٢٦٤
(2) وثيقة برسباى أوقاف ٨٨٠ص١٦٩
(3) السخاوى الضوء ج٢ص٩-١٠

لأهل العلم الذى تمثل فى إهتمامهم بإنشاء المدارس ووقف الأوقاف الكثيرة عليها[1].

كذلك كانت مدرسة السلطان القائم مركزا للإعلان عن الأخبار والمراسيم فى القاهرة بجانب جامع عمرو الذى كان يمثل مركز الإعلان بالنسبة لأهل " مصر" فقد أعلن السلطان برسباى على سبيل المثال أخبار إنتصارته فى الغزوة الأولى لقبرص من على منبر مدرسته الأشرفية لأهل القاهرة ثم أعلن الخبر لأهل مصر من جامع عمرو[2] كذلك أعلنت أخبار إنتصارات الغزوة الثالثة لقبرص من المدرسة ، فقد أمر برسباى كاتب السر بدر الدين بن مزهر بقراءته بالمدرسة الأشرفية وجامع المؤيد ، وبالفعل حضر كاتب السر والقضاة الأربعة إلى المدرسة ، وطلع القاضى شرف الدين الحلبى الموقع المنبر وقرأ الكتاب ، وضجت الناس بالتهليل والتكبير فرحا بهذا الانتصار ثم انتقل الجميع إلى جامع المؤيد ، ووقف القاضى شهاب الدين بن التقى المالكى فى أحد شبابيك الجامع المطلة على الشارع وقرأ الكتاب فضج الناس بالتهليل والتكبير وكان يوما مشهودا [3] ومقارنة بسيطة بين صورة الإحتفال بمدرسة برسباى والذى حضره القضاة الأربعة وقرئ الكتاب من أحد الشبابيك المطلة على الطريق نجد أن الإحتفال فى الحالة الأولى إتخذ صورة رسمية تتفق وأهمية المدرسة ، وفى الحالة الثانية كان الاحتفال فى صورة شعبية ، ثم إن تقدم مدرسة برسباى على جامع المؤيد بإعتبارها منشأة السلطان القائم كذلك فإن تعليق خوذة ملك قبرص على باب هذه المدرسة بالذات لتظل تذكارا على فتحها فى عهد برسباى والتى ظلت حتى نهاية القرن العاشر هجريا على الأقل[4] يؤكد أن منشأة السلطان القائم كانت الأولى فى المشاركة فيما يحدث فى عهد هذا السلطان.

وقد كان السلاطين والأمراء يزورون منشآتهم ومن بينها المدارس

---

[1] عبد اللطيف ابراهيم على .دراسات فى وثائق الغورى ص١٥٢

[2] السخاوى الضوء ج٣ ص٩-١٠ العينى عقد الجمان ج٢٥ ص٥٧٦،٥٧٧

[3] ابن تغرى بردى النجوم ج١٤ ص٥٦٦ العينى عقد الجمان ج٢٥ ص٥٨٤ الصيرفى ونزهة النفوس ج٣ ص٩٣

[4] إبن إياس بدائع الزهور ج٣ ص١٨ الاسحاقى أخبار الأول ص١٤٠

من وقت لأخر سواء كانت هذه الزيارات أثناء البناء لدفع عمليات التشييد ، أو بعد ذلك للاطمئنان على سير العمل بهذه المنشآت، او للإنعام على من بداخلها من الموظفين [١] أو عند عودتهم من سفرهم خارج البلاد عند مرورهم عليها فى طريقهم إلى القلعة [٢].

كذلك كانت المدارس مقرا لاستراحه بعض كبار الشخصيات الوافدة إلى القاهرة ، فقد نُزل بمدرسة الغورى الناصرى محمد بن الغورى بعد عودته من الحجاز ، وكذلك قانى باى الرباح وسودون العجمى وأزرمك الناشف عند عودتهم من حلب [٣] كذلك فإن محمد بن الغورى سكن بالمدرسة بصفة مستمرة بعد إستيلاء العثمانين على القاهرة [٤] ولعل فى سكن كبار الشخصيات فى المدارس المملوكية ما يشير إلى عظمتها المعمارية، وهو أمر شهدت به أقوال السلطان سليم الذى وصف مدرسة السلطان حسن بأنها " حصار عظيم "[٥] ووصف جامع المؤيد وقال " هذه عمارة الملوك " ووصف مدرسة الغورى بقوله " إنها قاعة تاجر "[٦].

كذلك شهدت بعض المدارس أحداث ذلك العصر بحكم موقعها كمدرسة السلطان حسن التى تقع فى مواجهة القلعة والتى استغلها المناوئون للسلطان القائم فى ضرب القلعة ، حتى أن المقريزى يذكر أن هذه المدرسة منذ بنائها أصبحت ضد القلعة فلما تحدث فتنة بين أهل الدولة يصعد الأمراء إلى أعلاها ويرمون من فوقها القلعة [٧] وقد أثر ذلك على عمارة هذه المدرسة وتعطيل أبوابها وهدم بعض سلالم مآذنتها خوفا من استغلالها بواسطة المتمردين على السلطنة ، فقد فعل ذلك من السلاطين برقوق وابنه فرج ،

---

[١] المقريزى السلوك ج٤ ق٢ ص٦٤٤ ابن حجر إنباء ج٣ ص٣٥٨ العينى عقد الجمان ج٢٥ ص٥٤٣ ابن تغرى بردى ج٢٤ ص٢٦٦ ابن إياس ج٤ص٢٣٦-٣٩٩

[٢] الصيرفى نزهة النفوس ج٣ ص٢٧٣

[٣] ابن إياس ج٤ ص٢٣٦-٣٩٩

[٤] حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الاثرية ج١ ص٢٨٧

[٥] الإسحاقى أخبار الأول ص١٢١

[٦] عبد اللطيف ابراهيم دراسات ص٨١

[٧] المقريزى خطط ج٢ ص٣١٥

وظل الحال على ذلك إلى أن اعاد السلطان ما تعطل وتهدم [1] ولهذه الأحداث دلالتها فاذا كانت أعمال برقوق وابنه فرج بهذه المدرسة تشير إلى خوف كل منهما من اتخاذها موقعا حصينا ضده مقر سلطنته بالقلعة ، فإن اصلاحات برسباى بنفسه بها تدل على مدى ثقته وبمن حوله من الأمراء، وخلاصة القول أن ما اتصل بمدرسة السلطان حسن من أحداث سياسية يمكن أن يكون لها دلالتها العميقة فى الحياة السياسية فى ذلك العصر[2].

كذلك شهدت المدارس المملوكية -لما يلحق بها من أضرحة تلك الأحداث والمراسم التى تصاحب موت أحد المنشئين أو أقاربه الذين يدفنون بقبة مدرسته ، وما يتعلق بذلك من عمل حفل الختم أو تعيين قراء القراءة على المدفون بهذه المدرسة أو تلك [3] وقد كان منشئو المنشآت الدينية يستغلونها فى عمل العزاء بها فعندما توفيت خوند جان سكر مستولدة الغورى ودفنت بالقبة كان العزاء فيها بالخانقاة الغورية حيث مد السلطان مدة حافلة وحضرها الخليفة والقضاة والوعاظ وقراء البلد[4].

وإذا كانت هذه الأحداث لاتمت بصلة حقيقية لوظيفة المدرسة المملوكية أو المنشآت الدينية بصفة عامة ، إلا أن اتصال هذه المنشأت بهذه الأحداث يدل على ما كانت تتمتع به من أهمية كمنشأت معمارية ذات اعتبار.

---

[1] للإستزادة عن هذه الاحداث راجع على حسن زغلول مدرسة السلطان حسن دراسة أثرية معمارية رسالة ماجيستير جامعة القاهرة ص٣٦-٤٢

[2] المقريزى السلوك ج٤ ق٢ ص٦١٨

[3] العينى عقد الجمان ج٢٥ ص٦٨٨ ابن حجر ج٣ ص٣٥١ المقريزى السلوك ج٤ ق٢ ص٦٧٤ السخاوى الضوء ج١٢ ص٦٩

[4] ابن إياس ج٥ ص٢٦-٢٩

الفصل الثانى

منشأت التصوف

كان انتشار التصوف فى العصر المملوكى من الظواهر الواضحة التى اتصفت بها الحياة الدينية فى ذلك العصر ، وقد ساعدت الظروف المختلفة على انتشار هذه الظاهرة واتساع نطاقها ، فبالرغم من أن صلاح الدين الأيوبى أدخل نظام الخنقاوات إلى مصر ، واستغل التصوف فى القضاة على المذهب الشيعى إلا أن التصوف ظل هادئا ولم يشتد تياره إلا فى عصر المماليك [1] فقد أدت أحداث العالم الإسلامى شرقه وغربه إلى هجرة كثير من مشايخ الصوفية إلى مصر التى وجدوا فيها مناخا مناسبا تمثل فى أهتمام المماليك بهم ورعايتهم رعاية كاملة من جهة كما وجدوا الناس مهيئين لتلقى تعاليمهم ، والتربة صالحة لاستتبات أرائهم ومذاهبهم فاندفع الكثيرون إلى الدخول تحت لواء هؤلاء المشايخ[2].

وهكذا كان الصوفية يعيشون جماعات منذ النصف الثانى من القرن السادس الهجرى قبل أن يكون للقومية معنى فى مصطلح السياسة ، فالتصوف نوع من السمو الروحى والعقلى فوق جميع العصبيات والجنسيات المختلفة فهم من الترك والعجم والمصريين والمغاربة والشوام والأحباش من ملة واحدة هى الملة الاسلامية يعيشون سويا فى مكان واحد[3] معرضين عن الدنيا مشتغلين أغلب الأوقات بالعبادة.

ومع اشتداد تيار التصوف إنتشرت طرق التصوف المختلفة كالطريقة الرفاعية والقادرية والحريرية وغيرها من جماعات وفرق أنشئت لتابعيها الزوايا والربط المختلفة[4] ومما يدل على أن المتصوفة كانوا يشكلون قطاعا

---

[1] زكى مبارك . التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق القاهرة ج١ ص٣٢٩ سعيد عاشور. المجتمع المصرى ص١٦٣؛ مصر فى العصور الوسطى ص٥٤٦-٥٤٧

[2] د.عاشور السيد أحمد البدوى ص٣٤-٣٦

[3] السبكى معيد النعم ص١١٩ ، الشعرانى. الطبقات ص١١٣ ، توفيق الطويل. التصوف فى مصر ص١٣

[4] ابن تغرى بردى النجوم ج٨ص٢٣٠ ،ج٧ص١٤ج٦ص٩٢ المقريزى خطط ج٢ ص٤٤٣ محمد عبد الستار الأثار المعمارية للسلطان برسباى ص١٩٢ وما بعدها

هاما من قطاعات المجتمع فى ذلك الوقت ، وجود مقابر خاصة بهم[1] فى البلاد المختلفة كذلك مابنى لأقطابهم من أضرحة أعدت للزيارة والتبرك كذلك الضريح الذى أنشئ لابن عطاء الله السكندرى بالقرافة "فقبره معروف بها ويقصد للزيارة ".[2]

واذا كانت الظاهرة العامة للتصوف فى العصر المملوكى هى التصوف الجمعى ، بمعنى الدخول فى جماعات بالخنقاوات والربط والزوايا إلا أنه وجد كذلك الإنقطاع الفردى للعبارة فنجد مثلا أن قاضى القضاة عماد الدين على بن عبد الصمد الطرسوسى الحنفى يترك القضاء وينقطع بداره للعبادة [3] ومما سبق يتضح أن التصوف كان ظاهرة قوية عامة سادت الحياة الدينية فى العصر المملوكى.

وقد كان لرعاية المماليك للمتصوفة التى تمثلت فى إنشاء العديد من منشآت التصوف ووقف الأوقاف الكثيرة عليها مع اشتداد الفاقة وانتشار الفقر بين العامة واليأس من الحياة أثره فى اشتداد قوة تيار التصوف ، مما جعل الكثيرين يقبل على التصوف تخلصا من ظلم المماليك ، فضمت منشآت المتصوفة كثيرا من الدخلاء الذين لم يقبلوا على هذه الحياة رغبة فى الإنقطاع للدين ولكن فرارا من قسوة الحياة ، ورغبة فى الهناء بالمعيشة داخلها دون عناء ، وقد تردد صدى ذلك فى أقوال المؤرخين المعاصرين الذين إنتقدوا بشدة تصوف متصوفة عصرهم ، أمثال المقريزى الذى يقول " "ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع لا ينسبون إلى علم ولا ديانة وإلى الله المشتكى [4] كذلك فإن ثورة صوفية خانقاة بيبرس الجاشنكير على شيخهم الشيخ جلال الدين السيوطى ، لأنه رأى فيهم عوجا ونبههم إلى شروط الواقف وضرورة التقشف والزهد وإتباع الطريق ، فثاروا عليه وأوسعوه ضربا وألقوه فى الفسقية أو الميضأة بثيابه ، وكادوا يقتلونه ،

---

[1] النجوم ج٦ ص١٧٨ ،ج٧ص٥٧

[2] ابن تغرى بردى النجوم ج٨ ص٢٧٨

[3] ابن تغرى بردى النجوم ج١٠ ص١٨١

[4] المقريزى خطط ج٢ ص٤١٣-٤١٤

بل وفاخر بعضهم بأنه ضربه بالقباب على كتفيه [1] أمر يظهر الحد الذى وصل إليه التصوف عند إقتراب نهاية العصر المملوكى ، ومن خروجه عن غايته الحقيقية حتى أصبح وسيلة من وسائل التكسب والارتزاق دون عناء وهو أمر يؤكده ارتباط المتصوف الواحد بأكثر من خانقاة طمعا فى المال.[2]

وشايع سلاطين وأمراء المماليك حركة التصوف بمصر وشاركوا عامة الشعب فى الإعتقاد فى الصوفية والعطف عليهم فأنشأوا الكثير من المنشأت التى خصصت لهم ، والتى تنوعت ما بين الخوانق والربط والزوايا، وقفوها عليهم ووقفوا على من بها من المتصوفة أو من طلبة العلم المتصوفة الكثير من الأوقاف [3] التى كان لها أثارا بعيدة فى إستمرار هذه المنشآت فى القيام بوظائفها بالتبعية فى إشتداد تيار التصوف .وقد اثارت كثرة هذه المنشآت الخاصة بالتصوف دهشة الرحالة الأجانب وشبهها بعضهم بالملاجئ ذلك أن منشآت الصوفية كانت مأوى لطوائف المريدين ، يقيمون بها ليلهم ونهارهم كما اتخذت كذلك مأوى لأصحاب العاهات وكبار السن والعميان فضلا عن المطلقات من النساء [4] وهى تشبيه فيه بعض التجاوز عن الحقيقة، ويكشف عن مدى سطحية معرفة هؤلاء الرحالة بالتصوف الإسلامى ومراحل تطوره فإذا كان مظهر الرعاية الإجتماعية قد ظهر بوضوح فى منشآت التصوف فى العصر المملوكى فليس معنى ذلك أن تشبه هذه المنشآت بالملاجئ لأن الفارق واضح كبير وكل ما يمكن قوله أن سلاطين المماليك وأمراءهم سعوا بتلك الرعاية إلى إمتصاص غضب هذه الفئة من الشعب الذى كان يعانى الفقر والظلم ويجعلهم يظهروا فى نفس الوقت – بمظهر حماة الدين ويؤكد إرتباطهم بعقيدة الإسلام.

ومما سبق يتضح أن مع إشتداد تيار التصوف ونتيجة لرعاية سلاطين وأمراء المماليك المتصوفة تعددت منشآت التصوف ، وتنوعت واختلفت

---

[1] ابن إياس بدائع الزهور ج٣ ص٣٧٨ توفيق الطويل التصوف فى مصر ص٥٠

[2] د.سعيد عاشور المجتمع المصرى ص٣٧٢

[3] د.سعيد عاشور العصر المماليكى فى مصر والشام ص٣٤١ محمد أمين تاريخ الاوقاف ج١ص٢٥٨

[4] د.سعيد عاشور المجتمع المصرى ص١٧٠

بإختلاف وظيفتها وحجمها وهذه المنشآت تمثلت في الخانقاة والرباط والزواية.

أولا : الخانقاة :

كان صلاح الدين أول من أدخل نظام الخانقاوات في مصر فحول دار سعيد السعدا إلى خانقاة ، فالخانقاة هي الدار التي يختلي فيها الرجال الصوفية لعبادة الله لذلك لم يجد صلاح الدين مشكلة معمارية في تحويل دار سعيد السعدا إلى خانقاة فكل ما يحتاجه مكان للاختلاء ومكان لتأدية الصلاة وهو ما توافر في هذه الدار وكان متصوفة هذه الخانقاة يؤدون الصلاة الجامعة في جامع الحاكم بأمر الله أقرب المساجد الجامعة إليها ، وهذا يعني أنه لم تكن للخانقاة عناصر المسجد الجامع ولم تكن تؤدي وظيفته ، ولكن منذ أواخر القرن ٧ هـ/ ١٤م أصبحت الخنقاوات-كغيرها- من المنشآت الدينية كالمدارس والمساجد تؤدي وظيفة المسجد الجامع فأضيف إليها منارة ومنبر، وعين منشئوها بها موظفين يقومون بإقامة شعائر الصلاة فأصبحت الخانقاة عبارة عن مسجد جامع ملحق به بيوت وخلاوي للصوفية وكانت خانقاة الأمير علاء الدين ايدكين البندقداري الصالحي النجمي ، أول خانقاة من هذا الطراز ثم حدث كذلك تطورا آخر على الوظيفة التي تؤديها الخانقاة عندما تداخلت وظيفتها مع وظيفة المدرسة فعندما أنشأ أحمد المهندار منشأته الدينية سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م جعلها " مدرسة وخانقاة " ومنذ ذلك العهد كان يمكن للمنشأة الدينية أن تؤدي الوظائف الثلاث جميعا وظيفة المسجد الجامع والمدرسة والخانقاة ، وأصبح ذلك التداخل في الوظائف أمرا عاديا في غالب المنشآت الدينية المملوكية. فمع إنتشار التصوف أصبح معظم الطلبة من المتصوفة وكان ذلك ثمرة من ثمار التصالح بين الفقهاء وشيوخ المتصوفة بعد ذلك العداء الشديد الذي كان سائدا في القرن ٤-٥ هـ/ ١٠/١١ م فأصبح عقد حضور التصوف في الجوامع والمدارس ظاهرة شائعة، ولما كانت المنشأة الدينية تصلح لهذه الإستخدامات فلم توجد أي مشاكل معمارية ، فالساحة التي تستخدم مسجد للصلاة يمكن أن تؤدي وظيفه المسجد الجامع ويمكن استغلالها في إلقاء الدروس أو حضور التصوف أما ما تحتاجه المدرسة أو الخانقاة من مساكن أو خلاوي للطلبة أو المتصوفة فهو أمر متشابه في كلا الحالتين إلى

حد معين ، وبعد أن أصبحت عملية تقرير الطلبة وتنزيل الصوفية بالمدارس والخنقاوات هدفها الغالب التكسب والإرتزاق وبعد أن تغلب مظهر الرعاية الإجتماعية لم يعد الهدف الديني التعليمي في مكانته الأولى ، أصبح من الممكن أن تؤدى المنشأة هذه الوظائف وظل هذا الأمر وهنا بما يراه الواقف وما تحدده إمكاناتها التى يوقفها على منشآته.

وقد سار هذا التطوير في خطوات متتابعة يمكن تتبعها من خلال دراسة ما تبقى من منشآت وما تذكره المصادر التاريخية والوثائقية عنها.

وفى البداية أنشئت الخانقاة لتؤدى وظيفة التصوف وتكون بيتا خاصا بالمتصوفة لا يتطرق إليه من ليس منهم ، ومن هذه الأمثلة خانقاة بيبرس الجاشنكير وخانقاة الناصر محمد بسرياقوس[1] وهو المظهر الذى حافظ عليه بعض الأمراء الذين أنشأوا خنقاوات داخل القاهرة ضمنوا لها صفة الاستقلال هذه ببناء مساجد جامعة فى مواجهتها أو بجوارها ، فتكررت أمثلة كثيرا من ازدواجية الانشاء لخانقاة وجامع لمنشئ واحد مثل بشتاك[2] وقوصون[3] وشيخو[4] ومنجك[5] وطيبرس[6] وهو أمر ساعد عليه بلا شك ما تمتع به هؤلاء من قدرات مادية ورغبة شخصية أدت إلى أنشائهم لهذه المنشآت حتى ان بعضهم أنشأ كذلك مدرسة كالأمير طيبرس الذى أنشأ مدرسة أمام الجامع الأزهر نقل إليها الصوفية بعد أن تهدم جامعه وخانقاته التى أنشأها[7] وهو أمر يشير إلى ان الظروف قد تدفع إلى تقرير أكثر من وظيفة فى المنشآت الدينية وهو امر ساعد عليه-كما ذكرنا-تقارب هذه الوظائف الدينية.

ومع وجود هذه الأمثلة التى حافظ منشئوها إلى حد ما على توفير نوع من الإستقلالية للخانقاة كبيت للصوفية ، وجدت أمثلة تداخلت فيها

(1) وثيقة بيبرس ٤/٢٣١ محكمة وثيقة الناصر محمد ٤/٢٥ محكمة ابن تغرى بردى النجوم ج١٠ ص٣٢٣
(2) ابن تغرى بردى النجوم ج٩ص٢٠٨
(3) المرجع نفسه ج٩ص٢٠٧
(4) المرجع نفسه ج١٠ ص٣٢٢
(5) المرجع نفسه ج١٠ ص٢٩٣
(6) المرجع نفسه ج٩ ص٢٤٦
(7) المرجع نفسه ج٩ ص٢٤٦

الوظائف فأصبحت الخانقاة تؤدى وظيفة المسجد الجامع والمدرسة وكانت خانقاة أيدكين البندقدارى ثم خانقاة أو مدرسة المهمندار من النماذج الأولى على ذلك وهى نماذج شاع تكرارها حتى أصبح هذا الأمر هو القاعده السائدة تقريبا ولعل أروع الأمثلة الباقية التى تمثل حلقة الوصل بين النظامين فى أداء رائع " مدرسة وخانقاة " الظاهر برقوق بالنحاسين ، فقد توفر فيها خلاوى المتصوفة التى تستغل للإختلاء فى مجموعات سكنية مكثفة خلف بناء المدرسة فى شبه استقلال وسهولة اتصال بالمدرسة التى كانت أواوينها مقر للدرس وعقد حضور التصوف كذلك[1] ولعل فيما يرد ببعض الوثائق والمراجع من إشارة تفيد إطلاق كلمة "خانقاة " عادة على مساكن الصوفية[2] ما يشير إلى ضرورة اشتمالها على وحدات سكنية ممثلة فى الخلاوى الخاصة بسكنى المتصوفة ما يؤكد ما تتميز به الخانقاة معماريا عن غيرها من المنشآت الدينية.

وقبل التعرض إلى طبيعة الحياة داخل منشآت التصوف بصفة عامة والخانقاة بصفة خاصة ، لابد من الاشارة أولا إلى أن الفقر والظلم الذى تعرض له الشعب فى العصر المملوكى بالإضافة إلى العوامل الخارجية التى دفعت بكثير من الوافدين المتصوفة إلى مصر كان له أثره فى الإقبال على الخوانق والربط لما توافر فيها من أسباب الإطمئنان والإستقرار للتمتع بما بها من مزايا الإقامة والغذاء والكساء ومما يؤكد ذلك أن الخنقاوات كانت تكتظ عادة أيام القحط أو الغلاء والمجاعات والإضطرابات السياسية والفتن وكان سلاطين المماليك يدركون ذلك حتى أن السلطان المؤيد شيخ عندما وقع الغلاء سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م أرسل فارس الخازندار الطواشي بمبلغ كبير من الفضة المؤيدية ففرقها على الجوامع والمدارس والخوانق فكان لكل شيخ عشرة دنانير وأردب قمح ، ولكل طالب أوصوفى أربعة عشر مؤيديا وفيهم من تكرر اسمه حتى أخذ بعضهم فى خمسة مواضع كذلك فإن ماحدث من موت كثير من الفقراء والآفاقية بالطرقات من شدة الجوع نتيجة الفتن مثل

---

[1] وثيقة برقوق ٥١/٨محكمة

[2] وثيقة برقوق ٥١/٨ محكمة وثيقة برسباى ٨٨٠أوقاف

فتنة قانصوه خمسماية وأقبردى الدوادار أوائل القرن العاشر الهجريا[1] تؤكد ما نشير إليه من أن حالة الفقر والظلم التى تعرض لها الشعب فى ذلك العصر كانت الدافع إلى الاقبال على التصوف والإلتحاق بالخنقاوات لما يتوفر فيها من أسباب الإقامة والغذاء والكساء ولم يكن المعنى الحقيقى للتصوف هو الدافع الأول حتى أنه يمكن القول أن متصوفة ذلك العصر كانوا يؤمنون بالتواكل ، ولا يجهدون أنفسهم فى كسب العيش ، فقد كفل لهم نظام وموارد الخنقاوات فى ذلك العصر كل أسباب المعيشة الطيبة فى عالم مزقته الحروب والفتن ، وطفح بالإثم والعدوان ، وفى ظل دعوتهم القائلة بالتفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله والدعاء للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وللسلاطين وذرياتهم والواقفين وعاشوا عيشة راضية ترفة بالنسبة لحياة بقية أفراد الشعب ، رغم إدعائهم الزهد والتقشف. ومما لاشك فيه أن الدنيا شغلت أذهان الصوفية فلم تخل منها قلوبهم واذا كان الصوفية قد إنحدروا إلى ذلك فقد دفعتهم سياسة المماليك الذين اشتدوا على فئات الشعب ، ووسعوا على المتصوفة لتحقيق أهداف سياسية مقصودة.

وقد سارت الخنقاوات فى العصر المملوكى على نظام استقر به العمل فى الخنقاوات قبل ذلك العصر ، وتطور حسب ظروف ذلك العصر ، وقد كان لنظام الوقف وحرية الواقف فى اشتراط ما يراه من شروط للعمل داخل المنشأة أثره الكبير فى أن يتخذ أسلوب الحياة داخل الخنقاوات شكلا اتسم به هذا العصر دون غيره من العصور السابقة عليه أو اللاحقة له.

وكان يعين لكل خانقاة شيخ يقرر معه عدد من الصوفية لحضور التصوف ، وقد يحدث أن يعين بالخانقاة أكثر من شيخ كما فعل السلطان الغورى الذى عين شيخين " فى مشيخة التصوف بالخانقاة المذكورة يحضر أحدهما فى نوبة الصبح والآخر فى نوبة العصر [2] وفى الخنقاوات التى كانت تؤدى وظيفة المدارس أو المدارس والجوامع التى كانت تؤدى وظيفة الخانقاة، كان المتولى لهذه الوظيفة هو الشيخ الذى يقرره الواقف وعادة ما يكون تابعا للمذهب الذى يعتنقه المنشئ ، ولما كان غالب المماليك حنفيو المذهب فإننا

---

[1] ابن إياس بدائع الزهور ج٤ ص١١١

[2] وثيقة الغورى ٨٨٣ أوقاف سطر ١٤٩٥ دراسة عبد اللطيف ابراهيم

نجد أن معظم الوثائق المملوكية تشير إلى شرط أن يكون شيخ المكان حنفى المذهب [1] ولكن وجد فى بعض الأماكن من تولى المشيخة ولم يكن حنفى المذهب كمدرسة جمال الدين الأستادار الذى اشترط أن يكون شيخها شافعى المذهب [2] وهنا تجب الإشارة إلى أن تخصيص المشيخة لشيخ من مذهب معين لم يكن فيه تعصب لهذا المذهب ولكن كان ذلك يتم بصورة تلقائية عادية فلم يكن هناك التعصب للمذاهب والصراع بينهما حتى يفسر هذا الأمر بهذا التفسير، يؤكد ذلك أن الواقف الواحد رغم تفضيله لمذهب معين كان ينزل بمنشآته طلبة أو متصوفة من بقية المذاهب ، ويدل عليه كذلك وجود شيوخ من مذاهب أخرى لبعض الأماكن فلم يقتصر الأمر على الحنفية، ويدل عليه أيضا حرية تحول البعض من مذهب إلى أخر فليس الاختلاف بين المذاهب إختلاف عقائدى[3] ويؤكد ذلك أيضا أننا لا نجد هذه المشكلة فى الأماكن التى تختص بالمتصوفة والتى لا يوجد بها أكثر من شيخ كخانقاة بيبرس الجاشنكير نجد أن الواقف يشترط ان يكون شيخ الصوفية واحدا منهم لامن غيرهم [4].

وكان لشيخ الخانقاة مكانته الكبيرة حتى أن السلطان الناصر محمد عندما عين شيخ خانقاته بسرياقوس خلع عليه ولقبه "بشيخ الشيوخ" وهى أول مرة يلقب فيها شيخ الخانقاة بهذا اللقب [5] وكان الشيخ يتقاضى عن عمله " معلوما سنيا من الدراهم والخبز واللحم والصابون والزيت وسائر ما يحتاج إليه حتى جامكية غلام بغلته "[6] كذلك كان لبعض شيوخ الخنقاوات الكبيرة أهميتهم الأدبية لدى السلاطين والأمراء ، فقد كان بعضهم يحضر مجالس

---

[1] وثيقة المؤيد ٩٣٨ وثيقة برسباى ٨٨٠/ أوقاف

[2] وثيقة جمال الدين الأستادار ١٠٦/١٧ محكمة

[3] يمكن أن يكون هذا الامر متواجد فى مذاهب المسيحية المختلفة ولكن لا يمكن تطبيقه على المذاهب الفقهية الإسلامية فالعقيدة واحدة وقد دفعنى إلى التركيز على هذه النقطة ما صادفته أثناء البحث عندما التقيت بباحثة أمريكية تحاول أثبات ذلك بشتى الوسائل فى دراسة لها عن الخنقاوات والتصوف فى العصر المملوكى.

[4] وثيقة بيبرس الجاشنكير ٢٢،١٣/٤ محكمة

[5] ابن تغرى بردى النجوم ج٩ص٨٤

[6] المقريزى خطط ج٢ ص٤٢٤

السلطان الدينية ، فعندما قرئ البخارى فى حضرة السلطان برسباى بالقلعة " حضر السلطان وعن يمينه الشافعى ثم الحنفى ثم المالكى وعن يساره الهروى ثم الحنبلى ،ثم شيخ الأشرفية [1] ثم شيخ الظاهرية [2] ثم شيخ الشيخونية [3] وفى ترتيب المجلس على هذا النحو ما يشير إلى تفضيل منشأة السلطان القائم كذلك فإن علاقة السلطان برقوق بالشيخ نظام الدين شيخ خانقاة سرياقوس الذى كان له خصوصية عنده ثم تنكر عليه وصرفه عن مشيخة خانقاة سرياقوس[4] ما يشير إلى اهتمام السلاطين بأمور مشايخ الخنقاوات ومعاملتهم ترغيبا أو ترهيبا كذلك فإن ماحدث بين ابن الهمام شيخ المدرسة الأشرفية وبين الأمير جوهر الخازندار عندما عارض الأخير الشيخ فى تعيين تلميذه الشمس الأمشاطى المتصوف بها فغضب الهمام ، وقال بعد أن حضر التصوف فى وقت صلاة العصر على العادة وخلع طيلسانه ورمى به " إشهدوا على أننى عزلت نفسى من هذه المشيخة ، كما خلعت طيلسانى هذا" وترك المدرسة وانتقل إلى بيت بباب القرافة [5] ولما علم برسباى بذلك ، بعث إليه أمير اخور جقمق مع مجموعة من الأعيان يطلب منه العودة ، ولكنه لم يستجب ، وانتقل من البيت الذى بباب القرافة إلى طرا ، فذهب إليه جوهر المذكور على حد قول السخاوى " حاسر الرأس ذليلا ، فقبل قدمه ، مصرحا بالإعتذار والإستغفار ، فأجابه بأننى لم أتركها بسببك بلى لله تعالى [6] وهذه الرواية إن كانت تكشف عن مدى التقدير للشيخ إلا أنها تكشف أيضا وهى وسابقتها الخاصة بالسلطان برقوق-عن مدى تدخل السلاطين والأمراء فى شئون المنشآت الدينية.

---

[1] هى المدرسة الأشرفية بشارع المعز لدين الله التى أنشأها السلطان برسباى ٨٢٧-٨٣٣هـ

[2] هى المدرسة والخانقاة التى أنشأ الظاهر برقوق بالنحاسين بالقاهرة

[3] هى الخانقاة التى أنشأها الأمير شيخو بالصليبة ابن حجر أبناء ج٣ ص٣٢٩

[4] ابن تغرى بردى المنهل الصافى ص٢٢

[5] باب القرافة يقع فى سور القاهرة القديم بجوار باب قايتباى بالقرب من مسجد السيدة عائشة كشف عنها المرحوم محمد عباس بدر ١٩٤٠-١٩٤١ ولكنه لم ينشر هذا الكشف

[6] السخاوى الضوء ج٨ص١٣٠

الصوفيـة :

كان الواقف للخانقاة يقرر بها عددا من الصوفيـة وكـان للصوفيـة فـى معيشتهـم داخل خنقاواتهم أدابا خاصة ، وقواعد مرعية التزموا بها ، وأفـاض المعاصرون فى وصفها ، ولعل فيما تتضمنـه الوثـائق المملوكيـة مـن شـروط الواقفين ما يكشف عن دقـائق هـذه الحيـاة بطريقـة تفصيليـة فقد اختلـف عـدد المتصوفـة فـى كـل خانقـاة حسـب اتسـاعها وريـع أوقافهـا ورغبـة واقفهـا ، ويتـرواح هذا العدد فى الغالب بين مائة صوفى وعشرة من الصوفيـة ، فبينمـا تذكر وثيقة وقف بيبرس الجاشنكير أن عدد الصوفيـة المنزلين بالخانقـاة مائـة نفر فضـلا عن مائة نفربالرباط [١] نجد أن عدد الصوفية ينخفـض إلـى عشـرة أفراد فى الخانقاة الخروبيـة التـى استجدها المؤيـد شيخ بـالجيزة [٢] وقـد كـان المتحكم الاول فى هذه الأعداد هو الواقف فإذا أريد أن يزاد فى العـدد فيكـون ذلك بشرط الواقف كما حدث فى خانقاة الغورى عندما أضـاف إثنين إلى العـدد الأصـلى الذى قـرره سـابقا بهـا وهـو ثمـانون[٣] وقـد كـانت هـذه الأعـداد هـى الثابتـة للمتصوفة بالخانقاة ، ولكن قد يحدث أن يأتى إلى الخانقاة من الوارديـن والأفاقية الغرباء أعداد إضـافية غير هؤلاء المنزلين بها ولذلك نجـد أن بعـض الواقفين اشترط ألا يزيد عدد المتصوفة " مـن المقيميـن والمترددين والغربـاء والمتزوجين عن أربعمائة نفس[٤] وهو بذلك يضع حـدا أقصـى لمـا يمكـن أن تتحملـه خانقاتـه فـى أقصـى الظـروف خاصـة إذا علمنـا أن الخنقـاوات كـانت معرضة لأن ينزل بها القادمون من المتصوفة من البلاد الأخــرى ، ويقيمـون بها إقامة احتياطية حددتها بعض الوثائق بثلاث ليال حتـى يجدون مقامـا ثابتـا فإن لم يتمكنوا ولم تسمح لهم الظـروف بمـنزل أخر يمكثـون بهـا حتـى ينحـل العذر [٥] كما كانت تكتظ أيضا أيام الشدائد والفتن والاضطرابـات التـى كثيـرا ما كانت تقع فى ذلك العصر.

---

[١] وثيقة بيبرس الجاشنكير ٢٣،٢٢ محكمة

[٢] وثيقة المؤيد شيخ ٩٣٨

[٣] وثيقة الغورى ٨٨٣ أوقاف سطر١٦٣٦ وظهر الوثيقة أيضا دراسة د. عبد اللطيف ابراهيم على ص١٦٣

[٤] وثيقة جوهر المعينى ٢٠٢ محكمة وثيقة بيبرس الجاشنكير ٢٣،٢٢ محكمة

[٥] وثيقة الناصر محمد ٢٥ محكمة

وقد أشارت وثائق الوقف إلى الشروط التى يجب توافرها فى المتصوفة ، واختلفت هذه الشروط فى تفصيلات فرعية أتاحت الفرصة أمام الفئات المختلفة للإلتحاق بالخنقاوات فقد جاء بوثيقة بيبرس الجاشنكير أنه " وقف ذلك وقفا شرعيا على الصوفية والمتصوفة الشيوخ والكهول والشبان البالغين العرب منهم والعجم وغير ذلك من الأجناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم الملتزمين بآدابهم وطرايقهم المقيم منهم بهذا المكان المذكور من أهل القاهرة ومصر المحروستين وضواحيهما وغيرهم من البلاد والواردين إلى هذا المكان من الخوانق وغيرها من أى مكان كان قريبا أو بعيدا بطرايق الصوفية وآدابهم بحيث لا يدخل عليهم أحد من غير جنسهم بشفاعة شافع فالأول العزاب إذا كان من الأهلية لذلك ومن فعل غير ذلك فوزره على الشافع والمشفوع [1] واذا كان بيبرس قد أطلق الجنسية فإننا نجد بعض الواقفين يحدد نسبة من العدد للأغراب [2] كذلك نرى أن البعض يشترط أن يتصف المتصوفة بطلب العلم فيما يعرف بالطلبة المتصوفة [3] بينما نرى البعض الآخر يحدد نسبة من المتصوفة تكون من المجردين المختصين فقط بالتصوف المنقطعين له ونسبة أخرى من الطلبة المتصوفة وهى شروط تعكس التطور الوظيفى للخانقاة فى العصر المملوكى ، فقد اقتصرت الخانقاة فى بداية عهدها على " الصوفية فقط " ثم مع تداخل وظائف المنشآت ومع تقرير دروس بالخنقاوات وجد الطلبة بجانب المتصوفة ، ثم تطور الحال فاشترط الواقف أن يتصف المتصوفة بطلب العلم " الطلبة المتصوفة " وهى النوعية التى سادت فى عصر المماليك الجراكسة بصفة خاصة.

وقد كان المتصوفة يقومون بنشاطهم الدينى فى حالة انفراد عند اختلاء كل منهم فى خلوته للتعبد ، أو فى هيئة جماعية عند إقامة الصلوات المفروضة وشأنهم فى ذلك شأن جميع المسلمين أو عند حضور التصوف الذى كان يعقد فى هيئة معينة ، وفى مواعيد محددة اختلفت حسب ما يراه واقفو هذه المنشآت ولكنها فى العادة تأخذ صورة واحدة شاعت فى العصر

---

[1] وثيقة وقف جمال الدين الأستادار ١٠٦/١٧ محكمة

[2] وثيقة برقوق٥٢/٨ محكمة وثيقة المؤيد ٩٣٨ أوقاف ، وثيقة وقف برسباى ٨٠ أوقاف ابن حجر ابناء ج٣ص٣١٠

[3] وثيقة وقف جمال الدين الاستادار ١٠٦/١٧ محكمة

المملوكي. ففي خانقاة بيبرس الجاشنكير على سبيل المثال كان حضور التصوف يعقد بعد صلاة العصر ، وكان يجتمع شيخ الخانقاة وجماعة الصوفية المنزلون بهذه الخانقاة من مقيم ومتردد وقت العصر من كل يوم بأسرهم مالم يكن لأحد منهم عذرا أو ضرورة ويقرأون بالإيوان الأعظم ، ما تيسر على ما يراه شيخهم من ربع شريفة ، ويدعو أحدهم بعد قراءته للواقف المسمى بأعاليه وللناظر وللمسلمين بما يجريه الله على لسانه من الخير [١] وفى هذا النص ما يشير إلى تحديد مكان الحضور " بالإيوان الأعظم " أى ايوان القبلة بالمنشأة الدينية عامة ، فكان يتسع لأعداد المتصوفة المجتمعين لحضور التصوف عن غيره من الأواوين وفى حالة إذا ماضاق هذا الإيوان بالمجتمعين كانت تستغل الأواوين الأخرى [٢] ولعل إستخدام هذا الإيوان عادة فى إقامة الصلوات الخمس ، وعقد حضور المتصوف وإستغلاله أيضا لمكان للدرس بالنسبة لطلبة المذاهب الأكثر عددا ، دفع المعمار عادة إلى أن يزيد فى مساحته والاهتمام به عن بقية الأواوين بإعتباره الإيوان الذى يضم المحراب والمنبر وأحيانا دكة المبلغ وكرسى المصحف وكلها أمور تحتم أن تتسع مساحته عن غيره من الأواوين الأخرى وفى الحقيقة إن هذا الإيوان كان لاتساعه يقوم بوظيفة المنشأة سواء كانت للصلاة الجامعة أو التدريس أو حضور التصوف حتى أنه عند إنشاء المنشأة كانت تفتتح بعد أن يتم منها هذا الإيوان لأنه كان يمكن افتتاحها للعمل به وقبل إكتمال بقية الأواوين ولعل مدرسة أيتمش التى تتركز وظائفها فى إيوان واحد فقط ما يؤكد ذلك [٣] .

ومع انتشار التصوف فى العصر المملوكى قرر حضور التصوف ببعض المنشآت الدينية الشهيرة السابقة على ذلك العصر كالجامع الازهر الذى قرر به قرقماس حضورا بعد صلاة العصر ، وحتى فى هذه المنشآت اهتم المقرورن بمكانه لتوفير نوعا من الإستقلال لحاضريه إلى حد ما فعندما

---

[١] وثيقة بيبرس الجاشنكير ٢٣،٢٢ محكمة وكان هو هذا هو المثل الشائع فى معظم الخنقاوات المملوكية والمنشآت الدينية الأخرى التى كان يعقد بها حضورا للتصوف.

[٢] وثيقة برسباى ٨٨٠أوقاف وثيقة المؤيد ٩٣٨ أوقاف

[٣] وثيقة أيتمش ١١٤٣ أوقاف

قرر قرقماس حضور التصوف بالجامع الأزهر خصص المقصورة تجاه القبلة لذلك [١].

وفى حضور التصوف كان الشيخ يجلس " بالقبلة والصوفية على يمينه ويساره مستديرين وقراء الصفة يتميزون عنهم فى الجلوس ثلاثة أمام ثلاثة ، فيقدم أمام الشيخ المصحف الشريف مرفوعا على كرسيه ، ويفرق من الربعة الشريفة التى بالجامع المذكور على كل واحد من الصوفية ويقرأ الشيخ ما تيسر له قراءته من القرآن العظيم بالمصحف الشريف ، وتقرأ الصوفية بالأجزاء الشريفة من الربعة الشريفة التى تفرق عليهم عند الحضور ، ويختمون قراءتهم عند ختم الشيخ قراءته إن كان حاضرا وإلا فقدرها على العادة ، ثم يفتتح قراء الصفة بما عين وشرط عليهم أعلاه ، وعند نهايتهم ذلك يدعو أحد قراء الصفة الدعاء المذكور أعلاه على ما نص وشرح أعلاه كما جرت العادة به فى حضور التصوف بمدارس الديار المصرية [٢] ومما سبق تتضح صورة حضور التصوف ، واذا كان الغالب عقد حضور التصوف مرة واحدة بعد صلاة العصر فى المنشآت الدينية المذكورة ، فهناك من الواقفين ما قرر أكثر من حضور أمثال السلطان الغورى للذى قرر حضورين أحدهما فى الصباح والثانى بعد صلاة العصر [٣] وهناك من قرر حضورا " عقب كل صلاة من الصلوات الخمس المفروضات " وقرر بأن "هذا الحضور فيه زيادة بحضور أربعة أوقات فى كل يوم على غيره[٤] كذلك فإن هناك من زاد فى حضوره المدح قبل عقد دعاء الختام فإذا فرغ القراء من القراءة" ولم يبق إلا الدعاء قام المادح[٥] وأنشد فى مدح خير

---

[١] وثيقة قرقماس أمير كبير ٩٠١ أوقاف ص٢٥-٢٦

[٢] وثيقة وقف قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص١٢٨

[٣] وثيقة الغورى ٨٨٣ سطر ١٤٦٨ دراسة د. عبد اللطيف إبراهيم

[٤] وثيقة وقف قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص١٢٨

[٥] كانت وظيفة المادح من الوظائف الدينية التى انتشرت بالمنشآت الدينية المملوكية وقد ساهمت هذه الوظيفة فى صبغ الحياة فى العصر المملوكى بالصبغة الدينية وأضفت عليه إحساس خاص بالروحانية ، وقد عين الواقفون بمنشآتهم وظيفة للمادح مثال ذلك السلطان حسن الذى قرر بمدرسته مادحا " فينشد ما يحضره من مدائح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المشهورة للصررى وأمثاله "(وثيقة السلطان حسن ٨٨١

الورى محمد هادى الأمة وكاشف الغمة صلى الله عليه وسلم، وكلام القول ما يحصل به الطرب والتواجد للسامعين ، ثم يجلس المادح ويدعو الداعى [1].

وإذا كان حضور التصوف هو أهم ما يقوم به المتصوفة من أذكار جماعية ، فإننا نجد بيبرس الجاشنكير يشترط على المتصوفة أن يقوموا عقب كل صلاة بقراءة " آية الكرسى ويسبحون الله ثلثا وثلاثين مرة ، ويجهرون كذلك ويكبرون كذلك ، فإذا فرغوا مما ذكر يدعو كل واحد منهم للواقف المذكور أعلاه ما يجريه الله على لسانه من الخير[2].

وقد كان بعض المتصوفة إلى جانب قيامهم بمهام التصوف يقومون بأعمال الخدمة داخل الخانقاة أو المنشأة الدينية المتنزل بها ، كان يقوم بسقى الماء على المتصوفة[3] أو أن يعمل مؤدبا للأيتام بمكتب السبيل الملحق بالمنشأة ، هذا بالنسبة للمتصوفة المنتظمين فى الحياة داخل الخانقاة ، أما من كان يقطن خارجها فكان يعمل بعضهم أحيانا للكسب والإرتزاق بالتجارة وغيرها كالشهادة فى حوانيت الشهود[4].

وكان للشروط التى يضعها الواقفون للمقيمين بالخنقاوات أثرها على تخطيط الخانقاة ، فقد فضل البعض الأعزب على المتزوج للسكنى بالخانقاة [5] بل أن بعض الواقفين شرط جزما " ألا ينزل بالخانقاة إلا من كان أعزبا ، ولا يسمح للمتزوجين بسكنى الخانقاة إلا بغير زواجات ولا جوارى على ممر

(=)أوقاف ص٤٤٢)وجرت العادة أن يقوم المادح بعد صلاة الجمعة من الانتهاء من قراءة سورة الكهف بإنشاد عشرة أبيات فأكثر من مدح النبى صلى الله عليه وسلم (وثيقة الغورى ٨٨٣ أوقاف سطر ١٤٣٢-١٤٣٣دراسة د.عبد اللطيف ابراهيم ومن الطبيعى أن يشترط فى المادح أن يكون " حسن الهيئة والصوت (وثيقة قانى باى الرماح ١٠١٩)وأن يذكر من الأشعار ماهو واضح اللفظ صحيح المعنى (السبكى معيد النعم ص١٠٩)

[1] وثيقة وقف الغورى ٨٨٣أوقاف سطر ١٤٩٨ دراسة عبد اللطيف ابراهيم على

[2] وثيقة بيبرس الجاشنكير ٢٢/٤ محكمة

[3] وثيقة جمال الدين الأستادار ١٧/١٠٦ محكمة

[4] ابن العماد شذرات الذهب ج٧ ص١٧٥ السخاوى الضوء ج٤ ص٣٧-٣٨ ج٤ ص١١٥ ، ج٥ ص٣١٥

[5] وثيقة جمال الدين الأستادار ١٧/١٠٦ محكمة

الأيام والشهور والأعوام [1]. ولم يستثن من هذا الشرط إلا " الشيخ خاصة وأنه يرخص له فى السكن بزوجته للضرورة [2] وهذا يعنى أن ما كان ينشأ بالخانقاة من خلاوى للمتصوفة كان يراعى فيه أن تكون خاصة بفرد قائم بذاته ، أما سكن الشيخ فقد كان يشتمل على أكثر من حجرة له ولزوجته ، وهو أمر توخاه المعمار المسلم فى تخطيطه لسكن الشيخ الذى جعله عادة منفصلا عن مساكن المتصوفة لوجوب استقلاله من التطرق إلى داخل المنشأة من جهة أخرى إلى حد الممكن، أما مساكن المتصوفة فجعل مقاييسها فردية وجعلها مكثفة فى مجموعات كبيرة ومعنى ذلك أيضا أنه كان هناك من المتصوفة من يقطن خارج الخانقاة من متصوفة ، وبين ما تشتمل عليه من مساكن للمتصوفة ولعل فيما نراه من أن شخصا واحدا كان يتنزل فى أكثر من مكان أو على حد قول السخاوى " فى بعض التصوفات " ما يؤكد ما نذكره.

ولذلك كانت عملية ضبط حضور المتصوفة عملية هامة وقد عين الواقفون لها وظيفة لشخص يدعى " كاتب الغيبة " يضبط عدد من تغيب من الصوفية فى أوقات الحضور على العادة فى ذلك. [3]

وكان يسمح للمتصوفة المقيمين بالخانقاة بالتغيب خمس ليال كل شهر [4] ويبدو أن هذا السماح كان للمتزوجين ، وكان من حقهم التغيب لمدد طويلة تمكنهم من الحج أو زيارة القدس أو لزيارة الأهل وإذا زادت مدة الغيبة عن ثلاثة أشهر يقطع معلوم المتصوف وينزل غيره بالخانقاة [5] وفى هذا حرص على استمرار العمل بالخانقاة وانضباطه.

وقد وجد المتصوفة بالخنقاوات نوعا من الحياة الرغدة بالنسبة لحياة فئات الشعب الأخرى ، فكانت تصرف لهم المرتبات الشهرية ، بالإضافة إلى

---

[1] وثيقة بيبرس ٤/٢٢ محكمة

[2] وثيقة جمال الدين الأستادار ١٧/١٠٦ محكمة

[3] وثيقة وقف المؤيد شيخ ٩٣٨ قايتباى ٨٨٦ص١٢٦

[4] جمال الدين الاستادار ١٧/١٠٦ بيبرس ٤/٢٢ محكمة

[5] وثيقة جمال الاستادار ١٧/١٠٦

الخبز اليومى واللحم [١] فقد كان المتصوف فى خانقاة بيبرس الجاشنكير يحصل يوميا على ثلاثة أرطال من الخبز وثلث رطل من لحم الضأن وكان لشيخ الخانقاة كمية مضاعفة ، كما كانت تفرق عليهم الحلوى إلى جانب زيت الزيتون والصابون فى مواعيد مقررة وذلك فى الوقت الذى انتشر فيه الغلاء وإرتفعت فيه أسعار الحاجيات ، وكان من أحب الأغذية إلى قلوب المتصوفة والتى كانت تقرر لهم القمحية [٢] واللبنية [٣] وهذا كله يدل على مدى شغف الصوفية فى العصر المملوكى بالطعام وإقبالهم على الدنيا فهم يرجون عيشا طيبا حتى أصبح يضرب المثل بأكل الصوفية فيقال " أكل من الصوفية " ولعل فى شكوى متصوفة خانقاة سعيد السعدا سنة ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م إلى السلطان فى أمر الخبز الذى انقطع [٤] ما يؤكد هذا الحرص ويشير من جهة أخرى إلى أن المتصوفة اعتبروا ما يأخذونه من رواتب وخبز وغيره حقا مكتسبا ومما يشير إلى أن النظرة المادية كانت هى السائدة عند الرغبة فى التنزل بالخنقاوات أن أحد متصوفة بالخانقاة البرقوقية من الحنابلة وكان يحكى أنه أجتاز حين عمارتها وهم يكلفون المارة بحمل شئ من آلات العمارة فتوقف فى ذلك وتقاعد عنه فقال له شخص احمل يا فقير ولك فيها نصيب[٥].

ولذلك لم يكن مستغربا أن تمد الأسمطة بمنشآت المتصوفة من خنقاوات كخانقاة الناصر محمد بسرياقوس[٦] وزوايا كزواية برسباى بالصحراء[٧] وزاوية الخضيرى التى كانت تمد بها الأسمطة للفقراء والمترددين عليها ، ويشرف عليهم أحد الصوفية ، فيقدم لهم الطعام ويسبل

---

[١] وثيقة بيبرس ٤/٢٢ ابن تغرى بردى ج٩ ص١٩٢ المقريزى خطط ج٢ ص٤٢ ٤١٤-٤٢٥

[٢] تطبخ باللحم والضأن السليج واللبن والقمح وكانت تفرق عليهم

[٣] طعام مصنوع من الأرز واللبن

[٤] النيسابورى ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص١٣٦-١٣٧ رحلة ابن جبيرص ص٢٦٥ وثيقة بيبرس إلى شنكير ٤/٢٢ محكمة وثيقة يشبك من مهدى ١٨٨ محكمة

[٥] السخاوى التبر المسبوك ص١٧٩

[٦] السخاوى التبر المسبوك ص٥٧

[٧] وثيقة برسباى ٨٨٠ محمد عبد الستار عثمان الأثار المعمارية ص١٩٣

عليهم الماء ولهذه الزواية شهرتها حيث كانت الصوفية ونساؤهم يعيشون معا ويقومون بإعداد الخبز والطبخ لأنفسهم[1] .

وكان الصوفية يخزنون في كل عام بحواصل الخانقاة أو الرباط مقادير كبيرة من الدهن والزيت والعسل النحل والعدس والقمح والفول والفلفل والبهار والجبن وغيرها وكذلك الشعير لدواب المترددين على المنشأة[2] للإستعمال على طول العام[3] ولذلك وجدنا ملحقا ببعض الخنقاوات والربط والزوايا مطابخ لتجهيز طعام الصوفية[4] ووجد بها أيضا حواصل لتخزين ما يرى المتصوفة تخزينه.

كذلك كان للمتصوفة ملابسهم الخاصة بهم [5] فكانوا يلبسون الدلق وهو لباس الصوفية غير سابل ولا طويل الكم ،وكانت لهم عمائمهم المميزة التي يرخون منها ذؤابة لطيفة على الأذن اليسرى لا تكاد تلحق بالكتف[6] وقد كان البعض يلبسون الفراء الكباشية لتقيهم البرد ، ولكن ظل الصوف هو نوع اللباس السائد عند المتصوفة حتى القرن ١٠ هـ/ ١٦م [7] وحتى لا يتطرف المتصوفة في ملابسهم نجد أن بعض الواقفين يشترط " ألا يكون لأحد من الصوفية زى يخالف الشرع الشريف[8] .

وقد وجد المتصوفة ألوانا شتى من الرعاية ومن مظاهر هذه الرعاية التي وجدها متصوفة الخنقاوات تلك الرعاية الصحية التي تبدأ من الإهتمام بنظافة المتصوفة ، حتى أنه كان يصرف لمتصوفة خانقاة بيبرس الجاشنكير "في كل شهر درهمان ونصف برسم غسل ثيابهم وكذلك درهمين برسم

---

[1] وثيقة الخضيري محكمة بدون رقم المقريزي السلوك ج١ ص٤٥٩ حاشية ٤

[2] وثيقة الخضيري بدون رقم المحكمة المقريزي السلوك ج١ ص٤٥٩ حاشية ٤

[3] وثيقة الناصر محمد ٤/٢٥ محكمة

[4] وثيقة برقوق ٨/٥٢ برسباي ٨٨٠ أوقاف ، الناصر محمد ٤/٢٥ محكمة

[5] المقريزي خطط ج٢ ص٤٢٢

[6] القلقشندي صبح الاعشى ج٤ ص٤٣

[7] مبارك التصوف الإسلامي ص٣٤٢ السبكي معيد النعم ص١٢٠

[8] وثيقة وقف بيبرس الجاشنكير ٢٣ محكمة

دخولهم الحمام فى كل شهر إن لم يكن حمام برسم دخولهم [1] وتمتد إلى تعيين " كحال طبائعى ومغسل " لمعالجة من يمرض من الصوفية [2] ووجد بخانقاة الناصر محمد بسرياقوس " طبيب كحال وجراح مقيم بها لمداواة المستقرين والواردين عليها من الصوفية.[3]

وقد وصلت الرعاية الإجتماعية مداها فى الخنقاوات المملوكية أن من كان يسافر كان يصرف له مبلغ لمساعدته على السفر فكان يصرف لكل صوفى من متصوفة خانقاة بيبرس الجاشنكير عند سفره للحج خمسة عشر درهما وللقدس عشرة دراهم [4] كذلك فإن السماح للواردين والمترددين بالإقامة فى خانقاة الناصر بسرياقوس ثلاثة أيام والسماح بالإستمرار فى الإقامة لمن له عذر وهذا من أروع الأمثلة على الرعاية التى لم تقتصر على المقيمين بل امتدت للواردين كذلك.

كانت هذه هى الصورة الشائعة للمتصوف والمتصوفة داخل الخنقاوات فى العصر المملوكى، وهذه الصورة لاتمنع من وجود بعض المتصوفة الذين حافظوا على آداب التصوف ولم ينظروا إلى هذه الماديات واجتهدوا فى العبادة والعمل، واقتصروا فى ملبسهم الخشن وصاروا يقنعون باليسير بالقوت الذى يقيم به أودهم كابن عرب أحد متصوفة الخانقاة الشيخونية[5] كذلك وجد بعض الصوفية الذين بالغوا فى التطرف ، فنشأت عن ذلك طائفة المجاذيب أو الدراويش فى عصر المماليك بأفعالهم الغريبة التى زعموا أنها من الدين، فحلق بعضهم رأسه ولحيته وحاجبيه وأزال رموش عينيه حتى بدوا فى صورة مخيفة أثارت دهشة من رآهم من الرحالة المعاصرين [6].

---

[1] وثيقة بيبرس الجاشنكير ٤/٢٢ محكمة

[2] وثيقة بيبرس الجاشنكير ٤/٢٢ محكمة

[3] وثيقة الناصر محمد ٤/٢٥ محكمة

[4] وثيقة بيبرس ٤/٢٢ محكمة

[5] ابن تغرى بردى المنهل الصافى تحقيق أحمد يوسف نجاتى دار الكتب سنة ١٩٥٦ ص٢٠٤

[6] د. سعيد عاشور العصر المماليكى ص٣٤٠-٣٤١

ولكن الصورة العامة للمتصوفة والتصوف هى التى كانت سائدة فى الحياة داخل الخنقاوات ، وهى الحياة التى كان المعمار المسلم على ادراك بنواحيها المختلفة ، وتوخاها عند تخطيطه للخانقاة كمنشأة يسكنها المتصوفة وخدهم ، ثم واءم بين ذلك وبين ما طرأ على الخانقاة من تطور فى وظيفتها بعد ما أصبحت تؤدى وظيفة المدرسة أو المسجد أو المسجد الجامع أيضا.

ومن الظواهر المعمارية الجديرة بالذكر أنه ألحق بغالبها ضريح أو قبة لدفن صاحبها وقد كان إلحاق ضريح بالمنشأة الدينية فى العصر المملوكى-كما ذكرنا-من أسباب إنشاء العديد من هذه المنشأت ومن بينها " الخانقاة ".[1]

كذلك ألحق بالخانقاة المملوكية ملحقات أخرى كالسبيل ومكتب السبيل وغيرها من الوحدات المعمارية الخاصة بالموظفين القائمين على إقامة شعائر الصلاة[2] أو التدريس إذا كانت تؤدى وظيفة المدرسة ، والقائمين على الخدمة والفراشة والإضاءة بل أنه ألحق فى بعض الأحيان بالخانقاة حماما لخدمة المتصوفة ، كما كان عليه الحال فى خانقاة الناصر محمد بسرياقوس [3] والخانقاة النجمية بالصحراء التى أنشأها الأمير طقزدمر النجمى [4] هذا بالإضافة إلى ما كانت تشتمل عليه الخانقاة بالضرورة من فساقى وميضأة للوضوء والتطهر ولذلك فقد كانت الخنقاوات تشغل مساحة كبيرة من الأرض لما تضمه من ملحقات فقد أنشئت خانقاة شيخو على مساحة تزيد على الفدان[5] وكانت مبانيها من أجل المبانى وزاعت شهرتها حتى أنها كانت مثالا فى نظامها لغيرها من الخنقاوات.

---

(1) من أمثلة هذه الخنقاوات الخانقاة النجمية بالقرافة وهى التى أنشأها الوزير نجم الدين محمود بن على (راجع النجوم ج١٠ص١٨٥)ج١٠ ص١٢١ ، ص١٤٢،ص١٨٣)والخانقاة التى أنشأها بيبرس الجاشنكير النجوم ج٨ص١٧٢ وخانقاة كريم الدين عبد الكريم بالقرافة (راجع ابن إياس ج١ص١٦٢ والنجوم لابن تغرى بردى ، وخانقاة أم أنوك ج٩ص٨٤ ، وخانقاة شيخو النجوم ج١٠ ص٣٠٣ ، وخانقاة مغلطاى النجوم ج٩ص٢٩١ .

(2) ابن تغرى بردى النجوم ج٩ ص٢٠٧ هامش ١

(3) ابن تغرى بردى النجوم ج٦ ص١٤٤ وثيقة الناصر محمد ٤/٢٥ محكمة

(4) المقريزى خطط ج٢ ص٤٢٥ ابن تغرى بردى النجوم ج١٠١ ص٢٨٥،١٨٤

(5) ابن تغرى بردى النجوم ج٧ ص١٣١ هامش١

وكانت الخنقاوات لذلك من المباني الدينية ذات الاعتبار فقد تسابق إلى إنشائها السلاطين والأمراء ، وكذلك السيدات فإذا كانت أم السلطان شعبان أنشأت مدرسة فإن أم أنوك الخاتون والدة الأمير أنوك بن الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أنشأت خانقاة بالصحراء تجاه تربة الأمير طشتمر الساقى فجاءت من أجل المبانى وجعلت بها صوفية[1] .

وقد كانت هذه الخنقاوات تشرف بزيارة منشئيها بين الحين والآخر فقد تعود السلطان الناصر محمد على زيارة خانقاته بسرياقوس فكانت تقام بها الاحتفالات وتمد الأسمطة ويصرف لمن بها الرواتب والعطايا[2] .

بل إن ما يدل على اعتزاز المنشئين بخنقاواتهم أن الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار الذى أنشأ خانقاة على النيل كان ينزل فى كل ليلة ثلاثاء إليها من القلعة ويبيت بها.[3]

ومما يدل على أهمية الخانقاة ما اتصل بها من أحداث العصر وفتنه ، وقد إامتد غضب السلطان الناصر محمد على بيبرس الجاشنكير إلى خانقاته فأغلقها مدة ثم أمر بفتحها ففتحت[4] كذلك امتد غضب العامة من الشعب على قوصون إلى خانقاته بباب القرافة فمنعهم صوفيتها من النهب ، فمازالت العامة تقاتلهم ونهبوا جميع ما فيها حتى سلبوا الرجال والنساء ثيابهم فلم يدعوا لأحد منهم شيئا وقطعوا بسطها وكسروا رخامها ، وأخربوا بركتها وأخذوا الشبابيك وخشب السقوف والمصاحف وشعثوا الجدر[5] وخلاصة القول أن الخنقاوات كان يعتبرها منشئوها جزءا منهم وكذلك اعتبرها الآخرون.

ثانيا : الرباط :

يعرف المقريزى الرباط فيقول إنه " بيت الصوفية ومنزلهم ، ولكل

---

[1] ابن تغرى بردى ج٩ ص١٨٧

[2] المرجع نفسه ج٩ ص٦٣ ، ص١٤٥ ابن حجر إنباء ج٣ ص٣٠-٤٢

[3] المقريزى خطط ج٢ ص٤٢٢

[4] ابن تغرى بردى النجوم ج٨ ص٢٢٦

[5] ابن تغرى بردى النجوم ج١٠ ص٤٥

قوم دار والرباط دارهم وقد شابهوا أهل الصفة في ذلك ، فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد، وعزم واحد وأحوال متناسبة ، ووضع الرباط لهذا المعنى " ثم يتكلم عن ما يفعله أهل الرباط فيقول :" وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة سبب من الأسباب وحبس النفس من المخالفات ، واجتناب التبعات ، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة ، متعوضا بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الاوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات ليكون بذلك مرابطا مجاهدا [١] وهذا يعني أن الرباط يشبه الخانقاة والزواية من حيث أنه بيتا للصوفية ، فالخانقاة -كما رأينا – عبارة عن منشأة ضخمة تضم مسجدا أو مسجدا جامعا ، وبها خلاوى ، وتتسع لعدد كبير من المتصوفة قد يصل إلى اربعمائة ، متصوف ، كما أنه يشترط فيمن يقيم بالخانقاة أن يكون متبعا لها بطريقة التصوف ، كما كان يسمح لمن بها أن يقيم أحيانا خارجها ويتكسب من غيرها ، فلا يشترط فيمن يتنزل به أن يكون تبعا لطريقة التصوف فعندما وقف بيبرس الرباط المجاور لخانقاته وقفه رباطا على " مائة نفر من المسلمين المتصفين بالفقر ، والمسلمين يكون ظان بهم الخير ، وهم متصفون بصفة أرباب الزوايا ، غير مبتدعين ما لايجوز شرعا أو عادة أو مشهور بذلك منهم ثلاثين نفرا بالصورة التي يراها الناظر والشيخ يقيمون بالرباط المذكور وباقيهم مترددون كذلك ومن جميعهم الشيخ والإمام والمؤذن والخادم والبواب ، ويقدم من يرغب في الانقطاع بهذا الرباط من عتقاء الواقف المذكور وذرياتهم من الذكور أيضا على ساير الناس أجمعين ولا يكلفون إثبات إستحقاق ولازى الفقر فإن تعذر ذلك قرر من يرغب في ال"إنقطاع من الجند البطالين من المسلمين على غيرهم [٢] وقد جاء في وثيقة الناصر محمد بن قلاوون ما يؤكد هذا ، فقد أشارت الوثيقة إلى أن الرباط يكون لسكن الصوفية أوغيرهم ، أما الخانقاة فهي المكان الذى يجتمع فيه الصوفية لممارسة وظيفة التصوف فقد جاء بها مانصه " الرباط بناحية سماسم المشتمل على ستين بيتا ، وجعله رباطا مأوى الفقراء الواردين إليه، والرباطان الباقيان المشتمل كل منهما على أحد وعشرين بيتا فإنه جعل ذلك

[١] المقريزى خطط ج٢ ص٤٢٦ ابن تغرى بردى ج٧ ص١٤٧ هامش ١
[٢] وثيقة بيبرس الجاشنكير ٤/٢٢ محكمة ، ابن تغرى بردى النجوم ج٨ص١١٤

رباطين برسم سكنى الفقراء الصوفية المقيمين بهذا المكان المذكور على الدوام والإستمرار[١] وواضح من هذا النص أن كلمة " الرباط " أطلقت على المجموعات السكنية الثلاث بهذه المنطقة لأنها جميعا تستعمل للمرابطة " بمعنى الإقامة " ولكن اختلفت نوعية المقيمين بالرباط الأول عن المقيمين بالرباطين الآخرين ، فالأول للعابرين ووصفهم بالفقراء دون أن يحدد إن كانوا صوفية أولا ولوكان يقصد بالفقراء هنا الصوفية على اعتبار أن لقب " الفقير " من ألقابهم لما حدد بالنسبة للرباطين الآخرين " الفقراء الصوفية " ومن هنا يمكن أن نقول أن الرباط هو مأوى للصوفية أو لغيرهم من الفقراء ، ويؤكد ذلك ما جاء بالنص الأول عندما تكلم الموثق عن عتقاء الواقف وتنزليهم بالرباط بقوله " ويقدم من يرغب فى الانقطاع بهذا الرباط من عتقاء الواقف المذكور وذرياتهم من الذكور عن ذريتهم عن سائر الناس أجمعين "ولا يكلفون إثبات استحقاق ولازى الفقر " أى أن الرباط كان يقبل من يثبت استحقاقه وحاجته ويؤكد هذا الفارق بين الخانقاة والرباط ما نراه من ازداوجية وقف كل من بيبرس الجاشنكير والناصر محمد بن قلاوون لرباط وخانقاة متجاورين مختلفين فى شرط الواقف ، وهو أمر وسع به كل من الواقفين نطاق برهما ورعايتهما للصوفية والفقراء على حد سواء.

ومن مقارنة نوعية من يلتحق بالرباط التى وصفها السهرودى فى كتابه "عارف العوارف" وبين تلك النوعية التى تحددها شروط الوقف فى كل من وثيقتى وقف بيبرس الجاشنكير والناصر محمد بن قلاوون ، نجد أن الرباط أصبح فى العصر المملوكى كما لو كان مأوى الفقراء المسلمين أوعتقاء الواقف أو الجند البطالين الذين " لايكلفون إثبات استحقاق أو زى الفقر " وهو نوعية تتصف بصفات تختلف عن المقصود بكلمة المتصوفة أو المتزمين بآداب المتصوفة وطرائقهم التى كانت متبعة فى الربط أيام السهروردى ، أو تلك التى كانت متبعة فى الخنقاوات فى عصر المماليك أنفسهم. ويتأكد هذا المعنى من دراسة الربط الخاصة بالنساء والتى كانت "

[١] وثيقة الناصر محمد بن قلاوون ٤/٢٥ محكمة

المودع للنساء والأرامل " أى ملاجئ لهن[1] وكان من الطبيعى أن يمارس سكان الرباط نشاطهم الدينى نظرا لانقطاعهم عن الحياة ، ولكن بصورة تختلف عن وظيفة التصوف بالخانقاة ، فلم يشترط الواقفون شرطا معينا لنشاط المقيمين بالرباط ، وكان لانعزال المقيمون بالرباط وممارستهم للشعائر الدينية ولاشتداد تيار التصوف أثره فى إحداث نوع من التقارب بين كل من الخانقاه والرباط ، وبمرور الزمن بانحدار التصوف أصبح متصوفة الخانقاه لايختلفون كثيرا عن المقيمين بالرباط ودأب البعض على إنشاء الربط وإنزال عدد قليل من المتصوفة أو الفقراء بها مضاهين بذلك من أنشأوا الخنقاوات التى كان بها من الصوفية ما يماثل من حيث العدد فى بعض الحالات ما يوجد بالربط كخانقاه المؤيد شيخ المعروفة بالخانقاة الخروبية والتى لم يزد عدد الصوفية بها عن عشرة أفراد ،[2] وخانقاة برسباى بالصحراء التى كان بها سبعة عشر متصوفا ،[3] ولكن ظل الفارق الوحيد بينهما أن الخانقاة بعد أن تطورت نوعية المتصوفة بها لأن يصبحوا[4] "الصوفية من طلبه العلم الشريف" أو "الطلبة المتصوفة" أصبحت تعد أجيالا من الفقهاء الصوفية ، أما الرباط فقد أقتصر على وظيفة التعبد وتقديم لون من الرعاية للمقيمين به سواء من المتصوفة أو الفقراء أو الجند البطالين أو عتقاء الواقف ،

وقد انسحب على بعض الأربطة فى العصر المملوكى ما نراه شائعا فى المنشآت الدينية المملوكية بصفة عامة ، من تأدية المنشأة لأكثر من وظيفة، فقد كان رباط الأفرم الذى أنشأه الأمير عز الدين أيبك سنه ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م يقوم بوظيفة المسجد الجامع ، فيذكر تقى الدين المقريزى أنه "رتب

---

(1) د. سعيد عاشور . العصر المماليكى فى مصر والشام ص٣٤١

(2) وثيقة المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف ،

(3) وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ،

(4) درس هذا الرباط ، وقد حدد المقريزى موقعه بأنه كان بسفح الجرف الذى عليه الرصد وهو يشرف على بركة الحبش (المقريزى خطط جـ ٢ ص ٤٣٠) ويمكن تحديد مكانه حاليا فى المساحة التى تقع شرقى محطة الساحل القبلى بسكة الحديد حلوان الواقعة تجاه سكن ناحية أثر النبى من الجهة الشرقية حيث يقع جبل الرصد الذى يعرف اليوم بأسم جبل إصطبل عنتر بالقاهرة (أبن تغرى بردى، النجوم جـ٨ ص ٨١ هامش١)

فيه صوفية وشيخا وإماما وجعل فيه منبرا يخطب عليه وقت صلاة الجمعة والعيدين"[1] وكذلك كان يلحق منشئى الربط أضرحة بها ليدفنوا بها.[2]

وقد بدأ ظهور الأربطة كمنشآت للتصوف بشرق العالم الإسلامى منذ نهاية القرن ٤هـ/ ١٠م وبداية القرن ٥هـ/ ١١م ، ثم أكثر الأيوبيون من إنشائها ضمن ما أنشأوه من منشآت لتدعيم المذهب السنى ، ومما يدل على كثرتها فى ذلك العصر أن الشيخ الزاهد شهاب الدين أبو حفص الذى توفى سنه ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م.

يذكر صاحب النجوم أنه "ولى عدة ربط للصوفية [3] كذلك فإن السيدات أقبلن على إنشاء الأربطة ، فقد أنشأت عصمة الدين خاتون بنت عصمة الدين آثر زوجة السلطان صلاح الدين بدمشق "مدرسة للحنفية ورباطا للصوفية.[4] كذلك يذكر صاحب النجوم أن ست الشام أخت صلاح الدين كانت "صاحبة الأوقاف والأربطة بدمشق وغيرها.[5]

وقد سار المماليك على نهج سلفهم الأيوبيين فى إنشاء هذه الربط ولعل من أشهر أمثلتها بالقاهرة رباط الأفرم ورباط الآثار[6] ورباط أحمد بن سليمان الرفاعى[7] والرباط المجاور لخانقاة بيبرس الجاشنكير[8] ورباط

[1] المقريزى: خطط جـ٢ ص ٤٣٠ ، ابن تغرى بردى النجوم ص٨١

[2] ابن تغرى بردى النجوم جـ٦ ص ١٩٨

[3] ذكر المقريزى أن هذا الرباط خارج مصر بالقرب من بركة الجيش مطل على النيل ، ومجاور للبستان المعروف بالمعشوق ، عمره الصاحب تاج الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين على ابن حنا "بكسر الحاء" مات رحمه الله سنه ٧٠٧ هـ/١٣٠٧م قبل أن يكمله فأكمله ولده ناصر الدين محمد ، وقيل له رباط الآثار لأن الصاحب صلى الله عليه وسلم ووصفها فى الخزانة بهذا الرباط تعرف بها ، وهذا الرباط عمر عدة مرات ولأيزال موجودا وعامر بإقامة الشعائر الدينية بأسم " جامع أثر النبى بقرب منطقة أثر النبى الواقعة على النيل جنوبى مصر العرب القديمة راجع النجوم جـ٩ ص ١٦١ ، خطط جـ٢ ص ٤٢٩)

[4] ابن تغرى بردى النجوم جـ٥ ص ٢٣٨ ، جـ٥ ص ٢٧٧ ، ص ١٦٧

[5] ابن تغرى بردى النجوم جـ٦ ص ١٠٩

[6] ابن تغرى بردى النجوم جـ٦ ص ٢٤٦

[7] أنشئ هذا الرباط سنه ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م وهو من أقدم الآثار التى تنسب إلى الطريقة الرفاعية إحدى طرق التصوف وقد تبقت أجزاء من هذا الأثر رقم ٢٤٥ والذى يقع بحارة متفرعة من شارع سوق السلاح ناحية ميدان القلعة

[8] زال هذا الربط ومكانه اليوم الوكالة التى أنشأها سليمان أغا السلحدار سنه ١٢٢٣هـ/

الناصر محمد بخانقاة سرياقوس ، ورباط زوجة إينال ، وغيرها الكثير ومعظم هذه الأربطة درست مع الزمن ، ولم يتبق منها أمثلة تكفى لدراستها وتحليلها من الناحية المعمارية .

ولم يكن الرجال وحدهم هم المقبلون على إنشاء الربط ، فقد اهتمت كثيرات من السيدات بإنشاء هذا النوع من المباني الدينية ، ووجد فى العصر المملوكى أربطة الرجال وأربطة للسيدات ، كان للسيدات حق الإلتحاق بها، والإقامة داخلها يؤدين فرائض الدين ، ويتعبدن تعبد المتصوفة وكانت هذه الربط الخاصة بالنساء أقرب ما تكون إلى ما يسمى حدثيا ، بمؤسسات الرعاية الإجتماعية " خاصة وأن الملتحقات بهاعادة يكن من الأرامل وممن أقعدهن العوز والحاجة . ومن أشهر الربط المملوكية الخاصة بالسيدات رباط البغدادية[1] ورباط زوجة إينال وغيرها .

وقد ينشأ الربط لشخص بذاته .[2] أو أن ينشئ الشيخ الرباط لنفسه .[3] وكان لكل رباط شيخ يتولى شئونه ، وينزل معه من الفقراء أو المتصوفة العدد الذى يحدده الواقف حسب إمكاناته ، وكان الرباط يشتمل على مسجد للصلاة تؤدى به شعائرها فى الأوقات المختلفة ويندر أن تقام الصلاة الجامعة به ، فلم نجد مثالا عير رباط الأفرم أقيمت به "خطبة" وكان يلتحق بالرباط مساكن للصوفية والفقراء المقيمين به [4] وكان يلحق به أيضا وحدات الخدمات

(=) ١٨٠٨ م والتى لا تزال موجوده تحت أسم حوش عطى (راجع ابن تغرى بردى النجوم جـ٨ ص ١٧٢ هامش١)

[1] ذكر المقريزى فى خططه أن هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر الواقع تجاه خانقاة بيبرس الجاشنكير حيث كان المنحر وبعضهم يقول رواق البغدادية ، أنشاته الست جليله تذكار باى خاتون إبنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فى سنه ٦٨٤هـ للشيخه الصالحة زينب أبى البركات المعروفة ببنت البغدادية وإليها نسب هذا الرباط فنزلت به هى ومعها النساء الخيرات إلى أن تلاشت أموره وكان فيه إلى زمن المقريزى بقايا خير (المقريزى. خطط جـ٢ ص ٤٢٧) وبالبحث تبين ان هذا الرباط قد خرب واعتدى الناس على أرضه ولم يتخلف منه إلا بقايا فبتين قد يدخل من أحدهما إلى الأخرى ويطلق عليهما أسم زواية الشيخ عثمان السطوحى بحارة الدرب الأصفر بقسم الجمالية (راجع ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ٢٦٦ هامش ١)

[2] ابن تغرى بردى النجوم جـ٦ ص ١٠٩

[3] ابن تغرى بردى جـ النجوم جـ٦ ص ٢٤٦

[4] وثيقة الناصر محمد ٤/٢٥ محكمة وثيقة بيبرس الجاشنكير ٤/٢٢ محكمة المقريزى. خطط جـ٢ ص ٤٢٦

الأخرى كالميضأة والفسيقة والمطبخ وغيرها[1] وكانت أربطة النساء تصير على نفس الحال ولكنها كانت مختصة بهن[2]، وخلاصة القول أن المماليك اهتموا بإنشاء ورعاية هذه الربط كنوع من منشآتهم الدينية واهمتوا بإنشائها بجانب غيرها من المنشآت[3]، لما تؤديه من خدمات لفئات قد لاتجد لها نصيبا في غيرها من المنشآت.

الزوايـة

انتشرت الزوايا في العصر المملوكي كنوع من أنواع منشآت التصوف ، وكانت تنشئ الزواية في الغالب برسم سخص معين ينقطع فيها للعبادة ، مثال ذلك زواية الشيخ خضر التي أنشأها الظاهر بيبرس خارج القاهرة وأوقف عليها أوقافا تغل في السنة نحو الثلاثين ألف درهم وأنزل بها الشيخ خضر ابن أبي موسى المهران العدوي الذي توفي سنه ٦٧٦هـ/١٢٧٧م ، وكان الظاهر قد أسس لهذا الشيخ عدة زوايا بالشام[4]، وهذا يدل على أن تقدير السلاطين والأمراء للشيوخ كان من الأسباب التي أدت إلى إنشاء العديد من الزوايا ، كما أنه يشير إلى أنه من الممكن أن تنشأ لشيخ واحد أكثر من زوايّة في أكثر من بلد.

وكان من الطبيعي أن يلتف حول الشيخ الزاهد بعض مريديه ومحبيه يلازمونه ، ويأخذون العهد على يديه فأصبحت الزواية مقرا للشيخ المنقطع للعبادة من ناحية ومقرا لبعض مريديه من ناحية أخرى ، وبالتالي أصبح مثلها مثل الخانقاة والرباط من حيث كونها بيت العباد المنقطعين ، ولكن وجه الاختلاف أن الزواية مخصصة لشيخ بعينه أو طريقة من طرق التصوف بعينها ، كما أن هذه الزوايا اختلفت في الغالب فيما بينهما عن غيرها في تقاليدها عن باقي الزوايا الأخرى باختلاف شيوخها أو الطرق المختصة بها في حين أن الخنقاوات تشابهت جميعا في تقاليدها وآدابها.

وكان لتعدد طرق التصوف وتنوعها أثره في انتشار هذه الزوايا

---

[1] وثيقة جهاركس القاسمي ١١/٦٤

[2] ابن تغري بردى النجوم جـ٩ ص ٢٦٦

[3] ابن تغري بردى النجوم جـ٩ ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، جـ٧ ص ١٩٥

[4] المقريزي. خطط جـ٢ ص ٤٣٠

وتعددها ، فقد أنشئت للطرق المختلفة كالقادرية والأحمدية والرفاعية زوايا لتخدم تابعيها ومريديها . فقد كانت الطريقة الرفاعية من أكثر هذه الطرق انتشارا فى مصر تدل على ذلك تلك الآثار التى تبقت عنها وتلك الأوقاف الكثيرة التى وقفت على أتباعها حتى أنها مازالت باقية إلى اليوم واسعة الانتشار . وقد كان للتعاليم التى تختص بها هذه الطريقة وغيرها من الطرق أثرها على التخطيط المعمارى للمنشآت الخاصة بها . ولما كانت الطريقة الرفاعية من أكثر الطرق انتشارا فى مصر ، وما تبقى لها من آثار يفوق غيرها من الطرق فيحسن بنا أن يشير تفصيلا لهذه الطريقة لنبين أثر تعاليمها على تخطيط المنشآت الخاصة بها .

الطريقة الرفاعية

تنسب الطريقة الرفاعية إلى الإمام أحمد الرفاعى صاحب الطريقة وقد ولد رضى الله عنه بقرية " حسن" من أعمال " واسط" [1] بالعراق وكانت وفاته فى ظهر يوم الخميس الثانى عشر من جمادى الأول سنه ٥٧٨هـ/١١٨٢م وكان عالما وفقيها ، وانتشرت مبادؤه وتعاليمه فى العالم الإسلامى كله شرقه وغربه .

ومن تعاليم الرفاعى التى ينادى بها ، ما قاله الرفاعى "من أن نهاية طريق الصوفية نهاية طريق الفقهاء ، وعقبات القطع التى إبتلى بها الفقهاء فى الطلب هى العقبات التى ابتلى بها الصوفية فى السلوك ، والطريقة هى الشريعة والشريعة هى الطريقة والفرق لفظى والمادة والمعنى والنتيجة واحدة."[2] وفى هذا النص ما يشير إلى دعوة الإمام الرفاعى إلى عدم وجود خلاف بين الفقهاء والمتصوفة وهو الخلاف الذى اشتد فى أواخر القرن ٤هـ/١٠م ويبدو أنه كان لهذه التعاليم وغيرها من الظروف كامتداد الخطر الشيعى على الشرق السنى أثره فى تقريب وجهات النظر بين الفقهاء والمتصوفة وهو التقارب الذى انتهى بالتصالح التام والذى كان من نتائجه أن

---

[1] الشيخ محمود أحمد الخرمة تذكرة السامعين ومفيد السالكين ص ٢-٨ وللاستزاده عن ترجمة الرفاعى راجع ابن تغرى بردى النجوم جـ٦ ص ٩٢-٩٣

[2] الإمام أحمد الرفاعى البرهان المؤيد

أصبح المتصوفة من طلبة العلم الشريف أو أن نجد " الطلبة المتصوفة،" والذين نشأوا فى الخنقاوات التى أصبحت تؤدى وظيفة المدرسة أو المدرسة التى تؤدى وظيفة الخانقاة فى عصر المماليك.

وقد كان مذهب الرفاعية فى الملبوس " ستر العورة بأى شئ كان من الملبوس لقوله عليه السلام " إن اللـه يحب كل مُتَزِّل لا يبالى أيما يلبس [(١)] ولكن كان لهم ما يميزهم فى شارات الزى عن غيرهم ، فقد كانت عمائمهم سود، ويقال أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى أمر الرفاعى قطب الطريقة بلبس الشاش الأسود [(٢)] كما كانت لهم شارات ينصبونها كالبيرق الأحمدى ، الذى كانوا إذا أرادوا نصبه فإنهم ينصبونه على شكل الهلال [(٣)] وكان هذا العلم الذى يرفعونه أبيض وأسود ، ولأتباع الطريقة الرفاعية مواسمهم التى يحتفلون بها بالاجتماع علنا وجهرا فى ذكر الله تعالى فى ليالى الجمعة وليلة الإثنين وعمل المحيا فى ليالى الاعتكاف ، والفرح بالله فى الأيام المباركة والليالى السعيدة مع إخوانهم ومحبيهم.

وقد أعتادوا دق الدف فى هذه الأيام المذكورة والليالى المبرورة المباركة ، واصطلاحهم مبنى على الكتاب والسنة ، وضرب الدف مباح عند الأئمة لأنه ضرب بين يدى النبى (صلى الله عليه وسلم) ولم ينهاهم عن ضربه ن وأما ضرب السيوف والطعن بالدبوس فهو للسيد الرفاعى وأتباعه ، فان كانوا مخلصين فى أعمالهم فهى لهم كرامة وإن كانوا غير ذلك فهى للشيخ[(٤)] .

وأما الطعن بالدبوس ففى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت " اجتمع نفر من الحبشة ذات يوم فى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكانوا يطعنون بالحراب والدرق ورسول الله ناظرا إليهم وأنا ناظرة إليه[(٥)].

---

(١) محمد أحمد الحرمة تذكرة السامعين ص٣١

(٢) المرجع نفسه ص٦

(٣) المرجع نفسه ص٢٧

(٤) أحمد الرفاعى البرهان المؤيد ص٤–ص٤٧

(٥) محمود أحمد الحرمة تذكرة السامعين ص٣٤–٢٥

وهكذا كان أتباع الرفاعية يجتمعون ويضربون بالدف ويغني الحادى السماع ، ويندمج معه الحاضرون ويهتزون كالملائكة حول العرش ، وقد كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا ذكر الله تعالى ، تمايلوا يمينا وشمالا كتمايل الشجرة فى الربيع العاصف ، ثم يرجعون وراء وكان أتباع الرفاعية كذلك.

ولكن يبدو .أن الرفاعية كانوا يبالغون في ذلك ن حتى أننا نرى أن السلطان جمقق أصدر مرسوما فى ١٧ ذى القعدة سنة ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٩م يأمر فيه راجح بن الرفاعي وجماعته بعدم فعل مالا يجوز كالمزمار والتشبيبة والرقص فى زواياهم ، بمقتضى مرسوم سأل فيه أولا الشيخ عبد القادر الكيلانى بعد أن حكم عليهم قاضى الحنابلة بذلك ، وهو الأمر الذى يبين لنا حالات التطرف التى كان من حق السلاطين التدخل لمنعها وبمراسيم رسمية.

بل أن حالات التطرف هذه وجدت أيضا نوعا من الأشمئزاز عبر عنه الشعراء فقال أحدهم :

الضرب بالطار والتشبيب بالقصب	شيئان قد عرفا باللهو والطرب
إنى لأعجب من قوم ....وطيشهم	وإن أمرهم من أعجب العجب
ومطر بانين لا تصغى لقولهما	فالشرع حرم الإصغاء للطرب
إن نقروا الطار مشوا يرقصون له	شبه القرود ألا سحقا لمرتكب
صوفية أحدثوا فى ديننا لعبا	وخالفوا الحق دين المصطفى العرب
ومن أقتدى بهم قد ظل مثلهم	سحقا لمذاهبهم لو كان من ذهب
أهل المراقص لا تأخذ بمذهبهم	فقد تمادوا على التمويه والكذب[1]

وأيا كانت الحال فإن هذه الأبيات ، تصور ما كان يفعله هؤلاء المتصوفة فى إجتماعهم الذى كان يضم ما يشبه الفرقة الموسيقية كالمزمار أو التشبيه أو الطار ، وإثنان يرددان السماح والمديح ، والرفاعية يتواجدون ويهتزون فى حركة يمشون خلالها وهذه أمور تستوجب كلها بالإضافة إلى عدد المريدين الكبير ساحة أو قاعة كبيرة لهم يقيمون بها هذه الاجتماعات الحافلة ، وكانت القبة الكبيرة من أنسب الأشكال المعمارية التى تتسع لهم ولحركاتهم وأصواتهم بصورة ملائمة.

---

[1] السخاوى التبر المسبوك ص٢٢٠

وكان من تعاليم الرفاعى إلى مريديه أن يعظموا نعمة الطعام والشراب والثياب وهو الأمر الذى أدركه السلاطين والأمراء الذين شملت رعايتهم هؤلاء الرفاعية ، فعملوا على تحقيق تلك المآرب لأتباع الرفاعية ، فنجد برسباى مثلا ينشئ مطبخا ضمن وحدات مجموعته المعمارية التى تشتمل عليها قبتهم ، ويوقف عليهم من الأوقاف الكثيرة " لعمل كلفة طهاة لهم"[1].

وقد انتشرت الطريقة الرفاعية لأنها تقوم على أساس من الكتاب والسنة ، كما أنها لا تسمح لأتباعها بالإنضمام إلى أى طريقة أخرى[2] لذلك انتشرت وظلت قوية على مر العصور وقد أهتم بها سلاطين وأمراء المماليك فى مصر فوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة ، ومن أمثلة هؤلاء السلطان برسباى، والأمير يشبك من مهدى الذى وقف فى سنة ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩م على السادة الرفاعية بالقاهرة والمنوفية ، وقفه المشهور بوقف يشبك وبنى للشيخ عز الدين الرفاعى زاوية ومقاما[3] ويبدو أن الرفاعية كان لهم عظيم شان " تدل على ذلك كتب الطبقات التى اختصت بالرفاعية ككتاب " تنوير الأبصار فى طبقات السادة الرفاعية الأخيار " للسيد محمد أبو الهدى الصيادى الرفاعى " كذلك فإن المقريزى فى سلوكه سجل تاريخ وفاة شيخ الرفاعية نور الدين على فى العشرين من جمادى الأخرة سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م عن خمس وستين سنة وهو أمر يدل على ما كان لهؤلاء الرفاعية من مكانة.

ومما يدل على انتشار الطريقة الرفاعية بأنحاء البلاد ، تعدد وكثرة زواياهم وتشير إلى ذلك المصادر التاريخية ، فقد ذكر السخاوى أن السلطان جقمق فى سنة ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م أمر راجح بن الرفاعى وجماعته بعدم فعل ما لا يجوز كالمزمار والتشبيبة والرقص فى زواياهم بمقتضى مرسوم[4] وذكر لفظ "زواياهم" بالإضافة إلى أن المنع كان بمرسوم سلطانى، أمر يشير إلى تعدد هذه الزوايا وكثرتها ، والحقيقة أن تعدد الآثار الباقية بمدينة القاهرة والتى سلمت من عوادى الزمن ، وتعكس ما كان لهذه الطريقة الرفاعية من

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٢٨٤
[2] محمود أحمد الخرقه تذكرة السامعين ص٢٥
[3] السخاوى التبر المسبوك ص٢٢٠
[4] السخاوى التبر المسبوك ص٢٢٠

رعاية واهتمام لدى السلاطين والأمراء فقد تبقى من هذه الآثار أربعة منشآت أثرية ثلاثة منها مؤرخه ومعلوم تاريخ تشييدها وهى على التوالى رباط أحمد بن سليمن الرفاعى . وهذا الأثر يرجع إلى عصر المماليك البحرية وتاريخه ٦٩٠ هـ/١٢٩١م وهو أقدم الآثار الرفاعية فى مصر ، ثم التكية الرفاعية وهذا الأثر يرجع إلى عصر الأتراك العثمانين وتاريخه سنة ١١١٨هجرية/ ١٧٧٤م ، أما ثالث هذه الآثار فهو مسجد الرفاعى بالقاهرة ويقع أمام مدرسة السلطان حسن ويرجع تاريخ إنشاؤه إلى سنة ١٢٨٦هجرية ١٨٩٦م حيث أمرت بإنشائه والدة الخديوى إسماعيل ، وهو يضم زاوية مقامة قبل إنشائه تضم رفاة الشيخ " على أبو الشباك " أحد أقطاب الرفاعية بمصر فى العصور الوسطى الرفاعية التى شيدها السلطان برسباى سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٣٢م ٨٣٦هـ[1] وهكذا تستمر آثار الرفاعية فى العصور المختلفة سواء عصر المماليك البحرية أو المماليك الشراكسة أو فى عهد الأتراك أو فى العصر الحديث. ووجود هذه الآثار على فترات متباعدة واستمرار وجودها يدل على استمرار الطريقة الرفاعية وانتشارها فى هذه العصور ، ثم إنه يدل من جهة أخرى على أن كانت توجد آثار كثيرة لهم لم يسلم منها إلا هذه الأمثلة الباقية المعروفة.

وقد كان القطب الرفاعى مثلا يحتذى به مريدى طريقته ، والمعروف أن الرفاعى بدأ أسفارا طويلة فى طلب العلم وحبا فى رجال التصوف وإلتقى بالكثير منهم.[2] وكذلك كان مريدوه الذين رحلوا فى طلب العلم أينما وجد ، ولما كانت مصر في العصر المملوكي مركز إشعاع علمى ودينى ، وإزدهر بها حال المتصوفة لذلك رادها أهل العلم والدين والتصوف من شرق العالم الإسلامى وغربه وكانوا يعيشون بأمثال هذه الزوايا وقد كان الأعاجم من هذه

---

[1] قمت بتحديد هذا التاريخ بناء على الدارسة الأثرية التى قمت بها لهذه القبة وصححت خطا نسبتها إلى الأمير يشبك بن مهدى (راجع محمد عبد الستار عثمان الاثار المعمارية للسلطان برسباى بمدينة القاهرة رسالة ماجيستير ص١٨٨-٢٠٤ وأثبت أنشاء برسباى نها.

[2] أحمد الرفاعى . البرهان المؤيد ص ٣

الفئات ، وقد وردوا إلى مصر فهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف.[1] وقد وجد هؤلاء فى مثل هذه الزوايا إن كانوا من الرفاعية أو فى غيرها من المنشآت الخاصة بالتصوف المقام المعد والحياة الرغدة.

وكان لتعاليم الرفاعى أيضا أثرها فى أن ينبرى أهل الخير إلى إلى رعاية أولياء الله ، فقد كانت نصائحه لهم بالتقرب إلى أولياء الله فقد قال "عليكم بالتقرب من أولياء الله ، من والى ولى الله والى الله ومن عادى ولى الله عادى الله.[2]

ولما كان الرفاعى من العراق أصلا فقد كان انتشار طريقته بخاصة فى بلاد المشرق وأهمها بلاد فارس أكثر من أى بلد خر ، وقد جاء كثير من مريدى الرفاعية من بلاد فارس إلى مصر وأقاموا بزواياها.[3] ولذلك كانت توقف هذه الزوايا عادة اللقاطنين والواردين.[4] كذلك كانت زواية زين الدين يوسف التى كانت تختص بالطريقة العدوية ومريديها وهى تعتبر من أشهر الزوايا التى تبقت عن العصر المملوكى.

وقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم بإنشاء الزوايا بصفة عامة سواء التى كانت تنشأ لشيوخ بعينهم أوتلك التى أنشئت لطُرق وفرق مختلفة ، ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة التى تكفل استمرارها فى أداء وظيفتها ، ونورد لذلك بعض الأمثلة التى تدل علي هذا الاهتمام ، فمن هؤلاء السلاطين الظاهر بيبرس الذى أنشأ زواية للشيخ خضر ، والذى كان له اهتمام بالغ بالفقراء والزوايا والأربطة.[5] كذلك فإن الملك المنصور حسام الدين لاجين أنشأ زوايه لشيخ تقى الدين رجب العجمى سنه ٦٩٧هـ/١٢٩٨م وهى الزواية التى اهتم

---

[1] ابن بطوطة. تحفه الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ١ ص ١٩

[2] أحمد الرفاعى البرهان المؤيد ص ٢٦

[3] قد يترك هؤلاء المقيمين أثارا تدل على إقامتهم مدة بهذه الزوايا كتلك الكتابات الفارسية التى وجدت على جدران القبة الرفاعية والتى من دراستها يمكن التعرف على نوعية حياة هؤلاء المتصوفة وتسجل تاريخ القبة فى فترة من فترات تاريخها (محمد عبد الستار. الآثار المعمارية للسلطان الأشراف برسباى بمدينة القاهرة ص ١٩٩-٢٠٤).

[4] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٢٨٤

[5] ابن تغرى بردى. النجوم جـ٧ ص ٢١٣-١٦١

بها من جاء بعده من السلاطين ، كما تدل على ذلك تلك الكتابات المحفورة بالرخام على جدرانها ، فقد وسع مصلاتها الناصر محمد بن قلاوون سنه ٧٢٦هـ، ١٣٢٦م.

كما أن الملك الظاهر أبا سعيد جقمق جددها سنه ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م [١] ولعل اشتراك هؤلاء السلاطين الثلاثة بأمر هذه يؤكد ما نشير إليه من اهتمام السلاطين بإنشاء الزوايا وتجديدها ومن السلاطين الذين أنشأوا أيضا زوايا السلطان برسباى الذى أنشاء زواية للرفاعية ضمن منشآته بالصحراء والذى كانت له رعاية واهتمام خاص بأرباب الزوايا فوقف بعض الأوقاف على زواية الشيخ خضر وصريح ذى النون المصرى[٢] كما أن السلطان قايتباى أنشا أكثر من زواية ، فقد أنشا زواية بمنطقة كوم الريش دهنت حيطانها من الخارج باللون الأحمر فعرفت بالزواية الحمراء وهو الاسم الذى أطلق فيما بعد على المنطقة كلها التى تقع بها هذه الزواية فعرفت بالزواية الحمراء.[٣] وكانت له كذلك زواية بالمرج[٤] وقد حذا الأمراء حذو سلاطينهم فاهتموا بإنشاء الزوايا ورعاية شئونها ومن هؤلاء الأمير طغاى الذى عمر زواية سنه ٧٢٠هـ نزل بها الشيخ إبراهيم الصائغ الذى ظل بها إلى أن مات فعرفت به.[٥] ومن هؤلاء الأمراء الذين اهتموا بالزوايا ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة جمال الدين الأستادار الذى اهتم بشئون زواية الخدام وعين لها من الموظفين

---

(١) ابن تغرى بردى النجوم جـ١٠ ص ٢٨ هذه الزواية أنشئت للشيخ تقى الدين رجب العجمى الذى توفى سنه ٧٢٤هـ/١٣٢٤م وهذه الزواية لاتزال موجودة إلى اليوم بدرب اللبانه المتفرع من شارع المجحر تحت القلعة وتعرف هذه الزواية بتكيه العجمى أو تكية تقى الدين البسطامى أحد مشايخها السابقين المتوفى سنه ٩٠٥هـ/١٤٤٩م وهى عامرة بالشعائر الدينية إلى اليوم.

(٢) وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٣٥-٢٨٤

(٣) ابن تغرى بردى. النجوم جـ٩ ص ٢٠٣ هامش ١

(٤) وثيقة قايتباى ٨١٠ أوقاف

(٥) المقريزى. خطط جـ٢ ص ٤٣٣ ، ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ١٨٩ وبالبحث تبين أن هذه الزواية تعرف اليوم بجامع لاجين اللالا بشارع مراسينا بالقاهرة ، وورد فى ترجمة لاجين اللالا الزرد كاش بكتاب المنهل الصافى أنه عمر جامعا بالقرب من الكبش على بركة الفيل سنه ٨٥٢هـ/١٤٤٨م وتوفى سنه ٨٨٦هـ/١٤١٨م (راجع ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ١٨٩ هامش ١

من يقوم بمهامها[١] وقجماس الإسحاقى الذى اهتم بزاوية الشيخ موسى خارج باب النصر وعين لها إماماً وقيم ومزملاتى ، وثمن آلة برسم الماء ، وثمن زيت لأضاءة الزواية[٢] والأمير يشبك من مهدى الذى يقال إنه أنشأ زواية لأحد شيوخ الرفاعية ومقاما ، كما أنه وقف أوقاف كثيرة على أتباع الطريقة الرفاعية[٣]

ولم يقتصر إنشاء الزوايا على السلاطين والأمراء بل أن العامة كانوا أقرب إلى إنشاء الزوايا[٤] فهى صغيرة الحجم أقل تكلفة من الخانقاة أو الرباط، ثم إن منشئها لابد وأن يكون قوى الاعتقاد بشيخ معين أو طريقة من طرق التصوف، وهو أمر يناسب حال العامة والطبقة المتوسطة التى تشكل قطاعا لا بأس به، ولذلك كثرت الزوايا وتعددت ، ومن الشيوخ من أنشأ الزوايا لنفسه مثل الشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنجى الناسك الذى كان فقيها معتزلا عن الناس متخليا للعبادة يتردد إليه أكابر الناس وأعيان الدولة الذى أنشأ لنفسه زواية خارج باب النصر.[٥]

وكانت الزواية غالبا ماتنشأ لشيخ بعينه ، ومن هؤلاء الشيوخ البارزين الذين أنشئت لهم زوايا الشيخ حسن العجمى القواليجى القلندرى الذى عمرت له زواية خارج باب النصر تعرف بالزواية القلندرية.[٦] ومن مشاهير الشيوخ الذين كانت لهم زوايا أيضا الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن حسن بن كر الحنبلى (ت٧٥٩هـ/١٣٥٨م) إمام أهل الموسقى وكان صوفيا كانت له

[١] وثيقة جمال الدين الأستادار ١٠٦/١٧ محكمة
[٢] وثيقة قجماس الإسحاقى ٦٧٠ أوقاف
[٣] حسن قاسم المزارات الإسلامية جـ٤ ص ٢٨
[٤] وثيقة ٨٥١ أوقاف
[٥] المقريزى خطط جـ٢ ص ٤٣٢ ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ٤٤ إندثرت هذه الزواية وكانت تقع بجوار قبة الشيخ يونس فقد ذكر السخاوى أنها كانت تقع بجوار تربة أمير الجيوش بدر الجمالى وهذه التربة هى التى تعرف اليوم بقبة الشيخ يونس (النجوم جـ٩ ص ٢٤٤ هامش ١)
[٦] ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ٢٥٩ توفى هذا الشيخ سنه ٧٢٢هـ ويذكر صاحب النجوم نقلا عن إسماعيل بن كثير فى تاريخه أنه كان قريبا من خاطر الملوك لاسيما أهل بيت الملك المنصور قلاوون (النجوم جـ٩ ص ٢٥٦) وكان له فيما يبدو تابعين سماهم المقريزى "طائفة القلندرية" وكانت هذة خاصة بهم (المقريزى خطط، جـ٢ ص ٤٣٣)

زاوية عند مشهد الحسين بالقاهرة ، والشيخ شهاب الدين أحمد بن الشيخ القدوة برهان الدين إبراهيم الخضيري الذي توفي سنه ٧٠٢هـ١٣٠٢م والذى كانت له زاوية خارج باب النصر وغيرها كثير من الزوايا.[١]

ومن هؤلاء الشيوخ من انقطع بزاويته للعبادة.[٢] ومنهم من جمع حوله عددا من المريدين الذين يتلقوا ويتبعون طريقته في العباده والتصوف، ولذلك وجد بالزوايا حلقات الذكر والسماع.[٣] التي كانت مجالا واسعا للفن والأدب ، فهم فضلا عما كانوا ينشدون فيها من أشعار ، قد عبروا منه للمناجاة بما تميز به تسبيحهم ودعاؤهم من حرارة وصدق ، وأكثر من ذلك فإنهم في هذه المجالس انطلقوا على سجيتهم وعبروا عن مشاعرهم بالإشارة حينا وبالعبادة حينا ، لأنهم أهل إشارة قبل أن يكونوا أهل عبارة "بل عبروا بالرقص أيضا عن وجدهم حين يملأهم الطرب وتلوح لهم طوالع الشهود[٤] ، ولذلك اشتهر بعض الشيوخ في العصر المملوكي بالمسموعات مثل محمد بن الخطيب عبد الله الرشيدي (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م) الذى كانت له مسموعات كثيرة عرف بها.[٥]

وكان شيخ الزواية هو المهيمن الرئيسي عليها ، وكان عليه أن يسمع المحدثين ، ويستمع لما يقرأونه عليه لفظة لفظة ، بحيث يصحح سماعهم ، وليصبره عليهم فإنهم وفد الله تعالى ، وإذا وجد جزء حديث أو كتاب يقرأه الشيخ بزوايته كان فرض عليه أن يسمعه.[٦] وكان كذلك من حقه "تهيئة الطعام للواردين والمجتازين ومؤانستهم إذا قدموا بحيث تزول الخجلة عنهم ولابأس بإفراد مكان للوارد لكيلا يستحي وقت أكله وراحته.[٧] وقد كان يحدث ذلك خاصة في الزوايا التي تقع في البراري على مشارف الطرق.

---

[١] ابن تغرى بردى النجوم جـ٧ ص ١٨٤-٣٨٤،جـ٨ ص ٢٠٣،جـ١٠ ص ١٢٥

[٢] ابن تغرى بردى النجوم جـ٧ ص ٣٥

[٣] ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ٢٥٨

[٤] إبراهيم بسيوني. نشأة التصوف الإسلامي ص ٢١

[٥] ابن تغرى بردى . النجوم جـ٥ ص ٥٤٧

[٦] السبكي. معيد النعم ص ١١٨

[٧] المرجع نفسه ص ١٢١

وكان شيخ الزاوية إذا توفى يدفن بها أحياناً[1] أو خارجها وكان يتولى من بعده أحد أبنائه أو أتباعه.[2] ومن ظريف ما يذكر فى هذا المقام أن السيدة زوجة قلج الرومى تولت مشيخة التصوف بزواية قايتباى بالمرج بعد وفاه زوجها سنه ٨٩١هـ/١٤٨٦م ، وربما كانت زوجة الشيخ تريد بذلك أن تستمر زاوية زوجها مفتحة الأبواب قائمة الشعائر لكى تستمر العطايا والهبات أو يدوم الريع الذى وقفه السلطان قايتباى عليها من جملة أوقافه الكثيرة.[3]

وإذا كانت هذه السيدة قد قامت بمهمة زوجها بعد وفاته فى إدارة شئون الزاوية فإنه وجد من النساء من اتخذت لنفسها زاوية وكانت لها مريدات تحسن إليهن مثل فاطمة إبنة جمال الدين ابن يوسف ابن سنقر زوجة القاضى تاج الدين البلقينى وأم قاضى القضاة البدرى أبى السعادات البلقينى، كانت حسنة الاعتقاد فى الصالحين راغبة فى الإحسان إلى الأرامل ونحوهن، بحيث أتخذت لها زواية بجماعة تحسن لهم بالإقامة فيها وبغيرها وصارت تلقب بالشيخة ولها صيت بذلك وقد حجت وماتت فى يوم الثلاثاء ١١ محرم سنه ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م ودفنت بزاويتها المشار إليها. وهذه الزواية تذكرنا بتلك الأربطة التى أنشئت للسيدات فى العصر المملوكى أيضا والتى غلب عليها طابع الرعاية الإجتماعية خاصة وأنها كانت تأوى الأرامل والمحتاجات وتضمن لهن حياة شريفة بجانب التفرغ لعبادة الله على خير وجه.

. وعندما كان يتوفى شيخ طائفة من طوائف المتصوفة يخلفه خليفته الذى يخلع عليه السلطان فى القلعة ، ثم يغادرها فى حفل كبير ، وقد أحاط به أتباعه.[4] وهو أمر يدل على مدى الاهتمام بشئون فرق المتصوفة مما ساعد بالتالى على استمرارهم واستمرار منشآتهم فى أداء مهامها بل وتكثيرها. كذلك أدت العلاقة بين الشيخ ومريديه تلك العلاقة القوية والارتباط الشديد حتى أن المريد كان يطيع الشيخ طاعة عمياء. وأدى ذلك إلى تماسك هذه

---

[1] ابن تغرى بردى النجوم جـ٧ ص ٢٧٥،جـ٧ ص ١٦١

[2] المرجع نفسه جـ٨ ص ١١٣

[3] د. عبد اللطيف إبراهيم – وثائق الغورى ص ١٦٧

[4] د. سعيد عاشور. العصر المماليكى ص ٢٤

الزوايا واستمرار وجودها.

ومما سبق يتضح أن الزاوية كانت تقوم بدور تخصصى فى التصوف، وكان بها مسجد صغير لإقامة شعائر الصلاة ولكن لم يوجد بأى منها خطبة ، وكان شيوخها ومريدوها يصلون الصلوات الجامعة فى غيرها من المنشآت التى تقوم بوظيفة المسجد الجامع ويؤكد ذلك ما يذكره صاحب النجوم من أن الشيخ أيوب المسعودى الذى توفى بزاويته بالقرافة سنه ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م بعد أن قارب المائة سنة وضعف فى آخر عمره كان "يحمل إلى حضور الجمعة"[1]

وقد كانت الزاوية من الناحية المعمارية تشتمل على كثير من الوحدات فيها مسجد للصلاة ، ومساكن للمريدين وشيخهم ، وعناصر الخدمة الأخرى كالمطبخ وحواصل التخزين كما أنه الحق ببعض الزوايا سكن خاص لمنشئ الزاوية وذريته وكان يقرر الواقف لمن بها من الموظفين والشيخ والمريدين والإمام والخدام والفراشين الرواتب وغيرها.[2] التى تصرف لهم من ريع الأوقاف التى يقررها واقفوا هذه الزوايا أو غيرهم من أهل البر والصلاح.[3]

وهناك من الزوايا ما اتخذ القبة شكلا معماريا له مثل قبة النصر بالصحراء والقبة الرفاعية التى أنشأها السلطان برسباى للأحمدية الرفاعية[4] وقد أستخدمت القبة فى العصر المملوكى إستخدامات كثيرة ، فقد استخدمت كضريح كما هى العادة فى معظم المنشآت الدينية المملوكية ، وأستخدمت كمكان للدرس ولم يقصد عند بنائها ذلك فقد كان استخدام قبة المنصور قلاوون للدرس بسبب أن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون قصد عمارة مدرسة ، فأخترته المنية قبل بلوغ غرضه فقام الأمير أرغون العلائى زوج أمه فى وقف قرية تعرف بدهمشا الحمام من الأعمال الشرقية عن أم الملك الصالح فأثبته بطريق الوكالة عنها ، ورتب ما كان

---

[1] ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ٢٦١

[2] وثيقة ٨٥٠ أوقاف (ملحق رقم ٦)

[3] وثيقة جمال الدين الأستادار ١٧/١٠٦، وثيقة قجماس ٧٦٠ أوقاف

[4] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٢٥-٢٨٤

الملك الصالح إسماعيل قرره فى حياته لو أنشأ مدرسة وجعل ذلك الأمير أرغون مرتبا لمن يقوم عليه فى القبة المنصورية[١] كذلك قرر بقية بيبرس الجاشنكير درسا للحديث "فاستخدمت القبة للدرس مع أنها أنشئت أصلا للدفن.[٢] أيضا ، وهناك من القباب ما أنشئ للاستراحة وجعل بها محرابا فأستخدمت كمسجد مثال ذلك قبتى الأمير يشبك من مهدى بالعباسية وكوبرى القبة واستخدام القبة لهذا الشأن وارد أيضا بخصوص قبه المنصور قلاوون التى أستخدمت كمسجد وعين لها إمام ومؤذنون.[٣] كذلك استخدمت القبة كخانقاه عندما جعل كافور الشبلى تربته بالصحراء خانقاه وكانت عبارة عن قبة وقرر بها صوفية ولكنه استخدام مؤقت ، إذ أنه نقل الصوفية إلى المسجد الذى أنشأه هناك بعد ذلك ، وظلت القبة لما أنشئت له وهو الدفن.[٤] وهنا يمكن أن نقول إن ما يطلق عليه البعض "الخانقاه القبة"[٥] على أساس إستخدام كافور الشبلى للقبة كخاقاة تسمية خاطئة لأن استخدام قبة كافور كان مؤقتا وإن القبة لم تبن أصلا لهذا الاستخدام. ولكن استخدام القبة كمكان لإجتماع الصوفية الرفاعية أمر قصد لذاته عندما أنشأ برسباى قبه الرفاعية بالصحراء ولم تنشأ للدفن وألحق بها سكن الفقراء بجوارها. لذلك يمكن أن نقول القبة أنشئت "كزاوية" وأن الأجدر أن نطلق التسمية "الزاوية القبة ، إذا كان هناك بدٌ من التسمية كنوع من تخطيطات الزوايا فى العصر المملوكى.

---

[١] المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٧٩

[٢] المرجع نفسه جـ٢ ص ٤١٥-٤١٦

[٣] المرجع نفسه جـ٢ ص ٤٦

[٤] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦ محكمة

[٥] د. دولت عبد الكريم. الخنقاوات فى العصر المملوكى رساله دكتوراه ص ١٢٢

"منشآت الصلاة"

ظلت لمنشآت الصلاة فى العصر المملوكى أهميتها التى كانت لها فى العصور السابقة ، ولكنها اتسمت فى هذا العصر وانسحبت عليها تلك الظواهر التى سادت فى المنشآت الدينية بصفة عامة.

وقد اهتم السلاطين والحكام عامة ببناء المساجد الجامعة ، وكان بناؤها من المفاخر التى يتباهى بها هؤلاء السلاطين ، ومن الأمور الجليلة الذى يذكرون بها[1] وخاصة وأن الخطبة بها والدعاء للسلطان القائم بعد الخطبة من على منبر المسجد الجامع كان شارة من شارات الملك والسلطنة ، بمعنى أن إغفال ذكر اسم السلطان وذكر آخر والدعاء له كان يعنى خلع هذا السلطان وتعيين آخر محله هو الذى يذكر اسمه فى الخطبة ، كذلك فقد كان نص الأذان الذى يعلن به من على مآذن المساجد الجامعة له ودلالته السياسية فقد كان من علامات انتشار المذهب الشيعى فى بغداد أنه خطب للمستنصر فى "ذى القعدة سنه ٤٢٨هـ/١٠٣٧م بجامع المنصور وأذنوا" "حى على خير العمل" وهى جملة من جمل الأذان الشيعى ، ويؤكد هذا المعنى ما حدث بعد ذلك من إعلان الأذان فى مشهد موسى بن جعفر ومساجد الكوفة ب"الصلاة " خيراً من النوم " وأزيل ما كان يقولوه الشيعة فى الأذان " حى على خير العمل "[2] ومما يدل على أهمية المعنى السياسى لصلاة الجمعة بالمساجد الجامعة أنه بعد انتشار المذهب الشيعى فى بغداد " خطب بسائر الجوامع للمستنصر المذكور وقطعت الخطبة العباسية بالعراق [3] وهو نفس الشئ الذى حدث عند قطع الخطبة فى الجامع الأزهر بواسطة صلاح الدين والتى تعطلت به نحو مائة عام إلى أن أعادها الظاهر بيبرس [4]

وقد استخدم المسجد الجامع كذلك لإعلان المراسيم والعهود [5] وأخبار

---

[1] ابن تغرى بردى النجوم جـ٧ ص ٣٦٢،٢٢٢
[2] ابن تغرى بردى النجوم ج٧ ص٣٦٢،٢٢٢
[3] المرجع نفسه ج٥ ص٧
[4] المرجع نفسه ج٨ ص١٤ هامش ١
[5] المرجع نفسه ج٨ ص٢٨٤

الانتصارات والبشائر. فقد أعلنت أخبار انتصارات فتح قبرص من المدرسة الأشرفية وجامع المؤيد شيخ وجامع عمرو بن العاص ومن طريف ما يذكر فى هذا المجال أن المآذن التى كانت من الوحدات الأساسية بالمساجد الجامعة استغلت كذلك فى المراقبة ، بل إن البعض استخدمها فى الوقيعة بالأعداء عن طريق وسيلة استغل فيها المأذنة للإعلان ، فعندما هاجم التتار حلب وينس من كان فيها من الحياة ، طلع شخص منارة الجامع ، وكبر بأعلى صوته على التتار ، وقال جاء النصر من عند الله ، وأشار بمنديل كان معه إلى ظاهر البلد ، وأوهم أنه أشار به إلى عسكر المسلمين ، وجعل يقول من خلال ذلك إقبضوهم من البيوت كالنساء ، فتوهم التتار من ذلك وأخرجوا من البلد على وجوههم ، وسلم الذى فعل "[1].

كذلك كانت المساجد الجامعة أحيانا مقرا للنظر فى الأمور السياسية الهامة ، فقد حدث أن اجتمع القضاة سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م فى جامع القلعة للنظر فى أمر الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن أبى الربيع سليمان ، وإعادته إلى الخلافة ، وحضر معهم الأمير طاجار الدوادار فاتفقوا على إعادته لعهد أبيه إليه بالخلافة بمقتضى مكتوب ثابت من قاضى قوص"[2].

وقد كان السلطان هو المسئول الأول عن الحكم بصحة المسجد الجامع للصلاة عند افتتاحه وقد يتقدم لإقامة أول صلاة به [3] كذلك كان للمساجد العتيقة الكبيرة مكانة فى نفوس السلاطين الذين كان يحرصون على الصلاة بها وزيارتها[4] وكان بعض الأمراء ينزلون إلى المساجد كذلك إما لزيارتها [5] أو رغبة فى الإقامة بها عند التقاعد أو الإعفاء من مناصبهم [6].

وأمام هذه الاهمية السياسية للمساجد الجامعة بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية عن كونها مساجد جامعة لأداء الصلاة بها ، كان الإقبال الشديد فى العصر المملوكى على إنشائها إبتداء من السلاطين والأمراء وامتدادا إلى جميع فئات الشعب الأخرى ، حتى أننا نجد من هؤلاء من يبنى أكثر من جامع فى البلد الواحد أو فى أكثر من بلد[7] ومن السلاطين الذين اشتهر عنهم بناء المساجد الجامعة السلطان بيبرس الذى أنشأ جامعا كبيرا بالقاهرة وآخر

---

[1] ابن تغرى بردى النجوم ج٧ ص٢٩٩
[2] المرجع نفسه ج١ ص٤٠
[3] ابن تغرى بردى النجوم ج١٠ ص٢٤٢
[4] المرجع نفسه ج١٠ ص٢٧٥،ص٢٨٣
[5] المرجع نفسه ج٩ ص٣٦
[6] المرجع نفسه ج١٠ ص٢٦٣
[7] المرجع نفسه ج٧ج٦ ص٢٠٣ ، ج١٠ص١١٠

بمنشأة المهراني [١] ، والناصر محمد الذى بنى فى عهد حوالى ثمانية وعشرين مسجدا حيث قلده أمراؤه فى بناء المساجد ولعل أشهر امثلتها الباقية جامعة بالقلعة والسلطان برسباى الذى أنشأ جامعا كبيرا فى خانقاة سرياقوس بالإضافة إلى مدرسته وخانقاته التى كان بكل منها خطبة [٢] والسلطان قايتباى الذى نافس السلطان الناصر محمد فى حبه للعمارة والتشييد وكذلك السلطان الغورى ولعل ما تبقى لهما من أثارتنوعت بين المساجد والجامعة والمدارس والخنقاوات والتى كانت جميعها تؤدى وظيفة المسجد الجامع دليل كبير على ذلك. وهناك من الأمراء من أنشأ ثلاثة جوامع مثال ذلك الأمير فخر الدين محمد بن فضل ناظر الجيش المعروف بالفخر [٣] ومن القضاة القاضى يحيى زين الدين الذى أنشأ ثلاثة منشآت دينية تؤدى وظيفة المسجد الجامع مازالت باقية إلى اليوم ولعل ما يلفت النظر أن كثيرا من المنشآت الدينية التى أنشأها الأمراء وغيرهم بالقاهرة كانت تقع بجوار دورهم [٤] وهو أمر يشير إلى تأثير ذلك على توزيع هذه المنشآت على خريطة القاهرة ومما يدل على تلك الرغبة المتحفزة لإنشاء المساجد الجامعة فى ذلك العصر عدم اقتصار ذلك على الأفراد ولكن أيضا أخذت الجماعات فى إنشائها فقد حدث أن أنشأ جماعة من العجم جامعا خارج باب القرافة [٥] وبعضها أنشئ على أرض أخذت بغير رضا اصحابها كجامع الطنبغا المارداني [٦] وهو أمر يشير إلى اختلاف مستويات التعمق الدينى فى ذلك العصر وأن الرغبة فى الإنشاء كانت عامة.

وقد كانت هذه الرغبة قوية حتى أنه إذا بدئ فى إنشاء مسجد ومات قبل إتمامه فإنه كان يكمل إنشاؤه [٧] ولا يهمل ، كذلك أنشئت المساجد على ما كان يستجد من اراضى العمران خاصة فى مواقع الإمتداد العمرانى فى ذلك العصر كبولاق وغيرها مثال ذلك جامع الاسيوطى الذى عمره القاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم السيوطى ناظر المال الذى أنشأه فى ناحية بولاق على

---

[١] المرجع نفسه ج٧ ص١٥٠

[٢] وثيقة السلطان برسباى ٨٨٠ ص١٩-٣٠

[٣] ابن تغرى بردى النجوم ج٩ ص٢٠١هامش

[٤] المرجع نفسه ج٩ص٢٠ ، ج٩ص٦٢-٦٣ وثيقة القاضى يحيى زين الدين ١١٠/١٧ات.

[٥] المرجع نفسه ج٨ ص٢٢٣

[٦] المرجع نفسه ج٩ ص١١٢

[٧] المرجع نفسه ج١٠ ص١٨٥

أراضى العمران المستجدة[1] وكذلك المساجد الجامعة والمدارس التى أنشئت بخانقاة سرياقوس كمدرسة سودون وجامع برسباى [2] وهذه المنشآت بنيت بها بعد تعمير الناصر محمد لهذه المنطقة وإنشائه الخانقاة والرباط بها [3]، وكذلك فإن إنشاء المساجد امتد إلى القرافات أيضا فى ذلك العصر مثال ذلك جامع القاضى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر كاتب السر الذى أنشأ هذا الجامع بجوار قبر أبيه بالقرافة الصغرى[4]

وكان منشئو هذه المساجد ينشئون هذه المساجد من مواردهم الخاصة، ولم تكن تهم تكاليف الإنشاء مهما بلغت وإذا كان هناك حرص على حصر هذه التكاليف فمن باب الحرص على ضبط المصارف فيما خصصت له حتى أنه عندما وقع الفراغ فى إنشاء جامع الأمير حسين أحضر له المشد واتب حساب المعروف فرمى به إلى الخليج ، وقال أنا خرجت عن هذه لله تعالى، فإن خنتما فعليكما وأن وفيتما فلكما"[5] وقد وجدت مصادر أخرى لإنشاء بعض هذه المساجد مثال ذلك جامع المشهد النفيسى الذى أمر بإنشائه الملك الناصر محمد بن قلاوون فعمر فى شهور سنه ٧١٤هـ/١٣١٤هـ ، وقيل إن جميع ما صرف فى بنائه كان من حاصل المشهد النفيسى ويدخل إليه من النذور ومن الفتوح[6] كذلك ثارت الشبهات حول المال الذى أنشئ منه جامع الجاولى بغزة الذى أنشئ سنه ٧٢٠هـ من أنه أنشئ من "مال الحرمين الشريفين" مما أضطر معه أن يكتب على حائطه أن سنجر "عمل ذلك من خالص ماله ولم ينفق عليه من مال "الحرمين الشريفين"[7]

---

[1] المقريزى خطط ج٢ ص٣١٥ ، ابن تغرى بردى النجوم ج١ ص٢٤٢

[2] محمد عبد الستار عثمان الآثار المعمارية للسلطان برسباى بالقاهرة ص٢٠٥-٢٥٠

[3] وثيقة الناصر محمد ٢٥ محكمة

[4] المقريزى خطط ج٢ ص٣٢٤

[5] ابن تغرى بردى ، النجوم جـ٩ ص ٢٧٦

[6] المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٠٦ ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ١٩٤ ويعلق صاحب النجوم أن أمر تكاليف الإنشاء لم تكن واضحا مصدره هل هو من النذور ام أن الناصر تكفل بتكاليفه.

[7] ابن تغرى بردى النجوم جـ١٠ ص ١١٠

كذلك كان لأعمال الترميم والإصلاح التى اهتم بها السلاطين والأمراء وغيرهم للمساجد أثرها على أستمرار هذه المساجد فى أداء مهامها بكفاءة ، وقد كانت هذه العمليات مهمة لما تتعرض له المنشآت عادة من أسباب الدمار بسبب الزلازل أو لخلل البناء لعيوب إنشائية أو بسبب الحريق[1] أو غير ذلك من الأسباب وقد كانت الأوقاف الكثيرة التى وقفت على هذه المنشآت من المصادر الهامة لإصلاح وترميم المساجد.

وحتى يقوم المسجد الجامع بأداء وظائفه التى أنشئ من أجلها كان الواقف يعين له من يقوم بأداء شعائر الصلاة فيه من إمام يؤم بالمصلين [2] وخطيب يقوم بالخطابة وإمامة المصلين فى الصلوات الجامعة[3] ، ومرقى للخطيب يقوم بترقيتة عند صعود المنبر ، كذلك كان يعين ميقاتى لتحديد مواعيد دخول أوقات الصلاة ، ومؤذنون يقومون بوظيفة الأذان ، وقراء لقراءة القرآن منهم من يقرأ القرآن قبل الصلاة يوم الجمعة ، ومنهم من يقرأ فى مواعيد أخرى يحددها الواقف حسب مايراه فى الأوقات المختلفة ، خاصه وأن قراءة القرآن كانت سائدة فى جميع المنشآت الدينية المملوكية ، وقد اختلفت أعداد المعينين من هؤلاء باختلاف قدرات الواقف[4] خاصة المؤذنين والقراء.

وتعتبر الصلاة الجامعة " خاصة صلاة الجمعة " من أهم الوظائف التى تقوم بها المسجد الجامع ، لذلك لم تكن تعقد الدروس فى ذلك اليوم خاصة فى تلك المنشآت المقرر بها دروس حتى تتفرغ تماما للصلاة، التى تبدأ شعائره قبل إقامة الصلاة بفترة حيث تتوافد جموع المصلين للصلاة ،

---

(1) كان للخلافات التى حدثت بين المسلمين والنصارى فى عهد الناصر محمد ، على سبيل المثال – أثرها فى أشعال كثير من الحرائق بالمنشآت الدينية بصفة عامة ومن أمثله المنشآت التى تعرضت للحريق جامع الظاهر بيبرس ٧١٠هـ/١٣١٠م بواسطه أحد النصارى الذى ضبط متلبساً فاعترف بخطه كامله لحريق المسجد (ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ٦٨)

(2) ابن تغرى بردى . النجوم جـ١ ص ١٤٦ ، جـ٩ ص ٢٧٩ .

(3) ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ٩٦، جـ٨ ص ١٤٠-١٣٤، جـ١٠ ص ٦٣ السخاوى الضوء جـ١٠ ص ١١٤ ، جـ٩ ص ٢٤ ، ابن اياس جـ٢ ص ١٨

(4) وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ، وثيقة سودون من زاده . المقريزى السلوك جـ٤ ق٢ ص ١٠٢١ ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ٢٥٤ ، ص ٢٦٢، ص ٢٦٥، جـ١٠ ص ٢٥٤-٢٥٥، ص ٢٦٩ ، ص ٣٢٤، ص ٣٣٤

ويقرأ قرآن الجمعة قبل إقامة الصلاة ، وقد يعقب الصلاة درس ديني أو إلقاء بعض أبيات من الشعر يلقيها المادح لرسول الله صلى الله عليه وسلم٠ وقد عين بعض الواقفين بالمساجد المبخرين الدين يقومون بتبخير المسجد قبل قيام الصلاة حيث يمرون بمباخرهم بين صفوف المصلين ٠

وشعائر صلاة الجمعه تبدأ بقراءة قرآن الجمعة التى تستمر حتى دخول وقت الصلاة ، فيؤذن المؤذنون مع على مئذنة الجامع ، وقد شاع الأذان السلطانى فى العصر المملوكى ، حيث يقوم جماعة من المؤذنين بالأذان ويأتي كل منهم بأذان كامل – وهو ما يعرف بالأذان الأول وبعد إنتهاء الأذان يصعد الخطيب المنبر بعد ترقية المرقى له ، ثم يؤذن الأذان الثانى ويتلو المرقى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الإنصات ، ثم يخطب خطبة الجمعة من فوق المنبر ، وفى ذلك الحين يكون مؤذنو الأذان الأول قد هبطوا من أعلى المئذنه وتواجد بداخل الجامع على دكة التبليغ التى كانت تتسع لهم[1] وبعد أنتهاء الخطيب من الخطبة تقام الصلاة فينزل الخطيب من على المنبر ليؤم المصلين فى الصلاة ، وبعد انتهاء الصلاة تختم الصلاة[2] ثم فى بعض المواضع يقوم المادح بمدح الرسول بأبيات من الشعر[3]

وقد كان المسجد الجامع يستخدم بالطبع لأداء الصلوات الأخرى كصلاة العيذين[4] كما كانت تصلى الصلوات المفروضة الأخرى بالطبع فى المسجد الجامع فى الأوقات الخمس بصفة مستمرة وكانت المساجد القريبة من المقابر تستخدم أحيانا فى صلاة الجنازة بالإضافة إلى مصليات الأموات التى انتشرت لهذا الغرض ، وكان المسجد الجامع يتسع لإقامة صلاة الجنازة على

---

[1] انظر وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف٠

[2] انظر وثيقة بيبرس ٤/٢٢

[3] كان هذا هو المتبع فى المساجد الجامعة فى العصر المملوكى حتى فى المساجد الجامعة التى يؤدى بها السلطان صلاته ، ولكن فى العصر الفاطمى ونظرا لأن الصلاة كان تقام فى مسجد واحد فى المدينة فقد كان الخليفة يخطب وإذا استناب عنه أحد يكون وزيره وكان يخرج فى موكب خاص يجلس فى المقصورة تجاه المحراب وتجلس الحاشية بجانبه فى ترتيب خاص (النجوم جـ٥ ص ١٧٥-١٧٦)

[4] كان من الممكن حسب السنة أن تؤدى هذه الصلاة فى الفضاء فى مصليات خاصة لذلك (ابن تغرى بردى ٠ النجوم جـ٥ ص ١٧٥-١٧٦

أعداد كبيرة من الأموات لا يمكن أن تتسع لها مصليات الأموات ، وقد كان هذا يحدث عادة فى فترات انتشار الطواعين التى عادة ما كانت تحدث فى العصر المملوكى ، فقد حدث أن صلى على الأموات بجامع الحاكم على العديد من الأموات سنه ٧٤٨هـ/١٣٤٧م حتى أن " صفت التوابيت إثنين إثنين من باب مقصورة الخطابة إلى باب الجامع ووقف الإمام عند العتبة والناس خلفه خارج الجامع "[١]

ومما سبق يتضح وظيفة المسجد الجامع الأساسية وما كان يقام به من صلوات أخرى وقد كان المعمار فى العصر المملوكى على وعى وإدراك بها، فأنشأ المساجد الجامعة التى تشتمل على أروقة أو أواوين تستخدم كساحات للصلاة ، وألحقوا بها فى بعض الأحيان المكاتب والأسبلة وخزانات الكتب التى كانت توضع بها الكتب والمصاحف الخاصة بالقراء والمتصوفة والدارسين الذين كانوا يقررون بالمساجد ، هذا بالإضافة إلى العناصر الأخرى من فسقيات وميضآت للتطهير والوضوء.

وتتضح صورة تخطيط الجامع فى العصر المملوكى المميزة فى تلك النماذج الباقية من المساجد الجامعة التى ترجع إلى ذلك العصر كمسجد الناصر محمد بالقلعة ومسجد الماردانى ومسجد السلطان برسباى بالخانكة ومجموعه المساجد التى أنشئت مكملة بأزدواجية مع بعض الخنقاوات كجامع شيخو وقوصون وبشتاك وغيرها . وتتضح هذه الصورة أكثر من تلك التجديدات التى قام بها لاجين فى الجامع الطولونى ، فقد أضاف إليه معماريا فسيقة فى الزيادة الجنوبية ، وأخرى فى صحن الجامع ، كما جعل به للأيتام مكتبا فى الزيادة الشمالية ، بالإضافة إلى تجديد المئذنة وعمل محرابا ومنبرا على الطراز المملوكى ، ووظيفيا عندما قرر فيه دروس مختلفة منها درس للطب وعين له القراء وقرر الأيتام ومؤدبهم فى الكتاب بالزيادة الشمالية أى أن الجامع الطولونى باختصار اصبغ بصبغة المساجد الجامعة فى العصر المملوكى. وهى الصبغة التى انسحبت على تسمية الجامع بوثيقة وقف لاجين

---

[١] ابن تغرى بردى . النجوم جـ١٠ ص ٢٠٦

بتسميته "الجامع الطولوني المنصوري"[1]

وكان إلحاق سبيل ومكتب للأيتام بالجامع المملوكي من الأمور الشائعة كذلك ألحق به أحيانا مجموعة من الأروقة خصصة بلسكنى وبعض القاعات التي تستغل كمكتبات أو مخازن لأدوات الجامع كذلك كان إلحاق قبة لدفن صاحب الجامع وكما هي العادة في غيره من المنشآت الدينية - أمرا قائما وأمثلة ذلك عديدة كجامع الأمير حسين[2] وجامع ألماس[3] وغيرها وكان لهذه الملحقات والوظائف المختلفة التي أصبح الجامع يؤديها في العصر المملوكي أثرها على تخطيطات المساجد الجامعة بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي تؤثر على ذلك مثل موقع المسجد نفسه الذي كان عادة ما يشغله بناء يملكه الشخص المنشئ أو يشتريه برضاء أهله وما قد يحدث عند ذلك من خلاف أو عدم موافقة خاصة وأن غصب الأرض كان مكروها فقهيا لبناء المساجد[4] كذلك قد لاتلحق بالجامع بعض الملحقات كالضريح لأن لصاحبه ضريحا في منشأة أخرى كجامع برسباى وقد يكون ملحقا به مكتب ، وقد يلحق به الإثنين وكلها أمور يختلف باختلاف رغبة المنشئ في ذلك من عدمه.

والحقيقة التي يجب الإشارة إليها عند الحديث عن المساجد الجامعة في العصر المملوكي هي أن ظاهرة تعدد الوظائف الدينية في المنشآت الدينية المملوكية كان له أثره الكبير في تكثير المساجد بالقاهرة بتكاثر المنشآت التي كانت تؤدي وظيفة المسجد الجامع بجانب وظيفتها الأصلية للتدريس إذا كانت مدرسة ، أو للتصوف إذا كانت خانقاة أو رباط. وقد تعددت الوظائف التي يؤديها المبنى الديني في العصر المملوكي نتيجة ملاءمة المبنى للقيام بهذه الوظائف ، ويبقى الأمر هنا بشرط الواقف وأوقافه التي يخصصها لأرباب الوظائف المختلفة بالمنشآت التي يلبيها.

وقد بدأت هذه الظاهرة في العصر الأيوبي عندما سمح الفقهاء بجواز

---

(1) وثيقة لاجين ١٢/٧٦ محكمة

(2) ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص ٩٢

(3) المرجع نفسه جـ٩ ص ٣٠١

(4) المرجع نفسه جـ٩ ص ١١٩

إقامة أكثر من خطبة في البلد الواحد ، وانتشرت في العصر المملوكي وبدأت بتحويل المساجد الفاطمية[١] والمدارس الأيوبية[٢] إلى مساجد جامعة[٣] بإضافة منبر ومئذنه وتعيين الموظفين الذين يقومون بتأدية هذه الوظائف كالخطيب والمرقى والمؤذنين ، بل أن الأمر لم يقتصر على تحويل المساجد والمدارس إلى جوامع فقد حولت بعض الزوايا إلى مساجد جامعة أيضا[٤] ومما يشير إلى سهولة ذلك الأمر أن أحد المشايخ جعل بداره وصار الجمعة هو وأصحابة بداره[٥] وصارت تؤدى وظيفة المسجد الجامع ، كذلك حولت بعض القاعات المملوكية إلى جامع كقاعة طشتمر بدرب الحصر التى حولها خشقدم الأحمدى إلى جامع يعرف باسمه.

وإذا كان المماليك حولوا المساجد والمدارس والزوايا إلى مساجد جامعة بجانب وظيفتها الأصلية فإنهم جعلوا دروسا فأصبحت تؤدى وظيفة المدارس بجانب وظيفتها الأصلية من كونها مساجد جامعة ومن أمثلة ذلك جامع عمرو[٦] وجامع أبن طولون[٧] والجامع الأزهر[٨]

---

[١] من أمثلة المساجد التى حولت إلى جوامع مسجد كان بجوار قبة الإمام الشافعي حول إلى جامع سنه ٦٠٧هـ/١٢٣٠م (راجع المقريزى. خطط جـ٢ ص ٥٩٦) ومسجد الصالح طلائع سنة بضع وخمسين وستمائة (المقريزى. خطط جـ٢ ص ٩٣) ومسجد الجاكى حول سنه ٧١٣هـ/١٥١٣م (المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣١٣) والمسجد الأقمر سنه ٧٩٩ (المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣١٣)

أ- وهذا المسجد أنشئ أصلا لإقامة الصلوات الخمس المفروضة ولم ينشأ كجامع ولذلك من الخطأ القول بأن الصلوات الجامعة تعطلت فى هذا الجامع إلى أن أصبح يؤديها بعد أن أصبح مسجدا جامعا سنه ٦٥٢هـ/١٢٥٤م (النجوم جـ١٠ ص ١٤٦)

[٢] من أمثلة المدارس الأيوبية التي حولت إلى جوامع بجانب وظيفتها كمدرسة المدرسة الصاحبية (المقريزى ، خطط جـ٢ ص ٣٧١-٣٧٥) والمدرسة الصالحية (خطط جـ٢ ص ٢٧٤)

[٣] لقد يسر تحويل المساجد الصغيرة إلى جوامع أن صلاة الجمعه يمكن أن تنعقد باثنى عشر مصليا كما أجاز الفقهاء تعدد الخطبة فى البلد الواحد.

[٤] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٢٤٥

[٥] السخاوى. الضوء جـ٦ ص ٢١-٢٢

[٦] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٢٧٥ ، ابن تغرى بردى جـ٥ ص ١٠٥

[٧] وثيقة لاجين. محكمة المقريزى. خطط جـ٢ ص ٢٦٨ . ابن تغرى بردى النجوم جـ٨ ص ١٠٧ جـ٩ ص ٢٣٠ .

[٨] المقريزى . خطط جـ١ ص ٢٧٧ وقد شاعت هذه الظاهرة أيضا خارج مصر فى الشام

وإذا كانت ظاهرة تحويل المساجد والمدارس إلى مساجد جامعة مع عدم إلغاء الوظيفة الأصلية التى كان المبنى يؤديها قد انتشرت فى العصر المملوكى ، فإن المماليك طبقوا هذه الظاهرة على منشآتهم التى أنشأوها. وتوقفت الوظائف التى تؤديها المبنى لاعلى شكله المعمارى فحسب ولكن على ما يريد المنشئ أن يؤديه مبناه من وظائف سيما وأن المبنى الدينى بتصميمه المعمارى سواء كان جامعا ذو أربعة أروقة أو مدرسة ذات أربعة أواوين متعامدة ، يمكن أن يؤدى الوظائف الثلاث لكل من المدرسة والجامع والخانقاه.

ولما كانت الوظيفة التى يؤديها المبنى تقوم أساسا على نص الوقف الذى يحدده صاحب المنشأة ، ولما كان المبنى الدينى يستطيع أن يؤدى وظيفة الصلاة الجامعة والتدريس وحضور التصوف ، فلم يعد مستغربا أن نجد جامعا يؤدى وظيفة الخانقاه[1] بجانب وظيفته الأصلية من كونه جامعا ، أو أن نجد بعض الجوامع وقفها أصحابها لتؤدى وظيفة المدرسة والخانقاة بجانب وظيفتها الأساسية[2] وهناك العديد من المدارس التى كانت تؤدى وظيفة الخانقاة بجانب وظيفتها الأصلية من كونها مدارس[3]

وهناك من المدارس ما وقفها أصحابها لتؤدى وظيفة المساجد الجامعة إلى جانب كونها مدارس[4] حتى أن المقريزى صنف بعض هذه المدارس فى

(=) والعراق راجع ابن تغرى بردى جـ٥ ص جـ٧ ص ٣٨٣ ص ٢٨٠ ، جـ٦ ص ٢٠٢، جـ٨ ص ٦٢-٦٦

[1] من أمثلة المساجد الجامعة التى كانت تؤدى وظيفة الخانقاة جامع منجك اليوسفى سنه ٧٥١هـ/١٣٥٠م (المقريزى. خطط جـ٢ ص٣٢٠ ، ابن تغرى بردى النجوم جـ١٠ ص ٢٦٣) والجامع الماردانى (السخاوى ال ضوء جـ٦ ص ٣٠٧) وجامع شيخو قبل إنشاء الخانقاة (المقريزى خطط جـ٢ ص٣١٣) وما بعده. ابن تغرى بردى جـ١٠ ص ٢٦٩) وأن هذه الظاهرة كانت عامة فى شرق العالم الإسلامى فقد أستخدم جامع الموصل كخانقاة (ابن تغرى بردى . النجوم جـ٧ ص ٣٤٨- ٣٤٩)

[2] من أمثلة ذلك جامع القمرى (المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٢٨-٣٢٩) وجامع يحيى بن عبد الرحمن بن محمد الهاشمى (السخاوى. الضوء جـ١٠ ص ٥٣٤) وجامع المؤيد شيخ (وثيقة المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف.

[3] من أمثلة ذلك المدرسة المهندارية (المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٩٩) والمدرسة الأقبغاوية (المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٨٤) والمدرسة الجمالية (المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٩٢ ومدرسة الغورى، ابن أياس بدائع الزهورجـ٤ ص ٦٨ ط أستانبول.

[4] من هذه الأمثلة مدرسة السلطان حسن (المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٦٤-٣٨٢) والمدرسة الحجازية (المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٩٩) ومدرسة أصلم (ابن تغرى بردى. النجوم جـ١ ص ١٧٤)

خططه فى باب الجوامع بسبب هذا التعدد فى الوظائف بجانب أنه ذكرها فى الباب الخاص بالمدارس٠ كما أن هناك من المدارس ما وقفها أصحابها لتؤدى وظيفة الجامع والخانقاة بالإضافة إلى وظيفة المبنى من كونه مدرسة [١]

وقد حدث نفس الشئ بالنسبة للخانقاة ، فقد كانت الخانقاة فى بداية أمرها مكانا لإيواء المتصوفة للتعبد ولم تكن تؤدى وظيفة المسجد الجامع ، فقد كان متصوفة خانقاة سعيد السعدا على سبيل المثال يؤدون صلاة الجمعة بجامع الحاكم[٢] ثم أنشئت بعد ذلك مجموعة الخنقاوات التى أنشئ بجانبها مساجد جامعة لتخدمها أيضا فيما عرف بازدواجية التخطيط فى كل من خانقاة قوصون وبشتاك ومنجك وشيخو الذى أنشأ خانقاة للمتصوفة بعد أن كان أنزلهم بالجامع مما يدل على أن هذا التعدد لم يكن قد تم بالصورة المطلوبة فأنشأ لهم الخانقاة ثم حدث التداخل التام وأصبحت الخانقاة تؤدى وظيفة الجامع أيضا ، وكان أول مثال ذلك خانقاة أيدكين البندقدارى الصالحى النجمى٠[٣] ثم تعددت الأمثلة بعد ذلك حتى أصبحت المثل الشائع فى ذلك العصر٠

وبالبحث عن الأسباب الحقيقية وراء هذا التداخل نجد أن هناك أسبابا رئيسية ثلاثة أولها إجازة به الفقهاء من جواز قيام أكثر من خطبة فى البلد الواحد ، فأصبحت الفرص متاحة لإنشاء العديد منها ، واستخدام المساجد الملحقة بالمدارس والخنقاوات كمساجد جامعة ، كما أن التصالح بين الفقهاء والمتصوفة واتفاق الجانبين على هدف واحد اختلفت الوسيلة إليه سواء الفقه أو التصوف[٤] ، كان له أثر كبير فى التقريب بين الدرس والتصوف حتى أنهما أصبحا يعقدا فى منشأة واحدة يمكن لها أن تقوم بوظيفة المسجد الجامع٠ أما العامل الثالث والذى استمد حريته من العاملين السابقين فهو أن تقرير الوظائف فى المنشأة الدينية كان رهنا برغبة الواقف٠ كأنه يمكن القول بأن

---

[١] من أمثلة ذلك المدرسة الزمامية (المقريزى خطط جـ٢ ص ٣٩٤) والمدرسة التى أنشأها تغرى بردى بن عبد الله الرومى المؤذى السخاوى٠ التبر المسبوك ص ٤٩ وأمثلة ذلك كثيرة (راجع السخاوى الضوء جـ٤ ص٨)

[٢] المقريزى٠ خطط جـ٢ ص ٤١٣

[٣] احمد الرفاعى ٠ البرهان المؤيد ص ٤٧، ابن تغرى بردى النجوم جـ٥ ص ٢٦٩، جـ٥ ص ١٢١

[٤] احمد الرفاعى ٠ البرهان المؤيد ص ٤٧، ابن تغرى بردى النجوم جـ٥ ص ٢٦٩، جـ٥ ص ١٢١.

وثيقة الوقف هى الأساس الأول الذى يحدد وظيفة المبنى سواء أكان مدرسة أو جامع أو خانقاة أو مدرسة جامع أو جامع مدرسة خانقاة فى وقت واحد. وكل ما يمكن قوله أن هذا التداخل فى الوظائف كان من أبرز نتائجه كثيرة المساجدالجامعة والمساجد باعتبارها وظيفة مشتركة فى كل من المدارس والخنقاوات والزوايا والربط.

"مساجد الفروض"

وأنشئت بجانب المساجد الجامعة لأداء الصلوات المفروضة أيضا الحديد من المساجد التى اقتصرت وظيفتها على أداء الصلوات المفروضات ولم تقم بها خطبة. وقد انتشرت هذه المساجد فى نوعيات مختلفة حسب ظروف إنشائها ولكن يغلب عليها فى صغر المساحة حتى أن البعض كان يطلق عليها اسم الزاوية "لهذا المعنى مثال زاوية فرج بن برقوق والتى هى فى الحقيقة مسجد صغير أنشأه الناصر فرج ملاصقا لباب زويلة[1] ومنها ما أطلق عليه "مسجد أرضى" وهى تسمية تعنى أن هذا النوع من المساجد كان ضمن أبنية كانت تعلوه[2] ومنها أيضا نوعية أخرى أطلق عليها "المسجد المعلق" لإرتفاع عن مستوى سطح الأرض ولشغل أسفلها بحوانيت أو غيرها من المخازن. وكان هناك نوعية أخرى من المساجد التى ألحقت ببعض المنشآت المدينة التى بها كثافة سكانية كالوكالات لتخدم من بها ومن أمثلة ذلك المسجد الذى أنشأه برسباى ملاصقا لوكالته عند باب النصر[3] وكان المسجد أحيانا يبنى فى صحن للوكالة.

كذلك اشتهرت نوعية .ن هذه المساجد الصغيرة تحت إسم معبد ، وقد انتشرت هذه المعابد خاصة ضمن المجموعات المعمارية التى أنشئت بالصحراء فقد ضمت مجموعة برسباى بالصحراء مسجدا صغيرا مستقلا كان يستخدم للصلاة أطلق عليه اسم المعبد ، وكذلك أنشئ واحد ضمن الوحدات المعمارية التى أنشاها كافور الشبلى بالصحراء[4]

---

[1] وثيقة فرج بن برقوق ١١/٦٦٠ محكمة.

[2] وثيقة جمال الدين محمد الأخيمى ٣/١٦ محكمة

[3] محمد عبد الستار. الآثار المعمارية للسلطان برسباى بمدينة القاهرة. وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٩٠-٩٣ أ - حجة الغورى ٨٨٤

[4] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٣٢-٣٥ ، وثيقة كافور الشبلى ٣٢/٧٦ محكمة

وقد استخدم المؤرخون هذه التسمية فقد ذكر المقريزى أنه "كان بجبل المقطم والصحراء عدة مساجد وعدة معابد ينقطع العباد بها"[١] وقد أشتهرت قبة الرفاعية التى أنشأها برسباى باسم "معبد الرفاعية" ولما كانت هذه القبة وقفها برسباى "مسجدا تقام فيه الصلوات ويعتكف فيه على العبادات موطنا للفقراء الأحمدية حكمها حكم المساجد وأذن فى دخولها والصلاة"[٢] (فإن كلمة معبد) كان يقصد به هؤلاء المؤرخون مسجد صغير • ويؤكد هذا المعنى الذى نقصد إليه من أن المعبد ما هو إلا مسجد صغير وقد كثرت المساجد أيضا بإضافة عدد من المنشآت المدنية الأخرى التى تؤدى وظيفة المسجد فقط ككثير من الزوايا والربط بالإضافة إلى تلك تلحق أحيانا بالمجموعات المعمارية الضخمة كمجموعة برسباى بالصحراء التى كان بها مسجدان غير غير المدرسة وقبة الرفاعية[٣]

وقد ساعد على انتشار هذه المساجد بنوعياتها المختلفة من المنشآت الدينية المملوكية أن عملية إنشائها أيسر وتكاليفها أقل وهذا أمر مناسب للفئة الكبيرة من الشعب حتى أنه يمكن أن يقال أن العوامل المساعدة على كثرتها كانت أقوى بالنسبة لغيرها من المنشآت الدينية•

وقد كانت هذه المساجد تستخدم للصلوات الخمس المفروضات ولها من الموظفين من يقوم بذلك كالإمام والمؤذنين ، وكان غالبا يقوم بكل مهام المسجد شخص واحد أو أثنين يساعد كل منهما الآخر وبعض هذه المساجد كان يستخدم كمكان لتعليم أيتام المسلمين القرآن الكريم[٤] وكان يقرر ذلك إذا لم تكن وظيفة تعليم الأيتام تعوق وظيفة المكان من كونه أصلا مسجد"[٥] كذلك كان يعين لهذه المساجد من الفراشين والوقادين من يقوم بتطبيقها ووقودها وأحيانا كان يقوم بهذه الوظيفة من يعين للإقامة أو الأذان وأمام هذه الوظيفة

---

[١] المقريزى• خطط جـ٢ ص ٤٥٥ عند هدم بناء قصر بشتاك كان فى موضعه معابد تم هدمها ولم يتبق منها سوى جامع أسفل القصر يطلق عليه أسم معبد الفجل•

[٢] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٣٥

[٣] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٣٥ وما بعدها

[٤] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٩١–٩٣

[٥] وثيقة جمال الدين محسن الأخيمى ٥/٣٣

التى كان يقوم بها المسجد فقد كانت مساحته صغيرة عادة وتخطيطه بسيط وليس هناك ضرورة لاشتماله على مأذنه ·

"مصلى الأموات"

كان لإنتشار الطواعين فى العصر المملوكى وكثرة الأموات بسببها أثره على انتشار نوعيات خاصة من المنشآت المعمارية التى قصد بها أصحابها عمل الخير والبر · ومن هذه المنشآت مغاسل ومصليات الأموات والتى كانت تبنى عادة فى مواقع قريبة من المقابر ·

وقد تبقى لحسن الحظ نموذجا جيدا من هذه المصليات التى يمكن أن تعد ضمنا من المنشآت الدينية حيث تقام بها 'صلاة الجنازة' وهى فرض كفاية بمعنى إذا أداها البعض سقطت عن الآخرين · وهذه المصلى هى مصلى المؤمنى الذى أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد الله المؤمنى[1] أمير آخور كبير بالديار المصرية فى عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين أنشأها هى والسبيل المجاور لها تحت القلعة · وقد استخدمت هذه المصلى فى الصلاة بها على من توفى من وجوه الناس وكان السلطان القائم ينزل للصلاة بها على من يتوفى من الأمراء وعلية القوم[2]

ويدل اهتمام السلاطين والأمراء بأعادة تجديدها وعمارتها على أهمية هذا النوع من المنشآت الدينية التى كانت تشتد الحاجة إليها فى أوقات الطواعين خاصة · فقد تعرضت هذه المصلى لأعمال الهدم والتدمير بسبب وقع أو شب الحريق الذى حدث بها سنه ٨٥٩هـ/١٤٥٥م فى عهد السلطان اينال ، وظلت كذلك إلى أن شرع يشبك من مهدى سنه ٨٧٣هـ/١٤٦٨م فى بناء مغسلا للأموات بميدان القلعة فجدد هذه المصلى وعمر مغسلها ، ثم تخربت ثانية بسبب ما وقع من حوادث بعد مقتل السلطان قايتباى ، ولما تزايد فتك الطاعون فى رمضان سنه ٩٠٣هـ/١٤٩٧م أمر السلطان الناصر محمد بن قايتباى بتجديدها[3] ولكنه لم يكن تجديدا شاملا حيث أن الظروف لم تسمح بذلك ، وظلت كذلك حتى قام الغورى بتجديدها تجديدا شاملا[4]

---

(١) راجع ابن حجر الدرر الكامنه جـ١ ص ٤٨

(٢) ابن اياس جـ٢ جـ٣ ص ١٤٩، جـ٤ ص ٩٧، ص ٢٠٨، ٣٩٨ السخاوى الضوء جـ١٢ ص ٢٧

(٣) ابن اياس جـ٣ ص ٣٨٠

(٤) ابن اياس جـ٥ ص ٩٢،٥٦ وثيقة الغورى ٨٨٤

ولعل موقع هذه المصلى عند القلعة قرب القرافة واهتمام السلاطين والأمراء بتجديد عمارتها يشير إلى أهمية هذا النوع من المنشآت ، الذى كانت تؤدى بها صلاة الجنازة وهى فرض كفاية أى إذا قام به البعض سقط عن الآخرين – كما ذكرنا – ولذلك دلالته بأن تكون المصلى مساحتها صغيرة لأن البعض فقط يقوم بتأديتها حيث يصطف المصلون وراء الأمام واقفين ، ويوضع الميت وضعه معينة حسب نوعه ذكر كان أو أنثى ثم تقام الصلاة. هذا فى الحالات العادية أما فى حالات كثرة الموتى بسبب الطواعين فكانت تستخدم المساجد الجامعة الكبيرة المساحة لذلك الغرض حيث ترص جثث الموتى ويصلى عليهم جميعا صلاة واحدة.

وهكذا تكون قد عرضنا لنوعيات منشأة الصلاة المختلفة والوظائف التى كانت تؤديها والعوامل المتحكمة فى هذه الوظائف سواء فى منشآت الصلاة أو فى المنشآت الدينية بصفة عامة من الناحية النظرية ويتبقى دراسة التطبيق العلمى من جانب المعمار المسلم لتكمل دراسة الجوانب المختلفة للنظرية الوظيفية فى العمارة الدينية المملوكية.

"الباب الثالث"

"نظرية الوظيفية والمعمار الإسلامى"

"نظرية الوظيفية"

رأينا من الدراسة السابقة فى البابين السابقين تطور الوظيفة التى كانت تؤديها المنشأة الدينية التى أخذت تتطور وتبلورت فى العصر المملوكى، وقد ساير المعمار الإسلامى تطور هذه الوظيفية فى منشآته من فترة إلى أخرى محققا الغرض الوظيفى الذى أنشئت من أجله.

ويحاول البعض تبسيط جهد المعمار الإسلامى فى هذا المجال فى قوله "إن العمارة الإسلامية كان لها دوافع روحية وعاطفية عظيمة هى التى حفزت المعماريين، والمتبع لتاريخها يشعر بكفاح المعماريين من أجل التطور والرقى ويشهد ببراعتهم وعبقريتهم، كما يشهد بقدرتهم البارعة على التأقلم لظروف المناطق المختلفة فى العالم الإسلامى الواسع[1] وهو تبسيط إن دل على شئ فهو يدل على أن هذه العمارة بهذا التقييم كانت تسير وفق نظريات عمل على أساسها المعمار الإسلامى كان أبرزها "نظرية الوظيفية" أساس نظريات العمارة الأخرى ولكن البعض يقرر أن "نظرية الوظيفية" لم تصبح "نظرية" فى العمارة تدرس وتناقش وتتبع إتباعا واعيا إلا فى العصر الحديث[2] وإذا كانت الوظيفية موجودة قبل ذلك فإن وجودها "كحقيقة" أو "مفهومية" عامة UVIVERSAL فى كل الثقافات وفى عمارة كل العصور ويعرفها المعماريون، وكتب عنها وعن "عنصر المنفعة" كل كتاب العمارة منذ فيتروفيس، وتظهر "صفة الوظيفية" فى أعمال كل المدينات"[3]

ولكن نظرة فاحصة لما ورد فى بطون كتب التراث الإسلامى، وما جاء ضمن وثائق وقف للمنشآت الإسلامية المختلفة تكشف عن وجود الأساس النظرى " لنظرية الوظيفية فى العمارة الإسلامية" وهو الأساس الذى يفسر به كل ما يتعلق بهذه العمارة من ظواهر. يؤكد ذلك الدراسة التحليلة التطبيقية للمنشات المتبقية فتحدد بصورة واضحة فروض هذه النظرية وسلامتها

---

(1) د. عرفان سامى. نظريات العمارة العضوية ص ٢٢٠
(2) د. عرفان سامى. نظريات الوظيفية فى العمارة ص ٢٩
(3) المرجع نفسه ص ٢٩-٣٠

وتكتمل جوانبها .

فإذا كان البعض ينظر إلى أن "الوظيفية" كانت "حقيقة" أو "مفهومية" أو "صفة" ولم تصبح نظرية إلا فى العصر الحديث لأنها أصبحت تدرس وتناقش وتتبع إتباعا واعيا ، فإن ما جاء ببعض مصادر التراث الإسلامى يكشف عن أن هذه النظرية كانت موضع بحث ودراسة ومناقشة وأن اختلف الأسلوب الإسلامى فى المنهج ، وامتاز بالشمولية فى مبادئه العامة وبالتخصصية فى جزئيات التطبيق . بمعنى أنها تبدأ من الأعم الأشمل كسياسة عامة وتنتهى إلى التخصص الدقيق فى كل فرع من فروع كإنعكاس للنظام الإدارى للدولة الإسلامية نفسه الذى يقوم على رأسه الحاكم ومعاوينه وينتهى إلى القاعدة العريضة من أفراد الأمة ، وبإختلاف هذه المستويات ومسئولياتها يتدرج البحث والدراسة والمناقشة تدرجا يبدأ مثلا من الحديث عن تخطيط المدينة ويتدقق إلى أن يصل إلى الدراسة لدقائق البناء وحرفه المختلفة . وهو كل يعمل فى إطار واحد وتؤثر وتتأثر جزئيات بعضها بالبعض الآخر . ومع هذا التنوع والتدرج تنوعت المصادر التى تعرضت للجوانب النظرية " لنظرية الوظيفية فى العمارة الإسلامية " بين كتب التاريخ السياسى الإجتماعى وكتب الحسبة، والمصادر التاريخية الأخرى التى تتحدث عن تاريخ المدن وتخطيطها بل وتسجيلها ، أو التى تضم بين الحين والآخر نصوصا تكشف وتؤكد أسس هذه النظرية ، وكتب الرحلات وغيرها[١].

فقد تضمنت كتب الإجتماع السياسى[٢] عادة ضمن فصولها بابا خاصا بالعمران يضع الأسس العامة والنظريات التى يجب على الحاكم المسلم إتباعها فيما يخص العمران ، وقد كانت هذه الكتب من تأليف علماء مختصين وعلى دراية وعلم واسع مثل العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع المتوفى سنه ٢٧٢هـ ٨٨٥م الذى ألف "كتاب سلوك المالك فى تدبير

(١) نظرا لإتساع القطاع العرضى لهذه المصادر فإننى سأعرض لبعضها بما يؤكد ما نسعى إليه وبصوره مكتملة .

(٢) من هذه الكتب على سبيل المثال "سلوك المالك فى تدبير الممالك على التمام والكمال لأحمد بن الربيع ، وكتاب السياسة لأبن حرم ، ابن محمد على ابن سعيد بن حزم الأندلسى ، وكتاب الشهب اللامعة فى السياسة النافعة لابن رضوان ، ومقدمه ابن خلدون وغيرها الكثير .

الممالك "على التمام والكمال" الذى ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسى (ت٢٢٧هـ ٨٤٢م) والذى يضع فى أحد فصوله الشروط التى يجب أن يتبعها من يريد إنشاء مدينة ويعددها فى ثمانية شروط هى: أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب أهلها ويسهل تناوله من غير عسف، وأن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولاتضيق ، وأن يبنى فيها جامعا للصلاة فى وسطها ليتعرف على جميع أهلها، وأن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها جوائجهم عن قرب، وأن يميز قبائل ساكنيها فإن لا يجمع أضداد مختلفة متباينة، وإن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه محاطين به من سائر جهاته، وأن يحيطها بسور خوف إغتيال الأعداء لأنها بجملتها "دار واحدة"، وأن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم ويستعينوا بهم ، ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها[1] وهذه الشروط الثمانية يتضح منها إلى جانب الدراسة المعمارية مراعاة جوانب الحياة السياسية والاجتماعية مما يؤكد أن العمارة ليست إنشاء وحسب بل إنشاء لوظيفة ينتفع بها الناس على الوجه الأكمل والموافقة بين الإنشاء وهذا الغرض ، والأصل الأساسى لنظرية الوظيفية.

واذا كان هذا المؤلف يمثل المستوى الذى وصل إليه حال الدراسات النظريه للعمارة والعمران، فإن نظرة الى ماكتبه أحد علماء القرن التاسع الهجرى كابن الازرق تكشف عن مدى تطور هذه الدراسات من واقع تراث حضارى إسلامى ممتد لقرون طويله سابقة. ولاشك أن تدعيم دراسته لنظريات العمران بالدراسات التطبيقية على المدن الاسلامية المختلفه وربط هذه الدراسة بالعوامل السياسية والاجتماعية يعد دراسة متكاملة ذات منهج سليم , تؤكد أن النظريات المعمارية الإسلامية " تدرس وتناقش " بأعلي مستوى من الدراسة والمناقشة ونذكر بعض النتائج التى توصل إليها ابن الأزرق على سبيل المثال لنؤكد من خلالها عمق هذه الدراسة , فمن هذه النتائج اذا بنيت المدينة وكمل تشييدها , بحسب نظر من شيدها " وبما اقتضته الأحوال " السماوية والأرضية " فيها فعمر الدولة , حينئذ , عمر لها , فإن

[1] ابن الأزرق (أبى عبد الله بن الأزرق ت ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م) بدائع السلك فى طبائع الملك ص ١٧١-٢٩٦

كان عمر الدولة فقيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت , وإن كان أمد الدولة طويلا فلا تزال المصانع فيها تشيد , والمنازل الرحيبة تكثر , وتتعدد ونطاق الاسوار يتباعد وينفسح , الى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة , كما وقع لبغداد وأمثالها " حكى الخطيب فى تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد فى عهد المأمون خمسة وستين ألف حمام , وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين , ولم تكن مدينة واحدة جمعها سور واحد لإفراط العمران " وقال ابن خلدون " وكذا الحال فى القيروان وقرطبة والمهدية ومصر والقاهرة , ثم يستطرد " وما تقدم من أن عمر الدولة عمر للمدينة المتوقف تأسيسها عليها هو حيث تكون تلك المدينة لامادة لها، يفيدها حفظ العمران بترادف النزول فيها ممن يجاوزها من النوادى فهناك يكون انقراض الدولة انقراضا لها , فيتناقص عمرانها شيئا فشيئا الى أن تقفر من الساكنين وتخرب "[1] وما جاء بهذه النتيجة من عبارات له دلالات كعبارة " بحسب نظر من شيدها " أى حسب رغبة من شيدها والرغبة تكون لغرض وظيفى معين , ثم عبارة " وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية " وهى عبارة تشير الى الدور الهام الذى يلعبه المناخ وظروف الموقع " بالنسبة للعمارة حتى تؤدى الوظيفة على خير وجه , ثم ان النتيجة ككل تكشف عن مدى تأثير " استمرار الوظيفية " على العمارة نفسها وهو معنى يكشف عن دراسة البعد الزمنى عند دراسة " النظرية الوظيفية الأسلامية " فى العمارة ٠

ويقول ابن الازرق تدعيما لذلك ايضا أن الذى تجب مراعاته فى أوضاع المدن أصلان مهمان " دفع المضار وجلب المنافع " الأصل الاول دفع المضار وهو نوعان: أحدهما أرضية ودفعها بإدارة سياج الأسوار على المدينة ووضعها فى مكان ممتنع، إما على هضبة متوعرة من الجبل أو باستدارة بحر او نهر بها ، حتى لايوصل إليها ألا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها، والثانى: سماوية ودفعها باختيار المواضع الطيبة الهواء لأن ماخبث منه بركود أو تعفن ،

---

[1] أبن الازرق بدائع السلك فى طبائع الملك ج٢ ص٢٧٤

لمجاورته لمياه فاسدة، أو منافع متعفنه , أو مروج خبيثة يسرع المرض فيه للحيوان الكائن فيه لامحالة كما هو شاهد بكثرة، " قال ابن خلدون " وقد اشتهر بذلك فى قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بأفريقية فلا يكاد سكانها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه " [1] والأصل الثانى جلب المنافع والمرافق وذلك بمراعاة أمور: أحدها، الماء كأن يكون البلد على نهر أو بازائه عيون غذقة لأن وجوده كذلك يسهل الحاجة إليه وهى ضرورية، الثانى: طيب مرعى السائمة وقربه للنتاج والضرع والركوب ومتى كان المرعى الضرورى لها كذلك، كان أوفر من معاناة المشقه فى بعده، والثالث قرب المزارع لأن الزروع هو القوت الضرورى وكونها كذلك أسهل فى إاتخاذها وأقرب فى تحصيله، والرابع الشعراء[2] للحطب والخشب، فالحطب لعموم البلوى به فى وقود النيران والخشب للمبانى وكثيرا مايستعمل فيه ضروريا وكماليا ، والخامس وليس بمثابه قبله قربه من البحر وما تدعو إليه ضرورة السكن[3] وهذه الأمور تبين النظرة البعيدة لوجوب تأمين وتسهيل الحياة داخل المدينة والتى بدونها لاتؤدى الغرض الوظيفى المراد.

ثم يتحدث عن عمليات البناء الضخمة فيقول " أن الهياكل العظمية لاتستقل ببنائها الدولة الواحدة ، وذلك لأمور مرجحه وشاهدة ، أحدها أن البناء يحتاج إلى التعاون عليه بجمع الأيدى الكثيرة ، ومضاعفه القدرة البشرية وحينئذ تبلغ مما عظم فيه الغاية المقصودة . والثانى أن المبانى قد تكون لعظمها أكثر من القدر ، مفردة أو مضاعفه الهندام ، لتحتاج الى معاودة أخرى فى أزمنه متعاقبة الى أن تتم ، كما يحكى أن سد مارب بناه وساق إليه سبعين واديا ، وعاقه الموت عن اتمامه فأتمه ملوك بنى حمير من بعده . والثالث أن الملك الواحد تجده يسرع فى تأسيس المبانى الضخمه فاذا لم يتمها من بعده من الملوك بقيت بحالها من غير تمام ، والرابع أن كثيرا من المبانى الهائلة عجز عن هدمها من قصرت مقدرته عن الهدم ، مع أنه أسهل من البناء ، لأنه رجوع الى الأصل الذى هو العدم ، والبناء على خلاف الأصل ،

---

[1] أبن الازرق بدائع السلك فغ فى طبائع الملك ج٢ ص٢٧٧
[2] الشعراء . الشجر الكثير .
[3] أبن الازرق بدائع السلك فى طبائع الملك ص٢٧٧-٢٧٩

وعند ذلك تعلم أن القدر الذى أسسه مفرطه القوة وأنها أثر دول عديدة "[1] وفى هذا القول إشارة الى ضرورة استكمال البناء والتغلب على عامل الزمن لتحقيق الهدف الوظيفى الذى نشأ له خاصة فى المشروعات الضخمة ، وإشارة ثانية إلى ضرورة متانة البناء وهى من عوامل تحقيق الغرض الوظيفى ، وتؤكد أن النظرية الوظيفية كانت فى المقام الأول وذات اعتبار فى الفكر الإسلامى المعمارى •

ثم فى موضع آخر يتعرض ابن الازرق الى العوامل التى كان لها تأثيرها على العمارة الإسلامية وتغير هذه العوامل فيقول " أن المبانى والمصانع فى الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها ، إلى من كان قبلها من الأمم ، وذلك لأمرين أحدهما ما ذكر عن البربر بعينه لأن العرب أعرق فى البدو وأبعد عن الصنائع ، والثانى أنهم كانوا قبل الإسلام أجانب عن الممالك التى استولوا عليها ، ولما تمالكوا لم ينفسح الأمر حتى تستوفى رسوم الحضارة ، مع أنهم استغنوا عما وجدوا من ذلك لغيرهم " ثم يستطرد فيقول ناقلا عن ابن خلدون " لاخفاء أن الدين اذ ذاك كان مانعالهم عن المغالاة فى البنيان والإسراف فيه ، وقد عهد لهم عمر رضى الله عنه حين أستأذنوه من بناء الكوفة بالحضارة وقد وقع الحريق فى القصب الذى كانوا بنوا به من قبل فقال : افعلوا ولايزدن أحدكم عن ثلاثة أبيات ولاتطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة ، وعهد للوفد وتقدم إلى الناس ألا يرفعوا بنيانا فوق القدر؟ قال : مالا يقربكم من السرف ولايخرجكم عن القصد " ، ثم يشير بعد ذلك الى تغير الحال فيقول " ولما بعد العهد بالدين والتحرج فى هذه المقاصد وغلبت طبيعه الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس ، واخذوا عنهم الصنائع والمبانى فحينئذ شيدوا المبانى والمصانع ، وكان عهد ذلك تقريبا بأنقراض الدولة ولم ينفسح الأمر لكثرة البناء واختطاط المدن والأمصار إلا قليلا [2] وفى هذا النقد مايشير الى حث الحاكم على الإكثار من المبانى بصورها المختلفة وتحقيق البعد المكانى لنظرية الوظيفية لان فى تكثير

---

[1] ابن الازرق • بدائع السلك فى طبائع الملك ج٢ ص٢٨٠

[2] ابن الازرق • بدائع السلك فى طبائع الملك ج٢ ص٢٨٢-٢٨٣

العمارة تعميق نظرية الوظيفية وأمتداد لها .

ثم يستمر ابن الازرق فى دراسته النقدية التى تؤكد على ضرورة مراعاة الجوانب المختلفة حتى تستمر العمارة فى أداء وظيفتها ، فيذكر أن " المبانى التى تخطها العرب يسرع إليها الخراب إلا فى الأقل وذلك لأمرين أحدهما شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما تقدم فلا تكون مبانيهم وثيقة التشييد ، والثانى وهو أمس به قلة مراغاتهم لحسن الاختيار فى أخطاط المدن بمراعاة ماتقدم من ذلك ، فإن بالتفاوت فيه تتفاوت جودة العصر أو رداءته من حيث العمران الطبيعى ، والعرب بمعزل عن ذلك ، إنما تراعى مراعى الإبل خاصة لاتبالى بالماء ، طاب أم خبث ، ولاقل أو أكثر ، ولايسألون على زكى المزراع والأهوية لإنتقالهم فى الأرض ، ونقلهم الحبوب من البلد البعيد ، والظعن كفل لهم بطيب الريح ، لاسيما فى القفر المختلف ، لأنها أنما تخبث مع القرار وكثره الفضلات " ويضرب لذلك مثالا فيقول " انظر لما أختطوا مدينه الكوفة والبصرة والقيروان ، لم يراعوافى اختطاطها الا مراعى الإبل ، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ، ولم تكن لها مدة ، يمتد عمرانها من بعدهم لما تقرر أنه يحتاج إليه فى حفظ العمران بأول وهلة ، لانحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لها ، أتى عليها الخراب والانحلال ، كأن لم تكن ، والله يحكم لامعقب لحكمه [1] وهذا يعنى أن الجوانب المختلفة التى أكدها فى دراسته لابد وأن تتوافر لها المسائل المختلفه التى تعرض لها جميعا والتى تتحقق بها جميعا " النظرية الوظيفية ".

واذا كان مثل هذه الدراسات ترسم السياسة والاطار الشامل للحكام المسلمين حتى يصلوا الى تحقيق " الوظيفة " التى يسعون إليها بشكل كامل ، فإن ماورد ببعض مصادر التراث الإسلامى التى تخاطب العامة لترقى بهم الى مرتبة الكمال أيضا فيما يفعلون ، وهذه النوعيه تتحدث عن الآداب العامة المتعلقة بجميع مناحى الحياة ، وفى تعرضها للبناء والعمارة مايشير إلى دلالة توثيق وتعميق " الوظيفية ، فى الفكر الإسلامى خاصه وأن الإنسان ينشىء المبنى ليخدمه ويحقق به غرضا " وظيفيا " ، ثم إن هذه النوعية من المصادر

---

(1) أبن الازرق . بدائع السلك فى طبائع الملك ج٢ ص٢٨٣

تختص بالتوجيه الفردى للعامة ، فهى بذلك تتكامل مع النوع السابق من الدراسات ، فإذا كانت المدينة أعم وأشمل فأنها تحتوى على الوحدات المعمارية المتنوعة وفى تعرض هذه المصادر للمبانى الخاصة كالمساكن والدور ماينقلنا إلى إطار أخص يكشف عن جوانب " النظرية الوظيفية فى العمارة الإسلامية " فى هذا الأطار ، ولعل من أروع ماجاء بهذه المصادر من نصوص ماذكره الدينورى فى "عيون الاخبار" بمانصه " وقال يحى بن خالد لابنه جعفر حين اختط دارا ليبنيها : هى قميصك فإن شئت فوسعه ، وإن شئت فضيقه " [1] ولهذا القول مضامينه العديدة التى تتلخص فى التأكيد على الربط بين الإنسان ومايبنيه لنفسه وحريته فى ذلك ، بل إنه يصل إلى أساس النظرية التى تقول أن الشكل يتبع الوظيفة أو ماتطور عنها من أن " الشكل هو الوظيفة نفسها " فالغرض الوظيفى هنا ليس مقيد ، ولكنه إطار متسع يشمل اختلاف الميول والأغراض ولكنه فى النهاية يؤكد " النظرية الوظيفية " بتحقيق هذه الميول والأغراض •

ومما يدل على أن الربط بين الاستخدام والإنشاء وهو من أهم أسس الوظيفية كان فى مخيلة المفكر الإسلامى ماجاءت به الأخبار من أن ابن التوأم دخل " على بعض البصريين وهو يبنى دار كثيرة الذرع ، واسعة الصحن ، رفيعة السمك ، عظيمة الأبواب ، فقال : أعلم أنك قد ألزمت نفسك مؤنه لاتطاق وعيالا لايحتمل مثلهم ، ولابد لك من الخدم والستور والفرش على حسب ما ابتليت به نفسك وإن لم تفعل هجنت رأيك " [2] ويؤكد هذه الصلة بين الأنسان والعمارة ماذكر من أنه " مر رجل من الخوارج بدار تبنى، فقال: من هذا الذى يقيم كفيل ؟ وقالوا كل مال لايخرج بخروجك ولايرجع برجوعك فى الوجوه بانتقالك فهو كفيل "[3] وهو أمر يشير الى الارتباط العضوى بين الإنسان والعمارة • وقد عكست الروايات والأقوال تأكيد هذه الصلة كقول أحدهم عن الدار " ليكن أول ماتبتاع وآخر ما تبيع "[4] وهو قول يؤكد أهمية الدار بالنسبة للإنسان •

---

[1] الدينورى • عيون الاخبار مجلدا ج٣ ص٣١١
[2] الدينورى • عيون الاخبار ج٣ ص٣١٢
[3] المرجع نفسه ج٣ ص٣١٢
[4] المرجع نفسه ص٣١٣

كذلك فأن التشبيهات التى أطلقها الشعراء على الوحدات المعمارية المختلفة والتى تنصب على الغرض الوظيفى لها دلالاتها من تعميق " الوظيفية " فى الوجدان ومن ذلك قول ابن الجهم :

صحون تسافر فيها العيون وتحسر عن بعد أنظارها
وقبه قوم كأن النجو م تصغى إليها بأسرارها
وفواره ثأرها فى السماء فليست تقصر عن ثأرها
ترد على المزن ما أنزلت على الأرض من صوب أقطارها
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بأنوارها
فهن كمصطحبات خرجن لفصح النصارى وإفطارها
فمن بين عاطفة شعرها ومصلحة عقد زنارها [1]

كذلك فأن الحرص على اختيار الموقع المناسب للمنزل والاستعانه بأولى الرأى فى ذلك ممن لهم خبرة [2] واستفادة المسلمين بخبرة سابقيهم فى هذا المجال أمر يؤكد جذور النظرية الوظيفية ويعمقها ، فقد أقر المسلمون قول أحد حكماء الروم فى البناء ونصه " أصلح مواضع البنيان أن يكون على تل أو كبس وثيق ليكون مطلا ، وأحق ما جعلت إليه أبواب المنازل وأفنيتها وكواؤها المشرق واستقبال الصبا ، فإن ذلك أصلح للأبدان لسرعه طلوع الشمس وضوئها •عليهم [3] وهذه الأقوال وغيرها التى تتعرض للتخطيط وعناصر الإنشاء والتهوية والأضاءة وغيرها واختيار أنسب الوسائل يؤكد الأساس النظرى لنظرية الوظيفية فى العمارة الإسلامية •

وهنالك من المصادر ماوضعت أسسا للمسكن تعرضت لما يجوز ومايتعلق به ، حسب السنه والشرع الشريف ، ومن مثلها كتاب "مكارم الأخلاق" الذى يتحدث مؤلفه فى فصل خاص عن المسكن ويشير فيه الى تفضيل المسكن الواسع عن المسكن الضيق ، والحد الذى يجب أن يرفع البناء إليه ، وأنه لايزيد عن ثمانية أذرع وإذا زاد عن ذلك فتكتب " آيه الكرسى" [4]

---

[1] الدينورى • عيون الاخبار ج٣ ص٣١٤
[2] المرجع نفسه ج٣ ص٣١٢-٣١٣
[3] المرجع نفسه ج٣ ص٣١٣
[4] نص هذه الايه : الله لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنه ولانوم له مافى السموات

فيما علا عن ذلك • كذلك وجدت الإشارة إلى وجوب الإقتصاد فى عمارة المبانى [١] وتعتبر هذه التوجيهات والتى وضعتها كتب الفقه فيما يخص المنشآت الدينيه بصفه خاصه من الأسس التى كونت أطار الوظيفية فى العمارة الإسلامية •

كذلك فإن مايرد فى كتب التاريخ عامة وكتب تاريخ المدن وخططها بصفة خاصة [٢] والتى كثرت المؤلفات حولها حتى أننا قد لانكون مبالغين فى القول بأنه قلما نجد مدينة من المدن العربية دون أن يؤلف لها تاريخ خاص إن لم يكن أكثر من كتاب [٣] بها عبارات النقد المعمارى التى لها دلالات تتعلق " بالوظيفية " فى العمارة الإسلامية فقد قال المقريزى نقلا عن ابن عبد الظاهر " سمعت غير واحد يقول : إنه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء هذا الجامع أسر للناس فيه من العيوب ، فقال رجل : محرابه صغير، وقال أخر: مافيه عمود ، وقال : آخر ليست له ميضأه [٤] ويذكر ابن تغرى بردى عن

(=) وما فى والأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولايؤوده حفظهما وهو العلى العظيم " صدق الله العظيم " • نلاحظ وجود هذه الآيه فعلا مسجله فيما ارتفع فى المبانى الأسلامية عن تسعة أذرع فنجدها فى قاعات الطابق الثانى بالمنازل وفى ازارات الأسقف وعلى رقاب القباب وطوابق المأذن فى المنشآت الدينية •

[١] رضى الدين ابن نصر بن أبى على فضل الله الطبرسى • مكارم الاخلاق الطبعة الثانيه المطبعه الخيرية بحوش عطى ص٥٠

[٢] تعرض كثير من المؤلفين العرب إلى تاريخ المدن وخططها فمن كتبوا عن البصرة مثلا ابن شبيه ، وألف عن بغداد " طيفور " سنة ٨١٩ م – ٨٩٣ م عدى ، وابنه ، والسرخسى والخطيب ، وألف عن الكوفة الهيثم بن عدى ، وعن المدينة المنورة ، المدائن ، وابن شبه ، وابن أبى سعيد الوراق ، وعن مكة المكرمة الواقدى والأزرقى، كما كتب عن دمشق أبن عساكر ، ولأحمد بن عيسى كتاب عن وصف حمص وتاريخها ، وللزهراوى كتاب عن قرطبه ، كما ألف عن مدينة القيروان أبو العرب الصهناجى ، وممن ألفوا عن مدن مصر المؤرخ ابن عبد الحكم صاحب كتاب "فتوح مصر وأخبارها" وللكندى " الخطط " وابن زولاق المصرى له " الخطط والمسبحى " وأخبار مصر ، وعميد كتاب الخطط تقى الدين المقريزى ، مؤلف المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار " وغير هؤلاء من المؤرخين والجغرافيين والرحاله مثل ابن جبير، وعبد اللطيف البغدادى ، وابن سعيد المغربى وابن بطوطه والعياشى والمغر بى ولسان الدين بن الخطيب •

[٣] عبد الرحمن زكى المدينة الاسلامية مجلة الفيصل عدد٢٧ ص٩٤ •

[٤] المقريزى خطط ج٢ ص٢٦٦

المدرسه المعزيه التى أنشأها المحز على النيل بمصر القديمة" وقف عليها أوقافا ودهليز المدرسه متسع طويل مفرط حتى ، إن بعض الأكابر دخل إلى هذه المدرسه ٠ المذكوره فقال " هذه الدرسه مجاز بلا حقيقه"[1] ٠

وقد نقد صاحب النجوم بناء جامع برسباى بالخانكه نقدا خفيفا صادقا فبعد مدحه قائلا " وجاء الجامع المذكور فى غايه الحسن إلا أن سقوفه واطئـه قليلا[2] وهذا النقد من غير المختصين المعماريين ربما كان نتيجه إدراكهم للمفهوم الوظيفى للمنشأه ، ويصدق على هذا ماذكره البغدادى عن أهل مصر " أن أبينتهم فيها هندسه بارعه وترتيب فى الغايه حتى أنهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا من مصلحة [3]٠

كذلك فإن فيما أورده المؤرخون أحيانا من إشارات تتعلق بتكاليف إنشاء العمائر ، قد يكون له صله بهذا المفهوم الوظيفى للمنشأه ، فيتحدث صاحب النجوم عن الناصر محمد فيقول وكان ينفق على العماره المائه ألف درهم فإذا رأى فيها مالا يعجبه هدمها كلها وجددها على مايختاره ، " وكان على العكس من ذلك والده المنصور قلاوون فإنه أراد أن " يبنى مصطبة عليها رفوف تقيه حر الشمس إذا جلس عليها فكتب له الشجاعى تقدير مصروفها أربعه آلاف درهم فتناول المنصور الورقة من يد الشجاعى ومزقها، وقال : أقعد فى مقعد باربع آلاف درهم ، انصبوا لى صواتا إذا نزلت على المصطبه ٠[4]

ثم ننتقل إلى نوعيه أدق وأهم من المصادر النظرية التى تؤكد وجود الأساس النظرى لنظرية الوظيفية فى العماره الإسلامية ، وهى وثائق وقف المنشآت ولعل أروع أمثلتها الباقيه وثائق الوقف المملوكيه ثم العثمانيه فهى بما تتضمنه من وصف دقيق للمنشآت ، وما تذكره من نصوص تحدد وظيفه كل وحده من وحدات المبنى عند ذكر وقف هذه المنشآت خاصه الدينيه منها ، ثم ماتذكره الوثيقه من موظفى هذه المنشآت أو تلك وتحديد المهام التى يقوم

---

[1] أبن تغرى بردى ٠ النجوم ج٤ ص١٤

[2] أنب تغرى بردى ٠ النجوم ج٥ ص١٦

[3] عبد اللطيف البغدادى فى مصر ص٥٢

[4] أبن تغرى بردى ٠ النجوم ج٩ ص١٧٦-١٧٧

بها كل من هؤلاء داخل المنشآة ، ثم مايضعه الواقف من شروط هامه تعتبر كاللائحه الداخليه لهذه المنشآت أو تلك ويعمل بها من خلال هذه الشروط ، يعتبر بحق الدليل القوى والأساس النظرى المتكامل على وجود " النظرية الوظيفيه " فى العمارة مدونة من خلال نصوص هذه الوثائق بدلالة الإستقراء والاستنباط .

ويمكن القول بأن نظام الوقف ومايتبعه من وجوب المحافظة على العين الموقوفة وضرورة استمرارها في وظيفتها التى أنشئت من أجلها مايعد من دلالات الوظيفية. وقد بدأ ذلك منذ عهد مبكر فقد كان القاضى أبا الطاهر عبد الملك بن محمد الحرمى الأنصارى (١٧٠ -٢٧٤هـ/ ٧٨٦ - ٨٨٧م) كان يتفقد الأحباس بنفسه ثلاثة أيام فى كل شهر فيأمر بمرمتها وإصلاحها وكنس ترابها ومعه طائفة من عماله عليها ، فإن رأى خللا فى شىء منها ضرب المتولى لها عشر جلدات [١] وقد أثار ترميم الأوقاف بعض الأراء التى تنادى بأن المرمة لاتشترط فى الأحباس ، ولكن القاضى عبد الله عبد الرحمن بن عبد الله العمرى قال " لولا المرمه مابقت الأحباس لأهلها " وكان يقف على مرمتها " ويجلس على البنائين أكثر نهاره " [٢] .

وفى العصر الفاطمى كان القضاة " إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يوما على المساجد والمشاهد والأضرحة بمصر والقاهرة يبدأون بجامع المقدس ثم القاهرة ثم المشاهد . ثم القرافه ثم جامع مصر ثم مشهد الرأس لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وماتشعث منه [٣] .

وفى العصر الأيوبى والمملوكى خاصة كان الحرص على الأوقاف شديدا حتى أن كل وثيقة وقف نصت على أن يبدأ الناظر بالصرف على عمارة الأعيان الموقوفه وترميمها أولا ولو صرف معظم الريع ، حتى لو أدى ذلك إلى قطع مرتبات المستحقين وأرباب الوظائف اللهم إلا المؤذنين والإمام والخطيب حتى ولو كان المحتاج أولاد الواقف [٤] وتلافيا لنفاذ الأموال

---

[١] الكندى . الولاه ص٣٨٣

[٢] ابن الحكم . فتوح مصر ص٣٤٥

[٣] المقريزى . خطط ج٢ ص٢٩٥

[٤] وثيقة وقف السلطان حسن ٨٨١٢ ص٤٨١ وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٢٥٨

والعجز عن الترميم اشترط بعض الواقفين أن يحفظ باقى ريع الأوقاف لمدة ثلاث سنوات أو خمس سنوات لما يتوقع الإحتاج إلى صرفه فى العمارة والترميم ، وإذا لم يستحمل الفائض فى هذه المدة يقوم الناظر بشراءعقار أو حصه فى عقار أو أرض ويوقفها بنفس شرط الواقف [1] ولم يكتف بعض الواقفين بذلك بل عينوا من المهندسين المعماريين والمرخمين والسباكين بمنشآتهم من يقوم بإصلاح وترميم مايتعرض للعدم والفساد [2] ،

وقد اهتم السلاطين كذلك بأمر ترميم وعمارة الأوقاف بصفه عامه فقد ولى السلطان حسن على سبيل المثال الأمير صرغتمس نظرا البتمارستان المنصورى سنه ٧٥٥ هـ ١٣٥٥ م وكان قد فسد حال وقفه ، فركب إلى أوقاف المارستان بالمهندسين ، وكشف مايحتاج إليه من العمارة ، فعمر مافسد من الأوقاف ، وزاد ريعها من الشهر نحو أربعين ألف درهم .[3] كذلك حرص السلطان برسباى على تعمير الأوقاف فأصلح من أوقافه ماأصلح وجدد منها ماجدد ، ليزداد ريعها وتحصل دخلا كبيرا . كذلك اهتم بالأوقاف الأخرى ، فقد رفع مثلا يد قاضى القضاة الشافعى عن وقف قراقوش سنه ٨٢٥ هـ وفوض أمره إلى التاج الشويكى والى القاهرة – على عهده – وأمره أن يجمع متحصله ويبنى منه خان السبيل ففعل ذلك وجدد بناءه ، وقد قام الشويكى المذكور أيضا بعمارة ميضأة للجامع الأزهر [4] كذلك فإن اهتمام السلاطين والحكام بعماره ماتهدم من الأبنية بسبب الحروب أو الزلازل أو الحريق [5] يدخل فى هذا الإطار وهو الرغبة فى المحافظة على استمرارية هذه المنشآت فى أداء وظيفتها على خير وجه

ومن العرض السابق يتضح أن " الوظيفية " كانت كنظرية تناقش

---

[1] وثيقة قايتباى ٨٨٩ أوقاف . وثيقة الجمالى أبو المحاسن يوسف ٣/١٨،١٧ محكمة

[2] وثيقة وقف جمال الدين الاستادار ١٧/١٠٦ محكمة وثيقة الغورى ٨٨٣ سطر ١٦٨ مابعده دراسة عبد اللطيف وثيقة قرقماس أمير كبير ٩٢ أوقاف .

[3] المقريزى . خطط ج٢ ص٤٠٥ السلوك ج٣ ق١ ص٧-٨

[4] راجع محمد عبد الستار عثمان . الآثار المعمارية للسلطان برسباى بمدينة القاهرة ص٥١-٦٠ ابن حجر أبناء ج٣ ص٩٨

[5] ابن تغرى بردى . النجوم ج ص

وتدرس وتتبع اتباعا واعيا كما أنها موجودة فى التراث الاسلامى ، وهى نظرية كان يقوم على تطبيقها المعمار الإسلامى الذى كان له من العلم والإدراك مايعينه على تطبيق هذه النظرية بكفاءه يكشف عنها التحليل المعمارى للمنشآت في ضوء الوظائف التى كانت تقوم بها وإمكانات العصر التي توفرت له ، مع إرتباط ذلك بظروف العصر وجوانب الحياة المختلفة فيه ،

ولذلك فإن اجلاء الضوء بالنسبة للمعمار الاسلامي وإعطائه حقه أمر ضروري وهو الحق الذى ينكره عليه البعض بأعتقاده أن " المعمارى فى العصور الوسطي معتبرا من طبقه الصناع أصحاب الحرف وينطبق عليه ماينطبق عليهم " بل ويطلق عليه الاصطلاح وليس بمعني المهندس المعمارى "[1] ،

" المعمار الإسلامي "

إذا كان البعض يأخذ علي المسلمين في بداية عهدهم استعانتهم ببنائين من الروم ، مثل مافعل الوليد بن عبد الملك ، وحاولوا من ذلك استنباط قصور العرب فى علم الهندسة فإنه بعد أن وضعت الدولة الإسلامية أسس الإستقرار بعد حركة الفتوحات الواسعة التى قامت ، لم يلبثوا أن نشطوا للفتح الثاني ، وهو الفتح العلمي فأتوا في الفتحين علي قصر المدة بما لم يسبق له مثيل في الأمم السابقة، وكان من ذلك أنهم ملكوا ناصية العلم كما ملكوا ناصية العالم ، وأحدثوا لهم مدنية خاصه صبغوها بصبغتهم ووسموها بميسمهم فى كل مظهر من مظاهرها ، وأبقوا لهم الأثر البين فيما نقلوه من علوم الأوائل، أما بالتنقيح أو التهذيب أو الزياده والاختراع فكان للهندسه فى هذا الأثر تجليها فى فرع البناء بذلك الطراز الإسلامي البديع بالأنظار المشاهد فيما خلقوه من الآثار[2] ،

وتحتاج إقامة المبانى إلى فريق متكامل من العاملين في مجال الإنشاء

---

[1] د ، عرفان سامى ، نظرية الوظيفية في العمارة ص٢٢ هامش ،

[2] أحمد تيمور ،أعلام المهندسين فى الإسلام ،ص١١ ،

والعمارة وتبرز مكانه المهندس [1] المعمارى بروزاً واضحا بين هذا الفريق ويؤكدها مايضعه القلقشندى من تعريف له بأنه هو الذى يتولى ترتيب العمائر وتقديرها ويحكم على أرباب صناعتها [2]. وأمام أهمية الدور الذى يلعبه المعمار الإسلامى ، كان يعتمد عليه اعتمادا رئيسيا فيما ينشأمن المدن والمبانى بإختلاف أنواعها وأغراضها فعندما شرع الخليفة المنصور العباسى فى بناء بغداد بعد أن اختار موقعها بنفسه ، وقع اختياره على المهندسين عبد الله بن محرز والحجاج بن يوسف وعمران بن الوضاح وشهاب بن كثير وأمرهم بتخطيطها ، وألزمهم أن يوسعوا فى الحوانيت ليكون لكل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ماتعتدل به المنازل ، وأن يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه ، أو الرجل النزية الذى ينزله ، أو أهل البلد الذى يسكنونه ، وحدد لهم عرض الشارع بخمسين ذراعا والدروب سته عشر ذراعا [3] ثم حدد لكل مهندس من المهندسين الأربعه ربعا من أرباع المدينه يتولى تنفيذه ، وضم إليه إثنين من رجاله للإشراف على الأعمال . وفى هذا مايدل على أن المهندس المعمارى كان يقوم بالتخطيط والإشراف على التنفيذ، وكان له من الإداريين من يساعده على ذلك ثم إن هذه الرواية تشير إلى أنه من الممكن أن يضع المنشىء بعض التوصيات ، أو التوجيهات عند إعداد التخطيط ليراعيها المهندس عند تخطيطه .

وقد حدث مثل هذا عندما وجه المأمون ابن موسى مهندسه قائلا " إذا

---

[1] المهندس أصلها مهندز وهى كلمة غير عربية لأنه لايجتمع فى العربية الزاى بعد الدال، وعرب إلى مهندس للتخفيف والتحلية (راجع أحمد تيمور - أعلام المهندسين فى الإسلام ص١٠٤) والمهندس هو المشتغل بالهندسة (ابن خلدون المقدمه ص٥٤١) وهى علم المبانى وبنائها واختلافها والأراضى ومساحتها ، وشق الأنهار وتنقية القنى وإقامة الجسور وغير ذلك (حسن الباشا الوظائف والألقاب على الآثار ج٣ ص١١٥٧) وقد يطلق على المهندس أحيانا لفظ المعمار فقد أستخدمت كلمة المعمار بدلاتين احداهما البناء أو المهندس والأخرى من أشرف على العمارة أو تولى أمرها (راجع حسن الباشا الوظائف والألقاب ج٣ ص١١١١) ومن هذا التعريف يتضح أنه كان هناك المعمار الإسلامى بمعنى وليس كما يطلق البعض

(د. عرفان سامى نظريه الوظيفيه فى العمارة ص٢٢ هامش) .

[2] القلقشندى .صبح الاعشى ج٣ ص٦٦٧ .

[3] اليعقوبى .البلدان ص٢٤١ ، أحمد تيمور أعلام المهندسين فى الأسلام ص١٤-١٦ .

بنيت لي بناء فاجعله مايعجز عن هدمه ليبقى طلله ورسمه [1] كذلك عاين السلطان الظاهر بيبرس رسم جامعة القاهرة فأشار " بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية وأن يكون على محرابه قبة قدر قبة الإمام الشافعي [2]" بل إن هناك من قام بإعداد الرسم بنفسه ثم أستشار بعد ذلك فيه المهندس ومثال ذلك الخليفه عبد المؤمن عبد بن على والى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ ١١٦٠ م الذى نزل بجبل الفتح وأمر ببناء حصن هناك اختط رسومه بيده وكان ممن بناه وأخذ رأيه فيه الحاج يعيش المهندس [3] وفعل نفس الشيء الأمير أيدغدى علاء الدين الأعمى الركنى ناظر أوقاف القدس والحرمين (ت٦٩٣ هـ ١٢٤٩ م) الذى يقال عنه أنه اختط حماما في بلد الخليل عليه السلام ورسم الأساس بيده وذر الجبس للصناع [4] وتخطيط الأرض بالجبس لتحفر الأساسات على أساس خطوطه مازال مستخدما إلى اليوم .

ويؤكد ماسبق ذكره ماذكره البغدادى حيث يقول " واذا أرادوا (أهل مصر) بناء ربع أودار ملكية أو قيسارية ، استحضر المهندس وفوض إليه العمل ، فيعمد إلى العرصة وهي تل تراب أو نحوه ، فيقسمها فى ذهنه ، ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد إلى جزء جزء من تلك العرصة ، فيعمره ويكمله ، بحيث ينتفع به على إنفراد ، ثم يعمد إلى جزء آخر ولايزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا إستدراك [5] وكانت أساليب ونظريات الإنشاء فى ذلك العصر وأهمها الإعتماد على نظرية الحوائط الحاملة ، وركن الزاويه من العوامل المساعدة على التنفيذ بهذه الطريقة ، بالإضافة إلى أن هذه الطريقة كانت تمكن من افتتاح المبانى قبل تمامها على أن تستكمل بعد ذلك للرغبه في سرعة الاحتفال بافتتاح المنشآت خاصة الدينية منها والتى كانت تفتح غالبا فور الأنتهاء من رواق القبله .

---

(1) الطبرى ج٩ ص٢٦١ ، حسن عبد الوهاب الرسومات الهندسيه للعمارة الإسلامية ص٧٨ .

(2) المقريزى . خطط ج٢ ص٣٠٠ .

(3) حسن عبد الوهاب الرسومات الهندسيه ص٨١ عن الحلل الموشيه فى ذكر الأخبار المراكشية .

(4) المرجع نفسه ص٨١-٨٢ عن الصفدى نكت الهيمان ص١٢٣ .

(5) عبد اللطيف البغدادى فى مصر ص٥٢ .

وكان المهندس المعمارى الإسلامى يقوم بوضع الرسومات الهندسية للمنشآت التى يتولى تخطيطها وتنفيذها لأن مثل هذه الرسومات ضرورى فى تنفيذ المنشآت وللأسف الشديد لم يتبق لمثل هذه الرسومات أى أثر مادى ، ولكن يمكن الاستدلال على وجودها بما جاء فى المصادر التاريخيه وغيرها ، فعندما طلب أبو جعفر المنصور بناء مدينه بغداد سنة ١٤١ هـ ٧٥٨ م، أستدعى المهندسين وكلفهم بها وطلب إليهم أن يعرضوا عليه تخطيطها " فخططت بالرماد ، وتنقل بين شوارعها ورحابها وأعتمد الرسم وأمر بالتنفيذ على مقتضاه [١] ولما شرع أحمد بن طولون فى بناء مسجده بالقطائع سنة ٢٦٣هـ ٨٧٦م كتب إليه مهندسه يقول " أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلاعمد إلا عمودى القبله ، وأنا أصوره حتى تراه فأمر بأن تحضر له الجلود، فأحضرت ورسم المسجد له فأعجبه وأستحسنه [٢] وحينما أراد أبو الحسن على بن عيسى بناء مسناة داره التى أشتراها من ورثة بيزوك على نهر دجلة فى سنة ٢٩٢ هـ/١٠٠٣م قدر لها مائة ألف درهم حسب تقدير أبى أسحق إبراهيم ، وصور له البناء فعرضت عليه الصورة مع المقايسة [٣] .

كذلك فإن استخدام المهندسين فى عمل رسومات لمنشآت قائمه فعلا يدل – من باب أولى – على إعداد رسومات لما يستجد من منشآت فعندما ذكر لأبى جعفر المنصور الضيعة المعروفة بالسبيطية من أعمال البصرة ، طلب من بعض المهندسين تصويرها ، فصورها له وعرضت عليه الصورة فأستحسنها [٤] وحينما أراد الغورى معرفة تخطيط مدينة الأسكندريه سنة ٩١٦هـ كلف المهندس حسن الصياد ، الذى اختار أرضا فضاء بجهة المطرية وخطط عليها بالجبس صفة المدينة بأبراجها وأبوابها وأسوارها ومنازلها ثم

---

[١] حسن عبد الوهاب ،الرسومات الهندسية ص٨١ عن مناقب بغداد ص١٥ ، واللمعات البرقيه ص١٨ .

[٢] المقريزى ،خطط ج٢ ص٢٦٤-٢٦٥ .

[٣] حسن عبد الوهاب ، الرسومات الهندسيه ص٨١ ، عن تحفه الأمراء فى تاريخ الوزراء ص٢٨٧ .

[٤] الجهشارى ، الوزراء والكتاب ص١٢٣ حسن عبد الوهاب الرسومات الهندسيه للعماره الأسلاميه ص٨١

دعى السلطان لمشاهدتها فنزل من القلعه يوم الأربعاء ١٩ رجب سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م وعاين الرسم وأعجب به [١] ٠

وكان المهندس المعمارى يقوم أحيانا بعمل النماذج المجسمة " الماكيت " للمنشأة أو بعض أجزائها ، كما يحدث الآن ، فيذكر ابن بطوطة أن أمير المؤمنين أبى عنان أمر بعمل نموذج يمثل جبل طارق بحصنه وأسواره وأبراجه وأبوابه ودار صناعته ومساجده وصورة الجبل وما اتصل به من التربه الحمراء ، فصنع له ذلك ، ويبدو أن ابن بطوطه عاين هذا النموذج بدلالة تعليقه عليه بقوله " فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع اتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد المثال [٢] ، ولاشك أن عمل النموذج يوضح المقصود أكثر من الرسم الذى يحتاج إلى بعض الإدراك لتفهمه ٠ ومن هذه الأمثله أنه لما أنشئت منارة جامع توزر إحدى مدن أقصى إفريقيه سنة ٤٢٢ هـ ١٠٣٠ م وارتفع بناؤها إلى قمتها ، شعر البناء بدنو أجله ، فعمل ثلاثة نماذج لخوذتها من شمع ليختار خلفه مايروق له منها وعين لهم اسم بناء من القيروان يقوم بتكملتها بعده [٣] وهذه الرواية تبين بالإضافة إلى وظيفة عمل النموذج ، الإبتكار والتنويع الذى كان يتمتع به المهندس ، بالاضافة إلى حرصه على إتمام عمله بالصوره التى أرادها هو لدرجة أنه يضع النماذج التى تعمل من بعده بل يختار من يخلفه فى عمل ذلك ٠

كذلك يستدل البعض على وجود الرسومات والنماذج المجسمة للعمائر الإسلامية بتلك التصاوير والرسومات التى وجدت للعمائر الإسلامية فى المخطوطات وبوجود أسواق وحوانيت للرسامين ، أو بتلك النماذج المجسمه للتحف التى كانت بقصور الخلفاء والأمراء ، أو التى كانت تصنع من الحلوى فى المواسم والأعياد وتلك النماذج الخشبية للقلاع والحصون التى كانت تعمل فى حفلات استقبال السلاطين وعودتهم منتصرين [٤] وهو استدلال به بعض

---

[١] الجبرتى ٠ عجائب الأثار ج٣ ص١٧٥ ٠

[٢] ابن بطوطه تحفة النظار فى غرائب الأمصار ج٢ ص١٧٩ ٠

[٣] حسن عبد الوهاب المرجع نفيه ص٨٢-٨٦ ٠

[٤] حسن عبد الوهاب المرجع نفسه ص٨٢-٨٦ ٠

التجاوز .

ولكن نظره فاحصة لمساقط وتخطيطات بعض العمائر المتبقية ، تؤكد أن هذه المنشآت كانت تنفذ من واقع رسومات وتخطيطات معدة لها ، ويؤكد ذلك مانراه فى هذه المنشآت من إزوراوت وشطرات تستوجب عمل رسومات لها قبل الإنشاء، وبهذه الرسومات استطاع مهندسو هذه المنشآت تنفيذها بعد إدراكهم وتغلبهم على ماقد يتعرض لهم من مشكلات معمارية فيما جهزوه لها من رسومات مسبقة ، ونضرب لذلك مثلا بالمنشآت الدينية المملوكية داخل القاهرة التى حاول فيها المهندس المواءمة بين عدم انتظام المساحة ، واتجاة الشوارع ، والقبلة وخلق مساحة منتظمه من الداخل ، وإخفاء الشطرات وأستغلالها فيما الحق بهذه المنشآت من ملحقات وبضخامة الجدران وازدياد سمكها فى قطاع ، وبساطتها فى قطاع آخر واستغلال ذلك استغلالا كاملا كما حدث فى مدرسة القاضى عبد الباسط سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م ومدرسة الأشرف برسباى بالأشرفية سنة ٨٢٧-٨٣٣هـ/ ١٤٢٤ - ١٤٣٠م وجوهر اللالا بالمنشية سنة ٨٣٣ هـ/ ١٤٧٩م ، وتغرى بردى بالصليبيه سنة ٨٤٤ هـ ١٤٤٠ م ، وأبى بكر مزهر بحارة برجوان سنة ٨٨٤ هـ ، وقجماس الإسحاقى بالدرب الأحمر سنة ٨٨٦ هـ -١٤٨١[1] كذلك فإن الكثير من التفاصيل المعمارية المتعلقة بالإنشاء لا يمكن أن تتم بدون عمل مساقط رأسية لها أو" واجهة أو قطاع " فيحتاج بناء الواجهة أو القبه أو المئذنة مثلا إلى عمل رسومات لها حتى يتم بناؤها وفق هذا الرسم أو ذاك ، ومما يؤكد أن الرسومات كانت تعد مسبقا ليعمل من خلالها الصناع من التنفيذ ، أن الأمير علم الدين الشجاعى لما أنشأ دار السلطنة بقلعة دمشق سنة ٦٩٠ هـ ١٢٩٠ م ، فعجل الفراغ فيها ، وأستحث العمال على سرعة نهوها ، ففى الوقت الذى شرع فيه بحفر الأساس كان النجارون شرعوا فى عمل السقوف والنجارة ، وما كان هذا ليتم إلا بوجود رسم لدار السلطنة ورسومات لتفاصيلها . كذلك فإن مانراه بمدخل مدرسة السلطان حسن الذى لم يستكمل نقش زخارفه التى رسمت على الأحجار على جانبى المدخل ،

---

[1] حسن عبد الوهاب . الرسومات الهندسية ص٨٣ .

يعتبر دليلا ماديا على ماكان متبعا من عمل رسومات مسبقة ينفذ من واقعها الصناع .

وكان المهندس المعماري يقدر تكاليف الانشاء والتنفيذ للمبنى من خلال ما يعده له من تخطيطات ووفق أسعار مواد الإنشاء وأجور العمال ، أي أنه كان بعد مايسمى " بالمقايسة " حتى يكون صاحب المنشأة على بينة من أمره ، فعندما خطط المهندس صالح بن نافع للإخشيد بستانه المختار وقصرا بالروضة ، استحسنه وسأله عن مقايسته ، فقيل له : ثلاثين ألف دينار ، فطلب تخفيض قيمتها وأذن له بالتنفيذ [1] .

ولم يقتصر المهندس الإسلامي على تخطيط وتنفيذ مايستجد من مباني، ولكن كان يقوم بمعاينة القديم منها ، وتقرير صلاحيته من عدمه ، ولعل ماقام به المهندس على بن البواش أروع أمثله ذلك فقد عهد إليه الاخشيد سنة ٣٢٦ هـ ٩٣٧ م بمعاينة وفحص كنيسة أبى شنوده بالفسطاط ووضع تقريرا عنها بأنها تبقى خمسة عشر عاما ثم يسقط موضع منها ، ثم تقيم تمام الأربعين سنة وتسقط جميعها ، وكان من أمورها ماقرره هذا المهندس[2].

ويدخل في إطار الترميم والإصلاح الذى قام به المهندس الإسلامي تعديل تخطيطات المباني القائمة ، مثال ذلك ماقام به المهندس أحمد بن عبد الله بن محمد الذى " جاور بالمدينة نحو عامين يضبط بعض العمائر وكذا ضبط بعض العمائر في غيرها ثم عاد إلى القاهرة [3] وقد كان يعين مهندس للحرم فيما أعتقد للقيام بهذا العمل ، وممن شغلوا هذه الوظيفة عبد الرحيم بن محمد بن عمر الزين الطولوني الشافعي مهندس الحرم ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م [4]

وأمام هذه الأهمية للمهندس ومع حركة الإنشاء والعمارة أنشئت المدارس لتخريج المهندسين ، مثل المدرسة التي أنشأها نجم الدين اللبودى من أهل القرن ٦هـ ١٢م [5] هذا بالإضافة إلى من كان يتعلم منهم على يد الأساتذه

(1) المقريزى ،خطط ج٢ ص١٨١ .
(2) المقريزى ،خطط ج٢ ص١٨١ .
(3) السخاوى ،الضوء ج١ ص٣٧٦ ، أحمد تيمور أعلام المهندسين فى الإسلام ص٦٣
(4) أحمد تيمور : أعلام المهندسين فى الإسلام ص٦٣
(5) مجلة المجمع العلمى بدمشق مجلد ٦ص١١

المختصين خارج المدارس ، فمع تقدم العلم توافرت المؤلفات الهندسية التى ساعدت على الإرتقاء بمستوى المهندس المعمارى الإسلامي ومن بينها على سبيل المثال : المؤلفات فى علم العقود الذى عرفه شمس الدين محمد بن إبراهيم الأنصارى المعروف بإبن الأكفانى السنجارى المتوفى سنه ٧٤٩هـ ١٣٤٨م بأنه علم يعرف منه أحوال أوضاع الأبنية وكيفية شق الأنهار القنى وسد الشوق ، وتنفيذ المساكن ، ومنفعته عظيمة المدن والقلاع والمنازل وفى الفلاحة كتاب لأبن الهيثم وكتاب الكرخى[١] وهناك من الرسائل الصغيرة ما تعرض بالدراسة للعناصر المعمارية كرسالة الباذاهنج التى ألفها ابن رجب وغيرها .

وكان المهندس الإسلامي يتجول فى بلاد العالم الإسلامي يعمل هنا وهناك [٢] ويستفيد الخبرات ، مثال ذلك علم الدين تعاسيف الذى عمل بمصر والشام والموصل وبنى أبراجا بحماة ، وطاحونا على نهر العاصى للملك المظفر[٣] . وهناك من أشتهر من المهندسين بالبراعة فى أنواع معينة من الأبنية مثال ذلك جعفر القطاع الذى " كانت له اليد الطولى فى هندسة الدور وعمارتها [٤] ومن تخصص فى عمل الجسور مثل أبو بكر بن البصيص البعلبكى الذى عمر جسر نهر الكلب سنة ٧٤٤ هـ ١٣٤٣ م وجسر نهر الدامور الجارى بين صيدا وبيروت [٥] والمهندس قطلويك ابن سنقر مهندس الرى الذى عمر قناة بالقدس واستدعاه الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر عهدا إليه بمشروع عمل قناه لماء من بركة الجيش لم تتم .

وخلاصة الأمر أن المهندس المعمارى الإسلامي وصل إلى مرتبة عالية حتى أن أحد ملوك الروم لما تغلب على مرسية بنى للمهندس الرقوطى مدرسة " فكان يقرىء بها المسلمين واليهود والنصارى جميع مايرغبون

---

[١] حسن عبد الوهاب . الرسومات الهندسية ص ٧٧ عن إرشاد القاصد ص ٨١-٨٢

[٢] أحمد تيمور أعلام المهندسين ص ٢٦-٤٩

[٣] المرجع نفسه ص٤٩-٥٠

[٤] المرجع نفسه ص٤٨-٤٩

[٥] صالح بن يحى تاريخ بيروت ص١٠٨ حسن عبد الوهاب الرسومات الهندسية ص٧٩

بألسنتهم ثم استقدمه ثانى الملوك من بنى نصر ، وأشاد بذكره وأخذ عنه الجم الغفير ، وكان يعده لمن يقدر عليه من أصحاب الفنون فيجاريهم فيغلبهم غالبا، ولم يزل على ذلك إلى أن مات [1] .

كذلك فإن ماوضعه المهندس الإسلامى من نظريات هندسية يشهد له بالفخر والتقدير [2] وكان لابتكارات المعماريين منهم فى مجال العمارة فى التخطيط والإنشاء فيما لم يسبقه إليه غيرهم مثل رائع على مكانة المهندس المعمارى [3] بل حسبهم فضلا أن أهل مقاطعة بلنسية بالأندلس مازال معولهم إلى اليوم فى أنهارهم على ماوضعه المهندسون الإسلاميون من نظام محكم لتوزيع الماء حتى قال بعضهم " لولا ماأقامه لنا العرب من القناطر والجسور لمتنا وماتت أراضينا ظمأ " [4] .

* المهندس المعمارى فى العصر المملوكى*

كان لحركة التشييد والعمران التى نشطت نشاطا كبيرا فى العصر المملوكى أثرها فى إبراز أهمية المهندس المعمارى فى ذلك العصر ، فهو الذى يقوم بتخطيطها ، ويشرف على تنفيذها، وهو صاحب الخبرة الذى يلجأ إليه السلاطين والأمراء وغيرهم لإنشاء ما يريدون من منشآت ومشاريع. فعندما أراد الملك الظاهر بيبرس إنشاء جامعه المعروف بحى الظاهر سنه ٦٦٥هـ/١٢٦٧م أرسل الأتابك فارس الدين أقطاى ، والصاحب فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا وجماعة من المهندسين لاختيار مكان لبناء الجامع ، وفى يوم الخميس ٨ ربيع الآخر سنه ٦٦٥هـ ١٢٦٦م ، خرج معهم السلطان لمعاينة المكان الذى وقع الاختيار عليه ، وعرضوا عليه مقايسته ، وما كان يتعلق به ، ثم رسم بين يديه شكل الجامع ، فأشار بأن يكون بابه مثل

---

[1] أحمد تيمور أعلام المهندسين فى الأسلام ص٥٥-٥٦
[2] المرجع نفسه ص٢٣-٥٣
[3] المرجع نفسه ص١١
[4] أحمد تيمور أعلام المهندسين فى الإسلام ص ١٢

باب المدرسه الظاهرية ، وأن يكون علـى محرابه قبة علـى قدر قبة الإمـام الشافعي[1] كذلك فإن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر بطلب المهندسين من دمشق وحلب والبلاد الفراتية ، وجميع المهندسين من أعمال مصر كلها قبليها وبحريها لأخذ رأيهم فى تنفيذ جسر بوسط النيل أراد عمله.[2]

وكان المهندس يقوم بعمل التخطيطات اللازمة لإنشاء هذه المبانى ، ولم يجمد عند تخطيط بذاته ، فشيوع التخطيط المتعامد سواء فى المنشآت الدينية أو المدينة[3] فـى العصـر المملوكـى لايعنـى جمـود المهندس عنـد هـذا التخطيط بقدر ما يدل على تفهمه لمميزات هذا التخطيط واستغلاله بدلالة أداء المباني المشيدة حسب هذا التخطيط وظائفها بكفاءة تامة. كما أن نظرة إلى التخطيطات الأخرى التى تكشف عنها الآثار الباقية وما يرد بوصف العمائر ضمن وثائق الوقف والمصادر والتاريخية الأخرى تكشف عن عبقرية المعمار الإسلامى فى ذلك العصر فى التخطيط.

كذلك فقد طور المهندس المملوكى فى أساليب الإنشاء بالحجر ، واستخدمه ابن السيوفى فـى إنشاء المآذن المملوكية لأول مرة عندما أنشأ مئذنة المدرسة الأقبغاوية ، وكانت العادة أن تبنى قبله بالآجر، وقد أدى إستخدام الحجر فى بناء المآذن المملوكية إلى تقدمها وتطور أساليب بنائها مستغلاً فى ذلك المميزات البنائية للحجر ، وانعكس ذلك فى مسقطها وشكلها وحجمها ، وهو تطور بلغ ذروته فى مئذنة الغورى ذات الرأسين والسلمين والبدن المكسو ببلاطات القاشانى والطابق الثانى الذى يتضلع سته عشر ضلعا.

ولم يدخر المهندس المملوكـى جهدا فـى تلبية رغبة السلاطين والأمراء، فقد أوفد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون المهندس أبجيج لمعاينة دهيشة حماة ليبنى له مثلها بالقلعة [4] وإذا كانت هذه

---

[1] المقريزى. خطط جـ٢ ص ٣٠٠ حسن عبد الوهاب الرسومات الهندسية ص ٨١

[2] المقريزى. خطط جـ٢ ص ١٧٦

[3] استخدم هذا التخطيط فى قصر الظاهر بيبرس بدمشق أحمد تيمور أعلام المهندسين.

[4] المقريزى . خطط ج٢ ص٢١٢

الرواية تبين لنا إحدى الطرق التى بسببها تشابهت بعض النماذج المعمارية فى البلاد الإسلامية ، فإنه كانت هناك أسبابا أخرى فعندما تولى شاد العمائر بناء جامع قوصون استعمل فيه الأسرى ، وكان قد حضر من بلاد توريز بنى مئذنتى هذا الجامع على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبى سعيد فى جامعه بتوريز [١] كذلك فإن توطيد العلاقة بين أقاليم الدولة الإسلامية عن طريق المصاهرة أو غير ذلك يعد من بين هذه الأساليب .

وقد كان المهندس فى العصر المملوكى يقوم بجانب تخطيط وإنشاء الجديد من المنشآت بترميم وأصلاح مايحتاج إلى الإصلاح منها ، أو التعديل فيها ونضرب لذلك مثلا بأعمال المهندس حسن بن حسين الطولونى الذى قام بإصلاح مسجد القلعة وتوسيع صهريج المياه الخاص بالفوارة ، وقام بإصلاح جامع الروضة ، وبناء طواحين المياه والنواعير بالقاهرة ، وربما أصلح حينذاك مقياس النيل ، كذلك أصلح قنطرة أبى المنجا [٢] .

ومما تجدر الإشارة إليه ماتضمنته وثائق الوقف المملوكية من حرص شديد على ضرورة إصلاح وترميم المبانى يؤكد دور المهندس المملوكى فى الترميم بل إن من الواقفين من عين للأوقاف مهندسا معماريا يتولى رعايتها من الناحية المعمارية ، مثل جمال الدين الأستادار الذى " رتب أيضا رجلا عارفا بوظيفة المعمارية بالخانقاة المذكورة وماهو منسوب إليها من الأوقاف ، على أن المعمار المذكور يتفقد الأماكن الموصوفة كل حين ، وينظر إليها ، وينبه على العمارة والإصلاح ، ويحث المتحدث على فعل ذلك، ويفعل ما يفعله أمثاله من المعمارية على العادة بالأوقاف فى مثل ذلك ويصرف له من الفلوس المذكورة فى كل شهر ستون درهما [٣] كذلك خصص قايتباى مبلغا من ريع أوقافه " يصرف لرجل من أهل الخير والأمانه يكون معمارا بالأوقاف المذكورة أعلاه ويحضر يوم العمارة فى الوقف المذكور لتعهد الصناع فى العمل ويحثهم عليه ويمنعهم من البطالة وغير ذلك مما جرت العادة به " [٤] وكذلك خصص الغورى " أربعمائة درهم تصرف لرجلين

---

[١] المقريزى · خطط ج٢ص٣٠٦
[٢] عبد الرحمن زكى · بناة القاهرة ص٩٠-٩١
[٣] وثيقة جمال الدين الأستادار ١٠٦/١٧ محكمه
[٤] وثيقة قايتباى ٨٨٦ ص١٣٣

مهندسين عارفين بالأبنيه ماهرين فى صناعتهما ، وقطع فرط عيوبها يقررهما الناظر على هذا الوقف فى وظيفة المعمارية بهذا الوقف ، يتفقدان أبنيته ، ويحضران ماتحتاج إليه العماره من مون وبنائين وغير ذلك مما تدعو الضرورة إليه ويقفان على الشد والهدم والبناء عادة أمثالهما فى ذلك[1] ولعل فى تعيين الغورى لمهندسين معمارين دلالته فقد كثرت مبانى أوقافه سواء التى أنشأها أو التى استولى عليها بالطرق المختلفة ، كذلك فإن هذا النص يكشف عن دور المهندس كذلك فى تشوين مواد البناء اللازمة وإنها كانت لتتم تحت نظره ٠

ولم يكن نشاط المهندس المعمارى فى العصر المملوكى مقصورا على الإقليم الذى يقيم فيه ، بل إنه كثيرا ماكان يوجه للعمل فى أى جهة يكلف بالعمل فيها ، فقد استدعى الناصر محمد المهندسين من دمشق وحلب والبلاد الفراتية لاستشارتهم فى الجسر الذى كان يريد عمله فى النيل ، وأرسل السلطان قايتباى سنة ٨٨٦ هـ ١٤٨١ م إلى القدس جماعة من المهندسين ضمن بعثة من المتخصصين فى صناعة البناء لإنشاء مدرسة وقبة وسبيل بها[2] هذا بالإضافة إلى إرسال المهندسين والبنائين لعمل مايتطلبه الحرم الملكى والحرم النبوى من ترميمات وإصلاحات [3] فقد كان السلطان المملوكى مسئولا عنهما باعتباره " حامى الحرمين الشريفين " ومن أشهر المهندسين الذين قاموا بمثل هذه الترميمات شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد الطولونى الذى أوفده السلطان برقوق عدة مرات لإصلاح المسجد الحرام [4] وكان المهندسون والبناؤن يخرجون كذلك لعمارة ماتهدم من أسوار القلاع والحصون ولإصلاح الآبار بطريق الحج أو غير ذلك من الأعمال التى تتطلب سرعة إنجاز لخطورتها[5] ٠

---

(1) وثيقة الغورى ٨٨٣ أوقاف سطر ١٦٠٣ ومابعده دراسة عبد اللطيف أبراهيم

(2) حسن عبد الوهاب توقيعات الصناع ص٥٤٤ عن الأنس الجليل ج٢ ص٦٥٧ حسن الباشا الوظائف والألقاب ج٢ ص١١٥٩

(3) راجع على سبيل المثال إصلاحات السلطان برسباى لعمارة بلاد الحجاز محمد عبد الستار الآثار المعمارية للسلطان برسباى بمدينة القاهرة ص٥٧-٥٩

(4) د٠عبد الرحمن زكى ٠ بناة القاهرة ص٨٨ السخاوى الضوء ج١ ص٢٢

(5) ابن تغرى بردى النجوم ج١٠ ص٨٨ ، ص١٣، ١٠٧، ١١٣

وإذا كان هذا هو دور المهندس المعمارى فى العصر المملوكى ، فإنه دور يعكس أهميته التى انعكست أيضا فيما كان يخصص للمهندس فى العصر المملوكى من المناصب الرفيعة ومايقرر له من مرتبات كبيرة ، فضلا عما كان يأخذه من مكافأة نظير لإتمام بناء العمائر او ترميمها وإصلاحها • فكان من ضمن الحاشية السلطانيه مهندس يسمى مهندس العمائر ، كان يتولى ترتيب العمائر وتقديرها ويحكم على أرباب صنايعها ، وكانت ألقابه فى درجتين الأولى مجلس الصدر ، والثانية درجة الصدر ، وكان يلقب بلقب الرجل الكبير المحترم المؤتمن ، وربما زيدت ألقابه عن ذلك فى غير السلطانيات[1] •

ومن الألقاب التى تلقب بها المهندس المعمارى فى العصر المملوكى لقب المعلم [2] وكان يلقب رئيس المهندسين بلقب " معلم المهندسين " وممن تلقب بهذا اللقب حسن بن حسين الطولونى وابنه شهاب الدين أحمد [3] •

وفى إطار نظام توارث الوظائف والحرف الذى انتشر فى هذا العصر ، اشتهر فى العصر المملوكى أسر معينة بالهندسة ، ومن هذا الأسر ، أسرة الطولونى ، وأسره الصياد [4] ولاشك أن إقبال الأبناء على حرفة آبائهم فى الهندسة كان لما يتمتع به هؤلاً من ميزات فى ذلك العصر ، فقد ألغى الناصر محمد بن قلاوون مسكنا خاصا بالمهندسين كان يسمى متوفر الجراريف [5] وكانت مكافأة السلطان أو الأمير على إتمام المنشأة كبيرة بالإضافة إلى ماكانوا يتقاضونه من مرتبات ، كذلك فإن تقرير جزء من ريع

---

[1] القلقشندى صبح الأغشى ج٥ ص٤٦٧ د• حسن الباشا الوظائف والألقاب على الآثار ج٣ ص١١٥٨

[2] يأتى لفظ معلم كوظيفة لمؤدب الأيتام ، وقد أشتق فيها أسماء وظائف أخرى مثل معلم الحمام ، ومعلم الرماحة ، ومعلم العشاب ، ومعلم الزرد خاناة ، واستخدمت كلقب كذلك للصانع الماهر الذى يعتقد لإنه يتمتع بشيء من الإشراف على غيره من الصناع، وكان له فضل تعليم غيره من أبناء حرفته (حسن الباشا ج٣ ص١١٠٨-١٠١٠).

[3] د• عبد الرحمن زكى • بناة القاهرة ص٩٠-٩١ حسن عبد الوهاب الرسومات الهندسية ص٨٠

[4] عبد اللطيف إبراهيم على • الوثائق فى خدمة الآثار ص٥-٦

[5] المقريزى • خطط ج٢ ص١٥٢ ، حسن الباشا الوظائف ج٣ ص١١٥٨

الأوقاف يصرف منه على ترميم المنشآت كان يعتبر هو وتعيين المهندسين للقيام بترميم الأوقاف من مفاتيح الرزق التى توفرت لهم .

ومما يشير إلى المرتبة الرفيعة التى وصل إليها المهندس فى العصر المملوكى مصاهرة شهاب الدين أحمد بن الطولونى مهندس السلطان برقوق الذى أنشأ له المدرسة والخانقاة بشارع المعز للسلطان برقوق نفسه الذى تزوج إبنة هذا المهندس[1] كذلك اشتهر الكثير من المهندسين فى العصر المملوكى ، ومما يدل على شهرة بعضهم أن أولاد المهندس ابن غنائم صاروا يعرفون من بعده ببنى المهندس [2] .

ومما يدل على هذه الشهرة ارتباطا أسمائهم بسلاطين المماليك ومنشآتهم فقد اشتهر عن ابن غنائم بأنه مهندس الظاهر بيبرس ، فقد بنى له المدرسة الظاهرية بدمشق وبنى له بها أيضا قصرا كبيرا [3] واشتهر ابن السيوفى فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ، وهو مهندس المدرسة الأقبغاوية المنشأة بجوار الجامع الأزهر سنة ٧٤٠ هـ/١٣٤٠م وجامع الماردانى سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م أيضا وجهوده فى كليهما تدل على براعته واقتداره ، وهو أول من بنى المآذن من الحجر فى العصر المملوكى [4] وكان أبجيج مهندس السلطان الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون الذى أشرف على بناء قاعة الدهيشة سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م [5] .

أما مدرسة السلطان حسن فقد ثار جدل طويل حول مهندسها وحاول هرتز باشا إثبات أن مهندس هذه المدرسة بيزنطى تلقى أصول الطراز الإسلامى فى أحد البلاد السلجوقية، وإعتمد على ماوجده من رسوم محفوره لبعض العمائر على احد أعمدة كتفى مدخل المدرسة ، كما أن حسن عبد الوهاب ، ذكر أن مهندس هذه المدرسة محمد بن بيليك المحسنى أعتمادا على

---

[1] أحمد تيمور . أعلام المهندسين ص٥٩ ، حسن الباشا الوظائف ج٣ ص١١٥٨

[2] أحمد تيمور المرجع نفسه ص ٥١

[3] أحمد تيمور أعلام المهندسين ص٥١ ، عبد الرحمن زكى بناه القاهرة ص٧٨

[4] حسن عبد الوهاب .تاريخ المساجد الأثريه ج١ ص١٥١ عبد الرحمن زكى بناه القاهرة ص٨٨

[5] المقريزى .خطط ج٢ ص٢١٢ عبد الرحمن زكى بناه القاهرة ص٨٨-٨٩

نص كتابى محفور فى الجص على أحد جدران المدرسة الحنفية نصه " .. كتبه بحمو دولته وشاد عمارته محمد بن بيليك المحسنى " ولكن هذة القراءه خطأ لأن القراءة الصحيحه للنص كتبه نشو دولته وشد عمرته . فشد عمارته هنا جملة اسميه وبهذا يتغير المفهوم تغيرا تاما ، والشاد إحدى الوظائف الخاصة بالمشرفين على العمارة - كما سنذكر - ويكون محمد بن بيليك المحسنى اسم شاد هذه المدرسة وليس المهندس والأرجح أن هذه المدرسة اشترك فى بنائها كما يذكر حسن عبد الوهاب [1] نفسه عدة مهندسين ومشدين لم يكن لأحدهم ذكر فضل نقش اسمه على المنشأة ولكن إستأثر بذلك شاد العمارة " محمد بن بيليك المحسنى " .

ومن أشهر مهندسى عصر المماليك الشراكسة أحمد بن أحمد محمد الطولونى الذى أنشأ للسلطان برقوق المدرسة والخانقاة سنة ٧٨٨ هـ ١٣٨٦ م وكان له حظوة كبرى عنده فرقاه إلى رتبة الخاصكية ، ثم منحه لقب أمير عشرة ، وفى سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م تزوج برقوق من ابنته [2] وهو مهندس ومن أسره اشتهرت واشتغلت بالهندسة وقامت بأعمال معمارية فى مصر والحجاز [3] .

ومن مهندسى عصر برسباى جمال الدين يوسف الذى أوفده السلطان لعمارة الكعبة المشرفة سنة ٨٢٦ هـ ١٤٢٢ م [4] وكان حسن بن حسين الطولونى من المهندسين الذين نالوا الحظوة لدى السلطان إينال فعينه سنة ٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م "معلم المعلمين" ، و"معلم المعمارين" وهو الذى شيد ضريح خشقدم بالقاهرة فمنحه خلعة الشرف سنة ٨٦٦ هـ/ ١٤٦٢م حينما زاره السلطان فى أثناء قيامه بالعمل [5] وكان على بن اسكندر القيسى ويوسف شاه العجمى كبير مهندسى الملك الظاهر جقمق والبدرى وحسن الطولونى كبير

---

[1] حسن عبد الوهاب . تاريخ المساجد الأثرية ص١٧٩

[2] د.عبد الرحمن زكى - بناة القاهرة ص٨٩ حسن عبد الوهاب الرسومات الهندسية ص٧٩

[3] الصيرفى . نزهة النفوس والابدان ج١ ص٣٤٣

[4] د.حسن عبد الوهاب الرسومات الهندسية ص٧٩

[5] د.عبد الرحمن زكى . بناة القاهرة ص٩٠

المهندسين للسلطان خشقدم [1] ومن أشهر المهندسين فى عصر قايتباى محمد أبن الكويز الذى كان كبير المهندسين فى عصره ، وشمس الدين ابن الزين الزمن مهندس عمائر بالحرمين الشريفين [2] والبدرى حسن بن الطولونى الذى أشرف على إنشاء وتجديد مسجده بالروضة سنة ٨٩٦ هـ ١٤٩١ وغيرهم الكثير لأن عصر قايتباى اشتهر بالإنشاء والعمارة [3] وفى عصر السلطان الغورى كان أحمد بن الطولونى كبير المهندسين ، وقد أخذه السلطان سليم عند مغادرته مصر بعد فتحها سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م مع من أخذ من صفوة الصناع من مصر وهو أمر يدل على مدى شهرة المهندسين فى العصر المملوكى ، ويدل عليه كذلك ماتخلف عنهم من آثار تشهد ببراعتهم ، وبدراسة هذه الآثار وتحليلها تحليلا معماريا يمكن الكشف عن ماكان يعمل المهندسين من نظريات يأتى فى مقدمتها " نظرية الوظيفة " .

وإذا كان للمهندس المعمارى الدور الرئيسى في التخطيط والإشراف على التنفيذ ، فإن عمليات الإنشاء فى العصر المملوكى كانت تحتاج إلى مشرفين ، ونحاتين ، وبنائين ، ونجارين ، ومرخمين ، وغيرهم من الصناع الذين ترتبط صنائعهم بالبناء والتشييد ، وينصب دور هؤلاء فى تنفيذ الإنشاء . وبهم يخرج المبنى إلى حيز الوجود ، وكان كل من هؤلاء يقوم بعمله على خير وجه ، وساعد على ذلك الإشراف الصحيح السليم الذى كان يقوم به المحتسب على أهل الصنائع كل فى تخصصه ، ولعل فيما ورد بكتب الحسبة عن بعض هذه الصنائع والشروط التى يجب أن يتبعها كل صانع من هؤلاء لإخراج عمل متقن يؤدى وظيفته على خير وجه ، مايؤكد الأسس النظرية " للوظيفية " .

ومن الفئات التى تشارك مشاركة هامة فى إخراج المبنى إلى حيز الوجود البناؤن والنحاتون وهما صنوان مكملان لبعضهما وخاصة فى البناء بالحجر بما حواه من نقوش وجفوت ومقرنصات وكتابات ، وقد تعرضت

---

[1] حسن عبد الوهاب . الرسومات الهندسية ص٧٩-٨٠ من حوادث الدهر ج٣ ص٤٩

[2] ابن أياس بدائع الزهور ج٢ ص١١٧

[3] عبد الرحمن زكى . بناة القاهرة ص٢٨٦

بعض المصادر لوظيفة البناء فذكره " أنه من حقه ألايزخرف بالذهب لأنه يحرم تمويه السقوف والجدران ، وأنه لم يحصل منه شيء بالعرض على الندر ، وأكثر من يبنى لايسلم من ذلك "[1] وهو امر يشير الى ان عملية التذهيب والزخرفة بها قد تدخل ضمن إطار عمل البناء .

ومن هؤلاء المرخمون ، وقد بلغت صناعة الرخام فى آثار مصر درجة رائعة ، وبلغت من الرقى شاوا بعيدا ، وقد تجلت فى المحاريب والوزارت والأرضيات الرخامية ، مابين الوان مجمعة ومطعمة بالصدف ، ومنزلة فى الرخام الأبيض ، ومابين حفر بلغ منتهى الروعة فى المحاريب وفى تراكيب القبور[2] وخاصة فى العصر المملوكى. وأمام كثرة أعمال الرخام بمنشآت العصر المملوكى ، ورغبة فى المحافظة عليها نجد بعض الواقفين يعين مرخمين يتولون هذه الأعمال بالإصلاح والترميم اذا حدث لها حادث أو تعرضت لفساد ، فقد عين جمال الدين الأستادار مثلا " رجلا نصوحا عارفا بصناعة الترخيم والتنعيم ، قادرا على الصناعة ، لعمارة مالعله يفسد ويقطع من الرخام ، ولإصلاح مايحصل من الخلل فى الفسقية والخانقاة، وأن يتفقد الأماكن الموقوفة كل قليل ويصلح من ذلك مايحتاج إلى الإصلاح ، ويصرف له على ذلك فى كل شهر من شهور الأهلة من الفلوس المذكورة ستون درهما [3] كذلك قرر السلطان الغورى مبلغ " أربع مائه درهم تصرف لرجلين مرخمين يقرران فى وظيفة الترخيم بهذا الوقف على أن يتفقدا فى كل حين ما بالمدرسة والقبة من الرخام بالأرض والوزرة ما كان منها ناقصا ، أو قد سقط أو قارب السقوط أصلحاه وأعاداه إلى محله أولا فأولا بإتقان وإحكام ومعرفة بحيث يصير على صفته التى وضع عليها أولا[4].

ويندر أن تشتمل العمائر على أسماء هؤلاء المرخمين الذين قاموا بهذه الأعمال الرائعة ، وشاركوا مشاركة هامة فى إنشاء العمائر المملوكية ، ولكن وجدت بعض أسماء المرخمين ، مما يدل على اعتزاز هؤلاء بأعمالهم

---

(1) السبكى . معيد النعم ص١٢٩

(2) حسن عبد الوهاب توقيعات الصناع ص٥٥٤

(3) وثيقة جمال الدين الأستادار ١٧/١٠٦ محكمه

(4) وثيقة السلطان الغورى ٨٨٣ سطر ١٦٠٨ دراسة عبد اللطيف ابراهيم على .

مثل محمد وأبيه أحمد زغلش الشافعي اللذان نقشا أسمهما على جانبى باب قصر قوصون المنشأ حوالى سنة ١٣٣٨ م وعبد القادر النقاش الذى قام بنقش رخام منشأتين من أفخم المنشآت المملوكية هما جامع قجماس المنشأ سنة ٨٨٥-٨٨٦هـ ١٤٨٠-١٤٨١ فى دائرة ، زخرفية بطاقية المحراب طردا وعكسا بما نصه " عمل عبد القادر النقاش " وسجله بشكل زخرفى فى خواصر العقود، وكذلك فى خواصر عقود المزهرية فى حجور النوافذ " [١] .

كذلك فإن دور النجارين غير منكور فى عمائر المماليك سواء فى عمل النوافذ والأبواب والروابط الخشبية والسقوف أو فى أثاث المنشآت وخاصة الدينى منها كالمنبر ودكة المبلغ وكرسى المصحف وغيرها ، ويتنوع النجارون حسب تخصصهم فمنهم النجار " والأويمجى " وصانع رزنشان وغيرهم الذين تمثلت فى مصنوعاتهم أرقى أنواع النجارة ، ومما لاشك فيه أن صناع النجارة فى مصر فاقوا زملاءهم فى بقيه الأقطار الإسلاميه بدقة صناعتهم ، وتنويع التقاسيم والزخرف [٢] ومن أشهر نجارى العصر المملوكى الذين نعرفهم أحمد بن يوسف الذى قام بعمل منبر أبو المعاطى بدمياط سنة ٧٧١ هـ/ ١٣٦٩م ، وأحمد بن عيسى بن أحمد الدمياطى ، ثم القاهرى النجار الذى صنع منبر المدرسة المزهرية ، ثم المنبر المكى ، ومبنر جامع الغمرى [٣] وعلى ين طنين النجار صانع منبر مسجد أبو العلا المنشأ سنة ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧م [٤] .

كذلك فإن من الصناع الذين قد شاركوا فى أعمال التشييد والبناء بأعمال تكميلية الدهان والمذهب [٥] واللذان كان لهم ولغيرهم جهد كبير فى إخراج كثيرا من السقوف الرائعة فى عمائر المماليك .

وكان يعمل هؤلاء المختصون بأعمال البناء من المهندسين الذين

---

[١] عبد الرحمن زكى ٠ بناة القاهرة ص٩٣-٩٤ حسن عبد الوهاب توقيعات الصناع ص٥٥٢

[٢] حسن عبد الوهاب توقيعات الصناع ص٥٤٥

[٣] حسن عبد الوهاب ، توقيعات ص٥٤٧ ، تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص٢٢٨ ، عبد الرحمن ٠ بناة القاهرة ص٩٣-٩٤

[٤] حسن عبد الوهاب ٠ توقيعات الصناع ص٥٤٧-٥٤٨

[٥] السبكى ٠ معيد النعم ٠ص١٣٣-١٣٥

يقومون بالتخطيط والإشراف على التنفيذ والبنائين والنحاتين والمرخمين والنجارين وغيرهم من الفعلة بمساعده مساعدون اداريون يتولون الإشراف على إنجاز هذه العمر ومبشره ايشبه مثل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى أشرف على أعمال الإنشاء فى مجموعة قلاوون فقد كان خبيرا بالعمارة [١] والأمير آقوش نائب الكرك الذى باشر إنشاء كتاب وسبيل الناصر محمد أمام واجهة مجموعة قلاوون [٢] كذلك أشرف الأمير جركس الخليل أمير آخور على عماره مدرسة وخانقاة برقوق وسجل اسمه منقوشا على واجهة المدرسة والخانقاة ، كما أن ناظر الجيش عبد الباسط أشرف على إنشاء منشآت السلطان برسباى المعمارية لهمته الظاهرة وقدرته الفائقة فى إنجاز هذه الأعمال [٣] .

وقد أشارت المصادر التاريخية والنصوص المسجلة على بعض العمائر إلى " شاد العمارة " الذى كان يشارك فى الإشراف على العمل بالمنشآت وتشييدها وشاد العمائر .[٤]

وشاد العمائر السلطانية من الوظائف الذى كان يشغلها عسكريون بحضرة السلطان المملوكي وموضعها أن يكون صاحبها متحدثا على العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار والمساجد وغير ذلك وكان يشغل هذه الوظيفة أمير عشرة فى أول الأمر [٥] ثم صار يشغلها قوم بغير إمره [٦] وقد نصح السبكي شاد العمائر باللطف والرفق بالبنائين ولا يستعمل فوق طاقته ولايجيعه ، بل يمكنه من الأكل أو يطعمه بحسب ما يقع الشرط عليه ، وعليه أن يطلق سر احه أوقات

---

(١) حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الأثريه ج١ ص١٠٤

(٢) المرجع نفسه ج١ ص١٢٢

(٣) محمد عبد الستار الآثار المعماريه للسلطان برسباى بالقاهرة ٩٠ ومابعدها

(٤) الشاد . اسم فاعل من شد بمعنى قوى أو أوثق ، وقد شاع استخدام هذا اللفظ فى دولة المماليك للدلالة على موظف كان له حق التقوية ومايتبع ذلك من سلطات السيطرة والمراقبة والإشراف والتفتيش والمعاونة والتوجيه والتعمير والاستثمار وغير ذلك ، وربما قيل له المشد . حسن الباشا الوظائف على الآثار ج٢ ص٦٠٤

(٥) القلقشندى . صبح الأعشى ج٤ ص٢٢

(٦) خليل الظاهرى زبدة كشف الممالك ص١١٥

الصلوات فإنها لاتدخل تحت الإنجاز مايعتمده بعضهم من تسخير البنائين واجاعتهم من الأجر دون حقهم واستعمالهم فوق طاقتهم من أقبح الحرمات واشنع الجراءات على الله تعالى ، وأقبح من ذلك أنهم يتعمدونه في بناء المساجد والمدارس فليت شعرى بأى قربة يتقربون " وفى هذا النص مايشير إلى طرق التعامل التى كانت سائدة والتى غلبت عليها القسوة • ويذكر صاحب النجوم أن السلطان الناصر محمد عند بنائه حوش الأوز والأغنام بالقلعة سخر الناس فى بنائه حتى انهم أستغاثوا بالطنبغا الماردانى " فتوسط لهم عند السلطان حتى أعفى الناس من السخر وأفرج عمن قبض عليه منهم[1] ويبدو أن أمر تسخير العمال فى البناء كان شائعا حتى أن المؤرخين يذكرون أن عبد الباسط عندما أنشأ مدرسة بالقاهرة لم يسخر أحدا فى بنائها[2] كما لو كانت العاده كذلك • ومن شادى العماره الذين اشتهروا بالقسوة على العمال والبنائين وغيرهم أقبغا عبد الواحد الذى سخرهم وجار عليهم حتى فى بناء مدرسته عند الجامع الأزهر ، وقد بلغت شهرته فى ذلك مداها حتى أن صاحب النجوم يذكر انه " كان يندب لكل أمر مهم فيه العجلة لمعرفته بشدة بأسه وقساوة قلبه وكثرة ظلمه [3] وقد ورد على بعض الآثار المملوكيه الدينية أسماء بعض هؤلاء مثل محمد بن بيليك المحسنى الذى جاء اسمه مدونا ضمن كتابات المدرسة الحنفية المحفورة فى الجص بما نصه " كتبه نشو دولته وشاد عمارته محمد بن بيليك المحسنى " وقد كان من أفراد الألوف الذين قربهم السلطان حسن ، وقد نشأت أسرة بليك فى عصر المنصور قلاوون وتقلب أفراد أسرتها فى وظائف الدولة فى عهد هذه الأسرة وكثير منهم تسمى بمحمد، ويذكر حسن عبد الوهاب أن المؤرخين كثيرا مايخلطون فيهم وآخرهم محمد بن بيليك الذين خلطوا ترجمته بترجمه أبيه • وكان يخلع على الشاد بعد الإنتهاء من العمارة فقد خلع الغورى على اينال شاد العمارة بعد الإنتهاء

---

[1] ابن تغرى بردى النجوم ج٩ ص١٢٠

[2] حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص٢٠٢

[3] ابن تغرى بردى النجوم ج٩ ص١٢٠

من إنشاء مدرسته إمرة عشرة كما خلع على المهندسين الصناع [1] ،

كذلك كان يعاون ألشاد في الإشراف على إنشاء العمائر موظف آخر يسمى ناظر العمارة كان له الأمر على المهندسين والحجارين وصناع العمائر ونحوهم ، وكان هناك في عهد المماليك ديوان للعمائر أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون لحبه العمارة كان يتولى أعمال الإنشاء والتعمير في البلاد ،

والخلاصة أنه بجهود هؤلاء جميعا كانت تنشأ المنشآت المختلفة لتؤدى الأغراض الوظيفية التي انشئت من أجلها بل وارتقوا إلى مستوى جمالي مرموق يشهد ببراعتهم وحسن أدائهم ،

[1] حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص١٧٩

البــاب الــرابع

عناصر الانتفاع

تعرضنا فى الابواب الثلاثة السابقة إلى دراسة الجوانب النظرية لنظرية الوظيفية فى المنشآت الدينية السلوكية : وكشفنامن خلال هذه الدراسة عن نشأة وتطور وظيفة كل منها حتى نهاية العصر المملوكى ، ثم أوضحنا دور المعمار الاسلامى الذى كان يعمل وفق نظريات وردت ضمن مصادر التراث الإسلامى تتصل بنواحى العمارة والعمران وفى هذا الباب نتعرض بالدراسة التحليلية للعمائر الدينية السلوكية القائمة للكشف عن مدى تحقيق المعمار الإسلامى للهدف الوظيفى فى هذه العمائر .

" والوظيفية هى المختبر TEST الذى يقاس به مدى صحة التصميم وكلما إزداد المبنى كفاءة وملاءمة لأغراضه إرتفعت قيمته وإزداد قدر الإعجاب به وبجماله وإكتسب مغزى وصحة وشرعية ، أما إذا كان فى تشكيل بعض أجزائه أو فى تقييمه مايتعارض والإستعمال ، أو ما هو موضوع لغير سبب فالقيمة والتقدير يقل وإذا ثبت أنه لا يخدم أغراضه إطلاقا لم تكن له قيمة ولا إستحق التقدير بل لا يستحق أن يسمى عمارة [1]

ويحدد المعماريون الشروط الواجب توافرها فى المبنى وأولها شرط المنفعة COMMODITY UITLÍTY فالمبنى لا ينشىء أصلا إلا ليؤدى وظائف إنتفاعية وليخدم أغراضا عملية ، وثانيها المتانة FIRMNESS-STRENGTH فالمبنى يصمم بحيث يكون قويا متينا ثابتا يتحمل القوى التى يتعرض لها ويقاوم الإستهلاك وعوامل الزمن ، ومن هذه الشروط الجمال DELIGHT-BEAUTY فيجب أن يراعى فى المبنى حسن الشكل والمنظر فتعجب به ويبعث فى النفس أسباب المتعة والإنشراح ، كذلك فإن شرط الإقتصاد من الشروط الهامة ، وهو شرط يتوصل إليه بالعلم والحساب وبكفاءة الأداء ، وفى ضوء هذه الشروط يمكن تحليل المبانى إلى عناصرها كل على حدة للكشف عن مدى كفاءة المعمار الإسلامى فى تحقيق الغرض الوظيفى فى العمارة الدينية السلوكية القائمة بمدينة القاهرة ، وهذه العناصر هى عناصر الانتفاع ACCOMODATION ، وعناصر الخدمة SERVICE ELEMENTS ، وعناصر الوقاية PROTECTION ، وعناصر

[1] د. عرفان سامى. نظرية الوظيفية فى العمارة ص٢٢

الانشاءSTRUCTURAL ELEMENTS ، وعناصر الجمالELEMENTS OF BEAUTY وذلك فى ضوء العوامل المؤثرة على العمارة بصفة عامة .

عناصر الانتفاع :

قبل أن نتعرض لعناصر الإنتفاع فى المبانى الدينية المملوكية بصورة تفصيلية يجب أن نتعرض بالدراسة لتخطيطات هذه المنشآت.

إذا كانت وظيفة المبنى السبب الأصلى فى وجوده وفى تبرير وجوده وهى الغرض الغالب عليه والمصدر الرئيسى فى التصميم وإتخاذ المبنى الشكلى الذى هو عليه ، وإذا كانت لمواد الإنشاء وطرقه أثر كبير على المبنى كيما يتحقق وجوده حتى أن البعض يقرر أنه يمكن إعادة كتابة تاريخ العمارة كله من وجهة نظر الإنشاء وبيان أن تطورها على مر العصور ما هو إلا نتيجة محاولات لحل مشكلة التسقيف ROOFING والتغطية COVERING وبيان أن الطرز المعمارية ناتجة عن المواد وأحسن أساليب الإنشاء المتميزة فى العصر الذى كانت فيه من حوائط حاملة وأكتاف وأعتاب حجرية وعروق خشبية وعقود وقباب وجمالونات [١] فإن دراسة التخطيطات يجب أن ينظر إليها من هذه الوجهة "الوظيفة والإنشاء" ولا يصح الإنزلاق وراء محاولات التأصيل لتشابه التخطيطات أو العناصر المعمارية بين عمارة وأخرى لأن ذلك ينتهى إلى تناقض الآراء وسقوط النظريات المختلفة [٢] وهذا السقوط والتناقض أكبر دليل على وجوب إتباع المحور الصحيح الذى يجب أن تفسر به التخطيطات فى ضوء وظائف وطرق وأساليب الإنشاء، ويؤكد ذلك استخدام العناصر الرئيسية المكونة لمعظم تخطيطات المنشآت الدينية المملوكية وهى الصحن المكشوف الأوسط " الفناء " والأواوين التى تحيط به في العصور المختلفة. فالفناء الداخلى ظاهرة معمارية واكبت الحضارة الإنسانية [٣] منذ بدايتها حتى وقتنا الحاضر، وقد إتخذ الفناء الداخلى أشكالا ومعالجات وأسماء عديدة من عصر إلى آخر ، ففى العمارة المصرية القديمة

---

[١] د.عرفان سامى نظرية الوظيفية فى العمارة ص٢٧

[٢] راجع نظريات حول التخطيط المتعامد احمد فكرى مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ ص٨٨ وما بعدها

[٣] يحيى يوسف الزغبى، المبانى ذات الفناء الداخلى رسالة ماجستير ص٦

وعمارة ما بين النهرين يسمى COURT وفى العمارة الاغريقية والرومانية كان يسمى PRISTULE- ARIUM وفى عمارة فجر المسيحية والبيزنطية اطلق عليه اسم ATRUIM وفى العمارة الرومانسيكية سمى CLOSIIER ATRUIM وفى العبارة القوطية كان يسمى CPOSITER وأطلق عليه الأسبان كلمة PATLO وأخيرا إتخذ فى العمارة الحديثة العديد من الأسماء مثل COURT - YARD فناء داخلى وحديقة داخلية أوساحة داخلية أو حوش داخلى.

والفناء معماريا هو ذلك الفراغ المقفل أو شبه المقفل[1] تشكله حوائط مستمرة أو شبه مستمرة من جهاته الأربع فى حالة الشكل الرباعى أو أكثر فى حالة الشكل المتعدد الأضلاع وتطل عليه عناصر المبنى الأخرى ،ويتصل الفناء عادة بالهواء من أعلاه، وقد ثبت أن الفناء ا لداخلى كان يعد من العناصر الرئيسية الهامة سواء فى العمارة الدينية أو المدنية على مر العصور تقريبا ،أوجدته الضرورة فى أول عمارة عرفها التاريخ واستمر إستعماله فى كافة بقاع العالم بالرغم من إختلاف المؤثرات الإجتماعية والمناخية والدينية والثقافية مما يدل على نجاحه كحل معمارى أو كنظرية ثابتة المنطوقFUNCTION متعددة الحلول FROM محققة كافة النواحى الوظيفية والروحية والاجتماعية [2] ومقارنة سريعة بين ظروف استخدامه ودواعيها فى العصور المختلفة تثبت ذلك ، فقد دلت الدراسات التحليلية التى أجراها الباحثون فى مجال الدراسات الفرعونية أن الفناء كان أحد العناصر الرئيسية التى إستخدمها المعمار الفرعونى فى عمارته المدنية والدينية لأنه يحقق سهولة الإتصال بين عناصر السكن المختلفة ، وكان يمارس فيه أوجه النشاط المختلفة مثل الغزل والنسيج والتجارة ، وكان يمثل الإمتداد الطبيعى للمسكن كلما دعت الحاجة لإقامة المزيد من الغرف ، كما أنه إتفق والنواحى الإقتصادية حيث أنه لم يكن فى قدرة الإنسان العادية تسقيف كافة مسطح

---

[1] د.محمد يسرى .مذاكرات فى تخطيط المواقع ص١٦ -٢٤

[2] مجدى عبد العزيز .دراسة تحليلية لبعض الدور والقصور .رسالة ماجستير كلية الفنون الجميلة ١٩٧٤ ص١٣٠-١٣١

الأرض التى كان يملكها ، وفى احدى جوانبه كانت تقام حظائر الحيوانات الأليفة بالإضافة إلى أنه حقق درجات حرارة مناسبة ، هذا بالإضافه الى ما حققه من الإعتقادات الرمزية كتزاوج بين الأرض والسماء ، وتتبع حركة الشمس نهارا ، والنجوم ليلا كما وضعت به تماثيل القرود التى كانت تعهد الشمس عند الشروق فى المبانى الدينية [1] (راجع شكل رقم ١)

كذلك فأن الفناء فى بلاد ما بين النهرين (إنظر شكل ٢-٤) وكانت العادات والتقاليد السبب الأول وراء استخدامه بها فقد كان لإعتقاد سكان تلك البلاد فى الجن والشياطين والخرافات أثره فى بناء الحوائط الخارجية مقفلة تماما مما حتم إضاءة وتهوية وحدات المنزل المختلفة من خلال الفناء ، كما كانت الجثث تدفن عادة فى بعض حجرات المنزل مما نتج عنه خروج الروائح العفنة ، فكان الفناء هو خير وسيلة لتجديد هواء المنزل هذا بالأضافة إلى براعة قاطنى هذه البلاد فى علم الفلك فكان لابد من توفير سطح مكشوف لتتبع حركة النجوم [2]

وفى العمارة الإغريقية والرومانية (شكل رقم ٣) كان الفناء "البيرستايل" هو الوسيلة الوحيدة لإضاءة وتهوية الحجرات حيث أنه كان محرما عمل فتحات فى الحوائط الخارجية فكان الفناء الداخلى هو المصدر الوحيد للإضاءة ، كما أنه أكد لهم الخصوصية التى دائما حافظوا على تحقيقها وشكل إمتدادا فراغيا وبصريا كثيرا ما سعوا إلى تحقيقه ، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا عادة يشعلون النار المقدسة لفترات طويلة داخل منازلهم فكان هو منفذ الوحيد لخروج أدخنة تلك النيران [3]

وفى العصر الإسلامى إستخدم الفناء الداخلى فى المنشآت الدينية والمدنية (شكل ٤-٥) وقد كانت الطبيعة من اهم العوامل التى أوجدت الفناء كعنصر معمارى لا غنى عنه ،فقد نشأ العرب فى بيئة صحراوية قاسية إفتقدوا فيها عنصر الماء والنبات لذا كانت الأفنية المزروعة وحدائق دورهم

---

[1] سليم حسن مصر القديمة ج١ ص٤٠٤

[2] مجدى عبد العزيز دراسة تحليلية لبعض الدور والقصور ص١٣٢

[3] المرجع نفسه ص١٣٣

هى العنصر الرحيم يتطلعون إليه فى بهجة وسرور كما كان للعامل الدينى الإجتماعى أثره فى بساطة دورهم من الخارج وممارسة كافة الأنشطة حول الفناء الداخلى متمتعين بالمناظر الجميلة ودرجات الحرارة الملائمة [١] كما أنه وجد فى العمارة الدينيـة مكونا من عنصرا رئيسيا نتج من تطور تخطيط الجامع وإشتماله على أربعة أورقة أحاطت به

وما ذكر من الفناء ينسحب على الإيوان فالإيوان لغويا "البيت المورج" أى المرتفع البناء غير مسدود الوجه [٢] وقد تعددت الأراء فى أصل إشتقاق الإيوان وأغلب الظن أن الإيوان كان تطورا بالبناء لأشكال الخيام المفتوحة التى كان يستخدمها العب فى وادى الرافدين ، أو كان تجسيما للأكواخ القصبية التى كان مفردها يسمى " صريفة " والتى كان الأعراب هناك يستخدمونها لذلك. [٣]

وإتخذت الأواوين فى العمارة القديمة فيما بين النهرين وفى بلاد إيران منذالقرن ٢ق.م ، واستخدمت فى العمارة الرومانية ، واستخدم فى بنائها الأجر والحجر وانتقلت فكرة استخدام الأواوين إلى العمارة الإسلامية فى العراق. واستخدمت أول ما استخدمت فى القصور وفيما نعرف فى قصر الأخيضر. ويذكر الدكتور أحمد فكرى أن الأواوين لم تستخدم فى بناء المساجد الاسلامية الأولى لأن الفكرة فى بناء المساجد كانت قائمة على إعداد بيوت للصلاة فسيحة عريضة مفتوحة على أبهاء واسعة مكشوفة ، وكانت أقصى ما تؤديه فتحة الإيوان لاتفىبتحقيق هذا الغرض وذلك فضلا عما يتطلبه بناء الإيوان من زيادة فى النفقات ومشقة فى العمل وطول فى الوقت ، ولهذا جعلت بيوت الصلاة جميعا مسقوفة بسقوف خشبية مسطحة تحملها عقود علىأعمدة أو دعامات [٤] ثم يقرر الدكتور أحمد فكرى " أن الأواوين لم تكن تصلح إذن للمساجد الجامعة الكبيرة ولكن عوامل كثيرة حدثت منذ

---

[١] مجدى عبد العزيز.دراسات تحليلية ص١٣٢

[٢] أحمد فكرى. مساجد القاهرة ومدارسها ج٣ ص٩٦

[٣] أحمد فكرى.مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ ص٨٧

[٤] أحمد فكرى.مساجد القاهرة ومدارسها ج٣ ص٨٨

منتصف القرن ٥ هـ/ ١١ م أدت الى إدخال الأواوين فى الأبنية الدينية ثم إلى شيوعها فى بيوت الصلاة. وكان أول هذه العوامل كثرة المساجد الجامعة فى المدينة الواحدة ما لم تعد الحاجة معه إلى بناء مساجد كبرى ، فصغرت مساحه بيوت الصلاة تبعا لذلك ، وكان العامل الثانى أن أدخلت على نظم بعض المساجد مواضع لبناء أضرحة أولبناء مدارس فأصبح الغرض من بناء المساجد مزدوجا وأصبح المسجد يضم إلى بيت الصلاة ضريحا أو مدرسة او كليهما وكان لذلك تأثير مباشر على إختصار بيوت الصلاة [١]

والإيوان فى العصر المملوكى كما يفهم من نصوص وثائق الوقف المملوكية قد يكون ساحة مستطيلة أو مربعة وقد يكون سقفها مسطحا أو مقبيا، واذا اتسعت هذه المساحة فإنها تقسم الى أورقة "بلاطات AISLES " بواسطة صفوف من الأعمدة تحمل فوقها عقود "بائكات" تحمل السقف الذى قد يجمع بين أساليب التغطية المختلفة المسطحة والمقبية ، فقد جاء بوثيقة قلاوون عن الإيوان القبلى بمدرسته بالنحاسين مانصة " فأما الايوان القبلى فإنه معقود القوصرة بالطوب الآجر والجبس مسقف مربع نقى بسط بفساقى وقنايات وقباب مذهبة مغرقة باللازورد والأصباغ المختلفة تحتها نادر مقرنص ثلث كسرات تحته ازار كتابة بيضا فى أرض لا زورد ،وبكل من جانبى الإيوان المذكور رواق من الجانب الشرقى منه ومن الجانب الغربى معقود بالطوب والأجر والجبس مصلب وهما والسقف النقى محمولين على ستة عمد جافية صوان أحمر بقواعد علوية وسفلية ورخام[٢] وجاء بوصف مدرسة وخانقاة برقوق بالنحاسين أيضا " للمشتملة على أربعة اواوين أحدها وهو القبلى مسقف عجميا مصوق بالذهب واللازورد وغيره بزوايا وسراو.... صرر به أربعة أعمدة صوانا وست مراتب مسققة ومقرنص معلق[٣] .

---

[١] د. أحمد فكرى. مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ ص٨٨-٨٩

[٢] وثيقة قلاوون ٧٠٦ج أوقاف

[٣] وثبقة برقوق ٥١/ ٨ محكمة

وفي كل من هذين النموذجين نجد أن الإيوان القبلي مقسم إلى بلاطات عمودية على جدار القبلة أما بقية الأواوين فعبارة عن مساحة واحدة مستطيلة المسقط لا تنقسم إلى بلاطات لصغر مساحتها وسميت كذلك "إيواناً " ومما يؤكد أن التسمية كانت تطلق كذلك على أور قة المساجد الجامعة التي تنقسم الى بلاطات بواسطة بائكات محمولة على أعمدة أو دعائم ما جاء بوثيقة برسباى من وصف لجامعه بالخانكة بما نصه " إلى باب يدخل منه إلى الجامع الموعود بذكره المشتمل على أربعة أواوين متقابلة مسقفة نقياً والكتاب مبنية بالحجر الفص النحيت يشتمل إيوان القبلي على ثلاث بوايك ومحراب [1] مما يؤكد أن الإيوان كان الوحدة التي تشتمل على أروقة ما جاء بوثيقة سودون من زاده من وصف لجامعة بما نصه " ويدخل منه إلى مكان كبير هيئة جامع بصدره محراب يشتمل على ست رواقات ثلاث منها قبلية والثلاث رواقات الباقية أحدها بحري والثاني شرقي والثالث غربي محمولة على عمد صوان عدتها ثمانية عشر عمودا علوها عقود وقناطر مبنية بالحجر الفص النحيت والطوب الآجر والجبس [2] ومما سبق يتضح أن ما ذكره الدكتور أحمد فكري عن " الإيوان" بأنه "قاعة مسقوفة بقبو مفتوح مقدمها على بهو بعقد مقوس نصف دائري أو مدبب أو منفوخ أو متيعج مغلق مؤخرها بجدار [3] توصيف قاصر لأن الإيوان قد يتسع ليشتمل على أروقة "بلاطات" كما أنه يغطي بقبو أو يسقف بسقف مسطح أو يجمع بين أساليب التغطية المختلفة ، وقد يطل على البهو بعقد واحد أو بسلسلة من العقود على هيئة بائكة ، وهو أمر يكشف عن أهمية مشكلة التغطية واتخاذ الوسيلة المناسبة لذلك ، وتأثير ذلك على إختلاف التخطيطات من حيث الشكل .

ومما سبق يتضح أن العناصر الرئيسية التي تتكون منها تخطيطات المنشآت الدينية المملوكية وجدت في كل الطرز المعمارية السابقة واستخدمت إستخدامات معينة ، ثم إن استخدامها في العصر الإسلامي تنوع واختلف من

---

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٩

[2] وثيقة سودون من زاده ٥٩/١٠ محكمة

[3] د.أحمد فكري. مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ ص٨٧

عصر إلى آخر حسب استخدامات وظروف العصر التى أنشئت فيه ، كما اتضح تأثير أساليب الإنشاء على إختلاف التخطيطات التى تنوعت بين أواوين أو أواوين مقسمة إلى اروقة بواسطة بائكات، وأننا عندما نبحث فى أصل التخطيط المتعاقد للأواوين الذى شاع فى المنشآت الدينية المملوكية بصفة خاصة لا يجب أن نرتد إلى المزالق التى وقع فيها الباحثون عند دراسة أصول هذا التخطيط[1] لأن شيوع استخدامه نبع أصلا من الغرض الوظيفى ومن أساليب الإنشاء ومحاولة حل مشكلة التغطية ومن هذا المنطلق نتعرض لتخطيطات المنشآت الدينية المملوكية القائمة .

العلاقة بين نص الإنشاء والتخطيط :

عرفنا من دراستنا فى الباب السابق أن تعدد الوظائف فى المنشآت الدينية المملوكية كانت ظاهرة عامة ، بدأت مع بداية العصر المملوكى وسادت تقريبا فى عصر المماليك الجراكسة ، كذلك عرفنا أن الأمر كان مرهونا برغبة الواقف وإمكاناته التى تتحكم فى تقرير الوظائف التى كانت تقوم بها المنشأة ، وأن المنشأة كانت معماريا لتقوم بالوظائف المختلفة المتعلقة بالصلاة والتدريس والتصوف ، وما دمنا نتعرض بالدراسة لتخطيطات المنشآت الدينية فى العصر المملوكى فإنه يجب الكشف عن تلك العلاقة بين تخطيط المنشأة ونص إنشائها فى ضوء هذه النتائج.

وبمراجعة نصوص الإنشاء المسجلة على هذه المنشآت نجد أن المنشآت التى يتضمن نص إنشائها أنها "مدرسة" مثل منشآت السلطان قلاوون سنة ٦٨٤هـ والسلطان حسن سنة ٧٦٤هـ وأم السلطان شعبان، والقاضى عبد الباسط وقايتباى بالروضة ، والغورى بالغورية ، سنة ٩٠٩هـ وغيرها كان تخطيطا متعامدا.

ثم وجدنا نصوصا لها أهميتها وتعتبر تطورا عن النصوص السابقة فمنشأة الجاى اليوسفى جاء نص أنشائها كما يلى " بسم الله الرحمن الرحيم

[1] راجع مناقشة الدكتور احمد فكرى لنظرية التخطيط المتعامد وأراء الباحثين فيها فى كتابة مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ ص١٦٧-١٨٢

أمر بانشاء هذا الجامع والمدرسة المبارك المقر الأشرف الجاى أتابك العساكر المنصورة الملكى الأشرفى غفر الله له ولجميع المسلمين بتاريخ شهر رجب سنة أربع وسبعين وسبعمائة " وتخطيط هذه المنشأة تخطيط متعامدا.

كذلك فإن من المنشآت ذات التخطيط المتعامد ما جمع نص إنشائها بين تسمية " المدرسة والخانقاة " مثل منشأة السلطان برقوق التى جاء بنص إنشائها "أنشأهذه المدرسة المباركة والخانقاة مولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق"

كما أن هناك من المنشآت ما كان تخطيطه متعامدا كذلك وجاء بنص إنشائها أنها "جامع" فقط مثل منشآت جانى بك الأشرفى سنة ٨٣٠ هـ وقجماس الاسحاقى [١] بالدرب الأحمر والقاضى يحيى بالأزهر ولهذا دلالته المعينة التى تشير إلى أن التخطيط المتعامد للأواوين إستخدم فى المنشآت التى أطلق عليها بنص الإنشاء "جامع" وهذا يعنى أن هذا التخطيط سار جنبا إلى جنب تخطيط الجوامع ذى الأربعة أروقة كما يلاحظ أن هذه النماذج ترجع جميعها إلى عصر المماليك الجراكسة ، والذى أصبحت فيه مساحة المنشأة الدينية عامة أصغر نسبيا فى معظمها - بغض النظر عن مجموعات السلاطين وتخطيط الأواوين المتعامد وهى أنسب التخطيطات لذلك حيث أن ظروف الانشاء لا تتطلب إستخدام الأعمدة لصغر المساحة وعدم اتساع البحور الذى يضطر إلى استخدامها.

وخلاصة القول أن التخطيط المتعامد استخدم فى المنشآت الدينية المختلفة سواء المدرسة أو الجامع أو الخانقاة ولكن في مراحل زمنية مختلفة فذكر التسمية "مدرسة" بنص الإنشاء امتد من بداية العصر المملوكى وحتى نهايته ، ثم جاء الجمع بين التسمية " الجامع والمدرسة " فى مرحلة لاحقة وكان ذلك فى النص الباقى سنة٧٧٤هـ فى منشأة الجاى اليوسفى ، ثم كان الجمع فى التسمية بين " المدرسة والخانقاة " فى منشآت السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ ، ثم اطلقت التسمية "جامع" على المنشأة ذات التخطيط المتعامد فى العصر الجركسى بصفة خاصة وكان ذلك بداية سنة ٨٣٠هـ فى منشأة جانى

[١] انظر شكل رقم ٣١

بك ثم تكرر ذلك فى أمثلة اخرى كمنشأة قجماس والقاضى يحيى بالأزهر .واذا ربطنا بين تطور تعدد وظائف المنشآت الدينية فى العصر المملوكى لوجدنا تطابقا وتلازما تاما.

واذا إستعرضنا نصوص المنشآت التى كان تخطيطها حسب نظام الأروقة الأربعة المتصلة للاحظنا أن هذه المنشآت لم يخرج أى منها عن تسميته فى نص الإنشاء عن "الجامع" أو المسجد مثال ذلك جامع الظاهر بيبرس ، وجامع الناصر محمد بالقلعة وجامع الماردانى ، جامع ألماس الحاجب ، وجامع قوصون وجامع شيخو ، وجامع القاضى يحيى زين الدين ، وجامع برسباى بالخانكة وغيرها[1] والنتيجة التى يمكن إستنتاجها من ذلك أن المنشأة التى كان تخطيطها حسب التخطيط المتعامد تنوعت تسمياتها بين المدرسة والجامع والخانقاة، وأن المنشآت التى كان تخطيطها حسب نظام الأروقة الأربعة المتصلة حول صحن مكشوف كانت تسمياتها محددة "بالجامع" وعلى هذا فإن النظرية التى تقول بأن المنشآت الدينية روعى فى تسميتها الأغراض التى خصصت لها لا لطرز بنائها[2] نظرية يجانبها الصواب إذاوضعنا فى الإعتبار ظاهرة تداخل الوظائف الدينية فى المنشآت الدينية المملوكية وإن كُلاً من الجامع والمدرسة والخانقاة كان معماريا ليؤدى هذه الوظائف جميعها ، كما أنه وجدت علاقة وإرتباط بين تسمية المنشأة " بالجامع " وبين تخطيطها ذو الأورقة الأربعة المتصلة ، وكل ما يمكن قوله عندئذ أن تسميات المنشات قد يتعلق بالوظيفة ، وقد يتعلق بالتخطيط وظروف الانشاء ، وقد يتعلق بالوقف وشروطه أو باعتبارت دينية أو دعائية أخرى. بمعنى أن إطلاق اسم "الجامع أوالمدرسة" أو " الخانقاة " على المنشأة إطلاق مختص بإحدى الوظائف التى تؤديها المنشأة رغم تأديتها للوظائف الأخرى بغض النظر عن التخطيط. وقد يكون إستخدام تخطيط معين لإعتبارات وظروف الإنشاء فاستخدام الأواوين يصلح مع المساحات الصغيرة وإستخدم الأروقة المحمولة سقفها على بائكات عبارة عن عقود تحملها أعمدة أو دعامات هو الحل الملائم للمساحات الكبيرة.

---

[1] كانت هناك مساجد جامعة كثيرة عن تلك النماذج الباقية مثل الجامع الناصرى الجديد على النيل وجامع سودون من زاده التى أزيل حديثا.

[2] حسن عبد الوهاب.تاريخ المساجد الاثرية ج١ ص١١٩-٢٢٠

وهنا يبرز دور الإنشاء فى إستخدام تخطيطات تنوعت بين تخطيط الأواوين ، وتخطيط الأروقة المتصلة أو المنفصلة فى العمارة الدينية المملوكية ،بل انه يكشف عن أن الفارق الوحيد بين التخطيطين ليس سوى طريقة حل مشكلة التغطية فى كل منهما ويؤكد ذلك تلك النماذج التى تنتمى إلى تخطيط الأواوين المتعامدة والتى إنقسم فيها الايوان الشرقى لاتساع مساحته إلى بلاطات "أروقة"، وتلك النماذج التى إنفصل فيها اتصال الأورقة بعضها ببعض مثل تخطيط خانقاة فرج بن برقوق وجامع المؤيد شيخ[1] وهما نموذجان إنفصلت فيهما الأروقة عن بعضهما كما فى تخطيط الأواوين المتعامدة ولكن إنقسمت إلى بلاطات بواسطة بائكات تحملها أعمدة لضرورة التغطية ، ولذلك يمكن اعتبار هذين النموذجين بتخطيطهما إمتدادا لتخطيطات المنشآت ذات الأواوين المتعامدة التى اكتنف أحد أواوينها ضريحان كما فى مدرسة أم السلطان شعبان وكما كان الحال فى خانقاة أم آنوك.

وبالنسبة لتسمية المنشآت ذات الأروقة المتصلة "بالجامع" تخصيصا فربما يكون ذلك لاعتبار أن هذا التخطيط القديم المتعارف عليه بالنسبة للجوامع قبل استخدام تخطيط الأواوين فقد تكون التسمية ملتصقة بالتخطيط من هذا الاعتبار. أما من حيث تعلق التسمية بالوقف وشروطه فهو أمر قد يفسره ما ورد عن مدارس لم يكن بها طلبة ولا مدرسين ولكنها وقفت مدارس، أى أن نص الوقف مدرسة كان مقصود الذاته، كما أن تسمية الواقف لمنشأته بالمدرسة كان يمكنه من إشتراط بعض الشروط التى لا يمكنه إشتراطها لو وقفه جامعا كان يحدد مواعيد لغلق وفتح لأبوابها مثلا ،وهو أمر لا يحق لمن يوقف منشأته جامعا ونص الإنشاء يعتبر الإعلان الدائم عن نوعية المنشأة ووقفها.

وقد يكون للإعتبارات الدينية أثر فى هذه التسمية فمع دعوة الإسلام لإنشاء مساجد والتطبيق الحرفى لهذه الدعوة قد يكون وراء تسمية البعض لمنشأته صراحة فى نص الإنشاء "جامع " رغم أن المنشأة تكون مدرسة أو خانقاة وتؤدى وظيفة الجامع أيضا.

---

[1] انظر شكل رقم ٤٥-٤٦

وقد تكون أيضا للاعتبارات الدعائية أثر فى تلك التسميات خاصة بالنسبة لهؤلا الذين أنشأوا أكثر من منشأة فسموا واحدة مدرسة وأخرى خانقاة وثالثة جامع كما كان الحال بالنسبة للسلطان برسباى الذى أطلق على منشأته بالصحراء خانقاة رغم أنه كانت تضم مدرسة وقبة بالاضافة إلى عدد بسيط من الخلاوى.

ويؤكد هذه الرغبة الدعائية فى التسميات ما فعله كافور الشبلى عندما حول تربته إلى خانقاة وأكد ذلك فى وثيقة وقفه بما نصه " القبة التى صيرها خانقاة[1] وما فعله إينال عندما أضاف إلى تربته بالصحراء مدرسة وملحقات أخرى ، وما يوجد على بعض المنشآت من نصوص إنشاء مزدوجة كخانقاة فرج بن برقوق بالصحراء فقد كان انشاؤها تربة لتحقيق وصية والده وكان تسجيلها فى نص الانشاء خانقاة على المدخل نوع من الدعاية إلى إن هذه المنشأة ليست تربة فحسب بل خانقاة.

اولا : تخطيط الاواوين المتعامدة :

لعل هذا التخطيط هو أكثر تخطيطات المنشآت الدينية المملوكية شيوعا [2] فقد استخدم فى المدارس والخنقاوات والجوامع بنسبة عالية ، وقد كان لذلك أسبابه فقد عرفنا أن المنشآت فى العصر المملوكى أصبحت تشتمل غالبا على كثير من الوحدات كالضريح والسبيل والكتاب بالإضافة إلى المكتبة ومساكن الطلبة والمتصوفة وأحيانا الموظفين القائمين على إقامة الشعائر والخدمة ، بل إن بعض الوحدات كالضريح والسبيل كانا من الأجزاء التى روعى فيها أن تشكل جزءا من الواجهة الرئيسية للمنشأة المطلة على الشارع قدر الإمكان ، وكانت المنشآت الدينية داخل القاهرة تبنى فى مواضع مبانى أخرى غالبا ، فإن عملية التحكم فى شكل المساحة كان محدودا سواء بالنسبة لاتساعها أو إنتظام أضلاعها هذا بالإضافة إلى الرغبة فى إنشاء أواوين تتمتع بنوع من الاستقلالية تتناسب وما يعقد بها من دروس أو حضور التصرف

---

[1] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦ محكمة

[2] انظر الشكل من (٦-٣٣)

ولا يتطرق إليها مباشرة وكان تخطيط الأواوين المتعامدة هو أنسب التخطيطات التى تؤائم كل هذه المتطلبات والظروف ، فهو يقسم المساحة إلى ثمانية قطاعات ، أربعة يمكن أن تستغل لأواوين اربعة ، واربعة قطاعات أخرى تستغل فى وضع الوحدات الاخرى يمكن أن يطل إثنان منها على الشارع الذى تطل عليه المنشأة يمكن أن يستغلا للقبة والسبيل فتحقق الرغبة من وضعهما فى هذا المكان بالذات.

وكان هذا التخطيط متأثرا بأساليب الإنشاء وحل مشكلة التغطية ، فهذا التخطيط جنب المعمار إستخدام البائكات التى تحمل السقف ، بعد توزيع المساحة على هذه القطاعات الصغيرة التى يمكن أن تسقف بأقبية أو أسقف مسطحة دون الحاجة إلى الأعمدة التي ندر وجودها والتى كانت تجلب من عمائر قديمة غالبا[1] ولعل مقارنة بسيطة بين تخطيط مدرسة أم السلطان شعبان وخانقاة فرج بن برقوق بالصحراء نجد أن الفارق الأساسى بين التخطيط هو طريق حل مشكلة التغطية فاتساع المساحة فى خانقاة فرج أدى إلى إستخدام البائكات التى تحمل السقف.

وقد كان لمميزات التخطيط المتعامد للإيوان أن شاع إستخدامه كذلك فى المنشأت المدنية كالقصور [2] والحمامات[3] التى أنشئت فى ذلك العصر.

---

[1] المقريزى. خطط ج٢ ص٣٧٠

[2] من مثل هذه القصور قصر الظاهر بيبرس الذى شيد فى دمشق. وقد ورد بوثيقة برسباى رقم ٨٨٠ ص١٤ وصفا لأحد هذه القصور بهذا التخطيط بل أن نظام القاعة يعتبر إختصار لهذا التخطيط حتى أن البعض يرد نشأة هذا التخطيط فى المنشأت الدينية للقاعات والمساكن ولعل تحويل بعض الدور إلى مدارس وتحويل بعض المدارس إلى دور يؤكد ما نذهب إليه (ابن تغرى بردى النجوم ج٥ ص٣٠٨ ج١٠ ص٢٥٢) وتوجد بعض النماذج لقاعات أنشئت وحولت إلى مساجد مثل قاعة شرف الدين وأخيه بالازهر ، وقاعة طشتمر، حتى انه ليقال أن القاعة فى المنازل باحتوائها على إيوانين كانت لتشغل مساحة أصغر فهى كذلك تناسب استخدامها فى المنازل وإضافة إيوانين لهذا التقييم توسيع للمساحة نسبياًلكى تصلح مسجداً بعد توجيهها إلى القبلة ، بل أن بعض نماذج المنشآت الدينية فى العصر المملوكى الشركسى والتى صغرت فيها مساحة الايوانين الجانبين وتقصلت حتى أصبحت مجرد سدلتين أمر يؤكد هذا التقارب. (انظر شكل ٣٦-٣٧)

[3] مثال ذلك حمام المؤيد شيخ

ونظرة على المساقط الأفقية للمنشآت الدينية المملوكية ذات الأواوين المتقابلة المطلة على الصحن تكشف عن أن هذا التخطيط تنوعت وإختلفت تفاصيله من منشأة إلىأخرى ، بتنوع إختلاف الظروف المصاحبة لإنشاء المنشأة ، فقد وجد من هذه المنشآت ما إشتمل على إيوان واحد مثل مدرسة أيتمش[1] ومنها ما إشتمل على إيوانين فقط مثل مدرسة السلطان قلاوون[2] ومنها ماإشتمل على ثلاثة أواوين فقط مثال ذلك منشأة تتار الحجازية ، ولكن الغالب الأعم أن تشتمل على أربعة أواوين تطل على صحن مكشوف ضاقت مساحته وغطى فى أواخر عصر المماليك الشراكسة فى بعض المنشآت مثل ترابقجا الحسنى وقجماس ، وقايتباى بالصحراء وغيرها بل إن الاواوين ضغطت بعد استئصال الصحن كما فىمنشأة الغورى بالغورية.

ويلاحظ أن إيوان القبلة عادة ما تكون مساحته أكبر من بقية الأواوين الأخرى إتساعاً وعمقا ، وقد كان المعمار موفقا فى ذلك. إذ أن هذا الإيوان عادة ما يشتمل على قطع الأثاث التى توضع بالمنشأة الدينية التى تؤدى وظيفة المسجد الجامع كالمنبر ودكة المؤذنين وكرسى المصحف ، كما أنه الايوان الذى كان يستغل عادة فى الصلوات الخمسة ولم تكن الأواوين الأخرى تستخدم لكثرة المنشأت الدينية المملوكية وتوزع المصلين عليها،فكان إتساع هذا الإيوان يكفى أعداد المصلين الذين يأتوا الصلاة بالمنشأة دون الحاجة إلى توزيعهم فى الأواوين الأخرى اللهم إلا فى الصلوات الجامعة التى قد تزدحم فيها المنشأة بالمصلين. كذلك كان هذا الإيوان يجلس به طلبة المذهب الأكثر عددا ، كما أنه كان مقر حضور التصوف غالبا بعد ما تعددت وظائف المنشأة الدينية ، كما كان فيه يجلس قراء القرآن وقارىء الحديث وغيرهم.

وقد لوحظ أن المعمار المملوكى كان يراعى هذا الإتساع مع محافظته على إنتظام المساحات ، وقد يزيد إمتداده جانبيا[3] عن إمتداد الصحن، وقد يكون هذا الإمتداد عبارة عن جناحين يضيقان مساحة إلى مساحة الإيوان

---

[1] وثيقة وقف أيتش ١١٤٣ أوقاف

[2] وثيقة وقف قلاوون٦٠٧ ج

[3] انظر شكل رقم ٢٩،٣١،٢٤

ويحافظ فى نفس الوقت على انتظام مساحة الإيوان وإحكام تغطيته كما هو الحال فى خانقاة بيبرس الجاشنكير[1]

أما الأواوين الأخرى فقد صغرت مساحتها بالنسبة لايوان القبلة ، ويلاحظ أن الإيوان المقابل لايوان القبلة غالبا مايلى فى مساحته إيوان القبلة ، ويفوق مساحة الإيوانين الجانبين ، وربما ذلك لان هذا الإيوان يعتبر امتدادا لإيوان القبلة لسهولة الإتصال بين الإيوانين خاصة فى الصلوات الجامعة ،، ويؤكد ذلك الأمثلة التى اقتصرت على إيوانين أحدهما إيوان القبلة والثانى الإيوان المقابل له. وقد كان صغر هذه الأواوين لتوفير مساحات جانبية لعمل أبواب يتوصل منها إلى القطاعات فى أركان المنشأة الناتجة عن اتباع هذا التخطيط.

وهناك من الأمثلة ما اختلف عن ذلك لظروف الإنشاء والمساحة ففى منشأة تتار الحجازية[2] نلاحظ أن إيوان القبلة ، أصغر مساحة من الإيوان الجانبى الجنوبى ،ويعتبر هذا الإيوان الجنوبى الجانبى الإيوان الرئيسى فى هذه المنشأة لأنه أكبر مساحة فهو يفوق فى مساحته كل من الإيوانين الشرقى والغربى. وقد تحكمت المساحة فى تخطيط هذه المنشأة بهذا الشكل فهو المثال الوحيد الذى تشتمل على ثلاثة أواوين وقد حل محل الإيوان الرابع " الشمالى" المدخل المؤدى إلى المنشأة ، وقد جعل المعمار محرابا بكل من الإيوانين الشرقى " إيوان القبلة " والجنوبى " الإيوان الرئيسى " ، وكان ذلك ضروريا خاصة وأن الأحكام الفقهية تشير إلى وجوب أسبقية موضع الإمام عن المصلين من خلفه ، فلو أن الإمام أم فى الإيوان الجنوبى وكانت صلاة المصلين بالإيوان الشرقى مكروهة لأنهم فى هذه الحالة يسبقون بموضع سجودهم موضع سجود الإمام بالإيوان الجنوبى ،ولذلك الإيوان الشرقى "إيوان القبلة ". يشتمل على محراب ليصلى به الإمام فى الصلوات التى تزدحم فيها المنشأة بالمصلين وكان بالإيوان الجنوبى محراب يستخدم فى الصلوات

---

(1) انظر شكل رقم ٩

(2) انظر شكل رقم ١٢

الأخرى التى يتسع فيها هذا الإيوان لأعداد المصلين دون الحاجة إلى " إيوان القبلة "

الأواوين كعناصر انتفاع :

وقد كانت صلاحية الأواوين لاستخدامها ، عامل أساسى وراء شيوع هذا التخطيط ، فقد استغلت هذه الإواوين للوظائف المختلفة التى كانت تؤديها المنشأة الدينيـة فى العصر المملوكى ، وقد أكدت وثائق الوقف المملوكية وظائف هذه الأواوين وواكبت تطور ظاهرة تعدد الوظائف الدينية فى المنشآت الدينية المملوكية ، فقد جاء بوثيقة وقف خانقاة بيبرس الجاشنكير مانصة" فأما المكان المستجد المبدأ بوصفه أعلاه المشتمل علىالإيوانيين والمجلسين والبيوت وما هو من حقوق ذلك خاصة سفلا وعلوا فإن المذكور أعظم الله لـه الأجور ، وقف ذلك وقفا شرعيا على الصوفية والمتصوفة والشيوخ والكهول والشبان البالغين العرب منهم والعجم وغير ذلك من الأجناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم الملتزمين بادابهم وطريقتهم المقيم منهم بهذا المكان المذكور من أهل القاهرة ومصر المحروستين وظواهرهما وضواحيهما وغيرهما من البلاد والواردين إلى هذا المكان المذكور من الخوانق وغيرها من أى مكان كان قريبا أوبعيدا بطرايق الصوفية وادابهم بحيث لا يدخل عليهم أحد من غير جنسهم بشفاعة شافع[1] وفى موضع أخر تذكر الوثيقة مانصة " وأما الإيوان الكبير القديم البناء ودور القاعة التى هى أمامه والمجلس المجاور لذلك فإن الواقف المسمى أعز الله نصره وضاعف ثوابه وأجره وقف ذلك رباطا على مائة نفر من المسلمين المتصفين بالفقر والمسكنة ، ثم تشير الوثيقة إلى أن الواقف عين بالخانقاة " إمامين " أحدهما شافعى المذهب يؤم بالمصلين فى الإيوان القبلى الصلوات الخمس المفروضة والنوافل المعتادة إلى شرط أن تقام فى جماعة ويزاد عن قيامه بصلاة التراويح فى شهر رمضان من كل سنة ، ما يراه الناظر ويكون الإمام الآخر حنفى المذهب يؤم بأحد المجلسين المذكورين بالجماعة فىالصلوات الخمس

[1] وثيقة بيبرس الجاشنكير ٢٢/ ٤: محكمة

المفروضة خاصة " وهذه النصوص تتعلق بالخانقاة فى الفترة التى كانت فيها منشأة مستقلة مقصورة على المتصوفة . وكانت الأواوين فيها تستخدم بحضور الصوفية . واداء الصلوات الخمس المفروضة ، اما الصلوات الجامعة فكانت تؤدى بأحد المساجدالجامعة القريبة فقد كان متصوفة هذه الخانقاة ومتصوفة خانقاة سعيد السعدا المجاورة لها يؤدون هذه الصلاة فى جامع الحاكم بأمر الله.

ونلاحظ فى نص وقف خانقاة الناصر محمد بسرياقوس تحديدا لوظيفة الأروقة ، فقد جاء بها مانصة " وأما الموضع الذى به المحراب والرواقات الثلاثة القبلية فإنه جعله مسجدا لله تعالى وبيتا من بيوته ، والرواق الشرقى والغربى والبحرى وصحن المكان فإنه وقفه خانقاة برسم اجتماع الشيخ والصوفية المقيمين والواردين بالمسجد أو الخانقاة المذكورين أوقفهما للصلوات الخمس وقراءة القرآن والتهليل والإذكار والتسبيح والإستغفار والاعتكاف بالمسجد المذكور كأمثاله [1] ويتضح من النص تخصيص المواضع ليوفر نوعا من الاستقلالية للمتصوفة ، وهى الإستقلالية التى حافظ عليها بعض المنشئين عندما انشأوا مساجد جامعة مواجهة لخنقاواتهم فيما عرف من نظام الإزدواجية بين الخانقاة والجامع مثل خانقاة وجامع شيخو ، ومنجك وبشتاك ، وقوصون ،وطيبرس وغيرهم. كذلك فإن بعض نصوص الوقف لبعض المدارس تشير إلى تخصيص مكان لمعتنقى كل مذهب فى أداء صلاتهم وهو تخصيص لم يستمر طويلا خاصة فى المنشآت التى تعددت وظائفها. فقد جاء بوثيقة وقف مدرسة وخانقاة برقوق مانصة " فأما الإيوان القبلى الذى بصدره المحراب والإيوان البحرى المقابل له فإنه جعلهما مسجدين لله تعالى تقام فيه الصلوات ، ويصلى فيهما الجماعات ويعتكف فيهما على الطاعات والعبادات ويتقى فيهما كتاب الله الكريم ويذكر فيهما اسمه العظيم ويقرأ فيهما بالعلم الشريف وشرحه وافادته وإحياء ذكره وتكراره واعادته وتعليمه وتفهيمه وتقريره وتثبيته ويجتمع فيهما الطلبة والصوفية الآتى ذكرهم فيه لأداء وظيفتهم الآتى ذكرها فيه " حضور التصوف " وأذن

---

[1] وثيقة وقف الناصر محمد ٥/٢٧ محكمة

للمسلمين فى الدخول إليهما والصلوات فيهم ودخلوهما وصلوا فيهم ، وأما الإيوانان الشرقى والغربى اللذان بدور القاعة المذكورة فانه وقفهما ليشتغل بالعلم الشريف ويصلى فيهما على العدة وجعل حكمهما حكم المدارس [1] ولهذا النص أهمية خاصة فهو يشير الى تحديد وتخصيص دقيق لوظيفة الأواوين خاصة وأن المنشأة تؤدى الوظائف الدينية المختلفة من صلاة وتدريس وتصوف.

ومع شيوع ظاهرة تعدد الوظائف الدينية التى تؤديها المنشأة خاصة عصر المماليك الشراكسة ، أصبحت الأواوين جميعها توقف مسجدا لله مثال ذلك مدرسة برسباى بالأشرفية التى جاء بنص وقفها أن برسباى " وقف الأواوين الأربعة القبلى الذى به المحراب والثلاثة الباقية مسجد لله تعالى تقام فيه الصلوات الخمس والجمع والجماعات ويعتكف فيه على العبادات ويذكر فيه اسم الله العظيم ويتلى فيه كتابه الكريم وخلى بين المسلمين وبينه فصلوا فيه وأعلن فيه بالأذان وصار فيه حكمه حكم المساجد الجوامع لاحق له فيه إلا كواحد من المسلمين [2] وجاء بوثيقة وقف منشأة جوهر اللالا بالمصنع عند القلعة مانصة " فأما إيوانى المدرسة المحدودة بأعاليه ودور قاعتها فإن الجناب العالى الصفوى جوهر الواقف المشار إليه أدام الله تعالى نعمه عليه وقف ذلك مسجدا لله تعالى محرما بحرماته تقام فيه الصلوات ويعتكف به على العبادات وخلا بين المسلمين وبينه وأذن لهم فى دخولهم فيه والصلاة فدخلوا فيه وصلوا [3] وهذه المنشأة تشتمل على إيوانين وسدلتين تطل جميعا على صحن مغطى ، ويلاحظ أن الموثق يشير فى هذا النص إلى استخدام الصحن فى الصلاة ولاشك أنه يصلح لذلك بعدما غطى فوفر سقفه نوعا من الحماية من الشمس والمطر للمصلين فيه ، وأضاف مساحة الصلاة بالمنشأة التى صغرت مساحتها ، كما أنه يشير إلى استخدام السدلتين فى ذلك لصغر مساحتهما جدا . وجاء بوثيقة وقف مدرسة قرقماس بالصحراء أيضا ما يؤكد ذلك بما نصه " فأما المدرسة المعمورة بذكر الله تعالى وما هو من حقوقها

---

[1] وثيقة برقوق ٨/٥١

[2] وثيقة وقف برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٩

[3] وثيقة جوهر اللالا رقم ١٠٢٦ اوقاف

وما يتعلق بها وما يجاورها ويلاصقها فإنه وقف ذلك على ما يشرح فيه ويفصل فيه فوقف باطن المدرسة المذكورة المشتملة على ايوانين ودور قاعة وسدلتين مسجدا جامعا لله تعالى تقام به الصلوات والجمع والجماعات ويأوى إليه أهل الذكر في الخلوات ويعتكف فيه على العبادات ويقرأ فيه القرآن العظيم والحديث النبوى على قائله أفضل الصلاة والسلام ويعلن على مناره بالأذان فى الليل والنهار ويسبح عليه فى الأسحار ويعبد فيه من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وجعل حكم ذلك حكم الجوامع والمساجد العامة وأذن للمسلمين فى الدخول إليه والصلاة على الدوام ، فدخلوا وصلوا فيه جماعة فصار مسجدا[1]

اما بخصوص التدريس فإن الواقف فى بعض المنشآت كان أحيانا يحدد لطلبة كل مذهب إيوان يجلسون فيه للدرس ، مثال ذلك مدرسة السلطان حسن الذى خصص إيوان القبلة للشافعية والإيوان الغربى للحنفية ، والشمالى للمالكية والجنوبى للحنابلة [2] بل إنه خصص لطلبة كل مذهب مساكنهم فيما اطلقت عليه الوثيقة " مدرسة " من المدارس الأربع " الجانبية فى الزوايا الأربعة للمنشأة يوجد على مدخل كل منها نص إنشاء يفيد تخصيصها لطلبة المذاهب المخصصة لهم ومدرسة السلطان برسباى التى اختص فيها إيوان القبلة بطلبة المذهب الحنفى والإيوان الغربى للشافعية أما الإيوانان الجانبيان فقد خصصا للمذهبين المالكى والحنبلى [3] وهناك من الواقفين ما ترك هذا الأمر للناظر أو لشيخ المدرسة حسبما شاء. وإذا كان هذا الأمر ممكنا فى المنشآت التى تشتمل على أواوين أربعة ، فإن هناك من المنشآت التى تشتمل على إيوان واحد مثل مدرسة أيتمش وقرر بها أكثر من درس وكان الأمر يتم بوضع جدول زمنى لمواعيد هذه الدروس بتخصيص مواعيد معينة لكل درس لا تتعارض مع غيره من الدروس ، وبهذا أمكن التغلب على مشكلة المكان.

---

[1] وثيقة قرقماس ١١٩ ص٢٩ - ٦٠

[2] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف

[3] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٨٢

أما بخصوص التصوف فإن المنشأت الدينية التى تعددت وظائفها كان يعقد بها حضور التصوف عادة بعد صلاة العصر فى كل يوم ، وكان يعقد فى ايوان القبلة بصفة عامة. وإذا ضاق هذا الإيوان بالمتصوفة يستغل معه غيره من الأواوين فقد جاء بوثيقة وقف مدرسة جمال الدين الأستادار ما يؤكد ذلك فقد كان يجلس الشيخ " وجماعة الصوفية حوله بداير الإيوان المذكور (إيوان القبلة) وبغيره من الأواوين إذا أحتيج إلى ذلك[1]

وخلاصة القول أن الأواوين فى المنشآت الدينية المملوكية كانت تستخدم بصفة عامة فى الصلاة أو التدريس أو التصرف أو بها جميعا ، وفق ترتيب زمنى معين ، وقد كانت المنشآت الدينية المملوكية بأواوينها تتسع لأعداد المصلين بهذه المنشآت الذين توزعوا عليها خاصة فى الصلوات الجامعة التى تزدحم فيها المنشآت الدينية بالمصلين ، وقد كان لتصريح الفقهاء بإقامة أكثر من خطبة فى البلد الواحد ، أثره على تعدد المنشآت التى تؤدى بها الصلوات الجامعة وكثرتها وقد عرفنا أن هذه الظاهرة بدأت فى العصر الأيوبى وشاعت فى العصر المملوكى ، وأشرنا إلى كثرة هذه المنشآت وتعددها بنسبة فاقت الكثافة السكانية لمدينة القاهرة ، حتى أننا نجد أن البعض يقرر بعض المتصوفة بمنشآته لتنعقد بهم الجمعة وتظل منشآته عامرة بذكر الله [2] ولما كانت صلاة الجمعة تنعقد بإثنى عشر شخصا فإن المنشآت الدينية المملوكية لايوجد منها ما يضيق بهذا العدد أو أضعافه.

وقد كانت الأواوين تستغل أيضا للتدريس [3] – كما أشرنا – وكانت هذه الأواوين تتسع بالطبع لأعداد الطلاب المقررين للدرس بها ، فأكبر عدد من الطلاب قرره واقف بمنشآته كان ما قرره السلطان حسن بمدرسته إذ أنه قرر مائة طالب لكل مذهب قسمها قسمين ، قسم مبتدىء يدرس على حدة وعدد طلابه خمسون طالبا ، والقسم الآخر منتهى " وعدد طلابه خمسون

---

[1] وثيقة وقف جمال الدين الأستادار ١٠٦/١٧

[2] وثيقة وقف جمال الدين الأستادار ١٠٦/١٧ . المقريزى خطط ج٢ ص٢٩٧

[3] ينكر الدكتور أحمد فكرى ان الأواوين كانت تستخدم للدرس ويحاول إثبات ذلك ، لكن نصوص وثائق الوقف المملوكية أقوى من هذه المحاولات (راجع أحمد فكرى مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ص١٨٢)

طالبا[1] وقد كانت أواوين مدرسة السلطان حسن لتتسع لأضعاف هذا العدد ، كذلك فإن الأمثلة الأخرى تشير إلى أن الأواوين كانت تتسع للطلاب المقررين بهذه المدرسة أو تلك ، فمدرسة برقوق بالنحاسين كان مقررا بها أربعون طالبا للمذهب الحنفى خصص لهم الإيوان القبلى ، وعشرون طالبا لكل مذهب من المذاهب الثلاثة الأخرى وأواوين هذه المدرسة تتسع لأضعاف هذا العدد. وبمطابقة أعداد الطلاب المقررين بالمنشآت الدينية ومساحة أواوين التدريس بهذه المنشآت نجد اتساعا مفصلا خاصة وأن بعض الواقفين أباح للعامة حضور بعض الدروس لمن يرغب منهم فى ذلك[2]

ويعترض الدكتور فكرى على صلاحية الأواوين للتدريس فيذكر أن "أشعة الشمس تغمر الأواوين الغربية فى الصباح وتغمر الأواوين الشرقية والشمالية طيلة بعد الظهر وعلى مدار أيام السنة " ثم يستطرد الدكتور فكرى قائلا " فإذا علمنا أنه كان من المتبع أن تعقد حلقات الدروس بعد ذلك العصر أدركنا استحالة استخدامه هذه الأواوين المكشوفة للتدريس. وقد تصلح هذه الأواوين للجلوس للقراءة أو التدريس فترة قصيرة من فترات النهار فى فصل من فصول السنة ، ولا تصلح قط لأداء نفس الغرض فى فصل آخر ، وإذا كانت تصلح لأداء الصلاة فى أى موسم من المواسم ، وفى أى فترة من فترات النهار فإنها لا يمكن أن تتخذ مواضع مستقرة للتدريس أو توصف بأنها مخصصة له[3]

ولكن الدكتور فكرى قد جانبه الصواب فى ذلك الرأى ،ذلك أن حركة الشمس على مدار السنة عند خط عرض ٣٠ شمالا ، وهو الخط الذى تقع فى حدوده " القاهرة " تشير إلى أن الشمس تسقط فى فصل الصيف فى ٢١ يونيو بزاوية ٨٣,٥ درجة وفى فصل الشتاء فى ٢١ ديسمبر تسقط بزاوية ٣٦,٥ درجة وفى الإعتدالين ٢١مارس ، ٢١ سبتمبر تسقط بزاوية ٦٠ درجة وهو أمر يتناسب وبرد الشتاء حتى أن الأشعة تمتد إلى داخل أكبر مساحة من

---

[1] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف

[2] وثيقة وقف لاجين ٣/١٧ وكذلك وثيقة اينش اليجاسى ١١٤٣ ، وثيقة برقوق ٨/٥١ وثيقة وقف جمال الدين الأستادار ١٧/١٠٦

[3] د.أحمد فكرى. مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ ص١٨٢

الأواوين ، وفى فصل الصيف لا تصل الى عمق كبير فى الأواوين لأنها تسقط بزواية ٨١,٥ .وهى أقرب إلى العمودية[1]وفى الإعتدالين تكون النسبة متوسطة وهذا يتناسب وإعتدال الجو فى هذين الفصلين. كما ان توجيه المبنى الدينية فى القاهرة فى إتجاه الجنوب الشرقى " القبلة " يؤثر على درجة دخول الأشعة إلى هذه الأواوين ويحد منها ، فيخفف من حدتها ، ونتفق مع الدكتور فكرى فى أن الشمس تدخل الإيوان الغربى فى الصباح ، وتغمر الأواوين الشرقية والشمالية طيلة بعد الظهر. وهو أمر يشير إلى اختلاف وقت تعرض الأواوين للشمس واذا علمنا أن الدروس كانت تعقد فى الفترة الصباحية حتى الزوال أوبعد الظهر حتى صلاة العصر ، وأن مقدار ساعات الدرس كان يحدد أحيانا بثلاث ساعات فى أى من هاتين الفترتين وأن وثائق الوقف لم تحدد وقتا بعينه بل أعطت نوعا من الاختيار ، فإن هذا يبين إمكانية عقد الدروس فى هذه الأواوين دون إعاقة بسبب تعرض بعضها للشمس فى وقت معين ، بل إن ما تشير إليه الوثائق عن عدم عقد الدروس فى أيام الحر الشديد والبرد الشديد والمطر أمر يؤكد الحرص على حماية الدارسين من العوامل الجوية التى يحتج بها الدكتور فكرى بعدم صلاحيته الأواوين لعقد الدروس. أما ما يقوله الدكتور فكرى من أن حلقات الدرس كانت تعقد بعد صلاة العصر فهو قول خاطىء. أساسا لأن الوثائق المملوكية جميعا تنفى ذلك.لأن ما كان يعقد بالمنشأة هو حضورالتصوف الذى كان يتم بعد صلاة العصر ، وكان غالبا فى ايوان القبلة فى الوقت الذى تكون فيه أشعة الشمس فقد فقدت حدتها وتبدأ فيه الشمس نفسها فى التوازى فى الأفق تمهيدا للغروب. ومما سبق يتضح أن الأواوين كانت صالحة لعقد الدروس بها ففيها اتساع مفضل كما أن ما يقال عن عدم صلاحيتها بسبب تعرضها للشمس والبرد ، مردودعليه ، كما أوضحنا بل إن فتح الأواوين على صحن مكشوف وتزويدها بنوافذ للإضاءة والتهوية وتزويد بعضها بملاقف للهواء كما فى خانقاة بيبرس الجاشنكير ومدرسة برسباى بالأشرفية ، وقراقجا الحسنى بدرب الجماميز ،

---

[1] انظر شكل رقم٦٠

أمر يشير إلى مراعاة المعمار المملوكى وحرصه على تهوية هذه الأواوين لوظائفها التى خصصت لها .

أما فيما يتعلق بوظيفة " حضور التصوف " فإن المنشآت الدينية المملوكية التى كانت تؤدى وظيفة الخانقاة كان يعقد بها هذا الحضور بإيوان القبلة غالبا ، وإذا ضاق بالمتصوفة كان يستخدم معه غيره من الأواوين ، وأكبر عدد من المتصوفة المقررين بمنشأة دينية كان ماقرره بيبرس الجاشنكير فقد وصل إلى مائة شخص [١] ويتسع إيوان القبلة بهذه الخانقاة لما يزيد على هذا العدد ، ولم تكن العوامل الجوية لتعوق عقد هذا الحضور الذى كان يعقد بعد العصر غالبا – كما ذكرنا – كما أن المعمار من جانبه حاول تهويته وإضاءته والإهتمام بجماله وحسن بنائه ، فعادة ما تفرش أرضه بالرخام وتكسى جدرانه بوزرات الرخام أيضا فى تصميمات جميلة تشرح النفوس وتثلج الصدور لجمالها وحسن إخراجها.

تخطيط الأروقة المتصلة والمنفصلة :

ووجد إلى جانب تخطيط الأواوين المتعامدة ، تخطيطات أخرى ، مثل تخطيط الأروقة المتصلة[٢] ووجود هذا التخطيط إلى جانب التخطيط المتعامد للأواوين، يؤكد وجهة النظر التى تشير إلى أهمية الأنشاء بالنسبة لاتخاذ المنشآت تخطيطات معينة .فهذا التخطيط أنسب التخطيطات للمنشآت الدينية التى تشغل مساحة كبيرة ، تتسع بحورها فيحتاج معها إلى بائكات تحمل السقف ، وهذا التخطيط استمرار لتخطيطات المساجد الجامعة قبل العصر المملوكى ولكن فى العصر المملوكى تميز بمميزات العصر المملوكى سواء بالنسبة لما ألحق به من الوحدات التى اشتملت عليها المنشآت الدينية المملوكية غالبا كالضريح والسبيل والكتاب والمكتبة وغيرها من الوحدات ، مع المحافظة فى الوقت ذاته على التخطيط العام.كذلك تأثر بأساليب الإنشاء المتبعة فى ذلك العصر.

---

[١] وثيقة وقف بيبرس الجاشنكير ٣/٢٣

[٢] انظر شكل رقم ٣٧-٤٠

ويلاحظ أن جميع المنشآت التى كانت وفق هذا التخطيط أُطلق عليها بنص إنشائها التسمية " جامع " مما يؤكد إرتباط هذا التخطيط بالجامع ، أكثر من أى منشأة أخرى ، رغم تأدية المنشأة للوظائف الأخرى ، ولعل أروع الأمثلة الباقية من هذه التخطيطات جامع الظاهر بيبرس ، والماردانى ، والناصر محمد بالقلعة وبرسباى بالخانكة ، والقاضى يحيى زين الدين ببولاق. ونلاحظ فى هذه النماذج أن مداخلها مباشرة تؤدى إلى أروقة الجامع الغربية أو الشمالية والجنوبية مباشرة ، وهو أمر يؤكد أن المداخل غير المباشرة فى العمائر الدينية المملوكية متأثر بالتخطيط المتعامد فقد كان التخطيط المتعامد ذو الأواوين المستقلة وعدم الرغبة فى التوصل إلى الأواوين مباشرة ، وراء وجود دركاة تؤدى إلى دهليز ، يشكلان " ممرا منكسر " يؤدى إلى الصحن ومنه إلى الأواوين كما يلاحظ أن بعضها يشتمل على قبة كبيرة محمولة على أعمدة تتقدم المحراب كما كان الحال فى جامع بيبرس ثم ما هو فى جامع الماردانى وجامع الناصر محمد بالقلعة وغيرها.

وهذه المنشآت بأورقتها تتسع لأعداد كبيرة من المصلين فى الصلوات الجامعة ، فمثلا تبلغ مساحة جامع الظاهر بيبرس ١١٦٨ متراً مربعاً وتبلغ مساحة الأروقة بجامع برسباى بالخانكة ،١١٠٠ متراً مربعا بالإضافة إلى صحن مكشوف تبلغ مساحته ١٩٦ متراً مربعاً يمكن استخدامه هو والدهليز المؤدى إلى أروقة الجامع ، والذى تبلغ مساحته ٢٠ متر مربعاً ، إذا دعت الضرورة إلى ذلك ، وازدحم الجامع بالمصلين وهو أمر يشير إلى أن الأروقة قادرة علىإستيعاب ١٥٠٠ مصلى ، وفى حالة إستخدام الصحن والدهليز يمكن اضافة ٤٢١ مصلى [1] وهذا عدد كبير بالنسبة لضاحية صغيرة من ضواحى القاهرة فى ذلك الوقت.

كما أن الأروقة فى هذه المنشآت معدة تماما لإستقبال المصلين فى مسقفه بأسقف تحميهم من الشمس ، كما أن الشمس لاتصل إلى هذه الأروقة أثناء إقامة الصلوات الجامعة كصلاة الجمعة التى تكون وقت تعامد الشمس فى السماء ، وفى صلاة العيدين التى تكون عند الشروق. هذا بالنسبة

[1] يشغل المصلى الواحد ٧٥ سم٢ انظر شكل رقم ٥٤

للصلوات الجامعة التى يزدحم فيها الجامع بعدد كبير من المصلين يفوق عدد المصلين فى أى صلاة أخرى ، أما فى الصلوات الأخرى فإن رواق القبلة الذى يتكون عادة من ثلاث بلاطات يكون هو الرواق الأكثر إستخداما لإشتماله على المحراب ولهذا جعل المعمار مساحته – كما ذكرنا – أكبر من أى رواق أخر، وزاد فى عمقه ، وهذه الزيادة فى العمق تجنب المصلين لصلاة العصر أشعة الشمس التى تصل فى هذا الوقت إلى الجزء الغربى من هذا الرواق وظيفة انتفاعية بتوفير مساحة للمصلين فى هذا الوقت بعيدة عن أشعة الشمس التى تصل إلى الجزء الغربى منه . كذلك يلاحظ شيوع إستخدام الأعمدة فى البائكات التى تحمل سقوف هذه الأروقة بدلا من الدعامات الضخمة – كما فى جامع ابن طولون والحاكم مثلا – ساعد على توفير أكبر مساحة خالية لإقامة الصلاة بها .

ومن الأمور الواجب الإشارة إليها أن الطرقات التى تتخلل الأروقة أحسن إختيار موقعها [1]بحيث لاتؤذى المصلين بسبب عبور أحد الأشخاص منها ، فهى تقع فى الرواقين الشمالى والجنوبى بالطرف الشرقى، فهى بذلك لاتمس المصلى فى رواق القبلة فى شىء ، وهو الرواق المستخدم بصفة دائمة فى الصلاة ثم هى فى طرفى الرواقين الشمالى والجنوبى بحيث يمكن اعتبارها فاصلا بين أرضية هذين الرواقين ورواق القبلة ، كما أن الطرقة التى تتوسط الرواق الغربى لا تسبب أذى لمصلى هذا الرواق على إعتبار أن العابر فيها يمر دون أن يتعرض للمصلى فى الأجزاء المعدة للصلاة فيه ، فهى على جانبى هذه الطرقة ، ثم إن هذه الطرقة بهذا المكان تعتبر فى أنسب وضع إذ انها توصل إلى الصحن من أقصر طريق وتبعد عن الأروقة الجانبية، وكانت هذه الطرقات لتمنع تخطى رقاب المصلين ، وهو أمر يشير إلى كراهية الفقهاء، فهى تقصر المسافات وتخصص للمرور خاصة وأن المعمار جعلها بمستوى أرضية الدهليز أو الصحن ليؤكد إستخدام هذه الطرقات فىالمرور وعدم مضايقة المصلى فى الأروقة أثناء صلاته.

---

[1] انظر شكل رقم ٣٩-٤٠

وتتمتع هذه الأروقة بإضاءة طبيعية كافية نهارا أوفت بها صفوف النوافذ السفلية الكبيرة والعلوية وإن كان الغرض من هذه النوافذ العلوية إنشائى بحت ،إذ أن هذه النوافذ تسمح بضوء ضعيف جدا بعد مروره من زجاج شبابيك هذه النوافذ العلوية ودرجة الإضاءة بهذه الأروقة ليست مطلوبة فقط لغرض الرؤية العادية ، ولكنها مطلوبة بصفة ضرورية لقراء المصحف الذين يقرأون القرآن فى مصاحفهم فى هذه الأروقة وللدارسين والمتصوفة الذين يقررون ببعض هذه المساجد الجامعة فالمعروف أن بعض هذه المساجدالجامعة انسحبت عليه ظاهرة تعدد الوظائف التى سادت المنشآت الدينية فى عصر المماليك بصفة عامة ، والمماليك الشراكسة بصفة خاصة. فقد جاء بوثيقة وقف جامع سودون من زاده ما يؤكد ذلك بما نصه " إن الواقف المذكور وقف ذلك مسجدا جامعا لله تعالى وبيتا من بيوته تقام فيه الصلوات ويعتكف فيه على الطاعات ، ويجتمع فيه للاشغال والاشتغال بالعلم الشريف والاذكار وتلاوة كتاب الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار وأذن للمسلمين كافة فى الدخول إليه والصلاة فيه وخلا بينهم وبينه فدخلوه وصلوا فيه[1] ثم جاء بالوثيقة أن الواقف قرر أن "يرتب الناظر فى هذا الوقف رجلين من أهل الخير والدين المشهورين بالتقدم فى العلم أحدهما حنفى المذهب والآخر شافعى المذهب مدرسين بهذا الجامع المشار إليه بأعاليه ويرتب معهما أربعة ميعيدين متصفين بالصفة المذكورة إثنان من الحنفية وإثنان من الشافعية، ورتب الناظر أيضا معهم أربعين نفسا من الطلبة المعروفين بالخير والدين والاشتغال بالعلم الشريف عشرون من الحنفية وعشرون من الشافعية على أن كل مدرس من المدرسين يجلس مع طائفته المعيدين والطلبة بمحراب هذا الجامع فى الوقت الذى يعينه الناظر إماعقيب صلاة الظهر إلى أذان العصر أو مقدار ذلك من طلوع الشمس إلى الزوال فى كل يوم من أيام الأسبوع خلا يوم الجمعة ويوم الإثنين ويوم الثلاثاء فإنهم يسامحون بالحضور فيها ، وتفرق عليهم ربعة شريفة ، يقرأون فيها ما تيسرت لهم قراءته من القرآن العظيم ثم يدعو أحدهم عقيب قراءته للواقف المذكور ولذريته ولجميع

---

[1] وثيقة وقف سودون من زاده ٥٨/١٠

المسلمين بالرحمة والمغفرة ثم يلقى المدرس المذكور بحضرة جماعته ما تيسر له إلقاؤه من تفسير وحديث للبحث من جماعته على العادة فى ذلك ، ويمكثون كذلك إلى اخر الوقت المذكور ، ويجلس المعيدان المذكوران إما بعد الدرس أوقبله مع ما تيسر حضوره عندهما من طلبة مذهبه ، ويصحح كل من المقيدين المذكورين لهم ما يحفظونه من كتبهم ويبين لهم ما أشكل عليهم من مذهبهم على العادة فى ذلك.

كذلك كان يعقد ببعض هذه الجوامع حضورا للتصوف بعد العصر كما هو الحال فى المنشآت الدينية الأخرى. وقد كانت أروقة هذه المساجد الجامعة تصلح لعقد هذه الدروس وعقد حضور التصوف صلاحيتها لإقامة الصلوات الجامعة وغيرها .

ويجب أن نشير إلى أن هذه المساجد منها ما أشتمل على ملحقات كالسبيل والكتاب والضريح والمكتبة غالبا ، ومنها ما اشتمل على أروقة خاصة للسكنى مثل جامع برسباى بمدينة الخانكة ، ومنها ما لم تدع الحاجة إلى ألحاق مثل هذه الوحدات به مثل المساجد الجامعة التى أنشئت بالقلعة ، فقد أثر موقعها على اتخاذها هذا الوضع ، مثل ذلك ما كان عليه جامع الناصر محمد الذى لم تلحق به أى من هذه الوحدات ، كذلك ما كان عليه المسجد الجامع الذى أنشأه فرج بن برقوق ، والذى كان له تخطيط فريد عبارة عن مساحة مربعة يحمل سقفها أربعة دعائم ويشتمل على محراب ومنبر ودكة للمؤذنين من الخشب [1] وهو أمر تشير إلى تاكيد الظروف المصاحبة لإنشاء المنشأة على إتخاذها تخطيطا معينا ، وإلى موائمة المعمار بين هذه الظروف وإنشاء منشأة تفى بإغراضها فقد كان إنشاء ضريحين بكل من خانقاة فرج بن برقوق ثم جامع المؤيد له أثره فى إتخاذ المبنى التخطيط الذى هو عبارة عن أربعة أروقة منفصلة ، والذى يمكن أن يعتبر امتدادا لما وجد ببعض المنشآت الدينية ذات التخطيط المتعامد التى تشتمل على ضريحين مثل مدرسة أم السلطان شعبان وخانقاة أم انوك وأن الفارق بين هذه

[1] وثيقة فرج بن برقوق ٦٦/١١

التخطيطات هو إختلاف حل مشكلة التغطية بإختلاف مساحة المنشأة ووحداتها.

ومما يؤكد أن الوظيفة والإنشاء كانا من العوامل الرئيسية وراء إختلاف التخطيطات ويمكن ملاحظة ذلك فى التخطيطات الأخرى لبعض مساجد والزوايا مثل زاوية زين الدين يوسف وخانقاة أيدكين البندقدارى ومسجد فرج بن برقوق بتحت الربع ، وزاوية برسباى " القبة الرفاعية " بالصحراء[1].وقبتنا يشبك من مهدى فإختلاف هذه التخطيطات كان بسبب إختلاف وظائفها وظروف إنشائها وكانت جميعا لتفى بالأغراض التى أنشئت من أجلها سواء كانت للصلاة أو التدريس أو التصوف التى يمكن أن تتم فى مساحة تتوافر فيها أسباب الحماية والتهوية والإضاءة وسهولة الإتصال والحركة وهى أمور راعها المعمار المملوكى حتى تستطيع هذه المنشآت أن تفى بوظائفها على خير وجه.

المئذنة :

تعتبر المئذنة من عناصر الإنتفاع الهامة بالمنشآت الدينية المملوكية ، والمعروف أنها تنشأ بالمساجد الجامعة ليعلن المؤذنون من عليها للصلاة، ثم ألحقت بعد ذلك بالمنشآت الدينية الأخرى كالمدارس والخنقاوات بعد ما أصبحت هذه المنشآت تؤدى وظيفة المسجد الجامع ، كما أن " مساجد الخمسة" الصغيرة التى أنشئت قبل العصر المملوكى والتى حولت إلى مساجد جامعة كالجامع الأقمر وجامع الصالح طلائع لها مآذن ،شأنها فى ذلك شأن المنشآت الدينية الأخرى التى تقام بها الصلوات الجامعة.

وتعتبر المئذنة من عناصر الانتفاع الهامة بالمنشآت الدينية التى أولاها المعمار المملوكى أهمية خاصة فظهر تفننه فى بنائها والعناية بجمالها ولم يكن هناك غرابة فى ذلك فهى من العناصر الأولى فى التعبير عن كنة المنشأة.

وتحدد وثائق الوقف المملوكية وظيفة المئذنة تحديد دقيقا ، فقد جاء بوثيقة السلطان حسن مانصه " ويرتب بالمكان المذكور ريسين مأمونين

[1] انظر شكل رقم ٥٢.

عالمين بالمواقيت ويرتب معهما إثنان وثلاثين نفرا من المؤذنين الحسنى الأصوات فى نوبتين فى كل نوبة ريس وستة عشر نفرا من المؤذنين يفعل كل ريس فى نوبته مجرت عادة أمثاله ، ويجتمع كل أربعة من اهل كل نوبة على ميدنة من المآذن المذكورة فيه ويفعلون ما جرت به العادة من الأذان والذكر والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والتبليغ خلف الأئمة على جارى العادة فى ذلك يتناوبون ذلك نوبة بعد نوبة كل نوبة يومان وليلتان[1] وجاء بوثيقة السلطان برقوق مانصه " وأما الميدنة فللإعلان بالإذان والتهليل والتسبيح وللصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة أمثالها من موادن المسلمين " وفى موضع آخر " ويصرف من ذلك لستة نفر من الرجال يكونوا حسان الأصوات ذاعفة وأمانة وثقة وديانة وصوت جهر ، وحس طيب وترتيب مستحسن يكون منهم إثنان يعرفان علم الميقات المشروع فيها الصلوات أسوة أمثالها من رؤساء المسلمين ويجعل مع كل ريس منهما إثنان من الأربعة الباقين ويصير جوقة مؤذنان وريس يقيمهم للأذان بالمئذنة المذكورة ، وينصبهم لذلك أسوة لأمثالهم يتناوبون بالعمل نوبة بنوبة بالمئذنة المذكورة يقومون بوظيفة الأذان وإقامة الصلاة والتبليغ خلف الإمام على أن يصعد كل جوقة من الجوقتين المذكورتين على المئذنة المذكورة تعلن بالأذان جمعا والتسبيح للبارى سبحانه وتعالى وذكر حال الموت والقيامة وبمدائح رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنشد السحريات والفجريات والقصائد والمواعظ ، وذكر ما يشوق إلى الآخرة ويزهد فى الدنيا ويصرف النفوس عن حبها ، ويرغبهم فى دار البقاء ويذكر بالموت والقيامة أسوة أمثالهم من المؤذنين [2] وجاء بوثيقة قراقجا الحسنى ما يفيد ذلك أيضا فقد جاء بها مانصه " وأما الميدنة فإن الواقف المشار إليه أعز الله تعالى أنصاره وقفها للتسبيح والتهليل والسلام على النبى صلى الله وسلم على الحكم الآتى شرحه " وهو أنه " يصرف لتسعه نفر من المؤذنين حسان الصوات بالسوية بينهم فىكل شهر من شهور الأهلة ما مبلغه من الفلوس المذكورة

---

[1] وثيقة وقف السلطان حسن ٨٨١ أوقاف.

[2] وثيقة السلطان برقوق ٨/٥١ محكمة

ألف درهم وثمانى ماية درهم لكل نفر منهم ماية درهم أو ما يقوم مقام ذلك من النقود على أن يكونوا ثلاث جوق كل جوقة ثلاثة نفر يتبادلون الأذان المشروع على الميدنة ويسبحون فى الثلث الأخير من الليل فى كل ليلة ويذكرون فى أيام الجمع قبل صلاة الجمعة ويسلمون ويؤذنون على الميدنة[١] .وجاء بوثيقة قجماس الإسحاقى مانصه " وأما الميدنة فإنه وقفها ليعلن عليها الأذان للصلوات الخمس والأذكار فى أوقات الأسحار على جارى العادة فى مثل ذلك [٢]

ومما سبق يتضح أن المآذن كانت أصلا للإعلان بالأذان للصلوات الخمس ، كما أن المؤذنين كانوا يصعدون عليها أحيانا قبل دخول الوقت المحدد للأذان خاصة فى وقت السحر لإنشاد السحريات والفجريات قبل دخول الوقت ، وكل ذلك يساعد على إستيقاظ المصلين للقيام للصلاة ، وهو أمر لا يتعارض والأحكام الفقهية الإسلامية ، كما أنهم فى أيام الجمع كانوا ينشدون القصائد فى مدح رسول الله والمواعظ وفى ذلك إشارة أيضا للمصلين بإقتراب موعد الصلاة ، وعند دخول الوقت المحدد للأذن يسلمون ويبدأون الأذان ، وكان الأذان الشائع – كما يتضح من النصوص وكما ذكرنا آنفاً – هو للأذان السلطانى الذى يقوم به أكثر من مؤذن على أن يأتى كل مؤذن بأذان كامل على إنفراد وهو أمر أقرته الأحكام الفقهية الإسلامية.

وقد تنوعت المآذن المملوكية فى أحجامها وأشكالها بل وفى أعدادها من منشأة إلى أخرى ، فقد أنشئت ببعض المنشآت الدينية المملوكية أكثر من مئذنة مثال ذلك مدرسة السلطان حسن التى كان من المقرر فى مشروع بنائها أربع مآذن فرغ من بناء ثلاث منها إثنتان تكتنفان القبة بالواجهة الشرقية ، والثالثة كانت على الكتف الأيمن للباب الرئيسى ، وقد سقطت يوم السبت ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م فأبطل السلطان حسن بناء المنارة الرابعة التى كان لها الكتف الايسر للباب المذكور وإكتفى بالمنارتين [٣] وجامع المؤيد شيخ الذى

---

[١] وثيقة قراقجا الحسنى نشر د. عبد اللطيف ابراهيم سطر ٩٦ ، سطر ١١٤-١١٧

[٢] وثيقة قجماس الاسحاقى رقم ٨٦٠ أوقاف

[٣] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص٢٦٨ وثيقة السلطان حسن ٨٨١ اوقاف.

بنيت له ثلاث مآذن فقد أكدت ذلك وثيقة وقفه بما نصه " وبالمكان المذكور ثلاث موادن أحدها لطيفة وهى فى الحد البحرى تجاه المحراب [1] وهى ثلاثة ادوار والإثنان الأخران مركبان على برجى باب زويلة من الحجر المنحوت وكل منها ثلاثة أدوار [2] وهناك ما إشتمل على مئذنتين كخانقاة فرج بن برقوق بالصحراء.

وقد نوع المعمار المملوكى فى إختيار موضع المئذنة وطريقة إنشائها حسب ظروف المنشأة نفسها ، ولكن يلاحظ فى المآذن المملوكية بصفة عامة، محاولة وضعها ضمن وحدات المنشأة المشكلة للواجهة الرئيسية المطلة على الشارع ، مستغلا فى بعض الأحيان سمك الجدران الخارجية للمنشأة نتيجة محاولته الموافقة بين إتجاه الشارع وإتجاه القبلة وتشكيله مساحة منتظمة من الداخل للمنشأة . كأساس للمآذن الذى يكون فى هذه الحالة جزءا مندمجا من أجزاء الواجهة . ولعل هذا يفسر ما نراه من وقوع المئذنة من هذا النوع للجهة الشمالية من المدخل فى المنشآت التى تقع على الجانب الغربى من الشارع وفى الجهة الجنوبية من المدخل فى المنشآت التى تقع على الجانب الشرقى منه ، لأن السمك يأخذ هذا الإتجاه عادة . وهذه المآذن يتوصل إليها عادة من سطح المنشأة الذى يتوصل إليه من سلم أخر ضمن وحداتها الأخرى . ويزيد من متانة هذا الأساس أنه عادة ما يكون عند إلتقاء جدار الواجهة – فى أكبر سمك له – مع الجدار العمودى عليه الذى يحد الإيوان المطل على الشارع ، ولعل أروع الأمثلة على ذلك مئذنة مدرسة الأشرف برسباى بالأشرفية ومئذنة جامعه بمدينة الخانكة .

ومما يشير إلى أن الأساس المتين كان يجذب المعمار إلى إستغلاله فىعمل المئذنة التى ترتفع أكثر من ثلاثين مترا فى بعض الأحيان ، ما نراه فى مئذنتى جامع المؤيد شيخ على برجى باب زويلة ، فقد إستغلها المعمار

---

(1) يذكر حسن عبد الوهاب أن المؤرخ على بن داود الجوهرى إنفرد عن المؤرخين بذكر ثلاث منارات للجامع احداها كانت بالواجهة الغربية ، وقد أشار المقريزى فى سلوكه ج٤ ق٢ ص٧٤٤انه كان يوجد بجامع المؤيد مئذنة ثالثة تشرف على الصحن قام بتجديدها السلطان برسباى في رجب سنة ٨٣١ لميلها والخوف من سقوطها.

(2) وثيقة المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف.

كأساس لبناء المئذنتين بعد أن خرق سطح الغرفة التى تعلو كل برج ، ووضع قاعدة مكعبة فوق كل برج أقام عليها مئذنته . ومآذن مدرسة السلطان حسن التى أختير لها مواضع معينة فى ركنى الواجهة الشرقية للقبة ، وعلى جانبى المدخل الرئيسى بالواجهة الشمالية وهذا الإختيار بجانب الأساس المتين يشير إلى إقتصاد المعمار فى تكاليف البناء من جهة ويشير بذلك إلى الرغبة فى توفير مساحة كان يمكن أن تشغلها المئذنة لو أنها وضعت فى مكان آخر من المنشأة . وبهذا حقق المعمار ما تشير إليه الأحكام الفقهية من ضرورة تجنيب المنشأة شغل المئذنة أوغيرها لأى مساحة من مساحات الصلاة فيها .

وقد يكون ضيق المساحة وعدم توفر المكان المناسب لها سببا رئيسيا فى وجود نوع من المآذن المنفصلة والمستقلة تماما عن المنشأة الدينية كما هو الحال فى مئذنة قراقجا الحسنى التى تقع فى الجهة الشمالية منفصلة عن المنشأة وترتبط بها عن طريق منشأة تربط بين سطح المنشأة والمسجد . وقد تكون ظروف الإنشاء وتتابع مراحلها مرحلة بعد الأخرى من الأسباب التى أجلت بناء المئذنة ، فاضطرت الظروف لإنشائها فيما توفر بعد ذلك من مساحة مستقلة عن المبنى كما كان الحال فى مئذنة كافور الشبلى ضمن وحداته المعمارية التى أنشأئها بالصحراء وحدة تلو الأخرى ، فقد كان أولا يعلن المؤذن " بالأذان فى الأوقات الخمس بباب القبة [1] التى أنشأئها أولا تربة له ، ثم حولها إلى خانقاة ، ثم شرط كافور أنه تيسر له عمارة منار تجاه الخانقاة المذكورة فيه نقل المؤذن إليها وكان أن أنشأ فعلا مئذنة : " مبنية بالحجر الفص النحيت والحجر الأحمر الدور الأول والثانى والعواميد الرخام المركبة فوق الدور الثانى وذات الخوذة والهلال النحاس والدائر القطع الرمامين والمقرنصات وغير ذلك من الثلاث صوارى الخشب المركبة برسم صناديق القناديل المباركة المعدة للوقود فى شهر رمضان المعظم قدره وحرمته فى كل سنة ولهذا المنار المذكور حدود أربعة القبلى ينتهى إلى الجنينة المذكورة ، وفى هذا الحد باب المنار المذكور والحد البحرى ينتهى إلى الطريق ، وفى هذا الحد منور مركب عليه ثلاث عواميد رخام لطاف

[1] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦.

وسفل ذلك لوح رخام مبنى فى الجنب منقوش دايره آية الكرسى بوسطة إسم الواقف المشار إليه ملمع باللازورد والحد الشرقى ينتهى إلى صهريج الأدر المصونة خوند سارة المشار إليها أعلاه والحد الغربى ينتهى إلى باب الإسطبل المتوصل منه إلى الخانقاة المذكورة وإلى مسجد إنشاء الواقف وإلى تربة المرحومة خوند سارة بحد ذلك وحدوده[١] وهذه المئذنة ومئذنة قراقجا الحسنى كانت لتخدم منشآت الواقف الأخرى فى المنطقة نفسها فقد أنشأ قراقجا مسجدا تجاه منشآته الحالية ، وأنشأ كافور جامعا ومسجدين ومعبد فى المنطقة التى كانت تقع بجوار خانقاته بالصحراء.

ومما يشير إلى أن بناء المئذنة كان متعلقا بتعيين أكثر من مؤذن للمنشأة الدينية ما جاء بوثيقة كافور عند وقف المئذنة التى أنشأها فقد شرط على المؤذن الذى كان عينه للأذان بباب القبة أن " يعلن فوقها بالأذان فى الأوقات المشروعة والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلقه وأفضل رسله ويترضى عن أصحابه أجمعين ويسبح الله تعالى ويقدسه ويعظمه ويمجده ويثنى عليه وقت التسبيح على ما جرت العادة فى مثل ذلك ويدعو عقب ذلك للواقف المشار إليه ولجميع المسلمين " ثم شرط أن " يرتب مؤذنين من أهل الخير عارفين بالأذان ويصرف لكل منهما فى كل شهر من المبلغ المعين فيه ثمانون درهم من خبز القرصة فى كل يوم رطلان على أن كل من المؤذنين الثلاثة يباشر وظيفة الأذان والتسبيح على ما شرح أعلاه يوما بعد يومين ويتناول ما عين له وشرط أعلاه نوبة بعد نوبة خلا أيام الجمع والأعياد[١] ومثل هذه المئذنة كان يتوصل إليها بالطبع من سلم بداخلها يبدأ من مستوى الأرض ويرتقى إلى أدوارها العليا وهو أمر يوجب ضخامتها نسبيا.

وفى المنشآت المتسعة المساحة نجد المعمار يخصص للمئذنة سلم يتوصل منه إلى أدوارها العليا يبدأ من مستوى المنشأة الأصلى وباستقلال كامل مثل مئذنة مدرسة وخانقاة برقوق بالنحاسين ، ومئذنتى فرج بن برقوق بالصحراء ومئذنة وخانقاة الأشرف برسباى بالصحراء.

---

[١] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦ محكمة.

وإذا كانت المآذن المملوكية قد اختلفت فى مواضع إنشائها حسب ظروف الإنشاء والمساحة وطريقة الاتصال إلى داخلها والصعود إلى أدوارها العليا إلا أنها تشابهت فى تكوينها العام غالبا ، فمعظمها يتكون من طابقين أو ثلاثة تعلو القاعدة المكعبة التى يعلوها طابق مثمن يعلوه طابق إسطوانى الشكل ولكل طابق شرفة تبرز عن بدن المئذنة محمولة على حطات من المقرنصات عادة ، مخلقة ممر دائرى يسير فيه المؤذن للإعلان بالأذان فى الإتجاهات المختلفة ، ثم يأتى فوق ذلك الجوسق الذى يكون بالطابق الثالث عادة ويتكون من أعمدة أسطوانية رخامية تحمل فوقها عقود صغيرة يعلوها خوذة المئذنة ويصعد إلى هذه الطوابق والجوسق من سلم دائرى حلزونى حول عمود مركزى يتوسط داخل المئذنة ويضيىء هذا السلم فتحات صغيرة تتقدمها شرفات صغيرة محمولة على مقرنصات فى بعض المآذن .

وقد يكون كل بناء المئذنة من الحجر والرخام ، وقد يستخدم الخشب أيضا فى عمل سياج شرفاتها وأجزائها العليا بغية التخفيف و كان الخشب أسرع إلى التلف بمرور الزمن فإن ما جاء بوثيقة السلطان برسباى من وصف لمئذنة جامعه بالخانكة ما يؤكد ذلك بما نصه " ثم يتوصل من بقية السلم إلى مئذنة تشتمل على ثلاثة أدوار خشبا خرطا[1] وجاء بوثيقة الجمالى يوسف ما نصه " ميدنة المدرسة المذكورة المشتملة على كرسى مبنى بالحجر الفص النحيت بدرابزى خشب خرط دائرى ويتوصل من ذلك بسلم حجر ... على مقرنص حجر به درابزى خشب خرط اخر وأن كل منهما بدرابزى خشب خرط أيضا ويعلو ذلك خوذة غرد وهلال نحاس وثلاثة صوارى برسم المصابيح[2] .

وإذا كان هذا هو الشكل العام للمئذنة فى العصر المملوكى فإنها إختلفت فى تفصيلاتها المعمارية والمواد المستخدمة فى ذلك من فترة إلى أخرى. كما يتضح من وصف بعض النماذج التى تبرز هذا .

---

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ اوقاف ص١٩ ويلاحظ أنه عند تجديد هذه المئذنة بنيت الشرفات بالحجر.

[2] وثيقة الجمالى يوسف ٧/٤٦ محكمة

فمن النماذج الجيدة مئذنة سلار التى تتكون من ثلاثة طوابق ، الطابق الأول ذو مسقط مربع والثانى ذو مسقط مثمن وكذلك مسقط الطابق الثالث وينتهى بترس فوقه خوذة مضلعة ، وهذه الخوذة المضلعة من مميزات المنارات الأيوبية التى لازمت كثيرا من المنارات المملوكية حتى منتصف القرن ٨ هـ/ ١٤م، إذ نراه فى منارات مساجد الغضنفر ، والصالح نجم الدين وزواية الهنود ، والجامع الطولونى وتنكزبغا وفى الثلاث الأخيرة تطورت من البناء بالطوب إلى البناء بالحجر ثم رأينا هذا النوع يظهر فى منارات الوجه البحرى فى القرنين ٩-١٠هـ ١٥-١٦ ميلاديا وخاصة فى المحلة الكبرى وسمنود[١]

أما مئذنة مدرسة قلاوون فهى من إنشاء إبنه الناصر محمد فى سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٣ م بمعرفة الأمير سيف الدين كهراواش المنصورى إثر سقوطها فى زلزال ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢ م، وهذه المئذنة بنيت من الآجر ، وهى مكونة من ثلاثة طوابق الأول والثانى ذو مسقط مربع والثالث العلوى ذو مسقط مستدير به نقوش دقيقة وكتابات فى الجص ، يتوجه كرنيش مصرى الطراز ، أما خوذتها الأصلية فتهدمت ولعلها كانت مضلعة مخوصة مثل منارات الجاولى وبيبرس الجاشنكير وهو الطراز الشائع فى منارات هذه الفترة [٢]

ومئذنة بيبرس الجاشنكير التى تعلو المدخل ذات القاعدة ضخمة مربعة المسقط حليت بالمقرنصات ، يعلوها طابق ذو مسقط مستدير وكسيت قمتها المضلعة بالقيشانى الأزرق ، وهى أول مثل يكسى فيه قمة المئذنة بالقيشانى - فيما نعرف - تلتها فى ذلك مئذنتا الناصر مُحمد بالقلعة.

أما مئذنتا خانقاة وجامع شيخو فمتشابهتان فى الإرتفاع والشكل وتسترعى النظر فيهما تلك النقوش الموجودة فى بدن الطابق الأول ووجود

---

[١] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص١٢٧

[٢] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص١١٦

شرفة واحدة به والزخارف والكتابات بخوذتها والكرانيش المصرية الطراز القريبة في نوعها [1] .

ومنارة صرغتش منارة رشيقة مبنية بالحجر يصل إرتفاعها من مستوى الطريق إلى قمتها أربعون مترا ومن سطح المدرسة إلى تلك القمة ٢٤,٦٠ متر ، مكونة من ثلاث طوابق ويسترعى النظر فيها تلبيس الحجر الاحمر في الأبيض على شكل دالات بطابقها الثاني ، وهذه الطريقة في البناء والزخرفة من مميزات منارات هذا العصر ، كما أنها إقتصرت على وجود شرفة واحدة في أحد جوانب قاعدتها الأولى بينما المألوف وجود أربع منها. وقد سبقها في ذلك منارة الناصر محمد بالقلعة ومنارتا خانقاة وجامع شيخو.

أما مئذنة الجاي اليوسفي فيلفت الإنتباه فيها تلبيس الحجر في بدن طابقها الإسطواني بشكل شرافات. وجوسق المئذنة عبارة عن أعمدة رشيقة تحمل خوذة وفيه نرى إبتكارا جديدا لعله الأول من نوعه ، فقد استبدل شقق الدرابزين حول قاعدة الخوذة بترس تحته شرفات صغيرة ، وأقيم رأس الخوذة على ترس تحته مقرنص ، وقد وجد مثل ذلك في منارة بشتاك ولكنها مُجددة وكذلك رأينا جوسق منارة اسنبغا الأبو بكرى مطابقة لهذه وكلتاهما من المآذن الرشيقة وهما متعاصرتان [2] .

أما منارة مدرسة وخانقاة السلطان برقوق فتتكون من ثلاثة طوابق ، وإمتازت بتلبيس الرخام ، وخلقت في أكتافها عمد من الحجر ، نقشت تيجانها، تعلوها نوافذ لها مصاريع من الخشب في أشكال هندسية آية الابداع.

أما مآذن مدرسة القاضي عبد الباسط والمؤيد شيخ فمتشابهة تقريبا ، فقد أنشئت في وقت واحد . وقد إشتملت المئذنة الشرقية من مئذنتي المؤيد على برجي باب زويلة على نص إنشاء هام يتضمن إسم من عمل هذه المئذنة نصه" عمل هذه المئذنة المباركة العبد الفقير إلى الله محمد بن القزاز وكان الفراغ سنة إثنين وعشرين وثمان ماية "

---

[1] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص١٥٨

[2] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ص١٨٩

واذا كان المهندس ابن السيوفى أول من إستخدم الحجر فى بناء المآذن المملوكية عند بنائه مئذنة المدرسة الأقبغاوية عند الأزهر ثم فى مئذنة الماردانى ، وشاع استخدامه بعد ذلك فى مآذن العصر المملوكى ، ومكن من بناء هذه المآذن بهذا المستوى من الإتقان والرشاقة إلا أن هذا لايمنع أن بعض المآذن استخدام فى بنائها الطوب بعد هذا التاريخ مثل مئذنة جانى بك الأشرفى التى بنيت بالطوب وتتكون من طابقين حليا بالمقرنصات.

ومن المآذن التى تضمنت بين كتاباتها اسم المنشئ مئذنة جامع القاضى يحيى ببولاق ، وقد تهدمت ولم يتبق من أجزائها الأصلية سوى قاعدتها التى نقشت بالزخارف ، وقد قلدها فى ذلك مهندسا السلطان قايتباى فى مئذنة جامعه بقلعة الكبش والأمير يشبك فى مئذنة الإمام الليث [1]

أما مئذنة قايتباى بالصحراء فتعتبر مثلا لرشاقة وجمال المآذن المملوكية وهى تتكون من ثلاثة طوابق ، زخرف الطابق الأول بنقوش وكتابات ، أما الطابق الثانى فقد زخرف بنقوش مورقة محاطة بجفوت ، أما الجوسق فتحمل أعمدته الرشيقة طاقية المئذنة ، ومن طريف ما يذكر أن مؤذن هذه المئذنة فى عصر قايتباى وعصر إبنه كان يجيد الخط والنقش فى الحجر ، فقد نقش قاعدة القبة وباب المئذنة ومدخلها وباب طابقها الأول آيات من القرآن وحكما مؤرخه بسنى ٨٨٥ ، ٩٠٤ ، ٩١١ هـ / ١٤٨٠ ، ١٤٩٨ ، ١٥٠٥ م، ووقعها باسمه بما نصه " نقشة محمد الشيينى ، كتبه بيده الفانية محمد الشيينى المؤذن " .

وتعتبر مآذن السلطان قايتباى بالصحراء والكبش والروضة دليلا كافيا على تفنن المعمار المملوكى فى التنويع الذى يدل على العبقرية خاصة عند مقارنة كل منها بالأخرى.

أما مآذن قانى باى الرماح والغورى فتمثل تطورا هاما فى المآذن المملوكية فمئذنة قايتباى عند القلعة تتكون من طابقين يلاحظ أنهما ذو مسقط مربع يعلوهما طابق ثالث عبارة عن هيكل يمثل رأس المئذنة مكون من مكعبين يعلو كل منهما خوذة والمآذن ذات الرؤوس المزدوجة شاعت بمصر فى نهاية القرن ٩ هـ ، والقرن ١٠ هـ ، فقد رأيناها فى مئذنة الغمرى بميت

---

[1] حسن عبد الوهاب.تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص٢١٨

غمر كما كانت كذلك مئذنة مسجد جانبلاط بجوار باب النصر التى هدمت سنة ١٢١٤ هـ/ ١٧٩٩ م، ومئذنة الغورى بالأزهر ، وقد أنشأ قانى باى الرماح مئذنة بالناصرية على هذا الطراز ايضا . وقد كانت لهذا الطراز سوابق قبل ذلك فقد ذكر ابن كثير المؤرخ عن مئذنة مدرسة السلطان حسن التى سقطت سنة ٧٦٢ هـ ١٣١١ م، بأنها كانت مزدوجة الرأس مما يعزز نشأة هذا النوع من المآذن فى النصف الثانى من القرن ٨هـ/ ١٤ م[١] ويحتمل أن يكون هذا الطراز من المآذن من بين التأثيرات المغربية التى دخلت على العمارة المملوكية حيث أن مثل هذه المآذن شيد بمدينة توزر فى تونس كما ذكرنا.

وكثر المعمار المملوكى من رؤوس المآذن حتى أنه جعل لمئذنة مدرسة الغورى أربعة رؤوس فقد وصف ابن إياس المؤرخ المئذنة عند افتتاح المدرسة فى يوم الجمعة مستهل ربيع الآخر سنة ٩٠٩ هـ/ سبتمبر١٥٠٣م، فقال : إنها مئذنة لها أربعة رؤوس وهو أول من إتخذ ذلك ثم ذكر فى حوادث شهر جمادى الاول سنة ٩١١ هجريا ١٥٠٥ ميلاديا أنه حصل خلل وميل لهذه المئذنة وآلت إلى السقوط بسبب ثقل علوها لكونها تشتمل على أربعة رؤوس فأمر السلطان بهدمها فلما هدمت أعيد بناؤها ، وقد بنى علوها بالطوب وكسى بالقاشانى الأزرق وتبعا لذلك قد أبدل الرؤوس الأربعة التى تسببت منها الخلل برأسين [٢] ويذكر الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب أنه رأى باحدى بلاد الجريد بتونس مئذنة ترجع إلى القرن ٧ هجريا ١٣ ميلاديا لها أربعة رؤوس تأخذ شكل القباب الصغيرة ومن هنا يمكن القول بأنه يحتمل أن تكون الرؤوس الأربعة للمآذن المملوكية تأثير مغربى أيضا.

وتمثل مئذنة الغورى بالأزهر غاية التطور للمآذن فى العصر المملوكى ، فهذه المئذنة تشتمل من الداخل على سلمين فى طابقها الثانى

---

[١] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص٢٨٥ ذكر حسن عبد الوهاب أن مئذنة العمروای بالمنيا ذات رأسين ولكن ثبت أن البناء الذى يعلو المئذنة عبارة عن أساس الطابق الذى يمثل نهاية المئذنة وان هذا الأساس لرأس واحدة وليس لرأسين (عن الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب).

[٢] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص٢٩٢

بحيث لا يرى الصاعد فى أحدهما الهابط من السلم الآخر وقد وجد مثل ذلك فى مئذنة خايربك وأزبك اليوسفى وهذه الفترة وجدت قبل ذلك فى مآذن العراق فى نماذج سابقة مثل مئذنة الحدباء بالموصل التى بنيت ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م، وهذه المئذنة مبنية بالآجر ويبلغ إرتفاعها ٥٢ مترا وهى إسطوانية الشكل ، مشيدة بالآجر المزخرف بنقوش وعناصر زخرفية مختلفة ، ويصعد إلى المنارة بدرجتين الصاعد منه لايلتقى مع النازل وهذا الطراز المعمارى رائع إذا قيس بالإرتفاع والعرض ، للمسافة التى يصعد وينزل الدرج فيها ، ولأهالى المدينة قصة يَرووها عن مهارة البناء الذى بنى هذه المنارة ، فيذكرون أنه جعل فى المنارة طريقين لايلتقيان إلا فى أعلا المنارة ، وسبب هذا أنه عندما كان يبنى المنارة حسده أستاذه الذى علمه البناء على بنائها ، واستدعى أستاذه ليطلعه على عمله ، ولما صعد فى المنارة غلق أستاذه الباب الأسفل المؤدى إلى أعلا ، وسار خلف تلميذه يريد أن يلقيه من أعلا المنارة ، ويقتله إذا ما وصلا إلى قمتها ، لكن البناء شعر بهذا فوصل إلى القمة قبل أستاذه ،ونزل من الطريق الثانى دون أن يعلم به أستاذه ، وهكذا نجا من كيده فإعترف له أستاذه بمهارته فى عمله وأثنى عليه [1] وهذا يعنى وجود أمثلة بغض النظر عن الأسباب التى دعت إلى ذلك لأن التسليم بصدق هذه الرواية أمر فيه بعض التجاوز ، فقد تكون أسباب الإنشاء وضخامة حجم المئذنة من العوامل التى أدت إلى عمل ذلك ، ونظرة إلى ضخامة مئذنة الغورى وما قد يكون من أسباب ذلك ما وضع فى الحسبان من بناء رأسين لهما ، واتساع مساحة الطابق الثانى قد يكون من العوامل التى ساعدت على بناء سلمين بها، ويؤيد ما نذهب إليه.

كما أن هذه المئذنة قد كسى طابقها الثانى ببلاطات القاشانى ، كما أن هذا الطابق يتضلع ستة عشر ضلعا وقد إقتصرت النماذج السابقة على الشكل الثمانى ، وربما كان ذلك لضخامة هذا البدن من جهة ، ولتخفيف تضليع البدن الضخم بتكثير الأضلاع جعله أميل إلى الاستدارة وأكثر تلاؤما مع الطابق الذى يعلوه ذو المسقط المستدير.

---

[1] سعيد الديوه جى جوامع الموصل فى مختلف العصور ص ٤٣ ومجلة التراث الشعبى عدد ٨ سنة ١٩٧٨ ص ١١٤.

ومن خلال هذه العرض الموجز للمآذن المملوكية ، وبمطابقة هذه الأوصاف مع الوظيفة التى حددتها وثائق الوقف المملوكية فى ذلك العصر،، نجد أن المئذنة فى العصر المملوكى بقربها من مواضع الصلاة بالمنشأة ، وسهولة الصعود إليها والهبوط منها وما تشتمل عليه من سلالم فى قلبات حلزونية ، توائم المبصر والكفيف خاصة وأن المؤذنين كان يفضل أن يكونوا من فاقدى البصر حتى لا يكشفوا عورات المنازل المجاورة من أعلا المئذنة ، ثم إن اشتمال المئذنة على أكثر من طابق وبالتالى على أكثر من شرفة يتلاءم وما شاع بذلك العصر مما يسمى " بالأذان السلطانى " وهو الأذان الذى يعلن به أكثر من مؤذن فكان وجود أكثر من شرفة يتيح الفرص لأكبر عدد من المؤذنين أن يعلن بالأذان. كما أن وجود هذه الشرفات فى أكثر من مستوى يساعد على توصيل الأذان بصوت واضح للقريب الأقل مستوى ، وإلى البعيد من الشرفة الأعلى ، إذ أنه كلما كان المؤذن مرتفعا كلما انتشر صوته إلى أبعد موقع ، كما أن جعل هذه الشرفات مستديرة يساعد المؤذن على توجيه الأذان فى الاتجاهات المختلفة وهو أمر أقرته الأحكام الفقهية الإسلامية كما أن وضع المئذنة عادة بالواجهة بالإضافة إلى مميزاته الجمالية المعمارية له مظهر تعبيرى روحى ينطق بنوعية المنشأة.

ومما يشير إلى براءة المعمار فى ذلك العصر أنه جعل المئذنة فى بعض المنشآت التى خصص بها مكان إقامة للمؤذنين – متصلة بما خصص لهم من حجرات للسكن ، فقد جاء بوثيقة سودون من زاده ما نصه "وأما الرواق الذى فى الحد الشرقى فإنه به بابا يتوصل منه إلى سطح الجامع المذكور وإلى الميدنة المبنية على بعض الجدار البحرى على يمنة الداخل من باب الجامع المذكور المبنية بالحجر الفص النحيت وإلى الطبقة المعدة لإقامة المؤذنين والرؤساء بها " وفى موضع آخر يذكر موثق الوثيقة ما نصه " وأما الطبقة التى علو سطح الجامع فإن الواقف رصدها لينتفع بها الرؤساء والمؤذنون المرتبون بهذا الجامع على العادة فى ذلك [1]

[1] وثيقة سودون من زاده ٥٨/١٠ محكمة

وكانت الفتحات التى تتخلل بدن المئذنة كافية لإضاءتها نهارا ، وإن كان السلم الحلزونى الذى يدور حول العمود المركزى داخل المئذنة يساعد على صعودها وهبوطها دون الحاجة إلى إضاءة . وكانت المآذن تضاء ليلا وخاصة فى شهر رمضان والمواسم والاعياد وقد جاء بوثيقة برقوق ما يؤكد ذلك بما نصه " ويرتب الناظر شخصين من الصوفية يتوليان غسل ما بهذه المدرسة من القناديل والسلاسل ومسحها وتعميرها ووقودها وطفيها وتعمير قناديل المئذنة فى شهر رمضان وفى ليلة النصف من شعبان وصبيحة عيد الفطر[1] ولم يغفل المعمار ذلك فأعد ما يحتاج إليه لتعليق مثل هذه المصابيح فقد جاء بوثيقة الجمالى يوسف أن خوذة المآذنة يعلوها " هلال نحاس وثلاثة صوارى برسم المصابيح [2] وجاء بوصف مئذنة كافور الشبلى ما نصه"وغير ذلك من الثلاث صوارى الخشب المركبة برسم صناديق القناديل المباركة المعدة للوقود فى شهر رمضان المعظم قدره وحرمته [3] ومن الأمثلة الباقية لهذه الصوارى ما نشاهده أعلا مئذنة بشتاك المطلة على شارع بورسعيد ، وهو أمر يشير إلى اهتمام المعمار المملوكى بكل صغيرة وكبيرة فى المئذنة لتؤدى وظيفتها على خير وجه.

وإذا كانت المآذن الباقية بأشكالها وأحجامها المختلفة قد أدت وظائفها التى أنشئت من أجلها بكفاءة تامة فإن ما ورد بالمصادر التاريخية عن بعض المآذن الدارسة ما يجعلنا نتخيل ما هو أكثر من ذلك. فيذكر صاحب النجوم أن طشتمر بن عبد الله الساقى الناصرى المتوفى سنة ٧٤٣هـ المعروف بحمص أخضر كان صاحب " الدار العظيمة " والربع الذى بجانبها بحدرة البقر خارج القاهرة والجامع بالصحراء والمئذنة الحلزون والجامعين بالزريبة والربع بالحريريين بالقاهرة.[4] ويهمنا هنا شكل المئذنة ويوصفها " بالحلزون " وهى تسمية تطلق على المآذن ذات السلم الخارجى كمئذنة جامع ابن طولون

---

[1] وثيقة برقوق ٣/٥٨ محكمة

[2] وثيقة الجمالى يوسف ٧/٤٦

[3] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦

[4] ابن تغرى بردى النجوم ج١٠ ص١٠١-١٠٢

فهل كانت كذلك ؟ ربما وبهذا تزداد المآذن شكلا جديدا يضاف لأشكالها في العصر المملوكي. ويذكر صاحب النجوم أيضا أن جامع قوصون تولى عمارة منارته " رجل من أهل تبريز احضره الامير ايتمش المحمدى معه فعملها على منوال موادن تبريز [1] وهو أمر يشير إلى أن مئذنة قوصون تأثرت في شكلها بتأثيرات شرقية وهو أمر يحتمل معه دخول هذه التأثيرات المختلفة على المآذن مما ينتج معه تنوع وتجديد في أشكالها ، وكذلك تشير بعض النصوص إلى مآذن درست كانت في غاية الحسن حتى أن المقريزى عند حديثه عن منطقة كوم الريش – الزاوية الحمراء حاليا – يقول " وكان بها سوق عامر بالمعايش على إختلاف أنواعها وحمام وجامعان لأحدهما منارة يعجز الواصف أن يعبر عن حسنها [2] وشهادة المؤرخين بذلك توحى لنا بمدى التأنق في تجميل المآذن وحسن بنائها مع الكفاءة في تأدية الوظيفة التي أنشئت من أجلها .

قاعة الخطابة :

من عناصر الانتفاع التي ألحقت بالمنشآت الدينية المملوكية [3] التي تؤدى وظيفة المسجد الجامع ، وقد روعي في موقعها أن تكون قريبة من إيوان القبلة الذي يوجد به المنبر الذي يخطب عليه ، والمحراب الذي يقيم الصلاة فيه ، وإذا كانت الحجرات الجانبية بالمنشآت الدينية المملوكية من الأجزاء التي يطرأ عليها التعديل كثيرا لإستخدامها إستخدامات مختلفة في العصور التالية ، فإن ما ورد بوثائق الوقف المملوكية من أوصاف دقيقة لهذه القاعات بالإضافة إلى ما تبقى منها يعطى الصورة الواضحة لها فيمكن التعرف على وظيفتها ومدى تأديتها لذلك.

فقدجاء بوثيقة السلطان حسن ما نصه " وبالإيوان المذكور " إيوان القبلة " بابان أحدهما على يمنة الصاعد مربع يدخل منه إلى بيت معد للخطيب

---

(1) ابن تغرى بردى النجوم ج٩ ص٩٦

(2) المقريزى. خطط ج٢ ص١٣٠ ابن تغرى بردى انجوم ج٩ ص٢٠٣ هامش ١

(3) وجدت قاعة الخطابة في المنشآت الدينية قبل العصر المملوكي فقد كان بالأزهر واحدة (حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الاثرية ج١ ص٢٤٣

وجاء بوثيقة سودون من زاده ما نصه " فأما الرواق القبلي الذى يصدره المحراب به ثلاثة أبواب يغلق على كل منها زوجا باب ، احدهما وهو الذى على يمنة المصلي بالمحراب يدخل منه إلى قاعة الخطابة ، يشتمل على إيوان ودور قاعة مسقف نقيا مدهون بمنافع ومرافق وحقوق ، وبدهليز وهذه القاعة سلم يصعد منه إلي مسترحة بمرافق وحقوق[1] وجاء بوثيقة المؤيد شيخ ما يشير إلى أن قاعة الخطابة هى القاعة المطلة على باب زويلة . وجاء بوثيقة قراقجا الحسنى ما نصه " وعلى يمنة الإيوان المذكور " إيوان القبلة " بيت برسم الخطيب [2] وجاء بوثيقة القاضى يحيى زين الدين التى تتضمن وصفا لواحدات جامعه بالأزهر ما نصه " والذى من جهة يمين مستقبل المحراب المذكور فبه بابان متقابلان أحدهما على يمين الصاعد يغلق (عليه زوجا باب) يدخل منه إلى قاعة تعرف بقاعة الخطابة وسيأتى ذكرها فيه وهذا الباب هو المعد لظهور الخطيب " عند صعود المنبر " ثم فى موضع أخر يصف الموثق القاعة تفصليا بما نصه " إلى باب مربع وهذا الباب المربع عليه زوجا باب يدخل منه إلى قاعة الخطابة الموعود بذكرها أعلاه وهى تشتمل على إيوان ودور قاعة مفروش ذلك بالبلاط الكد ن مسقف نقيا بكريدى مدهون ذلك حريريا ، وبها ستة أبواب ، أحدها باب الدخول ، والثانى بصدر الإيوان يغلق على شباك وهو المقدم من جملة الشبابيك الثلاثة التى بالواجهة القبلية ، والثالث على يسرة الداخل للإيوان المذكور يدخل منه إلى دهليز يتوصل منه إلى الجامع المذكور وهو المذكور فى أحد الشباكين اللذين بالإيوان القبلى المذكورين ، والباب الرابع والخامس كتبيتان ، والسادس خرستان بدور القاعة المذكورة ، وبها منور سماوى وهى كاملة المنافع والحقوق[3] وجاء بوثيقة السلطان قايتباى عند وصف ايوان القبلة بمدرسته بالصحراء مانصه " أن احد الأبواب الأربعة على يمين الصاعد إلى إيوان القبلة يؤدى " إلى خلوة لطيفة مرخمة مسقفة عقدا قبوا بصدرها شباك من نحاس وهى خلوة الخطابة معدة

---

[1] وثيقة سودون من زاده ٥٨/ ١٠

[2] وثيقة قراقجا الحسنى. نشر عبد اللطيف ابراهيم سطر ٢١/١٨

[3] وثيقة وقف القاضى يحيى زين الدين ١٩٠/١٧اب

لخطيب الجامع المذكور ولإحراز ما يلبسه وقت الخطابة والربعات الشريفة التى بالجامع المذكور[1]

ومما سبق يتضح أن قاعة الخطابة إختلفت فى أوصافها فيما تشتمل عليه من وحدات فهى أحيانا قاعة كبيرة كما فى جامع القاضى يحيى زين الدين بالأزهر ، أو أنها " بيت " أو خلوة صغيرة كتلك التى فى مدرسة السلطان حسن وفى قراقجا الحسنى وفى مدرسة قايتباى بالصحراء.

ونظرة إلى هذه الأوصاف نلاحظ أن القاعة كانت لتشمل إيوان ودور قاعة وكتبيات وخرستان " مخزن " ومرافق وحقوق ، بل وقاعة علوية للإستراحة كما كان فى قاعة الخطابة بجامع سودون من زاده ، كما أن هذه القاعة كانت تتصل بالوحدات الأخرى للمنشأة ، وبخارجها كما كان عليه الحال فى " بيت الخطابة " بمدرسة السلطان حسن أو فى قاعة الخطابة فى منشأة الجمالى يوسف التى كان لها " باب سر "[2] خاص بها يؤدى إلى خارجها. كذلك وفر المعمار الإضاءة اللازمة لها بما تشتمل عليه من نوافذ ومناور. كما أنه إعتنى ببنائها وفرشها بالبلاط وسقفها بأحسن أنواع التغطية المتبعة فى ذلك العصر. وبذلك استطاع المعمار المملوكى تهيئة الجو الملائم للخطيب حتى يمكنه من الإستعداد للخطبة بصورة مريحة .

ثم أننا نلاحظ من خلال الأوصاف السابقة أن المعمار جعل " بيت " أو " خلوة " أو " قاعة الخطابة " كما وردت تسمياتها بصفة دائمة على يمين الصاعد إلى أيوان القبلة وهو الإتجاه الذى يوضح به المنبر كذلك بجانب المحراب.

وقد حددت وثائق الوقف المملوكية وظيفة هذه القاعة وأكدتها ، فذكرت وثيقة سودون من زاده ما نصه " وأما القاعة المعروفة بقاعة الخطابة فوقفها لينتفع بها الخطيب المرتب بهذا المكان على العادة فى ذلك [3] وجاء بوثيقة قراقجا الحسنى ما يشبه ذلك بما نصه " وأما بيت الخطابة فإنه وقفه

---

[1] وثيقة وقف السلطان قليتباى ٨٨٦ أوقاف ص ٢١٠

[2] وثيقة الجمالى يوسف ٧/٤٦

[3] وثيقة سودون من زاده ١٠/٥٨ محكمة

لجلوس الخطيب فيه عند ظهوره لطلوع المنبر الخطبة [1] وجاء بوثيقة الجمالى يوسف ما نصه " أما خلوة الخطابة فوقفها لإنتفاع الخطيب بها وإقامته فيها قبل خروجه للخطبة على العادة [2] ولكن وثيقة قايتباى فصلت إلىحد ما فذكرت أنها معدة لخطيب الجامع المذكور ولإحراز ما يلبسه فى وقت الخطابة والربعات الشريفات التى بالجامع المذكور [3] وإذا كانت هذه هى الإستخدامات المحددة لقاعة الخطابة فإنها بما تشتمل عليه ، وبما هيأه المعمار المملوكى من وسائل الإضاءة والحفظ والراحة تكون قد أدت وظيفتها على خير وجه.

دكة المؤذنين :[4]

تعتبردكة المؤذنين من عناصر الإنتفاع الهامة المتعلقة خاصة بالصلوات الجامعة إذ يصعد عليها المؤذنون للقيام بمهامهم المتعلقة بالأذان والتبليغ والتكبير وغيرها ، وإذا كانت هذه الدكة وجدت في المساجد الجامعة ذات المساحة الكبيرة والتخطيط ذو الأروقة المتصلة ، فإن وجودها فى المنشأت الدينية ذات التخطيط المتعامد للأواوين المنفصلة أكثر أهمية لإنفصال هذه الأواوين بعضها عن البعض الأخر . وقد تفنن المعمار الإسلامى فى التخطيط لموضع هذه الدكة حسب ظروف كل منشأة ، ونوع إستخدام المواد المنشأة منها حسب طبيعة هذه المواد وظروف الإنشاء بها فاتخذت أشكالا مختلفة وأوضاع متنوعة حتى تؤدى وظيفتها بكفاءة تامة .

فقد إختلفت المواضع التى وضعت بها دكة المؤذنين من منشأة إلى أخرى ، وقد تحكمت مساحة المنشأة فى ذلك إلى حد كبير ، ففى المنشآت ذات المساحة الكبيرة وضعت هذه الدكة عادة فى الجهة الغربية من إيوان القبلة فى المنتصف ناحية الصحن ، وقد مكن إتساع رواق أو إيوان القبلة من

[1] وثيقة قراقجا الحسنى . نشر د.عبد اللطيف ابراهيم سطر ٨٧/٩٠

[2] وثيقة الجمالى يوسف ٧/٤٦

[3] وثيقة قايتباى ٨٨٦ص٢١

[4] يطلق عليها أيضا دكة المبلغ على اعتبار أن المؤذن يبلغ من عليها وراء الامام أثناء إقامة الصلاة

ذلك فى هذه المنشأت وأمثلة ذلك كثيرة فمن المنشآت ذات التخطيط المتعامد للأواوين مدرسة السلطان حسن والسلطان برقوق والمدرسة الفخرية ، ومن المساجد الجامعة ذات تخطيط الأروقة الأربعة المتصلة جامع الماردانى وألماس واق سنقر وشيخو وبرسباى بالخانكة ، ومن المنشأت ذات الأروقة المنفصلة خانقاة فرج بن برقوق وجامع المؤيد شيخ.

ومنها ما اضطرت المساحة وضيقها والرغبة فى عدم شغل أى جزء من ساحة الأواوين المستخدمة فى الصلاة إلى جعلها فى أعلا الإيوان الغربى، فقد مكن إرتفاع الأواوين المعمار الإسلامى إستغلال هذا الإرتفاع ومن أوجه استغلاله عمل مثل هذه الدكة بالإيوان الغربى بإتساع مساحته كلها ، وكما ذكرنا – يكون ذلك فى المنشأت صغيرة المساحة . فأنشئت دكة المؤذنين بمساحة الإيوان كله تقريبا محمولة على كوابيل خشبية على إرتفاع٢,٥ متر تقريبا من أرضية الإيوان كطابق ثان ، وكان يتوصل إلى هذه الدكة إما من سلم خشبى فى الإيوان نفسه ، أو بواسطة فتحة باب عن طريق سلم يتوصل اليه من خارج الإيوان يوصل إلى الدكة التى يشغل الجزء العلوى منه. ومن أمثلة هذا النوع دكة مدرسة المهمندار والتى يتوصل إليها من سلم يتوصل إليه من الباب المجاور للإيوان الغربى من الجهة الشمالية ، ويوجد فى الجهة الجنوبية من هذا السلم ، بعد صعود عدة درجات تؤدى إلى بسطة ، فتحة باب فى الجدار الشمالى للإيوان يبلغ اتساعها ٧٠ سم وارتفاعها ١,٩٠متر وتؤدى إلى الدكة ، ويلاحظ براعة المعمار فى فتحة هذا الباب فإتساعها ضيق حتى لا يضعف جدر الإيوان الذى يرتكز عليه قبو الإيوان الحجرى ، كما أنه لم يعقه تقوس جدار الإيوان عن إعطاء الفتحة مقاسها المطلوب فانحنى بالفتحة مع إنحناء عقد الإيوان .ومن أمثلة هذه النماذج أيضا تلك الدكة التى كانت تعلو الإيوان الغربى بمدرسة السلطان برسباى بشارع المعز لدين الله والتى أزيلت الآن [1] وكان يتوصل إليها من سلم بالحنية التى بصدر الإيوان المذكور حتى لا تشغل أى مساحة من الإيوان، ووجد نموذج لها أيضا بمنشأة جوهر اللاله ولكنها صغيرة لا تشغل الإيوان كله كما وجد نموذج مشابه فى

[1] أزيلت هذه الدكة –للأسف –على إعتبار أنها ليست من بناء المدرسة لعدم ادراك الوظيفة التى أنشئت من أجلها .

مدرسة قرقماس حيث أن الموثق يصف ذلك ما نصه "ويتوصل من الدهليز المذكور إلى دكة المؤذنين وإلى خلوة لطيفة على السدلة الغربية [1] ولعل أروع النماذج الباقية دكة مدرسة الغورى بالإيوان الغربى باتساع مسنحة الإيوان محمولة على كابولين خشبيين ولهما دارابزين مطعم بالسن ومكتوب عليها " أمر بانشاء هذه المدرسة[2] المباركة السعيدة من فضل الله تعالى وجزيل عطائه العظيم سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوة الغورى عز نصره " ويتوصل إلى هذه الدكة من السلم الموصل إلى السطح وإلى المنارة.

وإذا كانت هذه هى النماذج الشائعة لدكة المؤذنين فإن موثق وثيقة فرج بن برقوق يضيف لنا نموذجا أخر وجد بالمسجد الجامع الذى أنشأه السلطان فرج بالقلعة [3] والذى اتخذ تخطيطاخاصا فقد جاء وصف الموثق لذلك بما نصه " يدخل من الباب المذكور إلى رواق فسيح به أربعة دعائم مبنية بالحجر حاملة للسقف وفيما بين إثنين منها دكة خشب برسم جلوس المؤذنين [4].

وتحدد وثائق الوقف المملوكية الوظيفة التى كانت تؤديها دكة المؤذنين تحديدا دقيقا فقد جاء بوثيقة قراقجا الحسنى ما نصه " أما دكة المؤذنين التى أنشأها الواقف المذكور وقفها للأذان فى أيام الجمع والعيدين . ويذكر الموثق فى موضع أخر " على الدكة عند طلوع الخطيب للخطبة ويسبحون ويكبرون بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع ويهللون ويسبحون ويمجدون الله سبحانه وتعالى على الدكة قبل صلاة العيد وبعده وفعل ما جرت العادة بفعله فى مثل ذلك [5] وجاء بوثيقة الجمالي يوسف ما نصه "وأما دكة المؤذنين المذكورة فى أعلاه محلا للإعلان فيها بإقامة الصلوات وتبليغ

---

[1] وثيقة قرقماس أمير كبير رقم ٩٠١ أوقاف.

[2] عادة ما يكتب عن العناصر الإنتفاعية المختلفة بالمنشأة نص يؤكد نوعية المنشأة كما حدث على هذه الدكة وكما وجد على منبر مدرسة الأشرف برسباى

[3] درس هذا المسجد الجامع ولم يعد له أى أثر .

[4] وثيقة فرج بن برقوق ١١/٦٦ محكمة

[5] وثيقة قراقجا الحسنى سطر ١٠ وما بعده نشر د.عبد اللطيف ابراهيم .

التكبير والإعلام بما يقتدى بالامام فيه من الأفعال والحركات [١] وجاء بوثيقة السلطان برسباى ما نصه " ووقف الدكة التى هى أمام المنبر يرسم المؤذنين للأذان فى يوم الجمعة والتكبير والتهليل وفعل ما جرت العادة بفعله فى مثل ذلك[٢]

وفى ضوء ما سبق يمكن أن نتعرض بالدراسة والتحليل لبعض النماذج الباقية ، فقد إتضح مما سبق أن الدكك كانت تنشأ لاستخدام المؤذنين ، وقد أشرنا إلى أن المنشآت الدينية فى العصر المملوكى كان يعين لها عدد كبير من المؤذنين يقسمون فى نوبات ، ولكنه كان يشترط حضورهم خاصة فى الصلوات الجامعة ، وكان هؤلاء المؤذنون يجتمعون على المئذنة للإعلان بالأذان ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الأذان السلطانى كان شائعا فى العصر المملوكى ، وهو أن يعلن بالإذان أكثر من مؤذن على أن يأتى كل واحد بآذان كامل ، وكان هؤلاء المؤذنون يجتمعون على دكة المؤذنين بعد فراغهم من الأذان الأول على المئذنة ومع هذا العدد الكبير من المؤذنين وجدت الدكة التى تتسع لعدد يزيد عل خمسة أشخاص على الأقل حيث أن مساحة الدكة فى المتوسط ٢,٥ × ٢ متر والمصلّى الواحد يحتاج إلى ٧٥ سم٢ لتأدية حركات الصلاة ، وحتى تؤدى الدكة الوظيفة التى أنشئت من أجلها على خير وجه أحسن اختيار موضعها فى إيوان أورواق القبلة بيسر على المؤذنين متابعة الإمام ورؤيته بسهولة لقربها ولإرتفاعها ويسمح هذا الوضع لكل مصلى أن يتلقى بسهولة الصوت الذى يصدر عن هؤلاء المؤذنين عند الأذان قبل إقامة الصلاة ، أوالتبليغ أثناءها فهى فى موضع متوسط بالنسبة لأروقة أو أواوين المنشأة ، كما أنه جعلها مرتفعة عن مستوى الأرض بواسطة أعمدة أو دعائم صغيرة تحملها يصل إرتفاعها فى المتوسط ٢ متر يساعد على وضوح الصوت وإنتشاره بصورة واضحة ، وبتوافر هذا كله تكون عملية إتصال المصلين فى كافة الأواوين أو الأروقة عملية سليمة وسهلة تماما رغم اتساع رقعة المنشأة ،بل أنه يدعونا إلى الإعتقاد بأن اتساع حجم المنشأة ادى إلى

---

[١] وثيقة الجمالىيوسف ٧/٤٦ محكمة

[٢] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٤٢

ضرورة وجود دكة للمؤذنين وإتخاذها هذا الوضع ، وإن حجم المنشأة قد يكون له تأثير على عدم وجودها بالمرة لعدم الحاجة إليها وهناك الكثير من المنشآت الدينية صغيرة المساحة لم تكن بها دكة للمؤذنين رغم إقامة الصلوات الجامعة بها ، ولعل أروع مثل لذلك مدرسة برسباى بالصحراء التى لم يوجد بها دكة للمؤذنين لصغر مساحتها وإمكانية التبليغ والأذان فيها بشخص يقف خلف الإمام مباشرة ويتابعه المصلون بسهولة. ومقارنة هذا الوضع بما فعله برسباى نفسه بمدرسته الأشرفية بشارع المعز وجامعه بالخانكة اللذان وضع لكل منهما دكة للمؤذنين يؤكد ما نذهب إليه .وهو أمر يشير إلى أن الغرض الوظيفى كان الأساس الأول الذى سعى إلى تحقيقه المعمار المملوكى .

وفى حالة المنشآت ضيقة المساحة والتى أنشئ بها دكك للمؤذنين فى القسم العلوى من الإيوان الغربى بكل منها لصغر المساحة وخوفا من أن تشغل الدكة مساحة من المسجد ، وهو أمر أشار إلى كراهية الفقهاء ، فإن إختيار الإيوان الغربى بالذات دون الأواوين تمكينا للمؤذنين من متابعة الإمام، إذ أن كل من الإيوانين الشمالى والجنوبى لا يمكنان من ذلك ولا يصلحان له ، ولذلك وجدت دكك هذا النوع بالإيوان الغربى بصفة خاصة ، كما أن الإرتفاع بالدكة إلى مستوى ٢,٥ متر فى المتوسط يحقق سهولة الإتصال بين الإمام والمؤذنين من جهة ويساعد على توصيل صوت المؤذنين إلى المصلين جميعا كما أن هذا الأرتفاع بالدكة لا يعوق الإيوان على تحقيق الغرض فى إستخدامه للصلاة أو التدريس أو غير ذلك من الأغراض التى تستخدم لها هذه الأواوين .

ووضع الدكة فى كلا الحالتين سواء بالطرف الغربى لإيوان القبلة "الشرقى" من جهة الصحن ، أو بأعلى الإيوان الغربى يسر سهولة الوصول إليها من جانب المؤذنين دون الإضطرار إلى تخطى رقاب المصلين فى حالة إذا ما كانت الدكة فى وسط الإيوان مثلا.ولعل أروع الأمثلة على تحقيق سهولة الاتصال هذه دكة مدرسة الغورى التى يتوصل إليها من سلم يؤدى إليها وتنتهى إلى منارة المدرسة فى وقت واحد ، فهو أمر يسر ذلك إلى أقصى حد فالمؤذنون يهبطون من المأذنة إلى السلم الذى يؤدى بهم إلى الدكة

من أقرب طريق وهو أمر يؤكد إدراك المعمار الإسلامى للغرض الوظيفى وتحقيقه له بأسلم الحلول وأنسبها .

هذا بالنسبة لملائمة الدكة ووضعها بالنسبة للمنشأة ، أما عن مدى ملاءمة الدكة لمستخدميها من المؤذنين فإن مساحتها تتسع فى المتوسط لأكثر من خمسة أشخاص منهم ومن هنا كانت ملاءمة الدكة لمستخدميها ، ولم يتعارض ذلك ما جاء بنص وقفها على المؤذنين فعادة ما يأتى الشرط الواقف بوقف الدكة " برسم المؤذنين للأذان فى يوم الجمعة والتكبير والتهليل وفعل ما جرت العادة بفعله[1] أى أن وقفها كان على ثلاثة مؤذنين فأكثر كما يشير إلى ذلك لفظ " مؤذنين ".

وقد تنوعت المواد المنشأة منها تلك الدكك فبعضها من الرخام كدكة السلطان حسن والماردانى ، وألماس ، وآق سنقر ، وبرقوق ودكة المؤيد شيخ التى يصفها الموثق بما نصه " ويقابل المنبر المذكور دكة المؤذنين برخام أبيض بطلا وبدرابزين برمامين رخام مذهب " ودكة المدرسة الفخرية، وبعضها من الحجر كدكك جامع شيخو ، ودكة فرج بن برقوق بالصحراء التى أنشاها هى والمنبر السلطان قايتباى ، ولا شك أن استخدام مواد كالرخام والحجر فى بناء هذه الدكك يساعدها على البقاء واستمرارها تبعا لذلك فى أداء وظيفتها التى أنشئت من اجلها . وأنشئ بعضها من الخشب مثل دكة جامع فرج بالقلعة وتلك الدكك الخشبية التى تقع بأعلى الأواوين الغربية فى المنشآت ذات المساحة الصغيرة ولعل إستخدام الخشب فى مثل الأمثلة أكثر ملائمة ذلك أن الضرورة المعمارية توجد إستخدام مواد خفيفة لأن مثل هذه الدكك تحمل عادة على كوابيل خشبية ولا تحمل على أعمدة حتى لا تشغل مساحة من الإيوان ، وهو أمر يشير إلى حسن إدراك المعمار للمميزات مواد الإنشاء والمتاحة حسن إستخدامها فى المواضع التى تحقق أغراضه.

---

[1] وثيقة فرج بن برقوق ١١/٦٦ وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٤٢ ،وثيقة وقف الجمالى يوسف ٧/٤٦ وثيقة قراقجا الحسنى نشر د. عبد اللطيف وثيقة قرقماس أمير كبير ١١٩ أوقاف.

كرسى المصحف:

يعتبر كرسى المصحف من عناصر الإنتفاع التى وجدت ببعض المنشـآت الدينية ، فهذا الكرسى لجلوس قارئ القرآن عليه واضعا أمامه المصحف الشريف الذى يقرأ فيه ، والمعروف أن قراءة القرآن من الشعائر الدينية المتعلقة بالصلاة ،كما أن قراءته بالمنشآت الدينية المملوكية ظاهرة عامة اتخذت أشكالا متنوعة كالقراءة المنفردة والقراءة فى جوق ، والقراءة للتلقين والتجويد.

وقد حددت وثائق الوقف المملوكية وظيفة كرسى المصحف تحديدا واضحا ، فقد جاء بوثيقة كافور الشبلى ما نصه " وأما الكرسى الخشب الجوامعي الذى بالمسجد المذكور فإنه برسم وضع المصحف الشريف الذى قرره الواقف المشار إليه فيه[1] وفى موضع آخر تذكر الوثيقة أن الواقف عين قارئا "يقرأفى المصحف المقرر على الكرسى الخشب الموضوع بالمسجد المذكور يختم قراءته كل يوم عند إنتهائها بسورة الإخلاص والمعوذتين والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم والرضى عن أصحابه أجمعين ويدعو الواقف المشار إليه ولجميع المسلمين " وتحدد وثيقة السلطان حسن مواعيد القراءة ومقدار بما نصه " ويرتب رجلين حافظين لكتاب الله العزيز يقرآن فى المصحف الشريف فى الإيوان القبلى من المسجد الجامع فأحدهما يقرأ فى كل يوم بعد صلاة الصبح نصف حزب من القرآن العظيم والصور المعينة أعلاه ويصلى على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعو عقب ذلك لمولانا السلطان والقارئ الثانى يقرأ يوم الجمعة قبل الصلاة عند إجتماع الناس بالمسجد الجامع ويقرأ حزبا من القرآن العظيم قبل السلام على سيدنا رسول الله يفعل ما شرط على القرئ الأول ويدعو عقب ذلك لمولانا السلطان ويرتب شخصا يتولى حمل المصحف من المكان الذى فيه ووضعه على الكرسى عند القراءة فى كل يوم بعد صلاة الصبح وقبل صلاة الجمعة

[1] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦محكمة

وإعادته إلى موضعه بعد فراغ القراءة " [١] وكذلك تحدد وثيقة سودون مواعيد ومقدار ما يقرأ بنفس النظام فيما يوحى بأن ذلك ما كان متبعا ، فقد ذكرت ما نصه " ويصرف لقارئ يقرأ على كرسي الجامع المذكور في كل يوم بعد صلاة الصبح نصف حزب من القرآن العظيم قراءة حسنة مرتلة ، ويختم قراءته بسورة الإخلاص والمعوذتين وفاتحة الكتاب ويدعو عقب قراءته للواقف المذكور ولذريته ولجميع المسلمين بالرحمة والمغفرة في كل شهر ثلاثون درهم نقرة ، ويصرف لقارئ يقرأ المصحف المذكور على الكرسى المذكور قبل صلاة الجمعة عند إجتماع الناس للصلاة نصف حزب كذلك ويختم قراءته بسورة الإخلاص والمعوذتين وفاتحة الكتاب كما شرح أعلاه " [٢].

ومن خلال هذه النصوص يتضح أن كرسى المصحف كان لقارئ يقرأ من عليه في مصحف مخصص لهذا الغرض ، وأن هذا القارئ كان يقرأ بصوت حسن قراءة مرتلة ليسمعه المصلون بالمنشأة ، كما أن هذا الكرسى عادة ما يوجد بالمنشآت التى تقام بها الصلوات الجامعة حتى أن بعض الوثائق وصفته بأنه " كرسي جوامعي ".

وقد تبقت بعض النماذج لكرسى المصحف ، مثل كرسى المصحف الخاص بمدرسة السلطان حسن وهو أقدم النماذج والذى أودع القبة وهو عبارة عن كرسى من الخشب طعمت حشواتها السن والأبنوس ، ودقت بالأربعة الدقيقة ، والكرسى عبارة عن هيكل على هيئة متوازى المستطيلات يبلغ طوله ١,٧٥ متر وعرضه ١,١٠ متر وارتفاعه ١,٥٠ متر.

ويلاحظ أن موضع المصحف فى مقدمة الجزء العلوى من الكرسى أمام مجلس القارئ ينبئ عن حجم المصحف الذى كان يوضع عليه فيبلغ طوله ٨٠. متر وعرضه ٦٥. متر أى أنه كان مصحفا كبيرا ضخما ، كما أن تعيين شخص يحمل هذا المصحف " من المكان الذى هو فيه ووضعه على الكرسى عند القراءة بعد صلاة الجمعة وإعادته إلى موضعه بعد فراغ

---

[١] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف.
[٢] وثيقة سودون من زاده ٥٨/١٠

القراءة[1] يؤكد ذلك ، ولما كان الواقف يخصص المصحف لهذا النوع من القراءة ، ولما كان القارئ يتلو على المصلين بقراءة حسنة مرتلة ، فإن ضخامة المصحف تتناسب وذلك فهى تشير إلى جاه الواقف ، وتجنب القارئ ما قد يتعرض له من الخطأ أثناء القراءة بهذه الطريقة .وكان يوجد بمدرسة أم السلطان شعبان كرسى مماثل طعمت حشواته بالسن والأبنوس نقل إلى متحف الفن الأسلامى. ويوجد بمدرسة وخانقاة برقوق بالنحاسين وبمدرسة الأشرف برسباى بالأشرفية أمثلة لكرسى المصحف بإيوان القبلة وكرسى بجامع جامع البهلوان. ومما يشير إلى إهتمام المماليك بضرورة وجود مثل هذه الكرسى بالمساجد الجامعة ذلك الكرسى الذى وضع بجامع شيخو ، وهو كرسى جميل يبرز جمال نجارة الخرط فى العصر المملوكى وقفه هو ومصحفه الأمير الشهابى أحمد ولد المعز السيفى بركماس الظاهرى فى شهور جمادى الآخر سنة ست وأربعين وثمانىماية.

وقد وجد للقاضى زين الدين يحيى كرسى مصحف مطعم بالسن والزرنشان وحفظت اللوحة التاريخية التى كانت على كرسى المصحف فى مجموعة شيفر الأثرية ونصها " أمر بانشاء هذا الكرسى المبارك المعز الأشرف العالى الزينى أستادار العالية عز نصره فى شهور سنة ثمان وأربعين وثمان ماية [2]

ويوجد بمدرسة قايتباى بالصحراء كرسى للمصحف طعمت جميع أجزائه بالسن المدقوق أويمة وعليه كتابة نصها " أمر بإنشاء هذا الكرسى الملك الأشرف قايتباى بتاريخ شهر ربيع سنة ثمان وسبعين وثمانماية " كذلك يوجد بمدرسة الغورى بالإيوان القبلى كرسى مطعم بالسن.

ومن خلال هذه النماذج نلاحظ أن متوسط مساحة كل منها ١,٥ متر ويبلغ ارتفاعها فى المتوسط ١,٤٠ متر وهى مساحة تتيح للقارئ الجلوس فى راحة ، كما أن الإرتفاع يساعد على وضوح الصوت ، كما أن موضع المصحف يرتفع قليلا عن موضع جلسة القارئ بحيث يكون بعد المصحف

---

[1] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف

[2] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص٢٣٧

عن القارئ بمسافة ليست بالقريبة جدا ولا هى بالبعيد فلاتضير عين القرئ عند متابعته الحروف أثناء القراءة ويساعد على ذلك كبر حجم المصحف وبالتالى حجم الكتابة . كما أن موضع المصحف يأخذ شكل حرف " ٧ " منفرجة بعض الشئ فلا ينعكس الضوء على السطور أثناء القراءة ، ولا يتفسخ المصحف لكبر حجمه إذ أن ذلك كان ليحدث لو أن موضعه مستويا وكان كرسى المصحف يوضع عادة فى إيوان القبلة ، وهو أكبر الأواوين وهو الإيوان الذى يستخدم عادة في الصلوات الخمسة ، ويتوافد إليه المصلون قبل الأواوين الأخرى لأفضلية الصفوف الأولى – وقبل إزدحام الأواوين الأخرى بالمصلين .فوضعه بهذا الإيوان يتلائم وإتساعه ، بالإضافة إلى تواجد المصلين به عادة قبل الأواوين الأخرى والمعروف أن قراءة القرآن خاصة يوم الجمعة تسبق إقامة الصلاة فى الفترة التى يتوافد منها المصلون على المنشأة. وهكذا كان تصميم الكرسي واختيار موضعه ملائما مع الوظيفة التى خصص لها. كما أن صناعته من الخشب سهلت نقله من مكان إلى آخر وهو لذلك يعتبر قطعة من قطع أثاث المنشآت الدينية التى تؤدى وظيفة المسجد الجامع.

المنبر :

يعتبر المنبر من عناصر المنفعة الهامة والضرورية المرتبطة بالمنشأت الدينية التى تقام بها الصلوات الجامعة [1] بل هو الدليل على ذلك ، فعندما حول المماليك بعض مساجد الخمسة من العصور السابقة عليهم كان ذلك بإضافة منبر لها ، وتعيين خطيب يخطب بها الجمعة والعيدين. ويعتبر المنبر فى العصر المملوكى من وحدات الأثاث الهامة بالمنشآت الدينية التى ظهرت بها براعة النجار والمعمار المملوكى. فقد تنوعت هذه المنابر بين المنابر الخشبية والمنابر الرخامية والحجرية.

وقد حددت وثائق الوقف المملوكية وظيفة المنبر ، فقد جاء بوثيقة الجمالى يوسف ما نصه " أما المنبر فوقفه برسم الخطبة عليه أيام الجمع

(1) للتعرف على أصل المنبر وتاريخه " راجع مقال المنبر فى العصر الأسلامى الأول للاستاذ غازى رجب محمد مجلة سومر ج١ ، ٢ عدد ٣١ لسنة ١٩٧٥

والعيدين على العادة [1] وجاء بوثيقة قرقماس مانصه "ووقف المنبر الذى بالجامع المذكور لإقامة الخطب الشرعية عليه على العادة فى ذلك [2]

والمنبر عادة ما يتكون من عدة أجزاء تشكل هيكله فهو يقام على قاعدة تحمل أجزائه المختلفة ، وبالمقدمة " باب " المنبر الذى يؤدى إلى "سلم" يتكون عادة من تسع درجات تنتهى إلى " جلسة الخطيب " أما جانبية اللذان يأخذان شكل المثلث قائم الزاوية فكل جانب يسمى " ريشة " ويعلو كل ريشة وعلى جانبى السلم " سياج " يستند عليه الخطيب عند الصعود والهبوط، وقد يوجد بمؤخر المنبر بابان على الجانبين أسفل جلسة الخطيب يسميان " ببابى الروضتين " أما جلسة الخطيب فيعلوها " قلة المنبر " أى أعلى جزء فيه وتأخذ عادة شكل إنسيابى الشكل يشبه القبة الصغيرة ويعلوها " هلال " فى بعض الأحيان.

وقد تفنن النجار والمعمار المملوكى فى صناعة المنابر ، وتنوعت أشكالها حتى أصبح المنبر من أنفس قطع الأثاث بالمنشآت الدينية المملوكية التى تؤدى وظيفة المسجد الجامع فبالرغم من استمرار شكله القديم الذى وجد فى العصور السابقة فإن الأفكار الزخرفية والتقنية المتطورة التى كانت تطبق فى ذلك العصر نفذت فى هذه المنابر تطبيقا رائعا وقد جاء بوثيقة قجماس الإسحاقى وصف للمنبر يؤكد ذلك نصه " يليه منبر ضرب خيط مطعم أعد لرقى خطيب الجامع عليه للخطبة على العادة ، يغلق على هذا المنبر زوجا باب [3] وطريقة الزخرفة بهذه الطريقة " ضرب للخيط " كانت تطلق على طريقة عمل الزخارف الهندسية المعقدة التى شاع استخدامها فى ذلك العصر. ولعل ما يشير إلى ما كان بلغه التفنن ما عمل لبعض المنابر من أبواب تأخذ شكل عبارة عن قطاع دائرة فى تفنن رائع.

ويلاحظ أن أهم تجديد فى المنابر فى العصر المملوكى هو تنوع المواد التى أنشئت منها المنابر ، فقد كانت العادة أن تصنع المنابر من الخشب

---

[1] وثيقة الجمالى يوسف ٧/٤٦ محكمة

[2] وثيقة قرقماس أمير كبير رقم٩٠١ أوقاف ص٦١

[3] وثيقة قجماس ٧٦٠ أوقاف

المجمع فى حشوات محفورة بزخارف نباتية وهندسية جميلة مطعمة بالسن والعاج [1] ولكن وجد فى ذلك العصر منابرمن الحجر مثال المنبر الحجرى بجامع شيخو وذلك الذى يوجد بخانقاة فرج بن برقوق والذى أنشأه قايتباى سنة ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣ م ، وقد دقت قوائم المنبر أيضا بالزخارف الجميلة، ووجدت أيضا المنابر الرخامية ، وأقدم ما عرف منها منبر جامع الخطيرى المنشأ سنة ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٧ م وبقاياه محفوظة بمتحف الفن الأسلامى بالقاهرة ، ومنبر جامع أق سنقر وهو أقدم مثل باق بالمنشأت الدينية المملوكية، يليه منبر مدرسة السلطان حسن الذى صنع له باب من النحاس المفرغ. وقد استخدم الآجر كذلك فى بناء المنابر فى العصر المملوكى ففى سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١ م حدث حريق بالمسجد النبوى بالمدينة ، إحترق على أثره المنبر ، فبنىبدله منبر من الآجر المطلى بالنورة ، إلا أن هذا المنبر هدم سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣ م وأقيم مكانه منبر رخام عمله السلطان قايتباى[2] وهذا يشير إلى استخدام الحجر أو الرخام أو الآجر فى بناء المنابر كان لتلافى ماقد يتعرض له من الحريق أوغيره من العوامل الطبيعية بالإضافة إلى استغلال المواد الأخرى وبراعة التشكيل بها.

ولم يكن بناء المنابر مقصورا على العصر المملوكى ، فقد وجدت لذلك سوابق فى تلك المصليات التى كانت تصلى بها الأعياد منذ عصر الخلفاء الراشدين ، فيروى أن كثيرا بن الصلت بنى منبرا[3] من طين ولبن[4] فى المصلى ، خطب عليه عثمان بن عفان ، ثم تركه فاستعمله مروان بن الحكم عند صلاته فى المصلى [5] كما يروى أن مروان هو الذى أحدث

---

[1] مثال ذلك منابر مساجد سلطان شاه ، والمؤيد شيخ وبرسباى بالأشرفية ، ومنبر خانقاته بالصحراء والذى نقل من جامع الغمرى ومنبر جامع الخانكة ومنبر المدرسة الباسطية، ومنبر مدرسة عبد الغنى الفخرى ومنبر القاضى يحيى زين الدين وغيرها.

[2] البتانونى .المرحلة الحجازية ص٢٤١ حاشية (١) د. غازى رجب محمد المنبر فى العصر الاسلامى مجلة سومر عدد ٣١ ج١ ،٢ص سنة١٩٧٥

[3] ابو الحسن بن عبد الله السمهودى .وفاء الوفا باخبار دار المصطفى مطبعة الأداب والمؤيد بمصر سنة ١٣٢٦هجريا ج٢ ص٩-١١ ، صحيح الترمذىج٣ ص٣-٤

[4] صحيح مسلم بشرح النووى ج٦ ص١٧٧-١٧٨

[5] السمهودى. وفا الوفا ج٢ ص٩-١١

المنبر فى المصلى وأنه كان أول من خطب قبل صلاة العيد فى هذا المكان[1] ويوجد لحسن الحظ فى مصلى العيد فى أسوان التى ترجع إلى العصور الفاطمى منبر مبنى بالطوب.وهذه المنابر يمكن اعتبارها مقدمة لإستخدام الآجر والحجر الرخام فى بناء المنابر فى العصر المملوكى لتقاوم ما قد يتعرض له من أسباب الحريق والتدمير.

وتزداد أهمية المنابر المملوكية بما تشتمل عليه من كتابات وأسماء ورنوك للسلاطين والأمراء المماليك ، كما اشتمل بعضها على أسماء من قام بعملها من النجارين مثل منبر جامع أبو العلا الذى جاء على بابه ما نصه "تجاره العبد الفقير إلى الله تعالى الراجى عفو ربه الكريم على بن طنين بمقام سيدى حسين أبو على نفعنا الله " ولكن مايلفت الإنتباه ما جاء على بعضها من نصوص لا يتعلق بالمنبر ذاته ولكن تتعلق بتسمية المنشأة نفسها مثل منبر مدرسة الأشرف الذى جاء بأعلى بابه لوحة بها سطران من الكتابة المحفورة حفرا بارزا " أمر بإنشاء هذه " المدرسة " المباركة سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف عز نصره " وربما كان هذا النص على المنبر يؤكد أن المنشأة أنشئت لتكون مدرسة خاصة وأنها إفتتحت لإقامة الصلاة فور الإنتهاء من إيوان القبلة وقبل إكتمال عناصرها كمدرسة.

ولما كان المنبر من عناصر الإنتفاع المتعلقة بالصلاة خاصة فى المساجد الجامعة هو ودكة المبلغ ، فربما يكون تسجيل مثل هذه النصوص لتأكيد نوعية المنشأة عليها كما حدث فى المنبر ودكة المبلغ فى مدرسة الغورى أمر يشير إلى الحرص على إختيار هذه العناصر للإعلان عن نوعية المنشأة.

وكان المنبر يستخدم بواسطة الخطيب لإلقاء الخطب فى أيام الجمع والأعياد وفى حالات الخسوف والكسوف والجفاف وغيرها من المناسبات العديدة الأخرى[2] وقد أنكر ابن الحاج صعود المؤذنين مع الخطيب على

---

[1] البخارى. صحيح البخارى، ج٢، ص٢٢ صحيح مسلم، ج٦، ص١٧٧-١٧٨ صحيح الترمذى ج٣ص٤ ، سنن ابن داوود ج١ ص١٧٨ ، ابن الحاج المدخل ج٢ ص٢٨٦.

[2] الغزالى. إحياء علوم الدين ج٦ ص١٣٠

المنبر وكذلك فرشه بالسجاد [1] ولم نجد فى وثائق الوقف المملوكية التى حددت وظيفة المنبر بإقتصاره على الخطيب ما يشير إلى مثل ذلك ، كذلك فإنه أنكر عادة كانت متبعة فى بلاد المغرب وهى إرجاع المنبر إلى الغرفة التى جلب منها إذا فرغ الخطيب من إلقاء الخطبة ، واعتبرها بدعة أوجدها الحجاج فى المساجد [2] واذا كان منبر الكعبة قائما على أربع عجلات وموضوعا قرب مقام ابراهيم إذ كان يدفع إلى جانب الكعبة عند إلقاء الخطبة ويعاد إلى مكانه بعد الإنتهاء منها فإن بعض سلاطين المماليك حاول أن يثبته كما فعل السلطان برسباى لأن ذلك يؤثر على بناء الحرم ، وكان ذلك التحريك لظروف خاصة ولم يحدث مثل ذلك فى عصر المماليك فلم نعرف أن المنابر فى ذلك العصر كانت تحرك لتوضع فى أماكن معينة ولم يخصص لذلك مواضع ، بل بناء منابر ثابتة من الحجر أو الرخام يؤكد هذا القول ، فكان المنبر يوضع ثابتا على يمين المحراب ويظل فى مكانه كما هو. وكان هناك نوع من المواءمة بين حجم المنبر وإرتفاعه وبين إيوان القبلة الذى يوضع به هذا المنبر عادة ، فكان ارتفاع سقف الإيوان بمستوى يعادل طابقين فى المنشآت المدنية يناسب إرتفاع المنبر الذى يبلغ عدد درجاته تسع درجات تؤدى إلى جلسة الخطيب التى تعلوها قلة المنبر التى قد يصل إرتفاعها إلى قرب السقف. كما يلاحظ أن صانع المنبر جعل إرتفاع الدرجة الواحدة من درجات سلمه حوالى ٣٠ سم وهو إرتفاع أكثر من المعدل المتعارف عليه بالنسبة لدرجة السلم المريحة فى الصعود والتى تبلغ فى المتوسط من ١٥ : ٢٠ سم وقد كان هذا الإرتفاع لتقليل إمتداد المنبر أفقيا حتى لا يشغل مساحة كبيرة من مساحة الصلاة بالإيوان ، وهو أمر أشارت إلى كراهية الأحكام الفقهية لأنه بالإضافة إلى ذلك يقطع صفوف المصلين. بل أن البعض لم يكتف بذلك فأنقص عدد درجات المنبر فتذكر وثيقة فرج بن برقوق وصفا للمنبر الذى كان بجامعه الذى كان بقلعة الجبل ما يؤكد ذلك بما نصه " وإلى جانبه فى الجهة الغربية منبر خشب ذا درج عدتها ثمانية برسم صعود الخطيب

---

[1] ابن الحاج. المدخل ج٢ ص٢٦٨ - ٢٨٧

[2] ابن الحاج. المدخل ج٢ ص٢١٢

وبأعلاه قبة من الخشب [١] وبديهى أن وقوع المنبر بجوار المحراب فى إيوان القبلة وإرتفاعه بهذا المستوى يساعد المصلين على رؤية الخطيب وسماعه أثناء الخطبة فهو فى مواجهتهم وفى مكان مرتفع فيصل صوته إلى أسماعهم ، هذا بالإضافة إلى أن الخطيب بعد الخطبة يهبط منه إلى أقرب موضع من المحراب الذى يؤم فيه المصلين عند إقامة الصلاة.

مما سبق يتضح أن المنبر فى العصر المملوكى كان يؤدى وظيفته بكفاءة لتلائمه مع المنشأة وتلاؤم المنشأة معه بل إنه يعتبر من الناحية الجمالية مصدر راحة ومتعة لما يشتمل عليه من إبداع ورونق.

المكتبـة :

تعتبر المكتبة من عناصر الإنتفاع العامة التى وجدت بالعمائر الدينية المملوكية بصفة عامة والمدارس بصفة خاصة فهى المصدر الأساسى الذى يلجأ إليه الدارسون بالمنشأة ومن يريد الاطلاع للحصول على المؤلفات التى يريد الإطلاع عليها. ولما كانت المخطوطات تتكلف الكثير فى نسخها وتجليدها بالإضافة إلى ما تتكلفه من أوراق ومداد فإن الإهتمام بالمحافظة عليها ظهر فى إحكام صنعتها ، وصناعة المصنوعات التى تعين على المحافظة عليها من أكياس حريرية ، أو صناديق خشبية توضع عليها أثناء القراءة ، كذلك كان الإهتمام بها فى المنشآت الدينية التى تضم مكتبات ، تضم العديد من الكتب ، فعينوا لها خازنا يتولى حفظها ومباشرة الاطلاع فيها ، بالإضافة إلى توفير أماكن حفظها فى هذه المنشات بحيث تكون فى منأى عن أسباب التلف والضياع وأقرب إلى تناول المستفيدين من القراء.

وقد اختلفت مواضع وتخطيطات هذه المكتبات حسب ظروف كل منشأة ، فقد كانت بعض هذه المكتبات عبارة عن قاعات كبيرة مزودة فى بعض الأحيان بمسكن للخازن ومرافقه كما كان الحال فى مدرسة برسباى – بشارع المعز لدين الله – فقد كانت المكتبة بها عبارة عن قاعة ضخمة يتوصل إليها من الباب الثالث بالحائط الجنوبى للدهليز ، ويمكن الإستعانة بوصف الموثق لهذه القاعة ، لأن معالمها تغيرت إلى حد كبير بعدما ضمت

إلى مدرسة ابتدائية حديثة شغلت الجزء الجنوبي الغربي من المدرسة – الذي جاء به " ويتوصل من بقية الدهليز إلى باب مربع عليه زوجا باب يدخل منه إلى قاعة تحوي إيوانا مفروشا بالبلاط مسقف نقيا مدهون به عن يمين الصاعد شباكا نحاسا يطل على الطريق مقابله خزانة كتبية كبرى برسم كتب العلم الموقوفة على طلبة الجامع المذكور يغلق عليها زوجا باب ، وأما دور القاعة فمروشه بالرخام الملون بها خمسة أبواب أحدها باب الدخول والثاني يدخل منه لمرحاض والرابع والخامس كتبيتان [1] ولم يتبق من هذه الوحدات سوى قاعة كبيرة ملحقة حاليا بالمدرسة الابتدائية– سابقة الذكر – وهذه القاعة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٧,٨ متر وعرضها ٢,٥ متر وتنقسم هذه القاعة إلى قسمين بواسطة كريدى خشبي ، ويوجد بالحائط الجنوبي للقسم الشرقي نافذة كبيرة مستطيلة يبلغ إتساعها ١,٢٠ متر وتطل على شارع الحمزاوي الصغير، الذي تطل عليه المدرسة بواجهتها الجنوبية ، ويوجد في مواجهة هذه النافذة بالحائط المقابل فتحة باب تؤدي إلى خلوة يبلغ إتساعها ١,٦٠ متر وعمقها ١,٩٠ متر ، أما القسم الغربي من القاعة ، فيوجد بكل من حائطين الشمالي والجنوبي ثلاث حنيات ، الوسطى ترتفع بارتفاع سقف القاعة، أما الجانبيتان فمعقود كل منها من أعلا بعقد مدبب ، ويلاحظ أن الحنية بالحائط الشمالي أعمق من بقية الحنيات الأخرى إذ يبلغ عمقها متر تقريبا ، ويوجد بالحائط الشرقي حنية يعلوها نافذتان مستطيلتان، ويوجد بالحائط الغربي نافذة تطل على الدهليز المؤدي إلى المدرسة الابتدائية الحديثة ، كذلك يوجد به فتحة الباب المؤدية حاليا إلى القاعة من خلال المدرسة الحديثة حيث أنها فصلت عن مدرسة برسباي تماما.

ومما سبق يتضح أن مكتبة هذه المدرسة كانت عبارة عن قاعة ضخمة يلحق بها سكن للخازن ومرحاض بالإضافة إلى كتبيتين تطلان على الدرقاعة لحفظ الكتب أيضا ، ويلاحظ أن هذه المكتبة كانت كبيرة لتتسع لعدد ضخم من الكتب التي كانت تصف فيما يبدو على رفوف ، وقد كان تعدد الحنيات بحوائطها ليزيد اتساع هذه القاعة ، ويساعد على عمل رفوف بهذه

---

[1] وثيقة وقف برسباي ٨٨٠ أوقاف ص١٢

الحنيات لوضع الكتب ، كما أن اختلاف عمق الحنيات يتلائم واختلاف أحجام الكتب التى قد توضع على الأرفف بها ، هذا ويلاحظ كذلك أن القاعة مزودة بنوافذ كبيرة للإضاءة تطل على الشارع الخارجى أو على داخل المدرسة ، كما تزود بالضوء من " الدرقاعة " أو الفناء الذى يفصل بين قاعة المكتبة والإيوان المقابل لها . كما أن تزويد المكتبة بمرحاض خاص يكشف عن مدى حرص المعمار على أن تكون المكتبة وحدة مستقلة بمرافقها خاصة وأن هذه المكتبة ملحق بها مسكن الخازن المتمثل فى الإيوان المقابل للقاعة . ولاشك أن إرتباط سكن خازن المكتبة بهذا الوضع يساعد الخازن على مباشرة عمله فى راحة تامة .كما أن موضع هذه المكتبة فى الجانب الجنوبى من المدرسة مطلة عل الدهليز ، يساعد على سهولة الاتصال بها خاصة لمن يأتى من خارج المدرسة كما أنها قريبة من أواوين المدرسة التى يعقد بها الدرس والتصوف وكذلك من مساكن الطلبة المتصوفة التى تقع غربى هذه القاعة مباشرة .

وإذا كانت هذه المكتبة بهذا الشكل والحجم فإن مكتبة مدرسة هذا السلطان نفسه بالصحراء عبارة عن حجرة يتوصل إليها من باب فى الحائط الشمالى للمدرسة ويبلغ طول هذه الحجرة من الشرق إلى الغرب ٢,٥٥ متر وعرضها ٢,٢٥ متر فرشت أرضيتها ببلاطات من الحجر ويعلوها سقف خشبى مسطح ، وقد وقف السلطان برسباى هذه الحجرة البسيطة مكتبة لهذه المدرسة [١] وهو أمر يكشف عن أن الظروف المصاحبة لإنشاء المنشأة كانت لتؤثر على حجم المكتبة وظروفها فمنشأت برسباى بالصحراء كانت بعد إنشائه المدرسة الأشرفية - بشارع المعز لدين الله - التى كانت تضم الطلبة من المذاهب المختلفة بالإضافة إلى حضور التصوف ، أما مدرسة الصحراء فقد إقتصرت على الحنفية ، وإختلاف حجم النشاط العلمى وعدد الدارسين فى المنشأتين وإنشائهما واحدة تلو الأخرى بواسطة منشئ واحد كان له أثره فى صغر حجم هذه المكتبة وبساطتها .

---

[١] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٢٣

ومما يشير إلى تحكم المساحة المتاحة للمنشأة فى موضع المكتبة بها، ما نراه فى مكتبة مدرسة وخانقاة برقوق بالنحاسين ، والتى تقع شمالى الضريح ، ويتوصل إليها من بالحائط الشمالى للضريح ، فقد جاء بوثيقة وقفها ما نصه " وعلى يمنة الداخل إلى القبة المذكورة شباك نحاس يغلق عليه زوجا باب يدخل منه إلى خزانة الكتب يعلوها حاصل عليه فردة باب ثم حدد الموثق وظيفتها بما نصه " وأما الخزانة التى بالقبة المذكورة والحاصل الذى علوها فإنه وقفها لحفظ ما لعله يكون بهذا المكان من النقد والكتب وغير ذلك على العادة فى ذلك [1] وهو أمر يشير إلى أنها كانت مخصصة أصلا لحفظ الكتب أما " النقد " فربما كان يحفظ فى الحاصل الذى يعلوها خاصة وأن هذا الحاصل فى مكان أمين فيمكن أن يستغل فى ذلك.

وقد كانت هذه المكتبات فى منشآت دينية كثيرة ، عبارة عن حنيات أو خزانات صغيرة فى حوائط أواوين المنشأة أو الصحن تصنع لها أرفف ، ويعمل لها أبواب تغلق عليها ، وتستغل لحفظ الكتب ، وكان يطلق على هذه الحنايا الصغيرة " كتبيات " يؤكد ذلك ما جاء من نصوص بوثائق وقف هذه المنشآت. فقد ذكرت وثيقة وقف مدرسة السلطان حسن أن البيت الذى كان فى مقابلة بيت الخطيب بإيوان القبلة " لخزن ما عساه أن يكون بالمكان المذكور من المصاحف والربعات الشريفة والكتب على جارى العادة فى ذلك [2] وجاء بوثيقة وقف مدرسة الجمالى ما نصه " وأما الخزانة اللطيفة التى بيسرة حجرات المسجد المذكور فجعلها مقرا لما سيوضع بها من الختمات والربعات وكتب الحديث النبوى والعلم الشريف المنسوب ذلك لمولانا المقر الجمالى الواقف المشار إليه فيه [3] وجاء بوثيقة وقف جامع قجماس الإسحاقى ما نصه" وبجوار باب المدفن الذى بالإيوان الكبير " إيوان القبلة " باب مربع يدخل منه إلى خلوة لإحراز كتب المدرسة المذكورة مفروش أرضها بالبلاط[4] وجاء بوثيقة وقف منشأة قراقجا الحسنى بدرب الحماميز ما نصه"

---

[1] وثيقة وقف برقوق ٨/٥١ محكمة

[2] وثيقة وقف السلطان حسن ٨٨١ أوقاف

[3] وثيقة وقف الجمالى يوسف ٤٦ /٧ محكمة

[4] وثيقة وقف قجماس الإسحاقى ٦٧٠أوقاف

وأما الكتيبات التى بالجامع المذكور فإن الواقف المشار إليه وقفها للإنتفاع بها على ما يراه الناظر المتولى على ذلك ويؤدى إليه إجتهاده [١] وهذا النص يشير إلى أن الكتيبات التى تتوزع بأواوين وصحن المنشأة كما فى قراقجا الحسنى ، كانت تستغل كتيبات كما يتضح من تسميتها ، ويمكن أن تستغل استغلالا أخر حسبما يرى الناظر ذلك ، فقد تكون هذه المواضع أكثر من الحاجة إلى استخدمها مواضع الكتب فقط.

والأمر الذى تجب الأشارة إليه أن هذه الكتيبات بوجودها فى حوائط الأواوين أو الصحن كانت فى أقرب المواضع للتناول والإعادة ، بالإضافة إلى الإستفادة بما يتوفر من مساحات بالمنشأة نتيجة محاولة المعمار تخليق مساحة منتظمة الشكل من الداخل ، فى عمل هذه الكتيبات وغيرها من "الخرستانات" المخازن أو الحواصل ، يشير إلى الاقتصاد المنظم للمعمار المملوكى ، وباستغلال هذه المساحات فى إنشاء عناصر انتفاع وخدمة بالمنشأة تحقق وظيفة من وظائفها.ومما تجب الإشارة إليه أن المكتبة كانت من عناصر الإنتفاع الأساسية فى كافة المنشآت فلم يقتصر وجودها على المدارس والخنقاوات ، ولكن وجدت بالمساجد الجامعة التى تؤدى وظيفة المدرسة والخانقاة حتى التى إقتصرت فقط على وظيفتها الأساسية من كونها مسجدا جامعا ، نظرا لحاجتها إلى مكتبات تضم المصاحف والربعات الشريفة وكتب الحديث وغيرها ، وهى النوعية من الكتب التى يستخدمها القراء فى قراءة القرأن والحديث بها ، خاصة وأن عادة قراءة القرأن والحديث كانت شائعة فى المنشآت الدينية فى العصر المملوكى . ومن المساجد الجامعة التى اقتصرت على وظيفة الجامع وأنشئت بها مكتبات ، الجامع الذى كان السلطان فرج بن برقوق أنشأه فى القلعة ، فقد زود بمكتبة لتزويد القراء بالمصاحف والربعات التى يقرأون فيها بهذا الجامع [٢] وجامع السلطان برسباى بالخانكة الذى زود بمكتبة ضمن الوحدات التى إشتملت عليها كتلة المدخل فى هذا الجامع ، حيث يؤدى الباب الذى بالطرف الغربى للحائط الشمالى للدهليز الذى

---

[١] وثيقة وقف قراقجا الحسنى. نشر د.عبد اللطيف ابراهيم سطر ٧٦

[٢] وثيقة وقف فرج بن برقوق ٦٦/١١ محكمة

يربط بين المدخل وصحن الجامع إلى استطراق ، ويوجد بالحائط الشرقى لهذا الاستطراق فتحة باب يبلغ اتساعها ٩٠ سم وارتفاعها ٢,١٠ متر ، تؤدى إلى دورقاعة ، أو فناء يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٣,٨٠ متر وعرضها ٣,٥ متر ويوجد فى نهاية حائطها الشرقى بالطرف الشمالى منه حنيتان تعلو إحداهما الأخرى والحنية السفلية منها مستطيلة يبلغ إتساعها متر واحد وإرتفاعها ٢,٢٠ متر وعمقها ٤٠ سم ، والحنية التى تعلوها مستطيلة أيضا وعلى محورها الرأسى ولكنها أصغر نسبيا ، إذ يبلغ ارتفاعها ١,٨ متر واتساعها ٩٠ سم وعمقها ٣٥ سم ويوجد فى مقابلة هذه الحنية وفوق الباب الذى يؤدى إلى الدرقاعة بالحائط الغربى حنية صغيرة مماثلة لسابقتها جملة وتفصيلا ، ويطل على الدرقاعة من الناحية الشمالية إيوان صغير يبلغ اتساعه ٢,٥ متر ، أما عمقه فيبلغ ٢,٨٥ متر ويعلوه سقف خشب مسطح ، وفرشت أرضيته ببلاطات من الحجر ، ويوجد بجداره الشرقى حنية يبلغ اتساعها ٩٠ سم وإرتفاعها ١,٩ متر وعمقها ٥٢ سم ترتفع بإرتفاع السقف ويوجد مثلها بالحائط الشمالى ، أما الحائط الغربى فيتوسطه حنية مماثلة ، يتوسطها فتحة باب يبلغ اتساعها ٩٥ سم وإرتفاعها ١,٢٢ وسمك الجدار من خلال هذه الفتحة ٢٠ سم ويؤدى إلى حجرة صغيرة طولها من الشمال إلى الجنوب ٢,٨٠ متر وعرضها ٢,٢٠ متر ، ويوجد بالجدار الغربى لهذه الحجرة نافذة كبيرة مستطيلة يبلغ اتساعها ٩٠ سم وإرتفاعها ١,٩٠ متر ولها مصراعان من الخشب وشبكة من قضبان حديدية متقاطعة مكونة أشكال المربعات ، ويلاحظ أن سقف هذه الحجرة يرتفع بإرتفاع سقف الإيوان الذى يبلغ إرتفاعه عن مستوى سطح الأرض ١,٢٥ مما يوحى بأن الجدار ذو السمك البسيط بينها وبين الإيوان الذى يبلغ ٣٥ سم أن هذا الجدار كان ساتراً ليس إلا يفصل بين الإيوان والحجرة المذكورة. كذلك يلاحظ أيضا أن سقف هذا الإيوان بارز إلى الخارج فى إتجاه الجنوب حتى نهاية الحنية التى تعلو الباب المؤدى إلى هذا المكان. وقد جاء بوثيقة برسباى وصف مختصر لهذا المكان نصه " ويجاور المزملة باب يدخل منه إلى دهليز يتوصل منه إلى قاعة تشمل إيوان

ودور قاعة ومرحاض وحقوق مسقفة نقيا مفروشة بالبلاط [١] وهذا الوصف يوضح أن الجزء المفقود هو " المرحاض " وربما كان يشغل المساحة الجنوبية من الدورقاعة ، إذ يوجد بهذا المكان - حاليا - جدار مبنى حديثا بارتفاع ٢,٥ [٢] متر يحجب وراء مساحة ربما كان يشغلها المرحاض والحقوق المذكورة بنص الوثيقة.

وهذا الوصف يشير إلى الشكل الذى كانت عليه مكتبة هذا الجامع التى تضم الكتب وغيرها من المصاحف والربعات الشريفة التى كان يستخدمها القراء الذين عينهم برسباى للقراءة فى هذا الجامع . وهو أمر يوضح مدى تفهم المعمار المملوكى للوظائف التى تؤديها المنشآت الدينية وتحقيقه مطالبها فى براءة ملحوظة فى تشكيل الفراغ حسب الوظيفة المطلوبة، فهو مثلا بالنسبة للمكتبة زودها بالحنايا التى تعمل بها أرفف لحفظ الكتب غير معرضة للتلف ، وتزيد فى نفس الوقت من اتساع المكان ، كما أنه يعمل على أن تكون مأمونة الحفظ غير معرضة للتلف بسبب العوامل الأخرى كما أنه زودها بالمرافق التى قد يحتاج إليها مثل الأماكن الخاصة بسكنى الخازن الذى يتولى مباشرة المكتبة أو مراحيض يستفيد منها من بالمكان عند الحاجة إلى قضاء الحاجات وإزالة الضرورات فأوجد نوعيا من التكامل كلما سمحت ظروف المكان والمنشأة والواقف بذلك.

غرفة الميقاتى :

من العناصر الانتفاعية المتعلقة بإقامة شعائر الصلاة بالمنشآت الدينية المملوكية ما يسمى بغرفة الميقاتى ، وهى غرفة مخصصة لاستفادة الميقاتى بها ، كما أنه كان يجلس بها فى وقت محدد قبل أذان الجمعة للدعاء ، فقد جاء بوثيقة وقف مدرسة الجمالى يوسف ما يؤكد ذلك بما نصه " وأما غرفة الميقاتى المذكورة فجعلها برسم إنتفاع الميقاتى بالمدرسة بها ودعائه فى أيام الجمعة بين العلامة والأذان على ما عهد فى ذلك [٣] ويبدو أن هذه الغرفة هى

---

[١] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٣٦

[٢] قامت لجنة حفظ الاثار بترميم هذا الجامع سنة ١٩٤٤ ورممت هذا الجزء والصهريج ويبدو كما إتضح من النص أن الترميم كان به بعض الاخطاء.

[٣] وثيقة وقف الجمالى يوسف ٤٦/ ٧ محكمة

بعينها التى وردت تسميتها فى وثيقة وقف جامع القاضى يحيى زين الدين بالأزهر بأنها " غرفة الدعاء " ومن وصف الموثق لها يبدو أنها كانت تعلو السطح كما يتضح من النص الذى ضاعت بعض كلماته فقد جاء بالوثيقة ما نصه " أما صحن الجامع المذكور الذى بين الأواوين الأربعة المذكورة فهو مفروش بالرخام الملون بمدورات كنار ثلاثة وأربع مراتب وبه أربعة أبواب على كل منها زوجا باب بصفيحتين نحاسا يعلوه شباك نحاسا أصفر يعلوه حجر مقرنص يعلو ذلك شباك خشبا خرطا الأربعة باب الدخول والثانى يقابله يأتى ذكره والثالث كتبية برفوف.... المذكور مسقف مثمن عراقى ملمع بالذهب واللازورد يعلو ذلك غرفة لطيفة بعمودين خشبا مدهون ورفرف وقبة مدهون كل ذلك برسم الداعى يوم الجمعة قبل الصلاة [1] ولما كان الميقاتى كما – هى العادة فى العصر المملوكى – هو الذى يقوم بالدعاء قبل الجمعة فإن هذه الغرفة تكون مختصة به مثل تلك التى كانت بمدرسة الجمالى يوسف.

والمعروف أن الميقاتى كان يتولى تحديد مواعيد دخول أوقات الصلاة وكان يستخدم فى ذلك من الآلات ما يعينه على ذلك ، فقد جاء بوثيقة وقف لاجين الخاصة بجامع ابن طولون بعد ان جدده وصبغه بالصبغة المملوكية من ناحية الوظائف الدينية التى قررها فيه ما يؤكد ذلك ما نصه " وينصب الناظر بالجامع المذكور رجلا عارفا بعلم الساعات الليلية والنهارية عالما بوضع آلاتى يضع بالجامع آلات تعرف بها ساعات الليل والنهار رقيبا شرعا مباشرة يحصل بها الغرض فى ذلك[2] وهذا يعنى أنه كانت توجد بالإضافة إلى المزاول " الساعات الشمسية " التى وجدت على جدران العمائر لتحديد ساعات النهار آلات أو وسائل أخرى لتحديد ساعات الليل والنهار يقوم بوضعها ومراقبتها الميقاتى. ولذا كان وجوده ببعض المنشآت الدينية لهذا الغرض شبه دائم ، ولذلك خصصت له غرفة يستفيد بها شخصيا ، بالإضافة إلى أنه يستخدمها فى أداء إحدى وظائفه التى كان يقوم بها عادة فى العصر المملوكى ، وهى الدعاء بين وقت العلامة ودخول وقت الأذان ، فحقق له

---

[1] وثيقة وقف القاضى يحيى زين الدين ١١٠ / ١٧ محكمة

[2] وثيقة وقف لاجين ٣/١٧ محكمة

المعمار بذلك كافة متطلباته ، حتى يؤدى وظيفته على خير وجه ، وهى إحدى الوظائف المملوكية المتعلقة بإقامة شعائر الصلاة بالمنشآت الدينية المملوكية.

المساكن بالمنشأت الدينية المملوكية :

تعتبر المساكن بالمنشـأت الدينيـة المملوكيـة من عناصر الانتفـاع الهامـة بهـا خاصـة فى المدارس والخنقاوات والربط والزوايا التى تضم أعدادا من الطلبـة والمتصوفة والمدرسين والشيوخ الذيـن يقطنـون هذه المنشـآت ، وهى تعتبر كذلك لونا من ألوان الرعاية الاجتماعية التـى توفرت لهذه الفئـة فـى العصـر المملوكـى. ولـم تكـن هـذه النوعيـة مـن المسـاكن فقـط هـى التـى وجـدت بالمنشأةالدينية المملوكية ، ولكـن وجـد إلـى جانبهـا مسـاكن لبعض الموظفيـن العـاملين بالمنشـأة غيـر هـؤلاء مثـل خـازن المكتبـة ، ومـؤدب الأيتـام بمكتـب السبيل ، بالإضـافة إلى بعض الموظفين القائمين على إقامة الشعائر أو الخدمـة أو الحراسة بالمنشأة الدينية وتتوزع هذه المساكن وترتبط بالوحدات التى يعمل بها هؤلاء غالبا ، كذلك وجـدت نوعيـة هامـة ظهـرت مـن جديـد فـى العمـائر الدينيـة المملوكيـة وهـى " المسـاكن الخـاصـة " التـى وجـدت ببعض المنشـأت الدينية المملوكية.

وقـد كـان لإختـلاف هـذه النوعيـات مـن المسـاكن ، وإختـلاف نوعيـة سـاكنيها بالإضـافـة إلـى محاولـة المعمـار المملوكـى تجنـب المنشـأة الدينيـة أن يختلط هواء هذه المساكن بهواء أمـاكن الصـلاة فـى المنشـأة الدينيـة – حسـب حكم الفقهاء – أثره فى اختلاف تخطيطـات هـذه الوحـدات السكنية بالمنشآت الدينية المملوكية وإختلاف مواضعها تبعا لهذه المؤثرات.

ونـأخذ المسـاكن التـى ألحقـت بمدرسـة وخانقـاة السـلطان برقـوق بالنحاسين نموذجا جيدا لتوزيع المسـاكن وتخصيـص كـل وحـدة منهـا لنوعيـة معينـة ، وتحدد وثيقة وقف هذه المنشأة هذا الأمر بدقة متناهية فقد جاء بها مـا نصه " وأما الرواق المتوصل إليه من الدهليز الأول المتوصل منـه إلـى قاعـة الخدام[1] وما هـو مـن حقوقـه فـإن مولانـا السلطان وقفـه علـى أولاده وأولاد

---

[1] قاعة الخدام هذه عبارة عن الإيوان والدرقاعة غربى الضريح حاليا ويعلوهـا الوحـدات المحصورة بين الضريح والإيوان الشمالى الرواق المذكور الخاص بسكنى الواقف وذريته.

أولاده وذريته ونسله وعقبه ينتفعون بذلك فى السكن دون الإسكان فإذا إنقرضوا بأسرهم ، ولم يتبق منهم أحد عين الناظر لسكن ذلك من يراه من أرباب الوظائف بالمدرسة المذكورة ، وأما القاعات الثلاث وما هو من حقوقها التى بدور القاعة فإثنان منها فى الجانب الغربى ، والثالثة بالجانب الشرقى فإن الواقف المذكور وقفها لسكن من يرى الناظر إسكانه من أرباب الوظائف بهذا المكان ، وأما القاعة التى بأقصى الدهليز المتوصل منه إلى المدرسة المذكورة المقابل لباب الدخول وعلوها وما هو من حقوقها ومعروف بها ومنسوب إليها فإن مولانا السلطان الملك الظاهر الواقف المسمى بأعاليه تقبل الله منه بره وصدقته أرصدها حقا لشيخ الدرس والصوفية الحنفى المذهب ينتفع بذلك فى السكن دون الإسكان على الوجه الشرعى ، وأما الرواقان والبيوت العلوية والسفلية فإنه وقفها لسكن من يكون بهذه المدرسة من الطلبة والصوفية وأرباب الوظائف ممن يعينه الناظر ينتفعون بذلك إنتفاع مثلهم بمثل ذلك على الوجه الشرعى [1] .

ويمكن أن نقول بصفة عامة أن القاعات الجانبية الكبيرة التى تشتمل على إيوان أو أكثر كانت تخصص لسكنى الشيوخ والمدرسين ، مما عساه يسكن بالمدرسة لأنها تتسع لهم خاصة وأن منهم من كان يقطن بهذه القاعات بأسرته فقد جاء بوثيقة وقف مدرسة عبد الغنى الفخرى – بشارع بورسعيد – وصف لإحدى قاعات المدرسة التى كانت تقع شمالى إيوان القبلة[2] نصه"والباب الرابع من الجهة الشرقية (للصحن) يدخل منه إلى دهليز على يمنه السالك به باب مربع يدخل منه إلى دركاه لطيفة بها باب مقنطر يتوصل منه إلى دهليز ، يدخل منه إلى قاعة تحوى إيوانا ودور قاعة يصدرها مرتبة كاملة المرافق والحقوق برسم سكنى شيخ المدرسة وبها باب سر إلى حارة العرب وهو أحد أبواب المدرسة المقدم ذكرها [3] وجاء بوثيقة وقف مدرسة جمال الدين الاستادار أنه أسكن شيخ طلبة المذهب الشافعى بمدرسته الشيخ

---

[1] وثيقة وقف السلطان برقوق ٥١/٨ محكمة

[2] يلاحظ أن هذه القاعة مستخدمة حاليا كضريح.

[3] وثيقة وقف عبد الغنى الفخرى ٧٢ / ١٢

أحمد العبيدى الخوارزمى " قاعة المشيخة المستجدة المرصدة للوظيفة المذكورة وشرط عليه وعلى من يستجد بعده فى الوظيفة المذكورة الاقامة بالقاعة المذكورة والسكنى بها دائما [1]

ومما يؤكد أن هذه القاعات كانت لسكنى الشيخ بأهله وعياله أحيانا ما جاء بوثيقة وقف خانقاة الناصر محمد بسرياقوس من أن قاعة الشيخ كانت " مرصدة لسكنى شيخ الخانقاة المذكورة وسكنى عياله وأهله[2] ولذلك كانت مثل هذه القاعات تستقل عن الوحدات السكنية الأخرى التى تلحق بالمنشأة سواء كانت للموظفين أو الطلبة قدر الإمكان مثل قاعة الشيخ بمدرسة برقوق – سابقة الذكر –بأبواب مستقلة تربطها بالخارج كما إتضح من الوصف الذى جاء ضمن وثيقة وقف عبد الغنى الفخرى ، فقد ذكرت الوثيقة أن هذه القاعة كان لها " باب سر إلى حارة العرب وهو أحد أبواب المدرسة المذكورة " ويتضح من بقية الوصف أن مساكن الطلبة كانت هى الأخرى فى الركن الشمالى الشرقى مجاورة للقاعة الخاصة بسكنى الشيخ حيث جاء بالوصف الوثائقى أن " الباب الذى على يسره الداخل من الدركاه المقدم ذكرها (التى يتوصل منها إلى دهليز يتوصل منه إلى قاعة الشيخ) إلى دهليز به عشره خلاوى علوية وسفلية برسم سكنى الطلبة وبه سلم يصعد من عليه إلى خلويات تعلو هذا المكان برسم الطلبة وإلى غير ذلك [3] ورغم تجاور مساكن الطلبة وقاعة الشيخ إلا أن كل منهما شبه مستقل تماما ، ويفصل بين الوحدتين الدركاه ، وإمعانا فى توفير نوعا من الراحة لسكن الشيخ يسر المعمار اتصاله بالخارج عن طريق " باب سر " القاعة ، بحيث يمكن أن تستقل هذه القاعة عن المدرسة تماما لو أغلق ذلك الباب الذى يصلها بالدركاه واستخدم الباب الآخر. وهكذا حرص المعمار على توفير هذا الاستقلال لسكن الشيوخ والمدرسين بالمنشآت لظروفهم الإجتماعية ، متغلبا فى ذلك على ما قد يعن له من مشاكل تتعلق بالمساحة ووضع المكان وغير ذلك.

---

[1] وثيقة وقف جمال الاستادار ١٠٦ / ١٧ محكمة

[2] وثيقة وقف الناصر محمد بن قلاوون ٢٧ / ٥ محكمة

[3] وثيقة عبد الغنى الفخرى ٧٢ / ١٢ ويلاحظ أن هذه الخلاوى قد درست.

أما مساكن الطلبة فكانت في مجموعات سكنية مكثفة وكانت غالبا عبارة عن خلاوى أو غرف كل غرفة مستقلة عن الأخرى ، تطل على ممر طويل يتوسطها ، وتتعدد أحيانا طوابقها حتى أنها كانت تصل إلى أربعة طوابق.

وقد تنوعت الأماكن والمواضع التي كانت تضم هذه المساكن حسب ظروف كل منشأة ، فكانت مثلا في مدرسة وخانقاة برقوق ، وجامع المؤيد شيخ تشغل مساحة شبه مستقلة خلف المنشأة في الجهة الغربية ، ويتوصل إليها من الأبواب التى تكتنف الإيوان أو الرواق الغربى ، وكانت هذه المساكن في مجموعات ضخمة يوضحها الوصف الوثائقي لها بعد ما تهدمت هذه المساكن، فقد كانت مساكن الطلبة والمتصوفة بمدرسة وخانقاة برقوق في أربعة رباع يتوصل إليها من البابين اللذين يكتنفان الإيوان الغربى فكان الباب الشمالى منها يؤدى إلى " ثلثه وأربعون بيتا منها عشرة بيوت سفلية لكل منها باب مقنطر يغلق عليه زوجا باب وبأحدها باب سر لإصطبل اليسرية، ويصعد إلى البيوت العلوية من سلم معقود بالبلاط الكدان وعدتها ثلثة وثلثون بيتا لكل منها شباك حديد ويغلق عليه زوجا باب مطل على إسطبل اليسرية وذات القناة الخالصة لذلك، والثانى تجاهه وعدة بيوته أربعة وستون بيتا كل منها معقود بالطين والجير مفروش بالبلاط سبل الجدر بالبياض منها ستة عشر بيتا سفلية يغلق على كل منها زوجا باب ، ويصعد إلى البيوت العلوية من سلمين كل منهما مشترك للبيوت المذكورة وما يقابلها وعدتها ثمانية وأربعون بيتا بغير شبابيك وذات القناة الخالصة لذلك ، والثالث تجاه الميضأة والمطبخ وغير ذلك سفله خمسة حواصل كبار أمامها دركاه يغلق على كل منها باب ، وكل منها معقود بالطين والأجر بوسط كل من العقود صولجان ، مفروش أرض ذلك بالبلاط ، مسبل الجدر بالبياض ، يعلوها بيوت الطلبة عدتها ستة وثلثون بيتا يتوصل إليها من سلمين مشتركين بين البيوت المذكورة وما يقابلها ، كل منها معقود بالطين والجير مفروش أرض ذلك بالبياض مسبل جدره بالبياض بغير شبابيك وذات القناة الخالصة لذلك ، والرابع عدة بيوته أربعة وعشرون بيتا كل منها معقود بالطين والجير مفروش بالبلاط ، مسبل الجدر بالبياض منها في السفل ستة بيوت كل منها باب مقنطر يغلق عليه زوجا باب ، ويصعد إلى البيوت العلوية من سلمين معقودين بالبلاط ،

كل منها مشترك للبيوت المذكورة وما يقابلها وعدتها ثمانية عشر بيتا على كل منها زوجا باب وذات القناة الخالصة لذلك[1] ويتضح من وصف هذه المجموعات الأربع الضخمة لمساكن الطلبة التى تشتمل على مئة وسبعة وستين غرفة خاصة بسكنى الطلبة أنه روعى فيها سهولة الإتصال والحركة بما زودها به المعمار من سلالم وطرقات والتهوية والاضاءة ، بالاضافة إلى الدقة والإتقان فى الإنشاء ، فهى مفروشة الأرض بالبلاط مسبلة الجدر بالبياض ، معقود سقفها ، كما أن لكل منها باب يتكون من مصراعين يزيدان من حرية التحكم فى غلق جزء من الباب وفتح أخر بطريقة مريحة. وهذا يشير إلى سلامة تصميم المعمار وبراعته فى إنشاء مجموعات سكنية مكثفة لنوعية من القاطنين تتميز بأن كل فرد من افرادها يعيش منفردا ، فقد كان طالب أو متصوف يعيش بمفرده فى الغرفة المخصصة له.

وكان اتساع هذه الغرفة الذى يبلغ فى المتوسط٣×٢,٥متر وما يتيسر لها من عناصر التهوية والاضاءة ، والاتصال والحركة ، والمرافق كالمراحيض وغيرها ، كل ذلك ساعد على راحة القاطنين فيها راحة تساعدهم على التعبد وتحصيل العلم ، رغم كثرة أعدادها والتى بلغت مئتين فى جامع المؤيد شيخ ، فقد جاء بوثيقة وقف الجامع التى أشارت إلى أن هذه المساكن كانت تقع أيضا غربى الرواق الغربى ، وأنها كانت برحبة مربعة بها مساكن " سفلية وعلوية عدتها مائتا بيت يشتمل كل بيت على باب وشباك "[2]

وقد وجدت هذه المساكن فى بعض المنشأت مكثفة فى ركن من أركان المنشأة مثال ذلك مدرسة السلطان برسباى - بشارع المعز لدين الله - فيستشف من وثيقة وقفها أن تربيعة الطلبة " كما تذكر الوثيقة كانت تقع بالركن الجنوبى الغربى من المدرسة ويلاحظ أثار امتدادات الجدران باقية فى هذا الوضع الذى توجد به حاليا دورة مياه حديثة وشغلت جزء منه مدرسة إبتدائية بنيت حديثا ، وكان يتوصل إليها من أحد الأبواب المطلة على

---

[1] وثيقة برقوق ٥١/ ٨ محكمة

[2] وثيقة وقف المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف

الصحن، وكان لها أيضا باب مستقل من الخارج هى والميضأة التى كانت تقع فى هذا الجانب مجاورة لتربيعة الطلبة [١].

وهناك من المساكن ما أنشئ على جانبى المنشأة الشمالى والجنوبى ، خلف الأروقة الشمالية والجنوبية مطلا على الخارج كما فى خانقاة فرج بن برقوق بالصحراء ، خاصة المساكن التى بالجانب الشمالى التى ترتفع ثلاث طوابق أحدها أرضى يتوصل إلى خلاويه من دهليز يؤدى إليه المدخل الرئيسى بالواجهة الشمالية عن طريق سلم هابط يؤدى إلى طرقة يطل عليها عشرة خلاوى من كل جانب ، أما الطابق الثانى الذى بمستوى أرضية الخانقاة، فيتوصل إلى الخلاوى فى الجانب الشمالى من طرقة نتجت من إمتداد سطح الخلاوى فى الطابق الأرضى وتراجع الخلاوى فى هذا الطابق ، بمقداره ١,٥ هو عرض هذه الطرقة ، أما صف الخلاوى المقابل فيفتح على الرواق الشمالى وجدارها الخلفى فى مواجهة الخلاوى سابقة الذكر. أما الطابق الثالث فيصعد إليه من سلمين ، سلم بكل طرف من الطرفين الشرقى والغربى للمجموعة ، ويصعد منهما إلى طرقة ، هى سقف الممر الفاصل بين خلاوى الجانبين فى الطابق الأرضى والثانى ، تحملها عقود [٢] وتفتح الخلاوى فى الجانبين على هذه الطرقة وتبين طريقة الاتصال بهذه الخلاوى فى هذه المجموعة براعة المعمار المملوكى الذى حل مشكلة الاتصال والحركة خاصة بالنسبة لخلاوى الطابق الثانى ، هذا بالاضافة إلى براعته فى إستغلال المطلات الخارجية فى تهوية وإضاءة هذه المساكن.

وفى بعض المنشآت الأخرى استغل المعمار الصحن المكشوف الذى يتوسط المنشأة فى إضاءة الخلاوى والمساكن بجعلها مطلة عليه ، ولعل أروع أمثلة ذلك ما نراه فى مدرسة السلطان قلاوون التى كانت تشغل الجانب الشمالى والجنوبى مساكن الطلبة ، ولم يكن بها أى اواوين فى هذين الجانبين فقد إقتصر تخطيط هذه المدرسة على الإيوان الشرقى (إيوان القبلة) والإيوان الغربى المقابل له ، وكذلك المساكن العلوية التى تعلو بيوت الطلبة فى هذين

---

[١] وثيقة وقف برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٤ .

[٢] سقطت هذه الطرقة وتهدمت العقود لكن ظلت مأخذها دالة عليها . كذلك تهدمت خلاوى الطابق الرابع حيث توجد أثاره تدل عليه

الجانبين الشمالي والجنوبي والتي يبلغ عددها حسب ما ذكرته وثيقة وقف المدرسة سبعة وعشرون بيتا ، وكان لبيوت كل طابق ثلاثة مراحيض خاصة بها وكانت جميع هذه البيوت المذكورة مفروشة بالبلاط مسبولة الجدر بالبياض وذات القنى الخالصة لذلك والاسطحة الكشف والمرافق والحقوق[1] ويشبه وضع مساكن مدرسة قلاوون ما وجد بخانقاة بيبرس الجاشنكير وخانقاة شيخو من مساكن مطلة على الصحن فى طوابق متعددة ومزودة بمراحيض خاصة فى كل طابق فى توزيع مدروس.

وهناك من المنشآت ما توزعت مساكنه توزيعا يجمع طلبة كل مذهب وشيوخهم فى وحدة شبه مستقلة بتخطيط يتوافق مع تخطيط المنشأة ككل ويحقق ما تحتاجه هذه المساكن من إستقلال ، مثال ذلك مدرسة السلطان حسن حيث أن كل ركن من أركان المدرسة الأربع خصصه المعمار لطلبة مذهب بعينه ، وكان تخطيطه يضم ديوان معد للصلاة ، وفناء مركزى يتقدمه بالإضافة إلى المساكن الخاصة بالفقهاء والطلبة والتى كانت تطل على الفناء مباشرة وبعضها يتقدمه طرقة يتوصل منها إلى بيوت الطلبة ، وتساعد على تهوية وإضاءة البيوت عن طريق غير مباشر من الفناء الأوسط عن طريق فتحات كبيرة توصل الضوء والهواء وضعت فى مقابل أبواب بيوت الطلبة التى تعلوها نوافذ صغيرة مربعة لتساعد على الإضاءة والتهوية ،هذا بالإضافة إلى استغلاله المطلات الخارجية فى عمل النوافذ أيضا لهذه المساكن وعناصرها المختلفة فى براعة وإحكام وتنسيق كامل به محافظة على السمترية فى الواجهات الخارجية للمدرسة وهذا يعنى أن المعمار كما وفر الإستقلال لمساكن الشيوخ عن مساكن الطلبة ، ووفر الاستقلال لمساكن طلبة كل مذهب على حدة عندما سمحت له المساحة والامكانيات والرغبة فى ذلك. وربما كانت مدرسة السلطان شعبان بهذا النظام حيث أنها تشتمل على تخطيط مماثل.

وإذا كانت المساكن بالمنشآت الدينية تختص بصفة رئيسية بالشيوخ والمدرسين والطلبة والمتصوفة ، فإنه كان للموظفين الآخرين فى بعض

---

[1] وثيقة وقف قلاوون ٦٠٧ ج

المنشآت الدينية حق فى سكن بعض بيوتها وقاعاتها فقد اشتملت منشاة قراقجا الحسنى على سكن الامام فقد حدث وثيقة وقفها أن البيت الموصل اليه من باب السر فإن الواقف المذكور فيه وقفه لسكنى من يكون اماما بالجامع المذكور [1] ويستفاد من الوثيقة أن هذا البيت كان فى الطابق العلوى ويعلو دركاه المدخل الرئيسى بالواجهة الغربية للجامع ، وأن باب السر المذكور كان فى الجانب الجنوبى ، ولكن للأسف تهدم هذا البيت ، ولكن من الوصف السابق يتضح ان هذا البيت كان يتمتع بنوع من الاستقلال فى الدخول إليه من باب السر. كذلك كان بجامع سودون من زاده الذى درس – منازل معدة "لإقامة المؤذنين والرؤساء " كما أن الواقف خصص رواق لسكنى بالجامع لمن يرى " الناظر إسكانه به من مدرس أو إمام أو غيرهما من أرباب الوظائف [2] وكان لخازن الكتب بمدرسة السلطان برسباى – بشارع المعز لدين الله – سكنا خاصا ملحقا بالمكتبة عبارة عن قاعة تستعمل إيوان ودورقاعة ومرحاض ، كما كان لمؤدب الأيتام فى مكتب السبيل ببعض المنشآت الدينية سكنا خاصا به يكون عادة قريبا من المكتب مجاورا له مثل ما كان عليه الحال فى منشأة الجمالى يوسف ، فقد ورد بوثيقة وقفها أنه كان بها " خلوة لطيفة من قرب المكتب المذكور برسم مؤدب الأطفال [3] وكذلك كان يلحق بالمنشأة الدينية سكنا لسواق ساقيتها يكون غالبا من وحدات الساقية [3] .

وتتحكم مساحة المنشأة وظروف إنشائها وإمكانيات المنشئ فى حجم المجموعات السكنية التى تتضمنها المنشأة ولذلك تنوعت هذه المساكن من منشأة إلى أخرى خاصة وأنه لا يوجد علاقة عددية بين ما يقرر بالمنشأة من طلاب متصوفة وبين من يقطن بها. ومما يشير إلى براعة المعمار المملوكى فى استغلال ماعلله يجده من مساحات لتوفير مثل هذه الأماكن الخاصة بالسكنى ، ما نراه فى بعض المنشآت من قاعات استغل فى إنشائها إرتفاع الأواوين ، فعمل فى الجزء العلوى منها قاعات يمكن أن تستغل للسكنى مثل

---

[1] وثيقة قراقجا الحسني نشر د. عبد اللطيف ابراهيم سطر ٩٦

[2] وثيقة وقف سودون من زاده ٥٨ / ١٠

[3] وثيقة وقف الجمالى يوسف ٤٦ / ٧

[3] وثيقة برقوق ٥١ ، ٨ محكمة ، وثيقة قرقماس امير كبير ص٥٤

ما وجد فى مدرسة متقال بالجمالية حيث نجد أن المعمار استغل كلا من الإيوانين الشمالى والجنوبى فى عمل قاعات تعلو هذه الأواوين. ومما يؤكد أن صغر مساحة المنشأة كان له أثره على ما وجد بها من وحدات سكنية، ما نراه فى مدرسة أيتمش البجاسى التى اقتصر عدد المساكن بها على " ثلاث طباق "وكان لصغر المساحة أثر على شكل السكن المخصص لشيخها ، فقد خصصت"طبقتين" لسكناه [1] فلم يتمكن المعمار لصغر المساحة من عمل قاعة كبيرة كتلك التى خصصت فى المنشآت الكبيرة " سكنا للشيخ ".

وقد وجدت ببعض المنشآت الدينية وحدات سكنية خاصة يستفيد منها المنشئ نفسه أو ذريته فقد خصص السلطان برقوق بمدرسته بالنحاسين – القاعة التى بالطابق العلوى المحصورة بين الإيوان الشمالى والقبة لأولاده وأولاد أولاده وذريته ونسله وعقبه ينتفعون بذلك فى السكن دون الإسكان[2] وخصصت القاعة فى الطابق السفلى فى هذه المنطقة للخدام ، وسميت بقاعة الخدام من الخصى ، والذين كانوا يتولون فيما يبدو خدمة من يقطن بالمدرسة من ذرية السلطان ويصف الموثق القاعة التى خصصت لسكنى أولاد السلطان برقوق وصفا دقيقا يصور الحالة التى كانت عليها بعد ما تغيرت أجزاء هذه القاعة نتيجة الإصلاحات والإستخدامات المختلفة فى العصور التالية بأنها كانت عبارة " عن رواق يشتمل على ايوانين مسقفين نقيا مدهونين كافوريا أحدهما به شباك حديد مطل على دور قاعة المدرسة المذكورة والإيوان به شباك مطل على دور قاعة الخدام وباب يدخل إلى سلم يصعد من عليه إلى تخانة حبيس بجوار المئذنة ، فيما بين الايوانين المذكورين دور قاعة بها باب يدخل منه مرحاض[3] كذلك جعل واقف زواية الفتح بجوار جامع التركمانى إحدى القاعات التى كانت بها مختصة بسكن إمرأة كانت زوجا للواقف تدعى "سمول ابنه الفقيه محمد ثابت . كما أنه خير الناظر فى جعل " طبقة " أخرى كانت مجاورة " طبقة " زوجته السابقة فى أن يجعلها " سكنا لأولاد الواقف أو أولاد

وثيقة أيتمش البجاسى ٣٤٠١١ مكرر أوقاف

وثيقة برقوق ٥١ ٨ محكمه

وثيقة وقف السلطان برقوق ٥١ ٨ محكمة

أولاده أو أحد من أرباب الوظائف أو يؤجر ذلك ويصرفه في مصالح الزواية، وهذا يعني أن المساكن التي كانت ضمن المنشآت الدينية كان يمكن أن تستغل كسكن خاص، إذا ما دعت الظروف إلى ذلك ، خاصة وأن هذه المساكن كان يمكن أن تصبح مستقلة عندما يعمل لها من أبواب تصلها بالخارج ، كما يفيد هذا النص في أن بعض هذه المساكن كان يمكن أن تؤجر ويصرف من ربعها على المنشأة [1] فقد كان هذا الأمر شائعا خاصة في المنشآت التي يجاورها أو يعلوها وحدات سكنية مثل بعض المساجد الأرضية، والزوايا وكانت زواية الفتح هذه يعلوها طابق خصصه الواقف لسكناه ووقفه على أولاده من بعده، فقد جاء بوثيقة وقف هذه الزاوية ما نصه " وأما القاعة التي هي أمام الفسقية والطبقة التي تعلوها والرواق الكبير الذي هو على المسجد المعروف ذلك بسكن الواقف المذكور فإن الواقف جعله وقفا شرعيا مرصدا لأولاده وأولاد أولاده وذريته ونسله وعقبه وكذلك يقدمون بالسكنى في ساير البيوت والخلاوى كما يقدمون في الوظائف على غيرهم [2].

ومن أمثلة تخصيص إحدى قاعات المنشأة الدينية كسكن خاص بالمنشئ ما وجد في منشأة جوهر اللاله - بالمصنع عند القلعة - فقد ذكرت وثيقة وقفها أن القاعة التي بالدهليز الذي يؤدي إليه الباب الشمالي بالواجهة الشرقية كانت " برسم سكن الواقف " ثم جاء بنص وقف هذه القاعة أن جوهر اللاله " أعدها لسكنه مدة حياته ثم من بعده تكون سكنا لمن يكون إماما بعد وفاته بالمدرسة المذكورة فيه " [3]

وتمتاز المنشآت الدينية بالصحراء باشتمال بعضها على وحدات للسكنى الخاصة مستقلة إلى حد ما ، ويتضح من تخطيطها أنها كانت لهذا الغرض قصدا ، وربما كانت لإستراحة المنشئ أو أقاربه وتابعيه عند زيارتهم لهذه المنشآت التي كانت تضم غالبا أضرحتهم ، فقد وجدت مثل هذه الوحدات

---

[1] وليس هذا بالمستغرب فقد كانت بعض المنشآت يبنى بها حوانيت تؤجر ويضم لربعها ليصرف منه على المنشأة الدينية مثل جامع قجماس الاسحاقي.

[2] وثيقة رقم ٧٥١ اوقاف

[3] وثيقة جوهر اللاله أوقاف ١٠٢١ وكان نص الوقف بهذا النص لأن جوهر كان خصيا ولم ينجب فخصص القاعة من بعده لمن يكون إماما بالمدرسة.

فى تربة القاضى عبد الباسط التى كانت بالصحراء[1] فقد كان بها قاعة ورواق يعلوها بالإضافة إلى مقعد قمرى وقفه القاضى عبد الباسط " على نفسه الكريمة حفظها الله مدة حياته ثم من بعده علي اولاده و ذريته و نسله وعقبة و عتقائهم يرتفقون بذلك في السكن عند مجيئهم الي المكان المذكور ثم من بعدهم لمن يكون ناظراعلىالوقف المذكور[2] وكان بمجموعة السلطان برسباى بالصحراء على الجانب الشرقى لشارع قايتباى – أيضا سكنا خاصا[3] فقد ذكرت وثيقة وقفه لهذه المنشآت ان الباب الثالث بالدهليز – الذى يتوصل منه إلى سلم يصعد من عليه إلى رواق يحوى إيوانين متقابلين مفروش الأرض بالبلاط ، مسقف نقيا ، مدهون ، به ثلاث خزاين ومطبخ وتخاين وحقوق ومرافق وسطح ذلك [4] وكان يوجد مجاورا لهذه الوحدة وحدة أخرى مماثلة خصصت لشاد الأوقاف – ضاعت وهى وسابقتها ولم يتبق إلا آثار جدرها تحت التراب – ووجود هاتين الوحدتين كان له أثر فيما يبدو فى وجود اسطبل ملحق أيضا بهذه المجموعة خصص لعشرة خيول كانت لتخدم ساكنى هذه الوحدات.

وقد وجدت مثل هذه ايضا فى مدرسة إينال ومدرسة قرقماس أمير كبير بالصحراء أيضا ، وقد أطلق موثق وقف قرقماس على هذه الوحدة إسم " القصر " وقد وجاء بنص وقف المدرسة أن قرقماس " وقف القصر والربع وما هو من حقوقهما لينتفع الواقف بذلك هو وأولاده وذريته وأخوه الجناب السيفى ألماس وذريته على حسب ما يراه الواقف فإذا انقرضوا ينتفع به من له دفن بالمكان المذكور [5] وهذا النص ، ونص وقف السكن الخاص بتربة القاضى عبد الباسط يؤكدانَ إستخدام هذه الوحدات كان بمن يأتوا إلى هذه المنشآت لزيارة القبور ، ويؤكد تبعا لذلك أثر إلحاق ضريح بالمنشأة الدينية على ما لعله يكون من وحدات مثل قاعات السكنى الخاصة هذه.

---

[1] درست هذه التربة ويتضح من وثيقة الوقف أنه كانت فى المنطقة المجاورة لخانقاة فرج بن برقوق عند مقابر الشهداء حاليا (وثيقة وقف القاضى عبد الباسط ٨٤ / ١٣

[2] وثيقة وقف القاضى عبد الباسط

[3] درست هذه الوحدات حاليا لم يتبق إلا موضعها خاليا.

[4] وثيقة وقف برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٢٤

[5] وثيقة وقف قرقماس ١٣٩ ص٦١

وكانت بعض المنشآت تشتمل بالإضافة على قاعات السكنى ، على وحدات للإستراحة مثل " المقعد " مثال ذلك المقعد الذى كان كافور قد أنشأه ضمن منشآته بالصحراء [1] وقد تضمنت وثيقة منشأته وصفا لهذا المقعد يعين علىتخيله فقد جاء بالوثيقة أن هذا المقعد " صفته أنه مركب على عواميد ستة إثنان منها رخاما وأربعة صوانا ذات أكتاف مبنية بالفص النحيت ، وأربع قناطر فيما بين ذلك خمسة أعمدة رخام مسقف ذلك دهانا وذات القناطر المذكورة المدهونة وهو مفروش الارض بالبلاط الكدان [2] كذلك كان يوجد بتربة القاضى عبد الباسط – كما ذكرنا – مقعد قمرى مجاور للرواق الذى يعلو القاعة الخاصة بالسكنى

ويبدو ان هذه المقاعد كانت لاستراحة صاحب المنشأة عند زيارته لها خاصة المنشآت التى تستوجب بعض الوقت عند زيارتها لاشتمالها على أضرحة كمنشآت الصحراء أو التى تقع خارج المدينة فى إحدى ضواحيها مثل جامع برسباى بالخانكة الذى كان ضمن الوحدات الملحقة به " مقعد "مستقل بذاته فى الجهة الجنوبية من الجامع وقد درس هذا المقعد ، ولكن وصف الموثق له يساعد على تصوره فقد وصفه بأنه " مقعد مسقف سكندريا محمول سقفه على عمودين بصدره ثلاثة شبابيك خشبية مطلة على بستان يعرف بإنشاء الواقف[3] فقد كان للسلطان برسباى بستانا يقع غربى هذا المقعد ، ويمكن تصور شكله من خلال هذا الوصف وبمقارنته خاصة بأحد المقاعد الباقية كمقعد "ماماى " بالجمالية.

وخلاصة القول ان هذه المساكن الخاصة والمقاعد كانت تنشأ لتفى بحاجات منسئ هذه المنشآت الدينية بالسكنى إذا احتيج إلى ذلك ، أوأنها كانت بمثابة إستراحات عند زيارة هؤلاء لمنشآتهم وما عساه يكون بها من أضرحة، وهو أمر يكشف عن التصور الكامل لدى المعمار المملوكى لكن ما كان يحتاج إليه من متطلبات فى المنشأة الدينية لدرجة يعمل على راحة ،

---

[1] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦ محكمة.وقد درست هذه الوحدات للأسف الشديد

[2] وثيقة وقف كافور الشبلى١٢/٧٦

[3] وثيقة وقف برسباى ٨٨٠ ص٣٩

زائرى هذه الأضرحة بما أنشأه من وحدات خاصة لسكناهم وما تبع ذلك من وجود عناصر الخدمة ومرافق فرض وجودها وجود مثل هذه الوحدات ورمز لهم مكانا للراحة إذا كانت سريعة لا تتطلب المبيت فيما عمله تستغل ايضا إذا طلب المقام للسكنى فى وقت الحاجة للجلوس بها.

ومما سبق يتضح أن وجود المساكن بنوعياتها المختلفة ضمن وحدات المنشآت الدينية يكشف عن إدراك المعمار المملوكى لوظائف هذه المساكن وحاجة المنشأة الدينية لها وتحقيقه هذا الغرض فى إقتدار وتكامل.

المطبخ :

يعتبر المطبخ من عناصر المنفعة التى ألحقت ببعض المنشآت الدينية المملوكية كالمدارس والخنقاوات والزوايا ، وقد راعى المعمار بصفة عامة إختيار موقعه قريبا من مصادر الماء بالمنشأة ولذلك وجد فى معظم الأحوال مجاورا للميضأة والفسقية وغيرها ولم يتبق للأسف بالمنشآت الدينية المملوكية نموذجا قائما يمكن دراسته وتحليله من الناحية المعمارية ، ولكن البديل عن ذلك ما جاء بوثائق وقف هذه المنشآت من نصوص تصف هذه المطابخ وتحدد وظائفها ومن خلال هذه النصوص نجد تنوعا فى أشكالها ووحداتها وطرق تغطيتها. فقد جاء بوثيقة السلطان برقوق الذى كان ضمن وحدات "مدرسته وخانقاته " نصه " يدخل منه إلى مطبخ كبير يصل إليه الماء من الساقية الآتى ذكرها وبصدر المطبخ إيوان لطيف وبه مسطبتان أحدهما للمشرف الخزان وذات الحقوق وبيت الأزيار[(١)] ومن هذا الوصف يتضح أن المطبخ كان يمكن أن يشتمل على إيوان ، وأنه كان يخزن به ما يحتاج إليه ، كما أن المطبخ كان من الوحدات التى تغذيها الساقية بالماء هذا يفسر ارتباط موقعها مجاورا عادة للميضأة التى يتوصل إليها الماء أيضا من الساقية كنوع من التسهيل فىتوصيل الماء إليه. وإذا كان المطبخ نموذجا متكاملا للمطبخ فى العصر المملوكى فإن هناك من المطابخ ما اختلف عن ذلك فى طريقة تغطيته كمطبخ قايتباى بالصحراء الذى يصفه الموثق بما نصه " باب من خشب نقى يدخل منه إلى مطبخ مسقف جمالونا به حاصلان تعلوه طبقة

(١) وثيقة برقوق ٨/٥١ محكمة

بمنافع وحقوق [1] وقد كانت تغطية المطبخ بالجمالون شائعة فيما يبدو فقد استخدمت هذه الطريقة أيضا فى تغطية مطبخ مجموعة السلطان برسباى بالصحراء فى الجهة الشرقية من شارع قايتباى والذى يعطى وصفه تفصيلا أكبر من مشتملات المطبخ فقد وصفه الموثق بما نصه " والباب السادس يدخل منه إلى مطبخ به مسطبة كبرى ونصبه كوانين وبيت أزيار وجملون غردا وحقوق [2] وهناك من المطابخ ما كان بدون تغطية كالمطبخ بمجموعة قرقماس بالصحراء الذى وصفه الموثق بأنه "مطبخ كشف[3]

ونظرة فاحصة لهذه الأوصاف نجد أن المعمار المملوكى زود المطبخ بعناصره المختلفة التى تيسر على الطباخ عمله على خير وجه فنصبه الكوانين هى بمثابة الموقد الذى يطهى عليه الطعام ، ولما كان الوقود المستخدم يتخلف عنه كمية كبيرة من الدخان فإن المعمار استخدم أنسب أنواع التغطية فى المطبخ التى تزيد من حجم الفراغ وتيسر عمل فتحات لتصريف الدخان كالقبو الذى شاع استعماله ، والمسطبة الكبيرة يستخدمها فى المطبخ الحديث ، وكبر حجمها يتلائم والأوانى التى يعد فيها الطعام لأفراد عدة ، وبيت الأزيار يوفر الماء اللازم للطهى من معين ثابت ، والحواصل لتخزين ما لعله يخزن بالمطبخ من مواد غذائية أو أوانى للطهى أوغير ذلك بل أن المعمار لم يفته أن يوفر أسباب الراحة للعاملين فى المطبخ فوفر المساطب ليستريح عليها مشرف التخزين وغيره فى مطبخ مدرسة وخانقاة السلطان برقوق. ومما يدل على الإدراك الواعى للمعمار أنه جعل المطبخ كذلك سهل الإتصال بما يحتاج إليه من ماء وتصريف من جهة بالإضافة إلى قربه وسهولة اتصاله بمساكن القاطنين بالمنشأة من جهة أخرى ، بل إن بعض قاعات المدرسين كان لها مطبخا منسوبا إليها فقد جاء بوثيقة وقف السلطان قلاوون ما يشير إلى ذلك ما نصه " وعلو هذه المواضع مطبخ القاعة التى برسم سكنى المدرس بالمدرسة المذكورة أعلاه [4] وقد حرص الواقفون على نظافة المطبخ وتخليصه أولا من مخلفاته فقد عين برقوق بمدرسته وخانقاته

---

[1] وثيقة قايتباى ٨٨٦ اوقاف ص٢٨

[2] وثيقة السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف

[3] وثيقة قرقماس امير كبير أوقاف ص٥٥

[4] وثيقة قلاوون ٧٠٦ ج أوقاف

شخصا من مهامه نقل ما بالمطبخ من الزبالة والأوساخ على دواب يقيمها من جهته على العادة فى ذلك ويصرف له فى كل شهر ثلثون درهما نفره ما هو عن نقل الزبالة والوسخ بالمطبخ (١)

وتحدد وثائق الوقف وظيفة المطبخ ووحداته تحديدا دقيقا فقد جاء بوثيقة مدرسة وخانقاة برقوق ما نصه "وأما المكان الذى ذكر أنه مطبخ فإنه وقفه لطبخ الطعام "على العادة ذلك وحفظ ما به من آلات الطبخ والأمتعة وغير ذلك(٢) وهذا يعنى أن المطبخ لم يكن يستعمل كمكان لتناول الطعام ، ولكن تناول الطعام كان يحدث فى أى أماكن بالمنشآت فقد ورد بوثيقة وقف الناصر محمد ما نصه " ومن شرطه أن يطبخ هذا اللحم مضافا للأربعين رطلا المذكورة فى كتاب الوقف الأول فى كل يوم مرة واحدة وتمد سماطا للفقراء المستقرين والواردين يجتمعون عليه بعد العصر فى أى مكان إختاره شيخ الخانقاة المذكورة (٣) وهناك من المنشآت ما خصص فيها مكان لمد السماط كمدرسة قرقماس أمير كبير فقد جاء بوثيقة وقفه مانصه " والباب الرابع دور القاعة يدخل منه إلى دهليز لطيف به باب مغلق عليه زوج أبواب يدخل منه إلى مربع يرسم من السماط به أربع فساقى فى تخوم الأرض برسم دفن الأموات وبه خمس شبابيك حديد مطلة على الحوش الكبير أعلاه يعلوها ثلاث شبابيك خرك برسم النور يغلق على كل شباك منها زوجا باب ويجاور بعض الشبابيك المذكورة منه إلى سلم مبنى بالحجر ينزل منه إلى الحوش المذكور يقابل الشبابيك المذكورة شباكان حديدا فيما بينهما باب يعلوه شباك خشب يكتنفه ويكتنف الباب المذكور جلستان لطيفتان وبه طراز مذهب يغلق على الباب المذكور زوج أبواب (٤)

وكما يتضح من وصف هذا المكان نجد أنه استغل لوجوه أخرى بباطن أرضه فساقى للدفن ، كما أنه يعتبر صالة اتصال لأجزاء أخرى من المنشأة كالحوش والقبة ولكن المعمار أعده فى نفس الوقت لاستخدامه لهذا

---

(١) وثيقة برقوق ٥١/٨

(٢) وثيقة برقوق ٥١/٨ محكمة

(٣) وثيقة الناصر محمد ٢٥/٤ محكمة

(٤) وثيقة قرقماسس أمير كبير أوقاف ص٤٦.

الغرض فحرص على سهولة الاتصال به وإضاءته.وجنب المنشأة بذلك استخدام أى موقع إخر بها الغرض بتوفير هذا المكان.

السبيل والكتاب :

كان السبيل والكتاب من عناصر الإنتفاع التى وجدت غالبا ملحقة بالمنشآت الدينية المملوكية ، وكانت عمليات تزويد القاهرة بالشرب فى ذلك العصر الذى لم تكن تمتد فيه شبكات المياه من العمليات الهامة التى شاركت فيها الأسبلة بدور هام ، حيث كان انتشارها بأعداد كبيرة سواء كانت مستقلة ، أو ملحقة بالمنشآت الأخرى ، وكانت هذه الأسبلة مصدرا يرد إليه الناس للشرب[١] وقد ألحقت هذه الأسبلة بالمنشآت المملوكية الدينية إبتغاء وجه الله الكريم ، ورغبة فى تطبيق سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه رضى الله عنهم[٢] ويزودون مدينتهم بالماء اللازم للشرب من مصادر عامة يستفيد منها المارة سواء من سكان المدينة أو زوارها[٣] فيكون لهم أجر خير من ذلك فى الجنة ، وقد ارتبط غالبا إلحاق السبيل بالمنشأة الدينية فى العصر المملوكى التى أنشئت هى الأخرى إبتغاء لوجه الله.

ولما كان السبيل من الوحدات التى ينتفع بها المارة فى شوارع القاهرة، فقد روعي فيها أن تطل على هذه الشوارع ، ولذلك نلاحظ أن هذه الأسبلة دائما تشكل جزء من أجزاء الواجهة الرئيسية للمنشأة ولذلك يمكن أن نقول أن إلحاق السبيل بالمنشأة الدينية كان له علاقة وثيقة بتخطيط المنشأة الدينية المملوكية ، ويمكن القول بأن التخطيط المتعامد كان من أنسب

---

[١] كان هذه الأسبلة بصهاريجها تدخر كمية كبيرة من الماء ، حتى أن صهاريج المنشآت الدينية كان يستعان بها أحيانا واكثر من غيرها فى إطفاء الحرائق الخطيرة التى كانت تحدث بمدينة القاهرة (ابن تغرى بردى النجوم ج٩ص٦٥).

[٢] فقد روى عن عثمان رضى الله عنه أنه قال " ان النبى (ﷺ) قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة ، فقال من يشترى بئر رومة فيجعل دلوه فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى وجعلتها للمسلمين (راجع ابن حجر فتح البارى لشرح صحيح البخارى ط مصر ج٥ ص٢٦٥)

[٣] وجد ما يشبه ذلك فى العصر الفاطمى بالنسبة للمشاهد الفاطمية فقد كان يطلق لكل مشهد خمسون درهما برسم الماء لزوارها وكان الاهتمام بسواقى السبيل بالقرافة والنفقة عليها حتى تستمر فى رفع الماء فلا تخلو المصانع والأحواض من الماء أبدا، ولا يعترض أحد من الانتفاع به (القلقشندى صبح الأعشى ج٣ ص٤٩).

التخطيطات التى ساعدت على إحتواء السبيل فى إنسجام ضمن أجزاء الواجهة الرئيسية للمنشاة الملحق بها. كذلك فإننا نجد ان مساحة السبيل وطريقة إنشائه تأثرت بمساحة المنشاة وطول واجهتها المطلة على الشارع تبعا لذلك خاصة وان هذه الواجهة كانت تضم كذلك واجهة الضريح الذى كان غالبا ما يلحق بالمنشأة الدينية ،وواجهة أحد أواوينها المطلة على الشارع بالإضافة إلى المدخل الرئيسى المؤدى إلى المنشأة.

كذلك أثر على تخطيط السبيل موقع المنشأة نفسه التى يلحق بها السبيل ، والموضع الذى يوضع به السبيل ضمن وحدات المنشأة ، فإذا كانت المنشأة تطل بواجهة واحدة على شارع واحد كان للسبيل نافذة واحدة تتسع أكبر اتساع ممكن ، واذا كانت تطل على شارعين فإنه يمكن عمل نافذتين للسبيل ، وإذا كانت على ثلاثة شوارع أمكن عمل ثلاث نوافذ للسبيل[1] ولذلك يمكن القول بأن السبب الرئيسى وراء إختلاف اشكال وتخطيطات الأسبلة المملوكية ضمن المنشآت الدينية ، راجع إلى اختلاف ظروف الموقع وظروف إنشاء المنشات نفسها بغض النظر عن أى إعتبار اخر.

وإذا كانت الأسبلة قد وجدت عادة ملحقة بالمنشآت الدينية المملوكية فإن هناك نوعيات مختلفة من الأسبلة التى أنشئ بعضها ملحقا ببعض المنشآت المدنية ، أو التى أنشئت منفصلة بذاتها [2] ومن الخطأ ان نقطع بان أى نوع منها كان تطورا عن النوع الأخر أو أسبق زمنا منه بالحكم على ما تبقى منها لأن الدارس منها يشير إلى تعاصر النوعيات المختلفة حسبما تشير الوثائق التى وصلتنا ولا يمكن حصره على وجه التحديد والدقة.

ويتكون السبيل من وحدة معمارية عبارة عن حجرة مربعة أو مستطيلة ، قد يلحق بها إيوان صغير أو حواصل وتفرش أرضيته غالبا بالرخام ويعلوه سقف خشبى مسطح ، توضع به أحواض الماء فى أرضية نوافذ السبيل ، أو أن المزملاتى القائم بعملية تسبيل الماء بملء الأوانى ووضعها بالنوافذ ، وقد وجد ببعض الأسبلة " شاذوران " عبارة عن لوح

---

(1) كافور الشيلى ١٢/٧٦

(2) وثيقة وقف السيفى إينال الأبوبكرى ١٥/٩٤ محكمة وثيقة جمال الدين الأستادار ١٧/١٠٦ وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦

رخامى أو حجرى حفرت به قنوات وهذا الشاذروان يوضع مائل يجرى الماء من عليه إلى حوض أو فسقية تملأ منها أوانى الشرب . التى توضع بنافذة السبيل . وكان يوجد أسفل السبيل صهريج كبير لتخزين الماء الذى ينقل إليه من النيل ليسبل منه طوال العام وهذا الصهريج له غالبا فتحتان فتحة خارجية يتزود منها بالماء وفتحة بأرضية السبيل الذى يعلو الصهريج يؤخذ منها الماء، وقد تكون له فتحة أخرى مثل الفتحة التى بالسبيل وبأرضية المزملة التى تكون غالبا مجاورة للسبيل ، ويغطى فتحة السبيل أو فتحة المزملة خرزة رخامية توضع على فوهة الفتحة لإحكام غلقها واستغل المعمار المملوكى الإمتداد الرأسى للسبيل الذى يرتفع ارتفاع طابق واحد فى بناء الكتاب الذى يعلو السبيل الذى يكون ارتفاعهما معا مساو لإرتفاع واجهة المنشأة الدينية فتنسجم واجهات الوحدات المختلفة فى واجهة واحدة ونظرا لإرتباط الكتاب بالسبيل غالبا وجدت تسميته " الوثائقية " مكتب السبيل "

واذا كان هذا هو الشكل العام للأسبلة ضمن المنشآت الدينية المملوكية، فإن معظم هذه الأسبلة فقدت الصورة الأصلية لها لإستخدمها فى أغراض مختلفة فى عصور تالية ولذلك فإننا نحاول دراستها من الناحية الوظيفية بالإستعانة بما ورد بوثائق الوقف المملوكية من أوصاف دقيقة بالإضافة إلى ما تبقى من نماذج.

ومن أكمل النصوص الوثائقية التى تبين الشكل المتكامل الذى كان عليه السبيل المملوكى بالمنشأة الدينية المملوكية ما جاء من وصف بوثيقة وقف السلطان فرج بن برقوق للسبيل الملحق بمسجده ، تحت الربع نصه : "والباب الموعود بذكره أولا وهو الذى بالدهليز الأول (الذى يؤدى من المدخل إلى داخل المسجد) الذى على اليسرة مربع عليه باب من الخشب المدهون المغلف بالنحاس المذهب والكتايب المذهبة بعتبة سفلى مرخمة وعليا حجرا من حجر الماء ، يدخل من الباب المذكور إلى حانوت السبيل ، وهو رواق مربع مفروش الأرض بأصناف الرخام الملون النفيس المثمن بوزرة دائرة بها ألواح كبار من نفيس الرخام من السماقى والزرزورى والمرسينى والشحم واللحم وغير ذلك ، وبه على اليمنة شاذروان مذهب بسلسال مذهب يعلوه قوصرة بدق الرخام الملون والفصوص الملونة والنحاسين المدهشة به عدة

من السباع المعمولة من النحاس المموه بالذهب المعمول برسم الماءعلى الشاذروان وأن سفل الشاذروان المذكور صحن من المرمر الأبيض برسم الماء ويعلو ذلك كله أنواع النقوش المنشرحة برؤيتها النفوس ، وبجانب الحانوت المذكور شباكان كيزان بسلاسل غلاظ من النحاس المذهب أحدهما مطل على الطريق من الجهة القبلية ، والثاني مطل على الطريق مقابلة لبابي زويلة فيه باب صغير وفي هذه الجهة يسبل الماء ويجلس السقاء ، وأمام كل شباك منهما الحجر المحمول على الكباش الحجر البارزة المعدة لوضع الأواني ويغلق على كل من الشباكين المذكورين زوجا باب خشب مدهون بالدهان والتذهيب وهو مسقف بالسقف المقرنص وفي هذا الحانوت من حسن الصناعة والتذهيب والرخام والتصويق ما يسر النفوس برؤيته ويذهب بالظمأ بهجته ، وقد زاد بالحسن والاحسان واستقر به البر طول الزمان ، وبسفل ما جاوره بنا الصهريج المبني في تخوم الأرض بالطوب الآجر والمونة المحكمة المعد لإستقرار الماء به [1].

ثم يحدد الموثق وظيفة كل عنصر من عناصر السبيل فيذكر ان " الصهريج المذكور بأعاليه فإنه وقفه لإستقرار الماء الحلو المحمول إليه من بحر النيل المبارك ليسبل على المسلمين أسوة أمثاله من الصهاريج ، والحانوت المذكور أعلاه الموصوف أيضا بأعاليه فإنه أوقفه لوضع الأدوات المعدة لتسبيل الماء واستقرارها به من الأزيار والكيزان وغير ذلك ، وأن يسبل الماء طول النهار وطرفي الليل في شهر رمضان ولجلوس السقا لذلك أسوة أمثاله من حوانيت السبيل ويزيد غسلها [2]

ومن هذا الوصف يتضح أن هذا السبيل ، كان أسفله صهريج مبنى في تخوم الأرض بالآجر والمونة المحكمة ، ويعلو الصهريج السبيل نفسه الذى إعتنى بترخيمه وله شباكان مطلان على الخارج يتقدم كل منهما موضع الكيزان[3] التي تربط بسلاسل في قضبان شباك السبيل ، وكان به شاذروان يعلوه قوصرة أسفلها رؤوس سباع يخرج منها الماء إلى الشاذروان ليصب في

---

[1] وثيقة فرج بن برقوق ٦٦/١١ محكمة

[2] وثيقة فرج بن برقوق ٦٦/١٢ محكمة

[3] تطلق بعض الوثائق على هذا الموضع " محط الكيزان " وثيقة قجماس ٦٧٠ أوقاف.

صحن مرخم[١] فيأخذ منه السقاء ويسقى المارة ويشير الوصف كذلك إلى انه كان من بين أدوات السبيل الأزيار[٢] التى كانت تملأ غالبا بالماء ليستخدم فى الشرب خاصة بعد ملئها من الماء الذى ينشل من فتحة الصهريج التى تتوسط السبيل وكان الذى يقوم بهذه المهمة المزملاتى.

وقد وجدت ببعض الأسبلة عناصر أخرى مثل ما كان فى سبيل جامع قجماس بالدرب الأحمر – الذى ألحق به " بيارة " أعدت لنشل الماء فيها من الصهريج المذكور ، ومنها إلى حوض لطيف بجوار البيارة يجرى منه فى قصبة من رصاص إلى حوض تلقى رصاصاً...به قصبة رصاصا يجرى منه الماء إلى شاذروان السبيل وفسقيته المقدم ذكرها أعلاه ليقرب الماء للناس للتسبيل [٣] ولكنها عناصر إن اختلفت من سبيل إلى اخر فيكون سبب اختلافها طريقة توصيل الماء عنذ نشله من فوهة الصهريج إلى الموضع الذى يسقى منه الماء سواء كان الحوض بأرضية نافذة السبيل أو الفسقية التى توجد بالسبيل نفسه أسفل الشاذروان والذى تملأ منها كيزان السبيل ،ليشرب المارة منها لكن الغالب كما تشير وثائق الوقف المملوكية ان كل سبيل كان يوجد تحته صهريج مبنى فى تخومُ الأرض ينشل منه الماء إلى أحواض السبيل ويسقى على المارة .

وكان الصهريج مبنى فىتخوم الأرض لتخزين الماء طول العام ، وللأسف فإن معظم صهاريج المنشآت الدينية المملوكية قد ضاعت معالمها، أو ردمت خوفا من أن تجلب الأمراض بعد إهمال استخدامها ، ولكنها كانت فى الغالب كبيرة الحجم لتسع كمية كبيرة من الماء تكفى للتسبيل بها طوال العام ، ولذلك كان الصهريج غالبا يمتد أسفل السبيل وما جاوره من وحدات فقد أكدت ذلك وثيقة وقف فرج بن برقوق التى ذكرت ان الصهريج كان أسفل

---

[١] هذا الصحن عبارة عن فسقية صغيرة كما هو الحال فى سبيل قجماس وسبيل مدرسة برسباى بشارع المعز لدين الله.

[٢] وجدت ببعض الأسبلة أماكن لوضع الأزيار تسمى مزيرة مثل سبيل مدرسة برسباى وقد نقل من مدرسة صرغتمس زير رخامى إلى متحف الفن الأسلامى.

[٣] وثيقة وقف قجماس الاسحاقى ٦٧٠ أوقاف

الوحدات المجاورة [١] ايضا بل أن بعضها كان يمتد فى الشارع التى تطل عليه المنشأة ، كما كان الحال عليه فى صهريج سبيل تربة القاضى عبد الباسط التى كانت بالصحراء حيث ذكرت وثيقة وقفها أن هذا " الصهريج مبنى فى تخوم الأرض بارز فى الطريق عن سمت البنا المذكور [٢] ولكن لم يكن ذلك مباحا فى كل الشوارع ولكنها فى الشوارع غير النافذة التى تقع فى ملك المنشئ كما هو الحال بالنسبة لهذا الصهريج فقد كان يمتد فى الشارع الذى تطل عليه التربة وكان غير نافذ وكانت التربة أخر منشاة به كما تشير إلى ذلك الوثيقة .

ومن الصهاريج الباقية التى يمكن أخذها نموذجا لدراسة صهاريج الأسبلة المملوكية صهريج سبيل جامع برسباى بالخانكة فقد قامت لجنة حفظ الآثار العربية بتنظيفه وترميمه سنة ١٩٤٤ ضمن ما أجرته من إصلاحات بالجامع ، فهذا الصهريج يقع فى تخوم الأرض أسفل السبيل وما جاوره من وحدات ، وله فوهتان أحداهما بالركن الشمالى الغربى للسبيل، والثانية بالمزملة التى تشغل الإيوان الصغير المطل على الدهليز المؤدى من المدخل إلى صحن الجامع مجاوره للسبيل المذكور ، ومن هذه الفوهة الثانية ينزل إلى الصهريج بواسطة منزل إسطوانى الشكل ذو مسقط مستدير بجداره من الداخل مواضع لأقدام الهابط إلى الصهريج ، ويبلغ إرتفاع هذا المنزل من أرضية الصهريج وحتى أرضية المزملة ٩ متر ، ويؤدى هذا المنزل إلى فتحة معقودة فى جانبه الشمالى تؤدى إلى حجرة مستديرة المسقط يبلغ قطرها ٣,٣٠ متر يكسو جدارنها طبقة من الملاط " الغافق " وترتفع مقدار متر لتصبح على هيئة القبة ، ويبلغ إرتفاعها من الأرضية إلى قطب القبة ٤,٥ متر ، ويوجد بالجانب الشمالى لهذه الحجرة فتحة معقودة بعقد مدبب يبلغ اتساعها ربما ٩سم ، تؤدى إلى حجرة ثانية ، مستديرة المسقط أيضا يبلغ قطرها ٤,٣٥متر ، وبنفس إرتفاع الحجرة السابقة ، ومغطاة أيضا بقبة مماثلة، بجانبها الشرقى فتحة معقودة مدبب يبلغ اتساعها ١,٤ متر وسمك الجدران

---

[١] وثيقة وقف فرج بن برقوق ١١/٦٦

[٢] وثيقة وقف القاضى عبد الباسط ١٣/٨٤

من خلالها متر واحد ، وتؤدى هذه الفتحة إلى حجرة ثالثة مستديرة المسقط كذلك ، يبلغ قطرها ٥ متر بجانبها الشمالى حنية عميقة نصف مستديرة يبلغ إتساعها ١,٨٥ متر وعمقها ١,٢ متر ، ويوجد بجانبها الجنوبى ايضا فتحة معقودة بعقد مدبب ، يبلغ إتساعها ١,٤٠ متر وسمك الجدران من خلالها ٧٠ سم تؤدى إلى حجرة رابعة مستديرة المسقط كذلك، بجانبها الشرقى حنية تشبه حنية المحراب ، يبلغ إتساعها ١,٣٠ متر وعمقها ٧٠ سم وإرتفاعها ٣,٥٠متر ويلاحظ أن قباب هذه الحجرات معقودة بالآجر ويكسوها الملاط.

ومن هذا الوصف يتضح أن الصهريج كان كبيرا ليتسع لكمية من الماء تكفى للتسبيل طوال العام ، ويساعد على حفظ الماء به جيدا طول العام كون أن الصهريج بباطن الأرض بعيدا عن الضوء والحرارة اللذان يساعدان على نمو بعض أنواع البكتريا التى قد تفسد الماء ، فالصهريج بهذا الشكل يعتبر بئر صناعى لحفظ ماء النيل العذب فيه ، كما ان إحكام بناء جذران الصهريج لا يسمح بتسرب المياه الأرضية إليه أو اختلاط ماء النيل به بطينة الأرض ذاتها ، مما يؤثر على بقاء الماء صالحا للشرب ، كذلك فإن إحكام غلق فوهة الصهريج بخرزات رخامية وهى قطع رخامية مستديرة تركب على حلق يعلو فوهة الصهريج ليمنع تسرب أى شوائب لماء الصهريج هذا بالإضافة إلى الإجراءات الصحية الأخرى التى كانت تعمل كل عام عند ملئ الصهريج من غسله وتنظيفه وتبخيره كل ذلك كان يساعد على بقاء الماء صالحا للشرب طوال العام . فقد كان الصهريج يزود بماء النيل كل عام وينقل إليه الماء بالوسائل المختلفة كالدواب والجمال [1] وغيرها وكان الصهريج يملا بواسطة فتحة خارجية عبارة عن حوض صغير يجرى الماء منه عبر قناة من خلال الجدران إلى داخل الصهريج وهذه الفتحة تكون فى مستوى أعلى من مستوى الصهريج حتى يمتلئ الصهريج عن آخره ، وقد وجدت هذه الفتحة فى صهريج برسباى بالخانكة فى مستوى أقل بقليل من مستوى أرضية السبيل التى تعلو سقف الصهريج نفسه مما يؤكد مانقول، وذكرت وثيقة فرج بن برقوق ما يشير إلى وجود فتحة مماثلة بصهريج السبيل الملحق بمسجده

---

[1] وثيقة وقف برقوق ٨/٥١

تجاه باب زويلة [1] كذلك فإن الفتحات التى تصل بين حجرات الصهريج كانت تسمح بمرور الماء إلى جميع الحجرات حتى تمتلئ جميعا بالماء كما أنها تساعد على تنظيف هده الحجرات عند النزول إليها كل عام لتنظيف الصهريج وغسله وتبخيره .

وكان لبعض الصهاريج فوهة واحدة تلك التى توجد عادة فى أرضية السبيل ينشل منها الماء للتسبيل ، ويوجد للبعض الأخر فتحتان واحدة بالسبيل وأخرى بالمزملة المجاورة للسبيل تستخن فى تزويد المزملة بالماء ، ولعل وجود الصهريج اسفل السبيل والمزملة ، وما قد يكون مجاورا لذلك من وحدات معمارية ، أثره فى علاقة التجاور التى نشاهدها عادة بين السبيل والمزملة فى كثير من المنشآت الدينية المملوكية مثل مدرسة برقوق بالنحاسين وخانقاة ابنه فرج بالصحراء ومدرسة برسباى بشارع المعز لدين الله – وجامع برسباى بالخانكة وغيرها من المنشآت التى يتجاور فيها السبيل والمزملة لأن كل منها يتزود بالماء من الصهريج اسفل كل منها عن طريق فوهة تغطيها خرزة رخامية فى كل منهما وكانت الصهاريج تبنى عادة لتزويد السبيل الذى يعلوه بالماء التسبيل ، ولكن ماءها استخدم خاصة فى منشآت الصحراء البعيدة عن مصادر الماء فى الشرب والوضوء والاستعمال[2] بل ان بعضها انشئ لغرض تزويد المنشأة فقط بالماء للاستعمال بغض النظر على التسبيل فى االأسبلة مثل صهريج السبيلين الملحقين بالمنشأة بل إن الحاجة إلى الماء فى هذه المنطقة ربما كان وراء تضمين المنشأة اكثر من سبيل مثل خانقاة فرج بن برقوق وخانقاة برسباى بالصحراء.

وكان السبيل يشتمل فى بعض الاحيان على مزيرة توضع بها أزيار تملأ بالماء بالإضافة إلى بعض الأدوات الاخرى المستخدمة فى نشل الماء وتسبيله كالدلاء والاسطال والطسوت والطاسات والأباريق والجرار وغيرها[3] وكان يوجد ببعض الأسبلة أماكن لحفظ هذه الأدوات وأدوات تنظيف السبيل ومسحه ، إذ ان السبيل نتيجة نشل الماء يحتاج إلى المسح

---

[1] وثيقة فرج بن برقوق ١١/٦٦ محكمة

[2] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦

[3] وثيقة وقف كافور الشبلى ١٢/٧٦ محكمة

والتنظيف من وقت الى اخر . وكان الم ملاتى يقوم على حواض السبيل التى توجد بارضية النوافذ فى عصر الاسنه و السقيه التى تتوسط السبيل. ويملأ منه الكيزان التى توضع عند لسبيك على محط الكيز ـ وهو عبارة عن لوح حجرى او رخامى محمول على كوابيل حجريه او رخاميه كانت هذه الكيزان تربط بسلاسل من نحاس فى قضبان الشبابيك حتى لا تتعرض للضياع ، وكان لاستخدام نوافذ السبيل فى كل ذلك أثره على اتساع هذه النوافذ قدر الإمكان فإن هذا الاتسـاع يساعد على وضع الأحواض بأرضيتها [1] ويمكن من وضع أكبر عدد من كيزان الشرب على الحوامل التى تتقدمها ، كما أنه يساعد على إضاءة وتهوية السبيل الذى يتعرض للبلل ويحتاج إلى الهواء لتجفيف أرضياته بالإضافة إلى مسحه من وقت إلى أخـر ، وامام الحاجة إلى هذه النوافذ كانت الرغبة فى تضمين السبيل ما يمكن عمله منها به ، وكان الحرص على ان يقع السبيل فى واجهة المنشأة، أو فى الركن الذى تتلقى فيه واجهتان حتى يمكن عمل نافذتين وكان يعمل له ثلاثة نوافذ إن كان ما جاوره خاليا [2] ومع كثرة هذه النوافذ كانت بعض الاسبلة تتعرض للشمس فى فصل الصيف ، مثل سبيل الغورى بالغورية ، ولكى يتجنبوا حرارة الشمس عملت له مظلتان "سحابتان" من قماش يضعها المزملاتى أمام نافذتى السبيل عند تعرضه للشمس فى وقت الصيف خاصة.

المزملة :

إذاكان السبيل الملحق بالمنشأة الدينية لخدمة العامة من المارين بالشارع الذى تطل عليه المنشأة ، فإنه أنشئت بالمنشآت الدينية وحدة معمارية تعتبر من عناصر الإنتفاع العامة ، تقوم بوظيفة السبيل لمن بداخل المنشأة ، توضع بها أوانى الشرب تسمى " المرملة " وهى غالب عبارة عن إيوان صغير يبلغ مساحته فى المتوسط ٢.٥ × ٢ متر وتوضع به اوانى الشرب ، ويتولى احد الأفراد تسبيل الماء على من بداخل المنشأة يؤكد ذلك ما جاء ببعض وثائق الوقف المملوكية . فقدجاء بوثيقة وقف مدرسه برقوق بالنحاسين أن المرملة برسم الماء العذب المحضر الى المدرسة المذكورة من بحر النيل

[1] وثيقه القاضى عبد الباسط ٨٤ ٠٣٠ وثيقه قايتباى ٨٨٦
[2] وثيقه وقف كافور الشبى ٨٦ ٠٢

المبرك برسم شرب المقيمين بالمدرسة المذكورة وأرباب الوظائف بها والواردين اليها وحفظ ما بها من الأزيار والة الإستسقاء على العادة فى [illegible] وجد بوثيقة وقف منسب للسلطان برسباى ان مدرسه بالاشرفية بها مزملة تشغل الإيوان الذى يطل على الدهليز المؤدى إلى صحن المدرسة من المدخل الرئيسي ، وأن هذه المزملة يرسم وضع الماء بها للتسبيل ، بها فوهة الصهريج الثانية [2] كذلك وجدت مزملة بجامعه بالخانكة تطل على الدهليز الموصل إلى صحن الجامع فقد ذكر الموثق أنه " على يمين الداخل مزملة بواجهة خشبا خرطا مأمونيا بها خرزة رخاما مركبة على فوهة الصهريج المذكور[3] كذلك ذكرت وثيقة وقف منشأة جوهر اللالا بالمصنع عند القلعة – أنه " على يمنة السالك فى دهليز المدرسة مزملة برسم الأزيار بواجهة مأمونى خرطا[4] كذلك ذكرت وثيقة جامع قجماس ، أن الدهليز الموصل إلى صحن الجامع به " مزملة أعدت لإستقرار أوانى ماء الشرب[5] كذلك أشارت وثيقة وقف مدرسة قرقماس إلى أنه يوجد " تجاه الداخل فى الدهليز مزملة بواجهة خشبا خرطا بها زوج أبواب" [6] كما وصف موثق وثيقة وقف مدرسة قايتباى بالصحراء المزملة التى تطل على الدهليز أيضا بأنها " مزملة بمقصورة خشبا خرطا مأمونيا يغلق عليها زوجا باب يعلوه تاريخ مذهب محشاة باللازورد يعلوها مقرنص به الوردة المتقدم ذكرها أعلاه معدة هذه المزملة لاستقرار أوانى الماء الحلو للتسبيل لكافة الناس. [7]

ومن هذه النصوص يتضح أن المزملة كانت ليشرب منها من بداخل المنشأة ، وكانت تطل غالبا على الدهليز المؤدى إلى صحن المنشأة ، مجاورة لذلك فى بعض الأحيان للسبيل ، بل إن لبعضها فوهة بالصهريج أسفل السبيل وما جاوره من وحدات ، وتأخذ ماءها عن طريق هذه الفوهة ، وكانت توضع

---

(1) وثيقة وقف برقوق ٨/٥١

(2) وثيقة برسباى ٨٨٠ ص١٢

(3) وثيقة برسباى ٨٨٠ ص٣١

(4) وثيقة جوهر اللالا ١٤ محكمة

(5) وثيقة وقف قجماس ٦٧ أوقاف

(6) وثيقة وقف قرقماس أمير كبير ٩٠١ ص٤٤

(7) وثيقة قايتباى ٨٨٦ ص١٥

بها أوانى الشرب ، وكان لها فى الغالب واجهة من خشب الخرط يتوسطها باب يفتح ويغلق بوقت الحاجة.

ويشير موضع المزملة إلى حسن اختيار المعمار المملوكى الذى جعلها عادة تطل على الدهليز الموصل إلى صحن المنشأة فهى بذلك قريبة من أواوين المنشأة التى يوجد بها الأفراد الذين أنشئت من أجلهم ، سواء المصلين أو الدارسين أو المتصوفة ، وهذا التقارب يوفر الجهد على من يريد الشرب منها ، أو على من يقوم بخدمة المزملة ، فقد كان يعين أناس لهذا الغرض فقد عين لمزملة مدرسة السلطان حسن " رجلين يقومان بخدمة المزملة وحفظ ما عساه أن يكون بها من الأوانى وغسلها وتنظيفها وملئ الكيزان التى بها وسقى من يرد إليها من أرباب الوظائف وغيرهم من الناس أجمعين على جارى العادة فى ذلك[1] وتذكر وثيقة وقف الخانقاة الناصر محمد بسرياقوس أنه قرر أن " يصرف لخادم المزملة بالخانقاة المذكورة زيادة على معلومة فى كل شهر ثلثين درهم نقرة وفى كل يوم رطلين خبز[2] كذلك فإنها قريبة من مكتب السبيل عادة ، ويمكن للأيتام النزول إليها والشرب منها لقربها منهم ، إذا لم يكن هناك مزيرة ملحقة بالكتاب نفسه – خاصة وأن الاطفال فى المكاتب يحتاجون إلى الشرب من وقت إلى آخر أكثر من غيرهم، وهى بهذا الموضع تجنب تطرق هؤلاء الأطفال إلى داخل المنشأة لو أنها وضعت فى موضع آخر داخلها.

كذلك فإن من الملاحظة علاقة التجاور بين المزملة والسبيل ، وهى علاقة يكشف عنها وجود فوهة بأرضية المزملة على الصهريج الذى يغذى السبيل نفسه بالماء أى أن الصهريج كان يغذى المزملة والسبيل بالماء ، ولذلك تجاورت الوحدتان غالبا لاشتراكهما فى المصدر الذى يقع أسفلهما ، أما المزملة التى لا يوجد بها فوهة على الصهريج فإن الماء كان ينقل إليهما من فوهة الصهريج التى بالسبيل ، وكان التجاور ليسهل عملية نقل الماء إليها بالإضافة إلى مميزات الموضع السابق ، وهكذا استطاع المعمار المملوكى تحقيق الوظيفة السابق الإشارة إليها وهى توفير ماء الشرب بداخل المنشأة

---

[1] وثيقة وقف السلطان حسن ٨٨١ أوقاف

[2] وثيقة وقف الناصر محمد ٥/٢٧ محكمة

بأسهل الوسائل وأكثرها إقتصادا مراعيا فى ذلك الوظائف الأساسية للمنشأة الخاصة بالصلاة والتدريس والتصوف ما تتطلبه من جو هادئ مناسب.

الكتـــــــاب :

يعتبر الكتاب من عناصر الإنتفاع العامة التى وجدت بالمنشآت الدينية بصفة عامة ، وكانت تؤدى وظيفة تعليمية وإجتماعية يستفيد بها أيتام المسلمين في ذلك العصر ، وضمنها المماليك منشآتهم لهذا الغرض . ويوجد الكتاب غالبا بالمنشأة الدينية فى الطابق الثانى الذى يعلو السبيل [1] ولارتباطه بهذا الموضع نجد أن الوثائق المملوكية تطلق عليه التسمية " مكتب السبيل " وحتى فى الأسبلة المستقلة فقد إستغل إمتدادها الرأسى فى بناء المكاتب.

وكانت المكاتب عادة متسعة ، تتسع لأعداد الأيتام الذين يقرورون بها ومؤدبهم والعريف اللذان يقومان بتعليمهم ، كما ألحق ببعضها مرافق أخرى كبعض الخزانات لحفظ أدوات الكتابة والألواح ، ومرحاض ومزيرة ، كذلك ألحق ببعضها فى بعض الأحيان ، مسكنا لمؤدب الأيتام ، وقد وجد ببعض المنشآت مثل خانقاة فرج بن برقوق بالصحراء أكثر من كتاب فقد وجد بها " مكتبان للسبيل " بطرفى الواجهة الغربية.

وكان مكتب السبيل فى حاجة إلى التهوية والإضاءة " التى تتناسب وأعداد الأيتام بالمكتب وتساعدهم على القراءة والكتابة ، ولذلك كان المكتب ليعلو السبيل الذى يطل على الواجهة ، أو أكثر من واجهة من واجهات المنشأة ، وكان وجوده فى الطابق الثانى يساعد على زيادة إضاءته وتعرضه للشمس ، وقد إستغل المعمار الواجهات التى يطل عليها المكتب فجعلها شبه مفتوحة لتزويد الكتاب بالتهوية والإضاءة ، وجعل لبعضها مظلة " رفرف خشبى " تتقدمها لتحد من دخول الشمس إلى المكتب حتى لا يتعرض الأيتام للضرر بسببها ، ولعل أروع النماذج على ذلك ما وجد فى كُتّابى خانقاة فرج

---

[1] هذا هو الغالب ولكن قد يعلو السبيل فى بعض المنشآت أروقة للسكنى كما كان الحال فى جامع برسباى بالخانكة وقد يحدث العكس بمعنى أن ينشأ كتاب فى الطابق العلوى ولا يكون اسفله سبيل فليس الارتباط شرطيا فى كل الأحوال.

بن برقوق ومدرسة برسباى بالأشرفية ومدرسة أبو بكر مزهر ، وجامع القاضى يحيى زين الدين بالأزهر.[1]

وإذا كانت مكاتب السبيل بالمنشآت الدينية المملوكية من بين وحدات هذه المنشآت التى تغيرت كثير من معالمها بسبب إستخدامها لأغراض أخرى، فإن وصفها بالوثائق المملوكية يعطى الصورة الحقيقية لما كانت عليه ، ويمكن أخذ الوصف الوثائقى لمكتب السبيل بجامع القاضى يحيى زين الدين بالأزهر نموذجا جيدا لذلك فقد ذكر الموثق أن هذا المكتب فى الطابق الثانى يصعد إليه بسلم يؤدى إلى " باب يدخل منه إلى مكتب السبيل المعد لقراء الأيتام ، وهو يشتمل على بيت أزيار ومرحاض وطبقة صغرى ، وبداخله خزانة وكتبيتان وعمودان خشب مدهونان يعلو ذلك قناطر خشبا مدهون حريريا كامل المنافع والحقوق.[2] وهذا الوصف يشير إلى تكامل تخطيط المعمار المملوكى للمكتب ومرافقه المختلفة التى تجعله وحدة متكاملة تماما. فقد جعل به بيت أزيار بشرب منها الأيتام والمؤدب والعريف ، ولا يحتاجون النزول إلى المزملة ، وجعل به مرحاض يغنيهم عن إستخدام مراحيض الميضأة فى الطابق الأرضى ، كما أنه جعل به طبقة تستخدم ربما لسكن المؤدب وخزانة وكتبيات لحفظ أدوات المكتب من دوى وألواح وأقلام ومصاحف وغير ذلك ، كما ان واجهته يتقدمها مظلة محمولة على أعمدة خشبية يعلوها ثلاثة عقود خشبية لتقى الأيتام حرارة الشمس خاصة وأن هذا المكتب تتعرض واجهته الشرقية والجنوبية للشمس بصفة دائمة فى نفس الوقت الذى ساعد فيه على تهوية وإضاءة المكتب يجعل هاتين الواجهتين شبه مفتوحتين للضوء والهواء.

وإذا كان التخطيط التفصيلى الداخلى للمكتب يتلاءم مع الوظيفة التى يقوم بها ، فإن مع الكتاب يعلو السبيل جعله شبه مستقل عن المنشأة ، ويتوصل إليه عادة من سلم بالدهليز المؤدى إلى داخل المنشأة ، دون الحاجة إلى المرور داخل المنشأة أمر جنب المنشآت الدينية وخاصة مواضع الصلاة بها مرور الأيتام الصغار الذين لا يتحرزون غالبا من النجاسات ، وهو أمر

---

[1] انظر شكل رقم ٦٠

[2] وثيقة وقف القاضى يحيى زين الدين ١١٠/١٧ ب

اشار إلى كراهيته الفقهاء ، كما أن هذا الإستقلال جنب المنشآت الدينية المملوكية التى تؤدى وظائف الدرس والصلاة والتصوف ، والضوضاء الناتجة عن هؤلاء الأيتام غالبا ، خاصة عند قراءتهم بصوت مرتفع وهكذا واءم المعمار بين تخطيط المكتب وبين المنشأة التى هو أحد عناصر المنفعة[1] بها .فكان موفقا إلي حد بعيد.

الضريح :

يعتبر الضريح من عناصر الإنتفاع التى ألحقت بالكثير من المنشآت الدينية ، بل إنه يمكن القول بأن الضريح قد يكون سببا رئيسيا فى إنشاء منشأة دينية بأكملها يمكن اعتبارها ملحقة به مثل خانقاة فرج بن برقوق بالصحراء. وقد كان الإهتمام فى العصر المملوكى غالبا بإنشاء هذه الأضرحة سواء المنفصلة أو الملحقة بمنشآت دينية اخرى .

وكان يحتفى ببنائها حتى أن بعضها إستغل مواضع لأداء الوظائف الدينية المملوكية التى تؤديها المنشآت الدينية فى ذلك العصر ، مثل قبة قلاوون ، وقبة بيبرس الجاشنكير ، وقبة مدرسة السلطان حسن ، التى كانت تؤدى وظائف الصلاة والتدريس ، وقبة كافور الشبلى التى كانت بالصحراء والتى حولها إلي خانقاة فى بادئ الأمر ، بعد أن كانت تربة خاصة به ، ثم بنى جامعا مجاورا لها نقل إليه المتصوفة منها.

وكان لإنشاء الضريح ملحقا ببعض المنشأت الدينية تأثير على تخطيط هذه المنشأت بصفة عامة ، فقد كان السعى دائما وراء أن يكون الضريح مطلا على الشارع الرئيسى الذى تطل عليه المنشأة ، فشغل الضريح لذلك جزءا هاما من أجزاء الواجهة . بل إنه فى بعض المنشآت حجب المنشأة ولم يوجد بالواجهة مع الضريح سوى المدخل المؤدى إليها ، ولعل أروع أمثلة

---

[1] أما فى مكاتب السبيل المنفصلة التى تعلو الأسبلة المنفصلة غالبا فإن تخطيطها كان بنفس النظام ، ولم توجد نفس المشكلات التى قد تواجه المعمار نتيجة إلحاق الكتاب بمنشأة دينية فيحاول الموافقة بين الكتاب ووحدات المنشأة ، ولعل الكتاب الذى يعلو سبيل قايتباى بالصليبية . خير مثال على هذه النماذج والتى تبين مميزات الإستقلال فى سهولة التخطيط.

ذلك قبة خانقاة بيبرس الجاشنكير والتى يلاحظ أنه تم بناءها بعد إنشاء الخانقاة وبعد تخصيص مساحة لها [1] وهو أمر يؤكد ما نذهب إليه.

كذلك كان لتغطية الضريح بقبة مرتفعة غالبا أثره على تخطيط الوحدات المجاورة للقبة ، وذلك إن إنشاء القبة يتطلب مساحة مربعة كان يتحكم فيها إلى حد كبير طول واجهة الضريح المطلة على الشارع ، ويؤكد ما نذهب إليه ما نراه فى ضريح مدرسة السلطان برسباى بالأشرفية، ذلك ان طول الواجهة الشرقية للضريح كان له تأثير على إنقسام المساحة التى تقع شمالى إيوان القبلة إلى قسمين قسم عبارة عن الضريح الذى تحكم فى مساحته طول الواجهة الشرقية له ، والقسم الثانى عبارة عن المساحة الباقية التى تخلفت بسبب ضرورة أن يكون مسقط الضريح مربعا لتعلوه قبة . وأمام صغر مساحة الضريح إلى هذا الحد أنشئ فى المساحة الغربية المذكورة "إيوان اللدفن" يكمل الغرض الذى أنشئ من أجله الضريح ، وهكذا وافق المعمار بين الشروط الأساسية التى تحكم التخطيط وهى الرغبة فى أن تكون واجهة الضريح ضمن أجزاء الواجهة الرئيسية ، وبين غرض الدفن الوظيفة الحقيقة للضريح ، فى حدود المساحة المفروضة . وكان يوجد بالأضرحة عادة فى إتجاه القبلة محراب[2] ويتوسط الضريح تركيبة رخامية تعلو فسقية الدفن[3] بباطن ارض الضريح ، وكانت هذه الفساقى تبنى بباطن الأرض ، ويعمل لها منازل مدرجة ينزل بواسطتها إلى هذه الفساقى ، التى كانت تفرش بالرمال ، كما أنه يعلوها سقف حجرى يعلوه طبقة من الرمل ، تعلوه

---

(١) وثيقة بيبرس الجاشنكير ٤/٢٣

(٢) لم تكن المحاريب فى الأضرحة بصفة خاصة توجه توجيها دقيقا فقد كشفت دراسة قامت بها الأستاذة كسلر ، ونشرت فى الكتاب الذهبى لألفية القاهرة ، وأن هذه المحاريب تنحرف عن الاتجاه الصحيح للقبلة بدرجة قد تصل إلى ٢٢,٥ درجة وربما كان لوضع القباب ومحاولة الموافقة بين اتجاه الشوارع والواجهات الخارجية وتخليق مساحة منتظمة من الداخل أثر فى ذلك ، ولم تتحرى الدقة تماما لأن وجود هذه المحاريب ليس ضروريا يؤكد ذلك عدم وجودها مثلا بضريح مدرسة برسباى بالأشرفية التى استغنى فيها عن المحراب وعمل موضعه نافذة للحاجة إليها.

(٣) يلاحظ أن هذه التراكيب كان معظمها من الرخام وإن وجد بعض الأضرحة الخشبية فى ضريح طرنطاى ، كذلك يلاحظ ان هذه التراكيب قريبة جدا من جدار القبلة فى منشآت الشراكسة بمقارنتها بتراكيب الأضرحة فى العصر المملوكى.

طبقة ثالثة عبارة عن أرضية الضريح سواء كانت بالحجر أو الرخام، وكانت هذه الطبقات وخاصة طبقة الرمل المتوسطة تمنع تسرب أى روائح تنتج عند تحلل الجثة المدفونة[1] .

واذا كان المعمار المملوكى بتخطيطه الضريح مشكلا جزءا من أجزاء الواجهة الرئيسية قد حقق رغب المنشئين فى التباهى بظهور أضرحتهم الضخمة الرائعة البُنيان مطلة على الشارع ، فإنه حقق كذلك الموضع الملائم للقراء الذى يقرأون القرآن عادة بشبابيك هذه القباب المطلة على الشارع ، فقد شاعت هذه العادة فى العصر المملوكى حتى أن القارئ أخذ تسميته من هذه الشبابيك فسمى " قارئ شباك "، كذلك فإنه حقق رغبة الفقهاء فى ان لا يكون الضريح أمام مستقبل القبلة في الصلاة لأنهم كرهوا ذلك ولذلك وجدت الأضرحة على جانب من جانبى المنشأة أو فى الخلف فى كل المنشآت الدينية المملوكية ، فيما عدا مدرسة السلطان حسن التى وجد الضريح بها خلف جدار القبلة بالإيوان الشرقى وربما كان تخطيط هذه المدرسة له أثر كبير فى تخصيص هذا الموقع بالذات للضريح ، خاصة وأنه بعد غلق أبواب القبة تكون مستقلة تماما عن إيوان القبلة ، وربما كان لعدم إتفاق أراء الفقهاء على رأى تحريم ذلك أثره فى وجود مثل هذا النموذج.

وقد كان لاختلاف أحكام الفقهاء فى هذا الشأن كذلك فى وجود أنواع أخرى من المدافن ، مثل مقاصير الدفن التى تكررت أمثلتها فى العصر المملوكى خاصة فى منشآت الصحراء التى يغلب عليها اشتمالها على منشآت الدفن ، ومن أمثلة المنشآت التى كانت تضم مقاصير للدفن تربة القاضى عبد الباسط بالصحراء[2] ومجموعة السلطان برسباى[3] بها ولكنها درست للأسف .كما وجدت الأحواض الخاصة كذلك بالدفن والملحقة بالمنشآت الدينية كما

---

[1] كشفت الحفائر التى تمت بمجموعة قرقماس الصحراء بواسطة الأستاذ مدحت المنباوى مفتش الآثار سنة ١٩٧١ تحت اشراف الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب عن هذه الطريقة فى التغطية.

[2] وثيقة القاضى عبد الباسط ١٣/٨٤

[3] وثيقة برسباى ٨٨٠أوقاف ص٣١

وجد بمجموعة برسباى سابقة الذكر – التى كانت تضم حوشين للدفن أنشئت بهما بعض الأضرحة المستقلة . وكانت هذه المقاصير والأحواش تضم الفساقى المعدة للدفن مثلما كان عليه الحال فى الأضرحة. وقد كشفت الحفائر التى عملت بمجموعة قرقماس بالصحراء التى تضم حوش أيضا للدفن أن هذه الفساقى كانت مبنية بالحجر ، ولم يستخدم فى بنائها الآجر والمعروف أن هذا يوافق آراء الفقهاء التى تشير إلى كراهيته ما حرق فى بناء المقابر . ويمكن أن نقول أيضا بصفة عامة ان آراء الفقهاء حول عدم إباحة البناء فىالأرض الوقوفة أن انتشرت أضرحة المماليك بمدينة القاهرة أو الصحراء ولم يكن بنائها غالبا فى القرافة لأنها أرض وقف للدفن منذ عهد عمر. أى ان إنتشار بناء الأضرحة بالمنشآت بالصحراء داخل القاهرة كان بسبب حرية ابتياع وإمتلاك الأراضى ، ومن ثم حرية البناء فوقها حسبما أريد.

واذا كان المعمار قد راعى فى تخطيطه للضريح كل هذه العوامل فإنه عمل من جانبه أيضا على سهولة الاتصال والحركة وإضاءة وتهوية هذه الأضرحة ، فجعل التوصل إليها ميسورا بما يؤدى إليها من طرقات ودهليز، بل انه زاد من اتساع هذه الممرات بما جعله من شطف بأركان جدرانها ليزيد من الاتساع أحيانا ، كما هو فى بالطرف الشمالى الجدار الشرقى للطرقة المؤدية إلى الضريح بمدرسة برسباى بالأشرفية ، حيث شطف الجدار إلى إرتفاع يعلو إرتفاع فتحة " الباب بهذا الجدار حتى يساعد على سهولة المرور بالمحفة التى تكون عليها الجثة عند الدفن ، ثم ارتد بالجدار إلى زوايته القائمة بعد هذا الارتفاع .كما أنه زود الأضرحة بصفوف من النوافذ مثل نوافذ الأواوين لتساعد على تهوية وإضاءته لأن القراء يقرأون به ويحتاجون إلى ذلك.

ومما سبق يتضح أن المعمار المملوكى حقق الغرض الوظيفى للأضرحة الملحقة بالمنشأت الدينية بما يتفق والأحكام الفقهية ، وبما يدل على براعته فى استخدام الحلول المعمارية الصحيحة تحقيقا لذلك.

الميضأة والمراحيض:

تعتبر الميضأة والمراحيض من عناصر الإنتفاع الضرورية بالمنشآت الدينية ، حيث أن الميضأة تقوم بدور هام إذ يمكن المصلى من التوضؤ

استعداداً للصلاة، والوضوء شرط ضروري لصحة الصلاة ، كذلك فإن وجودها بالإضافة إلى المراحيض في منشآت يقطنها الدارسون والمتصوفة وجود ضروري حيث أنهم يقيمون بالمنشآت إقامة دائمة يحتاج معها إلى مثل هذه الوحدات لقضاء الحاجات وإزالة الضرورات والتطهر والإغتسال.

وعندما نتعرض بالدراسة لهذه الوحدات في المنشآت الدينية في العصر المملوكي فإننا نتناولها حسب نوعياتها المختلفة والتي يمكن إدراجها تحت ثلاثة انواع هي : الميضأة التي تشتمل على مراحيض وفسقية الوضوء، والفساقي التي توجد عادة بصحون المنشآت الدينية وبعض قاعاتها الخاصة بالوضوء فقط ، ثم المراحيض التي تخدم الوحدات المعمارية المختلفة التي يشملها المبنى كالمكتبة وقاعات سكن الشيوخ والمدرسين أومساكن الطلبة وغيرها.

أولا : الميضأة :

وتعتبر الميضأة من الوحدات المعمارية الإسلامية التي أنشئت لتفي بغرض إسلامي متعلق بالصلاة وهو التوضؤ ، ولذلك نجد أن تخطيط الميضأة وإنشائها كان محكوما بتلك الأحكام الفقهية المتعلقة بالمسجد وطهارته والوضوء وشروطه ، فقد كان لهذه الأحكام أثرها على تخطيط إنشاء الميضأة، فقد كان الحرص على نظافة المسجد وطهارته أثره في جعل الميضأة والمراحيض خارجة عن ساحة المسجد قريبة منه ، وكان للشروط الفقهية الخاصة بالوضوء أثرها هي الأخرى على تخطيط الميضأة بل على وجودها ذاته ، فلا شك أن تفضيل الماء في الإستنجاء والوضوء ووجوب جريانه حتى ولو كان " من أعلى إلى حوض الحمام " وإباحة التوضوء بمياه الآبار ما دامت لم تظهر عليها آثار النجاسة[1] كان له أثر في تخطيط الميضأة من حيث تزويدها بالماء الصالح للوضوء ، كذلك فإن عملية الإستنجاء والوضوء ومايتعلق بها من أحكام فقهية كان لها هي الأخرى أثرها في اتخاذ الميضأة تخطيطا معينا فقد أشار الفقهاء بوجوب استخدام اليد اليسرى عند الإستنجاء ، كذلك فإنهم أشاروا بوجوب جلوس المتوضئ على مكان مرتفع

[1] النووى .شرح مراقى العمودية ص١١-١٦ القدروى . الجوهرة النيرة ص١٢-١٥

حتى لا يتعرض للرشاش أثناء الوضوء ، وهو أمر أثر على شكل الفسقية وأنها الخاصة بالوضوء.كذلك فإن وجوب إزالة الجنابة إستعداد للصلاة كان في مراعاة المعمار الإسلامي عندما ألحق ببعض الميضآت مستحم صغير طهر" يمكن المصلى من ذلك.

ولما كانت هذه الميضآت من أكثر أجزاء المباني الأثرية تعرضا للإصلاح والتغيير ، والهدم والتدمير ، فقد ندرت النماذج الباقية منها وفي ضوء ما تبقى من نماذج وما ورد بوثائق وقف المنشآت الدينية المملوكية فنتبع الميضأة في العصر المملوكي بالدراسة والتحليل.

الموقع :

لعل أول شئ يجب الإشارة إليه عند دراسة الميضأة هو موقعها وقد راعي المعمار الإسلامي غالبا وضعها في الجهة الجنوبية الغربية من المبنى ، وهو أمر يتناسب وطبيعة اتجاه الرياح في مدينة القاهرة حيث أن غالبية الرياح شمالية أو شمالية غربية[1] ووضع الميضأة في هذا الموقع يجنب المنشأة الدينية ما قد ينبعث من روائح غير مرغوبة تذهب مع الرياح في الاتجاه الآخر ، وكان ذلك هو الحل العملي في ذلك العصر الذي لم توجد فيه وسائل أخرى لذلك.

وقد تحكمت المساحة المقام عليها المبنى في هذا الموقع كذلك فأحيانا توضع في الركن الجنوبي الغربي من المنشأة داخل جدرانها الخارجية متصلة بوحدات المبنى المختلفة إتصالا مباشرا وهذا هو الغالب ، وأحيانا أخرى لعدم توفر مساحة مخصصة لها توضع خارج الجدران الخارجية للمنشأة منفصلة بذاتها كما هو الحال في ميضأة جامع سودون من زاده[2] ، وجامع برسباي بالخانكة ومدرسة قجماس الإسحاقي ، وجمال الدين الاستادار[3] وهما من النماذج التي ربط فيها المعمار الإسلامي بين الميضأة والمنشأة " بساباط " يعلو الشارع الذي يفصل بينهما وقد ضاع الساباط الذي كان يربط مدرسة

---

[1] د. عرفان سامي . نظريات العمارة ص٢٣

[2] وثيقة سودون بن زاده ١٠/٥٨ محكمة

[3] وثيقة جمال الاستادار ١٧/١٠٦

جمال الاستادار بميضاتها، وبقى الساباط بين يربط بين ميضاة قجماس الإسحاقى ومنشأته ، وهو عبارة عن قنطرة معقودة يعلوها ممر يصعد إليه من المدرسة من أحد الأبواب المطلة على الصحن فى الجهة الشمالية ويستمر فى الإتجاه شمالا وينتهى إلى سلم يهبط إلى الميضأة فى الجانب الآخر . ولهذا الممر جداران شرقي وغربي ويعلوه سقف ويمكن للعابر من خلال مشاهدة السائرين بالطريق من خلال نافذتين واحدة فى كل جدار من الجداريين المذكورين. ومن أمثلة الميضآت المنفصلة عن بناء المنشأة الميضآت جامع سلطان شاه الذى أنشئ سنة ٧٦٧هـ ، والذى هدم ووسعه السلطان قايتباى سنة ٨٨٠ هـ بإشراف الأمير تغرى بردى التاوى فقد أنشأ له ميضأة تجاهه بنى فوقها ربعا.

وقد إمتد تأثير المساحة على الميضأة كذلك من ناحية الإمتداد الرأسى بمعنى أنه فى بعض المنشآت شكلت الميضأة طابقا أرضيا فوقه وحدات اخرى ولعل أروع الأمثلة على ذلك ما تبقى من مراحيض ميضأة خانقاة فرج بن برقوق بالصحراء فى الجانب الشمالى من الميضأة حيث يعلوها طباق ومساكن المتصوفة فى ثلاثة طوابق ، وتشير الوثائق إلى أنه وجد مثل ذلك فى منشأة القاضى يحيى زين الدين[1] عند تقاطع شارع الأزهر مع شارع بورسعيد ، ومنشأة قراقجا الحسنى التى استغل امتدادها الرأسى فى بناء أروقة للسكنى [2] .

كذلك كان للشوارع اتصال بموقع الميضأة فقد روعى قدر الامكان أن يكون الميضأة باب خارجى مستقل يتوصل إليها منه دون المرور بالمنشأة ، وهو أمر يسهل استخدام الميضأة خاصة الوصول إليها،من أمثلة ذلك ميضأة المدرسة الأشرفية برسباى التى كان لها باب مستقل يؤدى إليها فى الجهة الجنوبية بالإضافة إلى أنه كان يتوصل إليها من الباب الرئيسى للمدرسة عبر الصحن من أحد الأبواب المطلة عليه ، ومن الباب الذى يقع فى الطرف

---

[1] وثيقة القاضى يحيى زين الدين ١١٠/١٧ ب

[2] وثيقة قراقجا الحسنى نشر عبد اللطيف ابراهيم .

الغربى للواجهة الشمالية عبر استطراق يمر أسفل الإيوان الغربى وينتهى إلى الميضأة وتربيعة للطلبة[1] .

وكانت الميضأة تبنى أصلا بمستوى الشارع فى ذلك الوقت ولا يرتفع مستوى أرضيتها إلى مستوى أرضية الشارع غالبا وكان يصعد إليها من سلالم يصل ارتفاع بعضها حاليا إلى ٢ متر وأكثر ، كما فى مدرسة السلطان حسن على سبيل المثال ، وربما كان هذا ضروريا لاتصال الميضأة بمسارب التصريف التى تحفر أسفلها بباطن الأرض من جهة ، ومن جهة أخرى بتسهيل عملية توصيل المياه إليها ، إذ لابد أن تكون فى مستوى أقل من مستوى الماء الوارد إليها من " حوض التخزين " أو " المصنع " الذى ترفع الساقية الماء إليه . وقد حل المعمار الإسلامى مشكلة الفارق بين مستوى المنشأة المرتفع ومستوى الميضأة المنخفض بواسطة سلالم تصل بين الميضأة والمنشأة.

وقد اختلف تخطيط الميضأة من منشأة إلى أخرى باختلاف شكلها وحجمها ، فقد كانت ميضأة مدرسة قلاوون تشتمل على " فسقية أو بيوت عدتها ثلثة عشر بيتا "[2] وكانت ميضأة مدرسة وخانقاة برقوق عبارة عن "ساحة بها ستة عشر بيتا بالحجر النحيت بأحواض حجر متصلة الميضأة دايرة عليها معقود يتوصل إلى كل منها من باب مقنطر يغلق عليه فردة باب بوسط الساحة المذكورة فسقية مربعة للوضوء ودارها نهر وبلاليع مفروشة الأرض بالقطع المطبق النحيت"[3] وكانت ميضأة مدرسة الأشرف برسباى بشارع "المعز تشتمل على خمسة عشر كرسا وطهر وفسقية مربعة عليها أربعة أعمدة رخاما بسطا بقبة" [4] وميضاة منشأة جوهر اللالا عند القلعة كانت " تحوى ثلاث خلاوى يكمل من الخلاوى المذكورة مرحاض وبوسطها فسقية حنفية مفروش باطنها بالرخام الملون ذات زبازيب نحاس دايرة وبها

---

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ اوقاف ص١٩

[2] وثيقة قلاوون ٧٠٦ ج١ أوقاف

[3] وثيقة برقوق ٨/٥١

[4] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف

أيضا باب يدخل منه إلى مستحم "[1] وميضأة قراقجا الحسنى كان " بها فسقية حنفية مرخم باطنها وأطروفياتها وبها ثمانية زبازيب نحاسا برسم الوضوء وبئر برسم الماء وأربع خلاوى بكل منها مرحاض وحوض برسم الماء وبسفل المصنع المذكور لولبان نحاسا[2] ، وميضأة الجمالى يوسف التى كانت تشتمل على فسقية مبنية بالحجر والطوب مضروبة بالخافقى ذات أربعة أركان وثلثه ميازيب الصاعد به لولبان برسم إجراء الماء إلى الفسقية المذكورة وغيرها مضروبة بالخافقى من الحمام المجاور لذلك وعلى خمسة بيوت معدة للاستطابة[3]..... الفسقية المذكورة بكل منها حوض كدان وفردة باب خشب يغلق عليه[4] أما ميضأة منشأة القاضى يحيى زين الدين عند الأزهر فكانت عبارة عن " رحبة مفروشة بالبلاط بوسطها فسقية مبنية بالحجر مستطيلة برسم الوضوء بفواوير نحاس ستة وثلاثة شبابيك حديد كبار أحدها وهو الأوسط – يدخل منه إلى سلم حجرا بوجهين برأسه بسطة ينزل منه إلى الخليج المذكور ، وبالرحبة المذكورة عشرة أبواب على كل منها فردة باب خشبا ، أحدها يدخل منه إلى مستحم والباقى يدخل من كل منها إلى مرحاض به حوض حجرا كدانا برسم الماء والرحبة المذكورة مسقفة نقيا مدهونة ذلك كافوريا وهى الميضأة الموعود بذكرها[5] وكانت ميضأة منشأة قرقماس بالصحراء حسب وصف الموثق مستديرة بعشرة كراسى خلا ومستحم على كل من ذلك فردة باب ومسطبة يجاورها خزانة لطيفة برسم لوالب المياه بوسط الميضأة المذكورة فسقية مدورة يعلوها قبة مبنية بالحجر بها ثمانى مزاريب وفوار وسفل ذلك وسفل الحاصل الآتى ذكره أقصاب

---

[1] وثيقة جوهر اللالا ١٠٢١

[2] وثيقة قراقجا الحسنى نشر عبد اللطيف ابراهيم

[3] هذه النقط فاقد موضعها وكان بها كلمة " المواجهة " واتضح ذلك من نص وقف الميضاة بنفس الوثيقة بما نصه " وأما البيوت الخمسة المواجهة لفسقية الميضأة فهى معدة للاستطابة وازالة الضرورات والانتفاع بها أسوة أمثالها ، حجة الجمالى يوسف ٧/٤٦ محكمة.

[4] حجة الجمالى يوسف ٧/٤٦ محكمة.

[5] وثيقة وقف القاضى يحيى زين الدين ١٧/١١٠ ب محكمة.

رصاص فرقتان أحديهما للكراسى والفسقية الحنفية المذكورة ، إلى رأس القبو يفترق أيضا فرقتان احدهما يمشى إلى اليمين إلى حوض الدواب المدعو به أعلاه والثانية تمشى على اليسار للميضأة دار المدرسة المذكورة اعلاه"[1]

وقد وجد نوع من التناسب بين حجم المنشأة وبين ميضأتها فقد اشتملت ميضأة زاوية الفتح بجوار جامع التركمانى على ثلاثة مراحيض ، كذلك كانت زاوية برسباى ضمن منشآته بالصحراء والتى حل محل الفسقية بها حوض بسيط للوضوء فيه ، فقد جاء بوثيقة برسباى ما يؤكد ذلك ما نصه " وإجراء الماء من البير إلى خلاوى الميضأة وحوضها الحنفى وحوض السبيل ووقف الحوض الحنفى للوضوء منه على العادة"[2] . وهناك من المنشآت ما اشتمل على مرحاض واحد استغل هو الفسقية التى بصحن المدرسة كميضأة بحيث يستخدم المرحاض لقضاء الحاجات وإزالة الضرورات والميضأة للوضوء كما كان الحال فى مدرسة أيتمش البجاسى وهى منشأة أثرت مساحتها بصفة عامة على تخطيطها.

واذا كانت النصوص السابقة تعطى أوصافا متنوعة للميضأة ووحداتها المختلفة ، فإن نصوص الوقف بالوثائق المملوكية تحدد وظائف كل وحدة منها تحديدا دقيقا.فتذكر وثيقة جوهر اللالا مثلا أن " الفسقية الحنفية التى بالميضأة فإن الواقف المشار إليه وقفها ، أفاض الله تعالى نعمة عليه أعدها للوضوء ، وأما الخلاوى التى بالميضأة فإن الواقف المسمى فيه أعد ذلك للانتفاع بها فى قضاء الحاجات وإزالة الضرورات ، وأما المستحم فإن الجناب الصفوى الواقف المشار إليه أعده للإغتسال من الجنابة والتبريد وقت الحر الشديد[3] وجاء بوثيقة قراقجا الحسنى ما نصه " أما الفسقية المذكورة فيه فإن الواقف المشار إليه وقفها للوضوء ، وأما الخلاوى التى بالميضأة فإن الواقف المشار إليه فيه وقفها لقضاء الحاجات وإزالة الضرورات[4] وجاء

---

[1] وثيقةقرقماس اوقاف ص٤٤-٤٥

[2] وثيقة وقف برسباى اوقلف ٨٨٠ ص٣٢

[3] وثيقة جوهر اللاله ١٠٢١

[4] وثيقة قراقجا الحسنى نشر عبد اللطيف ابراهيم سطر ٩٩ وما بعده

بوثيقة سودون من زاده ما نصه وينتفع بالميضـأة وفسقيتها وبيوتها من يرد إليها من الناس كافة فى وضؤهم وإغتسالهم وإزالة ضروراتهم على العادة فى ذلك"[١]

ومن النصوص السابقة يمكن أن نذكر أن الميضاة فى العصر المملوكى كانت تشتمل على المراحيض التى تستخدم لقضاء الحاجات وإزالة الضرورات ، والفسقية أو الحوض الخاص بالوضوء ، وكانت المراحيض عادة كل مرحاض عبارة عن خلوة تشتمل على كرسى المرحاض وحوض حجر كدان يتوصل إليه الماء ، وكان لكل مرحاض باب خشبى عبارة عن مصراع واحد يغلق على المرحاض ، وكانت هذه المراحيض تفتح أبوابها على ساحة تقدمها وتتوسطها الفسقية الخاصة بالوضوء والتى إتخذت أشكالا مختلفة فبعضها مربع والآخر مستطيل وهناك ما هو مثمن الشكل وماهو مستدير ، كذلك إختلف عدد " صنابير " المياه التى بكل منها وبعضها يتوسطه فوار والبعض الآخر لا يشتمل على مثل ذلك . أما بخصوص تغطية الميضأة فقد يجمعها " الفسقية والمراحيض " سقف واحد خاصة إذا كانت تعلوها مبانى أخرى كما هو الحال فى ميضأة القاضى يحيى زين الدين بالأزهر أو ميضأة منشأة قراقجا الحسنى بدرب الجماميز ، وقد تكون تغطية المراحيض منفصلة عن تغطية الفسقية ، فقد كانت المراحيض عادة تغطى بأقبية ، والفسقية يعلوها قبة محمولة على أعمدة وكانت هذه القبة أحيانا من الخشب وأحيانا اخرى من الحجر ، ومثال ذلك ميضأة مدرسة برسباى بشارع المعز ومنشاة قرقماس بالصحراء.

وكانت عملية تزويد الميضأة بالماء من العمليات الهامة التى بدونها لاتستطيع الميضأة تأدية وظيفتها ، وكانت هذه العملية تتم غالبا من بئر ماء معين تركب عليه ساقية عادة لرفع الماء من البئر ، وكانت البئر والساقية من بين وحدات المنشأة المختصة بها ، ومن الواقفين من إشترك بحصة فى بئر وساقية لتغذية منشأته بالماء ، فقد كانت زاوية التركمانى تغذى بالماء من " حصة مبلغها النصف من البئر والساقية الخشب المعلقة المركبة على فوهتها "

---

[١] وثيقة وقف سودون من زاده ١٠/٥٨ محكمة.

وقفها الواقف " وسبلها للإنتفاع بنقل الماء واخراجه إلى الجنينة والفسقيتين وحوض بيت الخلا وخلوة الحمام للمختصة بأولاد الواقف لينتفع أرباب الوظائف وطلبة العلم الشريف المقيمون بهذا المكان والواردون إليه فى الإستعمال والوضوء والإغتسال وإزاله الضرورات إنتفاع مثلهم بمثل ذلك على الوجه الشرعى "[1] ويتضح من ذلك أنه كان لهذا الإشتراك أثره على تخطيط الميضأة وبناء فسقيتين بها لخزن أكبر قدر ممكن من الماء ، وتؤكد الوثيقة ذلك ما نصه " فأما الفسقيتان المذكورتان فإنهما وقف مرصد لخزن الماء[2]. وهناك من الميضآت ما زود بالماء من مبانى مجاورة مثل ميضأة مدرسة الجمالى يوسف الذى خصص مبلغا " يصرف فى كلفة إجراء الماء إلى الفسقية التى بالميضاة المذكورة وإلى بيوت الإستطابة المذكورة وتكفيتها بالماء ليلا ونهارا من الحمام المذكور أو غيرها[3].

وللأسف لم يتبق أى من هذه السواقى والآبار التى ترجع إلى العصر المملوكى محتفظابعناصره المختلفة ، ولعل فيما ورد بالوثائق المملوكية من نصوص متعلقة بها يعطى صورة واضحة عنها ، فقد جاء بوثيقة كافور الشبلى وصف لإحدى السواقى متضمنا ما قد يتبعها من وحدات بما نصه ويجاور الحوض المذكور من الجهة الشرقية باب مقنطر بالفص النحيت يغلق عليه فردة باب يدخل منه إلى بابين وزلاقة وإلى باب سر فى جدار تربة طاز يدخل من الباب المذكور إلى حاصل من حقوق هذا البناء والباب الثانى يدخل منه إلى اصطبل برسم أثوار الساقية وغير ذلك من خزين تبن وفول وغير ذلك وهذا الاسطبل مسقف غشيما ذات شبابيك على الطريق وله باب مختص به من جهة تربة طاز المذكورة ، وأما الزلاقة المذكورة أعلاه فمنها يتوصل من عليها إلى الساقية والمصنع المذكوريين اعلاه وإلى طبقة علو الباب المجاور للحوض مسقفة نقيا مفروش الأرض بالبلاط برسم سكنى السواق ،

---

[1] وثيقة ٧٥١ ج أوقاف
[2] وثيقة ٧٥١ ج أوقاف
[3] وثيقة الجمالى يوسف ٧/٤٦ محكمة

ثم يتوصل من الزلاقة المذكورة إلى السطح العالى على الحوض والمسجد المذكورين فيه[1].

وجاء بوثيقة السلطان برقوق الخاصة بمدرسته وخانقاته بالنحاسين مانصه " وعلى يمنة الداخل باب مقنطر يغلق عليه فردة باب يدخل منه إلى دار البقر بها متبن وطوالة وحوض لطيف برسم سقى الدواب وعلى يمنة الداخل من الباب المذكور زلاقة ثلاث كسرات يصعد منها إلى ساقية تشتمل على مداربه ساقية خشب مكملة العدة والآلة مركبة على فوهة البير الماء المعين يجاورها حاصل المياه المفرقة للمدرسة والقاعات والميضأة والمطبخ وغير ذلك ، ويعلو عقد دار البقر والنقل الذى به باب الساقية إيوان معقود بالحجر النحيت بشباك حديد مطل على النقل الذى به باب الساقية برسم سكن السواق[2]وهو وصف تفصيلى لما قد تشتمل عليه الساقية من ملحقات سواء كانت إسطبل لأثوارها ، أو سكن لسواقها ، بالإضافة إلى المصنع والزلاقة والساقية ذاتها ، وهو أمر يشير إلى أن الساقية كانت وحدة معمارية جديرة بالإعتبار من الناحية المعمارية. أما الساقية فكانت عادة من الخشب وتشتمل على أجزاء مركبة منها وقد جاء وصفها بمعظم الوثائق مجملا فطالما يصفها الموثق بما نصه " وجميع البير الماء المعين ، التى بالقطعة الأرض المذكورة، المركب على فوهتها ساقية خشب مكملة العدة والآلة[3] ولكنه من حسن الحظ أن عثرت باحدى الوثائق على وصف تفصيلى دقيق البئر والساقية فقد جاء بهذه الوثية ما نصه " وصفة البئر المذكورة أعلاه أنها مطوية بالطوب الآجر سعتها سبعة أذرع بالجدر وعمقها من وجه الأرض إلى قرار مائها ثمانية أذرع ، وهى ذات وجهتين وقنطريتن أحديهما وسطى والثانية شرقية مركب عليها ساقية خشب كاملة العدة والآلة ذات سهم علوى وترسين سفلى وعلو يتوصل إلى العلوى بسلالم حجر"[4] ويكمل هذا الوصف ما جاء بوثيقة أيتمش ما نصه " ورتب الناظر المذكور رجلا من المسلمين

---

[1] وثيقة كافور الشبلى محكمة ١٢/٧٢

[2] وثيقة برقوق ٨/٥١ محكمة

[3] وثيقة جوهر اللاله ١٠٢١

[4] وثيقة الجمالى يوسف ٧/٤٦

يكون له معرفة بالسواقة وشد " الأكاليل وربط القواديس " سواقا بالساقية المستجدة[١] وهى أوصاف يتضح منها أن الساقية كانت تركب على فوهة البئر، وهذه الساقية لها " سهم علوى " أى قائم خشبى يركب فيه " عرق خشبى " آخر عند إدارة الساقية بالأثوار ، ومثبت بهذا السهم ترس خشبى كبير يتعامد عليه ترس آخر فى وضع رأسى فى وضع تتعاشق معه أسنان كل من الترسين ، وتركب على الترس الأخير قواديس الساقية والتى كانت تصنع من الفخار وتثبت عن طريق " الإكليل " المذكور التى يربط بينها ويثبتها على الترس وضع تكون فتحاتها مع إتجاه دوران الترس وبالتوالى ، ومع دوران الساقية تمتلأ القواديس عند وصولها لمياه البئر مع الدوران ، ثم تصب ماءها عندما ترتفع لتنحدر من جديد مع كل دورة ، وتصب الساقية ماءها عادة فى خزان كبير " حاصل " أو " مصنع " أو فى قناة اذا كان الماء يسير مسافة طويلة حتى يصل إلى الميضأة والساقية بهذا الوصف تشبه إلى حد كبير تلك السواقى التى تنتشر فى ريف مصر ، ولكن يلاحظ أنها كانت غالبا من الخشب ، ومن طريف ما يذكر أن بعض السواقى ركب معها طاحون تدور بدورانها فقد كانت ساقية منشاة قايتباى بالروضة " على وضع غريب ركب عليها طاحونا تدور بدورانها "[٢] .

وقد كانت السواقى وملحقاتها المختلفة توجد ملاصقة للميضأة عادة ، وإن انفصلت عنها فإنها تكون فى أقرب موضع منها ، ويوصل بين الساقية والميضأة مثال ذلك ساقية مدرسة الأشرف برسباى بالأشرفية التى كانت على الجانب الخر من الشارع " شارع الحمزاوى " جنوب المدرسة ، وكان الماء يمر فى قناة من تحت أرض الشارع إلى الميضأة . وإذا كانت المساحة فى موضع الساقية أو بعيده عن المنشاة هى الأخرى، ولعل أروع الأمثلة على ذلك ما جاء بوثيقة الجمالى يوسف عن مسجده الذى أنشاه بناحية التركمانية من أعمال البحيرة من ان بئر ساقيته كانت بعيدة عن ميضاة المسجد المذكور وكان " يفصل بين البئر والفسقية المذكورة قناة مركبة من اثنين وتسعين

---

[١] أيتمش البجاسى ١١٤٣ اوقاف

[٢] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص٢٧٤

قنطرة مبنية بالحجر والطوب برسم إيصال الماء من البئر المذكورة إلى الفسقية والحوض وما ذكر معها فيه وطول هذه القناة ستماية ذراع وارتفاعها مما يلى البئر نحو خمسة أذرع ونصف الذراع المذكور[1] ونظرة فاحصة لوصف هذه القناطر تكشف عن براعة المعمار الاسلامى الذى قام بتنفيذها فيبلغ طولها حوالى ٤٢٠ متراً وإرتفاعها حوالى ٤ متر عند بدايتها ويبلغ عدد عقودها ٩٢ عقدا والمعروف انه اذا مال المتر الواحد بمقدار ملليمتر واحد جرى الماء فى إتجاه الميل ، فهذا يعنى ان هذه القناطر يمكن أن ينساب الماء عليها اذا كان الفارق بين مستوى ارتفاع بدايتها ومستوى ارتفاع نهايتها ٤٢ سم ، وهذا يعنى ان ارتفاع مستوى القناة عند نهايتها كان يمكن ان يكون ٣٥٨ سم ومتوسط إرتفاع القناة بصفة عامة ٣٧٩ سم ، وهو يشير إلى هذه القناة ما كانت لتعوق المرور من أسفلها ، كذلك فإنه يمكن ان نقول ان عقود هذه القناطر بما يحملها من دعامات كان اتساع كل منها بدعامته فى المتوسط حوالى ٤,٦٥ متر فإذا كانت الدعامة يبلغ طولها فى المتوسط ٢متر فإن سعة العقد كانت حوالى ٢,٦٥ متر وهى سعة يكون معها البناء متينا بالإضافة إلى ان هذا الاتساع لا يعوق المرور من الفتحات التى تفصل بين الدعامات والتى تعلوها هذه العقود .وهكذا وافق المعمار الاسلامى بين تحقيق غرضه من ضرورة إنسياب الماء فوق القناة ومتانتها وعدم إعاقة المرور أسفل هذه القناة.

والخلاصة ان السواقى كانت تقوم برفع الماء من الآبار المركبة عليها إلى وحدات المنشأة المختلفة سواء الميضأة أو غيرها من الوحدات التى يصل الماء إليها فقد جاء بوثيقة الناصر محمد ما يؤكد ذلك من نصه " وأما البير والساقية المشار إلى ذكرهما فيه فإنهما برسم جريان الماء إلى الخانقة والربط

---

[1] وثيقة الجمالى يوسف ٧/٤٦ ، إنتشرت فكرة نقل الماء بالقناطر فى العمارة الاسلامية ومن أمثلتها قناطر ابن طولون ، واستخدم صلاح الدين مجراه فى قلب سوره ، وقد ذكر ان الملك الكامل بنى مجرى للمياه من بركة الحبش إلى تربة الامام الشافعى (راجع النجوم ج٦ ص٢٢٩-٢٣٠ ابن اياس بدائع الزهور ج١ ص١٨١). وقناطر المياه التى انشئت بعد ذلك لتزويد القلعة بالمياه بواسطة الناصر محمد وإصلاحات وتجديدات الغورى بعد ذلك ، وهذه القناطر وغيرها كانت من إنشاء سلاطين ولتغذية منشآت ضخمة ، اما وجودها بالنسبة لهذا المسجد فهو يدل على مدى الحرص على تزويد المسجد بالماء، وان استغلت ايضا لتزويد الخان والحوض الخاص بالدواب المجاور له والذى كان يقع على الطريق كنوع من تقديم الخدمة للعامة.

والحمام والفساقي والحوض المسبل إليه من حقوق ذلك كله ولما يستجد من مصالح المكان من زرع[1] وغيره على ما يذكر فيه فيبدأ من ذلك بملأ الفسقيتين اللتين من حقوق الخانقاة المذكورتين ، ويمـلأ الأحـواض التـى بالسقايات الثلاث للورادين والمقيمين ثم بالحمام ، ثم بالحوض المسبل ثم يسقى ما يراه مولانا السلطان الملك الناصر الواقف[2]وفي هذا النص ما يشير إلى ترتيب الوحدات التى تزود بالمياه حسب أهميتها فى الاستعمال .كذلك يشير إلى ان السواقى كانت تستخدم فى رى الزروع المجاورة خاصة تلك البساتين التى كانت تنشأ مجاورة لبعض المنشآت وكان الماء يتوصل إلى الوحدات المختلفة عن طريق أنابيب فخارية أو أقصاب رصاص أو قنوات حجرية مثل تلك القنوات المحمولة على كوابيل حجرية بالواجهة الجنوبية[3] لمدرسة السلطان حسن التى كان يتوصل الماء عن طريقها إلى وحدات المدرسة المختلفة.

وكانت السواقى معرضة من وقت إلى أخر للتعطل بسبب تلف اى جزء منها ، لذلك حرص الواقفون على تخصيص مبالغ الوقف لإصلاح هذه السواقى وشراء ما يحتاج إليه فى ذلك من " طوانس وقواديس ومسمار وأجرة نجار وغير ذلك " [4] بل إن هناك من رتب نجارا يتولى الساقية المذكورة

---

[1] كان يلحق ببعض المنشآت بساتين ، فقد كانت تستغل الساحات الخالية من البناء فى إنشائها ، فقد جاء بوثيقة كافور ما يؤكد ذلك ما نصه " واما الساحة المجاورة للمسجد المذكور فإنها تقرر برسم ما ينشبه من الأنشاب " ١٢/٧٦ محكمة وقد أنشأ السلطان برسباى بستاناجنوبى جامعه بالخانكة ٨٨٠ اوقاف ص٣٢ ، وكذلك كان للجمالى يوسف بستانا مجاور المسجد بناحية التركمانية فقد جاء بوثيقة ما نصه " باب سر لطيف ينزل منه إلى بستان يعرف بمولانا الواقف المسمى أعلاه ٧/٤٦ محكمة ، وقد كانت هذه البساتين تسقى من مياه الآبار التى ترفعها الساقية الملحقة بالمنشأة فقد جاء بالوثيقة ٧٥١ اوقاف ما يؤكد ذلك بما نصه البئر والساقية الخشب الملعقة المركبة على فوهتها فإن الواقف المذكور وقفها وسبلها للإنتفاع بنقل الماء وإخراجه إلى الجنينة والفسقيتين ".

[2] وثيقة الناصر محمد ٤/٢٧ محكمة

[3] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص١٧

[4] وثيقة لاجين ٣/١٧ محكمة

على العادة فى مثل ذلك عند الإحتياج[1] ، بل إن البعض قرر إذا " خلقت الساقية وتعذر الانتفاع بها وإصلاحها يستبدل بها غيرها[2]

وتحتاج السفيه كذلك إلى أثوار تقوم بإدارتها بمباشرة سواق مختص بذلك ، وكان الواقفون يخصصون مبالغ من ريع الوقف يشترى بها تلك الأثوار وعلوفتها ، لتقوم بإدارة مثل هذه السواقى ، وقد جاء بوثيقة لاجين أنه خصص ريع الوقف " ثمن رأسين بقر يديران الساقية المذكورة (ساقية بن طولون) أو ما ينهض بذلك من الدواب وعلفها[3] وكانت تغير هذه الأثوار إذا ما عجزت عن القيام بإدارة الساقية[4] ووفر المعمار الإسلامى لهذه الأثوار ضمن ملحقات الساقية الإسطبل الخاص بها وعلوفتها - كما ذكرنا - بل إنه فى بعض الأحيان وفر سكنا للسواق الذى يقوم بإدارة الساقية[5] وهذا التكامل فى وحدات الساقية والحرص الدائم على صلاحيتها كان له الأثر الكبير فى إستمرارها فى أداء وظيفتها على خير وجه.

وحتى يستمر تزويد الميضأة والوحدات الأخرى بالمياه مع عدم ضرورة إستمرار الساقية لرفع المياه ، وجدت بعض الوحدات الأخرى مجاورة للساقية والميضأة وتتمثل هذه الوحدات فى " حاصل التخزين " أو " المصنع " وهى عبارة عن أحواض كبيرة تصب فيها السواقى الماء الذى يرفع من الآبار ، ويتوزع الماء منها على الوحدات المختلفة إما بالاتصال المباشر عن طريق الأنابيب الفخارية أو " أقصاب الرصاص "[6] أوبنقله من هذه الأحواض إلى الميضأة فقد جاء بوثيقة قراقجا الحسنى ما يؤكد ذلك بما نصه " واما الحاصل المذكور (بجامع قراقجا) فإن الواقف المشار إليه فيه وقفه لخزن الماء فيه ونقله منه إلى الفسقية وإلى الخلاوى التى بالميضأة

---

[1] وثيقة أيتمش البجاسى ١١٤٣ اوقاف

[2] وثيقة سودون من زاده ١٠/٥٨ محكمة

[3] وثيقة لاجين ٣/١٧

[4] وثيقة سودون من زاده ١٠/٥٨

[5] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦

[6] وثيقة قرقماس ٩٠١

المذكورة[1] وجاء بوثيقة كافور الشبلى ما نصه " وأما البير والساقية والمصنع والحوض الكبير والسقايتان فإن الواقف قرر ذلك للإنتفاع به فى مثل ذلك[2] وجاء بوثيقة قرقماس مانصه " والزلاقة الموعود بها أعلاه ويصعد من عليها إلى مدار ساقية وبير ماء معين مركب عليها ساقية خشب كاملة العدة والآلة صالحة للإدارة ويتوصل الماء من المكان المذكور إلى حاصل برسم خزن الماء به[3] هذا بالنسبة للمنشأة الواحدة أما فى حالة المجموعات المعمارية الضخمة التى تضم أكثر من منشأة كمجموعة قلاوون التى تضم المدرسة والقبة والبيمارستان والتى إشتركت جميعا فى شبكة واحدة للمياه ، فمع ضخامة هذه المجموعة ومع تعدد الفساقى والوحدات الأخرى التى تحتاج إلى الماء وجد ما يسمى " بمقسم المياه " فقد جاء بوثيقة قلاوون ما نصه " على يمنة من سار فيه سلم يصعد من عليه إلى مطبخ علو مقسم الماء بجوار المصنع المعلق " وفى موضع اخر يذكر الموثق باوله على يسره من داخل فيه باب معقود حنية يغلق عليه فردة باب نقى مدهونة يدخل منه إلى مجاز يتوصل منه إلى موضع به مقاسم مياه القبة والبيمارستان والقاعات وفسقية البيمارستان والقاعات وغير ذلك مما يلى ذكره سفل المصنع المعلق الخاص لذلك وعلو هذه المواضع مطبخ القاعة[4] ومن النصين يتضح أن " المصنع معلق " أى مرتفع ويوجد أسفله بناء وارتفاع المصنع كان مع كثرة الوحدات التى تتغذى من مائة سهلا إنسياب الماء إليها بسهولة ويسر ، وقد كانت عملية إنسياب الماء من وحدة إلى أخرى منفذة بدقة يدل على ذلك ما ذكره الموثق من أن الماء يتوصل إلى هذه الفسقية " إحدى فسقيات قاعات البيمارستان الجانبية من طفيف فسقية البيمارستان الكبرى[5] وهو أمر يكشف عن براعة

---

[1] وثيقة قراقجا الحسنى نشر د. عبد اللطيف ابراهيم سطر ٢٧-٢٩-٣٩

[2] وثيقة كافور الشبلى ١٢/٧٦ محكمة

[3] وثيقة قرقماس امير كبير ١١٩ ص٥٥

[4] وثيقة قلاوون ٧٠٦ ج اوقاف

[5] وثيقة قلاوون ٧٠٦ ج أوقاف

المعمار الاسلامى الذى راعى المستويات[1] المختلفة عند بنائه لهذه الفساقى بحيث ينساب الماء إليها بإحكام ودون ان يفقد منه شئ.

واذا كانت هذه الدراسة النظرية للميضأة ووحداتها المختلفة وكيفية توصيل الماء إليها قد ألقت الضوء عليها ، وعلى براعة المعمار الإسلامى الذى قام بعمارتها وإنشائها فإن الدراسة التطبيقية تؤكد ذلك . ولحسن الحظ أنه يوجد لدينا بعض النماذج الباقية للميضآت فى العصر المملوكى كميضأة السلطان حسن ، وبعض أجزاء من ميضاة فرج بن برقوق بالصحراء ، وميضأة الأشرف برسباى الخاصة بجامعه فى الخانكة ، وبعض أجزاء ميضأة منشاة قرقماس أمير كبير بالصحراء ، نأخذ منها أكثرها اكتمالا لدراسته وهو ميضاة جامع السلطان برسباى بالخانكة[2] والتى مازالت تحتفظ بمعظم أساسات أجزائها التى تدل عليها بل إن بئرها وبعض الأجزاء المبنية من ساقيتها مازالت باقية على حالتها ، مما يجعلنا نفضل إختيارها نموذجا لدارسة الميضأة فى العصر المملوكى.

فهذه الميضأة تقع فى جنوب غربى الجامع وهى عبارة عن كتلة بنائية مستقلة تماما عن الجامع ، يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٢٠ متر وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١٩ متر اى ان مساحتها الكلية تبلغ ٣٨٠ متر ، وعند وصف هذه الميضأة فإنه يمكن تقسيمها إلى وحدتين رئيسيتين : الوحدة الأولى عبارة عن الميضأة بما تشتمل عليه من مراحيض " بيوت خلا " و " طهر " وفسقية للوضوء ، أما الوحدة الثانية فهى الساقية التى تزود الميضأة وما يجاورها بالماء بالإضافة إلى أحواض توزيع الماء " المصنع " والحاصل الكبير ، وبعض الأساسات الأخرى لبعض الحجرات التى لم تكتمل جدرها المتهدمة والتى كانت ربما للأثوار التى تدير الساقية " كإسطبل ".

---

[1] مما يؤكد ذلك أن قصر تتار الحجازية كان من علامات التأنق فيه إجراء الماء إلى أعلاه (النجوم ج١٠ ص١٣٨)

[2] انظر شكل رقم ٣٩.

وبالرغم من أن هذه الميضأة فى حالة سيئة من الحفظ فهى عبارة عن أطلال باقية إلا أنها أحسن النماذج المتكاملة الباقية ، ولذلك سأحاول وصفها مستعينا فى ذلك بما جاء من وصف لها فى وثيقة السلطان برسباى.

فالميضأة تشغل مساحة كبيرة من الأرض مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها ١٥ متر يتوسطها الفسقية ويحيط بها من الجنوب والشرق والغرب تسعة عشر مرحاضا ، حيث يوجد فى الجانب الغربى سبعة مراحيض وبكل من الجانبين الجنوبى والشرقى ستة مراحيض بالإضافة إلى " طهر " بالطرف الشمالى الجانب الشرقى.

وكل مرحاض من هذه المراحيض يشغل مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها ١,٧ متر وعرضها ٠,٩٢ ، وبكل منها "كرسى " وحوض صغير يصل إليه الماء للإستنجاء ، عن طريق قناة تمر بالمراحيض جميعا ويصل الماء إليها من الحوض الكبير " الحاصل" الذى تصب فيه الساقية ، وهى قناة محفورة فى الحجر ، وتكسوها من الداخل طبقة من الملاط حتى لايؤثر الماء على الحجر الذى حفر به القناة ، ويلاحظ أن جميع هذه المراحيض متشابهة تماما من حيث المساحة والشكل العام اللهم إلا تلك المراحيض الثلاثة التى بالأركان فيلاحظ ان مساحة الفراغ المتروك فى المرحاض كبيرة، وجاء ذلك لضرورة هندسية معمارية خاصة بتصميم الميضأة ، ولكل مرحاض فتحة باب خاصة به تؤدى إليه يبلغ اتساعها ٧٠ سم ، أما إرتفاعها فلا يمكن تقديره حيث أن الاجزاء العليا من هذه المراحيض قد إختفت وترتفع جدرها حوالى ١,٥ متر فقط ، ولكن يمكن أن نقول انه كان بحد أدنى بإرتفاع قامة الانسان فى المتوسط ويلاحظ أن أبواب هذه المراحيض تدور حول الفسقية التى تتوسطها فى اتجاه عكس اتجاه عقرب الساعة ، وقد دفعت ضرورة التصميم إلى ذلك حتى تكون احواض الاستنجاء بداخل المراحيض على يمين " الفرد " بداخل المرحاض ليسهل بذلك نقل الماء من الحوض للاستنجاء به باليد اليمنى إلى اليد اليسرى التى تخصص للتنظيف، وبذلك يتحقق الحكم الفقهى الذى يؤكد على ضرورة استخدام اليد اليسرى فى الاستنجاء وتنزيه اليد اليمنى عن ذلك . وهذه الظاهرة وجدت فى كل ما تبقى من نماذج مراحيض الميضات فى العصر المملوكى.

أما الطهر فمساحته مستطيلة الشكل طولها ١,١٠ متر وعرضها ٩٢, سم وبه حوض من الحجر يبلغ طوله ١,٤٥ متر وعرضه ٦٠, سم وعمقه ٥٠ سم ، ويصل إليه الماء من الحاصل الكبير عن طريق أنابيب فخارية فى الجدار الفاصل بينهما ، ولهذا الطهر باب يفتح على الفناء المربع الأوسط الذى تتوسطه الفسقية ، واذا كانت المراحيض والطهر حاليا بدون تغطية إلا أن وصف هذه المراحيض بوثيقة برسباى يعين على تخيل شكلها الأصلى فقد جاء بوصفها أنه كان " معقود سقف الخلاوى والطهر قبوا " [1] وفى إطار هذا الوصف يمكن إستكمال الأجزاء العليا من المراحيض بإعادة تغطيتها بأقباء يمكن أن تكون مشابهة لذلك القبو الذى يغطى الخزان أسفل هذه المراحيض.

أما الفسقية مثمنة الشكل ويلاحظ أن شكلها الثمانى " ممطوط " بعض الشئ حيث ان ضلعى المثمن الشرقى والغربى أطول نسبيا عن بقية الأضلاع. والفسقية مبنية بالآجر فى طبقتين العليا منهما ترتد عن الطبقة السفلية ويغطى مسافة الإرتداد هذه الملاط ، وهذا البناء المثمن مقام اساسا على قاعدة مستطيلة من الحجر كأساس يظهر منه بعض أجزائه بعد تهدم الفسقية التى كانت تشتمل على مثمن مبنى دائر عليها يجلس عليه المتوضئون، بالإضافة إلى ما كان بها من ميازيب نحاس [2] ضاعت هى الأخرى مع الزمن.

ويصل الماء إلى الميضأة من الحوض الكبير الذى يستقبل الماء من الساقية ، ومن خلال أنابيب TUBES فخارية فى الجدار الفاصل بين الميضأة وبين الكتلة البنائية للساقية ولكنه لا توجد أى آثار توضح طريقة توصيل الماء إلى الفسقية ، والتى ربما كان يصل إليها من خلال أنابيب فخارية أو أقصاب رصاص ، او أن الماء كان ينقل إليها كما كان يحدث ببعض الفساقى ببعض المنشآت الدينية المملوكية [3]

كان هذا بالنسبة لتزويد الميضأة بالماء ، أما بالنسبة للإفرازات فإن المعمار الاسلامى قد بنى خزانا كبيرا لاستقبالها أسفل المراحيض والضلع

---

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٣٩

[2] وثيقة السلطان برسباى ٨٨٠ اوقاف ص٣٨

[3] وثيقة قراقجا الحسنى. نشر عبد اللطيف ابراهيم

الشمالى للميضأة ويدور بدورانها ، ويعلو هذا الخزان قبو برميلى مدبب أسفل المراحيض، اما الضلع الشمالى فمغطى بمجاديل حجرية.

ثانيا : الساقية وملحقاتها :

تقع الكتلة البنائية للساقية ملاصقة للميضأة من جهة الشرق ، وهى تشغل مساحة تساوى مساحة الميضأة تقريبا . وقد بنيت هذه الساقية لرفع الماء من البئر لتزويد الميضأة بالماء المطلوب ، ثم ليسقى من مائها البستان المجاور من ناحية الشرق وكذلك لتزويد حوض الدواب الذى كان مجاوراً للجامع من الجهة الجنوبية فى إمتداد واجهته الشرقية ، وهذه الكتلة البنائية من الأرض يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١٥,٢٥ متر ومن الشرق إلى الغرب ١٤,٩٠ متر ، وتقع الساقية فى الجانب الجنوبى منها وكانت الساقية كما جاء بنص وثيقة برسباى " خشبا كاملة العدة " وكان لها مدار ومنافع وحقوق [1] ولم يتبق الآن من هذه الساقية غير ذلك العقد الحجرى الكبير وبعض أجزائه من بناء بئر الساقية المبنى بالآجر تظهر به آثار احتكاك ترس الساقية الرأسى عند دورانه واضحة ونتيجة احتكاك قواديس الساقية به أحيانا وقد كانت الساقية تصب ماءها فى حوض كبير " حاصل " يوزع منه الماء إلى الميضأة والبستان وحوض شرب الدواب وهو الحوض الذى يحق أن نسميه "حوض التوزيع" أو "الحاصل".

يستقبل هذا الحوض الماء الوارد من الساقية ويتصل بالساقية التى تصب ماءها فيه ، وهو ملاصق تماما لجدار الميضأة الشرقى ، ويقع إلى شمال الساقية مباشرة ، وهو مستطيل المسقط قطعت زوايا أركانه الأربع أضلاع صغيرة فاتخذ شكلا سداسى الأضلاع ذو استطالة يبلغ طول ضلعه ٣,٥ متر وعرضه ٢,٢٠ متر ويبلغ عمقه ٩٠ سم ، وهو مبنى بالآجر ومطلى من الداخل بالملاط " الخافق " ويتصل هذا الحوض بالميضأة بواسطة أنابيب فخارية كما يتوسط جداره الشمالى وعند القاع فتحة تؤدى إلى بقايا قناة

---

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ ص٣٩

محفورة فى الحجر ، ربما كانت تستخدم عند تنظيف الحوض وغسله من وقت لآخر.

كما يتصل حوض التوزيع الكبير " الحاصل " بحوضين كبيرين المصنع " نسبيا بقيت بعض أجزائهما التى تدل عليهما ، وهما مطليان من الداخل بالغاقق ، وهما يمثلان الجزء الذى وصفه الموثق بوثيقة بسباى بما نصه " يتوصل من ذلك الماء إلى مصنع يتوصل منه الماء إلى سلسال مبنى ماد بطول الحد الغربى من الجامع المذكور إلى حوض السبيل[1] وهما يتصلان فعلا بقناة مبنية بالآجر مغطاة بمجاديل حجرية تختفى تحت سطح الأرض وتظهر فى بعض أجزائها وتنتهى هذه القناة فعلا عند آثار حوض سقى الدواب.

ويلاصق حوض التوزيع آثار حواصل مبنية بالحجر يصعب تحديد شكلها الأصلى بالضبط لتهدمها ، وإن كان الجدار الشرقى لهذا الجزء من الحواصل يعلوه على ارتفاع ١,٥ متر من سطح الارض الحالية قناة محفورة فى الحجر بنفس طريقة القنوات السابقة ويلاحظ أنها على الجانب الغربى لهذا الجدار ، واعتقد أن هذه القناة كانت تمتد فوق بقية الجدار الذى تهدم لسقى البستان المذكور.

ومن الصعب للأسف تصور الشكل الذى كانت عليه هذه الحواصل حيث انها مهدمة للغاية كما أن وصفها جاء بنص الوثيقة مجملا ، حيث ان الموثق وصف جميع الوحدات التى سبق وصفها فى هذه الكلمات " يجاور ذلك بئر ماء معين هى الموعود بذكرها على فوهتها ساقية خشبا مكملة العدة إلى مدار ساقية ومنافع وحقوق " [2] ويقصد بهذه المنافع والحقوق هذه الحواصل المتهدمة والتى ربما كانت تستخدم بها كاسطبل لأثوار الساقية وحفظ علوفتها.

---

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ اوقاف ص٣٩

[2] وثيقة برسباى ٨٨٠ اوقاف ص٣٩

حوض سقى الدواب :

كان السلطان برسباى قد أنشأ بجوار جامعه فى الجهة الجنوبية بمحاذاة الواجهة الشرقية للجامع حوضا لسقى الدواب ولكن للأسف لم يتبق من هذا الحوض إلا آثار بنائية تدل على موضعه ، وكان الماء يصل إلى هذا الحوض من الساقية من خلال " سلسال ماد بطول الجدار " الجنوبى " [1] للجامع إلى حوض السبيل " [2]

وبعد هذا الوصف للميضأة والفسقية والساقية وحوض الدواب نعرض لها بالتحليل المعمارى لتوضح طريقة تشغيل هذه الوحدات المختلفة وهو الأمر الذى يظهر كفاءة المعمار الاسلامى.

وأول شئ تجب الإشارة إليه هو موقع هذه الميضأة ، فموقع هذه الميضأة فى الجهة الجنوبية الغربية أمر يتناسب وطبيعة إتجاه الرياح فى مدينة القاهرة حيث أن غالبية الرياح – كما ذكرنا – شمالية او شمالية غربية[3] لأنه يجنب الجامع ما ينبعث من روائح غير مرغوبة تسير مع الرياح فى الاتجاه الآخر وكان هذا هو الحل العملى فى ذلك الوقت.

اما المراحيض التى تشتمل عليها الميضأة فمقاساتها سليمة تناسب إستعمال الإنسان بل إن فيها اتساعا مفضلا ، كما ان عدد المراحيض كان لإستقبال عدد ١٩ شخصا فى وقت واحد وهو عدد كبير ، كما أن طريقة توصيل الماء إلى هذه المراحيض بأحواض الإستنجاء الصغيرة التى بها والمتصلة بالقناة الحجرية – سابقة الوصف – طريقة عملية إذ أنها تكفل وجود الماء بهذه الأحواض بصفة مستمرة ، هذا بالإضافة إلى أن هذه الأحواض يتسع كل منها لكمية من الماء تبلغ ٦ لتر تقريبا ، وهى كمية كافية خاصة وإن تزويد الحوض بالماء يتم بصورة شبه مستمرة ، وعمل المعمار على أن تؤدى هذه الأحواض وظيفتها بكفاءة ، فعمل على زيادة متانتها ومقاومتها للماء فجعل الحوض جزءا من قطعة الحجر الذى حفرت به القناة

---

[1] هذا فى التحديد الوثائقى وعلى إعتبار ان جدار القبلة شرقى يكون هذا الجدار هو الجدار الجنوبى.

[2] وثيقة برسباى ٨٨٠ اوقاف ص٣٩

[3] عرفان سامى. نظريات العمارة ص٢٣

والحفاظ على متانتها لمقاومة تأثير الماء كساها من الداخل بالملاط "الغافق" وهو نوع من الملاط كان يستخدم فى المواضع التى يوضع بها الماء لتخزينه حتى لا يتسرب فهو لا يسمح بتسرب الماء.

ويلاحظ أن وضع القناة التى توصل الماء إلى تلك الأحواض فى مستوى ينخفض عن مستوى حوض التوزيع الذى تصب فيه الساقية ساعد على سهولة إنسياب الماء إليها .هذا بالإضافة إلى أنه يمكن التحكم فى الماء الواصل إلى كل حوض بسده أو فتحه عند منطقة إتصاله بالقناة بسهولة فقد جعلت ضيقه ، كما أن سطح الحوض من أعلاه فى مستوى القناة تماما فلا يفيض الماء منه عند إمتلائه ، وهو أمر لا يحتم سد الحوض وفصله عن القناة اذ ليس هناك ضرر من ذلك ، وهو أمر يكشف عن أن ضيق الفتحة التى توصل الماء إلى الحوض كانت لغرض أهم وهو ان يستمر الماء إلى الأحواض التالية مع نزوله أيضا فى الحوض المتقدم . ولاشك أن هذه القناة بالإضافة إلى الأحواض التى يتسع كل منها لتخزين ٦ لتر يتجمع بها ماء يكفى للإستنجاء حتى لو إنقطع تدفق الماء لسبب ما ، بالإضافة إلى أن إتصال الأحواض بالقناة إتصالا ثابتا يسر بسهولة وصول الماء إلى الأحواض جميعا. ولم يكتف المعمار الإسلامى بهذا التحكم الداخلى فى الميضأة بل إنه يسر التحكم فى منطقة إتصال الميضأة بحوض التوزيع الذى تصب فيه الساقية فجعل هذا الإتصال بين الميضأة والجزء العلوى من حافة هذا الحوض فلا يحتاج المشرف على الميضأة إلى جهد فى عملية التحكم ، عكس ما لو كان الاتصال من قاع هذا الحوض على سبيل الافتراض ولا شك أن سهولة التحكم هنا أمر واجب إذ انه من المعقول جدا أن تسد الفتحة الموصلة إلى الميضأة خاصة عند إمتلاء الأحواض بالماء وهو أمر محتمل جدا خاصة فى غير مواعيد الصلاة ن وكما يشهد توصيل الماء إلى المراحيض ببراعة المعمار الاسلامى فإن وضع المراحيض واتجاهها فى عكس اتجاه عقرب الساعة يشهد ببراعته أيضا.فقد أصبحت أحواض الإستنجاء نتيجة هذا على يمين المستخدم فيسهل إستخدامها فى اطار الحكم الفقهى الذى يوجب الاستنجاء باليد اليسرى ، هذا من جهة ومن جهة أخرى جعلت مجرى فتح الباب الذى يفتح إلى الداخل بعيدا عن كرسى الجلوس فلا يضايق المستخدم للمرحاض عند

دخوله أو خروجه خاصة وإن المرحاض كان يغلق عليه في العادة " فردة باب " واحدة وعرضها عندئذ هو عرض الباب الذى يتروواح اتساعه ما بين ٧٠ : ٩٠ سم .كما أن هذا الوضع ساعد على حل مشكلة المراحيض الثلاثة بالأركان وتوجيه فتحات أبوابها حتى تتلائم مع الوضع الداخلى للمرحاض ومع الميضأة جميعها.

ومن الأمور التى تسجل للمعمار الاسلامى أيضا تلك البساطة المعمارية في جعل الخزان أسفل المراحيض واستغلال ذلك في جعل الخزان كبير الحجم بقدر المستطاع من جهة ، ومن جهة أخرى لم يدع مجالا لاستخدام أدوات توصيل كالأنابيب الفخارية أو القنوت المبنية لو أن الخزان كان بعيدا بعض الشئ ، ثم إن طريقة تغطية هذا الخزان في الجزء الذى تعلوه المراحيض بقبو برميلى مدبب أمر تجب الإشارة إليه ، إذ أنه يدل على إدراك المعمار الاسلامى لمتانة هذا النوع من الأقباء فاستخدمه ليحتمل ثقل المراحيض " الثقل الميت " وثقلها الحى المتمثل فى مستخدمى هذه المراحيض ويؤكد هذا الإدراك أنه لم يستخدمه فى المسافة التى لاتعلوها مراحيض فى الجانب الشمالى من الميضأة ، واستخدم بدلا منه مجاديل حجرية وهو أمر يشير إلى الاقتصاد المعمارى المنظم من جهة وأن هذه المجاديل يسهل رفع بعضها وتركيبها إذا ما أريد نزح هذا الخزان[1] كما انها لا تضطر إلى رفع الأرضية فوقها إذ أن سطحها بمستوى أرضية المساحة التى تتوسطها الفسقية والتى يرتفع عنها مستوى المراحيض التى يوجد أسفلها القبو ، وكان يمكن أن يبنى قبو فى هذه الجهة ، ولا يرتفع عن مستوى الأرضية لكنه كان سيضيق من مساحة الخزان لذلك فإن إستخدام المجاديل فى هذا الجانب كان هو أسلم الوسائل.

أما الفسقية التى تتوسط الميضأة ففى موقعها المناسب إذ أن الخارج من أى مرحاض بالميضأة يصل إليها بعد سير خطوتين فقط كما أن شكلها الثمانى الأضلاع يتيح أكبر مساحة ممكنة من الأضلاع المركب عليها الميازيب ، لتتسع لأكبر عدد من المتوضئين ، اما كون ضلعها الشرقى

[1] فقد كانت تنزح خزانات المراحيض بواسطة عمال يسموا المشاعلية وفق اجر يتفق عليه (راجع النجوم ج٩ ص٤٨).

والغربى أطول نسبيا من بقية الأضلاع الأخرى فقد تحكم فى ذلك المساحة التى أقيمت بها الفسقية فهى مستطيلة الشكل وضلعيها الشرقى والغربى أطول من الضلعين الآخرين فجاءت الفسقية كذلك بهذا االوضع لتشغل أكبر مساحة ممكنة ووجود نوع من التناسب فى شغل المساحات.

أما بالنسبة " للطهر " الذى يقع إلى يسار الداخل فى بداية الميضأة بطرف ضلعها الشرقى ناحية الشمال والذى أنشئ من أجل ان يتطهر ويغتسل ويتبرد به من يريد ذلك وهو بذلك يؤدى وظيفة أساسية لمن يريد الصلاة وتمنعه الجنابة ، ثم وظيفة ترويحية فقد كان يستخدم للتبريد فى أيام الحر الشديد ، ووجوده بالميضأة لذلك وجود ضرورى ويدل على إدراك المعمار الإسلامى للأغراض وتلبية الحاجات لذلك بكل دقة. كما أن موقع هذا الطهر إلى يسار الداخل إلى الميضأة مباشرة يريح المستحم من عناء البحث عنه وسط المراحيض ، كما أنه كفل للطهر التزود بالماء قبل المراحيض التى يصل إليها الماء بعده ، وهو أمر واجب إذ أن حاجة المستحم لكمية أكثر من الماء واجبة وبوجه السرعة وهو أمر قد تتحكم فيه أحواض المراحيض لو أنه وضع بعد عدد منها أو فى آخرها ، أما وضع الطهر قبل المراحيض منع من حدوث ذلك ويسر استخدامه.

والحقيقة التى تجب الإشارة إليها هى فكرة المعمار الاسلامى فى توزيع الماء فى هذه الميضأة أو ما جاورها من وحدات أخرى ، فى أن يكون التوزيع لا مركزيا فالميضأة لها مآخذ منفصلة وعملية التحكم الداخلى فيها سهلة وميسورة إذا أريد ذلك . والسلسال المؤدى إلى حوض سقى الدواب له مآخذ منفصل ، وتتصل به منطقة تغذية إحتياطية تتمثل فى الحوضين السابق الإشارة إليهما باسم " المصنع " ، ثم ان سقى البستان كان يتم من قناة منفصلة وقد كان المعمار بارعا عندما جعل مستوى حوض التوزيع أعلا من مستوى الوحدات المختلفة سواء الميضأة أو قناة سقى البستان أو السلسال المؤدى إلى حوض الدواب حتى يضمن وصول الماء إليها جميعا فى سهولة ويسر فتؤدى أغراضها الوظيفية فى كفاءة تامة ".

فسقية الصحن :

وجد ببعض المنشات الدينية المملوكية بجانب ميضأتها فساقى للوضوء تتوسط صحن المنشأة ، وقد تعرض الكثير من هذه الفسقى لاعمال الإصلاح والتجديد ، وضاع البعض الآخر بأسباب الهدم والتدمير ، وما تبقى من هذه الفساقى ببعض المنشآت الدينية كمدرسة السلطان حسن ، ومدرسة وخانقاة السلطان برقوق [١] وجامع أحمد بن طولون وغيرها لا يوضح طريقة توصيل الماء إليها أو تصريفه منها ولا يبين الشكل الأصلى لها تماما ، ولذلك فإننا نعتمد على ما جاء بالوثائق من نصوص تصف هذه الفساقى وتحدد وظيفتها تحديدا دقيقا بالإضافة إلى دراسة ما تبقى من نماذج هذا النوع من الفساقى.

فقد وصف موثق وثيقة قلاوون فسقية الصحن بمدرسته بأنها فسقية مثمنة وظاهرها مرخم بالرخام الملون والمسفن والكرسى الداير بها ، وبوسط الفسقية المذكورة عمود رخام علوه نوفرة رخام كبيرة أعنى الفسقية [٢] وكما هو واضح من الوصف أنه لم تكن مغطاة ولكن الأمير أزبك بن ططخ فى سنة ٨٩٩ هـ أثناء عمارته للمدرسة عمل قبة أعلى هذه الفسقية التى كانت بالصحن [٣] ويصف موثق وثيقة برقوق الفسقية بمدرسته بما نصه " فيما بين الأواوين الأربعة دور قاعة بوسطها صحن مثمن مغلف بالرخام الملون ظاهره وباطنه بسفله سلسال غاطس داير على الصحن المذكور "[٤] ووصف موثق فسقية سودون من زاده الفسقية التى كانت تتوسط صحن جامعه بما نصه " وفيما بين هذه الأروقة صحن الجامع المذكور وهو مرخم بالرخام الملون وبه فسقية كبرى مثمنة نوفرة بها ستة عشر مفروكة يخرج منها لاستعمال المتوضئين وبجانب الفسقية المذكورة بير ماء معين "[٥] ويصف موثق المؤيد شيخ الفسقية التى كانت تتوسط صحن جامعه بما نصه " وفيما

---

[١] ليست هذه الفسقية أصلية ولكن وضعت بدل الاصلية.

[٢] وثيقة قلاوون ٧٠٦ ج أوقاف

[٣] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص١٢١

[٤] وثيقة برقوق ٥١/٨ محكمة

[٥] وثيقة سودون من زاده ٥٨/١٠ محكمة

بين الأواوين المذكورة دور قاعة مفروش بالرخام الملون بوسطه فسقية برسم الماء تتكون رخام ابيض يعلو ذلك قبة مذهبة على كرادى ورفرف دائر[١] مشهر بالبيض والذهب بطلاء قشانى كاملة الرخام ".

وتوضح النصوص الوثائقية كذلك طرق توصيل الماء إلى الفسقية ، وكانت الطريقة الشائعة هى توصيل الماء من بئر الساقية الذى يلحق عادة بالمنشأة .وقد جاء بوثيقة برقوق مانصه " وأما الفسقية التى بدور القاعة فوقفها لإستقرار الماء الواصل إليها من البئر والساقية الآتى ذكرهما فيه لينتفع بذلك أرباب الوظايف بهذا المكان والمقيمين به والمترددين إليه من سائر المسلمين أجمعين فى وضوئهم وتنظيفهم إنتفاع مثلهم بمثل ذلك على الوجه الشرعى[٢] وجاء بوثيقة المؤيد شيخ ما يؤكد ذلك بما نصه " وأما البئر والساقية وهو من حقوق ذلك المذكور أعلاه فإنه وقف ذلك بسبب جريان الماء إلى الفسقية التى بصحن الجامع المذكور وإلى الفسقية التى بالميضأة وإلى بيوت الميضأة المذكورة [٣] ولما كانت المسافة بعيدة بين الساقية والفسقية فكان الماء يصل إلى الفسقية بواسطة أنابيب فخارية أو أقصاب من الرصاص أو قنوات مبنية يطلق عليها المصلح الوثائقى " سلسال " وكانت تغذى بعض الفسقيات من آبار تحفر بجانبها مباشرة بالصحن مثل فسقية جامع سودون من زاده[٤] .

ومما سبق يتضح وصف الفسقية التى كانت تتوسط الصحن ، فهى غالبا ما تأخذ الشكل المثمن ولها " صنابير " يستخدمها المتوضئون عند التوضؤ تفتح وتغلق حسب الحاجة ، ويوجد ببعض الفساقى فوارة مركزية يفور منها الماء ، وهذه الفساقى يدور حولها كرسى مرتفع يجلس عليه المتوضئون حتى لايتعرضون للرشاش أثناء الوضوء ، وهو الأمر الذى تحذر منه أحكام الفقهاء وتجنبه المعمار بعمل ذلك الكرسى المرتفع لجلوس

---

[١] وثيقة المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف

[٢] وثيقة برقوق ٨/٥١

[٣] وثيقة المؤيد شيخ ٩٣٨

[٤] وثيقة سودون من زاده ١٠/٥٨

المتوضئين بحيث ينصرف الماء المتبقى من الوضوء إلى قناة فى مستوى منخفض بين الكرسى وبدن الفسقية ذاتها ، وكانت هذه الفساقى فى الغالب مغلفة بالرخام الذى يتحمل الماء ويسهل تنظيفه ، ولما كانت هذه الفساقى تتوسط صحن المنشأة الذى كان مكشوفا فى غالب المنشآت الدينية ، فقد عمل المعمار الاسلامى على تغطية الفسقية وكانت هذه التغطية عادة بمواد خفيفة لأنها تقام عادة على أعمدة رخامية بسيطة ويبدو أن فسقية المؤيد – كما هو واضح من النص – كذلك ولكن البعض جعلها قبة كبيرة من الحجر بطراز قباب العصر المملوكى كماهو الحال فى قبة فسقية لاجين بجامع ابن طولون.

واذا كان المعمار الاسلامى قد قام بدوره كاملا من حيث تصميمه للفسقية التى بالصحن بحيث يمكن إستخدامها للوضوء الصحيح فوفر لهم الحماية من الشمس التى يتعرض لها الصحن المكشوف والماء الذى يصل إليها فى سهولة ويسر بالطرق المختلفة ، فإن الواقفين شرطوا من الشروط ما يجعل مثل هذه الفساقى مقصورة على هذا الإستخدام " الوضوء " خاصة وأن الأحكام الفقهية توجب المحافظة على نظافة الجامع أو المسجد والتحرز من النجاسات ، ونجد مثلا السلطان برقوق يشترط بوثيقة وقفه " ألا يمكن أحد من الإستنجاء حول الفسقية المذكورة ولا من الوضوء داخل الفسقية المذكورة بل يغترف منها ويتوضأخارجها ، ولا يلقى منها شيئا من القاذورات مثل البصاق وغيره لتكون سالمة من الأدناس محفوظة من الأقذار والأرجاس باقية على حكم النظافة والتطهر سالمة من شوائب التكدير "[1] وهكذا كانت هذه الفساقى تؤدى خدماتها للمتوضئين الذين يريدون تجديد وضوئهم والذين ليست لهم حاجة إلى استخدام المراحيض عند الوضوء.

وأمام أهمية مثل هذه الفساقى نجد تكرار استخدامها فى المنشأة فى وحداتها الأخرى ولعل أروع الأمثلة على ذلك تلك الفساقى الأربع التى أنشئت بالمدارس الأربع ، بمدرسة السلطان حسن ، بالإضافة إلى فسقية الصحن والتى أطلق عليها المصطلح الوثائقى " بحره " وكانت هذه الفساقى بحجم أصغر وبنفس الشكل الشائع " المثمن " ، فقد وصفها الموثق بأنها " فسقية "

---

[1] وثيقة السلطان برقوق ٥١/٨ محكمة

لطيفة مثمنة "[١] وقد أعدت هذه الفساقى لإستخدام الطلبة وشيوخهم فى كل مدرسة " من هذه المدارس فتحقق لهم نوعا من الاستقلال لأنها تكفيهم عن استخدام فسقية الصحن أو الميضأة.

مراحيض الوحدات المعمارية :

إذا كانت الميضآت بما تشمله من مراحيض تؤدى خدماتها بطريقة مكثفة للقاطنين ، والواردين إلى المنشأة الدينية بصفة عامة ، فإن المعمار الاسلامى ألحق بالوحدات المختلفة للمنشأة مراحيض مستقلة لخدمة العاملين بها والقاطنين فيها بصفة خاصة ، وقد ألحق بمكتبة المدرسة الأشرفية برسباى مرحاض[٢] فقد كانت هذه المكتبة تشتمل على قاعة خاصة لسكن خازنها ، ولاشك ان إلحاق مرحاض بها كان ضروريا فهو يعطيها نوعا من الاستقلال والراحة ،وقد انتشرت مثل هذه المراحيض فى القاعات والوحدات المختلفة التى تلحق عادة بالمنشآت الدينية حسب الحاجة إليها ، فى توزيع محكم يدل على إدراك المعمار الاسلامى لحاجة هذه الوحدات إلى مثل هذه المراحيض[٣] وأمثلة ذلك كثيرة فقد جاء بوثيقة برقوق مانصه " سلم معقود بالبلاط الكدان يصعد منه إلى ثلث طباق بكل منها شباك حديد بعضها يطل على دور قاعة المدرسة المذكورة وذات المرحاض المختص بالطباق المذكورة[٤] . وفى وثيقة فرج بن برقوق مانصه " ويجاوره باب يدخل منه إلى مرحاض ثم بباقى المجاز من الجهة الشرقية ثلاثة أروقة كاملة المنافع والحقوق[٥] ولابد أن هذا المرحاض كان لخدمة هذه الأروقة وجاء بوثيقة جوهر اللالا مانصه " ويدخل منه إلى سلم معقود بالبلاط يصعد من عليه إلى رواق يحوى إيوانا ودورقاعة وسقف الإيوان نقيا ملمعا وذات المنافع والحقوق والمرحاض المختص بذلك[٦] . وفى وثيقة الجمالى يوسف مانصه " إلى خلوة كبرى

---

[١] وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف

[٢] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٩

[٣] وثيقة قايتباى ٨٨٦ ص١٧،ص١٨،ص٢٢

[٤] وثيقة برقوق ٥١/٨ محكمة

[٥] وثيقة فرج بن برقوق ١١/٦٦

[٦] وثيقة جوهر اللالا ١٠٢١

بمرحاض خاص مسقفة نقيا ذات إيوان ودورقاعة[1] . وجاء بوثيقة قرقماس مانصه " يدخل الباب المذكور إلى رواق يحوى إيوانين ودورقاعة بها باب يدخل منه إلى كرسى خلا[2] كذلك كانت لمساكن الطلبة مراحيضها المختصة بها ، فقد جاء بوثيقة قلاوون مانصه " ويصعد من السلم الذى بين البابين والثالث من المدرسة المذكورة إلى البيوت العلوية المرسومة لسكنى الفقهاء أيضا وعدتها سبعة وعشرون بيتا وبكل دور من أدوار بيوت الفقهاء ثلاثة مراحيض ".[3] ولعل أروع الأمثلة الباقية على ذلك مواضع المراحيض التى وجدت بمساكن الطلبة المتصوفة بكل من مدرسة السلطان حسن وخانقاة شيخو والتى وضعت فى أماكن مناسبة تسهل على أفراد الأجنحة المختلفة لهذه المساكن الإتصال بها واستعمالها كما أن وضعها بأطراف هذه الأجنحة لاءم وضع المساكن والخلاوى. كما أن وجودها فى بداية ونهاية كل جناح منها ما يعين على تيسير إستخدامها بقطع أقصر مسافة ممكنة إليها كما أنها وفرت على ساكنى هذه المساكن النزول إلى مراحيض الميضأة العامة. ولعل ما يشير إلى شدة حرص المعمار على توفير الراحة والتيسير على من بالمنشأة بتوفير المراحيض موزعة فى الأماكن المختلفة أنه جعل مرحاضا بأعلى سطح المنشأة فى بعض الأحيان ليوفر الجهد على مستخدمه ممن عساه يكون بهذا الموضع ، فقد جاء بوثيقة قايتباى مانصه " وبالسطح المذكور سطح القبة الآتى ذكرها فيه و: ير دورالقاعة صحن الجامع المذكور أعلاه وهو خشب خرط مأمونى وبه كرسى مرحاض معد لقضاء الحاجة "[4] وكانت عملية التخلص من الإفرازات التى بهذه المراحيض فى حساب المعمار المملوكى الذى قام بناء قنوات رأسية تصل ما بين هذه المراحيض وما بين " مسارب " عبارة عن قنوات تنقل هذه الافرازات إلى آبار الصرف الخاصة بالمنشأة ولعل أروع الأمثلة على ذلك ما وجد فى مدرسة قرقماس بالصحراء

---

(1) الجمالى يوسف٤٦/٧

(2) وثيقة قرقماس ١١٩

(3) وثيقة قلاوون ٧٠٦ /ج أوقاف

(4) وثيقة قايتباى ٨٨٦ اوقاف ص٢٠

آبار مستقلة :

وكما توزعت المراحيض المنفصلة داخل وحدات المنشأة فإنه وجدت ببعض المنشآت آبار للماء مستقلة بدون سواقى عليها لرفع الماء ، وكان الماء يؤخذ منها – فيما يبدو –بالدلائل ، مثال ذلك ما وجد فى منشأة القاضى يحيى زين الدين بالأزهر، فقد جاء بوثيقة وقفه مانصه " ويدخل من الباب الثانى المقدم ذكره وهو الأيمن إلى دهليز مسقف نقيا مفروش بالبلاط به حاصلان معقود كل منهما قبوا وهما أسفل الإيوان المذكور القبلى على كل منهما فردة باب وبأحدهما بئر ماء معين.[1] وتلك البئر التى كانت بجوار فسقية الصحن بجامع سودون من زاده ، والتى كانت فيما يبدو تستخدم لتغذية الفسقية بالماء حيث ان الساقية والميضأة كانت فى الجهة المقابلة للجامع. ولم يكن الماء يتوصل إلى الفسقية التى بالصحن من بئر تلك الساقية. وهكذا استطاع المعمار الاسلامى تزويد المنشأة بما تحتاج إليه من ميضآت وفساقى ومراحيض وآبار ماء تؤدى أغراضها الإنتفاعية بكفاءة تساعد المنشأة بصفة عامة على أداء الوظيفة التى أنشئت من أجلها.

الحمامات :

ألحقت ببعض المنشآت الدينية في العصر المملوكى حمامات لتخدم القاطنين بها خاصة مثال ذلك الحمام الذى أنشأه السلطان الناصر محمد ملحقة بخانقاته بسرياقوس ، فقدجاء بوثيقة وقفه مانصه " وأما الحمام المذكور فإنه جعلها لدخول الشيخ والفقراء والصوفية المقيمين والواردين المشار إليهم ومن يلوذ بهم وغيرهم ممن يختار الشيخ من المسلمين خاصة ليلا ونهارا على العادة فى ذلك.[2] وكما هو واضح من النص أن هذا الحمام كان خاصا بأهل الخانقاة وجعل الشيخ الحرية فى اختيار من دونهم لدخوله. ولكن للأسف لم تتضمن الوثيقة وصفا لهذا الحمام حتى نستطيع منه التعرف على تخطيط مثل هذه الحمامات الخاصة بالمنشآت الدينية. وهناك من الواقفين من أنشأوا حمامات مجاورة لمنشآتهم يستفيد بها القاطنون فى هذه المنشآت إستفادة العامة منها مثل حمام المؤيد شيخ المجاور لجامعه ، وحماما شيخو بجوار

[1] وثيقة القاضى يحيى زين الدين ١١٠/١٧ب

[2] وثيقة الناصر محمد٢٧/٥ محكمة

خانقاته، وقد اتصلت بعض هذه الحمامات بهذه المنشآت عن طريق أبواب مخصصة لذلك، فقد جاء بوثيقة المؤيد مانصه " والباب الرابع مقنطر يغلق عليه فردة باب يدخل منه إلى المكان المذكور وإلى الخانقاة وإلى الحمام وإلى الميضأة[١] وقد تبقى حمام المؤيد محتفظا بكثير من وحداته المعمارية المختلفة[٢].

[١] وثيقة المؤيد شيخ ٩٣٨

[٢] للتعرف على هذا الحمام من الناحية الأثرية والمعمارية يمكن الاطلاع على الدراسة التى قام بإعدادها الزميل محمد سيف النصر ابو الفتوح من منشآت الرعاية الإجتماعية بالقاهرة حتى نهاية العصر المملوكى .فهو يتعرض للحمامات كنوع من هذه المنشآت بالدراسة التفصيلية المستفيضة.

الفصل الثانى

عناصر الاتصال والحركة :

تعتبر عناصر الاتصال والحركة من العناصر الهامة فى المبنى ، إذ أنها تربط أجزاءه بعضها ببعض ، كما انها تصل المبنى بما يحيط به من شوارع وحارات وأزقة ، أو ما يلحق بها من وحدات فى الجهة المقابلة عن طريق " ساباط " يرتبط بين المبنى وملحقاته يعلو ما يفصل بينهم من شوارع ، وهكذا يتضح أن عناصر الإتصال والحركة فى المبانى لها علاقة وطيدة بالشوارع التى تطل عليها.

وقد أوضحت الشريعة الإسلامية حقوق الطريق.فحددت العلاقة بين المبانى وبين ما تطل عليه من شوارع بحيث انها حرمت إعاقة الطريق ببروز المبانى فيها سواء بالسلالم الخارجية ، أو بالمطلات البارزة عن سمت واجهتها أو المساطب والحوانيت التى تبنى مجاورة لها ، أو ما يبنى فوق الشارع من عناصر اتصال " كالساباط " إلا إذا كان بارتفاع معين حدده الفقهاء بإرتفاع راكب فوق جواده يحمل رمحا رافعه بيده ، وأباحت هدم ما يعترض الطريق حتى ولو كان مسجدا. ولعل فيما فعله الأمير يشبك من مهدى الذى قام سنة٨٨٢ هـ بقطع شوارع القاهرة وهدم ما يعترض مسالكها خير دليل على الحرص على إعطاء الطريق حقه ، وقد ثار بعض الناس لذلك لأنهم تضرروا ربما بسبب مغالاة القائمين بذلك فى بعض الأمور، مما دعا بعض الفقهاء إلى توضيح حق الطريق الذى يجب أن يتبع ، فلا يحدث غبن للناس ، ولا هضم لحق الطريق فأشار إلى أحكام الفقهاء وأرائهم فى هذا المجال ، مثل أبى حامد المقدسى الذى كتب كتابا فى هذا الموضوع سماه " الفوايد النفسية الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة ".

وقد راعى المعمار المملوكى فى منشآته الدينية حق الطريق التى تطل عليها ، ولعل الفارق بين سمك الجدران فى واجهات العمائر المملوكية فى طرفيها ، وهو الذى قد يصل إلى ما يزيد عن مترين فى بعض المنشآت كما فى المدرسة الأشرفية برسباى ، يكشف عن محاولة المعمار المملوكى الموافقة بين اتجاه القبلة ، والمحافظة والحرص أن تكون المنشأة بمحازاة

الشارع فى الوقت الذى تأخذ فيه المنشأة شكلا منتظما من الداخل. يعد ذلك أكبر دليل على حرص المعمار على حق الطريق .كما أنه استخدم الدرج ذو الجانبين خاصة فى المنشآت التى ترتفع مستوى أرضيتها عن مستوى أرضية الشارع [١] مثال مدرسة السلطان حسن ، ومدرسة برقوق وجامع المؤيد شيخ، ومدرسة برسباى بالأشرفية ، أمر يبين حرص المعمار على ألا يعوق هذا الدرج قارعة الطريق فلو أنه بنى فى المواجهة لامتد بسبب إرتفاعه ما يزيد على منتصف الطريق [٢] ، فكان امتداده على الجانبين أسلم الحلول لذلك بل وأكثرها إقتصادا ، لأنه يوفر أسفل بسطته مكان استغله المعمار فى بناء حانوت ، كما أن ازدواج السلم ضاعف فرصة إستخدامه.

كذلك تظهر مراعاة المعمار لحق الطريق فى تلك المنشآت التى لها ملحقات فى الجهة المقابلة للشارع ، ووصل المعمار بين المنشأة " الأم " وملحقاتها " بساباط ، يعلو الطريق. كما فى الساباط الذى يربط بين جامع قجماس وميضأته الذى يعلو الشارع شمالى المنشأة ، فيلاحظ أن المعمار إرتفع بفتحة عقد القبو الذى يعلوه " الساباط " عن مستوى الشارع الأصلى الارتفاع الذى يمكن تحديده ، لحسن الحظ - بمستوى أرضية الدكاكين اسفل هذه المنشأة على أقل تقدير ، وحتى إرتفاع فتحة القبو والذى يبلغ ٥ متر ، وهذا الارتفاع أكثر من الارتفاع الذى حدده الفقهاء بمقدار ارتفاع راكب فوق جواد يرفع رمحه ، أى حوالى ٣,٥ متر باقصى تقدير. وهذا يعنى أن المعمار زاد فى الارتفاع زيادة مفضلة عماحدده الفقهاء بما يشير إلى مدى إلتزام المعمار بحدود الشريعة التى تتعلق بالطريق فى بناء عناصر الاتصال والحركة فى منشاته الدينية.

وتظهر مراعاة المعمار المملوكي لحق الطريق بصورة واضحة فى تخطيطات المنشآت التى تقع على أكثر من شارع ، أو التى تحيط بها الشوارع من كل جانب ، ومن نماذج النوع الأول المدرسة الأشرفية برسباى التى تطل على الشارع الأعظم - شارع المعز لدين الله - حاليا بواجهتها الشرقية وعلى زقاق ضيق بواجهتها الشمالية ، وعلى آخر ضيق غير نافذ

---

[١] ارتفع مستوى المنشآت الدينية المملوكية بصفة عامة خاصة المعلقة منها ، عن أرضية الشارع ، وهو ارتفاع وفر نوعا من الهدوء ، وساعد على الإضاءة ، وحقق إنتفاعا بإستغلاله فى بناء طابق سفلى كالحوانيت والحواصل.

[٢] مثال ذلك سلم المدرسة الأشرفية الذى يرتفع ٢ متر اى ١٠ درجات تمتد فى عرض الشارع ٢,٥ متر وعرض الشارع فى المتوسط ٤متر.

أيضا بواجهتها الجنوبية ، فما كان من المعمار إلا أن شطف الركن الذى يتصل فيه الواجهة الشرقية بالواجهة الشمالية إلى مستوى يصل ٢,٥ متر من الأرضية الحالية ثم إرتد بالركن إلى زوايته القائمة بواسطة حطتين من المقرنصات[١]، حتى يسهل مرور المارة إلى الزقاق الضيق الذى تطل عليه الواجهة الشمالية.

كما أنه لضيق هذا الزقاق ، وقلة نسبة الضوء الوارد منه للمنشأة ، اضطر المعمار أن يجعل بالجدار الشرقى للضريح نافذة بدلامن المحراب الذى يعمل به عادة[٢] وهذا يبين أثر الشوارع على تخطيط وإنشاء المنشأة. ومن أمثلة المنشأت التى تحيط بها الشوارع من كل جانب جامع قجماس الإسحاقى الذى اضطر المعمار إلى أن ينكسر بواجهته الجنوبية أكثر من مرة ، حتى يلائم بين وضع المنشأة وعدم إعاقتها للطريق ، خاصة سلالم وحداتها المختلفة سواء المدخل الرئيسى أو سلالم السبيل، كذلك ما وجد فى مدرسة مثقال بالجمالية التى إرتفع المعمار ببنائها فوق الممر المقبى أسفلها والذى يشطر مساحة المدرسة إلى قسمين ، فكان إرتفاعه بالبناء مساعدا على تحقيق غرض الاتصال بين أجزاء المنطقة التى تقع بها المنشأة ، ويمكن كذلك من ان يبنى منشأة على المساحة متغلبا على هذا العائق فى براعة مشهودة.

وتبدأ عناصر الاتصال بالدرج الذى يربط بين الشارع الخارجى وبين المنشأة نفسها ، وهنا نشير إلى بعض المنشآت كان يتوصل إليها مباشرة دون الحاجة إلى درج لأنها بمستوى أرضية الشارع ، وكان ذلك بالنسبة لما يسمى عادة بالمساجد الأرضية ، كما أن ميضأة المنشآت الدينية التى كانت لها أبواب مستقلة كانت بمستوى أرضية الشوارع وكذلك بعض الوحدات السكنية بالمنشأة التى كان لها أبوابا مستقلة صغيرة ، كانت هذه الأبواب عادة بمستوى أرضية الشارع .أما المنشآت التي يتوصل إليها بدرج،فهى التى ترتفع عن مستوى الأرض سواء كانت معلقة[٣] أى بنى أسفلها دكاكين أو مخازن ،أو

---

[١] إستخدم المعمار الفاطمي ذلك الحل فى المسجد الأقمر فى الركن الذى يصل بين الواجهة الغربية و الشمالية.

[٢] يعتبر مثل هذه النوافذ من عناصر الاتصال لأنها تستخدم كمطلات ويجلس بها أحيانا القراء يقرأون القران ليسمعهم من بالشارع

[٣] وجدت نماذج للمنشأت الدينية المعلقة قبل العصر المملوكى مثل جامع الصالح طلائع ٥٥٥ هـ/ أقدم النماذج ويرى البعض ان المسجد الاقمر كان كذلك اعتمادا على ماذكره المقريزى عند حديثه عن هذا المسجد نقلا عن ابن عبد الظاهر " أن المامون البطائحى

لارتفاع مستوى أرضيتها عن أرضية الشارع نفسها مثل منشأة سلاروسنجر الجاولى التى بنيت فوق ربوة مرتفعة عن أرضية الشارع ، أو فى الوحدات التى يوجب بناءها إرتفاع أرضيتها عن مستوى الأرض نفسها ، كما فى السواقى حيث تفرض ضرورة الإنشاء أن تكون مرتفعة بمستوى معين يتلاءم وبناء البئر وما يركب عليه من تروس للساقية ، وكان يصعد إلى مدار الساقية فى هذه الحالة " بزلاقة " أى استطراق يميل بإرتفاع دون درج يمكن الحيوانات الصعود عليها دون صعوبة.

واذا وضعنا فى الإعتبار أن الدرج من أكثر الإجزاء تعرضا للهدم والتدمير ، وأن مستوى أرضية شوارع القاهرة كان يرتفع بمعدل كبير فقد قام– كما ذكرنا – يشبك فى العصر المملوكى " بقطع " هذه الشوارع لإرتفاعها وتأثيرها على المداخل ، كذلك فإننا نلاحظ حاليا نسبة هذا الارتفاع من خلال ما حفر من خنادق تحيط ببعض الآثار للكشف عما إنطمر منها بسبب إرتفاع الأرضيات فى العصور المختلفة ، ويمكن أخذ الخندق المحيط بمنشأة قجماس مثالا جيدا لمشاهدة ذلك. وأمام كل هذه العوامل فإن عملية التعرف على أنواع الدرج الذى كان يربط المنشآت الدينية المملوكية بالشارع يحتاج إلى الاعتماد على ما جاء بوصف الوثائق ، وما كشفت عنه الحفائر أثناء عمل بعض الخنادق التى تحيط او تتقدم هذه الآثار مع دراسة ما تبقى من نماذج قد يكون التعديل قد طرأ على بعضها فى وقت ما.

ويمكن تصنيف الدرج الذى يتقدم المنشآت الدينية غالبا إلى ثلاثة أنواع ، فغالبها من النوع ذو الوجهين الذى يتدرج على الجانبين ويؤدى كل درج منها إلى البسطة التى تتقدم المدخل ، مثل ما هو قائم فى مدرسة وخانقاة برقوق بالنحاسين ، ومدرسة برسباى بالأشرفية الذى جاء وصف سلمها الخارجى بوثيقة وقفها مطابقا للشكل الذى هو عليه حاليا فقد جاء بالوثيقة مانصه " وهى " المدرسة الأشرفية " جميع المكان الكائن بالقاهرة المحروسة بالشارع الأعظم برأس الحريريين الكامل أرضا وبنا المشتمل على واجهة شارعة فى الشارع يقابلها بسطة بسلمين على جانبيها الشرقى والغربى يصعد

(=) بنى تحت الجامع المذكور فى أيامه دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح لامن صوب القصر" ولا يوجد حاليا أى أثر لها وربما تكون كلمة " تحت " بمعنى أى بجانبه جهة الجنوب كان يقال " تحت الربع " أى بجانب الربع من الجهة الأخرى وقد استخدمت هذه الكلمة عادة فى العصور الوسطى بهذا المعنى لتحديد ذلك الموضع كما استخدمت كلمة " رأس " بمعنى أول المكان.

من كل منهما إليها أسفلها حانوت معد بالشارع يتوصل من البسطة إلى باب كبير "[1] ويوجد بوثيقة وقف جامع القاضى يحيى زين الدين بالأزهر الذى كان يطل بواجهته الغربية على الخليج مباشرة وصف للسلم الذى كان بهذه الجهة مانصه " يدخل منه إلى سلم حجرا بوجهين براسه ينزل من إلى الخليج المذكور"[2]هذا ويلاحظ أن إنتشار هذا الدرج منه هذا النوع والدرج الجانبى المزدوج كان مرتبطا بضيق شوارع القاهرة ، وبما تفرضه ظروف الموقع مثل ما فى جامع القاضى يحيى زين الدين الذى يطل على الخليج وعمل له درج فى هذا الجانب.

أما النوع الثالث فهو الدرج الدائرى، وقد ندرت نماذجه الباقية ، فيوجد أمام مدخل منشأة منجك اليوسفى درج حجرى دائرى يتكون من أربع درجات ، ووجد درج مماثل يتقدم مدخل مدرسة مثقال ، حيث يتقدم المدخل درج دائرى من سبع درجات حجرية ويوجد مثال مماثل فى خانقاة فرج بن برقوق بالصحراء ، ويلاحظ أن هذه النماذج جميعا كانت لاتعوق الطريق ، كما أنها فى طرق بعيدة عن مواكب السلاطين والأمراء والتى كانت تمر غالبا فى الشارع الأعظم وبالذات فى منطقة القاهرة الفاطمية ، ولذلك وجدنا ان المعمار فى منشآت هذا الشارع جنبه امتداد درجها فجعله غالبا سلم ذو وجهين جانبين كما فى خانقاة برقوق بالنحاسين ومدرسة برسباى بالأشرفية، وجامع المؤيد شيخ وهكذا فحقق الدرج الغرض الوظيفى منه بتوافق تام مع وضع الشارع الذى تطل عليه المنشاة دون إعاقة وفى سهولة اتصال ميسورة.

ويؤدى الدرج عادة إلى بسطة مستطيلة او مربعة المسقط ، تتقدم حنية المدخل ، وتشكل هى وحنية المدخل مساحة كبيرة تتسع للخارجين من المنشاة بأعداد كبيرة خاصة عند الإنتهاء من الصلوات الجامعة .ويوجد على جانبى حنية المدخل مكسلتان ليستريح عليهما البواب الذى كان يقوم بحراسة المنشأة فى العصر المملوكى ، ويتوسط صدر حنية المدخل فتحة الباب ، وكان الغالب فى شكل فتحات الأبواب "المربعة" ذات العتب المستقيم ويعلو

---

[1] وثيقة وقف برسباى ٨٨٠ص١٢

[2] هدم هذا السلم وبنى عدة مرات بسبب استخدام هذه المدرسة كموقع حصين ضد القلعة. فقد هدم برقوق هذا الدرج سنة ٧٩٣هـ وأعاد السلطان برسباى بناءه ٨٢٥ (راجع المقريزى خطط ج٢ ص٣١٥-ص٣١٦) ثم هدم بعد مرة أخرى سنة ١١٤٩ هجريا وأعاد بناءه سليم أغا مستحفظان ١٢٠٠ (على مبارك .الخطط التوفيقية ج٤ ص٨٦) وقد أعادت لجنة حفظ الآثار بناءه كما بمحاضر اللجنة ١٨٩٣.

بعضها عقود مستقيمة ، يعلوها عقود عاتقة ، تساعد على سدما يعلوه فتحة الباب ، ثم يعلو ذلك طاقية المدخل في حطات من المقرنصات داخل طاقية واجهتها عبارة عن عقد مفصص ثلاثي أو خماسي ، وقد تكون واجهة المدخل بإرتفاع واجهة المنشآت ، أو تعلوها ، ويلاحظ الإهتمام بالمداخل الرئيسية للمنشآت الدينية بما نراه بها من تفصيلات بنائية أو زخرفية لها وظيفة تعبيرية عن المنشآت وتلفت الإنتباه إليها فلا يضيع المدخل في بقية أجزاء الواجهة.

وليس من السهل وضع نسبة ثابتة بين إرتفاع الأبواب واتساعها قد تكون متقاربة من نسبة ٢:١ أي يكون اتساع فتحة الباب نصف إرتفاعها ، وقد وجد أصغر فتحة باب رئيسي في مدرسة بشير أغا الجمدار والذي يبلغ اتساعه ١,١٠ متر وارتفاعه ٢,٢٠ متر ، وأضخم فتحة باب وجدت في مدخل مدرسة السلطان حسن إتساعها ٣,٦٠ متر وإرتفاعها ٦,٢٤ متر ، وقد يكشف هذا عن نوع من التناسب بين حجم المنشأة ، واتساع فتحات أبوابها.

وتؤدي فتحة الباب في الغالب إلى دركاه مربعة أو مستطيلة المسقط ، تؤدي إلى دهليز ينتهي إلى الصحن ، وتشكل الدركاه والدهليز في هذه الحالة – معاً ما يسمى بالمدخل المنكسر ، وقد كان ذلك غالبا في تخطيطات المنشآت ذات التخطيط المتعامد للأواوين حتى أنه يمكن القول بأن الرغبة في إنشاء أواوين مستقلة بهذا التخطيط ، كان له أثره الواضح في وجود الدركاه والدهليز بهذا الشكل ، ويؤكد ذلك ما نراه – من اختزال –الدهليز وحتى الدركاه في بعض المنشآت التي لا تسير حسب هذا التخطيط،كما في المساجد الجامعة ذات الأربعة أروقة المتصلة ، مثل جامع المارداني وجامع الناصر محمد بالقلعة ، وجامع القاضي يحيى ببولاق وغيرها[1]ثم إن تكرار استخدام هذه العناصر " الدركاه والدهليز " جعل إستخدامها متعارفا عليه ، فأنشئت بعض المنشآت المعمارية مداخل تكون كتلة ملتصقةبالمبنى مستقلة عن تخطيطه تقريبا ، تضم هذه الوحدات وغيرها من الملحقات كما هو الحال في جامع برسباي بالخانكة ، الذي اشتملت كتلة مدخله الرئيسي بالواجهة الشرقية على دركاه ودهليز يؤدي إلى واجهته الغربية ، ويمكن القول إن إلحاق ملحقات أخرى بالجامع مثل السبيل والمكتبة وأروقة السكنى العلوية ، كان له أثر في وجود الدركاه والدهليز التي ربطت هذه الوحدات أيضا بالجامع بدليل وجود مدخل عادي مباشر بالواجهة الغربية للجامع ، وخلاصة القول أن

[1] انظر شكل رقم ٣٩ ، ٤١

تخطيط المداخل فى العمائر الدينية المملوكية إتصل.إتصالا وثيقا بتخطيط المنشأة وما تشتمل عليه من وحدات ، فوجدت المداخل البسيطة المباشرة ووجدت المداخل التى تؤدى إلى دركاوات أو دهاليز توصل إلى داخل المنشأة وتربط بينها وبين وحداتها المختلفة الأخرى كالسبيل والمكتبة والمساكن والميضأة وغيرها حسب تخطيطات هذه المنشآت وما يلحق بها فنجدها أحيانا تتوسط الواجهات فى المساجد الجامعة ذات الأروقة المتصلة وتؤدى إلى الأروقة الشمالية والجنوبية والغربية عادة ، ونجدها بطرف الواجهة فى المنشآت التى كانت تخطيطاتها متعامد الأواوين غالبا ، كما أن لموقع المنشأة والشوارع المطلة عليها ومساحتها أثر كبير فى ذلك أيضا ، كما هو الحال فى المدرسة الأقبغاوية وقجماس الإسحاقى وسلاروسنجر الجاولى وبيبرس الجاشنكير ، وتتار الحجازية.

ويمثل الدهليز والدركاه فى هذه المنشآت عنصر إتصال هام إذ إنها توصل إلى صحن المنشأة ، ويتوصل منها أيضا إلى الوحدات الأخرى التى تطل عليها كالسبيل والكتاب أعلاه ، والمزملة وأروقة السكنى وغيرها ، وتتسع هذه الدركاه والدهليز كذلك للمصلين فى حالة ازدحام المنشأة بالمصلين، وقد يسر المعمار إتصال المصلين بهما بالمصلين بالإيوان المجاور من طريق نافذة كبيرة توجد عادة بالحائط الذى يفصل بينهما ، وتعتبر هذه النافذة التى تكررت فى معظم المنشآت بهذا التخطيط من عناصر الإتصال التى تساعد على إقامة شعائر الصلاة.ويؤدى الدهليز إلى الصحن.

ويعتبر الصحن بجانب ما يؤديه من أغراض التهوية والإضاءة ، وما قد يوضع به من فساقى للوضوء ، من أهم عناصر الاتصال والحركة فى المنشأة الدينية بل إنه يمكن إعتباره -كما فى المصطلح المعمارى الحديث- صالة التوزيع الرئيسية، فهو منطقة التوزيع الرئيسية التى تصل بين الأواوين أو الأروقة فلابد للداخلين إلى المنشأة أو الخارجين منها من المرور به ،كذلك يتوصل إلى القطاعات الجانبية فى الأركان الأربعة للمنشأة التى تشتمل على الضريح والمساكن وغيرها من الوحدات التى تشتمل عليها المنشأة ، من أبواب تطل على الصحن ، وتكتنف عادة كل من الأواوين الشمالية الجنوبية والغربية ، وتؤدى هذه الأبواب إلى طرقات وممرات ودهاليز وأفنية وسلالم يصعد منها إلى الطوابق العليا وتشكل هذه العناصر ما تتضمنه المنشآت الدينية من عناصر الاتصال والحركة بها.

وإذا كان المعمار المملوكى حرص على سهولة الإتصال داخل المنشأة الدينية سواء الواردين إليها او القاطنين بها على حد سواء أثناء إستخدامهم لأواوين وأروقة المنشأة فإن دراسة هذه العناصر داخل الوحدات الملحقة بالمنشأة تكشف هى الأخرى عن مدى براعته فى ذلك ، فحرصا على توفير نوعٍ من الاتصال المستقل لمساكن الطلبة وخلاوى المتصوفة جعل لها أبوابا شبه مستقلة تربطها بالخارج ، مثل ماهو قائم فى خانقاة فرج بالصحراءوما كان عليه الحال فى مساكن مدرسة برسباى بشارع المعز وما هو قائم بخانقاته بالصحراء، وقد كان هذا الحرص واضحا بعد ما تعددت وظائف المنشآت الدينية أما فى المنشآت التى كانت قاصرة على المتصوفة فقط كخانقاة بيبرس الجاشنكير أو خانقاة شيخو فقد نوع فى الاتصال سواء من داخل المنشأة أو من دهليزها على حد سواء .ويدل على براعة المعمار المملوكي ومراعاته لعناصر الإتصال ما نراه في خلاوى متصوفة خانقاة فرج ابن برقوق[1] ، حيث أن الطابق السفلى منها ، ينزل إليه بسلالم تؤدى إلى طرقة تفتح عليها الخلاوى فى الجانبين ، وفى الطابق الثانى إمتدت أقبية سقف الخلاوى فى الطابق الأول فى الجهة الشمالية ليوفر ممرا يسير عليه ساكنى هذه الخلاوى ، أما الخلاوى المقابلة فى هذا الطابق فكانت تفتح على الرواق الشمالى ، وفى الطابقُ الثالث أنشأ المعمار عقودا تحمل الطرقة بين خلاوى هذا الطابق .وهكذا سهل المعمارالإتصال والحركة للطوابق الثلاثة ، مع ملاحظة انه لم يسقف الممر بين خلاوى الطابق الأول والثانى ، فزاد ذلك من إضاءته وتهويته بهذا الحل السليم ، ومما يشير إلى حرص المعمار على سهولة الإتصال والحركة فى هذه الخلاوى أنه جعل سلم يصعد به إلى خلاوى الطابق الثالث فى كل طرف من طرفى هذه المجموعة السكنية ، بحيث ينزل من السلم الشرقى إلى طرقة بين هذه المساكن والباب الذى يكتنف الرواق الشمالى من الجهة الغربية ، وتكثير هذه السلالم ييسر الاتصال والحركة خاصة وأن مساحة المنشاة تتيح ذلك.

وقد تغلب المعمار على ضيق المساحات فى الدهليز ورغبة فى تيسير الصعود إلى الوحدات المختلفة بالمنشأة ، والتى ترتفع عن أرضية الدهليز ، بعمل دخلات بجدران الوحدات ، ووضع بها درج يتوصل منه إلى الوحدات كالسبيل وخلاوى المتصوفة والسكن الخاص كما هو الحال فى خانقاة برسباى بالصحراء[2]

---

[1] انظر شكل رقم ٤٦

[2] انظر شكل رقم ٥٢

ومع ضيق المساحة والرغبة فى الاقتصاد استخدم المعمار المملوكى ما يسمى " بالسلم المشترك ، والمتوصل إلى أكثر من وحدة من الوحدات التى تشتمل على عليها المنشأة كمساكن الطلبة والفقهاء ، والكتاب ، ثم إلى السطح ومنه إلى المئذنة ، ويلاحظ ذلك فى معظم المنشآت الدينية المملوكية.

وقد اختلف أشكال السلالم ، ومواد بنائها ، فهناك من السلالم ما يتكون من قلبات وثبنى بالحجر ، ومنها ما هو مروحى حلزونى ، كما هو فى سلالم المآذن الداخلية فالسلم يدور حول عمود مركزى ، ولاشك أن بناء السلم بهذه فيه تغلب على ضيق المساحة ويزيد من متانة البناء .كذلك استخدمت السلالم الخشبية إستخداما نادرا .فقد جاء ما يؤكد ذلك بوثيقة وقف مدرسة الجمالى يوسف ، فقد جاء بها مانصه" وبالبسطة المذكورة مجاز به ثلاثة ابواب ، فى كل منها فردة باب ، يدخل منه إلى دهليز مسقف نقيا به سلم يصعد منه إلى طبقة علو الدهيز وسلم خشب يصعد به إلى سطح ذلك[1] ومن الوصف يلاحظ ان هذا السلم استخدم فى الطابق العلوى للصعود به إلى سطح المنشأة بعد الصعود إلى هذا الطابق من سلم حجر مبنى ، وربما كان استخدامه بغرض التخفيف او لضيق المكان .وهو فى كلا الحالتين حل يشير إلى إدراك المعمار لمواد البناء وأنه إستغل ذلك فى عناصر الاتصال والحركة الاستغلال الأمثل . ومما تجب الإشارة أن المعمار لم يكتف بالغرض الوظيفى للسلالم بل انه إهتم بزخرفتها وتجميلها حتى أن أنه زخرف باطن السلم المؤدى إلى سطح منشأة قراقجا الحسنى فى الجانب الشمالى منها، وهو موضع قلما يلتفت إليه ، مما يدل على حب الزخرفة لمجرد الزخرفة مثل ماعمل الفنان الاسلامى عندما زخرف شبابيك القلل والتوابيت الخشبية.

كذلك كان يمكن القول أن لظروف الحياة المملوكية أثرها على عناصر الإتصال والحركة فى شيوع استخدام " باب السر " الذى وجد فى كافة المنشآت الدينية والمدنية على حد سواء وكان هذا الباب عادة ما يوجد فى مكان ظاهر من المبنى ، ويدخل منه السلطان أو غيره من الشخصيات الكبرى فى حالة الزحام والحفلات مثلا أو عند التخفى فى حالة وقوع

[1] وثيقة الجمالى يوسف ٧/٤٦

الجريمة وعادة ما يكون صغير الحجم [١] ويمكن أن يعلل وجوده فى جميع المنشآت الخاصة بجميع الفئات بانه امتداد لحالة القلاقل والفتن والثورات التى تتعرض لها البلاد فى أى لحظة والتى قد يتعرض بسببها كل الفئات دون تمييز.

وقد كانت هذه الأبواب تؤدى إلى طرقات تؤدى إلى داخل المنشأة التى ترتبط بالصحن عن طريق الأبواب المطلة عليه .وأمثلة ذلك كثيرة مثل مدرسة قلاوون وخانقاة برقوق وجامع المؤيد شيخ ومدرسة الجمالى يوسف ومدرسة قايتباى بالصحراء [٢] وكان هذا الباب يستخدم فى بعض للحالات الطارئة ، ويستخدم ايضا فى الوصول إلى بعض أجزاء المنشاة الأخرى فقد جاء بوثيقة وقف أيتمش البجاسي مانصه " واما باب السر المذكور فإنه وقفه ليتطرق منه إلى المدرسة المذكورة إلى الطبقتين المجاورتين له [٣] وهما اللتان استغلتا كسكن لشيخ المدرسة .وقد وجد باب السر فى كافة نوعيات المنشآت الدينية فقد كان لتربة عبد الباسط فى الصحراء " باب سر "[٤] يتوصل منه ايضا إلى داخل التربة بالإضافة إلى مدخلها الرئيسى ، كذلك وجد لزاوية الفتح بجوار جامع التركمانى " باب سر " خاص بها بالإضافة إلى مدخلها الرئيسى.[٥]

ويمكن القول بصفة عامة ان المداخل الرئيسية للعمائر الدينية المملوكية قد تأثرت فى العناية بفخامتها ، بالثراء والبذخ الذى كان سائدا فى ذلك العصر من حيث تلبيس صدرها وجوانبه بالرخام الملون ، وعمل الأبواب المصفحة بالنحاس المكفتة بالذهب والفضة .كما ظهرت التاثيرات الخارجية على إنشاء وزخرفة المداخل المملوكية بعضها سورى والبعض الأخر سلجوقى وهناك أيضا بعض التاثيرات المغربية [٦] واما ما يقال إن

---

[١] للتعرف على بعض أمثلة ذلك راجع المقريزى السلوك ج٤ ق٢ ص٦٥٧ ، الخطط ج٢ ص٣٩٠ -٣٩١ السخاوى التبر المسبوك ج٢ ص٢٩٢ علـى مبارك الخطط التوفيقية ج٢ ص١٠٦ -١٠٧ د.عبد اللطيف ابراهيم دراسات فى وثائق الغورى مصطلح رقم ٢٢٤ ج٢ ص٢٤.

[٢] راجع وثائق قلاوون ٦٠٧ جاوقاف ، برقوق ٥١/٨ المؤيد شيخ ٩٣٨ اوقاف برسباى ٨٨٠ اوقاف

[٣] وثيقة وقف ايتمش ١١٤٣ اوقاف

[٤] وثيقة القاضى عبد الباسط ١٣/٨٤

[٥] وثيقة رقم ٧٥١ ج أوقاف

[٦] راجع فى ذلك محمد سيف النصر ابو الفتوح مداخل العمائر المملوكية ص٢٢ -٣٠

مداخل بعض المنشآت تاثرت بطبيعة وظيفتها من حيث إشتمالها على دركاه ودهليز يكونان مدخلا منكسرا خاصة فى الخنقاوات والمدارس لأن هذا التخطيط كان بغية حماية هذه المنشآت وتحصينها خاصة وأن الفتن والقلاقل قد سادت هذا العصر والاستشهاد بما وقع على مدرسة السلطان حسن من هجوم وخانقاة قوصون[1] أمر مردود عليه لأن هذه المنشآت بنيت قبل حدوث هذه الحوادث لها ،كما أن مداخلها المنكسرة " المشكلة من الدركاه والدهليز فى العمائر المملوكية كان للوقاية من رياح الخماسين وما تثيره من أتربة ، امر مردود عليه كذلك خاصة وأن رياح الخماسين ظاهرة مناخية قديمة ، كما أن هذا النوع من المداخل عرف هو الآخر قبل العصر المملوكى ولو كان الأمر كذلك لشاع إستخدامها منذ قديم عهد ، ولكن هذا الشيوع كان متأثرا فى المقام الأول بتخطيط المنشأة ككل – كما ذكرنا –.

كذلك فإن من عناصر الإتصال ما يوجد ليربط بين منشأة وأخرى فقد كان جامع المؤيد شيخ يتصل بالحمام المجاور له بفتحة باب خاصة تمكن المتصوفة والدراسين من الوصول إلى الحمام من داخل منشأتهم .كذلك فإن المنشآت الدينية غالبا ماجاور كثير منها ، بيوت منشئيها كانت لها ابواب تصلها بهذه المنشآت أو فى الجهة القريبة منها ومن أمثلة ذلك الباب بالواجهة الجنوبية لمنشأة سلاروسنجر الجاولى الذى ربما عمل لوصول صاحب المنشأة الذى كان له بيت فى هذه الجهة[2] وكذلك كان لإزدواجية إنشاء المساجد الجامعة والخنقاوات اثر فى ضرورة الإتصال سواء فى وضع الأبواب متقابلة فى كل منهما كما فى خانقاة وجامع شيخو .أو الربط بينهما بساباط كما كان الحال عليه فى خانقاة وجامع بشتاك[3]

ومما سبق يتضح أن المعمار المملوكى زود منشأته بعناصر الاتصال والحركة التى تسهل الاتصال والحركة إلى هذه المنشآت وداخلها ، وما يؤمن من بداخلها وبحيث لا يتعارض مع حق الطريق خارجها بطريقة تساعد هذه المنشآت على تحقيق وظيفتها تحقيقا مريحا.

---

[1] محمد سيف النصر ابو الفتوح .مداخل العجائز المملوكية ص٢٠
[2] حسن عبد الوهاب.تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص١٣٢
[3] المقريزى.خطط ج٢ ص٣٠٨

الفصــل الثــالث

عناصر الخدمة :

تشتمل عناصر الخدمة بصفة عامة في العمارة في تلك الغرف المخصصة للحراس والبوابين والخدم ، ومخازن الأثاث ، أو غرف الغسيل ، وسلالم الخدمة وغيرها.[1] ويتقلص وجود عناصر الخدمة بالمنشآت الدينية الإسلامية لطبيعة هذه المنشآت ووظائفها .ووجود مثل هذه العناصر ببعض المنشآت الدينية المملوكية يدلل على مدى حرص المعمار المملوكى على تضمين منشأته الدينية هذه العناصر لتكون أكثر إكتمالا. كما أن وجودها يدلل على المستوى الحضارى الذى كانت عليه الدولة فى ذلك العصر.

وتعتبر غرف البوابين من أهم عناصر الخدمة التى ضمنها المعمار المملوكى منشأته ، ومن أمثلة المنشآت التى اشتملت على غرف للبوابين المدرسة الأشرفية برسباى بشارع المعز لدين الله ، فقد حددت وثيقة وقف السلطان برسباى لهذه المدرسة ، موضع غرفة البواب التى كانت بها فذكرت أن الباب الرابع المعقود على يسرة الداخل فى دهليز هذه المدرسة يدخل منه إلى خلوة لطيفة برسم البواب[2] وللأسف فقد تغيرت معالم هذه الحجرة الأن فقد حولت من الداخل إلى سلم يهبط إلى دورة مياه حديثة أنشئت بالمدرسة بعد أن أزيل جدارها الجنوبى ، وهذه الغرفة معقودة بقبو مدبب ، وجاء بوثيقة وقف القاضى يحيى زين الدين الخاصة بجامعه – عند تقاطع شارع الأزهر مع شارع بورسعيد –وصفا لغرفة البواب التى كانت من الوحدات التى تطل على الدهليز المؤدى إلى صحن الجامع نصه " وعلى يمنة الداخل بيت صغير برسم بواب الجامع وهو مسقف نقيا مفروش الأرض بالبلاط مسبل الجدر بالبياض عليه زوجا باب "[3] ومن خلال هذين النصين السابقين يتضح أن غرفة البواب فى كل منها تقع بالدهليز فى أقرب موضع للصحن الذى يؤدى إليه الدهليز ، وتجب الإشارة إلى ان المعمار أحسن اختيار موضع هذه الغرفة، فى هذا الموضع ، فهى مكان إستراحة البواب ليلا ، وموضعها يمكنه من مراقبة كل جزء بالمدرسة ، فهى قريبة من المدخل الرئيسى، وقريبة من

[1] د..عرفان سامى. نظريات العمارة ص٥٠-٥١ ويضيف إلى ذلك ما ظهر من عناصر الخدمة فى العمارة الحديثة ما يسمى بفناء الخدمة ، وجراجات السيارات.

[2] وثيقة الوقف السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف ص١٤

[3] وثيقة وقف القاضى يحيى زين الدين ١١٠/١٧ب محكمة

الأبواب الأخرى للمنشأة ، ففى مدرسة برسباى بالأشرفية ، كان يوجد باب خاص بالميضأة فى الطريق الغربى للواجهة الجنوبية وباب آخر فى الطرف الغربى للواجهة الشمالية ، كما أنها قريبة من مساكن الطلبة ، وأواوين المدرسة وكذلك فإن باب هذه الحجرة الذى تقع على محور واحد مع الباب الذى يصل بين الدهليز والصحن ، يمكن البواب من رؤية من بالجانب الآخر من المدرسة. وهو أمر يمكنه كذلك من سماع أى دق على أبواب المدرسة أثناء غلق هذه الأبواب ليلا . وخلاصة القول أن موضع غرفة البواب بالمنشأة الدينية ملائم جدا لوظيفة البواب الذى كان بمثابة الحارس على المنشأة الدينية فى العصر المملوكى.

كذلك وجد من بين عناصر الخدمة بالمنشآت الدينية المملوكية غرف للخدم ، فقد ذكرت وثيقة وقف مدرسة وخانقاة السلطان برقوق ، أن الباب الذى يقع شرق الإيوان الشمالى يؤدى إلى دهليز بآخره " باب يدخل منه إلى قاعة برسم الخدام تشتمل على إيوان مفروش بالبلاط الكدان بأطرفية رخام أمامه دورقاعة بوسطها صحن رخام قطعة واحدة مفروشة بالرخام الملون بوزرة كاملة دايرة على الإيوان والدورقاعة بها أربعة أبواب يغلق على كل منها زوجا باب مدهون بصفايح نحاس أحدها باب الدخول ، والثانى كتبية ، والثالث والرابع كل منهما خزانة ويقابل الإيوان المذكور مقطع خشب خرط به باب يغلق عليه زوجا باب يدخل منه إلى القبة "[1] ومازالت هذه القاعة قائمة بالوصف المذكور (انظر شكل رقم ١٨) ثم تذكر الوثيقة أن السلطان برقوق وقف هذه القاعة على " سكن من يكون بالمكان المذكور من الخدام الخمس ينتفع به إنتفاع مثلهم بالسكن دون الإسكان.

وقد تضمنت المنشآت الدينية المملوكية العديد من الحواصل التى استغلت كمخازن لحفظ أدوات وفرش المنشآت الدينية المملوكية ، وما لعله يحفظ بها من زيت للوقود وغيره وقد جاء بوثيقة وقف مدرسة أيتمش البجاسي ما يؤكد ذلك بما نصه " أما الحواصل المجاور للسلم المذكور فإنه وقفه لحفظ ما لعله يكون بهذه المدرسة من الآلات والبسط وغير ذلك[2]. وجاء بوثيقة وقف منشآت كافور الشبلى الدينية التى أنشأها بالصحراء[3] مانصه " وأما القاعة المتوصل إليها من المسجد فإن الواقف المشار إليه جعلها برسم أمتعة الخانقاة المذكورة أعلاه من بسط ونحاس وغير ذلك[4] وجاء

---

[1] وثيقة وقف السلطان برقوق ٨/٥١ محكمة

[2] وثيقة وقف ايتمش البجاسى ١١٤٣ مكرر أوقاف

[3] درست هذه المنشآت

[4] وثيقة وقف كافور الشبلى ١٢/٧٦ محكمة

بنفس الوثيقة أن المدرسة التى كان أنشاها تجاه الجامع الذى كان أنشأه بالصحراء أيضا كان " بها حاصل برسم وضع أمتعة الجامع وغيره من بسط ونحاس وغير ذلك . ويلاحظ من النصين السابقين أن أمتعة الخانقاة كانت تحفظ بحاصل فى المسجد وأمتعة الجامع كانت تحفظ بحاصل فى المدرسة التى أنشأها مواجهة له ، وربما كان ذلك لأن منشآت كافور الشبلى بالصحراء أنشئت واكتملت على مراحل ، فالقبة كانت أصلا تربة حولها خانقاة ثم بعد ذلك أنشأ وحدات معمارية مختلفة منها ما خصصه مسجد ، ومنها ما جعله جامعا صيره خانقاة بدل القبة بعد ذلك، ولذلك لا يستغرب ان نجد فى وحدة عناصر خدمة خصصت لوحدة أخرى ، خاصة وأن هذه الوحدات كانت متقاربة متجاورة متكاملة بل إن وجود مثل هذا يؤكد مدى الحرص على وجود عناصر الخدمة الخاصة بالتخزين والحفظ فى المنشآت الدينية المملوكية.

وجاء بوثيقة وقف مدرسة وخانقاة السلطان برقوق بالنحاسين أن الحواصل " السفلية التى أحدها بدهليز المدرسة والثانى بالنقل المتوصل منه إلى الميضأة والخمسة الباقية تحت بيوت الطلبة بالدركاه فإنه وقفها لحفظ ما لعله يكون بهذه المدرسة عن بسط وفرش وقناديل وآلة وقود وأمتعة وغير ذلك[1]وهنا نشير إلى أن الارتفاع بالمنشآت الدينية المملوكية عادة عن مستوى أرض الشارع ساعد على وجود طابق أرضى كامل ببعض المنشآت أسفل أواوين ووحدات المنشاة ، أو الإكتفاء بعمل بعض الحواصل والممرات فى بعض الأجزاء فقط ، وكان هذا الطابق الأرضى مستغل فى بناء حواصل إستخدمت كعناصر خدمة بهذه المنشأت ، أو حوانيت كانت تؤجر لتدر ريعا للمنشأة غالبا . ولما كانت الحواصل السفلية لا تصلح إلا لهذا الغَرَض فإنه وضعها للتخزين وغيره ، فيلاحظ سهولة وقرب هذه الحواصل من أواوين المنشأة التى تشتمل فيها الأشياء المحفوظة بهذه الحواصل ، كما أن إستغلالها كحواصل للتخزين والحفظ يّشير إلى حسن إقتصاد المُعمار المملوكى الذى وجد أنها لاتصلح للسكنى فوظفها لهذا الغرض عند توزيع عناصر منشأته فى التخطيط .ولعل أروع الأمثلة الباقية للمنشات الدينية المملوكية التى تشتمل على حوانيت وحواصل وظفها المعمارفى تخطيطه ببراعة جامع قجماس الإسحاقى الذى يشتمل على طابق أرضى به حوانيت تطل على الشوارع الذى تطل عليها الجامع ، وإستغل المعمار موقع الجامع وكونه مطل على شوارع

---

[1] وثيقة وقف السلطان برقوق ٨/٥١

من جهاته الأربع فى عمل هذه الحوانيت ، اما المساحات الداخلية فإستغلها فى بناء حواصل يمكن أن تستغل لصالح الجامع وخدمة وحداته المختلفة ولذلك ربط بين هذه الحواصل وبين داخل المنشأة بسلم بدهليز الجامع يؤدى الى هذه الحواصل ، ويمكن أن تستغل إستغلالا خارجيا لا يتصل بخدمة المنشأة عن طريق الباب الذى بالواجهة الشرقية.

ومما يشير إلى أن حواصل الحفظ والتخزين فى المنشآت الدينية المملوكية كانت ذات اعتبار ، ما نجده فى بعض الوثائق المملوكية التى تشير إلى أن هذه الحواصل كان يعين لها شخص يتولى الإشراف عليها.فقد جاء بوثيقة وقف مدرسة وخانقاة السلطان برقوق ما يفيد أنه عين خازنا يقوم " بحفظ ما يسلم إليه من حواصل الجامع أسوة أمثاله على العادة ويصرف له على ذلك فى كل شهر من الفلوس المذكورة عشرون درهما[1] ومما يؤكد هذا وجود هذا النوع من عناصر الخدمة فى كافة المنشآت الدينية المملوكية سواء كانت جوامع أو مساجد أو مدارس أو خنقاوات أو زوايا أو ربط أو حتى ترب، فقد جاء بوثيقة وقف القاضي عبد الباسط ما يشير إلى أن تربته التى كان أنشأها بالصحراء كانت تشتمل على هذا النوع من عناصر الخدمة فقد جاء بها مانصه " وأما المخزنان المذكوران[2] أوقفهما لخزن ما يتعلق بالمكان المذكور من بسط وحصر وقناديل وغير ذلك[3] وقد ذكرت وثيقة وقف مدرسة الجمالى يوسف أنه كان يوجد بها " خزانة لطيفة برسم آلات الوقود.[4] وكانت الحواصل أيضا تستخدم فى بعض الأحيان لتخزين الحبوب والدقيق فقد أشارت وثيقة وقف السلطان قايتباى الخاصة بمدرسته بدمياط ان هذه المدرسة كان تخصص أحد حواصلها لحفظ القمح المطحون به، فقد جاء بالوثيقة مانصه " أن القمح بكماله فيحمل من الناحية المذكورة إلى ثغر دمياط تحت يد شيخ المدرسة ويطحن فى طول أيام السنة بالطاحون المذكور أعلاه الجارية فى الوقف إن كانت موجودة وإلا بغيرها ويعجن دقيق القمح المطحون خبزا ويهيأ على العادة ويطعم مع الطعام الآتى ذكره فيه للفقراء القاطنين بالمدرسة المذكورة والوارادين عليها بحسب ما يراه شيخ المكان

[1] وثيقة وقف السلطان برقوق ٨/٥١

[2] ذكرت الوثيقة عن هذين المخزنين ما يفيد انهما كانا يطلان عن دورقاعة التربة

[3] وثيقة القاضى عبد الباسط ١٣/٨٤ محكمة

[4] وثيقة وقف الجمالى يوسف ٧/٤٦

المذكور ويؤدى إليه إجتهاده ويحصل بحاصل من حواصل المدرسة التى بثغر دمياط"[1]

ومن المنشآت التى خصص بها حاصل لحفظ البسط والفرش مدرسة برسباى بالصحراء ، حيث تشير وثيقة وقف السلطان برسباى أن الحاصل الذى يتوصل إليه من فتحة الباب الشمالية بالجدار الشرقى للدركاة كان لحفظ فرش وبسط المدرسة[2] وهو حاصل صغير ٢,٥ X٢م يعلوه سقف خشبى مسطح ، وفرشت أرضيته ببلاطات الحجر الجيرى .كذلك ذكرت وثيقة الوقف الخاصة بمدرسة قرقماس بالصحراء عند وصف أواوين المدرسة التى تطل على الصحن أن " بدور قاعة القاعة المذكورة سدلاتان متقابلان بأحدهما كتبيتان وبالثانية خزانة برسم البسط[3] وهنا نلاحظ أن هذه الحواصل بنيت فى مستوى الطابق الرئيسى للمنشأة واستغل المعمار المساحات الناتجة من محاولته توفير شكل منتظم لأواوين المنشاة فى عمل مثل هذه الحواصل التى تؤدى أغراضا إنتفاعية كعناصر خدمة لأنها لضيقها لا تصلح لغرض آخر.

وتعتبر الإسطبلات التى الحقت ببعض سواقى المنشآت الدينية من بين هذه العناصر وكذلك توجد نوعية من هذه الإسطبلات ألحقت ببعض المنشآت الدينية ، كذلك الاسطبل الذى وجد ضمن مجموعة السلطان برسباى بالصحراء ، وهو الاسطبل الذى لم يتوقع البعض أن يلحق بالمنشأة الدينية ، فحاول أن يثبت أن وحداته الخاصة بإقامة الخيل " خلاوى المتصوفة!! على اعتبار أن المشهور عن هذه المجموعة أنها " خانقاة " ، والواقع أنها تتضم أكثر من منشاة متلاصقة ، فتشير وثيقة وقف السلطان برسباى أنها تشتمل على " قبة أوضريح للسلطان برسباى ، وعلى مدرسة وعلى خانقاة وتربة ، كما تشير الوثيقة إلى بعض الوحدات المعمارية الأخرى التى كانت ضمن هذه المجموعة كالسبيلين وخلاوى للمتصوفة وقاعتين للسكنى ، وهذا الاسطبل [4] الذى يتوصل إليه من الباب ناحية الجنوب بالواجهة الرئيسية الغربية لهذه

---

[1] وثيقة وقف السلطان قايتباى ٨٨١ اوقاف

[2] وثيقة وقف السلطان برسباى ٨٨٠ اوقاف ص٢٢-٢٣

[3] وثيقة وقف قرقماس امير كبير ٣٩ اوقاف

[4] إعتمدت فى وصف هذه الوحدات على المسقط الافقى الذى عمل بواسطة الدكتورة دولت عبد الكريم عند دراستها للخنقاوات المملوكية فى رسالتها لنيل درجة الدكتوراه نظرا لإمتلاء المكان حاليا بالتراب.

المجموعة ، فيؤدى هذا الباب إلى دهليز بجداره الجنوبى بابان الباب الذى يقع بالطرف الشرقى لهذا الجدار يبلغ اتساعه ١,٧٠ متر تهدم الجزء العلوى منه، لكن وثيقة وقف السلطان برسباى ذكرت أنه كان " مقنطر " أى يعلوه قد يؤدى هذا الباب إلى استطراق بطول الاسطبل ، الذى يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٣٨ متر وعرضه من الشرق إلى الغرب ١,٧٠ متر ، ويفتح على هذا الدهليز من الجانب الغربى عشرة أبواب ، يؤدى كل منها إلى مساحة مستطيلة الشكل .تتقدم غرف الإسطبل وهى مستطيلة المسقط ، يبلغ طول كل منها من الشرق إلى الغرب ٤,٧ متر ومن الشمال إلى الجنوب ٣ متر ، ويوجد بالحائط الشمالى والجنوبى لكل منها حنية تزيد من اتساع المكان يبلغ اتساعها ٩٠ سم وعمقها ٢٠ سم [1].

وقد كان هذا الاسطبل كما ذكرت وثيقة برسباى ، يتسع لتسعة رؤوس من الخيل وكان يتضمن حسب وصف الموثق طوالتان وركابخاناة ومتبن ومرحاض مسقف نقيا وغشيما ، [2]ومن مطابقة المسقط الأفقى مع ما ذكرته الوثيقة ، نجد أن المسقط الأفقى يدل على وجوده عشرة أماكن وليس تسعة ، وربما استخدمت منها تسعة للخيل ، كما ذكر الموثق، وكان الموضع العاشر مكان الوحدات الأخرى وربما حدث به تعديل لاستخدامه استخدمات أخرى فى مرحلة تالية ، حيث يتضح من ما أضيف من جدران، وما أزيل لضم مكانين فى مكان واحد من هذه الاماكن حيث أن هذه الموضع استخدم للسكنى فى وقت ما .كذلك يلفت الانتباه وصف الموثق الاسطبل نفسه عندمال يقول " به (الدهليز) باب يدخل منه الى الاسطبل مقام تسعة رؤوس خيل به أربعة قناطر معقودة بالحجر الفص النحيت وطوالتان وركابخاه ومتبن ومرحاض[3] وربما كانت هذه القناطر عبارة عن أربعة عقود تحمل سقف المجاز الذى يتقدم الاسطبل حيث أن ذلك هو التفسير الوحيد .

ومن مطالعة الوصف السابق ومن دراسة التخطيط دراسة صحيحة يتضح أن هذه الوحدة اسطبل للخيل " وليس خلاوى للمتصوفة كما ذكر[4] البعض وحاول أن يفسر أختلاف تخطيطات أماكن الخيول عن الخلاوى التى

---

[1] وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ٢٤-٢٥

[2] وثيقة وقف السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٢٤ -٢٥

[3] وثبيقة وقف السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٢٤-٢٥

[4] RAFAEL LUID . THE AREHETECTURAL WORKS OF SULTAN BARSABAI IN CAIRO P . 95 -98

اتخذت شكلا متعارفا عليه عبارة عن غرفة بسيطة ، بأنه تطور فى تخطيط الخلاوى ، وجانبه الصواب لأنه لم يتعرف على الوظيفة الحقيقية لهذه الوحدة المعمارية .

وهكذا يتضح أن المعمار المملوكى لاءم بين مقاسات وحدات الإسطبل واستخدامه ، ففيها إتساع مفضل ، كما أنه جعل حواجز تتقدم كل موضع خاص بالخيل حتى يوفر نوعا من الإستقلالية لكل منها ، هذا بالإضافة إلى أن إتساع الاستطراق الذى يتقدم هذه المواضع والذى يربط بينها جميعا يساعد على سهولة الحركة والاتصال داخل الاسطبل ، كما أن المعمار راعى التهوية بالوحدات المختلفة ، كما أنه زود الإسطبل بأماكن لحفظ العلوفة وموضع لحفظ سروج وأدوات الخيل التى تجهز بها عند الركوب ، بل إن وجود مرحاض خاص بالإسطبل ينتفع به من يكون بداخله يدل على مدى التكامل المعمارى المدروس والمنفذ ويدل على تحقيق المعمار الملوكى للغرض الوظيفى فى عناصر الخدمة التى ضمنها منشأته الدينية ، حتى ولو كانت لظروف خاصة ، مثل هذا الإسطبل الذى ألحقه بالمنشأة لإشتمالها على وحدات خاصة بسكنى أسرة السلطان والشاد المشرف على أوقافه ، وكان هؤلاء يستخدمون الخيول فى تنقلاتهم ، فضمن المعمار للمنشأة " الاسطبل " كعنصر خدمة يؤدى هذا الغرض.

ومما سبق يتضح أن عناصر الخدمة فى المنشآت الدينية المملوكية رغم تقلصها لطبيعة هذه المنشآت فإن المعمار المملوكى لم يغفل حاجة هذه المنشآت الدينية من هذه العناصر إلى بعضها فضمنها منشأته ، وأحسن إختيار مواضعها ، وتخطيطها بحيث تؤدى وظيفتها على خير وجه ، بل إنه واءم بين حاجة هذه المنشآت وتطورها عند تضمينه للمنشأة هذه العناصر كما إتضح من تزويد المنشأة باسطبل عندما ألحق بالمنشأة قاعة للسكنى الخاصة من قبل صاحب منشأة وذوية.

الفصــل الرابــع

عناصر الوقاية :

تعتبر هذه العناصر من أهم العناصر التى تشكل المبنى لأن المبنى أصلا ينشأ كمأوى للإنسان ووقايته ، وتتنوع الوقاية بتنوع المؤثرات ولذلك وجدت عناصر للوقاية من الجو أو من أعين الناس أو من الأخطار بصفة عامة . وعناصر الوقاية من الجو تتمثل فى الحوائط الخارجية والأسطح الخارجية بأنواعها سواء المسطحة ، أو المقبية أو القباب أو الجمالونات أو غيرها . تتمثل عناصر الوقاية من أعين الناس فى الحوائط الخارجية والقواطيع الداخلية والأسوار والستائر بأنواعها ثابتة أو متحركة الـــ CLAUSTRA أو TRACERY الوقاية من الأخطار التى تتمثل فى عناصر الأسوار والبوابات وسلالم الحريق والمخابئ وغيرها[١].

وقد حقق المعمار المملوكي الوقاية لمن بالمنشآت الدينية المملوكية حسب الإمكانيات المتوافرة فى ذلك العصر ، وتأثر هذه العناصر بظروف وأسلوب الحياة فى العصر ذاته ، وقد تنوعت الفئات التى تكون بالمنشآت الدينية المملوكية فمنهم المصلون ومنهم الدارسون ومنهم المتصوفون ، ومن هؤلاء الوارد على المنشآت كالمصلون وبعض المقررين فى الدرس أو التصوف ، ومنهم القاطنون بها كالطلبة والمتصوفة والشيوخ وبعض الموظفين المقررين بالمنشأة سواء من القائمين على إقامة شعائر الصلاة او القائمين بالخدمة وغيرها.

وللوقاية من الجو أنشئت المبانى بجدرانها الخارجية وأسطحها المتنوعة التى روعى فى بنائها المتانة والجمال . واستخدم فى بنائها بصفة عامة مادة الحجر الجيرى ، وهو من أنسب المواد التى تحقق العزل الحرارى مما يوفر جوا ملائما داخل المنشأة فى الوقت الذى تكون فيه درجة الحرارة مرتفعة خارج المبنى.

كذلك فإن توجيه المبنى الدينى ناحية الجنوب الشرقى فى مدينة القاهرة ، كان له أثره فى تخفيف حدة أشعة الشمس التى تصل إلى أواوين أو أروقة المنشأة من خلال صحنها المكشوف خاصة وأن الشمس تسطع فى

---

[١] د.عرفان سامى.نظريات العمارة ص٥١

القاهرة طوال العام تقريبا ، وتزداد حرارتها في فصل الصيف . ومن العناصر المعمارية التي وقى بها المعمار من بداخل المنشأة حرارة الجو تلك الملاقف أو " الباذاهنجات " كما يطلق عليها في الوثائق المملوكية التي ضمنها منشأته ، كما هو الحال في خانقاة بيبرس الجاشنكير ومدرسة الأشرف برسباي بالأشرفية ومنشأة قراقجا الحسني بدرب الجماميز . ومما يشير إلى مدى حرص المعمار على وقاية من المنشأة من حرارة الشمس تلك القباب التي غطى بها الفساقي التي تتوسط صحون المنشآت الدينية ، أو الميضآت والتي لا يستغرق استخدام الشخص لها أكثر من بضع دقائق.

وكانت سطوح المنشآت الدينية أيضا لتقي من بداخلها من الأمطار التي قد تسقط في فصل الشتاء ، وحرص على تغطيتها بطبقة من الملاط، ويسمى السطح المنفذ بهذه الطريقة حسب اصطلاح الوثائق المملوكية " بالسطح المبربق " لتحمل مياه الأمطار الذى قد تسقط عليه في فصل الشتاء، كما أنه تجنب الزيادة الكبيرة من مياه هذه الامطار التي قد تعرض السقف للخطر والتي قد تتسرب منه على رؤوس من بالمنشأة ، والتي قد تعرض السقف للتلف فيسقط ويتهدم عليهم ، بعمل ما يسمى " بالميازيب " وهي عبارة عن قنوات توضع بمستوى سطح المنشأة وتبرز عن جدران واجهاتها ينحدر الماء من على سطح المنشأة إليها فتصبه من الفتحة الخارجية ليسقط على الأرض ، ويلاحظ أن هذه الميازيب كانت توضع غالبا أعلى المساحات الخالية من النوافذ في الواجهات حتى لا يتطرق الماء إلى هذه النوافذ بفعل الرياح أو غيرها ، كما أن بروز هذه الميازيب يجنب جدران المنشأة هذه المياه فلا يؤثر عليها ، وقد استخدمت الميازيب قبل العصر المملوكي ونلحظ أمثلة لها في أسطح الحجرات التي تعلو أبراج بدر الجمالي الحجرية ، وجامع الصالح طلائع ، ولكن وجودها بالعمائر الدينية المملوكية كجامع برسباي بالخانكة – يدل على إستخدامها في أسقف المظلات الخشبية البارزة للوحدات التي تتضمنها المنشأة والتي تحتاج أسقفها الخفيفة إلى مثل هذه الميازيب أكثر من غيرها . فقد جاء بوثيقة قلاوون ما يؤكد ذلك عند وصفه " لدور قاعة " أو صحن مدرسة بالنحاسين مانصه " بدورقاعة هذه المدرسة المذكورة ست عشر بابا متجاورات يغلق على كل منها زوج أبواب في مداخل يعلوها خوشك مدهون محمول على كرادين مدهونة يعلوها شرفة وميازيب برسم

الأمطار[1] كما يتضح من الوصف أن الشرفات البارزة لمساكن الفقهاء بهذه المدرسة التى تطل على صحن المدرسة كانت من الخشب وأسقفها خفيفة بالطبع ، وإستخدام الميازيب فى هذه الشرفات كان لوقاية هذه الأسقف ومن أسفلها من الأمطار وهوادراك متطور لعناصر الوقاية المتمثلة فى الميازيب.

كذلك يمكن القول بأنه من مظاهر محافظة المعمار المملوكى على المبنى ووقايته له وبالتالى وقاية مستخدمه البراعة فى إستخدام مواد الإنشاء واستغلال مميزات كل منها ، فاستخدم الآجر خاصة فى المواضع التى تتعرض للماء كالفساقى والحواصل الخاصة بالماء ، والصهاريج الخاصة بالأسبلة والتى كانت تغلف جدارنها به ، كما إستخدم بغية التخفيف فى الإنشاء واستخدم الخشب مثلا فى عمل دكك المؤذنين التى تشكل طابقا ثانيا فى الإيوان الغربى لبعض المنشآت ، لأن الخشب مادة خفيفة تحقق الهدف المطلوب ، واستخدم أيضا كسواتر خشبية فيما من المساكن التى تعلو بعض الأواوين كما هو فى مدرسة متقال ، وكما كان الحال عليه فى قرقماس أميركبير. ولاشك أن هذا الإستخدام الأمثل به وقاية للمبنى ولمن بداخله من الأخطار التى قد تنتج عند تعرضه للهدم.

أما بالنسبة للوقاية من أعين الناس فإن المعمار المملوكى جنب المنشآت الدينية ذلك بعدة وسائل ، منها الإرتفاع بمستوى أرضية الطابق الرئيسى للمنشأة غالبا من مستوى أرضية الشارع وهو إرتفاع جنب من بداخل المنشأة ليس فقط أعين الناس بل والضوضاء التى يحدثونها خاصة فى تلك المنشآت التى تقع على الشوارع الرئيسية كالشارع الأعظم – شارع المعز لدين الله حاليا – وما يثيره المارة من أتربة وخلافه . واستغل المعمار هذا الإرتفاع فى عمل حوانيت وحواصل أسفل منشأته . كذلك فإن المعمار جعل النوافذ المطلة على هذه الشوارع سهلة الغلق والفتح بما جعله لها من مصاريع خشبية زاد من متانتها أنه جعلها أحيانا مصفحة بالنحاس – وهو أمر يمكن من بداخل المنشأة أثناء الصلاة أو الدرس أو حضور التصوف من التحكم فيها حسبما شاء . أما النوافذ العلوية التى لا يمكن فتحها أو غلقها لارتفاعها فجعلها ثابتة ، وكانت غالبا من الجص المعشق بالزجاج الملون الذى يسمح بمرور بعض الضوء ولا يسمح بمرور تيارات الهواء التى قد

---

[1] وثيقة السلطان قلاوون ٧٠٦ حـ أوقاف.

تطفئ مصابيح المنشأة التى توقد ليلا فاستخدم الزجاج بها حقق غرض التخفيف والإضاءة والوقاية من هذه الرياح.

هذا بالنسبة لوقاية من بالأواوين أما بالنسبة للقاطنين بالمنشأة ، فإن المعمار جنب مساكنهم بها أعين من بداخل المنشأة فاختار موضعها فى أركان المنشأة الخلفية أو الجانبية ، كما أنه جعل لها مداخل خاصة بها بالإضافة إلى الإيوان التى تربطها بالمنشأة نفسها ، ويرى ذلك فى المنشآت الدينية التى مازالت تحتفظ بالوحدات السكنية التى أنشئت بها مثل خانقاة شيخو ومدرسة السلطان حسن ومدرسة وخانقاة برقوق وخانقاة فرج بن برقوق وخانقاة برسباى بالصحراء وقرقماس أمير كبير وغيرها.

كما أن الفصل بين مساكن الشيوخ والمدرسين الذين قد يسكنوا بزوجاتهم وأسرهم بالمنشأة من مساكن الطلبة أو المتصوفة المنفردين فيه تحقيق لغرض الوقاية من الأعين ، بالإضافة إلى التنزيه وتلبية حاجات الشيوخ والمدرسين إلى الهدوء والراحة أكثر من الطلبة والمتصوفة . كذلك فإن مساكن القاطنين بالمنشأة والتى تطل على صحن المنشأة أو أواوينها أو التى يستغل فى عملها الجزء العلوى من الأواوين كما فى مدرسة سابق الدين مثقال ومدرسة قرقماس بالصحراء نلاحظ الحرص على وقاية هذه المساكن من أعين من يكون بصحن المنشأة أو أواوينها فعملت نوافذها صغيرة إلى حد ما ، وعملت لها شبابيك من الخشب لتمنع ذلك.

وقد تفنن المعمار فى وقاية المبنى من الأخطار التى قد تهدد صحة من به ، فكانت براعته فى إختيار موضع الميضأة وسهولة التخلص من الفضلات والإفرازات ، كما أنه جعل المطبخ مجاورا عادة مصادر المياه وهو أمر يساعد فى القضاء على أى حريق ينشب به كما أن تصميم بناء المطبخ وموضعه يجنب من بداخل المطبخ الضيق بسبب الدخان الذى قد يتخلف من النار التى توقد فيه ، فكانت أسطحه مرتفعة على هيئة قبو أو جمالون غالبا بحيث يسهل عمل مخارج للدخان ومن بداخل المنشأة لأن موقعه بعيد عادة عن أواوين المنشآت.

كذلك فإن طريقة بناء الفساقى بالأضرحة التى تلحق بالمنشأت الدينية المملوكية عادة وبنائها بباطن الأرض محكمة الغلق جنب المنشأة أن تتعرض للأخطار التى تنتج عن تحلل الميت المدفون بداخلها ، فكان يغطى هذه الفساقى بأسقفه عبارة عن بلاطات حجرية غالبا يعلوها طبقة من الرمل يعلوها طبقة ثالثة من بلاطات الحجر أو الرخام هى عبارة عن أرضية

الضريح الخاصة ، وقد شوهدت هذه الطريقة فى تغطية الفساقى بمجموعة قرقماس بالصحراء أثناء عمل حفائر بها قبل إعداد مشروع ترميمها بواسطة البعثة البولندية [1] بالتعاون مع هيئة الاثار.

أما الوقاية من الأخطار العامة التى قد تتعرض لها المنشأة ، فقد تمثل فى الاهتمام بمداخل المنشأة وعمل الأبواب المتينة والمصفحة بالنحاس والبرونز أحيانا . وتزويد المدخل بالعناصر التى يستخدمها البواب أثناء الحراسة كالمكسلتين والمسطبة التى يستريح عليها البواب أثناء تأدية مهنته.

ويعتبر " باب السر " الذى شاع استخدامه فى المنشآت المملوكية بصفة عامة سواء الدينية أو المدنية من بين عناصر الوقاية التى تعكس ماساد هذا العصر من ثورات وفتن وقلاقل كانت هى الطابع العام فى ذلك العصر ، فكانت هذه الأبواب عنصرا يتقى به السلطان أو الأمير ما قد يتعرض له من محاصرة أثناء تواجده فى المبنى فيهرب من خارج المبنى دون علم محاربيه، وإمعانا فى التمويه جعلت هذه الأبواب صغيرة الحجم منزوية فى أحد أركان المبنى لاتلقى من العناية بزخرفها وجمالها ما تلقاه المداخل الأخرى.

كذلك فإن العناصر المعمارية التى تلى المداخل فى المنشآت المملوكية والتى كانت غالبا عبارة عن الدركاة والدهليز اللذان يشكلان معا ما سمى بالمدخل المنكسر ، تحقق نوعا من الوقاية عما إذا كان الدخول إلى المنشأة مباشرا حتى أنه يمكن القول أن الرغبة فى تحقيق نوعا من الاستقلال للأواوين فى المنشأة الدينية كانت وراء إستخدام الدركاه والدهليز الذى يؤدى إلى الصحن أولا ، ثم منه إلى الاواوين التى كان إستقلالها يوفر نوعا من الوقاية للدارسين خاصة.

ولعل الرغبة فى توفير نوع من الإستقلال للأواوين أو الأروقة فى المنشآت ذات الأروقة المتصلة كان وراء عمل سواتر خشبية تفصل رواق القبلة به من غيره من الأروقة كما هو الحال فى جامع المارداني.

وقد استخدمت الستائر الخشبية للحفظ والوقاية فى المنشأت الدينية فى الوحدات المتنوعة ، فغالبا ما توجد على واجهة المزملة ستارة خشبية من خشب الخرط توفر للمزملة نوعا ما من الوقاية والاستقلال ، خاصة وأن المزملة كانت غالباً عبارة عن ايوان صغير ينفتح على الدهليز المؤدى إلى

---

[1] قام بعمل هذه الحفائر السيد/ مدحت المنباوى أحد مفتشى هيئة الاثار ١٩٧١ تحت اشراف الاستاذ/عبد الرحمن عبد التواب.

صحن المنشأة ، ووجود مثل هذه الستارة يحقق نوعا من الوقاية لما وضع بها من أدوات وغيرها ، وما قد يدخل إليها ويفسد شيئا بها . كذلك فإن مثل هذه الستائر الخشبية وجد على مداخل الأضرحة أو على هيئة مقصير يحيط التركيبة الرخامية التى تعلو قبر المدفون غالبا . كما وجد بمدرسة وخانقاة برقوق وخانقاة ابنه فرج ، ومدرسة برسباى بالصحراء [1]وحوش القاضى عبد الباسط[2] أيضا ، ومثل هذه الستائر الخشبية توفر نوعا من الحماية لمن بالداخل.

وتعتبر الفساقى فى صحون المنشآت الدينية وأفنيتها من عناصر الوقاية حيث أنها كان الماء الذى بها يستخدم فى إطفاء ما لعله يقع من حرائق بالمبنى لسبب أو لآخر، واستخدام الفساقى لهذا القرص بدأ مبكراً فى العمارة الإسلامية فى مصر ونلحظة بوضوح فى منازل الفسطاط. ويضيف هذا الاستخدام جديداً بلا شك إلى الوظائف الأخرى للفساقى.

ومما سبق يتضح أن المعمار المملوكى وفر عناصر الوقاية لمن بداخل منشأته سواء الواردين إليها أو القاطنين بها فى إحكام ودقة غاية فى التناهى والإبداع.

---

(١) وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص٢٩

(٢) وثيقة القاضى عبد الباسط ١٣/٨٤ محكمة

الفصل الخامس

عناصر التهوية والإضاءة :

حاول الانسان منذ عهده الأول التلاؤم مع الطبيعة الجوية للمنطقة التي يعيش فيها ، وتبين عناصر التهوية والإضاءة بالمبنى نوعية من نوعيات هذا التلاؤم ، ولما كان العالم الاسلامى يقع فى منطقة شديدة الحرارة صيفا لذا كان على المعمار إيجاد الحلول لهذه المشكلة بتهيئة جو داخلى محتمل على قدر المستطاع فى الفترات الشديدة الحرارة . وقد استخدم المعمار الاسلامى وسائل عديدة لحماية المنشآت من الحرارة كانت مستخدمة من قبل الاسلام ولكنه كيفها وطورها حسب ظروف منشأته الخاصة . فقد تصور الإنسان فى هذه المناطق منذ العصور القديمة أن هناك تناسبا عكسيا بين تعرض كامل المبنى للشمس والهواء وبين قلة الدرجة الداخلية صيفا [1] فإستفادوا من ذلك فى عمل الحجرات الصيفية المدفونة إنطلاقا من هذه الفكرة فقد وجدت بالقدس منذ أقدم العصور حجرات نصف مدفونة تحت كمكاتب إدارية صيفا[2] ونفذ المسلمون الفكرة فى تشييد حجرات أرضية يطلق عليها " سراديب "[3] ومن نماذجها الأولى ماوجد فى قصر الأخيضر ، وقد كشفت حفائر فى الفسطاط سنة ١٩٦٩ م سردابا يشابه تماما تلك الحجرات المنحوتة فى سامرا من حيث الحجم والشكل واتجاهات السلالم الهابطة وحنايا المصابيح المنحوتة فى جانبى السرداب[4] وإن وجد إختلاف واضح فى طريقة التشييد نظرا لإختلاف طبيعة الأرض ، لكن هذه الطريقة لم تنتشر فى مصر نظرا لقلة درجات الحرارة عنها فى بغداد.

---

(1) A . Lezine. La Protection Contre Chouleur P . 3

(2) مجدى عبد العزيز دراسة تحليلة لبعض القصور والدور رسالة ماجستير كلية الفنون الجميلة ص٧٧

(3) السراديب قد تشتمل على حجرات أو ممرات يستخدمها الانسان وتكون تحت الأرض وهى تخلف عما يسمى " بالأسربة " جمع " سراب " وهى القنوات التى تكون بباطن الارض لإخراج الإفرازات المتخلفة عن المراحيض والميضآت أو التى تأتى بالماء من قناة كبيرة أونهر (ابن تغرى بردى . النجوم ج٩ ص١٤٨)

(4) قام بعمل هذه الحفائر السيد / مصطفى عبد الله شيحة تحت أشراف الأستاذ/ عبد الرحمن عبد التواب.

ومن الحلول التى لجأ إليها المعمار كذلك توجيه القاعات ،وقد برع الرومان فى توجيه القاعات توجيها يخدم فصول السنة . كذلك اهتم المسلمون بهذه الطريقة فظهرت من القرن ٨م فى عدة قصور مثل قصر الأخيضر حيث نجد قاعات متناظرة بعضها شتوى والآخر صيفى فى مواجهة النسيم.

كذلك كانت تغطية الأفنية والشوارع من الوسائل التى لجأ إليها المعمار ، فقد برع الرومان فى إستخدام قطع النسيج المبللة لسد الفتحات للحماية من الشمس ولتلطيف درجة حرارة الهواء المار من خلالها كذلك غطيت مسارحهم صيفا بخيمة كبيرة شدت بالحبال يتوسطها سارى مرتفع أطلق عليه اسم " VELUM " ،أما فى دورهم السكنية فقد إستغلوا الستائر الأفقية والرأسية على نظام واسع لدرجة أنهم خصصوا لها العبيد لتحريكها[1] .

وفى شمال إفريقية غطت أفنية الدور بنفس الطريقة فى الساعات شديدة الحرارة ، ولم يكن هذا بغريب على المسلمين ، فقد كانوا يغطون صحن الجامع الكبير بالنسيج يوم الجمعة . كذلك فإن حماية الشوارع من الحرارة له تاريخ بعيد منذ غطيت بعض شوارع تل العمارنة بنفس الطريقة المذكورة آنفا ، وكذلك غطيت بعض أجزاء من شوارع القاهرة.

ومن الوسائل التى استخدمت لتلطيف درجة الحرارة احواض المياه والنافورات فى أفنية المنشآت ، وقد شيد الخلفاء العباسيون معظم قصورهم على شواطئ دجلة للإستفادة من عنصر الماء فى تلطيف الجو ، بالإضافة إلى الراحة النفسية التى تجلبها المياه الطبيعية فظهرت فيها احواض كبيرة لنفس الغرض مثل قصر رقادة ROQUADA بتونس الذى شيد به حوض صناعىكبير مازال موجودا حتى الآن [2] ووجد بمنازل الفسطاط العديد من النافورات وأحواض الزهور التى كانت حولها . كذلك كان رش الشوارع بالماء لتلطيف الحرارة من بين هذه الوسائل ، وقد عرفت هذه العادة منذ عهد رمسيس ، وكان المماليك يعينون موظفين يتولون الكنس أمام المنشآت الدينية ورش ما يحيط بها من شوارع[3] .

---

[1] مجدى عبد العزيز. المرجع السابق ص١٦

[2] مجدى عبد العزيز. المرجع السابق ص١٥١

[3] وثيقة برقوق ٨/٥١ محكمة . وثيقة جمال الأستادار ١٧/١٠٦ محكمة

كذلك استخدمت عناصر أخرى للتهوية كالملاقف التى تنبه الإنسان الى استخدامها منذ أقدم العصور فقد استخدمت منذ عصر الفراعنة " ملاقف تتلقى الهواء البارد مما يتفق وأماني المصرى القديم فى أن يتنشق ريح الشمال العليل المضمخ بعبير الالهة[1] فقد شوهد فى حجرة للنوم بتل العمارنة "ملقف" عبارة عن مظلة تبرز عن السطح النهائى حيث تظهر مساقطها الجانبية على شكل مثلث ، وتتجه فتحته الرأسية جهة الشمال وفى بعض الأحيان توجد فتحة إضافية ناحية الغرب . ثم أتخذت الملاقف أشكالا مختلفة فوجد ببعض المبانى القبطية المكتشفة بباويط وفى تلك المبانى الباقية فى منطقة " أنصنا المدينة " الشيخ عبادة " بالمنيا ملقف عبارة عن بئر بين حائطين أو ما يشبه القناة بباطن الجدار الواحد يسقط فيه الهواء من أعلى إلى أقرب مستوى من أرضية المكان ، ووجد مثل هذا " البئر " مستمرا بهذا الشكل فى العمارة الإسلامية ومن أمثلة ذلك الملقف بحائط القبلة بجامع الصالح طلائع خلف المنبر ، والملقف بالجدار الغربى للإيوان الغربى بخانقاة بيبرس الجاشنكير ، كذلك وجد نموذج ترتفع فتحة السفلى إلى حد ما عن سطح الأرض فى منشأة قراقجا الحسنى بدرب الجماميز.

ومن أشكال الملقف الأخرى ذلك النوع الذى يعمل عن طريق إرتفاع جزء من سقف الحجرة نفسها يميل تجاه الريح ، تسدل عليه شبكة من الخشب المشغول كما فى بيت جمال الدين الذهبى بحارة خوش قدم بالغورية . ولكن النوع الأول الذى وجد فى العمارة الفرعونيةهو الذى ساد إنتشاره فى العمارة التركية فى مصر.

كذلك استخدمت عناصر أخرى لتصريف الهواء الساخن مثل الشخشيخة أو القبة التى يتخلل رقبتها نوافذ ، هذا بالإضافة إلى الأبواب والنوافذ والمناور ، بأوضاعها وأشكالها المختلفة.

وإذا كانت هذه هى الوسائل التى حاول بها الإنسان التوفيق والملاءمة بين جو المناطق الحارة وبين تهيئة جو ملائم داخل مبانيه التى يعيش فيها . فإن هناك من العوامل ما يدفع إلى استخدام بعض هذه الحلول دون البعض الأخر فى المنشآت الدينية المملوكية بالقاهرة لأسباب تتعلق بمناخ وطبيعة شوارع ومبانى القاهرة الأخرى من جهة ، وأسباب تتعلق بطبيعة المنشآت الدينية بصفة عامة وظروف تخطيط وإنشاء كل منها بصفة خاصة.

---

[1] محمد أنور شكرى العمارة فى مصر القديمة

ومناخ مدينة القاهرة فى معظم فترات السنة جافا مائلا للحرارة بصفة عامة ، وتتعرض القاهرة ومصر كلها لرياح جنوبية فى إبريل ومايو " الخماسين " حيث ترتفع درجة الحرارة إلى ما يقرب من ٣٧ درجة مئوية فى المتوسط ، وهذه الرياح عادة ما تكرب الأنفاس وتضيق الصدور ، كما تتعرض فى فصل الصيف والربيع لريح السموم وهى أشد وطاة من رياح الخماسين ولكنها أقل مدة ، إذ يندر ان تدور أكثر من ربع ساعة ، وهى تهب من الجنوب الشرقى حاملة معها سحبا من الغبار والرمال . وتصل درجة الحرارة فى منتصف فصل الشتاء إلى ٢٠ درجة فى المتوسط[١] وهذا يعنى أن مناخ القاهرة أوجد الكثير من العراقيل أمام المعمار ، من حيث إرتفاع درجات الحرارة فى معظم أشهر السنة ، إلى جانب ما تحدثه السماء الصافية من إرهاق بصرى ناتج عن زيادة شدة الضوء ،بالإضافة إلى تلك الرياح التى قد تحمل بعض الأتربة خاصة رياح الخماسين.

وتحتاج دراسة عناصر التهوية والإضاءة للمنشآت المملوكية بالقاهرة القاء بعض الضوء على شوارع القاهرة ، وخاصة وأن للعلاقة بين عرض الشارع وإرتفاع الأبنية[٢] المطلة عليه أثر كبير فى إنخفاض درجة الحرارة بالإضافة إلى الإقلال من شدة الإضاءة[٣] ويمكن تحديد عرض الشارع الأعظم " شارع المعز حاليا " أكبر شوارع القاهرة فى ذلك العصر بتلك المسافة التى تفصل بين مجموعة قلاوون على الجانب الغربى للشارع وبين مدرسة الصالح نجم الدين أيوب وبقايا مدرسة الظاهر بيبرس على الجانب الشرقى منه ، وهى مسافة تصل فى المتوسط إلى ٤ متر ، وهو أمر يشير إلى أن شوارع القاهرة وحاراتها ودروبها كانت ضيقة نسبيا ، وأنها تمتعت بقدر وافر من الظلال نتيجة العلاقة القوية بين عرض تلك المسالك وبين إرتفاع الأبنية المحيطة بها مما جعلها بمثابة مخازن للهواء البارد . والمعروف أن الظلال تلعب دورا كبيرا فى خفض درجة حرارة الفراغ الداخلى إلى جانب تلطيف الهواء عندما يمر بتلك المسطحات المظللة قبل

---

[١] وليم لين . شمائل وطبائع المصريين المحدثين ص١١٠/١١٦ .د. كمال الدين سامح . العمارة الاسلامية فى مصر ص٢٤

[٢] كان بعض الأبنية المملوكية مثل قر الأمير بشتاك يرتفع أربعين ذراعا أى حوالى ٢٨ متر

[٣] مجدى عبد العزيز. المرجع السابق ص٩٨

دخوله المبنى[1] وهذا يعنى أن مدينة القاهرة بشوارعها ومبانيها خفضت من الحراقيل الجوية الطبيعية بتوفير مساحات مظللة تعتبر كمخازن للهواء البارد الذى يلطف الجو ، كما أنها تمنع وصول ما قد تأتى به الرياح من أتربة.

أما المنشآت الدينية المملوكية فى مدينة القاهرة فقد تحكمت وظائفها ومؤثرات تخطيطاتها فى إستخدام عناصر معينة من عناصر التهوية والإضاءة دون غيرها . فهذه المنشآت تعتبر من المنشآت العامة التى يرتادها أعداد كبيرة من المصلين بالإضافة إلى قاطنى بعضها من الدارسين والمتصوفة والموظفين القائمين على إقامة الشعائر أو الخدمة وتنوعت وحداتها التى تستخدم بواسطة العامة الواردين ، والأخرى التى يستخدمها القاطنون بالمنشأة كالوحدات السكنية مثلا.

وتعتبر الأواوين الخاصة بالصلاة والتدريس والتصوف من الأماكن التى يرد إليها الجميع ، والتى تزدحم أحيانا بأعداد المصلين خاصة فى الصلوات الجامعة ، وهى تعتبر لذلك من الوحدات الرئيسية بالمنشأة ولذلك فإن الإهتمام بعناصر التهوية والإضاءة بها يعتبر فى المرتبة الأولى.

ولما كان المبنى لا يوضع فى الفراغ اللانهائى ، ولكن هناك علاقة بين الفراغات المشكلة للمنطقة المقام عليها المبنى وفراغ المبنى نفسه ، فإن المعمار حاول التوفيق بين كل هذه العوامل بالوسائل المتاحة قدر الإمكان بطريقة يبين الكشف عنها براعته فى ذلك.

وقد اوضحت الدراسات التحليلية للهواء بعد إستنشاقه أنه يتكون من ١٦,٥٪ أكسجين ، ٤٪ ثانى أكسيد الكربون ، ٧٩,٥٪ نتروجين وأرجون ، وهذا يعنى وجوب تجديد الهواء بصفة مستمرة، وبمعدل مستمر يتمشى مع نوعية النشاط داخل المبنى ، فقد وجد أن الإنسان البالغ يحتاج إلى ١٧,٥ قدم من الهواء كل ساعة ، وبمزوالة الأنشطة البسيطة يحتاج إلى ١٠٠ قدم

---

[1] تنقسم الظلال إلى قسمين الظلال المحيطة بالمبنى وهى الناتجة من تقارب الأبنية إلى جانب الأشجار المحيطة بالمبنى والتى تكون فى مجموعها مسطحات مظللة ، مما يؤدى إلى إنخفاض درجات الحرارة الخارجية والداخلية للمبنى ، وبهذا ينقص معدل التشرب وقد دلت الأبحاث أن الفرق بين درجة الحرارة فى المناطق المظللة إذا ما قورنت بتحليلات المناطق المشمسة يبلغ ٧٥٪ تقريبا ، والقسم الثانى من الظلال هو الظلال على حوائط وأسقف المبنى وهى الناتجة من البروزات والكرانيش والأشجار بالإضافة إلى تقارب المبانى بعضها من بعض والأبنية التى بها ذلك تستمع بتلطيف درجة الحرارة فراغاتها الداخلية (راجع E . Prges . Hand book of heating and air conditioning P . 100

٣ في الساعة ـ وهذا يبين ما تحتاجه المنشأة الدينية التى تزدحم بالمصلين أو الدراسين أو المتصوفة أثناء الصلوات الجامعة أوعقد الدروس أو حضور التصوف. لذلك كان على المعمار أن يوفر لهم فى ظل الظروف السابقة الهواء والضوء اللازم للرؤية خاصة وأنه كان يعتمد نهارا على الضوء الطبيعى[1].

وعناصر التهوية والإضاءة فى المنشآت الدينية المملوكية هى الأفنية المكشوفة والمناور والنوافذ والأبواب ، هذا بالإضافة إلى الملاقف ، والتنوع فى مستويات المبنى بين الإرتفاع والانخفاض ، هذا بالإضافة إلى الإرتفاع بالأسقف كوسيلة من وسائل التهوية[2] كذلك كان باستخدام الحجر الجيرى الذى يحقق – كما ذكرنا – نوعا من العزل الحرارى والصوتى ، مناسب المنشآت الدينية المملوكية بصفة عامة.

ويعتبر صحن المنشأة الدينية من أهم عنار التهوية والإضاءة ، فالفناء "الصحن" يعرف علميا بأنه يعمل كمنظم للحرارة[3] فهو مساحة كبيرة مكشوفة تتوسط المنشأة الدينية ، تزود الأواوين المطلة عليها بالضوء والهواء . ونلاحظ محاولة المعمار المملوكى استغلال الصحن ليس فقط فى إضاءة وتهوية الأواوين نفسها عن طريق غير مباشر ، فقد إستغل المعمار مثلا فى مدرسة قلاوون ، وخانقاة شيخو الصحن فى إضاءة مساكن الطلبة والمتصوفة المطلة على الصحن مباشرة ومثل ذلك القاعات التى إستغل إرتفاع الأواوين فى عملها مثل مدرسة مثقال ومن نماذج إضاءة الوحدات المطلة على الأواوين عن طريق غير مباشر ما نراه فى مدرسة وخانقاة برقوق ، ومدرسة برسباى بشارع المعز لدين الله ، ومعظم المنشآت الدينية المملوكية التى

---

[1] من المعروف أن الضوء الطبيعى جزء لا يستهان به من المصادر الضوئية خاصة فى الأنشطة التى تمارس نهارا ، كما يعتبر أكثر الوسائل فعالية للحول على الرؤية المريحة للعين من الناحية الطبية.

[2] من المعروف أن المعمار الإسلامى بصفة عامة كان يجرى وراء تحقيق الوظيفة عن طريق المسقط الأفقى والقطاعات الرأسية معا ، ثم يضع الحل النهائى فى ثوب يتسم بالنسب المدروسة المستمدة من الإنسان ، بمعنى انه كان يحدد طول وعرض كل فراغ ويأتى الإرتفاع مكملا لها ومتناسبا معها فنجد أنه كلما صغرت الأبعاد الأفقية للفراغ انكمش الإرتفاع تلقائيا بما يتناسب مع الطول والعرض ولكن هذا لا ينطبق بين طول وعرض الأواوين وبين ارتفاعها الذى اوجبت الظروف ارتفاعه وكان هذا الارتفاع يحقق وظيفة التهوية عما لو كان منخفضا.

[3] Hasan Fathy . the Qua cairene P. 130

تشتمل على وحدات فى أركان المنشأة ترتفع أكثر من طابق ، وقد ساعد على ذلك ارتفاع سقف الأواوين بما يعادل طابقين . وقد ظل الصحن مكشوفا حتى قرب نهاية العصر المملوكي ، عندما بدا يغطى بعد ان صغرت مساحة المنشآت وتقلصت الحاجة إليه فى التهوية والإضاءة ، فإقتصر الأمر على إستخدام شخشيخة تتوسطه مسقفة يرتفع سقفها عن مستوى سقف الصحن مما يجعل من الممكن عُمل نوافذ بها تساعد على الإضاءة والتهوية مثال ذلك ما وجد فى منشأة جوهر اللالا بالمصنع عند القلعة ومدرسة قايتباى بالصحراء وقجماس الإسحاقى وغيرها.

وإذا كان الصحن الذى يتوسط المنشأة الدينية نموذجا رئيسا لإستخدام الأفنية فى التهوية والإضاءة بالمنشآت الدينية ، فإنه إستخدم بصورة مصغرة فى القاعات الجانبية والوحدات المختلفة فى جنبات المنشأة ولعل أروع الأمثلة على ذلك ما وجد فى مدرسة السلطان حسن فى " المدارس الأربع " فى الأركان الأربعة للمنشأة ، والتى تعتبر كل منها وحدة مستقلة بوسائل تهويتها وإضاءتها والتى أعتمدت على الفناء الذى يتوسط كل منها فى إضاءة إيوان اللاة المطل على هذا الفناء ومساكن الطلبة والمدرسين فى الطوابق المختلفة سواء التى تطل على الفناء مباشرة ، أو تلك التى يتقدمها ممر يطل على الفناء عملت به نوافذ كبيرة تضئ الممر الذى يضئ الغرف من نوافذ تعلو أبوابها بالإضافة إلى فتحة الباب ذاتها بطريقة غير مباشرة فى الغرف التىلا تطل مباشرة على الفناء الذى يتوسط كل مدرسة . كذلك وجد ذلك فى القاعات التى تشتمل على دورقاعة مكشوفة " فناء مكشوف يطل عليه بأواوينها ، كما فى مدرسة وخانقاة السلطان برقوق فى القاعة التى تتقدم الضريح من الجهة الغربية ، وفى مدرسة برسباى بشارع المعز لدين الله فى نفس الموضع حيث يتقدم أيوان الدفن الذى يتقدم القبة من الجهة الغربية فناءً غير مكشوف يضئ القبة وإيوان الدفن وما يعلوه من حجرات أعدت لسكنى المدرسين بالإضافة إلى المساكن التى كانت تطل عليه من الجهة الغربية شرقى الإيوان الشمالى كذلك وجد مثل هذا الفناء الصغير المكشوف الذى يوجد بالقاعات الجانبية شمال وجنوب الرواق الغربى بخانقاة فرج بن برقوق بالصحراء والتى كانت تضئ الاواوين فى الطابق الرئيسى والحجرات العلوية التى تعلو ذلك.

كذلك فإن النوافذ تعتبر من أهم عناصر التهوية والإضاءة[1] وتختلف نوافذ المنشآت الدينية في مقاساتهاوعددها ومواضعها في هذه المنشآت عن مثيلتها فى المنشآت المدنية أو الحربية ، مما يؤكد أثر طبيعة المبنى ووظيفته على شكل عناصر التهوية به . فقد لوحظ أن واجهات العمائر الدينية المملوكية يوجد بها غالبا صفان من النوافذ ، نوافذ الصف السفلى كبيرة مستطيلة يبلغ إتساعها في المتوسط ١,٥ متر وارتفاعها ١,٩٠ متر ، ولها مصراعان من الخشب ولبعضها ستائر من قضبان حديدية متقاطعة ، أما نوافذ الصف العلوى فمستطيلة معقودة من أعلاه ، وتكون عادة على نفس المحور الرأسى لنوافذ الصف السفلى لأغراض إنشائية وجمالية ، وعادة ما يكون لها شبابيك من الجص المعشق بالزجاج الملون ، ولعل أروع الأمثلة الباقية لهذه الشبابيك الجصية المعشقة بالزجاج الملون ما وجد بجامع قوصون والمدرسة الباسطية ، وجامع جانبك الأشرفى ، وقد وجدت بعض النماذج من النحاس المفرغ كما وجد فى المدرسة الطيبرسية عند الأزهر ومدرسة وخانقاة برقوق بالنحاسين وجامع ألماس ، ومدرسة بيدمر البدرى وخانقاة برقوق ثم فى مسجد إينال الأتابكى[2] ومنها ما كان حجريا فقد جاء بوثيقة وقف مدرسة قرقماس بالصحراء مانصه " ويدخل منه " باب " إلى قصر مفروش الأرض بالبلاط مسقف نقيا مدهون به ست شبابيك على كل منها خركا خشبا منها ثلاثة مطلة على الحوش المذكور أعلاه مطلة على الطريق يعلو الشبابيك المذكورة قمريات حجرا بغير زجاج[3] وقد تحكمت ظروف الإنشاء وغرض التهوية والإضاءة فى وضع وحجم هذه النوافذ ، فقد كان لضيق شوارع القاهرة والإرتفاع مبانيها أثر فى عمل النوافذ السفلية كبيرة متسعة لتفى بغرض التهوية والإضاءة ، وقد أدى إلى كبر حجم هذه النوافذ أن النوافذ العلوية تتعرض للشمس أكثر من السفلية ، وتجنب المعمار هذه الشمس

---

[1] تستخدم النوافذ أيضا كمطلات ، وتحقق كذلك غرضا أنشائيا للتخفيف

[2] حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص١٩٥

[3] وثيقة قرقماس أمير كبير اوقاف رقم ٩٠١ ص٤٨ يطلق عادة على هذه النوافذ المصطلح " قمريات " ويسميها الدكتور فريد شافعى " شمسيات " . فريد شافعى العمارة العربية فى عصر الولاة ص٢١٤-٢١٥ وإذا كان الدكتور يرى تسميتها " شمسيات " لأن جمالها يظهر عن سقوط أشعة الشمس عليها ، فإن التسمية قمريات أنسب لأنه بعد سقوط أشعة الشمس عليها ينفذ الضوء منها غير ساطع هادئ جميل كضوء القمر ، هذا ويلاحظ أن بعض الوثائق أطلقت على بعض هذه النوافذ التى تتكون أكثر من فتحة " قندلون " وثيقة قراقجا الحسنى. نشر د. عبد اللطيف ابراهيم على.

بما عمله لها من شبابيك مصنوعة من الجص المعشق بالزجاج الملون الذى لا يسمح إلا بمرور نسبة ضئيلة من الضوء كما أن هذه النوافذ كانت شبابيكها ثابتة لا تفتح فهى مرتفعة عن المستوى الذى يمكن من ذلك ، لذلك كان التركيز على النوافذ السفلية فى الإضاءة والتهوية ، بكبر حجمها خاصة فى الأواوين أو الأروقة ، وقد ساعد ارتفاع المنشآت الدينية المملوكية عن مستوى أرضية الشارع إلى زيادة نسبة الضوء المار من خلال هذه النوافذ فحققت غرض التهوية والإضاءة بصفة رئيسية ، أما النوافذ العلوية فيمكن القول أنها ليست فى المقام الأول لغرض التهوية والإضاءة ، ولكن كان الغرض الأول منها – كما أعتقد – غرض إنشائى بغية التخفيف من ثقل بناء الواجهات ويؤكد ذلك وجودها على محور رأسى واحد مع النوافذ فى الصف السفلى ، وصناعتها من مواد خفيفة كالجص أو الخشب أو ألواح الرخام ، ثم كونها ثابتة لا تفتح ، كذلك سدها بالشبابيك المعشقة بالزجاج الملون ، الذى يقلل نسبة الضوء النافذ منها ، كما أن ارتفاعها عن مستوى المستفيدين من الضوء النافذ منها ، كل هذا وذلك ينفى استخدامها لهذا الغرض ، وإن كانت نسبة الضوء المار منها تضيف إلى إضاءة المكان، كما ان صناعتها من الجص المخرم ، أو الخشب المشغول بالزخارف ووضعها فى تناسق وسمترية بالمنشأة يعطيها قيمة جمالية تفوق أيضا قيمتها كعنصر إضاءة . ولهذا يمكن القول بأن النوافذ التى أنشئت أصلا للتهوية والإضاءة هى صفوف النوافذ السفلية الكبيرة الحجم ، والتى تستغل عادة فى إضاءة الأواوين أو الأروقة [1] ويسهل التحكم فى فتحها وغلقها بالإضافة إلى أنها فى مستوى المستخدمين للأواوين أو الأروقة فتزود المكان بالإضاءة والهواء الذى يكفى المصلين والدارسين والمتصوفة المجتمعين بالأواوين.

وكانت بعض هذه النوافذ خاصة المطلة على الشارع الذى تقع عليه المنشأة ، تستغل إستغلالا آخر ، شاع فى العصر المملوكى ، إذ كان القراء يجلسون بها لقراءة القرآن الكريم ، حتى أن قارئ القرآن فى الشباك أخذ نعته منها فسمى "بقارئ الشباك" ، فقد ذكر المقريزى أنه كان بالقبة المنصورية

---

[1] كان إتساع النوافذ أوضيقها متأثرا بالمكان المستخدمة فيه فقد كان بعض النوافذ على شكل " طاقة " معقودة برسم الضوء " لإضاءة دهليز بمجموعة قلاوون وكانت عبارة عن " عقود بها برابخ برسم الضوء " فى الحجرات الخاصة بمرضى الأمراض العقلية بيمارستان قلاوون حتى لا يستغلها المرضى بما يؤذيهم ، أو الهروب منها (راجع وثيقة قلاوون ٧٠٦ ج) انظر شكل رقم ٦٤ -٧٢

التى أنشأها قلاوون ضمن مجموعته بالنحاسين " قراء يتناوبون بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار [1] وجاء بوثيقة وقف مدرسة أيتمش البجاسى منصه " وأما الشباكان اللذان بها " القبة " فإنه جعلهما ليجلس فيهما ويتلى فيهما القرآن العظيم فى أوقات الصلوات وغير ذلك وينتفع بها الإنتفاع بمثلهما بمثل ذلك على الوجه الشرعى،[2] وجاء بوثيقة وقف مدرسة وخانقاة برقوق بالنحاسين مانصه " فأما الشباكان اللذان بصدر القبة المذكورة فإنه وقفهما ليجلس فيهما القراء بهذه القبة وغيرهم[3] ومن خلال هذه النصوص يلاحظ أن نوافذ القباب غالبا هى التى كانت تستخدم فى هذا الغرض لأن القراء كانوا يعينون للقراءة وإهداء ثواب قراءتهم للواقف إن كان حيا أو مدفونا فى القبة التى ينشئها لنفسه.

كذلك كانت فتحات الأبواب التى تصل بين وحدات المنشآت الدينية تزود الممرات والطرقات بالضوء – اذا كانت تطل على منافذ – مثلها فى ذلك مثل النوافذ ، كما أن هذه الطرقات والدهاليز كانت تضاء أيضا بواسطة مناور سماوية ، إذ نلاحظ أن المعمار كان يترك جزءاً منها بدون تغطية خاصة فى الدهاليز التى تمتد مسافة طويلة وهى عادة الدهليز الذى يربط بين الدركاه التى تلى المدخل الرئيسى وبين صحن المنشآة ، ولعل أروع أمثلة ذلك ما نراه فى دهليز مدرسة وخانقاة برقوق بالنحاسين وخانقاة إبنه فرج بالصحراء ومدرسة الأشرف برسباى بشارع المعز ، وجامع قجماس الإسحاقى وغيرها . وهذه المناور بجانب أنها تضئ الدهليز فهى تعتبر مساقط للهواء تجدد الهواء بالمنشأة وخاصة فى هذا القطاع ، هذا بالإضافة إلى أنها مستغلة فى إضاءة وتهوية الغرف والقاعات العلوية التى تعلو الدهليز عادة أو الوحدات على جانبه.

والأمر الذى تجب الإشارة إليه أن النوافذ والأبواب والفتحات المختلفة فى العمائر الدينية المملوكية ، كان يراعى فيها بصفة عامة مبدأ السمترية مراعاة تامة لا تتعارض والتخطيط الذى يحقق الوظيفة الأساسية تنسجم معها فى توافق جميل ومن الأمثلة التى تؤكد ذلك ما نراه فى منشأة الجاى اليوسفى (انظر شكل رقم ١٧) فليس بها باب ولا نافذة إلا ويوجد ما يقابله مثله

---

[1] المقريزى .خطط ج٢ ص٢٧٩

[2] وثيقة أيتمش البجاسى ١١٤٣ مكرر أقاف

[3] وثيقة وقف السلطان برقوق ٨/٥١ محكمة

ويلاحظ ان الحرص على ذلك إمتد لعمل المضاهيات من النوافذ والأبواب المسمطة ، كما فى مدرسة الأشرف برسباى بالأشرفية وجامعه بالخانكة ومدرسة قايتباى بالصحراء والغورى بالغورية . ويلاحظ أن السمترية قد تمتد إلى التخطيط العام لجميع وحدات المنشأة ، ولعل أفضل الأمثلة على ذلك خانقاة فرج ابن برقوق التى تتشابه وحدات نصفها الشمالى مع وحدات النصف الجنوبى إلى حد كبير ، كما أن السمترية وجدت كذلك فيما وجد بالمنشأة من عناصر ووحدات زخرفية لتجميلها ونضرب لذلك مثلا بالزخارف التى تزين أرجل العقود فى منشأة الجاى اليوسفى ، ومدرسة قايتباى بالصحراء بل فى الموضع الواحد كما فى محراب جامع قجماس وليس هذا بمستغرب فالسمترية (التماثل) ميزة عامة من مميزات العمارة الاسلامية.

ونظرة إلى المسقط الأفقى للمدرسة الأشرفية برسباى (شكل رقم ٢٢) تبين حرص المعمار المملوكى على إضاءة القبة ومراعاة مبدأ التماثل فى وضع نوافذها بما ينسجم مع نوافذ إيوان القبلة . فقد أدى الحرص على أن تقع القبة والسبيل والمدخل الرئيسى للمنشأة بالإضافة إلى إيوان القبلة بالمنشأة على الشارع إلى تقسيم إمتداد الواجهة على هذه الوحدات فكان طول واجهة القبة أصغر من عمق إيوان القبلة ، ولما كان الضريح يغطى عادة بقبة فكان لابد وأن يكون مربع المسقط ، فاختصر المعمار مساحة من المساحة شمالى إيوان القبلة عملها إيوانا للدفن ، ووفر مساحة مربعة للضريح الرئيسى الذى تقام عليه القبة ، وترتب على ذلك أن جاءت النافذة بالجدار الشمالى لإيوان القبلة الذى يفصل بين الإيوان والضريح . والتى تقع فى مواجهة النافذة المماثلة بالجدار الجنوبى للإيوان نفسه – فى الطرف الغربى لجدار الضريح ، وللمحافظة على التماثل فى تخطيط نوافذ الضريح جعل المعمار النافذة المقابلة سابقة الذكر ، فحافظ على التماثل فى وضع النوافذ ، ووفق فى ذلك بين نوافذ إيوان القبلة ، ونوافذ الضريح ، ثم أن المعمار حاول تزويد القبة بالإضاءة الكافية خاصة وأن الواجهة الشمالية للمدرسة التى تقع بها نافذة الضريح بالجدار الشمالى كانت تقع على زقاق ضيق والنافذة المواجهة لها إضاءتها ضعيفة فهى غير مباشرة ، تطل على ايوان القبلة الذى يتزود بالضوء من الصحن والشبابيك المطلة على الشارع ، فعمل نافذة بالجدار الشرقى للضريح فى موضع المحراب الذى كان يوضع عادة بالضريح . وهو أمر يدل إلى أى مدى كان حرص المعمار على التهوية والإضاءة ، خاصة وأن المحراب الذى

كان يوضع بالضريح ، لم تكن الحاجة إليه مثل الحاجة إلى النافذة في الإضاءة والتهوية [1] . . . .

ومما يدل على مراعاة المعمار لظروف كل وحدة من حيث تزويدها بعناصر التهوية والإضاءة ، ما نراه في نوافذ الأسبلة الملحقة بالمنشآت الدينية المملوكية [2] والتي يلاحظ إتساعها وإرتفاعها بدرجة قد تشغل واجهة السبيل كله ، وحاجة السبيل إلى مثل هذه النوافذ المتسعة تساعد على تزويده بالإضاءة الكافية ، وعلى تجفيف أرضية السبيل من الماء الذى قد يبللها نتيجة نقل الماء من الصهريج أسفل السبيل إلى أحواض السبيل وأدواته من أزيار وطسوت ، كما أن إستخدام هذه الشبابيك في وضع أحواض الماء بأرضياتها، ووضع أواني الشرب على حوامل محمولة على كوابيل تتقدم أعتابها السفلية ، ادى إلى اتساع هذه النوافذ بهذا الشكل ، ومما يؤكد الحرص على إتساع وارتفاع هذه النوافذ ما نراه في شباكي السبيل الملحق بمدرسة برسباي – بشارع المعز لدين الله – فيلاحظ أن واجهة السبيل اصلا عميقة نسبيا إذ يبلغ اتساعها ١,٩٠ ، فإرتفع المعمار بالنافذة حتى وصل بها إلى مستوى يقرب من سقف السبيل ليعرض ضيق النافذة الذى يصل إلى ١,٦٠ متر بسبب الضيق الأصلي لواجهة السبيل . كما أنه في بعض المنشآت كانت هذه النوافذ تشغل واجهتي السبيل جميعها ويكتفي بعمل عمود في الركن الذى يصل الواجهتين يرتكز عليه السقف كما في مدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنفش . وهو أمر يشير إلى براعة المعمار في تخليق نوافذ تفي بالإضاءة والتهوية وتؤدى خدمة في عملية سقى الماء من السبيل للمارة.

وتبدو هذه المراعاة كذلك في نوافذ الوحدات الأخرى بالمنشأة الدينية كمساكن الطلبة والمدرسين أو نوافذ المكتبات ومناور المطابخ وغيرها ، فقد راعى المعمار أن تكون هذه النوافذ باتساع يتناسب وحاجة هذه الوحدات من الإضاءة والتهوية ، فمثلا نجد أن اتساع نوافذ غرف الطلبة في مدرسة السلطان حسن وخانقاة شيخو وخانقاة فرج بن برقوق يبلغ في المتوسط ٧٠سم × ١,٢٠ متر ، وكل حجرة تشتمل على نافذة واحدة ، واستغل المعمار الشوارع والمنافذ التي تطل عليها المنشأة في الإضاءة في فتح هذه النوافذ عليها أما في الوحدات التي لا تقع على الشارع مباشرة ولا تطل على

---

[1] راجع محمد عبد الستار عثمان. الآثار المعمارية للسلطان برسباى بمدينة القاهرة ص١٤٤

[2] انظر شكل رقم ٢٢

منافذ نلاحظ أن المعمار يلجأ فى هذه الحالة إلى فتح نوافذ صغيرة مربعة أو مستطيلة تعلو فتحات الأبواب، تساعد على تهوية وإضاءة الحجرة حيث يخرج منها الهواء الصاعد ويدخل الهواء البارد من فتحة الباب أسفلها ، ويلاحظ ذلك فى الغرف التى تقع بالطوابق الأرضية كما فى خانقاة فرج بن برقوق بالصحراء ، أو فى غرف الطلبة بمدرسة السلطان حسن التى لا تطل مباشرة على الفناء الأوسط الذى يتوسط كل مجموعة من المجموعات الأربعة بها ويصل الضوء إليها عن طريق غير مباشر عن طريق الممر الذى يتقدمها ويطل بفتحات كبيرة مستطيلة على الفناء.وهذا يعنى أن المعمار المملوكى إستخدم فى تهوية وإضاءة مبانية كافة أوضاع الفتحات التى تساعد على مرور الهواء وإستمراره ، سواء الفتحات المتقابلة فى مستوى واحد ، أو فى مستويات مختلفة ، او الفتحات التى يعلو بعضها بعضا ، إذا لم تسمح الظروف فيأتى الهواء من الفتحات السفلى ويخرج من الفتحات العليا. (أنظر شكل رقم ٦١).

وما دمنا نتحدث عن النوافذ والأبواب بإعتبارها من عناصر التهوية والإضاءة فإننا يجب أن نشير إلى أن بعض الآثار عملت بعض أبوابها ونوافذها بمقاسات نوافذ وأبواب جلبت من عمائر أخرى ، مثال ذلك شباك قبة بيبرس الجاشنكير الذى يقال أنه نقل من دار الخلافة فى بغداد وركب على نافذة القبة،[1] وباب جامع المؤيد شيخ الذى نقل من مدرسة السلطان حسن ، فقد إشتراه المؤيد شيخ لجامعة بعد أن سد باب مدرسة السلطان حسن إثر إستخدامها فى الهجوم على القلعة ، وباب جامع الأشرف برسباى بالخانكة الذى يقال أن برسباى أتى به من الشام عند فتحة لآمد [2] كما تجب الإشارة إلى أن استخدام المصاريع التى تفتح وتغلق على هذه النوافذ كان هو السائد فى معظم الآثار ، واستخدمت إلى جانب ذلك أيضا الشبابيك الجرارة ، والتى تسمى فى المصطلح الوثائقى " نوافذ راجعى " فى منشأة القاضى يحيى زين الدين بالأزهر [3] ومدرسة قايتباى بالصحراء فى شبابيك إيوان القبلة[4] وهناك بعض النوافذ التى كانت عبارة عن فتحات خالية من اى شبابيك لعدم الحاجة إلى غلقها يمكن أن تسمى مناور حائطية كذلك تجب الإشارة إلى أن توجيه

---

[1] حسن عبد الوهاب.تاريخ المساجد الأثرية ج١ ص١٣٣

[2] محمد عبد الستار عثمان. الآثار المعمارية للسلطان برسباى ص١٩٤

[3] وثيقة وقف القاضى يحيى زين الدين ١١٠/١٧

[4] وثيقة وقف قايتباى ٨٨٦ ص٣٨

فتحات النوافذ ، وقد يتحكم فيها حرم المنشأة الدينية والشوارع المطلة عليها كما أن المعمار قد يوجهها توجيها خاصا ، مثل ما فى نوافذ الرواق الذى يعلو كتلة المدخل لجامع برسباى بالخانكة ، فيلاحظ أن فتحات نوافذ هذا الرواق شرقية وغربية ، ولم يجعلها المعمار ناحية الشمال وكان يمكنه ذلك ولكن بتوجيهه هذه النوافذ فى هذا الاتجاه ، وقى ساكنى الرواق الهواء البارد الذى يأتى من الجهة الشمالية ، خاصة وأن الضاحية لم تكن تزدحم بالبناء مثل المدينة نفسها – ثم إنه أعطى فرصة كبيرة لتشميس الرواق حيث ان أشعة الشمس تصلها صباحا ومساء[1].

واذا كانت العناصر السابقة تحقق هدف الإضاءة والتهوية معا ، فإن إرتفاع منسوب السقف فى الأواوين يوفر درجات الحرارة المريحة[2]كما أن الحوائط والأسقف والأرضيات تعمل كمخزن للبرودة حتى ساعة متاخرة من النهار[3] ، كما أن إختلاف مستويات الأرضيات خاصة فى طوابق السكنى، كما كان الحال مثلا فى خانقاة شيخو ، وفى خانقاة فرج بن برقوق وبرسباى بالصحراء ، يساعد على تحريك الهواء ، وخلق تيار هوائى يساعد على تهويتها وتغيير هواءها ، كذلك فإن ما كان بهذه المنشآت من فساقى يساعد على تلطيف الجو بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية فى الوضوء وغيره . ولكن المعمار رغبة منه فى تجديد الهواء ، وإيمانا منه بأن حركة الهواء فى الداخل من أهم العوامل فى توفير الراحة الحرارية استخدم الباذاهنجات " الملاقف " التى توجه ناحية الشمال والغرب ، فيسقط عن طريقها الهواء البارد إلى المكان ، والمعروف أن المصريين – بشهادة المؤرخين أمثال عبد اللطيف البغدادى – قد برعوا فى ذلك فيقول " ويجلعون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة وقلما تجد منزلا إلا وفيه باذاهنج ، وباذهنجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام[4] حتى أنه يقوم على عمارة الواحد منها مابة دينار إلى خمس مابة دينار، وإن كانت باذهنجات المنازل

---

[1] ينقد بعض أستاذة العمارة الخطأ الشائع بتوجيه الغرف ونوافذها نحو الشمال بحجة ان بلادنا حارة (د.عرفان سامى .نظريات العمارة ص٢٤) لان ذلك يعرضها لتيارات الهواء الضارة ولا يسمح بدخول الشمس المطلوبة للصحة العامة .

[2] Lizine .Le sallnable de palais P . 102

[3] Hasan Fathy The Qaa cairene P . 136

[4] فى طريقة لانشاء الباذاهنج مثل مؤلف ابن رجب ' عن الباذاهنج '

الصغار يغرم على الواحد منها دينار[1] وقد إستخدمت الباذاهنجات فى القصور والدور المملوكية ، فيذكر صاحب النجوم أن النار وقعت " فى بيت الأمير سلار بخط بين القصرين وإذا بالنار[2] ابتدأت من أصل الباذاهنج وكـ ارتفاعه عن الأرض زيادة على مائة ذراع بالعمل[3] وهو أمر يشير إلىعظم الإهتمام بإنشائها.

وإذا كانت المنازل والقصور فى العصر المملوكى فى حاجة إلى الباذاهنج للتهوية ، فإن حاجة المنشآت الدينية لها اكبر خاصة فى تلك المنشآت التى لا تفى الشوارع المحيطة بالمنشأة بتهويتها ـ او التى تقع إلى الداخل ولا تطل مباشرة على الشارع ، مثال ذلك ما وجد بخانقاة بيبرس الجاشنكير التى وجد بها إيوان القبلة وبالإيوان الغربى المقابلة له باذاهنجات تساعد على تهوية أواوينها التى حجبت القبة الملحقة بها المطلة على الشارع أواوينها ، وكذلك مدرسة برسباى بالأشرفية التى وضع بالإيوان الغربى بها باذاهنج يعلو الحنية التى يصدر الإيوان بالذات لا يطل على اى منافذ عكس إيوان القبلة ، والإيوانين الشمالى والجنوبى ، فزوده المعمار بهذا الباذاهنج[4] ومنشأة قراقجا الحسنى التى وضع إيوان القبلة فيها محصورا بين جاوره من منشآت وأزقة ضيقة ، فجعل المعمار به باذاهنج فى الجدار الشمالى للإيوان ، كذلك كان بالسدلة الشمالية لمنشأة جوهر اللالاه بالمصنع عند القلعة باذاهنج[5] وكان الباذاهنج فى هذه الأمثلة جميعا يسقط الهواء مباشرة على الإيوان عكس ما كان متبعا فى القصور المملوكية ، حيث كان الملقف يوضع عادة اعلى إحدى الحجرات المجاورة للقاعة حيث يفصلها حائط تعلوه فتحة كبيرة محلاة بشبكة خشبية ، وعند دخول الهواء من الملقف يتجه إلى الحجرة الأولى ، ثم يصل إلى القاعة من خلال الفتحة المذكورة[6] ولعل طبيعة المنازل تتطلب

---

[1] عبد اللطيف البغدادى فى مصر ص٥٢

[2] إستغل النصارى سرعة الهواء فى مساقط الباذاهنجات بالمنشآت الدينية لحرق هذه المنشآت فى أثناء الفتنة التى وقعت بين المسيحيين والمسلمين فى عهد الناصر . ابن تغرى بردى . النجوم ج٩ ص٦٦ وما بعدها

[3] ابن تغرى بردى النجوم ج٩ ص٦٦

[4] وثيقة وقف برسباى ٨٨٠ ص١٤ غيرت معالم هذا الباذاهنج وسدت فتحته.

[5] وثيقة جوهر اللالاه رقم ١٠٢١

[6] Lezine, La Protection contre La chaleur P. 10

ذلك ، أما فى المنشآت الدينية التى تزدحم بالمصلين أو الدارسين والمتصوفة فتحتاج إلى التهوية المباشرة ويتلائم معها جعل الباذاهنج مباشرة فى الإيوان.

وبهذه العناصر المختلفة للتهوية والإضاءة إستطاع أن يوفر درجة من الإضاءة الجيدة لمن بداخل المنشأة من المصلين والدارسين والمتصوفة . كما أنه بوسائل التهوية المختلفة تغلب على حرارة الجو.

الفصـــل الســـادس

عناصر الإنشاء :

قبل التعرض لدارسة عناصر الانشاء فى العمائر الدينية المملوكية، يحسن أن نتعرض أولا لمواد الإنشاء وطبيعة كل منها وأساليب وطرق استخدامها.

فقد إستخدمت فى تشييد العمائر المملوكية أنواع عديدة من مواد البناء كالأحجار والآجر ، والرخام والخشب والنحاس والرصاص والزجاج والجص وغيرها ، ويعتبر الحجر مادة البناء الرئيسية فى إنشاء العمائر المملوكية حتى يمكن القول بأن عمارة المماليك كانت عمارة حجرية بسبب شيوع إستخدام الحجر فى البناء.

وإذا كان المماليك قد إستخدموا بصفة عامة الحجر الجيرى من محاجره القريبة من القاهرة ، فإنهم إستخدموا أيضا أنواعا مختلفة أخرى من الأحجار نقلوها من الآثار القديمة فى العصور السابقة ، ولذلك يستحسن أن نعرض لجميع أنواع الأحجار المستعملة فى البناء بصفة عامة لبيان مميزات كل منها والأنواع التى ركز المعمار المملوكى على إستخدامها فى عمائره للكشف على براعته فى تطويع نوعية مادة البناء المتاحة وإستخدامها فى منشآته بأساليب صحيحة فى الإنشاء.

وقد إستخدم المصريون القدماء فى عمائرهم أنواعا مختلفة من الأحجار كالجرانيت الذى إستخدم بكثرة خاصة للمتاريس وتسقيف القاعات التى يزيد بحرها عن ثلاثة أمتار ، ولكن صعوبة تسوية سطوح الجرانيت لم تشجع كثيرا على إستخدامه فى نطاق واسع[1] وإستخدموا أيضا الحجر الرملى الذى يمكن قطعه بأحجام طويلة ، وهو أمر يساعد على إستخدامه فى تسقيف مساحات عريضة وإقامة قاعات وأبهاء واسعة ومبان ضخمة[2] كذلك إستخدموا حجر الكورتزيت وهو حجر رملى صلد متبلور ذو لون يميل إلى الأحمر. وكان يستخدم فى صنع الأعتاب لبعض الأبواب[3] وإستخدموا أنواعا

---

[1] د. محمد أنور شكرى. العمارة فى مصر القديمة ص٤٦

[2] المرجع نفسه ص٤٦

[3] د. محمد أنور شكرى. العمارة فى مصر القديمة ص٤٧

أخرى من الأحجار فى تكسية الجدران وفرش الأرضيات مثل البازلت وغيرها ، كذلك فإنهم إستخدموا الحجر الجيرى فى بناء بعض المعابد والقصور ومن عرض أنواع الأحجار التى استخدمها المصريون القدماء فى الإنشاء والتعمير يتضح إعتماد المصريين على متانة الحجر فى الإنشاء ، ففضلوا أنواعا معينة فى تغطية القاعات المتسعة لتحملها لذلك ، وإستخدموا أنواعا أخرى فى عمل الأعتاب لقوة تحملها ، أما الأحجار التى لاتتمتع بهذه المميزات فإستخدموها كأنواع مساعدة فى التكسية والأرضيات. ولذلك كان الحرص شديدا على جلب هذه الأحجار فى مواقع وجودها مهما بعدت عن موقع البناء ، رغم ما يتطلب ذلك من جهد كبير فى قطع الأحجار ونقلها من محاجرها إلى مواقع البناء.

وأنواع الحجر عديدة وتسمياتها متعددة حسب صفات هذه الأحجار أو مصادر الحصول عليها[1] وقد وردت أسماء الأحجار المستعملة فى عمائر المماليك فى ثنايا وثائق الوقف المملوكية مثل " الحجر النحيت " أو " الفص النحيت " وهو الذى كان غالبا ما يستعمل فى واجهات ومداخل العمائر ، وهو نوع أطلق عليه " الحجر المطبق " واستعمل فى العتب العلوى لبعض المنشأت مثل مدرسة صرغتمش[2] وفى فسقية الصحن بخانقاة برقوق [3] ، كما كثر إستخدام الحجر الصوان فى الأعتاب السفلية والعلوية للابواب وكانت هذه الأعتاب تجلب غالبا من عمائر قديمة ، حيث وجد على بعض منها نقوش هيروغليفية مما يؤكد انها جلبت من عمائر مصرية قديمة ، وهنا نشير إلى ان المعمار إستغل متانة هذه الأحجار فى هذه المواضع.

وقد قسمت الأحجار التى إستعملها المعمار المملوكى إلى أنواع تبعا لحجمها ، فمثلا الأحجار ذات الأبعاد الكبيرة تسمى " أحجار آلة ، والأحجار ذات الأبعاد الصغيرة يسمى " بطيحا " متى كانت تصلح تصليحا خفيفا ، فإذا لم تكن كذلك فهى دبشا. وقد قسمت حسب نحت أوجهها بالأحجار التى ينحت وجهها بحيث يكون بارزا عن زوايا الحجر ووجهه خشنا " المبوص" وهو النوع الذى شاع فى عمائر صلاح الدين ، ومنها النوع الذى نحت وجهه

[1] ابن منظور. لسان العرب ج٥ ص٤١ ، ص١٣٣

[2] هيوم. أحجار البناء ص٣٧ ،ص٦٩

[3] وثيقة وقف برقوق ٨/٥١

بحيث يصبح ناعم الملمس مستوى ويسمى الحجر المنحوت SMOOTH وهو الذى شاع إستعماله فى العصر المملوكى.

وقد إستخدمت فى المنشآت المملوكية أحجارا منحوتة نحتا جيدا ، ولا يزيد حجمها عن ٣٠ × ٧٠ سم ، وإن إستخدم فى بعض عمائر المماليك البحرية أحجارا ذات حجم كبير يطلق عليها " عجالى " بالإضافة إلى بعض الأحجار التى جلبت من عمائر أثرية قديمة وقد توافرت أنواع الحجر الجيدة قريبا من القاهرة فى الحد الشمالى للأراضى الزراعية المنخفضة جهة البساتين ، وكانت منطقتى أثر النبى والبساتين مناطق استخراج أنواع الأحجار الجيدة [١] ومن المعروف أنه كلما قلت نسبة المواد الطفلية بالحجر كان أكثر جودة.

وكان الحجر الجيرى هو أهم أنواع الأحجار المستخدمة فى إنشاء العمائر المملوكية والحجر الجيرى يختلف نفسه بإختلاف الطبقات ، وهذا الإختلاف يتوقف على عوامل مازالت مفتقرة لبحث دقيق يستوجب الفحص التحليلى والميكروسكوبى ، ومن دراسة أنواعه المختلفة ، وجد أن أكبر أحجار القاهرة اندماجا هو نوع به نسبة عميقة من المواد الطفلية وهو الحجر المعروف عند العامة بحجر باقور ويستخرج من محاجز أثر النبى وعلى العموم فإن الأحجار التى توجد شمال وجنوب القاهرة هى الحجر الجيرى الأصفر اللين قليلا، ومن جهة أخرى نجد أحجار المعصرة وحلوان سهلة الصناعة[٢].

وتتطلب عملية قطع الأحجار من محاجرها ، وإستخدامها فى البناء جهدا كبيراً ، وكانت الدولة فى العصر الفرعونى تتولى الإشراف على ذلك وتنفيذه واستخدمت فى ذلك أدوات بسيطة ، وقيل أيضا إنهم كانوا يستخدمون بعض المواد الكيماوية يلينون بها الجرانيت قبل إستخدام آلات القطع[٣] وبرعوا فى ذلك حتى انهم شيدوا أعمالا معمارية ضخمة تشهد لهم بذلك وكانت تقوم أعداد غفيرة بقطع الأحجار ونقلها إلى مواقع البناء وأمام حاجة المعمار المصرى القديم لأحجار معينة قد تكون مصادرها بعيدة عن موقع البناء ، كان لابد من نقل هذه الأحجار عن طريق النيل بواسطة سفن كبيرة

---

[١] هيوم. أحجار البناء ص٥٩

[٢] هيوم. أحجار البناء ص٩

[٣] د. محمد أنور شكرى. العمارة فى مصر القديمة ص٤٨

تحمل الأحجار التى كانت تنقل إلى شاطئ النيل بواسطة زلاقات من الخشب يجرها الرجال أو الثيران ، بعد تمهيد الطرق التى تربط الشاطئ بالمحاجر[1].

وقد تطورت أساليب الإنشاء فى العصور المختلفة وتطورت وسائل قطع الأشجار وطرقه التى ورثها المصريون من أجدادهم الفراعنة ، فقد إستخدمت فى هذا العصر أنواع من الدهن إذا وضعوه " على الصخرة سهل قطعها"[2] ولقرب المحاجر من موقع البناء إستخدم فى نقلها العجول حتى أن هذه الأحجار سميت " بالعجالى " نسبة إلى ذلك ، كذلك استخدمت الجمال والحمير فى نقل الأحجار[3] وغيرها من مواد الإنشاء. وكان لتطور أساليب الإنشاء فى إستخدام الأقبية والعقود أثره فى عدم الحاجة إلى أنواع الاحجار الضخمة الصلبة التى تستخدم فى عمل السقوف والأعتاب ، كما كان فى العمارة المصرية القديمة فسهل إستخدام المتوفر منها ، وكان الحجر الجيرى- كما ذكرنا – متوفرا فى المناطق المحيطة بالقاهرة ، وهو نوع من الاحجار – سهلة القطع بالنسبة لغيره ، ويتمتع أيضا بنوع من الصلابة تشجع على إستخدامه فى البناء ، بالإضافة إلى سهولة تسوية سطوحه ، وإمكان نحته أو دق الزخارف عليه ، وكلها مميزات ساعدت على شيوع إستخدامه فى الإنشاء فى العصر المملوكى.

هذا بالإضافة إلى مميزاته الأخرى التى كشفت عنها البحوث ، فهناك من التجارب العملية ما أجرى لحساب الفترة الزمنية التى تستغرقها الحرارة للتسرب خلال الحجر الجيرى فقد قام بعض الباحثين فى هذا المجال بالعديد من التجارب لتحديد الفترة الز منية التى تسغرقها الحرارة للإنتقال خلال بعض المواد الشائعة الاستخدام – حاليا – فى الانشاء ، مستخدمين جهازGLUBE THERMOMETER يتم بواسطته قياس درجة حرارة الاسطح الداخلية والخارجية للحائط وكانت النتائج كالآتى :

(١) الطوب النى ٥٠, م حوالى ٢٠ ساعة
(٢) الطوب الجيرى ٦٠, م حوالى ١٢- ١٩ ساعة
(٣) الخرسانة المسلحة١٥,٠م حوالى ٤- ٥ساعات[4]

---

[1] محمد انور شكرى. العمارة فى مصر القديمة ص٥٤-٥٥
[2] ابن حجر. إنباء الغمر ج٢ ص٤٦٢
[3] المقريزى. خطط ج٢ ص٢٩٩ ، والصيرفى. نزهة النفوس ج٣ ص٢٧
[4] قام بالبحث المهندس عمر الفاروق وجون نورتون بأرض التجارب بمعهد البناء وكان التوجيه بالنسبة للشمس ثابتا فى الثلاث حالات.

وتكشف هذه الأرقام عن طول الفترة الزمنية التى تستغرقها الحرارة للمرور خلال بلوكات الحجر الجيرى. الأمر الذى يساعد على الإحتفاظ بدرجات . الحرارة منخفضة داخل الأبنية المشيدة منه بعكس الخرسانة المسلحة التى تستقبل الحرارة وتعيد اشعاعها داخل الأبنية خلال فترة زمنية تعد قصيرة ، إذا ما قورنت بالطوب النى أو الحجر الجيرى وهو أمر يؤكد حسن إختيار المعمار المملوكى لمادة البناء من الناحيتين العملية والإقتصادية.

كذلك قيم الحجر الجيرى من حيث العزل الصوتى ، وقد أثبتت التجارب التى عملت بخصوص هذا التقييم ، أن الحجر الجيرى يتمتع بقدر كبير من خاصية العزل الصوتى ، تتوقف على عامل هام وهو كثافة مادة الإنشاء ، وتتناسب هذه القيمة تناسبا طرديا مع الكثافة ، فقد وجد أن كثافة الحجر الجيرى مثلا الذى استخدم فى بيت السحيمى تتروام ما بين ٢,٨:٢,٦ فى حين أن الخرسانة المكونة من ٣,٥٠ كج إسمنت يبلغ ٢,٤ متر[١] .

وإذا كان الحجر الجيرى يتمتع بهذه المميزات سواء بالنسبة للعزل الحرارى والصوتى فإن المعمار المملوكى استخدمه أيضا لمميزاته الإنشائية لمتانته[٢] ولمقاومته كذلك أسباب الحريق ، فقد ذكر ابن تغرى بردى أن الناصر محمد كان « غالب عمائره بالحجارة خوفا من الحريق[٣] وكان ذلك ربما سببا فى استخدام الحجر أو الرخام فى بناء بعض المنابر ودكك المؤذنين.

وقد استخدمت بجانب الحجر - مادة البناء الأساسية فى العصر المملوكى مجموعة من مواد البناء الأخرى ، مثل الآجر الذى استخدم بصفة خاصة فى المواضع التى تتعرض للماء لمقاومته لذلك ، مثل الفساقى والصهاريج ، كما أن المعمار إستغل مميزاته البنائية فى الجمع بينه وبين الحجر أحيانا بغرض التخفيف فإستخدم فى بناء العقود وبعض الجدران بالإضافة إلى الحجر[٤] وإستخدم فى إنشاء بعض القباب والأقبية والمآذن . كذلك إستخدم الرخام فى العمائر المملوكية سواء فى الأعمدة أوالأعتاب ، أو فى تكسية الجدران بألواح الرخام الملون ، ونظرا لندرته فى مصر فقد كان

---

(١) مجدى عبد العزيز - المرجع السابق ص ٢١٦

(٢) المقريزى. خطط ج١ ص٣٤٤

(٣) ابن تغرى بردى. النجوم ج٩ ص١٨١

(٤) انظر وثائق قلاوون ٦٠٧ ج ، برقوق ٨/٥١ محكمة ، سودون من زاده ٨/٥٨

يجلب من عمائر قديمة ويعاد إستخدامه فيما ينشأ من عمائر حديثة ، فعندما أراد بيبرس بناء جامعه يذكر – المقريزى " انه كتب بإحضار عمد الرخام من سائر البلاد "[1] ويذكر أن رخام المدرسة الأشرفية – التى أنشاها السلطان برسباى ، كان رخام وزرتها من قصر بيسرى ببين القصرين[2] كذلك نقل الغورى رخام من قاعة الطنبدى واستخدمه فى منشأته[3] كذلك كانت تستخدم أفضل الأخشاب فى عمل الأسقف الخشبية المسطحة والأبواب والنوافذ وقطع الأثاث الخشبية الأخرى من منابر وكراسى للمصحف ودكك للمؤذنين وأحجبة خشبية وغيرها ، هذا بالإضافة إلى النحاس الذى استخدم فى عمل بعض النوافذ ، وفى تصفيح بعض الأبواب وغيرها وكان تقوم على إعداده مصانع النحاس فقد اشارت وثيقة سودون من زاده إلى أحدها وما كان به من أدوات تدل على إرتقاء هذه الصناعة ، كانت يقع بالقرب من باب النصر[4]

وكانت مواد البناء الأساسية تشون فى الموقع فقد كان ينقل إلى الموقع الحجارة والطين ، وكان بعض الحجارة يحرق جيرا لإستخدامه فى تركيب المونة اللازمة لعمليات البناء والانشاء.

أساليب وطرق الإنشاء :

كان يجهز لعمليات البناء العمال الفعلة والبنائين الذين يقومون بعمليات الإنشاءوكان هؤلاء العمال يعملون فى مواقيت متعارف عليها وبنظام معين تحت إشراف من يباشر العمارة ، فكانوا يبدأون العمل من الصباح وحتى العصر[5] ولكن يجب أن نشير إلى أن هؤلاء العمال كانوا يتعرضون للغبن سواء بتسخيرهم للعمل فوق طاقتهم مثلما فعل الناصر محمد عند بنائه حوش الأوز بالقلعة ، وأراد إنجازه فى فترة وجيزة ، أو بتسخيرهم فى العمل وغبنهم فى الأجر ، ولعل ما فعله آقبغا عبد الواحد فى العمال الذين قاموا ببناء مدرسته عند الأزهر خير دليل على ذلك ، فقد " أبلى الناس ببلايا كثيرة منها أن الصناع كان قررهم آقبغا أن يعملوا بهذه المدرسة يوما فى الأسبوع بغيره أجرة " على حد قول ابن تغرى بردى الذى يذكر أيضا أن

---

[1] المقريزى. خطط ج٢ ص٢٩٩

[2] المقريزى. السلوك ج٤ ق٢ ص٨٦٥

[3] وثيقة استبدال رقم ٥٢٦ ج

[4] وثيقة سودون من زاده ١٠/٥٨

[5] المقريزى. خطط ج٢ ص٢٦٥

آقبغا " ما نزل إليها قط إلا وضرب بها أحد زيادة على شدة عسف مملوكه الذى أقامه شادا بها "[1].

وكانت عملية البناء تبدأ بحفر الأساسات ، وكانت هذه العملية تستغرق بعض الوقت للإهتمام بوضع أساسات متينة للمنشآت تتحمل الثقل عليها سواء الثقل الميت المتمثل فيما يعلوها من مبانى أو الثقل الحى فيمن يستغل وحداتها من البشر ، وحتى تقوى على الزمن وتظل باقية تؤدى وظائفها التى أنشئت من أجلها. فقد أستغرق حفر أساسات جامع المؤيد على سبيل المثال المدة من ٤ جمادى الآخر سنة ٨١٨ هـ إلى ٥ صفر سنة ٨١٩هـ أى حوالى ستة أشهر، ثم وقع الشروع فى البناء الذى شارك فيه على حد قول المقريزى "بضع وثلاثون بناء ومائة فاعل"[2].

فقد كانت تحفر الأساسات عميقة ، وكان المعمار الاسلامى عامة يهتم بوضع الأساسات لمبانيه ، ولعل ما كتبه عبد اللطيف البغدادى عن بعض الأساسات الت كان يعملها المصريون فى مبانيهم يدعم ما نذهب إليه ، فيقول " فأما المسناة فيسمونها الرزينة ولهم فى بنائها إتقان حسن وصفته أنه يحفر الأساس حتى تظهر النداوة وثرير الماء فحينئذ يوضع ملبن الجميز أو نحوه على تلك الأرض الندية بعد ما تعهد ، ويكون عرضه نحو ثلثى ذراع وقطر حلقته نحو ذراعين مثل الذى يجعل فى قعر الآبار ، ثم يبنى عليه بالطوب نحو قامتين فتصير بمنزل التنور ، فيأتى الغواصون وينزولون هذا البئر ويحفرونها ، كلما نبع الماء نزحوه من الطين والرمل ، ويحضرون أيضا ذلك الملبن ، فكلما تخلخل ما تحته وثقل بما عليه من البناء نزل وكلما غاصوا عليه وحفروا تحته ويحفر ، وهو بثقله يغوص حتى يستقر على أرض جلد ويصل إلى الحد الذى يعرفونه ، فحينئذ ينتقلون على عمل أخر مثله على سمته وعلى بعد أربع أذرع منه أو نحوها ولا يزالون يعملون ذلك فى طول الأساس المفروضة ثم يبنون الأساس كالعادة بعد ردم هذه الآبار ، فترجع أوتادا رأسية وعمد تدعم البناء وتوثقه[3] .

ومما يشير إلى براعة المعمار الإسلامى وحرصيه على أن تكون مبانيه ذات أساس متين ، ما اتخذه من طرق للبناء فى الماء ، متغلبا على هذا

---

[1] ابن تغرى بردى. النجوم ج٩ ص١٤١ -١٤٤.
[2] المقريزى. خطط ج٢ ص١٢٧.
[3] عبد اللطيف البغدادى فى مصر ص٥٢-٥٣.

الحاجز فى وضع أساس بنائه ، فعندما أراد ابن طولون بناء ميناء عكا على هيئة ميناء صور الذى أعجب به ، إستعانوا بأبى بكر البناء جد أبو عبد الله المقدسى صاحب كتاب أحسن التقاسيم ، أعرف الناس بطريقة البناء فى الماء، عندما سألوه ذلك فقال " هذا أمر هين ، على بفلق الجميز الغليظة ، فوضعها على وجه الماء بقدر الحصن البرى وخيط بعضها وجعل لها باب من الغرب عظيما ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمس درامس (مداميك)ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا علم أن جاست على الرمل تركها حولا كاملا حتى أخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخل فيه وخيطه به "[1] .

وقد ورث المعمار المملوكى خبرة سابقية من المهندسين المسلمين فى وضع الأساسات ، وكان على دراية كبيرة بأهمية الأساسات ولذلك فإنها كانت تأخذ منه جهدا كبيرا ، يكشف عنه ما عمل من مجسات للكشف عن بعض الأساسات لبعض العمائر المملوكية سواء فى العمارة المدنية والدينية[2] والتى أوضحت أن المعمار حاول دائما الوصول إلى المستوى الصخرى للأرض، ووضع أساس مبانيه على الصخرة مباشرة ، ثم إنه كان يعمل لجدارنه أساسات سميكة تتدرج كلما ارتفع البناء إلى مستوى سطح الأرض فى درجات تشبه تدرج السلم يقل عن أثرها سمك الجدران ، إلى ان يصل إلى سمك معين عند سطح الأرض ترتفع به المعمار حتى نهاية مبانيه ، وهذه الطريقة تسمى فى المصطلح المعمارى الدارج " تلبيشة " ولعل ما نراه فى منشأت سلاروسنجر الجاولى من ارتكاز المعمار للبناء على الصخر مباشرة ، ثم ما كشفت عنه المجسات التى عملت للكشف عن الأساسات فى مدرسة ام السلطان شعبان وبيت الرزاز بجدر القاعة المملوكية التى به ، يكشف عن رغبة المعمار المملوكى فى وضع أساسات مبانية على الأرض الصخرية التى تتميز بها هذه المنطقة من القاهرة ، حيث أن جنوب القاهرة بصفة عامة يتمتع بوجود الأرض الصخرية على مستوى قريب بل تبرز أحيانا على هيئة ربى

---

[1] أحمد تيمور أعلام المهندسين فى الاسلام ص٦٩

[2] قام بعمل هذه المجسات المهندس الامريكى " لوك " تحت إشراف الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب وبمباشرتى. عند اعداد مشروع ترميم بيت الرزاز بواسطة البعثة الأمريكية ١٩٧٧ فى القاعة المملوكية بهذا المنزل ، وبمدرسة أم السلطان شعبان المجاورة له.

مرتفعة تبرز عن سطح الأرض استغلها المعمار فى وضع أساساته مباشرة، مثل ما فى سلاروسنجر - كما ذكرنا - أما فى المناطق الأخرى التى لاتتمتع بقرب مستوى الأرض الصخرية اوعدم وجودها فأن المعمار حفر أساسات عميقة ووصل بعمق هذه الأساسات إلى مستوى يتناسب وإرتفاع المبانى المنشأة فوق سطح الأرض ، ويؤكد ذلك ما يذكره المقريزى من أن قصر بشتاك كان يرتفع فى الهواء أربعون ذراعا ومثلها فى باطن الأرض[1] وكذلك كان قصر بكتمر الساقى على بركة النيل بالقرب من الكبش فعمل " أساسه أربعين ذراعا وإرتفاعه أربعين ذراعا فزاد مصروفه على ألف الف درهم " على حد قول ابن تغرى بردى[2] وهذا يعنى أن الأساسات إمتدت إمتدادا عميقا فى باطن الأرض وبالجمع بين تعميق الأساسات وبنائها بالطريقة المدرجة - السابق الإشارة إليها - كانت اساسات هذه العمائر متينة قويت على الزمن وحملت ما بنى فوقها من مبانى بنيت حسب نظرية الحوائط الحاملة. وقد تلاءمت أساليب الإنشاء لدى المعمار المملوكى مع طبيعة الأرض التى ينشئ عليها ، فقد إستغل -كما ذكرنا - الأرض الصخرية التى أنشأ عليها سلاروسنجر منشأته فى بنائه حوائطه عليها مباشرة[3] وفى جامع الخطيرى ببولاق " فأنفق أموالا جزيلة فى أساساته مخافة زيادة النيل، وأخذ أراضى حوله من بيت المال وأنشأ عليها الحوانيت والرباع والفنادق فلما تم بناؤه ، قوى عليه ماء النيل فهدم جانبا منه فأنشأ تجاهه زريبة رمى فيها ألف مركبة موسوقة بالحجارة [4] وكان ذلك لحماية أساسات الجامع وحوائطه من ماء النيل.

وزيادة فى متانة الأساسات إستخدم الرصاص أحيانا فى بعض المنشآت المائية فيذكر صاحب النجوم ان الامير بكتوت " بنى جسرا أقام فيه

---

[1] المقريزى. خطط ج٢ ص٦٩٨

[2] ابن تغرى بردى. النجوم ج٩ ص١٨٨

[3] من طريف ما يذكر أن سنجر الذى يقال أنه أنشأ هذا الجامع أنشأ جامعا أخر بغزة بأحد جبالها يقال انه كان مقبره يهود على هذا الجبل فقطعه الجاولى وجوفه وبنى السقف عليه وهو يرتفع على ١٢ سارية ومساحته ٤٢×٢٥ ذراع (ابن تغرى بردى. النجوم ج١ ص١١٠)

[4] ابن تغرى بردى. النجوم ج٩ ص٧٨

ثلاثة أشهر حتى بناه رصيفا وأحدث عليه ثلاثين قنطرة بناها بالحجارة والكلس وعمل أساسه رصاصا[1] .

وكانت نظرية الحوائط الحاملة هى الأسلوب المتبع فى إنشاء العمائر المملوكية بصفة عامة ، كذلك كان الاهتمام بحجر الزاوية CORNERSTONE فى ربط الواجهات المتعامدة ، وقد أثر إرتفاع المنشآت المملوكية على سمك هذه الحوائط وتبعا لذلك كان بناء هذه الحوائط عبارة عن وجهين وجه خارجي وآخر داخلى أملسين يستخدم فى بنائهما الاحجار المنحوتة المتساوية الأضلاع المتقاربة الأحجام ، ويحشى بين الوجهين BETWEEN IN بقطع الدقشوم. ويشير وضع الأحجار على مرقدها " وهو الوضع الموازى لاتجاه سير الطبقة المقطوع منها الحجر " إلى ما وصل إليه المعمار المملوكى من علم وتمرس فإن وضع الحجر بهذه الطريقة يساعد على عدم تآكله بسرعة.

وقد حاول المعمار المملوكى قدر الإمكان التخفيف من ثقل هذه الحوائط المرتفعة خاصة فى الواجهات ، مع العمل على زيادة متانة بنائها ، بما عمله من نوافذ غالبا ما تكون فى صفين[2] صف سفلى نوافذه كبيرة مستطيلة يعلوها عادة عقود مسطحة من صنجات معشقة ، تعلوها عقود عاتقة، ثم يرتفع البناء بضعة مداميك لنلحظ نوافذ الصف العلوى ، وهى عبارة عن فتحات أضيق نسبيا معقودة ، لها شبابيك من مواد خفيفة كالجص المعشق بالزجاج الملون ، ويلاحظ أن هذه النوافذ العلوية على المحاور الرأسية لنوافذ الصف السفلى (انظر شكل رقم ٦٢-٦٤) ثم يرتفع البناء فوقها عدة مداميك لنجد الشرافات التى تتوج المبنى ، كذلك ساعد عمل حنيات تضم هذه النوافذ بالواجهات على تخفيف ثقلها ، وهكذا أصبحت الواجهات رغم إرتفاعها وطولها خفيفة ، بما بها من فتحات تعلوها عقود توزع الثقل على الجانبين أى على الأكتاف الضخمة التى تفصل بين النوافذ ، وقد زاد من متانة الواجهات المرتفعة تقسيمها من الداخل إلى أكثر من طابق فى

[1] ابن تغرى بردى. النجوم ج٩ ص٢١٨

[2] تختلف واجهات جامع الظاهر بيبرس فى نظام نوافذه عن بقية العمائر المملوكية إذ يوجد بحوائطه الخارجية صف علوى فقط من النوافذ عبارة عن فتحات مستطيلة معقودة من أعلا بعقود مدببة ، وهذه النوافذ تخفف من ثقل هذه الواجهات ولكن المعمار عملا على زيادة متانة الواجهات حتى تتحمل رفض عقود البائكات الداخلية زودها بدعامات ساندة ولم تتكرر هذه الطريقة بعد ذلك.

الوحدات التي على جوانب الأواوين ، مما كان له أثر على زيادة متانة الأواوين المرتفعة وتماسكها.

ثم يلي ذلك عملية التغطية ، وهي تعتبر من العمليات العامة المرتبطة بتخطيط المنشأة ، حتى أنه يمكن القول بأن إختلاف طرز العمارة بصفة عامة راجع إلى إختلاف أساليب التغطية الناتج عن طريقة حل مشكلة التغطية – كما ذكرنا – بل إنه يمكن القول أن تاريخ العمارة يمكن إعادة كتابته من وجهة نظر الإنشاء وحل مشكلة التغطية.

وبالنسبة للعمارة المملوكية الدينية نجد أثر ذلك واضحا بل إن إختلاف التخطيطات بين تخطيط متقابل للأواوين ، وتخطيط أروقة تتكون من بلاطات بواسطة بائكات فوقها عقود تحمل السقف ، وتخطيط الأروقة المنفصلة كما فى خانقاة فرج بن برقوق راجع إلى إختلاف حل مشكلة السقف فى كل منها ، ففى المنشآت التى صغرت أواوينها أمكن تغطيتها بسقف خشبى مسطح أو مقبى بالحجر يرتكز على الجدران ، وفى المنشآت التى إتسعت أروقتها كان لابد من تغطيتها بأسقف تحملها بائكات عبارة عن صفوف من الأعمدة أو الدعامات فوقها سلسلة من العقود تزيد من الإرتفاع يرتكز فوقها السقف سواء كان خشبيا مسطحا أو مقبى بشتى أنواع الأقبية سواء الطولية المدببة ، أو المتقاطعة أو المروحية.

وهناك من الوحدات الملحقة بالمنشآت الدينية ما إتفق على ضرورة تغطيته بقبة مثل الضريح ، وقد إستغل هذا الأسلوب من التغطية أيضا فى تغطية بعض المنشآت الدينية التى لاتتسع بحورها كثيرا ويمكن تغطيتها بقبة توفيرا لأى مساحة قد يعمل بها أعمدة يرتكز عليها السقف ، مثل قبتى الأمير يشبك من مهدى الفيداوية بالعباسية ، وقبته بكوبرى القبة ، أو لأن هذه الساحة يحتاج مستعملوها أن تكون خالية من أى أعمدة أو دعامات لأنهم يتحركون فيها حركات قد تعوقهم هذه الأعمدة على الإتيان بها ، مثال ذلك القبة الرفاعية التى أنشأها برسباى بالصحراء للأحمدية الرفاعية الذين يذكرون الله فى حركات يتمايلون فيها ويدورون أثناء إقامة إحتفالاتهم كما أن ضيق البحور فى بعض المنشآت كان عاملا مساعدا على تغطيتها ، مثل الصحن المكشوف التى بدأ يغطى فى بعض المنشآت الدينية المملوكية بعدما صغرت مساحة المنشأة ، ولم يعد هناك حاجة للصحن المكشوف فى التهوية والإضاءة مثلما هو الحال فى المنشآت متسعة المساحة ، ورغبة فى إستخدام الصحن كمساحة من مساحات الصلاة فى المنشأة صغيرة المساحة. ساعد

على تغطيته بأسقف خشبية خفيفة عمل بوسطها ما يسمى بالشخشيخة التى تساعد على تزويد الصحن بالضوء وبالهواء إذا فتحت نوافذها.[١]

وقد إستغل المعمار المملوكى فى تغطية مبانيه عناصر إنشاء مكنته من إقامة هذه التخطيات المختلفة ومن هذه العناصر الأعمدة.

لم تكن الأعمدة عنصرا أساسيا فى العمائر الدينية المملوكية نظرا لعدم توافرها وقد قلل التخطيط المتقابل للأواوين من إستخدمها بنسبة كبيرة فى العمائر الدينية ، ولم يستخدم إلا فى المنشآت الدينية التى تتسع بحور أواوينها أو أروقتها ، وكان ذلك بصفة رئيسية فى المساجد الجامعة ذات الأروقة التى تتقسم إلى بلاطات تفصل بينها بائكات عبارة عن صفوف من هذه الأعمدة تحمل فوقها عقود يرتكز عليها السقف كعناصر حاملة وإستخدمت كذلك فى حالات بسيطة فى المنشآت الأخرى كان تحمل قبة ميضأة أو دكة مؤذنين أو أن تستخدم فى حالات زخرفية كأن تكون مدمجة فى أركان الدعامات ، أو تستخدم على جانبى حنية المحراب ، أو على جانبى فتحات المئذنة ، أو تحمل جوسقها.

وفى المنشآت التى إستخدمت فيها الأعمدة على نطاق واسع يكثر إحتمال جلبها من مبانى قديمة ، فقد كانت ندرة هذه الأعمدة وراء جلبها من هذه المبانى وإعادة إستخدمها ، بل إن ما يؤكد ندرة هذه الأعمدة فى العصر المملوكى ومحاولة الحصول عليها بشتى الطرق ما نراه فى جلبها من مبانى قائمة فى ذلك العصر لإستخدمها فى مبانى أخرى. فعند بناء جامع بيبرس يذكر المقريزى أنه " كتب بإحضار عمد الرخام من سائر البلاد وكتب بإحضار الجمال والجواميس والأبقار من سائر الولايات وكتب بإحضار الآلات من الحديد والاخشاب النقية برسم الأبواب والسقوف وغيرها.[٢] وكانت هذه العمد تخلع فى بعض الأحيان من الكنائس القديمة[٣] ، وقد وجدت بجامع برسباى بالخانكة أعمدة عليها صلبان مما يؤكد ذلك.ولم يكن جلب الأعمدة من الكنائس بسبب تعصب فقد جلبت بعض الأعمدة من مساجد إسلامية سابقة لإنشاء عمائر جديدة فيذكر المقريزى ان " طوغان الحسنى فى سنة ٨١٥ هـ أخذ ما كان بجامع الخندق من عمد الرخام وسقوفه لإستخدامها

---

[١] انظر شكل رقم ٦٦

[٢] المقريزى.خطط ج٢ ص٢٩٩

[٣] المقريزى. خطط ج٢ ص٣١٩

فى منشآت له[1] وقد أخذ قلاوون ما إحتاج إليه من العمد الصوان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع من قلعة الروضة لإستخدمها فى منشآته[2] كذلك أخذ فرج بن برقوق مـ كذن من أعمدة رخامية فى المدرسة الصلاحية البهائية سنة ٨١٢هـ لاستخدامها فى منشأته وكانت هذه الأعمدة يعاد إستخدامها فى العمائر المملوكية ، وكان على المعمار ان يوفق بين شتاتها ويطوعها للإنشاء فى منشأته ، ولذلك نجد أحيانا فى المنشأة الواحدة أعمدة مختلفة الطرز والأشكال والأحجام والمواد ، ولكن استخدامها يبين براعة المعمار المملوكى فى الإنشاء حيث وفق بين هذا الشتات وحافظ قدر الإمكان على تضييق هذا التنافر بين أشكالها وطرزها. فنجد ان المعمار مثلا فى جامع الماردانى إستخدم الأعمدة الصوانية الغليظة القوية التحمل فى عمل القبة التى تعلو المربع الذى يتقدم المحراب وإستخدم الأعمدة الاخرى فى حمل بقية البائكات ، وفى جامع الناصر محمد بالقلعة نجد ذلك أيضا ، بل إننا نلاحظ أن المعمار عند إعادة تجديد هذا الجامع حسب رغبة الناصر محمد أراد رفع سقفه عن المستوى القديم ، فزاد من إرتفاع البناء فوق العقود ، وحتى لا تشكل هذه الزيادة ثقلا كبيرا على الأعمدة جعل بها سلسلة من الفتحات المزدوجة ، فحقق بذلك ما أراد من إرتفاع السقف وفى نفس الوقت خفف الثقل قدر الإمكان عن الأعمدة. وقد وجد مثل ذلك الحل فى جامع برسباى بالخانكة الذى استخدمت فى إنشاء بائكاته أعمدة مختلفة الطرز القديمة ، أكملها المعمار بمجموعة من الأعمدة الإسلامية المثمنة ، ولما كانت الأعمدة القديمة ضعيفة لا تتحمل ثقل كبير، يلاحظ أن المعمار إستخدم النوع المنتفخ من العقود المدببة ، ولم يرتفع بالبناء الذى يعلوها اكثر من مدماك فوق اطار العقد ، بل إنه جعل فى كوشات العقود فتحات معقودة ، بغية التخفيف ، وكان من نتيجة ذلك أن جاء سقف هذا الجامع بالذات منخفضا إلى حد ما ، حتى أن ابن تغرى بردى- كما ذكرنا-نقد هذا الإنخفاض ، ولكن المعمار بذكائه حاول التمويه على هذا الإنخفاض من الخارج فجعل الشرافات التى تتوج الواجهات الخارجية ذات قاعدة مزدوجة حتى يزيد من إرتفاعها فلا يشعر الرائى من الخارج بإنخفاض هذه الواجهات. وهو تحايل طريف كان وراء ازدواج قاعدة الشرافات التى ظهرت أول مرة فى هذا الجامع ، وقد كان

---

[1] المقريزى. خطط ج٢ ص٢٢٤

[2] المقريزى. خطط ج٢ ص٤٠٦

لإستخدام الأعمدة القديمة فى هذا الجامع أثر فى استخدام الدعامات الأربع فى أركان الصحن الأربعة لتساعد مع الجوائط الخارجية فى تحمل رفص العقود فوق هذه الأعمدة مما يقلل نسبة تحمل الأعمدة لما يكون عليها من احمال.

وقد كان لإستخدام هذه الأعمدة تأثير فى تفضيل إستخدام الأسقف الخشبية المسطحة فى تغطية هذه المنشآت حتى لا تشكل ثقلا على الأعمدة والجدران ، عكس ما نراه مثلا فى خانقاة فرج بن برقوق التى اشتملت على أروقة يحمل سقفها بائكات عبارة عن دعامات مثمنة تحمل فوقها عقودا متعامدة مكونة مساحات مربعة او مستطيلة ، نظرا لمتانة هذه الدعامات[1] وقدرتها على تحمل أكبر أمكن تغطية المساحات الناتجة من تعامد العقود بقباب بيضاوية او ذات مسقط مستديرة حسب المساحة التى تعلوها بواسطة مثلثات كروية تنقل ثقل هذه القباب على الدعامات.

وكانت العقود بشتى أنواعها من أهم العناصر الإنشائية التى إستخدمها المعمار المملوكى ، ويقوم العقد أساسا على حركة الرفص الناتجة من الكتل المكونة للعقد ، التي تشبه حرف V وهذه الكتل تسمى إصطلاحا بالصنج وهى التى تكون خاصرة العقد ، وأدنى عدد من الصنجات يتطلبه بناء عقد وهو صنجتين توضع كل منهما فى وضع مائل تجاه الأخرى ، ويكون العقد بهذه الطريقة مثلثا ، وما من وسيلة أخرى إلى ذلك ما دامت الصنجتان متشابهتان ونقطة إلتقاؤهما واحدة ، ويحتاج العقد عند بنائه إلى " صلبية " أو " فورمة " حتى يتم وضع أو بناء مفتاح العقد وتكون عادة من الخشب[2].

ولاشك أن العقود أكثر طواعية من الأعتاب المستقيمة من ناحية قابليتها لتغيير إرتفاعاتها واتساع فتحاتها ، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية التى تشترك فيها مع العتب وهى حمل الثقل الذى يعلوها ، بل إن كفاءتها فى ذلك تفوق العتب حيث أنها تنقل الثقل إلى الأكتاف الجانبية فيمكن لها أن تتحمل ثقلا أكبر من الثقل الذى يتحمله العتب والحقيقة أن هذا الثقل إما أن يكون على قمة العقد فيكون الثقل على الصنج فيضغطها جميعا ولا تصبح منفصلة ، وإما أن يكون الثقل على قمة العقد أقل منه على خاصرتيه وتكون فى هذه الحالة قمة العقد من أضعف الأجزاء ، وهذا يتوقف على زاوية مفتاح العقد وعمق سطح الصنجات الحاملة.

---

(1) انظر شكل رقم ٥٦.

(2) Incyclopedia Bretanica P 285

ولمميزات العقود واستخدماتها تبناها المسلمون فى عمارتهم وأبدعوا منها أشكالا مختلفة[١] وقد إتخذت العقود أشكالا متنوعة ومختلفة حسب طريقة إنشائها فمنها النصف مستدير ، والعقد المدبب الذى شاع إستخدامه بأشكال متنوعة فى العمارة الدينية المملوكية ، وذلك لأنه أكثر قابلية للتغير، كما أن إرتفاعه ليس محدودا باتساعه ، كذلك إستخدمت العقود التى تشبه حدوة الفرس من النوع المدبب بصفة خاصة ، ومن المعروف أن التقوس فى هذا العقد إلى الداخل عن خط المركز يضعف مقاومة العقد ، ولكن المعمار المملوكى فطن إلى ذلك فنجد فى عقود الأواوين المطلة على الصحن فى كثير من المنشآت الدينية مثل مدرسة القاضى عبد الباسط ومدرسة برسباى بالأشرفية ، وقراقجا الحسنى وغيرها تقوس إلى الداخل حتى يمكن أن تقول أن هذه العقود من النوع الذى يشبه حدوة الفرس ، ولكن الحقيقة أن هذا التقوس عبارة عن بروز زخرفى إذ أن المداميك فى هذا التقوس " الصنجات " ممتدة مع الكتفين الجانبين فبدت كما لوكانت المداميك من صنجات العقد وهى ليست منه ، فلا يضيف لهذا التقوس الظاهرى ، ويؤكد وصف الوثائق المملوكى ما نذهب إليه حيث أنه يصف هذا التقوس كجزء منفصل عن العقد ويسميه " ركبة " يرتكز عليها العقد وربما كان لهذه " الركبة " أو التقوس الظاهرى دافعة لمحاولة المعمار المملوكى التوفيق بين إتساع فتحة كل من الإيوانين الشرقى والغربى اللذين يستخدم فيهما العقد بهذا التقوس ، وبين ضيق فتحة الإيوانين الشمالى والجنوبى فجعل المعمار هذا التقوس ، وجعل برجلى العقدين الأخرين حطات من المقرنصات توحى بالأتساع لتراجعها عن بروز رجل العقد فظهر التقارب المظهرى بين فتحات الأواوين الاربعة بالمنشأة بهذا الأسلوب الإنشائى الجميل.

وقد استغل المعمار المملوكى مميزات العقود المدببة الواسعة ، ومن نتائج هذه الإمكانيات مثلا ان كانت ظهور العقود فى مبانيه على خط مستقيم واحد[٢] عكس ما نراه فى العمارة الرومانية التى نجد فيها ان مراكزها فقط على خط مستقيم واحد ، ولكن ظهورها تختلف حسب اتساع فتحة العقد وتحكمها فى ارتفاعه فهى عقود نصف دائرية، وقد ظهر هذا الإستخدام فى

---

(١) Incyclopedia Bretanica P 285

(٢) هذا فى حالة وجود سلسلة متصلة كما فى عقود البوائك فى العمارة الاسلامية وعقود أقواس النصر الرومانية.

العقود التى تختلف فى إتساعها ويراد أن يكون بارتفاع واحد ولعل ما وجد فى الواجهات الأربع المطلة على صحن جامع برسباى بخانقاة سرياقوس مثل جيد على ذلك ، إذ نجد أنه رغم اتساع العقد الأوسط فى كل واجهة بنسبة كبيرة من العقدين الجانبين فإن ظهور هذه العقود على خط مستقيم واحد ، ولما كان العقد الأوسط أكثر اتساعا فقد راعى المعمار ذلك مع نسبة إرتفاعه، ووافق العقود الجانبية مع ذلك رغم ضيق إتساع فتحاتها النسبى ، فغير من مستوى مآخذ العقود ، وبمعنى أصح لم يجعل المراكز على خط مستقيم واحد، بل إرتفع بخط مركزى العقدين الجانبين عن خط مركز العقد الأوسط وقلل من حدة هذا الإرتفاع بأن جعل تقوس بسيط فى أرجل كل من العقدين الجانبين فأصبحا يشبهان حدوة الفرس ، وبدت العقود بهذا الحل كما لو كانت على خط مستقيم واحد . وهو حل إنشائى حافظ فيه المعمار على جمال النسب ، وجمال الشكل العام وإنسجام العقود الثلاثة فأصبحت متقاربة رغم إختلاف إتساع فتحاتها . وهو الحل نفسه الذى استخدم فى العقود الجانبية لواجهات الأواوين المطلة على الصحن فى المنشآت ذات التخطيط المتعامد . والتى يختلف اتساعها من إيوان إلى آخر ونلاحظ أن ظهور العقود فى الواجهات الأربع فى مستوى واحد.

كذلك تظهر براعة إستخدام المعمار المملوكى للعقود المدببة فى فتحات النوافذ العلوية المعقودة بعقود مدببة فى كافة العمائر الدينية ، فالعقد المدبب أكثر تحملا وقوة من العقد النصف مستدير التى يطلق عليه المصطلح الفرنسى ARC-BRICE أو العقد المكسور ، فهذه العقود المدببة التى تعلو النوافذ أكثر تحملا لذلك البناء الذى يعلوها ويتكون من مداميك عديدة ، كما أنها تكون أكثر طواعية فى جعل ظهور عقود النوافذ فى خط مستقيم واحد حتى لو اختلف فتحات النوافذ لضرورة ما. ومن مبدأ المتانة إستخدم المعمار المملوكى فكرة العقد المدبب فى بناء الأقبية الطولية المدببة التى تعتبر من أقوى وسائل التغطية واستخدامها فى تغطية الدهاليز والحجرات بالطوابق السفلية فى المنشأت الدينية المملوكية بصفة عامة.

ولم يقتصر إستخدام المعمار المملوكى على العقد المدبب . بل إستخدم من العقود أشكالا أخرى تلائم ظروف الإنشاء فى كل منشأة ، فاستخدم العقد المثلث البسيط الذى يتكون من صنجتين فقط كما فى منشأت برسباى فى الصحراء ، كذلك إستخدم أنواعا أخرى عل أكثرها شيوعا هو العقد المسطح والعقد العاتق اللذان يستخدمان غالبا بأعلى فتحات النوافذ والأبواب وكان

تشييدها عادة من صنجات معشقة أمكن بها عمل هذه العقود فأمكن الاستغناء عن استخدام الأعتاب المسطحة المكونة من كتلة واحدة تتعرض للكسر فهي تفيد في بناء هذه العقود المسطحة التي تقوم بوظيفة العتب ودون الحاجة إلى إستخدام عقود مقوسة ،[1] واستخدمت كذلك في بناء شتى أنواع العقود الأخرى لأنها بها تكون أمتن. وكانت العقود المسطحة والعقود العاتقة المكونة من هذه الصنج تفيد في الإستغناء عن العتب كما ذكرنا ، ولا تخلف مساحات مفتوحة إذ أن ما بين العقد العاتق والعقد المسطح أسفله " نفيس " كان يسد بالرخام ، فيكون الحائط مسدودا ومتينا ولهذه الفوائد شاع استخدامها في العصر المملوكي بواسطة المعمار الذى ادرك مميزاتها المعمارية وأحسنا ستغلالها فجاءت مبانيه متينة الإنشاء.

والخلاصة أن الأعمدة والعقود بالإضافة إلى الحوائط كانت لتحمل أسقف المنشآت الدينية المملوكية التي تنوعت ما بين أسقف خشبية مسطحة أو أقبية حجرية أو مبنية بالآجر ، أو قباب حجرية أو مبنية بالآجر أو الخشب بالإضافة إلى استخدامه الجمالونات في بعض الوحدات خاصة المطابخ.

وقد كانت المقرنصات[2] من عناصر الإنشاء الهامة التي استخدمت في الانشاء في العمائر المملوكية . والمقرنصات تستعمل كعنصر إنشائي وزخرفي أيضا في بعض الأحيان ولكنها بدأت ذات هدف إنشائي " معماري " وقد كان إستعمالها الأول والمهم لتغطية مناطق الانتقال من المربع إلى القبة،[3] ويرجع كثيرا أن يكون الأصل في المقرنص هو الطاقة المفردة التي

---

[1] د. أحمد فكري. مساجد القاهرة ج١ ص٥٠-٥١

[2] المقرنصات عبارة عن حليات معمارية تشبه خلايا النحل ويتركب مجموع المقرنص من صفوف أفقية من الطبقات موضوع بعضها فوق بعض ، وأبسط نظام لها أن يكون المحور الرأسي لأى طاقة منصفا للبعدين المحوريين الرأسين للطاقتين المجاورتين لها من الصف الكائن أسفلها ، وأن تكون جموع الطاقات متساوية الاتساع ، ويكون الجزء المحصور بين حافتي طابقتين متجاورتين نوعا من " دلاية " أو " رجل " للطاقة التي تعلوها وإذا تركت هذه الرجل معلقة في الفضاء ببروزها من أسفل فإنها تتخذ شكلا مقرنصا يدل على إسم هذا النوع من العمل ،.وفي جميع الحالات والأشكال التي تتخذها المقرنصات يبرز كل صف ما تحته فيتكون من ذلك خوصة بارزة من أسفلها سلسلة مستويات رأسية مسقطها الأفقي على هيئة خط متعرج (راجع د. كمال الدين سامح العمارة الاسلامية في مصر ص١٧٦ ، دوللي الفريد جوزيف المميزات البنائية للعمارة المملوكية في القرنين ١٤/١٥ م محمود أحمد ص١٩.

[3] Lane pool . Art of the saracens P 100

تساعد على تحويل حجرة مربعة إلى عنق قبة ثمانى الأضلاع ، ثم تحسن مقرنص القبة بمضاعفة عدد طبقاته طبيعيا ، كما كان استعماله فى أجزاء أخرى من المنشآت كمتكأة حقيقة أو ظاهرية لجسم بارزه كما هو أسفل أعتاب بعض فتحات الأبواب ، وفى شرفات المآذن.

وقد شاع استخدام المقرنصات فى حطات متعدد فى إنشاء القباب بالمنشآت المملوكية ، وقد بدأت هذه الحطات بسيطة العدد فقد بلغت أربعة فى قبة بيبرس الجاشنكير ، وخمسة فى قبة صرغتمش ثم كثرت حطاتها حتى وصلت إلى أكثر من ثلاث عشرة حطة ، ولعل قبة جامع المؤيد شيخ خير دليل على ذلك.

كذلك استخدمت المقرنصات فى العمائر الدينية المملوكية فى أغراض زخرفية أخرى بجانب الأغراض الإنشائية ونلاحظ ذلك بصفة خاصة بأعلى الحنايا التى توجد عادة بواجهات هذه العمائر ، وفى أرجل بعض عقود واجهات الأواوين فى بعض المنشات وغيرها.

واستخدمت للغرضين معا فى كثير من الكوابيل الحجرية كوسيلة لحمل الشرفات ، وفى الحرمدانات التى تحمل الأعتاب والسقوف الخشبية كذلك إستخدمت فى طواقى المداخل الرئيسية للمنشأت الدينية المملوكية ، أو ما قد يعلو بعضها من معابر مقرنصة كما فى جامع برسباى بالخانكة.

وهذه الأشكال والإستخدامات المختلفة للمقرنصات تبين موهبة المعمار المملوكى فى حل المشاكل الهندسية المعمارية الدقيقة فى تغيير مساقط السطوح ، ونفذها على كافة المواد المختلفة سواء الحجر أو الطوب أو الجص أو الخشب وغيرها حسب مادة البناء وظروف إستخدامها.

وكان إستخدام الأقبية في تغطية الأواوين بصفة خاصة يحتاج إلى جهد كبير وتكاليف ضخمة ، فيقول المقريزى : إن مقبل الشامى أخبره أنه " سمع السلطان حسنا يقول إنصرف على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان الكبير (بمدرسته) مائة الف درهم نقرة ، وهذا القالب مما رمى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور[1] وهذا النص يشير إلى الطريقة التى أنشئت بها هذه الأقبية والتى كانت تتم بعمل قوالب أو " فورمة " للقبو يستند عليها البناء حتى يتم ، وقد كان لاستخدام الأقبية فى تغطية الأواوين اثره على إرتفاعها ، خاصة إذا اتسعت هذه الأواوين كما نلاحظ ذلك فى مدرسة السلطان حسن،

[1] المقريزى.خططج٢ص٣١٥

وكذلك إستخدم المعمار الأقبية في تغطية الحجرات الجانبية وخاصة في الطوابق السفلية التي تتحمل ثقل أكبر كما نلاحظ ذلك في جميع الطوابق الأرضية بالمنشآت التي توجد بها مثل هذه الطوابق ، وفي الحجرات التي على جانبي الأواوين في الطابق الرئيسي مثل ما وجد في مدرسة الأشرف برسباي بشارع المعز لدين الله ، وكذلك فضل إستخدامه في الميضآت أسفل المراحيض كما في ميضأة جامع برسباي بالخانكة ، وهذا لا يبطل إستخدامه في تغطية بعض حجرات الطوابق العليا ، فقد وجدت الأقبية مستخدمة في تغطية خلاوي المتصوفة والطلبة بخانقاة برقوق ولكنها بنيت بمواد خفيفة من " الطوب والطين " ، ولعل أروع الأمثلة على إدراك المعمار المملوكي لمتانة هذه الأقبية في التغطية ولحمل أثقال كبيرة ما نراه في منشأة سلاروسنجر الجاولي ، خاصة في تغطية الحجرات التي تعلو المدخل والتي تعلوها المئذنة.

كذلك شاع إستخدام القباب في تغطية الأضرحة بصفة خاصة وإستخدمت القبة كذلك في تغطية المربع الذي يتقدم المحراب في بعض المنشآت مثل جامع المارداني والناصر محمد بالقلعة ن كما أنها استخدمت في تغطية بعض المنشآت التي استخدمت كمساجد أو استراحات مثل قبتي الأمير يشبك من مهدي : الفيداوية بالعباسية والثانية بكوبري القبة وفي بعض الزوايا التي إتخذت تخطيط القاب مثل قبة الرفاعية التي أنشأها برسباي بالصحراء، وإتخذت هذه القباب أحجاما وأشكالا مختلفة وكانت في الغالب كروية الشكل ذات قطاع مدبب ، ولكن تميز منها شكل يشبه القباب السمرقندية وجد في قباب صرغتمش وقبة خوند سمرا بصحراء السيوطي وقبة يونس الدوادار بالحطابة ، وتتميز هذه القباب برقبتها الطويلة التي يقل قطرها عن قطر بدن القبة نفسه.

وكانت القباب تبنى غالبا من الحجر ، وكان لذلك أثره في شكل أساساتها التي عملت بطريقة تتحمل ثقل القبة بالإضافة إلى إرتفاعاتها غالبا عن مستوى سطح المنشأة ، ونظرة إلى مسقط مدرسة برسباي نلاحظ أن المعمار شكل هذا الأساس متينا بمقارنة سمك الطرف الشمالي لجدار إيوان القبلة بسمك جدار الضريح الذي هو الامتداد الطبيعي لهذا الجدار.

كذلك كان لإستخدام الحجر في بناء القباب أثره في التفنن في زخرفة سطوح القباب الخارجية لإمكانيات مادة الحجر التي تتيح دق أنواع الزخارف المختلفة عليه، وقد بدأت زخرفة هذه السطوح بالضلوع الطولية ، ثم الطولية المتموجة ثم الزجزاجات ثم تطورت بعد ذلك إلى تشكيل زخارف هندسية

نجمية فى قباب برسباى بالصحراء لأول مرة ، ثم إحتوت هذه الزخارف النجمية على زخارف نباتية وصلت إلى درجة نضجها فى قبة قايتباى بالصحراء بعد محاولات سابقة عديدة[1] وكان عمل هذه الزخارف وتنحت قبل البناء ، مما يدل على مستوى المعمار المملوكى فى الهندسة الوصفية ، حيث أن عمل مثل هذه القباب لم يكن إلا بتخيل شكلها ، وتحديد قطع الأحجار واحجامها وأبعادها ومواضعها ثم نقش الزخارف عليها تبعا لهذا التكوين حتى تأتى الزخرفة مجمعة بالصورة المطلوبة وبالتصميم الموضوع.

ولم يقتصر المعمار المملوكى على إستخدام الحجر فى تشييد القباب ولكن إستغل مميزات الأجر كمادة بنائية أخف من الحجر فى بناء بعض القباب وخاصة القباب التى لم يكن لها أساسات متينة بسبب ظروف إنشائها، والتى لا تتحمل اساساتها بناء قباب من الحجر ، أو تلك التى تغطى مساحة واسعة ، وأمثلة القباب التى بنيت بالآجر ما وجد فى القبة الرفاعية بالصحراء، وقبة جامع ابو العلا وقجماس الاسحاقى وقبة يشبك بالفيداوية. كذلك إستخدم الخشب فى إنشاء بعض القباب[2] لغرض التخفيف والضخامة فقد كانت القبة التى تتقدم محراب جامع الظاهر بيبرس من الخشب ، كذلك قبة الناصر محمد بالنحاسين ، وجامع القاضى يحيى ببولاق ، وهذا التنويع فى إستخدام مواد مختلفة فى إنشاء القباب يكشف عن ادراك المعمار لطبيعة المواد وحسن إستخدامه لها بما يتفق واساليب الإنشاء الصحيحة.

أما الأسقف الخشبية المسطحة ، فكانت هى النوع الغالب من اساليب التغطية ، وكان لطبيعة المناخ فى مصر وجفافه عامة أثره فى شيوع استخدامها ، وكانت هذه الأسقف مجالا لإظهار براعة المعمار المملوكى سواء فى طريقة إنشائها وزخرفتها ، فقد كانت هذه الأسقف عبارة عن عروق خشبية تغلف بالألواح حتى يصبح السقف مستوى السطح من الداخل والخارج وكانت تدهن ثم تنقش عليها الزخارف الجميلة فى تصميمات زخرفية بديعة ، ولعل أروع أمثلة هذه الأسقف ما وجد فى خانقاة برقوق ، وجامع المؤيد شيخ ومدرسة السلطان برسباى ، وكانت بعض الأسقف يغلف العروق وما بينها بالألواح بحيث تبقى العروق بارزة عن المسافات التى بينها ، وتدهن وتنقش وأفضل النماذج الباقية من ذلك ما نراه فى سقف دهليز مدرسة جوهر اللالا

---

[1] كسلر . فى مقال عن زخرفة القباب مجلة فكر وفن ص٢٦ –٣٢
[2] إستخدم لأول مرة فى القباب فى مصر فى قبة الإمام الشافعى.

بالمصنع عند القلعة ، وكان كل سقف يعمل ليتلاءم ونوعية الزخارف التى تنقش عليه ، فإذا كان التصميم كبيرا عبارة عن بخارية فى الوسط وأربعة أرباعها فى الأركان لزم ان يكون السقف بمستوى واحد ، أما الزخارف الأخرى ذات الوحدات الصغيرة فتتلائم مع النوع الثانى ذو العروق البارزة، وكانت هذه الأسقف تغطى من أعلى بطبقة من القش والحصير القديم يعلوه طبقة من الردم ، ثم تغطئ بطبقة من المونة بطريقة " البريقة " حتى يكون السطح الخارجى قويا على تحمل الأمطار والشمس ، ويسهل تنظيفه وكنسه ، كما كان متبعا فى العصر المملوكى – كما ذكرنا – وكانت هذه الأسقف تختلف فى نوعياتها حسب المكان المستخدمة فى تغطيته، فمنها ما كان ينشأ بمواد جيدة ، وبطريقة حسنة وتطلق عليه الوثائق " سقف نقى " وكان يستخدم عادة فى المواضع التى يستخدمها الإنسان ، ومنها ما أنشئ بمواد رديئة بسيطة ، وبطريقة تتلاءم وهذه المواد وهو ما أطلق عليه المصطلح الوثائقى " سقف غشيم " ، وكان يستخدم خاصة فى الإسطبلات وملحقاتها ، والمخازن وما شابهها.

وبعد الإنتهاء من عمليات الإنشاء الأساسية كانت تركب النوافذ والأبواب التى يقوم بعملها النجارون والصناع ، ويتولى المرخمون والحجارون فرش الأرضيات بالرخام أو الحجارة كذلك فإن الحوائط كان بعضها يكسى بالرخام ، وغالبا ما كانت تطلى بطبقة من الملاط ، وتسمى الوثائق الحوائط المكسوة بالملاط " مسبلة الجدر بالبياض " ، والبياض من مواد البناء ، ويصنع من حرق الدمك وهو نوع ردئ من الرخام قوى جدا يقاوم عوامل الطبيعة ، بتفتيت هذا الرخام إلى أحجار صغيرة وسحقه بواسطة الدنك[1] وهى آلة للطحن تشبه " الرحا " المستعملة فى ريفنا المصرى. كذلك كان يستخدم الجص فى تكسية الجدران وعمل مهاد لنقش زخارف محفورة جميلة تزين الجدران ، كما هو الحال فى زاوية زين الدين يوسف ، وتتار الحجازية والماردانى وقايتباى بالروضة وغيرها ، وكانت الجباسات المصدر الرئيسى للحصول على هذه المواد ، ومن طريف ما يذكر أن بعض الوثائق حددت موقع الجباسات السلطانية فى عهد قلاوون بأنها كانت مجاورة

---

[1] الدنك عبارة عن اسطوانة من الرخام سمكها حوالى ٦٠ سم وقطرها حوالى ١,٥ متر . أما أرضية الدنك فهى على شكل دكة اسطوانية سمكها ٧٠ سم وقطرها ١ متر (مجلة التراث الشعبى – العدد ٨ لسنة ٩ ١٩٧٨وزارة الاعلام العراقية ص١٠٤).

لمجموعته بالنحاسين ،[1] وكان يجرى حرق الحجر الجيرى للحصول على الجير اللازم لعمليات الإنشاء فى موقع البناء، فعند بناء مدرسة برسباى - بشارع المعز لدين الله - يذكر الصيرفى أن الأحجار نقلت ، وكس يتم حرق بعضها للحصول على الجير بالموقع نفسه[2]

وقد كانت تستخدم أنواع خاصة من المون لتكسية الفساقى والصهاريج اسفل الأسبلة وغيرها وقد أطلقت الوثائق عليها " الغافق " وذكرت بعض الوثائق الأخرى ما يشير إلى أن هذه المونة كانت تمتاز بانها أدق وأكثر أحكاما ، فعند وصف صهريج فرج بن برقوق ضمن وحدات مسجده بتحت الربع ذكر أنه "مكسى بمونة محكمة " وكان إستخدام هذه النوعية من المونة فى طلاء هذه المواضع حتى لا تسمح بتسرب الماء فتؤثر على الجدارن ، وزيادة على ذلك غلفت جدران هذه الوحدات المبنية بالحجر الجيرى مادة البناء الرئيسية بالآجر حتى تتماسك جيدا مع هذه المونة المحكمة فتحقق الهدف المطلوب.

كانت هذه هى عناصر الإنشاء وأساليبه المتبعة فى العصر المملوكى - بايجازشديد - تكشف عن براعة المعمار فى اختيار أنسب الأساليب والعناصر التى تتلائم وما أتيح له من مواد وإمكانيات ، فأنشأعمائر أدهشت من رآها من الرحالة والزائرين وبقيت خالدة تدل على مقدرته فى ذلك.

---

(1) وثيقة قلاوون ٦٠٧ ج

(2) الصيرفى . نزهة النفوس والأبدان ج٣ ص٢٧

الخـــاتمة

إتضح من خلال هذه الدارسة أن المبانى الدينية المملوكية أنشئت أصلا لغرض عملى تخدمه ، وفائدة إنتفاعية تؤخذ منها ، وأن الفائدة العملية "الوظيفية " موجودة ، وهى ليست موجودة فحسب بل هى تتواجد قبل المبنى نفسه ، وكانت السبب الأصلى فى وجوده ، وتبرير وجوده ، والغرض الغالب عليه والمصدر الرئيسى فى التأثير على التصميم وإتخاذ المبنى الشكل الذى هو عليه.

كما أن هذه الدارسة كشفت عن العلاقة الوثيقة بين الحياة السياسية للدولة الإسلامية بصفة عامة ، وأثرها على نشأة نوعيات مختلفة من المنشآت الدينية وإنتشارها كمنشآت التدريس والتصوف قبل العصر المملوكي. وفى العصر المملوكى إتضحت هذه العلاقة بصورة تعكس أحوال الدولة السياسية والإقتصادية والدينية والإجتماعية على المنشآت الدينية المملوكية ووظائفها وقد كثرت هذه المنشآت وتعددت نوعياتها ووظائفها بما يكشف عن ذلك ويؤكده.

كما أن هذه الدارسة أوضحت العلاقة الوثيقة بين الدراسات الفقهية وتاريخها وبين نشأة وتطور هذه المنشآت وإنتشارها فى العالم الإسلامى بصفة عامة ومصر بصفة خاصة ، فبينما إستمرت المذاهب السنية قائمة فى الشرق الاسلامى ، كبتت هذه المذاهب فى مصر طوال العصر الفاطمى ، وبعد القضاء على الدولة الفاطمية الشيعية حدث الإندفاع السنى من الشرق نحو مصر التى كانت مهيأة لإستقبال هذه التيارات السنية والتى كان من وسائل نشرها مدارس الفقه ومنشآت التصوف من خنقاوات وربط وزوايا. ما كان له أثر فى إتخاذها تيارا قويا ساعد على قوته نشأة الدولة المملوكية وإستمرار القاهرة عاصمة لها ، وما صاحب قيام الدولة وسلاطينها من عوامل ساعدت على ذلك.

وكذلك أوضحت هذه الدارسة أثر علاقة الفقهاء بالمتصوفة إختلافا ثم توافقا على وظيفة منشآت التدريس والتصوف ومشتملاتها ، وإنفصال كل منهما عن الآخر فى بداية الأمر بسبب الخلاف الشديد بين الفقهاء والمتصوفة، الذى أخذ يتضاءل أمام دعوة بعض الفقهاء والمتصوفة إلى الاتفاق " لأن الطريقة هى الشريعة والشريعة هى الطريقة والغاية واحدة " ، وساعد على هذا التقارب الخطر الشيعى الذى وصل فى القرن الخامس هجريا

مداه عندما وصل إلى بغداد قاعده الدولة السنية على يد البساسيرى ، فاتفق أصحاب المذهب السنى من الفقهاء والمتصوفة على ضرورة رد هذا المد الشيعى. ثم أخذ هذا التقارب إيقاع سريع فى العصر المملوكى فى مراحل إنعكس وقعها فى المنشآت الدينية المملوكية ، فمثلا ظهرت الخنقاوات الخاصة بالمتصوفة ، ثم كانت الإزدواجية بين الخنقاوات والجوامع ، ثم أصبحت الخانقاة تؤدى وظيفة المدرسة والجامع مع تحديد أماكن مختصة بكل من المتصوفة والطلبة والمصلين ، ثم زاد التقارب وأصبحت الأماكن مباحة للجميع مع وضع جدول زمنى يحدد مواعيد كل وظيفة حتى لا تتعارض الوظائف وتؤدى المنشأة وظائفها على خير وجه، وحدث نفس الشئ بالنسبة للمدرسة والجامع.

كذلك أوضحت هذه الدارسة العلاقة القوية بين نظام الوقف فى العصر المملوكى والمنشآت الدينية المملوكية. فقد كان إنشاء هذه المنشأت ووقفها ووقف الأوقاف عليها سبيلا سعى من خلاله المماليك لتأمين مستقبلهم، خاصة وان نظام الإقطاع لم يكفل لهم هذا الأمان فى عصر سادته الفتن والقلاقل وكان البقاء فيه للأقوى. فكان لذلك أثره على كثرة المنشآت الدينية وتعددت وظائفها كثرة تفوق الغرض الوظيفى لهذه المنشآت ، خاصة وأن نسبة هذه المنشآت كانت لتفوق حاجة أى كثافة سكانية لمدينة القاهرة فى ذلك العصر.

وقد إتضح أن الواقف كان المتحكم الأول فى الوظائف التى تقوم بها المنشأة خاصة وأن المنشأة الدينية كانت لتقوم بوظائف الصلاة والتدريس والتصوف، فهو الذى يقرر الوظائف بمنشأته ويحدد أعداد ونوعية القائمين بها ، وما يقومون به من أعمال داخل المنشأة الدينية ، فكان الأمر أولا وقبل كل شئ مرهون برغبة الواقف فى ذلك ،وإمكانياته أيضا. وهو أمر يكشف عن التأثير الخطير للوقف فى وظائف المنشأة الدينية المملوكية.

وقد كانت وثائق وقف هذه المنشآت لتؤكد الرغبة فى أن تستمر المنشآت الدينية فى أداء وظائفها سواء بما كان يقرر بها من موظفين ، أو العمل على ترميم ما يتهدم منها، ولاشك أن تسجيل هذه المنشآت بالوصف الوثائقى المفصل ، وتحديد الوظائف التى تقرر بها ومرتبات الموظفين بها ، وتحديد الأوقاف التى يصرف من ريعها عليهم ، ثم شرط الواقف التى تحدث على إجراء العمارة والإصلاح قبل أى شئ ، يؤكد أثر الواقف على ذلك والرغبة فى إستمرارية " الوظيفية " فى المنشآت الدينية المملوكية.

وكان لكثرة هذه المنشآت الدينية وتعدد وظائفها ، أثرها الواضح في تكثير منشآت الصلاة بصفة عامة ، فقد كانت جل هذه المنشآت تؤدى وظيفة المسجد الجامع والمسجد على أقل تقدير .

كذلك كان للظروف السياسية في العصر المملوكي والتي تتعلق بهجمات التتار الآتية من الشرق وسقوط الأندلس سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢ م في الغرب ، مع إزدهار الحياة العلمية والتصوف في العصر المملوكي ، بفضل رعاية المماليك الذين أكثروا من إنشاء المنشآت الدينية للدارسين والمتصوفة وحسن رعايتهم ، أثره على توافد الدارسين والمتصوفة إلى القاهرة وتنشيط تيار الدراسات الفقهية واللغوية والعلمية وغيرها بالإضافة إلى إزدياد تيار التصوف.

وقد كشفت الدراسة عن أسلوب الحياة في المدارس والخنقاوات ، وأن هذه المنشآت كانت لتقوم بدور هام في رعاية الطلبة والمتصوفة الذين تسابقوا للإستفادة بما يقدم من مظاهر هذه الرعاية في هذه المنشآت ، أكثر من تسابقهم للعلم أو الرغبة في التصوف. وهو أمر يكشف عن أن المماليك هدفوا أيضا من إنشاء هذه المنشآت إلى كسب ولاء هذه الفئة الواعية من فئات الشعب كأسلوب سياسي يساعدهم في الإستمرار بالظهور بمظهر حماة الإسلام ، وبمنع ما قد يحدثه هؤلاء من قلاقل ، بالإضافة إلى الإستفادة بهم كعلماء وإداريين في الدولة.

كذلك يعكس تعدد الوظائف للمنشأة الدينية وخاصة الخانقاة وتسابق المتصوفة على الإستفادة بما يقرر لهم بهذه المنشآت من سكنى ومرتبات وخبز ، وحرصهم على ذلك أكثر من أى شئ آخر ، المستوى الذى كان عليه التصوف في ذلك العصر ، وكيف ان الأغراض المادية غلبت على الأغراض الروحية بصفة عامة.

وقد كشفت دراسة النظام الذى كانت تسير عليه هذه المنشآت في أداء وظائفها سواء عقد الدروس أو حضور التصوف وتعيين الشيوخ والطلبة المتصوفة ، وتحديد مواعيد الدارسة والمناهج ، وتنوع واختلاف المدارس بعضها عن البعض الآخر ، وتحديد الوظائف وشروطها بدقة ، بالإضافة إلى ضبط مصارف هذه المنشآت والعمل على عدم إختلال ذلك يكشف عن تلك الإدارة الجيدة التي مكنت المنشآت الدينية من تأدية وظائفها فكانت المنشأة تؤدى وظائفها في توافق وإنسجام تام.

وقد انعكست هذه الظروف المختلفة على تخطيطات المنشآت الدينية بما تتضمنه من وحدات مختلفة تخدم هذه الوظائف وتخصص لها ، حتى

تؤدى المنشأة وظائفها على خير وجه وقد أكدت وثائق الوقف المملوكية ذلك بما يؤكد دور الوقف فى وظائف المنشات الدينية المملوكية.

وبالنسبة لتخطيطات العمارة الدينية فقد حكمها فى المقدم الأول ، أحكام الشريعة الإسلامية واتضح التأثير الكبير بين هذه الأحكام وبين اتخاذ المنشآت الدينية ووحداتها تخطيطا معينا يحكمه إطار من أحكام الشريعة وآراء الفقهاء إلى حد بعيد ، ويعتبر هذا الإطار من الأسس الهامة لنظرية الوظيفية فى العمارة الدينية المملوكية. فقد أثرت أحكام الفقهاء على اختيار مواقع هذه المنشآت وصحة البناء عليها من عدمه ، فكان لتحريم الفقهاء البناء على الأرض الموقوفة للدفن مثلا ، أثره فى عدم انتشار المنشآت الدينية المملوكية التى تضم أضرحة فى القرافة لأن عمر بن الخطاب (ﷺ)وقفها على البناء وانتشرت هذه المنشآت فى داخل المدينة أو فى الصحراء فى منطقة جديدة خصصوها لهذا الغرض. كذلك كان لهذه الأحكام أثرها فى توزيع الوحدات المختلفة توزيعا معينا يجنب مواضع الصلاة بها كل مكروه ، فكان لذلك أثره فى موضع الكتاب والضريح والمساكن التى قد تلحق بالمنشأة الدينية. كذلك امتد اثر هذه الأحكام إلى إختيار مواد معينة للبناء حسب الموضع الذى تبنى به ، وقد انعكس ذلك خاصة فى بناء فساقى الأضرحة بالحجر الجيرى وعدم استخدام ما حرق فى بنائها على سبيل المثال. كذلك حددت هذه الأحكام الشروط التى يجب توافرها فى موظفى المنشآت الدينية خاصة القائمين على إقامة الشعائر بها.

كذلك كان لنظام الحسبة أثره الكبير فى إتقان التنفيذ والإخراج إلى حد بعيد ، وفق أحكام الشريعة ، وهو أمر اتضح تأثيره فى روعة التنفيذ والإخراج فى الفنون الاسلامية بصفة عامة ومن بينها العمارة ، وإتقان الشئ المصنوع يساعد على أداء وظيفته بصورة سليمة ومن هنا جاء ارتباط الحسبة "بالوظيفة " كمفهوم عام.

وأوضحت هذه الدارسة تبلور وظائف المنشآت الدينية فى العصر المملوكى ، وهو الأمر الذى أدى إلى إنشاء المجموعات المعمارية الضخمة التى تضم العديد من الوحدات فى تناسق وتكامل يعكس ذلك.

ومن نتائج الدارسة فى الباب الثالث اتضحت جذور نظرية " الوظيفية" فى الفكر الإسلامى ، ومناقشة ودارسة النظريات المتعلقة بالعمارة والعمران حسب المنهج الإسلامى الذى تعرض لها من مستويات مختلفة باختلاف المسئوليات سواء كانت سياسة عامة يلتزم بها الحكام ، أو جزئيات فرعية يقوم بها العامة من الناس ، وتنوعت المصادر التى تتضمن ما يشير إلى ذلك،

وفى الفصل الثانى من هذا الباب اتضحت صورة المعمار الاسلامى ومنهجه الذى يعمل من خلاله فى إنشاء منشآت تحقق اساسا " الوظيفية " كنظرية رئيسية وفق الامكانات المتاحة وحسب ظروف العصر. فقد كان يقوم بتخطيطها والإشراف على تنفيذها كمهندس معمارى ARCHITECT وليس مجرد بناء MASTER BUILDER يعمل حسبما اتفق. كما يدعى البعض – ، ثم كانت الإشارة إلى القائمين على أعمال التشييد من بناء ونحات مرخم ونجار وأن هؤلاء جميعا كانوا يعملون فى إطار واحد لإخراج هذه المنشآت بالصورة التى هى عليها ، وأن الغرض الوظيفى كان هدفا يعمل لتحقيقه هؤلاء جميعا.

أما الدراسة التحليلية فى الباب الرابع فكشفت عن تفهم المعمار المملوكى للنظرية الوظيفية وتحقيقها بصورة سليمة حسب الإمكانيات المتاحة وظروف العصر.

ففى الفصل الاول الذى يتعرض لدراسة عناصر الانتفاع فى المنشآت الدينية المملوكية اتضح أن المعمار ضمن منشأته هذه العناصر تؤدى الوظائف المختلفة للمنشآت الدينية وربط بينها جميعا ربطا سليما تتأكد به وحدة المبنى وأنه كل متسق.

وكانت دراسة تخطيطات هذه المبانى لتكشف عن الأساس الأول الذى يجب أن تدرس من خلاله هذه التخطيطات هو " الوظيفية " و " الإنشاء " فقد كانت الوظيفة والإنشاء العامل الأساسى وراء تواجد هذه التخطيطات ، وبهذا يتضح أن محاولة تأصيل هذه التخطيطات بغض النظر عن الوظيفة والإنشاء محاولة خاطئة وقد اتضح ذلك من دراسة التخطيط المتعامد للأواوين أحد التخطيطات التى كثرت النظريات لتأصيله وسقطت جميعا لأنها لا تقوم على الأساس الصحيح وهو الوظيفة والإنشاء.

كذلك كان لظروف الموقع والمساحة وإمكانيات المنشئ أثرها فى اتخاذ التخطيطات أشكالا معينة ، وقد أثرت هذه التخطيطات بالتالى على أسلوب الإنشاء ، ولذلك ننبه بأن عمليات الترميم لبعض الآثار التى تقوم على أساس اتخاذ نموذج معاصر للمبنى المرمم كأساس للترميم اذا لم توجد فكرة عن الشكل الأصلى الذى كان عليه الأثر ، دون وضع اعتبار لهذه العوامل أمر يجانبه الصواب ، ولذلك نوصى بوضع هذه الإعتبارات عند ترميم الأثر.

وإتضح من هذه الدارسة لعناصر الإنتفاع خاصة الأواوين ، أن هذه الأواوين كانت أماكن عقد الدروس والتصوف بالإضافة إلى الصلاة ، وان ما

يقال غير ذلك خاطئ ، وقد أكد هذه الحقيقة ما ورد فى وثائق الوقف ، وما أثبتته الدراسة التحليلية للأواوين كعناصر أنتفاع.

كذلك إتضح من هذه الدارسة أن كل وحدة من وحدات المنشأة الدينية كانت لأداء وظيفة محددة ، وأن إشتمال المنشأة الدينية على هذه الوحدات وإختلاف أشكالها كان انعاكسا لتطور وظائف هذه المنشآت وما تؤديه من خدمات وما يتعلق بظروف الإنشاء وإمكانيات المنشئ ، ويعتبر الكشف عن وحدات المنشأة الدينية وتحديد وظائفها بدقة فى هذا البحث من أهم نتائج هذا البحث ، فهو يفيد فى التعرف على أشكال وحدود ما تهدم من منشآت وتصور شكلها الأصلى ، بالإضافة إلى أنه يفسر وظيفة كل وحدة ، وبهذا رجع للصدى فتنطق الآثار بما كانت تؤديه من وظائف ، ثم إن معرفة هذه الوحدات معرفة جيدة يجنب ما قد تتعرض له مثل هذه الوحدات من إزالة أو تدمير على إعتبار أنها مضافة للمبنى فى عصور لاحقة لعدم التعرف على وظيفتها ، فقد حدث مثل ذلك عند إزالة بعض دكك المؤذنين بالإيوان الغربى لبعض المنشآت لعدم التعرف على وظيفتها الأصلية. وبذلك نتجنب فقد أجزاء من المنشآت الدينية تكشف عن وظائفها من خلال هذه الأمور يتضح أن "الوظيفية" هى الأساس الأول الذى يجب أن تدرس خلاله الآثار دراسة صحيحة.

وكان إلحاق بعض الوحدات بالمنشأة كالسبيل والضريح وضرورة تواجدها بمواقع معينة بالمنشأة، أثرها على اتخاذ المنشأة تخطيطا معينا ، وشيوع التخطيط المتعامد فيها بصفة خاصة. ولكن وجود تخطيطات أخرى كتخطيط الأروقة المتصلة والمنفصلة والقباب ، والمساجد الصغيرة التى اتخذت تخطيطات مختلفة تلائم أسلوب الإنشاء والمساحة والوظيفة وإمكانيات المنشئ ورغبته دليل على عدم جمود المعمار المملوكى عند تخطيط بعينه.

كذلك أوضحت دراسة تخطيطات هذه المنشآت ووحداتها المختلفة وتوزيع هذه الوحدات توزيعا مدروسا ، أن المعمار سعى إلى تأكيد مبدأ الوحدة والتكامل والتوافق بين هذه الوحدات المختلفة بحيث ينتج فى النهاية مبنى متكامل يؤدى وظائف بصورة سليمة.

وأوضحت الدارسة التحليلية للمساكن بالمنشآت الدينية المملوكية عن عدم وجود علاقة بين ما يقرر بالمنشأة من طلبة أو متصوفة أو مدرسين ، وبين ما تشتمل عليه من مساكن ، كذلك أوضحت هذه الدارسة مراعاة المعمار المملوكى لاختلاف نوعيات هؤلاء وظروفهم الإجتماعية ، وانعكس ذلك فيما خصص من مواضع لهذه المساكن وعناصر الإتصال والحركة

والوقاية والخدمة بها ، وفي تخطيطها الذى اختلف بين قاعات كبيرة وخلاوى أو غرف للأفراد ، كذلك راعى المعمار محاولة الربط بين سكن الموظف ومقر عمله بالمنشأة مثل خازن المكتبة ، ومؤدب الأيتام ، وسواق الساقية وهكذا.

وكان لتعدد الوظائف التى تقوم بها المنشأة الدينية المملوكية أثره على تخطيطها وما تشتمل عليه من وحدات لخدمة القائمين على إقامة شعائر الصلاة ، والتدريس والتصوف بها ، فاشتملت المنشأة على المئذنة والمنبر ودكة المؤذنين وفى بعض الأحيان على مساكن للمؤذنين والرؤساء وغرفة للدعاء ، بالإضافة إلى مساكن الطلبة أو خلاوى المتصوفة ، والمكتبة التى تزود من بالمنشأت بالمؤلفات ، وقد إتضح من توزيع هذه الوحدات المختلفة على مخطط المنشأة السعى وراء أن تحقق هذه الوحدات وظيفتها على خير وجه ، فقد كان التوزيع مدروسا بصورة سليمة تكشف عن ذلك.

وقد كانت براعة المعمار المملوكى فى توزيع هذه الوحدات واضحة خاصة فيما إفترض وقوعه مطلا على الشارع الذى تطل عليه المنشأة من جهة ، وبين توفير نوع من التكامل فى عناصر هذه الوحدات ، وإرتباط بعضها بالبعض الآخر مثل السبيل والمزملة وما بينهما من علاقة التجاور الذى تحكم فيها وجود الصهريج أسفل كل منهما ليزودهما بالماء ، وكذلك السبيل والكتاب واستغلال الإمتداد الرأسى للسبيل فى إنشاء الكتاب الذى أصبح بهذا الموضع شبه مستقل عن مواضع الصلاة بالمنشأة فحقق رغبة الفقهاء فى عدم تطرق الصبية إلى داخل المنشأة والاقتراب من مواضع الصلاة فيها لكراهية ذلك.

ومما يشير إلى سعى المعمار المملوكى لتحقيق " الوظيفية " فى منشأته على خير وجه تضمينه هذه المنشآت عناصر للخدمة مثل غرف البوابين والفراشين والسواق ، بالإضافة إلى غرف الخدام والإسطبلات التى وجدت ببعض المنشآت الدينية لتضمينها سكنا خاصا ، وغيرها من المخازن والحواصل التى استغل المعمار فى إنشائها ما قد يتوفر فى هذه المنشآت من مساحات نتيجة محاولته الموافقة بين اتجاه القبلة واتجاه الشارع الذى تطل عليه المنشأة ، وخلق مساحة منتظمة الشكل للمنشأة من الداخل ، أو نتيجة محاولته الإرتفاع عن مستوى الشارع كذلك ، فى بناء طابق أرضى يستغل فى عمل مثل هذه العناصر ، وكان المعمار موفقا فى توزيع هذه العناصر وربطها بالمنشأة ربطا سليما يكشف عن سعيه وراء تحقيق وظيفية هذه العناصر التى تخدم وظيفة المنشأة ككل.

وقد ربط المعمار بين المنشأة وخارجها وبين الوحدات المختلفة التى تشملها بعناصر الإتصال والحركة التى تتيح سهولة الإتصال بأى جزء من أجزاء المنشأة وتتيح الإتصال بين المنشأة وخارجها دون إعاقة للطريق . وفقا لأحكام الفقهاء التى تشير إلى حق الطريق ، وقد إتضح من دراسة هذه العناصر إستغلال بعضها كعناصر تهوية وإضاءة مثل الصحن ، والأفنية داخل القاعات ، بالإضافة إلى الأبواب والنوافذ فى توافق يحقق وظائفها ، كذلك ظهرت النزعة الإقتصادية لدى المعمار المملوكى الذى استغل بعض هذه العناصر بشكل معين وفى وضع معين ليحقق أكبر فائدة بأقل تكاليف، مثال ذلك السلم المشترك الذى يؤدى إلى أكثر من وحدة ، أو السلم ذو الجانبين الذى يضاعف قدرة التوصل بالإضافة إلى استغلاله فى عمل حانوت أسفله ، كذلك فسرت دراسة هذه العناصر علاقة التجاور والارتباط بين بعض الوحدات أو وجود عناصر فى مواضع معينة بذاتها مثل " دكة المؤذنين ".

واتضح من دراسة عناصر التهوية والإضاءة ، رغبة المعمار فى تهوية وإضاءة منشأته بالصورة المطلوبة والمريحة معتمدا على الضوء الطبيعى ، وكان التوفيق بين موقع المنشأة وبين تهوية وحداتها وإضاءتها ليكشف عن رغبته فى تحقيق هذه الوحدات لوظائفها فى براعة واقتدار.

كذلك كان حرص المعمار المملوكى على توفير الوقاية لمن بداخل المنشأة سواء من العوامل الجوية أو من الناس أو الأخطار العامة ، وقد حقق ذلك من خلال توزيعه وحدات منشآته فى التخطيط العام لها توزيعا صحيحا بالإضافة إلى إتباع أساليب الإنشاء الصالحة التى تساعد على متانة المبنى وفى ذلك تحقيق لغرض الوقاية ، فتستطيع كل الفئات المختلفة داخل المنشأة تأدية وظائفها دون تعرض للخطر.

وقد أوضحت دراسة عناصر الإنشاء أنه كانت لمواد البناء المستخدمة فى إنشاء المنشآت الدينية المملوكية ، بالإضافة إلى أساليب الإنشاء المستخدمة فى ذلك العصر ومحاولة حل مشكلة التغطية أثره على تخطيطات هذه المنشآت من جهة وعلى متانتها ومقاومتها للزمن من جهة أخرى ، بالإضافة إلى الشعور بالراحة والجمال استخدام أساليب إنشائية تساعد المبنى على تحقيق وظائفه واستمراره فيها بل وفى اتخاذه شكلا جميلا.

وقد كانت هذه الدارسة التحليلية لعناصر المبنى التى قسمناها إلى هذه العناصر للدارسة فقط تشكل جميعا المبنى كوحدة واحدة متكاملة منسجمة لتحقيق وظائفها ، أمر يكشف كذلك عن الجمال الوظيفى الذى نحس به عند إدراك براعة المعمار المملوكى فى تحقيق " وظيفية " مبانيه بهذه الصورة

وبالإمكانيات المتاحة له ، وفق حاجات مجتمعة وظروفه ، وإن هذه المنشآت إتخذت هذه الأشكال التى هى عليها لتؤدى وظيفتها التى أنشئت من أجلها ء وبهذا تكون النظرية الوظيفية للعمارة الدينية المملوكية قد اتخذت مضمونها وفحواها التى حاولنا إبرازها من خلال هذه الدارسة للمنشآت الدينية المملوكية وان النظرية الوظيفية بصفة عامة ما هى إلا تفسير تاريخى ينبثق من الحقيقة " الوظيفية " فهى ليست نهائية فى مجموعها ولا فى فحواها ، ولكنها تعكس التطور والتغير الذى يطرأ على المجتمع من عصر إلى أخر.

وبعد هذه الدارسة أرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وقفت فى الكشف عن جوانب النظرية الوظيفية فى العمائر الدينية المملوكية بمدينة القاهرة.

الملاحق

ملحق رقم ١

ملحق رقم ٢

ملحق رقم ٣

ملحق رقم ٤

ملحق رقم ٥

ملحق رقم ٦

ملحق رقم ٧

ملحق رقم ٨

" ملحق رقم " (١)

" جامع سودون من زاده "

ورد بالوثيقة رقم ٥٨/١٠ محكمة (حاليا بدار الوثائق القومية بالقلعة) الخاصة بسودون من زاده والمؤرخة سنة ٨٠٤ هـ وصفا لجامعة الذى أزيل بمعرفة إدارة التنظيم بالقاهرة ورغم أن هذا الجامع من الآثار الدارسة إلا أن وصفه بالوثيقة يعطي فكرة عن التكامل المعماري الذى سعى إليه المعمار المملوكى ، ويبين وظيفة الجامع فى العصر المملوكى ويعطى صورة لأحد المساجد الجامعة من التخطيط ذو الأروقة المتصلة ونصه "فمن ذلك جميع المكان المستجد الإنشاء المعروف بإنشاء الواقف المذكور وعمارته وذلك بظاهر القاهرة المحروسة خارج بابى زويلة بخط سويقة العزى شارع على الطريق العظمى على يمنة السالك من قلعة الجبل المحروس وسويقة العزى إلى جهة بابى زويلة وغير ذلك من الطرق والأماكن وعلى يسرة السالك من بابى زويلة وجامع الماردينى طالبا سويقة العزى وقلعة الجبل المحروس وغير ذلك من الطرق والأماكن يشتمل المكان المذكور على خمسة أبواب أحدها وهو الكبير بشارع فى الحد البحرى بواجهته المبنية بالحجر الفص النحيت وهو مربع مبنى بالحجر الفص النحيت الملون بصدر رخام أبيض وأسود وعلوه مقرنص به شباك نحاس يغلق عليه زوجا باب مصفح بالنحاس ضرب الخيط بجانبيه مسطبتان يمنه ويسره يدخل /منه إلى مكان كبير هيئة جامع بصدره محراب يشتمل على ست رواقات ثلاث منها قبلية والثلاث رواقات الباقية /أحدها بحرى والثانى شرقى والثالث غربى محمولة على عمد صوان عدتها ثمانية عشر عمودا علوها عقود وقناطر مبنية بالحجر/الفص النحيت بالطوب الأجر والجبس فاما الرواق القبلي الذى بصدره المحراب فإنه به ثلاثة أبواب / يغلق كل منها زوجا باب أحدها وهو الذى على يمنة المصلى بالمحراب يدخل منه إلى قاعة الخطابة تشتمل على إيوان ودور قاعة مسقف نقيا مدهون بمنافع ومرافق وحقوق ويدهليز هذه القاعة سلم يصعد منه إلى مسترحة بمرافق وحقوق /يتوصل منه إلى الطريق المسلوك وهو أحد الأبواب الخمسة المشار إليها اعلاه والباب الثانى الذى بالرواق القبلى على يسرة المصلى /يدخل منه إلى حاصل يرسم مصالح المكان المذكور مسقف نقيا بمرافق وحقوق وفيه سلم يتوصل منه إلى علو ذلك وبالحاصل المذكور

باب / يتوصل منه إلى زقاق بحارة السودان وهو أحد الأبواب الخمسة المشار إليها أعلاه والباب الثالث الذى بالرواق القبلى/مربع يدخل منه إلى سلم معقود بالبلاط الكدان يصعد منه إلى مسترقة بمرافق وحقوق ثم يتوصل من بقية السلم المذكور للأسطحة /العالية على ذلك وأما الرواق الذى فى الحد الشرقى فأنه بـه بابا يتوصل منه إلى سطح الجامع المذكور وإلى الميدنة المبنية على/بعض الجدار البحرى على يمنة الداخل من باب الجامع المذكور المبنية بالحجر الفص النحيت وإلى الطبقة المعدة لإقامة المؤذنين والرؤساء/ بها المطلة على صحن الجامع المذكور مبنى واجهتها بالحجر الفص النحيت الملون وبها ثلاثة أعمدة رخام لطيفة وأما الرواق البحرى /فإنه يشتمل على ثلاثة مراتب بكل مرتبة منها شباك نحاس مطل على الطريق السالك يغلق كل من الشبابيك المذكورة /زوجا باب مصفح بالنحاس وبه باب على يسرة الداخل إلى هذا المكان يدخل منه إلى قبة معقودة بالحجر الفص النحيت بصدرها/ محراب بها فسقيتان مبنيتان فى تخوم الأرض معدتان لدفن الأموات وبها شباك مطل على الطريق وبهذه القبة/ثلاث قمريات ويقابل باب هذه القبة شباك مطل على الطريق فى الجدار الغربى وأما الرواق الغربى فإنه يتوصل /إليه من الباب فى الحد الغربى وهو أحد الأبواب الخمسة المشار إليها أعلاه وهو الباب الثانى وصفته أنه مبنى بالحجر/الفص النحيت يعلوه صدر مقرنص بالنحاس المعمول ضرب خيط وهو يتوسط الرواق الغربى وبهذا الرواق/ ثلاث شبابيك نحاس مطلات على الطريق يغلق لكل منها زوجا باب تشبه الأبواب المذكورة يعلو الشبابيك كلها والأبواب /التى بهذا الجامع قمريات وفيما بين هذه الأروقة صحن الجامع المذكور وهو مرخم بالرخام الملون وبه فسقية كبرى مثمنة نوفره بها ستة عشر/ مفروكة يخرج منها الماء لاستعمال المتوضئين وغيرهم وبجانب الفسقية المذكورة بير ماء معين ومحراب هذا الجامع وحائطه القبلى مرخم/ بالرخام الملون وبقية أرضه مفروشة بالبلاط الكدان والباب الثالث مربع يغلق عليه زوجا باب يدخل منه إلى سلم يصعد/ منه إلى رواق بواجهتين بحرية وغربية أمامه دورقاعة مسقف نقيا مدهون يحوى منافع ومرافق وحقوق ولهذا الرواق/ رؤوس طاقات مطلات على الطريق من الجهتين المذكورتين والباب الرابع مربع يغلق عليه زوجا باب يتوصل منه إلى قاعة الخطابة وهو المشار إليه أعلاه/ والباب الخامس مربع يغلق عليه زوجا باب يدخل منه إلى الحاصل الذى بجانب المحراب المذكور ويتوصل إليه من زقاق حارة/ السودان وهو المشار إليه اعلاه ويحيط بذلك

ويحصره ويشتمل عليه وعلى سائر حقوقه كلها حدود أربعة الحد القبلى ينتهى بعض إلى حوانيت يعلوها مسجد معلق وطبقة منه حقوقه يعرف.... وإلى مكان يعرف بانشاء المقر الواقف المشار إليه وعمارته إلى الزقاق المتوصل منه لحارة السودان وفيه الباب الخامس المشار إليه أعلاه والحد/البحرى ينتهى إلى الطريق المسلوك منها إلى سويقة العزى وجامع الماردينى وغير ذلك وفيه الباب الكبير الأول المشار إليه أعلاه وشبابيك ومنافع ومرافق وحقوق ذلك وبعض إلى الطريق المتوصل منها إلى سويقة المشيب وفيه روشن وطاقات من حقوق الرواق المذكور والحد/ الشرقى ينتهى إلى مكان يعرف بالجناب العزى أزدمر الدوادار الركنى بيبرس ويصفه إلى مكان أخر مجاور لذلك يعرف بغ..../ والحد الذى ينتهى إلى الطريق المتوصل منها إلى سويقة المشيب وغير ذلك من الطرق والأماكن وفيه بهذ الجامع الغربى/ المشار إليه أعلاه وباب الرواق وباب قاعة الخطابة المشار إليها أعلاه وفيه روش وطاقات من حقوق الرواق المشار إليه يحده / وحقوقه وما يعرف به وينسبه إليه ومن ذلك جميع المقابل لهذا الجامع قباله بابه الغربى..../ المعروف بانشاء هذا الواقف المذكور تقبل الله منه وعمارته تفصل بينهما الطريق المسلوك يشتمل على خمسة أبواب مبنى الواجهة بالحجر الفص النحيت والباب الأول منها مقنطر يدخل فيه إلى مكان يشتمل على بير ماء معين مركب على فوهتها ساقية مكملة العدة والآلة ومدار ومرافق / وحقوق والباب الثانى مقنطر يدخل منه إلى إسطبل برسم عوامل الساقية المذكورة به ومتبن ومرافق وحقوق وبه باب صغير/ يتوصل منه إلى بير الساقية المذكورة والباب الثالث مقنطر أيضا يدخل منه إلى ميضأة برسم الجامع المذكور بوسطها فسقية مربعة / يتوصل إليها الماء من البير المذكور وبهذه الميضأة عشر بيوت / أحدها مستحم والبقية مراحيض والباب مربع يدخل/ منه إلى سلم معقود بالبلاط يصعد منه إلى مكتب السبيل وهو يشتمل على واجهتين شرقية وبحرية فيما بينهما عمود رخام لكل من / الواجهتين ورابزى خشب مسقف نقيا مدهون مذهب ورفرف كذلك ثم يصعد من بقية السلم المذكور إلى مصنع يجتمع فيه الماء من الساقية / ويتصرف منه إلى مرافق الجامع والميضأة وحوض السبيل الآتى ذكره فيه ثم يصعد من بقية السلم المذكور إلى ثلاثة أروقة أحدها/ علو مكتب السبيل وحوض السبيل الذى يذكر فيه بواجهتين وطاقات على الطريق بمرافق وحقوق والرواقان الباقيان متجاوران/ علو الساقية والاسطبل المذكورين يشتمل كل منهما على منافع

ومرافق وحقوق والباب الخامس مقنطر يدخل منه إلى حاصل /وهو أسفل المصنع المذكور ويجاور هذا الباب حانوت برسم تسبيل الماء العذب به يشتمل على واجهتين بحرية وشرقية سفل مكتب السبيل المذكور فيما بين/ الواجهتين عمودين رخام بكل من الواجهتين المذكورتين شباك حديد كبير وهو مرخم القايم والنايم بالرخام الملون مسقف نقيا مدهون ملون/ويجاور هذا الحانوت حوض معد لسقى الدواب بزلاقة مسقف نقى مذهب ويحيط بهذا المكان حدود أربعة الحد القبلى/ ينتهى إلى مكان هناك يجرى فى وقف الحرمين الشريفين والحد البحرى ينتهى إلى الطريق المسلوك وفيه إحدى واجهتى السبيل والمكتب والرواق/ ومطل طاقاته وروشن من حقوقه وحوض السبيل وزلاقته والحد الشرقى ينتهى إلى الطريق الفاصلة بين ذلك وبين الجامع المذكور/ وفيه الأبواب الخمسة وإحدى واجهتى السبيل والمكتب وعلوهما روشن وطاقات من حقوق ذلك والحد الغربى ينتهى إلى المكان/الجارى فى وقف الحرمين الشريفين المشار إليه أعلاه وإلى مكان يعرف بالخادم درهم الخياط من الحلقة المنصورة وإلى مكان يعرف بوقف السيدة /بستان الناصرية بحد ذلك وحقوقه وحدوده وما يعرف به وينسب إليه".

ثم يتعرض الموثق لوقف وحدات الجامع المختلفة وتحديد وظيفة كل منها تحديدا دقيقا بما نصه :"الآتى ذكرها وتعيينها فيه مفصلا إن شاء الله تعالى فأما المكان المستجد الإنشاء الذى بصدره المحراب /ذو الرواقات الستة المشار إليه بأعاليه فأن الواقف المذكور وقف ذلك مسجدا جامعا لله تعالى وبيتا من بيوته تقام فيه الصلوات /ويعتكف فيه على الطاعات ويجتمع فيه للاشغال والاشتغال بالعلم الشريف والأذكار وتلاوة كتاب الله تعالى آناء الليل/وأطراف النهار وأذن للمسلمين كافة فى الدخول إليه والصلاة فيه وخلا بينهم وبينه فدخلوه وصلوا فيه وأما /القبة التى بها الفسقيتان المعدتان لدفن الأموات فأنه وقفها لتلاوة كتاب الله العزيز ورصد الفسقيتين لدفن من يرى الناظر دفن بهما من ذرية الواقف ونسله وعقبة وغيرهم على ما يراه ويؤدى إليه إجتهاده ، وأما القاعة المعروفة بقاعة الخطابة فوقفها لينتفع بها الخطيب المرتب بهذا المكان على العادة فى ذلك وأما الرواق ذو الوجهين/الذى من حقوق هذا الجامع فإن الواقف أرصده لسكنى من يرى الناظر إسكانه به من مدرس أو امام أو غيرهما من أرباب /الوظايف وأما بقية مرافق هذا الجامع وخزاينه وحواصله فارصد ذلك لينتفع به فى مصالح المكان وأرباب وظايفه/على العادة فى ذلك واما المئذنة فإن الواقف المذكور وقفها على أن

يعلن فيها بالأذان الشرعى فى أوقات الصلوات والتسبيح /والأذكار فى الأسحار وغيرها على العادة فى ذلك وأما الطبقة التى علو سطح هذا الجامع فإن الواقف أرصدها لينتفع بها الرؤساء /والمؤذنون المرتبون بهذا الجامع على العادة فى ذلك وأما حانوت السبيل ذو الوجهين فأرصده الواقف المذكور لتسبيل /الماء العذب الذى يحمل إليه على من يرد عليه من الناس كافة أجمعين على العادة فى ذلك وأما مكتب السبيل الذى هو علو /الحوض وحانوت السبيل فإن الواقف المذكور أرصده لإستقرار الأيتام ومؤدبهم وعريفهم به لتعليم القرآن العظيم أسوة أمثاله من مكاتب/المسلمين على العادة فى ذلك وأما الميضاة والساقية والبير والمصنع والأسطبل المتجاورة المشار إليها بأعلاه فإنه وقفها لينتفع /بها فى نقل الماء من البير بالساقية المذكورة إلى المصنع ثم منه إلى حوض السبيل ومرافق الجامع وفسقيته وإلى بيوت من الميضأة وفسقيتها على العادة فى /ذلك وينتفع بالأسطبل فى إستقرار عوامل الساقية به وينتفع بالميضأة وفسقيتها وبيوتها من يرد إليها من الناس كافة فى وضوءهم /وإغتسالهم وازالة ضروراتهم على العادة فى ذلك وأما الرواقات الثلاثة التى هى علو المكان الثانى المشار إليها بأعلاه وبقية/الموقوف الموصوف المحدود أعلاه فإن الناظر على هذا الوقف والمتولى عليه يضم، ريع ذلك إلى ريع الجهات التى كان الواقف المذكور /وقفها قبل تاريخه".

ملحـــق رقم ٢

يعتبر ما جاء بوثيقة وقف مدرسة أيتمش البجاسـي رقم١١٤٣ مكرر أوقاف من نصوص تتعلق بوقف المدرسة ومواعيدها نموذجا جيدا يبين أن لكل منشأة ظروفها التى أثرت على تخطيطها فهذه المدرسة تتكون من إيـوان واحد يجاور ضريح المنشئ ورغم ذلك قرر الواقـف فيها عدة دروس وأدت وظيفتها على خير وجـه ، حسـب شرط الواقـف مما ينفـى فكـرة الربط بين التخطيط المتعامد ذو الأربعة أواوين والمذاهب الأربعة ، ويبين التغلـب علـى مشكلة المكـان ، بالإضافة إلى ظـاهرة تعدد الوظـائف فـى المنشـآت الدينيـة المملوكية بما نصه :" فأما المدرسة المذكورة أولا فى هذا الكتاب فإنـه وقـف الإيوان القبلى الذى /يصدره المحراب مسجداً لله تعالى وبيتـا مـن بيوتـه تقام فيه الصلوات ويعتكف فيه على العبادات /ويتلى فيه كتاب الله العظيم وحديث نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم ويشتغل فيه بالعلم/الشريف وإفادته وإستفادته ودراسته وجعل التطرق إليـه مـن البـاب الكبير المقدم ذكره /فـى الواجهـة المذكورة ودور القاعة وأما الخزانة التى بها الرفـوف بـالإيوان المذكـور /فإنـه وقفها لحفظ ما لعله يكون بهذه المدرسة مـن ربعات شـريفات وختـم كريمـات وكتب تفسير وحديث /وفقه وغير ذلك من الكتب على جارى العـادة فـى مثل ذلك وأما الطباق الثلاث /المذكورات المتوصل إليها من الإيوان المذكور فإنـه وقفها لسكنى مـن يعينـه النـاظر مـن المشـايخ /والطلبـة فأربـاب الوظـائف بالمدرسة المذكـورة وأمـا المئذنـة فإنـه وقفهـا ليعلـن عليهـا/بـالأذان للصلوات الخمس والأذكار في أوقات الأسحار على جارى العـادة فـى مثـل ذلـك وأمـا القبة /التى يتوصل إليها من دور القاعة المذكورة فإنـه جعـل الفسقية التـى بهـا مرصدة لدفنه ودفـن أولاده وأولاد أولاده وذريتـه ومـن يختـار دفنـه فيـه مـن الأموات وأما الشباكان اللذان بها فإنه جعلهما ليجلس فيهما ويتلى فيهما القرآن العظيم في أوقات الصلوات وغير ذلك/وينتفع بهما الانتفاع بمثلهما بمثـل ذلـك على الوجه الشرعى وأما دور القاعة المقـدم ذكرهـا والفسـقية التـى بهـا فإنهـا تكون وقفا على جميع المسلمين المترددين والواردين لهذه المدرسة والمقيميـن بها /ينتفعون بذلك انتفاع مثلهم بمثل ذلك علـى العادة فى ذلـك وأمـا الخزانـة التى بدور القاعة المذكورة /فيه فإنها تكـون وقفـاً لحفظ مـا لعلـه يكـون بهـذه المدرسة من آلات وبغـال وغير ذلك علـى مـا يـراه النـاظر /وأمـا الحـاصل

المجاور للسلم المذكور فإنه وقفه لحفظ ما لعله يكون لهذه المدرسة من الآلات والبسط /وغير ذلك وأما المرحاض المذكور فإنه سبله لجميع المسلمين والواردين لهذه المدرسة والقاطنين بها/وأما باب السر المذكور فإنه وقف ليتطرق منه إلى المدرسة المذكورة وإلى الطبقتين المجاورتين له الآتي ذكرهما فيه ، وأما الطبقتين المذكورتان فيه المتوصل إليهما من السلم المذكور فإنهما مرصدتان لسكن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ العالم الكامل الفاضل /شمس الدين صدر المدرسين مفيد الطالبين أبي عبد الله محمد الأقصرائي الحنفي عاد الله تعالى من بركاته/وأجاب صالح دعواته ينتفع بالسكن في هذا مادام مدرسا بالمدرسة المذكورة ثم من بعده لمن يكون/مدرسا عوضا عنه مدرسا بعد مدرس على العادة في مثل ذلك ، وأما المكان المعروف /بالسبيل فإنه وقفه ليسبل الماء على الناس أجمعين ولإستقرار ما لعله يكون به من آلات الاستقاء من أزيار /وكيزان وأباريق وغير ذلك على العادة في مثل ذلك.

ثم في موضع آخر من الوثيقة يتحدث عما قرره الواقف من وظائف بمدرسته بما نصه "ورتب/الناظر في هذا الوقف المذكور بالمدرسة التي أنشاها بالقاهرة المحروسة المشار إليها أعلاه..../مدرسين من أهل الخير عارفين بالعلوم الشرعية ومقدماتها /عالمين بالعلوم العربية ومشكلاتها متكلمين بلسان العربي والعجمي والتركي فان لم يكونوا متكلمين باللسان/العربي والعجمي والتركي فباللسان العربي وأحد اللسانين المذكورين.... فيه /ورتب معهما معيدين وأربعة عشر من الطلبة المذكورين فيه بالإيوان الذي بالمدرسة المذكورة فيه الذي صيره /مسجدا في الأيام التي جرت العادة بالإشتغال بالدروس فيها فيما بين طلوع الشمس وللزوال /مقدار ما بين الظهر والعصر من كل زمان خلا أيام الجمعة والإثنين والثلاثاء كل جمعة /والأيام التي جرت العادة ببطالة الدروس فيها على أن يستفتح المدرس والمعيد والطلبة /المذكورين فيه بقراءة سورة البقرة وتبارك الذي بيده الملك ثم يقرأ أحدهم ما تيسر له قراءته من /كتاب الله العظيم رافعا صوته ويدعو عقيب القراءة لمولانا السلطان الملك الظاهر[1] خلد الله ملكه وأدام دولته وللواقف المشار إليه فيه ولجميع المسلمين ثم/يقرأ عليه بعد ذلك من تأهل للقراءة ما يختار من وفقه مدرسة وأصول ومن العلوم الشرعية والأحاديث

---

[1] المقصود به الملك الظاهر برقوق.

النبوية وغير ذلك على جارى العادة فى مثل ذلك/ويحل له الشيخ ما يظهر له من كشف غامض وحل مشكل ويبحث من تأهل /للبحث على العادة فى مثل ذلك ويسلك المدرس معهم فى ذلك مسلك الإفادة والتعليم/على العادة وعلى المعيد أن يجلس بعد فراغ الدرس أو قبله ويقرأ عليه ما يختار القراءة /من الطلبة المذكورين ما أحب قراءته ويبين المعيد المذكور له ما أشكل /عليه من شرح فيمده بمواد علومه الذى وصلت إليه، والمدرس الثانى يجلس /وهو ومعيد واحد وأربعة عشر من الطلبة المذكورين بالإيوان المذكور فيه من بعد أذان الظهر إلى وقت العصر ويفعل المدرس والمعيد والطلبة كما شرط فى الدرس /الأول ورتب الناظر رجلا من أهل الخير نقيبا بالدرسين المذكورين فيه على أن يتولى ضبط/الغيبة وتفريق الربعة بعد صلاة العصر عند حضور الشيخين والطلبة والمعيدين وظيفة التصوف بالمدرسة المذكورة على الجارى العادة فى مثل ذلك ويصرف له فى كل شهر ما مبلغه ثلثون درهما ويقرر الناظر رجلا حسن الصوت حافظا لكتاب الله تعالى ومديح نبيه /صلى الله عليه وسلم على أن يحضر كل يوم بعد صلاة العصر وظيفة التصوف مع الشيخ/أو الطلبة المذكورين ويفعل ما يذكر فيه ويصرف له فى كل شهر ثلاثون درهما /وشرط مولانا الواقف المذكور وقاه الله كل محذور أن يجتمع المعيدان والمدرسان /والطلبة المذكورون فيه فى كل يوم بعد صلاة العصر بالمدرسة المذكورة فيه ويجلس الشيخ الامام/ العالم شمس الدين محمد الأقصرائى المشار إليه فيه بالمحراب الذى بالإيوان المذكور ويجلس/الشيخ الثانى إلى جانبه والمعيدان والطلبة المذكورون حوله ويفرق النقيب المقدم/ذكره أجزاء الربعة الشريفة فيبدأ الشيخ شمس الدين محمد المذكور فيه ثم من يليه ويقرأ/كل منهم جزءا كاملا من تجزئة ثلاثين جزءا ويقرأون عقيب ذلك سورة الإخلاص والمعوذتين/وفاتحة الكتاب ثم يقرأ القارئ المادح المقدم ذكره عشرا من القرآن العظيم.... /صوته ويمدح النبى صلى الله عليه وسلم عقيب ذلك ثم يدعو لمولانا السلطان الملك الظاهر/وللواقف المذكور ولذريتهما لوجميع المسلمين ورتب الناظر رجلا من أهل الخيروالدين من/القراء الحافظين لكتاب الله المتقنين لقراءته الجامعين لروايته ومعناه على أن يجلس لتلقين /القرآن العظيم بالمدرسة المذكورة فى يوم فى الوقت الذى يعينه الناظر له لمن عساه/يحضر إليه راغبا فى تلقين القرآن العظيم وحفظه فيلقنه من يحتمل تلقينه من كتاب الله تعالى على /العادة فى مثل ذلك.... ورتب الناظر فى هذا الوقف رجلين من أهل الخير والدين احدهما يكون عالما

بتفسير القرآن العظيم/وعلم العربية حافظا لحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومتونه وطرق /إسناده وحسنه وغريبه شيخا متصدرا والثانى حسن الصوت على بقراءة المواعيد /على أن يجلس الشيخ المذكور بالمدرسة المذكورة فيه ويجلس القارئ المذكور /بين يديه فى كل يوم إثنين وثلاثاء بعد صلاة الظهر ويقرأ القارئ المذكور ما تيسر له /قراءته من القرآن العظيم وتفسيره ومن صحيح البخارى ومسلم أو من أحدهما أو من/ شروحهما أو من الكتب الصحيحة ومن كتب الرقائق المعتمدة ومناقب الأبرار الصالحين ويحل/ الشيخ المذكور من ذلك ما أشكل على السامعين من تفسير وحديث أوغير ذلك على عادة /أمثاله فى ذلك ويختم القارئ بعد ذلك قراءته بسورة الإخلاص ثلث مرات والمعوذتين وفاتحة الكتاب وأوائل سورة البقرة وأواخرها ويدعو عقيب ذلك لمولانا السلطان الملك/الظاهر، وللواقف المذكور ولذريتهما ولجميع المسلمين ويختم ذلك بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم".

ملحـــق رقم ٣

تعتبر وثيقة جمال الدين الاستادار رقم ١٠٦ محفظة١٧ من أفضل الوثائق المملوكية التى تتضمن شروط الواقف الخاصة بالسكنى وشروط التوظف المتبعة فى العصر المملوكي وننشر فى هذا الملحق بعضا من نص الوثيقة المتعلقة بهذا الأمر.

"وشرط الواقف أثابه الله تعالى الجنة وضاعف عليه المنة أن يكون من هو ساكن بالخانقاة المذكورة /عازباً غير متزوج بحيث لا تدنس بسكنى الحيض إلا الشيخ خاصة فإنه يرخص له بالسكنى بزوجته للضرورة وشرط/على أرباب البيوت بها الإقامة والمبيت بها ويسامح كل منهم بالمبيت خارج الخانقاة لخمس ليال فى كل شهر وأن لا يعطى /لأحد بيت بالخانقاة إلا بعد تكفية المجردين كما ذكر أعلاه ولا يعطى لأحد من غير أهل الخانقاة بيتا إلا أن لا يوجد له /ساكن من أهلها فحينئذ يعطى لمن يكون من أهل الخير والديانة والصيانة من أهل الصوفية /ويصير مترددا للخانقاة بشرط المبيت بها والعزوبة ويقدم بالتنزيل فى أول وظيفة شغرت بالخانقاة /بما يوجد فيه شروطها ولا يجمع لأحديها بين بيتين ومن أراد التزويج ممن معه بيت بها أخذ منه وأعطى لمن شرط فيه الشروط /المتقدمة ومن أراد من المتجردين الانتقال إلى وظيفة طلب علم أو غيرها وكان فى جماعة الطلبة أو غيرهم ممن هو متصف /بصفات المتجردين وتراضى هو الآخر على ذلك نقل أحدهما مكان الآخر واذا انتهى أحد من قراء السبع فى علم القرآن /خرج من الطلب المذكور وقرر صوفيا ونزل مكانه غيره من أرباب الوظائف بالخانقاة وأن لا يجمع لاحد من أهلها والمنزلين فى وظيفة بها بين وظيفتين بها ولا بغيرها يتعارض فى وقت وأحد يحصل الخلل فى أحد منهما/للاشتغال فى الأخرى إلا من قرره الواقف وشرط أيضا اذا نزل أحد عن وظيفته بالخانقاة/المذكورة لأحد فلا يقر الناظر النازل ولا المتزول له بل يستدل بهما وان مات من الشيخ والمتصدرين بها/وشيخ القراء والإمام أو رغب عن وظيفته لها أو قطع لصانع شرعى وكان أحد من الطلبة المنزلين بالخانقاة/المذكورة أهلا لتلك الوظيفة التى شغرت فينزله الناظر فيها بشرط أن يكون متصفا بصفات من كان بها ولا يقدم/عليه غيره إلا من هو أفضل منه أكثر نفعا عربيا كان أو اعجميا مصريا كان أو آفاقيا وأن استوى فى الأهلية/

أو أكثر منهما قدم الأمثل الأنفع فان استووا فى ذلك أقرع بينهم فا لم يوجد من أهل الخانقاة من يصلح فمن/غير أهلها ممن هو متأهل لتلك الوظيفة وشرط أن من فضل السفر من أهل الخانقاة فإن كان من أهل الوظائف التى يحصل فيها الخلل بغيبته عنها استناب فى وظيفته من يسدها عنه إلى حين حضوره وأجرى عليه معلومه وإن لم /تكن الوظيفة يحصل بغيبته فيها خلل مثل الطالب والصوفى وغير ذلك فان كان لسفر الحج الفريضة أجرى عليه معلومه/ إلى حين حضوره وإن كان لحج تطوع أو مجاوره وفر معلومه وليستمر على وظيفته إلى حين حضوره فتجرى عليه ويستقر مكانه /ويفسح لكل من أرباب الوظائف والمنزلين بالخانقاة المذكورة مدة المجاورة وهى سنة كاملة وثلثة أشهر فأن زادت غيبة أحدهم /على ذلك قطع ونزل غيره كل ذلك غير طائفة المجردين فإن شرطهم قد تقدم ومن سافر لغير الحج ممن تقدم ذكرهم فإن كان سفره لزيارة أهل وأقارب فيسمح له بالسفر مدة ثلثة أشهر ولا يصرف فيها معلوم مدة غيبته فإن /حضر عاد إلى حاله فان زادت غيبته على ثلثة أشهر قطع ونزل غيره وهذا الحكم فيمن لا وظيفة له يتعطل بغيبته /فإن غاب فى السفر المذكور أحد ممن تتعطل وظيفته بغيبته أو يحصل منها خلل بغيبته عنها فسح له فى الإستنابة لمن/يسد وظيفته عنه مع استمرار معلومه مدة /ستة أشهر فان زادت غيبته على ذلك قطع ونزل غيره وانْ كان السفر لغير زيارة الأهل والأقارب فسح له فى ذلك مدة عشر أيام ثم يقطع كل ذلك من حق المذكورين خلا طائفة المجردين /فان شرطهم تقدم وخلا المتصدرين فان من شرطهم تقدم ومنه ما يأتى نيابة وهو انه من غاب من المتصدرين بالخانقاة المذكورة لسفر حج أو زيارة أهل أو أقارب او لتعاهد بقعة شريفة فيستنيب عنه من يقوم بوظيفته /ويسدها على الوجه الشرعى إلى حين حضوره بحيث لا تزيد غيبته على مدة /سفر الحج أو مدة المجاورة إن كان مجاورا وإن زادت على ذلك لغير عذر شرعى قطع ونزل غيره مكانه،وشرط أيضا أن المتصدرين وشيخ القراءة والحديث ومدرس الشافعية يلازمون الاشتغال بالخانقاة المذكورة /فى كل يوم خلا الثلاثاء ويوم الجمعة من كل أسبوع وخلا شهر شعبان وشهر رمضان وغرة شوال وغرة ذى الحجة ويوم تاسوعاء وعاشوراء وأيام التشريق والاعياد من كل سنة وأيام المطر والخوف من.... وشدة /الريح والبرد وخلا شيخ الحديث فإنه يسمع الحديث فى الأشهر الثلاثة كما تقدم وأن يسامح المتصدرون /وطلبة العلم والصوفية بالبطالة ثلثة أيام متفرقة فى كل شهر سواء غاب أحدهم عن وظيفته أو أكثر

فأن زادت غيبته على ذلك حوسب بالغيبة وأن كانت الغيبة عن وظيفة خاصة مثال درس أو اذان قطع نظير ذلك /مما يقابل الوظيفة المذكورة من الفلوس وإن كان من التصوف قطع ما يقابله من الخبز وغيره وان كان/عن المجموع قطع ما يقابل ذلك كله ووفر للخانقاة ومن كثرت غيبته لغير عذر وزادت على عشرة أيام في كل/شهر وثلثة اشهر في سنة واحدة قطعه الناظر ونزل غيره وكل ذلك خلا الفراشين والقومة والإمام /والمؤذنين والرئيسين والسقاء وكاتب الغيبة والنواب وقراء السبع والشباك وقراءه الصفة والمادح فأن /من غاب منهم يستنيب مدة العشرة أيام فان زادت غيبته عن العشرة أيام المذكورة بغير سفر ولا مرض قطع أيضا /كذلك يستنيب كل من خادم الكتب وخدام الربعات وخادم السجادات المدة التي فسح لهم فيها /ويجرى عليه المعلوم إلى حين عودة مالم يتعد بزيادة الغيبة عما عين له أعلاه وشرط أيضا أن ينزل /أحد بالخانقاة المذكورة في وظيفة ولا يعطى بها بيتا بجاه ولا بشفاعة ولا بذى قوة شوكة وأن ينزل /بها أحد من الصوفية من الشهود المكتتبين بحوانيت الشهود ولا أن يكون مباشرا عند الأمراء فان.... واحد من هؤلاء التنزيل بها ترك ما يمنعه عن ذلك ونزل إن كان صالحا لما.... وكانت الوظيفة /شاغره كل ذلك فيما يتعلق بوظيفة الطلب والتصوف والملزم الحضور في الوظيفة لاتتعارض الوظيفتان /فأن لم يتعارضا وكان المنزل بالخانقاة مستحقا نزل وأما بقية أرباب الوظائف بها فلا يمنعون عن ذلك /إلا أن يحصل تعارض في وقت واحد ويحصل خلل أو نقص عمل في الوظيفة التي بالخانقاة فان خيف خلل/أو توقع تعارض منعوا من ذلك وشرط أيضا ألا ينزل بها شرير أو من يكثر الخصومات / ولامن هو معروف بالسلاطة والأفتراء على الناس والكذب.

ملحـــق رقم ٤

يعتبر نص الوقف الخاص بمدرسة عبد الغنى الفخرى- بشارع بورسعيد -بالوثيقة رقم ١٢/٧٢ محكمة المؤرخة ١٨ رمضان سنة ٨٢٠هـ نموذجا يبين الوثائق المملوكية التى تظهر دور الواقف فى وظيفة المنشأة كما أنها تبين ان ما كان يقرر من وظائف كان متعارفا عليه كما أنها توضح ما كان يقرره الواقف لأولاده وتحكمه فى الوقف طول حياته واستقراره من بعد بلا تغيير ونص الوقف كما يلى :

"وأما المدرسة المبدى بذكرها الموصوفة المحدودة بأعاليه فإنه وقفها مسجدا لله تعالى وبيتا من بيوته تقام فيه /الصلوات ويعتكف فيه على العبادات ويتلى فيها كتاب الله العظيم ويقرأ فيها حديث النبى محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم وجعلها وأواينها الأربعة كحكم المساجد والجوامع وخلا بين ذلك وبين المسلمين فدخلوها وصلوا فيها ليس له أبقاه الله تعالى فى ذلك حق إلا كواحد من المسلمين ، وأما بقية حقوقها من القاعتين والخلاوى والبيوت والخزاين والسبيل والصهريج وغير ذلك من حقوقها فأنه وقف ذلك كله ليعين هو من ذلك ما يرى تعيينه ممن سيقرره بالمدرسة المذكورة من أرباب وظائف بها من المدرسين ذوى المذاهب الأربعة ومشايخ تفسير القرآن العظيم وحديث سيدنا محمد النبى عليه أفضل الصلاة والتسليم وقراء القراءات السبع وغير ذلك من العلوم ومعيدين وطلبة وصوفية وإمام وقراء شباك وقومة وفراشين وبواب ومؤذنين وريسا وسبل الماء العذب وسواق وغيرهم ممن يحتاج إليه لمصالح المدرسة المذكورة على من يختار هو ويقتضيه رأيه ويؤدى إليه اجتهاده وأما الأماكن الكائنة والحصص الشائعة الموصوفة بأعاليه وهى ما عداها وماعدا حقوقها فأنه وقف ذلك على أن يصرف ريعه لمن قرره ممن ذكر أعلاه ويعين مقدار ما يجعله لكل منهم ولأولاده وذريتهم ونسلهم وعقبهم وغيرهم ممن ذكر من الفقراء والمساكين موكول جميع ذلك إلى رأيه وإختياره واجتهاده وقف ذلك على ما شرح لنفسه تقبل الله عمله وغفر له سيئاته له أن يزيد فى عمارة ذلك ما يرى زيادته وينقص ما يرى نقصه ويغير من ذلك ما يرى تغييره ويبدل من ذلك ما يرى تبديله ويرتب بالمدرسة المذكورة ما يرى ترتيبه ويرجع عما يقرره ما يرى الرجوع منه بكل ذلك أو بعضه كلما بدى له وليس لغيره بعد وفاته نقل شئ من ذلك فإذا توفاه الله تعالى إلى رحمته استقر الحال على حاله عند وفاته.

ملحـــق رقم ٥

ندر أن نجد بين الوثـائق المملوكيـة الباقيـة وثيقـة وقـف لزاويـة ومـن حسن الحظ أن وجدت من بين الوثئق الجديدة التى عثر عليها بأرشيف وزارة الأوقاف الوثيقة رقم ٧٥١ ج مؤرخه ٨ جمادى الأولى سنة ٧٩٦ هـ لوقف زاوية تسمى زاوية الفتح ودرست هذه الزاوية ولكن ما جاء بالوثيقة من نص الوقف يعطى فكرة عن مشتملات الزاوية والحياة فيها فقد جاء بها ما نصه:

وقفا شرعيا وحبساً صريحا مرضيا وتسـبيلا مسـتمرا مجددا وصدقـة جارية لا ينقطع معروفه أبدا لايباع أصل /ذلك ولا يوهب ولا يرهن ولا يملك ولا ينـاقل بـه ولا ببعـض ولا يحـل عقـد مـن عقـوده قائمـا علـى أصولـه محفوظا/على شروطه مسبلاً علـى سبلة التـى تذكر فيـه إلـى أن يـرث اللـه الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين أنشأ الواقـف المذكـور تقبـل /اللـه منـه على ما يأتى ذكره وشرحه مفصلا مبينا فأما المكان المبدأ بذكره أعلاه الكـاين بدرب الرحـا بجوار جامع التركمـاني[1] الـذى هـو علـى صـورة زاويـة وبـه المساكن العلوية والسفلية فإن ذلك وقـف الإيـوان إلا الكبـير الـذى مـن حقوقـه ويصـدره /المحـراب مسجدا للـه تعـالى وبيتـا مـن بيوتـه لتقـام فيـه الصلـوات ويعتكف فيه على العبادات ويجلس فيه للإفـادة ويتلـى فيـه الأحـاديث /النبويـة الصحيحة المروية ويشتغل فيه بالعلم الشريف ونشره /وإفادته وتعليمه وتفهيمه وخلى بين المسلمين وبينه وأذن لهم فى الدخول إليه والصلاة فيه على العـادة فى مثل ذلك شرعا وأما /الرحبة ذات المحـراب التـى هـى أمـام بـاب المسـجد المذكور والمكان الذى به الفسقية فان الواقف المذكور وقف ذلك جميعه زاوية ينتفع به طلبة العلم الشريف المقيمون به والواردون إليه واهـل المكـان انتفـاع مثلهـم /مثل ذلك على عادة الزوايا والمرابط وأما الخلاوى الخمسة عشر التـى بهذا المكان فإن ذلك فرض لسكن طلبة العلم /الشريف المرتبيـن بهـذا المكـان ينتفعون بذلك فى السكن خاصة انتفاع مثلهم بمثل ذلـك علـى الوجـه الشـرعى

---

[1] ذكر صاحب النجوم سنة ٧١٠هـ ان الأمير بدر الدين محمد التركمانى جامعا بالقرب من باب البحر ، ذكر صاحب الخطط أن هذا الجامع من الجوامع المليحة أنشأه صاحبه الأمير بدر الدين محمد التركمانى فى المقس وما زال هذا المسجد قائما بعد ما حدثت تغييرات كثيرة على عمارته ويقع بدرب التركمانى المتفرع من شارع باب البحر راجع ابن تغرى بردى النجوم ج٩ ص١٩٩-٢٠٠ المقريزى خطط ج٢ ص٣١٣

وأما الحصة التى /مبلغها النصف من البير والساقية والبكرة الخشب المعلقة المركبة على فوهتها فإن الواقف المذكور وقفها وسبلها للانتفاع بنقل/الماء وإخراجه إلى الجنينة والفسقيتين وحوض بيت الخلا وخلوة الحمام المختصة بأولاد الواقف لينتفع أرباب الوظايف/وطلبة العلم الشريف المقيمون بهذا المكان والواردون إليه فى الإستعمال والوضوء والإغتسال وإزالة الضرورات/انتفاع مثلهم بمثل ذلك على الوجه الشرعى وأما الفسقيتان المذكورتان فإنهما وقف فرضه لخزن الماء وأما بيوت الخلا/الثلاثة فإنهما وقف سبل لانتفاع طلبه العلم وأهل المكان المقيمين به والواردين إليه على ازالة ضروراتهم والانتفاع المعهود/والجنينة المذكورة وما بها من الأشجار فأن ذلك وقف شرعى ينتفع به أهل المكان بالاستظلال به واستغلال ثمره وغير ذلك/من الانتفاعات الشرعية على الوجه الشرعى وأما القاعة التى بدهليز المكان المذكور أولا المتوصل إليها من الباب الكبير الذى/جعل الواقف التطرق إلى هذا المكان منه والطبقة التى تعلوها وما هو من حقوق ذلك المعروف بسكن الحاجة سمول/المرأة الكامل ابنت الفقيه محمد ثابت التى كانت زوجا للواقف المذكور فان ذلك وقف يختص بالسكن فيه للحاجة سمول المذكورة/عزبا كانت او متزوجة لاتزعج إلى حين وفاتها إلى رحمة الله تعالى فإن توفيت كان ذلك مرصدا وقفا لمصالح الزواية/المذكورة وأما الطبقة المجاورة لطبقة الحاجة سمول فإن الناظر مخير فيها بين أن يجعلها سكنا لاولاد الواقف واولاد اولاده/أو أحد من أرباب الوظائف او يؤجر ذلك ويصرفه فى مصالح الزواية وأما القاعة التى هى أمام الفسقية وما هو من حقوقها/والطبقة التى تعلوها والرواق الكبير الذى هو علو المسجد المعروف ذلك الآن بسكن الواقف المذكور فإن الواقف جعله وقفا/شرعيا مرصدا لأولاده وأولاد أولاده وذريته ونسله وعقبه من ولد الظهر ومن ولد البطن أولاد الذكور والإناث وإن سفلوا/وكذلك يقدمون بالسكنى فى ساير البيوت والخلاوى كما يقدمون فى الوظائف على غيرهم فاذا انقرضوا ولم يتبق منهم احد وأراد شيخ المكان السكن بالرواق الكبير الذى هو على الرواق الذى جعله الواقف مسجدا وبصدره المحراب كان له ذلك وأما البيت الذى تحت الطبقة المجاورة لسكن سمول على يسرة الداخل فإن الناظر مخير فى إن شاء أن يسكنه لأحد الفقراء المقيمين بالزواية وإن شاء أجره لمصالح/الزواية المذكورة وأما الاماكن التى يتطرق إليها من الباب الكبير الذى يخرج إليه من باب سر الزواية وهو النصف من البئر والساقية المركبة/على فوهتها وبيت الخلا

والثلاث قاعات المرصدة لعمل والقرا(كلمة غير مقروءه)والطاحون والفرن والاسطبل والرواق الذى يتطرق إليه من مقابل/باب الجامع المذكور المشرف على الساقية وما يتعلق بذلك جميعه فإن ذلك وقف لمصالح الزاوية المذكورة وكذلك القاعة المعبر عنها/بالاصطبل المجاور للدار الحجر المقدم ذكرها وباقى الأماكن المذكورة الموصوفة المحدودة أعلاه فأن الواقف المذكور وقفها/وقفا شرعيا اربعون رطلا من الخبز الطيب يفرق صبيحة كل يوم فى الزواية زواية الفتح على المقيمين بها على ما سيذكر ينصرف من ذلك ستة/عشر رطلا فى كل يوم لأولاد الواقف المذكور.... /ويصرف لهم مع ذلك ماية وخمسين درهما نقرة يصرفها لهم مياومه فى كل يوم خمسين درهما يشتركون/فيها ويصف لهم كل صبيحة كل يوم على التفصيل المقدم والناظر على هذا الواقف مؤذنا بالمكان المذكور وبوابا وفراشا وقسيما يسرج القناديل ويضيئها/لكل منهم من ريع الوقف المذكور ما يرى صرفه ويصرف فى ثمن زيت من زيت الزيتون برسم المكان المذكور ما يحتاج إليه المكان المذكور/ملئ الفسقية وسقى الجنينة واصلاحها وإدارة الساقية.

ملحــق رقم ٦

جاء بوثيقة سودون من زاده ١٠/٥٨ محكمة مؤرخه آخر رمضان سنة ٨٠٤ هـ وصف للالآت المستخدمة فى صنع النحاس وهو وصف فريد من نوعه ، يبين تلك الآلات وكيف ان بعض هذه المعامل كانت تؤجر للصناع يصنعون بها إذا لم يكن فى استطاعتهم إمتلاكها .ومن مثل هذه المعامل خرجت تحف النحاس فى العصر المملوكى ونص الوقف :

"وجميع العدة المجدة لعمل النحاس وضربه الكاينة بالمعمل الذى بالقاهرة المحروسة داخل باب النصر بالعبدانية[1] وهى أوتاد حديد عدتها ستة عشر وتدا الوزن عن ذلك مائة رطل وثلاثة وعشرون رطلا وأمخال/حديد عدتها إثنان الوزن عنهما ثمانون رطلا ومرازب حديد عدتها ثمانية وعشرون الوزن عن ذلك مائة رطل وستة وثمانون/رطلا وسناديل حديد عدتها سبعة الوزن عنها أربع ماية رطل واثنان وخمسون رطلا ومطارق فولاذ عدتها ثلاثون/مطرقة الوزن ستة وخمسون رطلا ومطارق حديد ثلاثة زنتها ثلاثة عشر رطلا ، ومطارق فولاذ وسندال واحد للوزن/عن ذلك ثمانية ارطال وخوابير فولاذ عدتها أربعة الوزن عن ذلك أحد وعشرون رطلا وأطواق حديد ثلاثة الوزن عنها خمسة ارطال ، وكان فولاذ زنته نصف رطل وربسره نحاس برسم السبك زنتها اربع ماية رطل وستون رطلا ، ومزارب نحاس عدتها عشرة/الوزن عن ذلك ماية رطل وسبعة وثلاثون رطلا ونصف رطل وطوابل حديد عدتها خمسة زنتها اثنان وثلاثون رطلا ونصف رطل/وبسارد فولاذ اثنان زنتهما ثلاثة ارطال ، ومحملان مكلفات نحاس بعلائق خيوط زنتهما رطلان ونصف رطل،وكيلبتان وثلاثة احجار وسفافيد وطوق وقرمة حديد زنة ذلك ثلاثة وخمسون رطلا ومسحاة جديدة زنتها رطلان ومنفاخ جلد ومطرقة/وقادوم حديد زنتها رطلان ونصف رطل كل ذلك بالرطل المصرى عَلى أن الناظر فى هذا الوقف والمتولى عليه يؤجر الموقوف المذكور أو ما شاء منه لمدة سنة فمادونها بأجره المثل فما فوقها ولا يدخل عقدا على عقد حتى تنقضى مدة العقد الاول.

---

[1] هامش كانت تعرف أولا بحاره العبدانية ثم قيل لها بعد ذلك الحبانية من أجل البستان الذى يعرف بالحبانية الجارى فى وقف الخانقاة الصلاحية سعيد السعدا ويتوصل إلى هذه الحارة من تجاه قنطرة اق سنقر وبعض دورها الآن تشرف على بستان الحبانية وبعضها يطل على بركة الفيل (راجع المقريزى خطط ج٢ ص١٧).

ملحق رقم ٧

" أهم المنشأت الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة "

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٣٧	مدرسة الظاهر بيبرس بالنحاسين	٦٦٠-٦٦٢	١٢٦٢-١٢٦٣
١	جامع الظاهر بيبرس بالظاهر	٦٦٥-٦٦٧	١٢٦٦-١٢٩٦
١٤٦	خانقاة أيدكين البندقدارى بشارع السيوفية	٦٨٣	١٢٨٤-١٢٨٥
٤٣	قبة ومدرسة قلاوون "المجموعة" بالنحاسين	٦٨٣-٦٨٤	١٢٨٤-١٢٨٥
٢٧٥	قبة مدرسة الأشرف خليل بشارع الأشرف	٦٨٧	١٢٨٨
٢٤٩	مدرسة الناصر محمد بالنحاسين	٦٩٥-٧٠٣	١٢٩٥-١٣٠٤
٢١	مدرسة قراسنقر بالجمالية	٧٠٠	١٣٠٠-١٣٠١
٢٢١	منشأة سلاروسنجر الجاولى بقلعة الكبش	٧٠٣	١٣٠٣-١٣٠٤
٣٢	خانقة بيبرس الجاشنكير بالجمالية	٧٠٦-٧٠٩	١٣٠٦-١٣١٠
٩٧	المدرسة الطيبرسية بالأزهر	٧٠٩	١٣٠٩
٢٦٣	مدرسة وقبة سنقر السعدى	٧١٥-٧٢١	١٣١٥-١٣٢١
٢٤	جامع آل ملك الجوكندار بشارع أم الغلام	٧١٩	١٣١٩
٢٣٣	جامع الأمير حسين بالمناصرة	٧١٩	١٣١٩
١١٥	مدرسة أحمد المهندار بالدرب الاحمر	٧٢٢	١٢٢٢

٢٦	مدرسة مغلطاى الجمالى بقصر الشوق	٧٣٠	١٣٣٠-١٣٢٩
١٣٠	جامع المس بالحلمية	٧٣٠	١٣٣٠-١٣٢٩
١٤٣	جامع الناصر محمد بالقلعة	٧٣٥	١٣٢٤
٢٠٥	جامع بشتاك (المدخل والمنارة)	٧٣٦	١٣٣٦
١٢٠	جامع الماردانى بالتبانة	٧٣٩-٤٠٠	١٣٤٠-١٢٣٩
٩٧	المدرسة الاقبغاوية (بالأزهر)	٧٤٠	١٣٣٩
٢٥٢	جامع الست مسكة بالحنفى	٧٤٠	١٣٤٠-١٣٣٩
١١٢	جامع أصلم السلحدار بدرب شعلان	٧٤٦-٧٤٥	١٣٤٥-١٣٤٤
٢٢	مسجد أيدمر البهلوان بأم الغلام	قبل ٧٤٧	١٣٤٦
١٢٣	جامع آق سنقر (إبراهيم أغا مستحفظان)بشارع التبانة	٧٤٨-٧٤٧	١٣٤٧-١٣٤٦
٢٠٣	جامع أرغون شاه الإسماعيلى بالنصارية	٧٤٧	١٣٤٧
٢٦	مدرسة تتار الحجازية بالجمالية	٧٦١-٧٤٨	١٣٦٠-١٣٤٧
١٣٨	جامع منجك اليوسفى بالحطابة بالقلعة	٧٥٠	١٣٤٩
١٤٧	جامع شيخو بالصليبة	٧٥٠	١٣٤٩
١٥٢	خانقاة شيخو بشارع الصلبية	٧٥٦	١٣٥٥
١٤٠	خانقاة نظام الدين بالخطابة	٧٥٧	١٣٥٦
٢١٨	مدرسة صرغتمش بشارع الخضيرى	٧٥٧	١٣٥٦
١٣٣	مدرسة السلطان حسن بشارع القلعة	٧٦٤-٧٥٧	١٣٦٢-١٣٥٦
٤٥	مدرسة الأمير متقال بدرب قرمز	٧٦٢	١٣٦٢-١٣٦١

١٥٣	مدرسة خشقدم الأحمدى بشارع الصلبية	٧٦٨-٧٧٨	١٣٦٦-١٣٧٧
١٢٥	مدرسة أم السلطان شعبان بشارع التبانة	٧٧٠	١٣٦٨-١٣٦٩
١٨٥	مسجد أسنبغا بدرب سعادة	٧٧٢	١٣٧٠
١٨	المدرسة البقرية بحارة عطوف	قبل ٧٧٦	١٣٧٤
١٣١	مدرسة الجاى اليوسفى بسوق السلاح	٧٧٤	١٣٧٣
٢٥٠	مدرسة أيتمش البجاسى بباب الوزير	٧٨٥	١٣٨٣
١٨٧	مدرسة وخانقاة برقوق بالنحاسين	٧٨٦-٧٨٨	١٣٨٤-١٣٨٦
١١٧	مسجد الكردى(المدرسة المحمودية) بالخيامية	٧٩٧	١٣٩٥
١٧٧	مدرسة مقبل الداودى الحمزاوى	٧٩٨	١٣٩٥
١٤٩	خانقاة فرج بن برقوق بالقرافة الشرقية (الصحراء)	٨٠٣-٨١٣	١٤٠٠-١٤١١
٣٥	مدرسة جمال الدين الأستادار بالجمالية	٨١١	١٤٠٨
٢٠٣	مسجد فرج بن برقوق بشارع تحت الربع	٨١١	١٤٠٨
١٠٢	مدرسة العينى بشارع الداودارى	٨١٤	١٤١١
١٥١	مسجد قايتباى المحمدى بشارع الصليبة	٨١٦	١٤١٣
١٩٠	جامع المؤيد شيخ بشارع السكرية	٨١٨-٨٢٣	١٤١٥-١٤٢٠
١٨٤	مدرسة عبد الغنى الفخرى بشارع بورسعيد	٨٢١-٨٢٣	١٤١٨-١٤٢٠

٦٠	مدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنفش	٨٢٣-٨٣٣	١٤٢٠
١٧٥	مدرسة برسباى بالأشرفية	٨٢٧-٨٣٣	١٤٢٣-١٤٢٩
١١٩	جامع جانى بك بالمغربلين	٨٣٠	١٤٢٦-١٤٢٧
١٣٤	مدرسة جوهر اللالا بدرب اللبان	٨٣٣	١٤٣٠
٣١٨	مدرسة السويدى بمصر القديمة	حوالى ٨٣٤	١٤٣٠
١٢١	خانقاة ومدرسة وتربة برسباى (بالصحراء)	٨٣٥	١٤٣٢
١٠٨	القبة الرفاعية (برسباى) بالصحراء	حوالى ٨٣٣-٨٣٥	١٤٣٠-١٤٣٢
٩٧	المدرسة الجوهرية بالأزهر	٨٤٤	١٤٤١
٢٠٩	مدرسة تغرى بردى بالصليبة	٨٤٤	١٤٤١
١٥٤	جامع قايتباى الجركسى بالمنشية	٨٤٥	١٤٤١-١٤٤٢
٢٠٦	مسجد قراقجا الحسنى بدرب الجماميز	٨٤٥	١٤٤١-١٤٤٢
١٨٢	جامع القاضى يحيى زين الدين بالأزهر	٨٤٨	١٤٤٤
١٧٨	مدرسة الجمالى يوسف بالحمزواى	حوالى ٨٥٠	١٤٤٦
٣٤٤	جامع القاضى يحيى ببولاق	٨٥٢-٨٥٣	١٤٤٨-١٤٤٩
٢١٧	جامع لاجين السيفى	٨٥٣	١٤٤٩
١٨٠	مدرسة جقمق بدرب سعادة	٨٥٥	١٤٥١
١٥٨	مدرسة اينال بالصحراء	٨٥٥-٨٦٠	١٤٥١-١٤٥٦
٢٤	جامع القاضى يحيى زين الدين بالحبانية	٨٥٦	١٤٥٢
٢٥	جامع ابن بردبك بأم الغلام	حوالى ٨٦٥	١٤٦٠

٢٠٧	مسجد مغلباى طاز بحارة بنت المعمار	٨٧١	١٤٦٦
٢١٦	مسجد تمرار الاحمدى	٨٧٦	١٤٧٢
٩٩	مدرسة قايتباى بالصحراء	٨٧٩-٨٧٧	١٤٧٤-١٤٧٢
٢٢٣	مدرسة قايتباى بقلعة الكبش	٨٨٠	١٤٧٥
١٢٩	مدرسة جانم البهلوان بالسروجية	٩١٦-٨٨٣	١٥١٠-١٤٧٨
٤٩	مدرسةأبوبكرمزهرجان مرجوش	٨٨٤	١٤٨٠-١٤٧٩
٥	قبة الفيداوية بالعباسية	٨٨٦-٨٨٤	١٤٨١-١٤٧٩
٢	قبة يشبك بكوبرى القبة	٨٨٦-٨٨٤	١٤٨١-١٤٧٩
١١٤	جامع قجماس الاسحاقى	٨٨٦-٨٨٥	١٤٨١-١٤٨٠
٥١٩	مدرسة قايتباى بالروضة	٨٩٦-٨٨٦	١٤٩٠-١٤٨١
٣٤٠	جامع أبو العلا	٨٩٠	١٤٨٥
٢١١	مدرسة أزبك اليوسفى بشارع أزبك	٩٠٠	١٤٩٥-١٤٩٤
٢٣٩	مسجد السلطان شاه بغيط العدة	قبل ٩٠٤	١٤٩٦
٢٤٨	مدرسة خاير بك بشارع التبانة	٩٠٨	١٥٠٢
١٣٦	مدرسة قايتباى أمير أخور بالمنشية	٩٠٩	١٥٠٤
١٨٩	مدرسة الغورى بالغورية	٩١٠-٩٠٩	١٥٠٥-١٥٠٤
٢٥٤	مسجد قايتباى الرماح بالناصرية	٩١١	١٥٠٦
١٦٢	مدرسة قرقماس بالصحراء (القرافة الشرقية)	٩١٣-٩١١	١٥٠٧-١٥٠٦

ملحـــــق رقم ٨

بيان بأهم وثائق الوقف الخاص بالآثار المملوكية

الوثائق	الأسم	الرقم
وثيقة وقف	الإبشادى المالكي	رقم ٢٧٨ محكمة
وثيقة وقف	أبو زكريا يحيي	رقم ١٥٤ محكمة
وثيقة وقف	أزبك من ططخ	رقم ١٩٨ محكمة
وثيقة وقف	السيفي أزدمر	رقم ٢٤١ محكمة
وثيقة وقف	الجمالي يوسف	رقم ٧/٤٦ محكمة
وثيقة وقف	الخضيرى	بدون رقم محكمة
وثيقة وقف	الغورى	رقم ٨٨٢ أوقاف
وثيقة وقف	الغورى	رقم ٨٨٣ أوقاف
وثيقة وقف	الغورى	رقم ٨٨٤ أوقاف
وثيقة وقف	الغورى	رقم ٣٧ محكمة
وثيقة وقف	المؤيد شيخ	رقم ٩٣٨ أوقاف
وثيقة وقف	أيتمش البجاسي	رقم ١١٤٣ مكرر أوقاف
وثيقة وقف	بدر الدين الوفائي	رقم ٢٢١ محكمة
وثيقة وقف	برسباى	رقم ٨٨٠ أوقاف
وثيقة وقف	برقوق	رقم ٨/٥١ محكمة
وثيقة وقف	بهاء الدين سنبل	رقم ٣/١٦ محكمة
وثيقة وقف	بيبرس الجاشنكير	رقم ٤/٢٢ محكمة
وثيقة وقف	بيبرس الجاشنكير	رقم ٤/٢٣ محكمة
وثيقة وقف	السيفي بيبرس	رقم ٣١٢ محكمة
وثيقة وقف	تغرى بردى	رقم ٩٨ محكمة
وثيقة وقف	تغرى بردى البكلمش	رقم ٣٨ محكمة

وثيقة وقف	حسام الدين لاجين	رقم ١٧ محكمة
وثيقة وقف	حسام الدين لاجين	رقم ١٨ محكمة
وثيقة وقف	السلطن حسن	رقم ٨٨١ اوفاف
وثيقة وقف	السلطان حسن	رقم ٤٠ محكمة
وثيقة وقف	السلطان حسن	رقم ٤١ محكمة
وثيقة وقف	السلطان حسن	رقم ٤٢ محكمة
وثيقة وقف	جمال الدين الأخيمى	رقم ٣/١٦ محكمة
وثيقة وقف	جمال الدين الأستادار	رقم ١٧/١٠٦ محكمة
وثيقة وقف	جوهر المعينى	رقم ٢٠٢ محكمة
وثيقة وقف	جوهر اللالا	رقم ١٠٢١ أوقاف
وثيقة وقف	جوهر اللالا	رقم ١٤ أ محكمة
وثيقة وقف	جوهر اللالا	رقم ١٥أ محكمة
وثيقة وقف	جهاركس القاسمى	رقم ١١/٦٤ محكمة
وثيقة وقف	سودون من زاده	رقم ١٠/٥٨ محكمة
وثيقة وقف	صرغتمش	رقم ٣١٩٥ أوقاف
وثيقة وقف	القاضى عبد الباسط	رقم ١٣/٨٤ محكمة
وثيقة وقف	عبد الغنى الفخرى	رقم ١٢/٧٢ محكمة
وثيقة وقف	الجمالى أحمد عبد الله الشهير بالمعصراتى	رقم ١١/٦٩ محكمة
وثيقة وقف	فرج بن برقوق	رقم ١١/٦٦ محكمة
وثيقة وقف	قانيباى الرماح	رقم ١٠١٩ أوقاف
وثيقة وقف	قايتباى	رقم ٨١٠ أوقاف
وثيقة وقف	قايتباى	رقم ٨٨٦ أوقاف
وثيقة وقف	قجماس الإسحاقى	رقم ٦٧٠ أوقاف
وثيقة وقف	قراقجا الحسنى نشر د.عبداللطيف ابراهيم	مجلة كلية الأداب عدد ١٨

وثيقة وقف	قرقماس أمير كبير	رقم ٩٠١ أوقاف
وثيقة وقف	قلاوون	رقم ٧٠٦ج أوقاف
وثيفة وقف	كافور الشبلى	رقم ١٢/٧٦ محكمة
وثيقة وقف	السلطان لاجين	رقم ١٣/٧٦ محكمة
وثيقة وقف	الناصر محمد بن قلاوون	رقم ٤/٢٥ محكمة
وثيقة وقف	القاضى يحيى زين الدين	رقم ٩١٧/١١٠ محكمة
وثيقة وقف	مغلطاى الجمالي	رقم ١٦٦٦ أوقاف
وثيقة وقف	يشبك المحمدى	رقم ١٢١ محكمة
وثيقة وقف	يشبك من مهدى	رقم ١٨٨ محكمة
وثيقة وقف	غير معروف صاحبها	رقم ٧٥١ أوقاف

بيـان الأشكـال

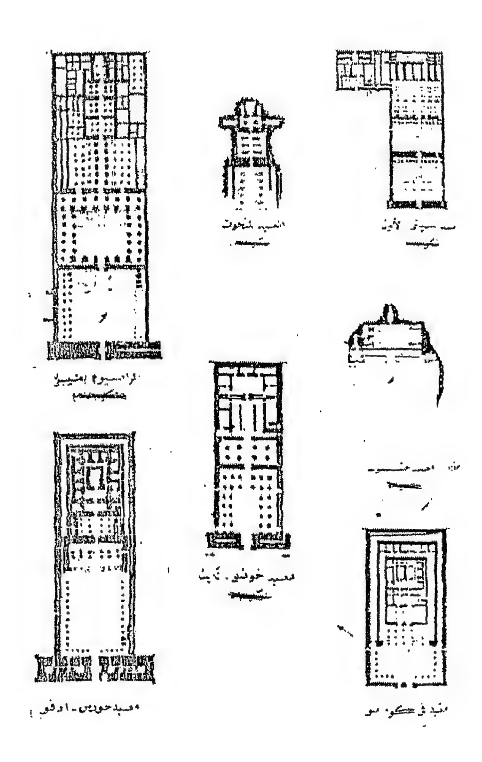
م	الأشكال	البيان
(١)	شكل رقم (١)	مساقط أفقية لمجموعة معابد فرعونية تشتمل على فناءداخلي
(٢)	شكل رقم (٢)	مساقط أفقية لمجموعة معابد من عمائر بلاد ما بين النهرين
(٣)	شكل رقم (٣)	مساقط أفقية لمجموعة عمائر رومانية تشتمل على فناء داخلي
(٤)	شكل رقم (٤)	مساقط أفقية لمجموعة قصور إسلامية مبكرة تشتمل علي فناء داخلي
(٥)	شكل رقم (٥)	مسقط أفقى للدار الثامنة من دور الفسطاط (عن علي بهجت)
(٦)	شكل رقم (٦)	مسقط أفقى لمجموعة قلاوون (المدرسة والقبة والبيمارستان)
(٧)	شكل رقم (٧)	مسقط أفقى لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون (عن كريزول)
(٨)	شكل رقم (٨)	مسقط أفقى لخانقاة بيبرس الجاشنكير (عن هيئة الاثار)
(٩)	شكل رقم (٩)	مسقط أفقى لجامع آل الملك الجوكندار (عن هيئة الآثار)
(١٠)	شكل رقم (١٠)	مسقط أفقى لمدرسة المهمندار (عن هيئة الآثار)
(١١)	شكل رقم (١١)	مسقط أفقى لجامع أصلم (عن هيئة الآثار)
(١٢)	شكل رقم (١٢)	مسقط أفقى لمدرسة تتار الحجازية (عن هيئة الآثار)

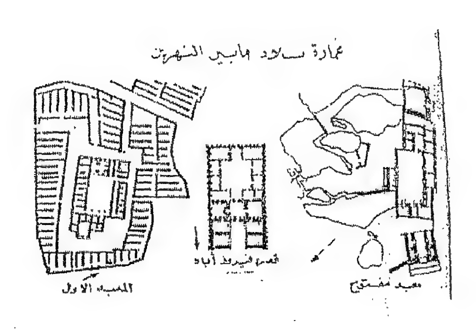
(١٣)	شكل رقم (١٣)	مسقط أفقى لمدرسة صرغتمش (عن هيئة الآثار)
(١٤)	شكل رقم (١٤)	مسقط أفقى لمدرسة السلطان حسن (عن هيئة الآثار)
(١٥)	شكل رقم (١٥)	مسقط أفقى لمدرسة مثقال (عن هيئة الآثار)
(١٦)	شكل رقم (١٦)	مسقط أفقى لجامع أسنبغا (عن هيئة الآثار)
(١٧)	شكل رقم (١٧)	مسقط أفقى لمدرسة الجاى اليوسفى (عن هيئة الأثار)
(١٨)	شكل رقم (١٨)	مسقط أفقى لخانقاة برقوق (عن هيئة الأثار)
(١٩)	شكل رقم (١٩)	مسقط أفقى لمدرسة جمال الدين الأستادأر (عن هيئة الأثار)
(٢٠)	شكل رقم (٢٠)	مسقط أفقى لمدرسة عبد الغنى الفخرى (عن هيئة الآثار)
(٢١)	شكل رقم (٢١)	مسقط أفقى لمدرسة القاضى عبد الباسط (عن هيئة الآثار)
(٢٢)	شكل رقم (٢٢)	مسقط أفقى لمدرسة برسباى بالأشرفية (عمل الباحث)
(٢٣)	شكل رقم (٢٣)	مسقط أفقى لجامع جانبك الأشرفى (عن حسن عبد الوهاب)
(٢٤)	شكل رقم (٢٤)	مسقط أفقى لمدرسة جوهر اللالا (عن هيئة الآثار)
(٢٥)	شكل رقم (٢٥)	مسقط أفقى لجامع القاضى يحيى بالأزهر (عن هيئة الآثار

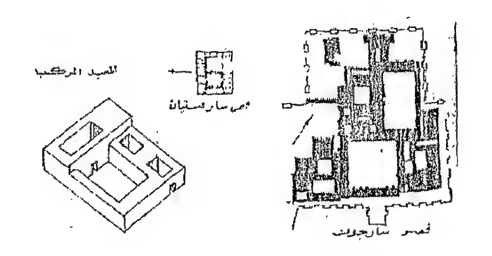
(٢٦)	شكل رقم (٢٦)	مسقط أفقى لمدرسة الجمالى يوسف (عن هيئة الآثار)
(٢٧)	شكل رقم (٢٧)	مسقط أفقى لمدرسة القاضى يحيى بالحبانية (عن هيئة الآثار)
(٢٨)	شكل رقم (٢٨)	مسقط أفقى لمدرسة قايتباى بالصحراء (عن هيئة الآثار)
(٢٩)	شكل رقم (٢٩)	مسقط أفقى لمدرسة أبو بكر مزهر (عن هيئة الآثار)
(٣٠)	شكل رقم (٣٠)	مسقط أفقى لجامع قجماس الإسحاقى (عن حسن عبد الوهاب)
(٣١)	شكل رقم (٣١)	مسقط أفقى لجامع أزبك اليوسفى (عن هيئة الآثار)
(٣٢)	شكل رقم (٣٢)	مسقط أفقى لجامع قايتباى الرماح بالناصرية (عن حسن عبد الوهاب)
(٣٣)	شكل رقم (٣٣)	مسقط أفقى لمدرسة الغورى بالغورية (عن هيئة الآثار)
(٣٤)	شكل رقم (٣٤)	مسقط أفقى لقبة الغورى بالغورية (عن هيئة الآثار)
(٣٥)	شكل رقم (٣٥)	مسقط أفقى لقاعة شاكر بن الغنام
(٣٦)	شكل رقم (٣٦)	مسقط أفقى لقاعة محيى الدين يحيى (جامع شرف الدين) (عن ليزين)
(٣٧)	مسقط أفقى (٣٧)	مسقط أفقى لجامع الظاهر بيبرس (عن كريزويل)
(٣٨)	شكل رقم (٣٨)	مسقط أفقى لجامع الماردانى (عن حسن عبد الوهاب)

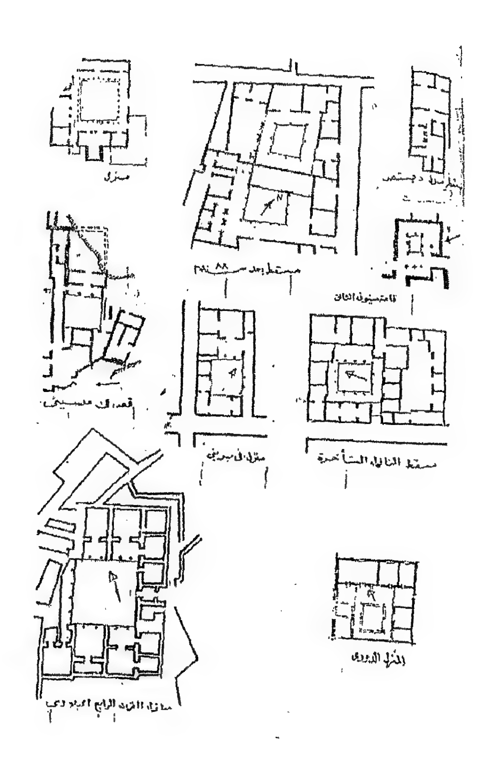
(٣٩)	شكل رقم (٣٩)	مسقط أفقى لجامع برسباى بالخانكة (عمل الباحث)
(٤٠)	شكل رقم (٤٠)	مسقط أفقى لجامع القاضى يحيى ببولاق(عن هيئة الآثار)
(٤١)	شكل رقم (٤١)	مسقط أفقى لجامع ألماس (عن هيئة الآثار)
(٤٢)	شكل رقم (٤٢)	مسقط أفقى لجامع شيخو (عن هيئة الآثار)
(٤٣)	شكل رقم (٤٣)	مسقط أفقى لجامع جانم التاجر (عن هيئة الآثار)
(٤٤)	شكل رقم (٤٤)	مسقط أفقى لجامع منجك اليوسفى (عن هيئة الآثار)
(٤٥)	شكل رقم (٤٥)	مسقط أفقى لخانقاة فرج بن برقوق (عن هيئة الآثار)
(٤٦)	شكل رقم (٤٦)	مسقط أفقى لجامع المؤيد شيخ
(٤٧)	شكل رقم (٤٧)	مسقط أفقى لمسجد فرج بن برقوق بتحت الربع (عن هيئة الآثار)
(٤٨)	شكل رقم (٤٨)	مسقط أفقى لرباط أحمد بن سليمان (عن هيئة الآثار)
(٤٩)	شكل رقم (٤٩)	مسقط أفقى لخانقاة أيدكين البندقدارى (عن هيئة الآثار)
(٥٠)	شكل رقم (٥٠)	مسقط أفقى لزواية زين الدين يوسف (عن كريزويل)
(٥١)	شكل رقم (٥١)	مسقط أفقى لخانقاة برسباى بالصحراء (عن دولت عبد الكريم)

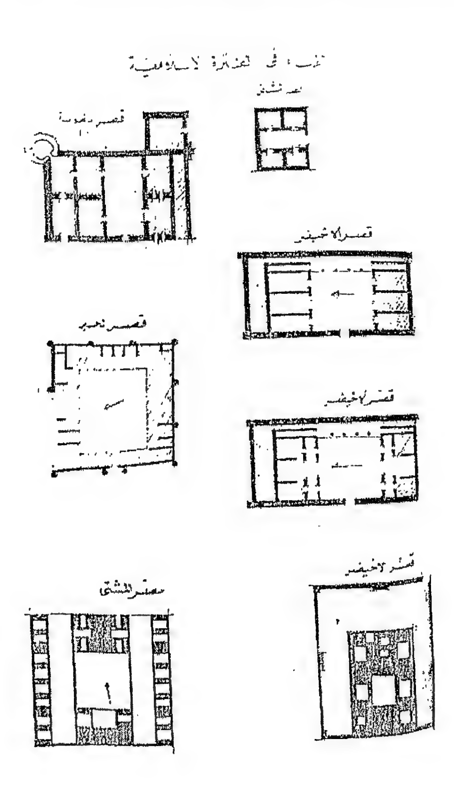
(٥٢)	شكل رقم (٥٢)	مسقط أفقى للقبة الرفاعية (عن هيئة الآثار)
(٥٣)	شكل رقم (٥٣)	مسقط افقى لمنشأة سلاروسنجر الجاولى (عن هيئة الآثار)
(٥٤)	شكل رقم (٥٤)	شكل يوضح مقاييس الانسان فى الأوضاع المختلفة (عن د.عرفان سامى)
(٥٥)	شكل رقم (٥٥)	قطاع رأسى للوحدات السكنية فى مدرسة السلطان حسن
(٥٦)	شكل رقم (٥٦)	قطاع رأسى فى خانقاة فرج بن برقوق (عن صالح لمعى)
(٥٧)	شكل رقم (٥٧)	قطاع رأسى فى الوحدات السكنية الشمالية بخانقاة فرج بن برقوق(عن هيئة الآثار)
(٥٨)	شكل رقم (٥٨)	مسقط افقى لصهريج السبيل بجامع برسباى بالخانكة (عمل الباحث)
(٥٩)	شكل رقم (٥٩)	قطاع رأسى فى كتاب جامع القاضى يحيى بالحبانية (عن هيئة الآثار)
(٦٠)	شكل رقم (٦٠)	شكل يبين حركة الشمس على مدار السنة عند خط عن ٣٠ درجة شمالا (عن د.عرفان سامى)
(٦١)	شكل رقم (٦١)	شكل يوضح وردة الرياح وتهوية المبانى (عن د.عرفان سامى)
(٦٢)	شكل رقم (٦٢)	شكل يبين الواجهة الغربية لخانقاة بيبرس الجاشنكير (عن هيئة الآثار)
(٦٣)	شكل رقم (٦٣)	شكل يبين واجهة مسجد فرج بن برقوق بتحت الربع(عن هيئة الآثار)
(٦٤)	شكل رقم (٦٤)	شكل يبين الواجهة الجنوبية للقبة الرفاعية (برسباى)(عن هيئة الآثار)

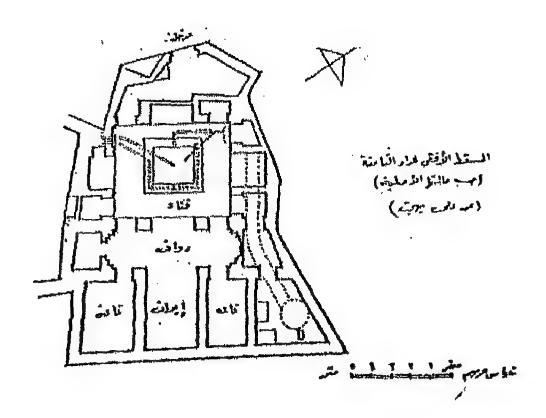


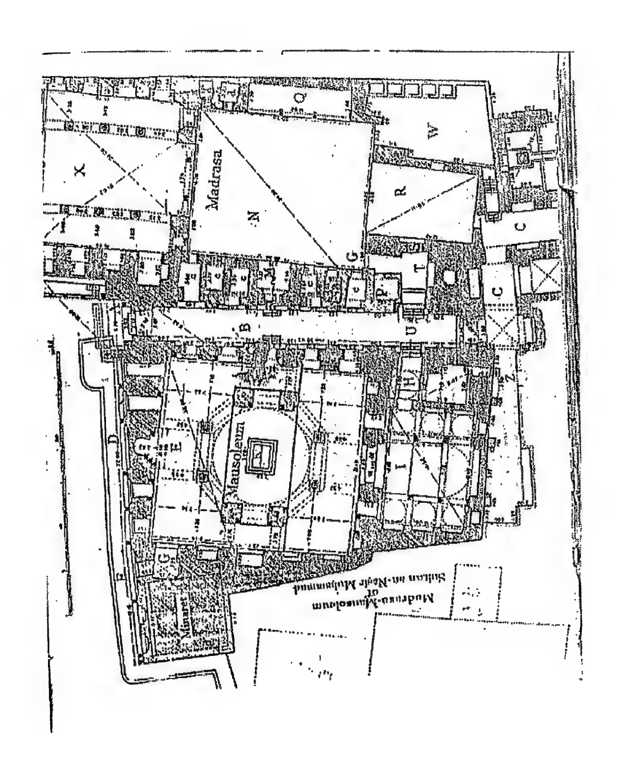

عمارة بلاد ما بين النهرين
قصر فيروز أباد
المعبد الأول

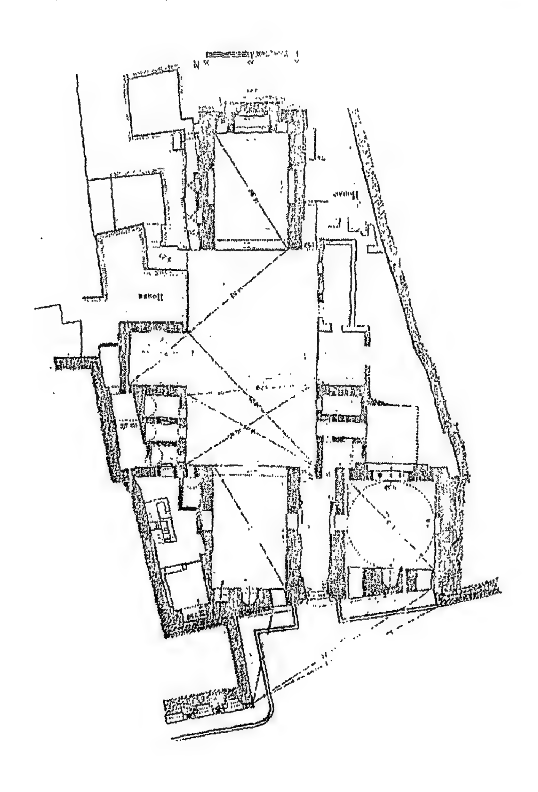

قصر سارفستان
قصر سارجون

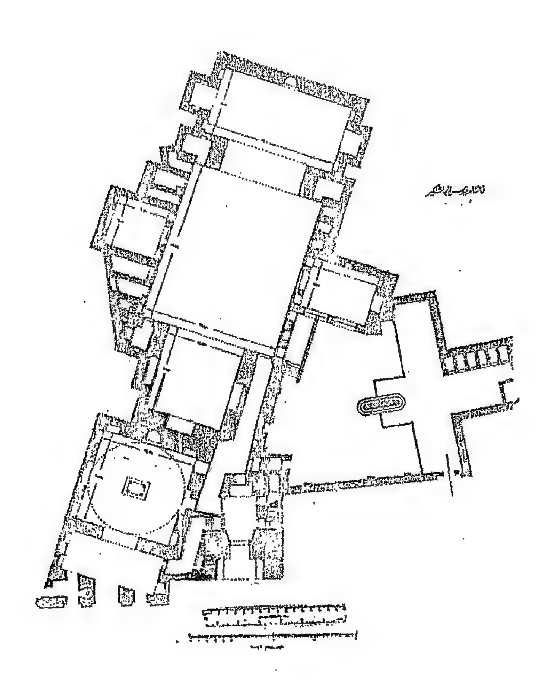




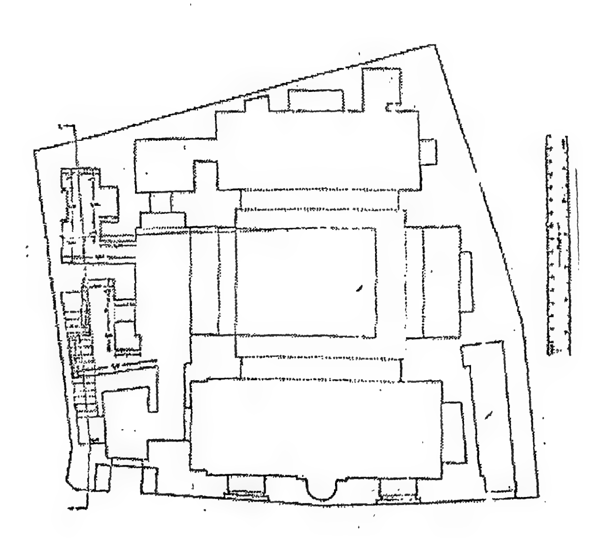

فناء
رواق
قاعة
إيوان
قاعة

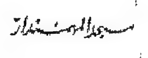

Madrasa
Mausoleum
Minaret
Madrasa-Mausoleum of Sultan an-Nasir Muhammad

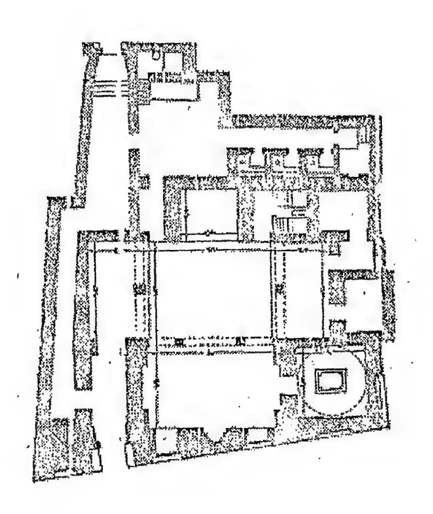


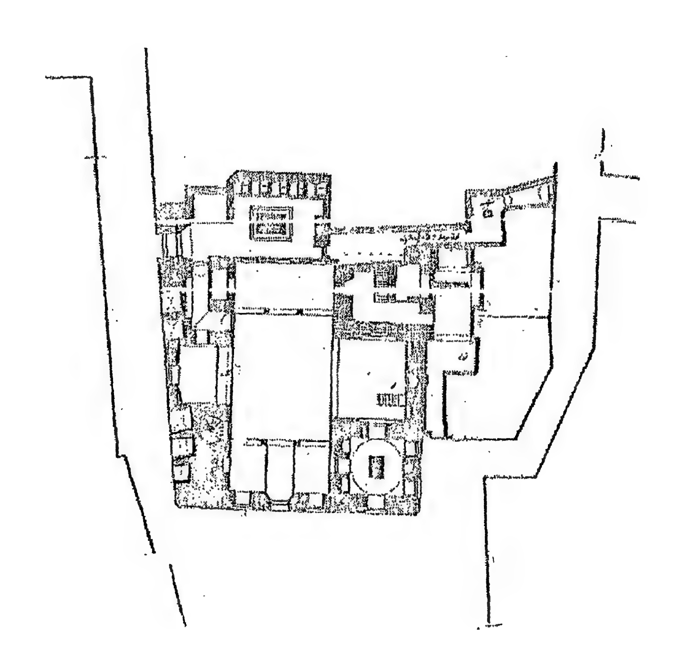


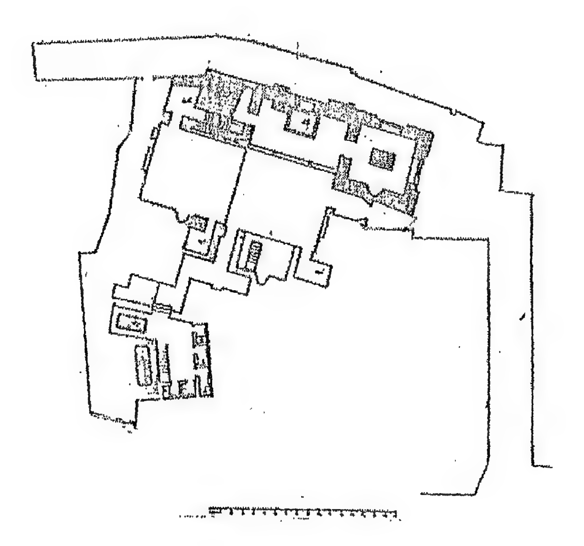
مسجد [illegible]

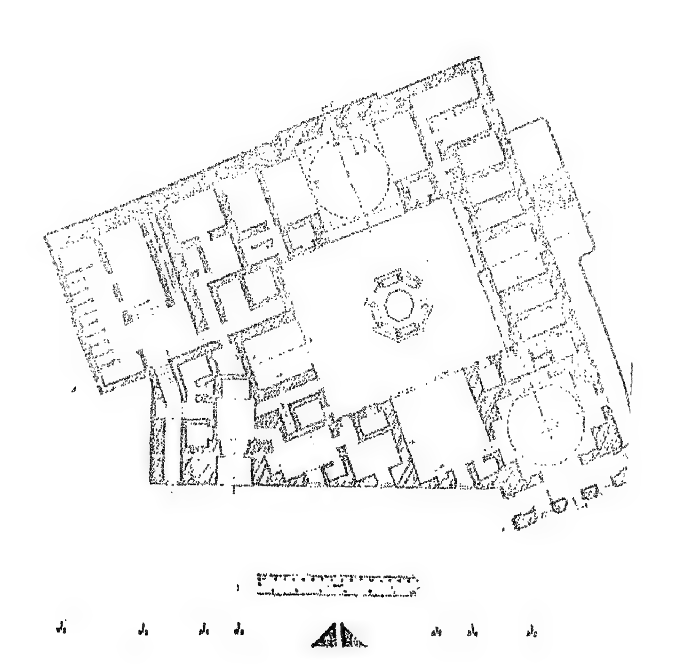


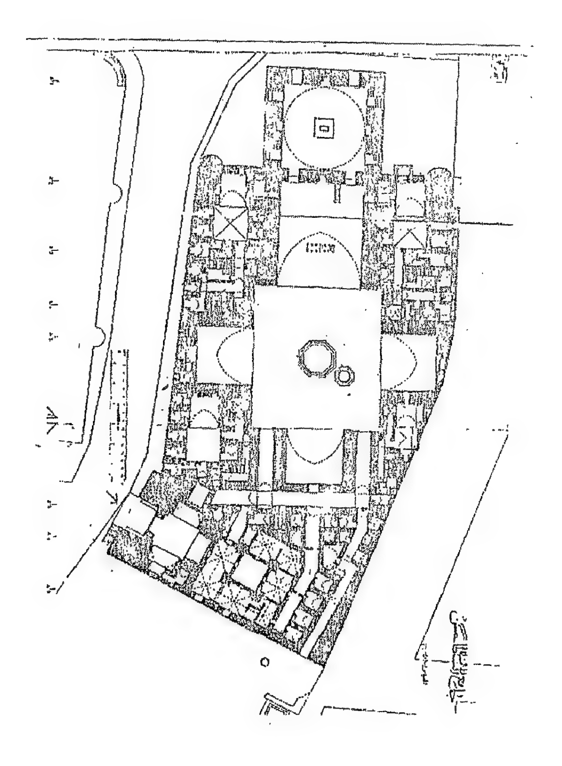

مسجد المهمندار

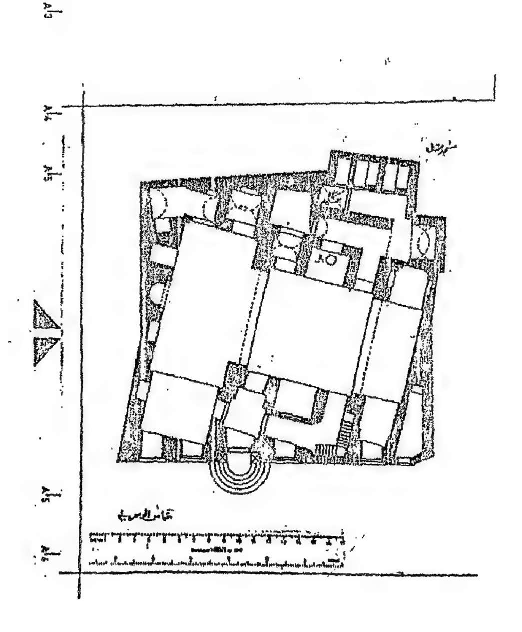


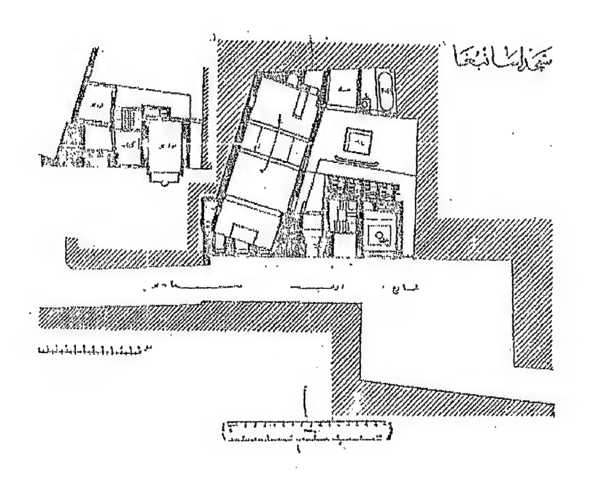


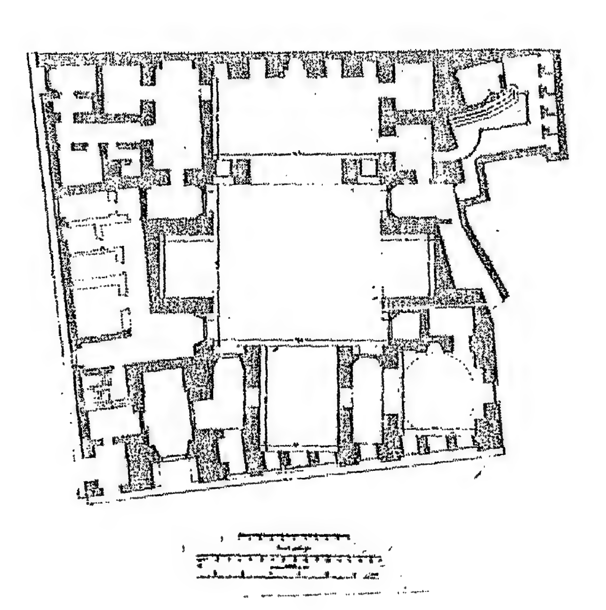


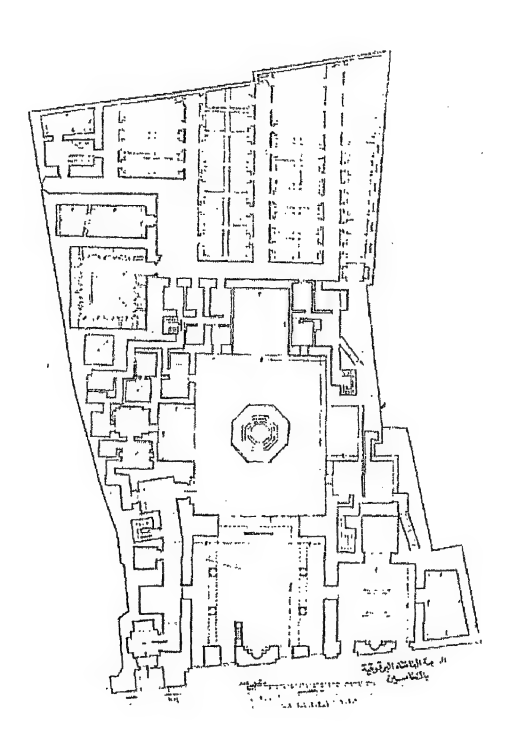


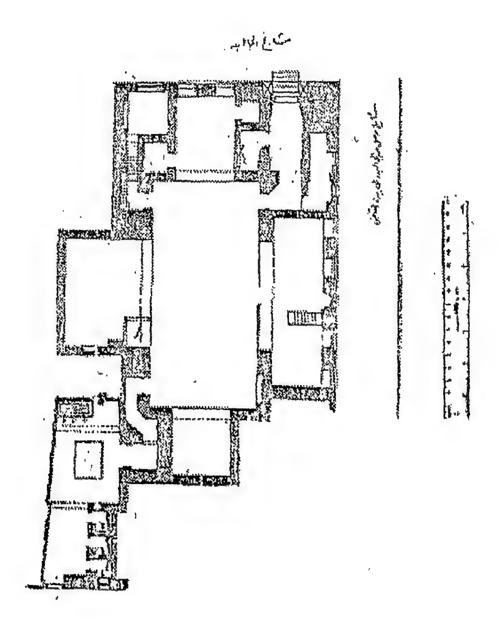


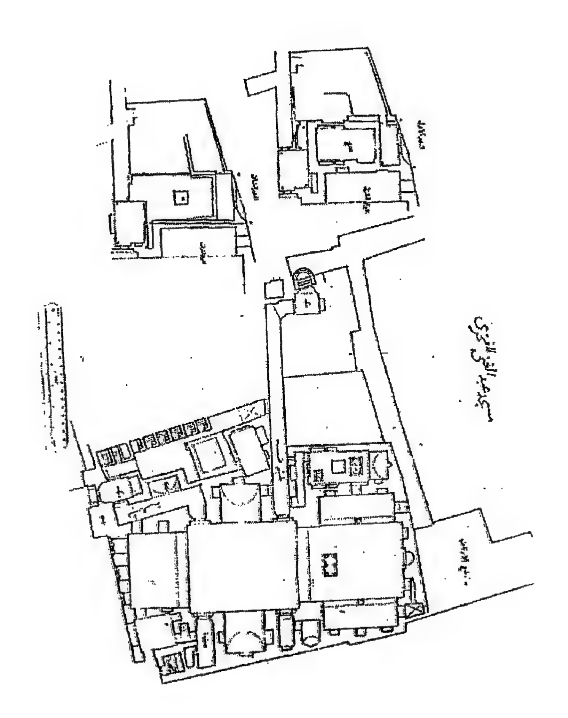


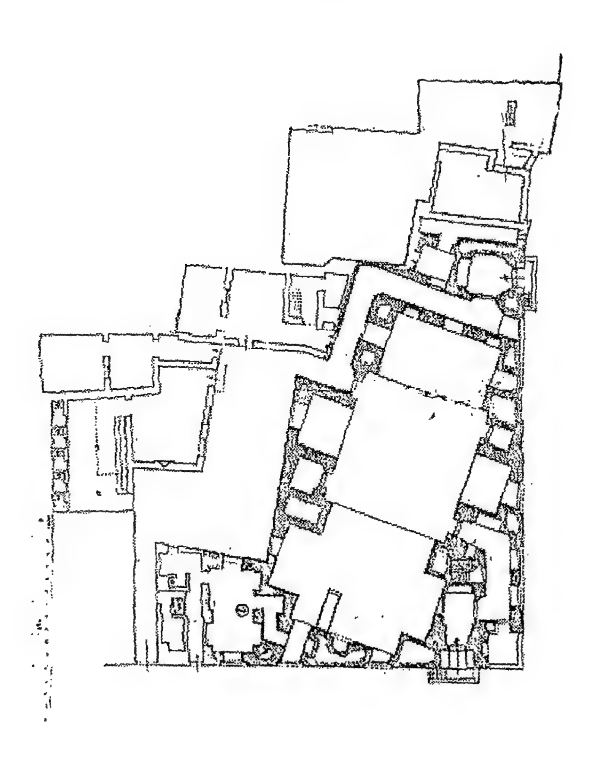

مسجد اسنبغا

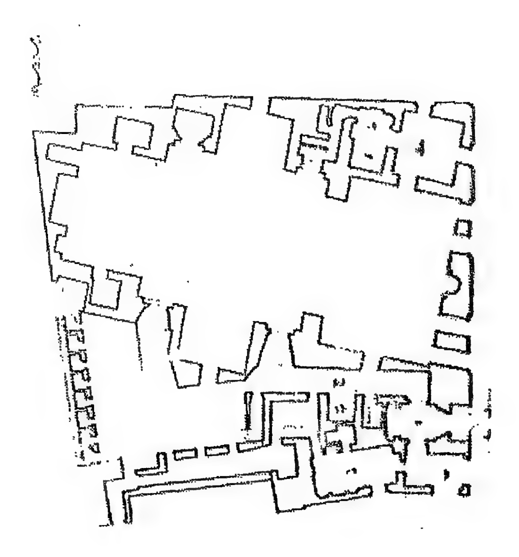


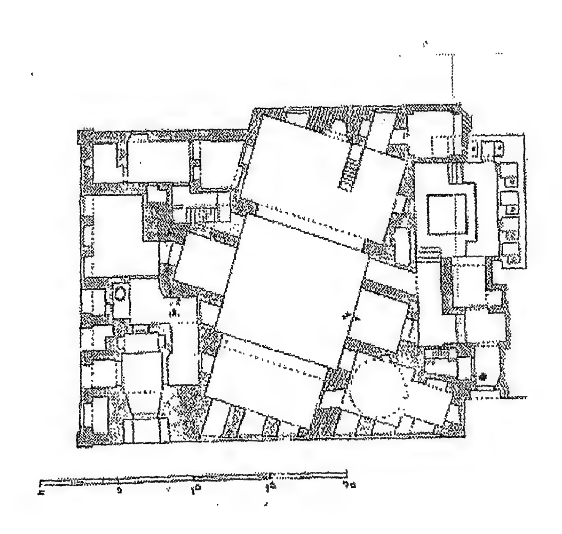


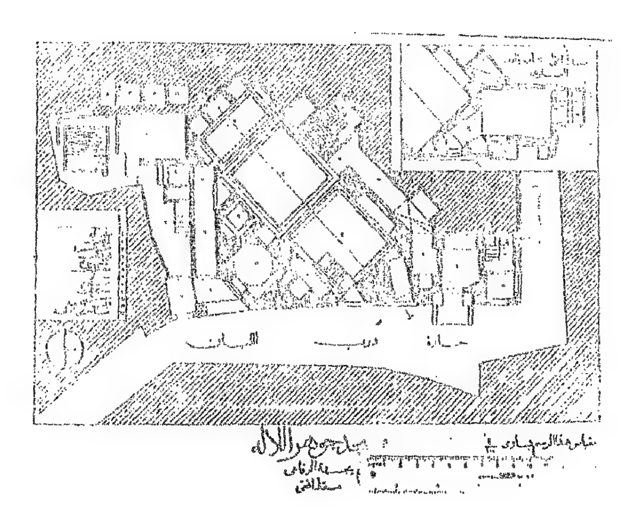


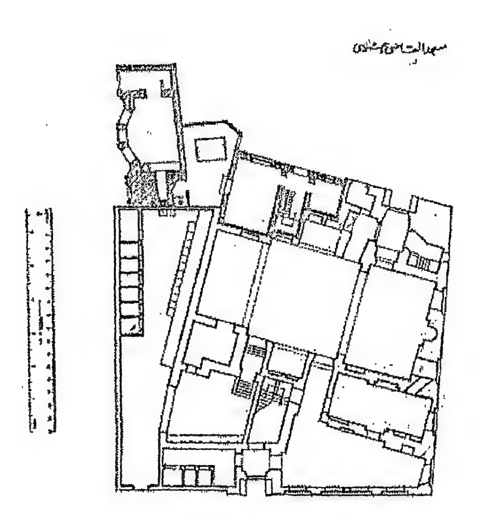


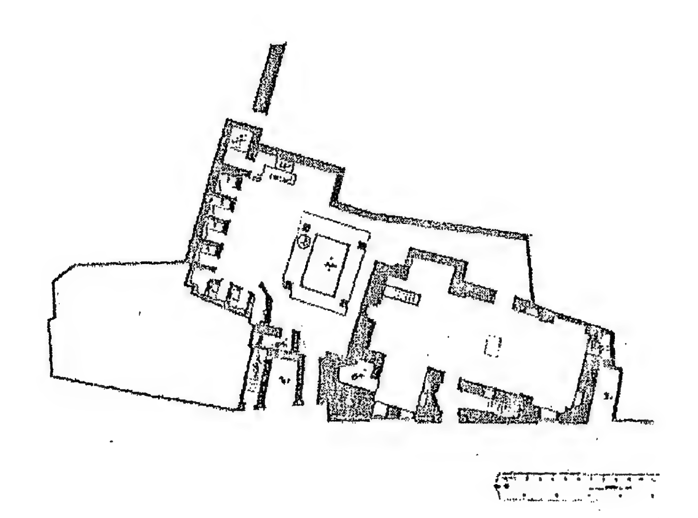


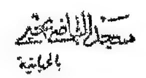


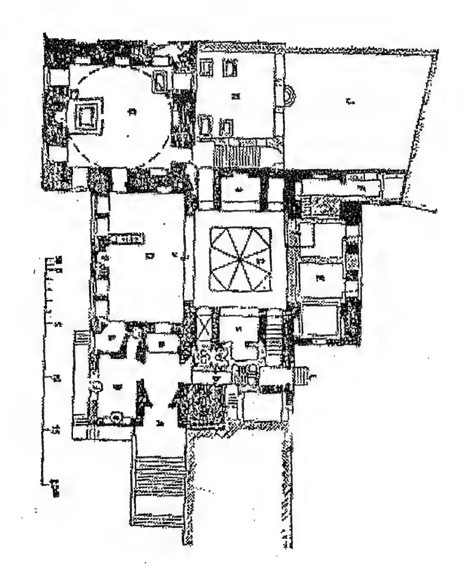


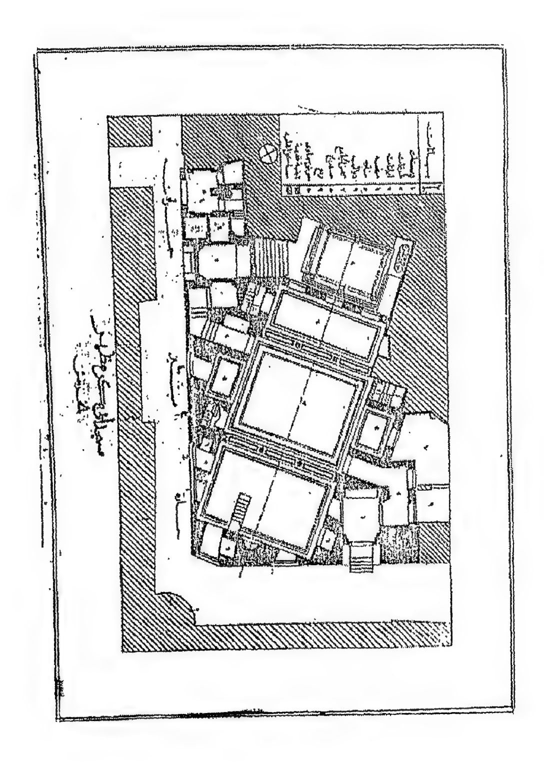

حارة درب اللبانة

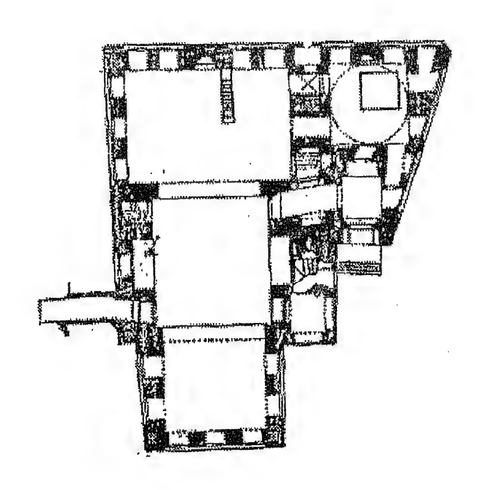


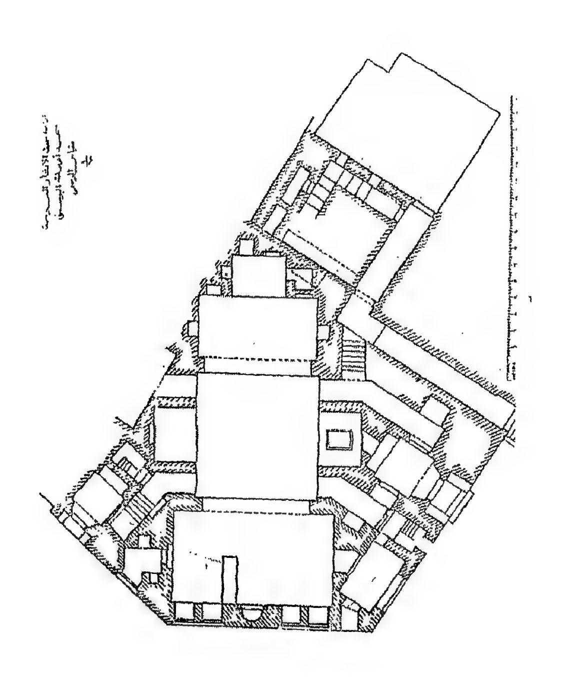


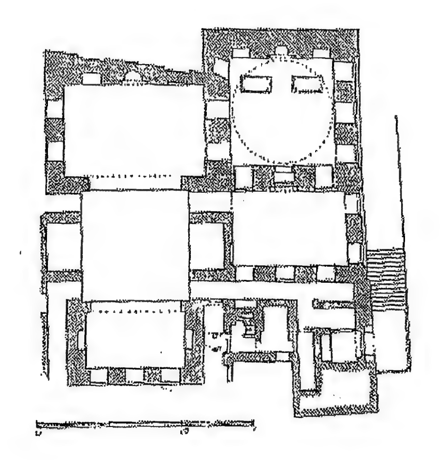


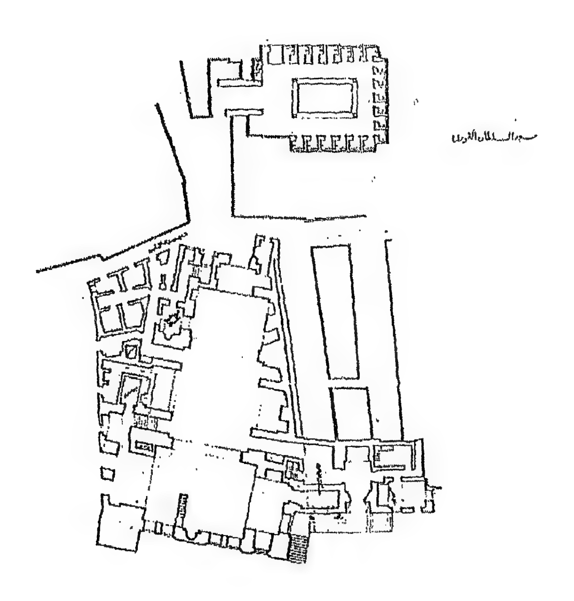


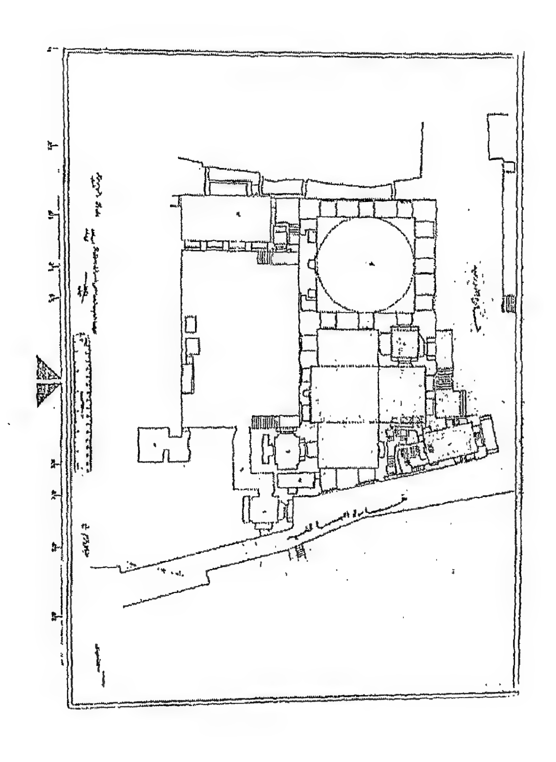


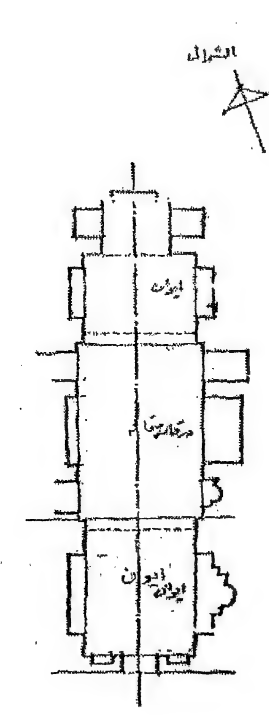




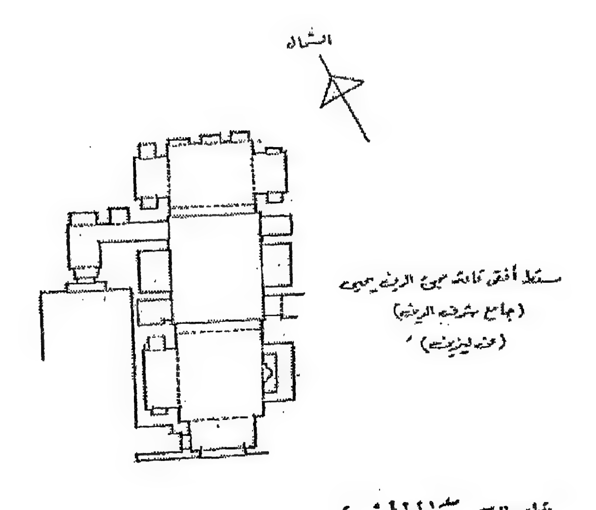


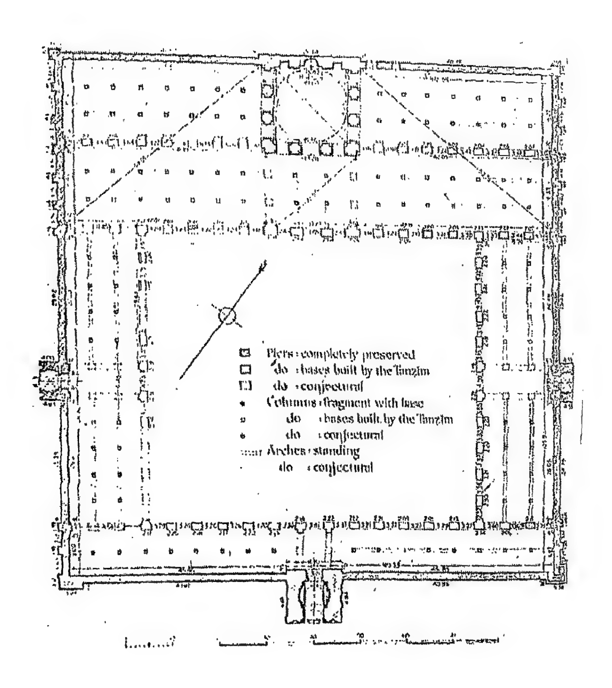


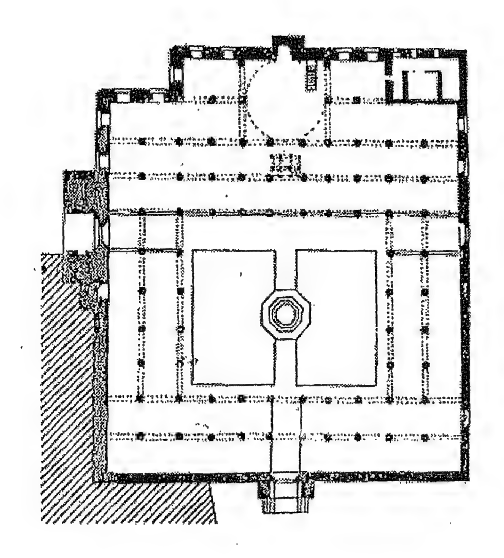


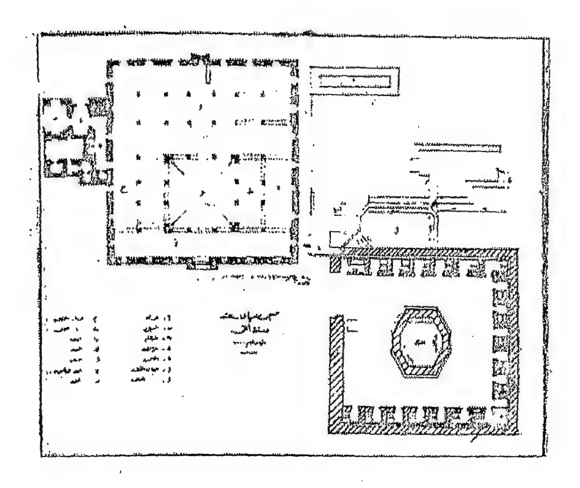


دار شاكر بن الغنام
مسقط القاعة

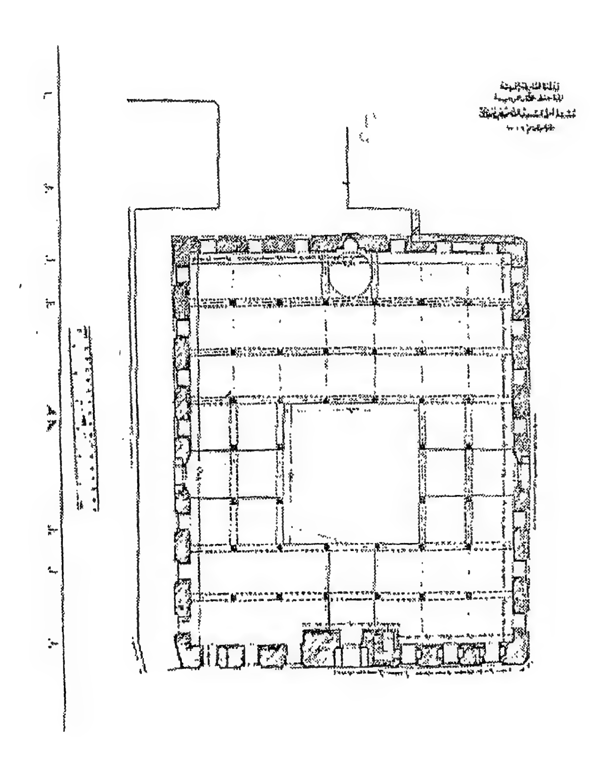

الشمال
مسقط أفقي قاعة محب الدين يحيى
مقياس الرسم ١ ٢ ٣ ٤ ٥ متر

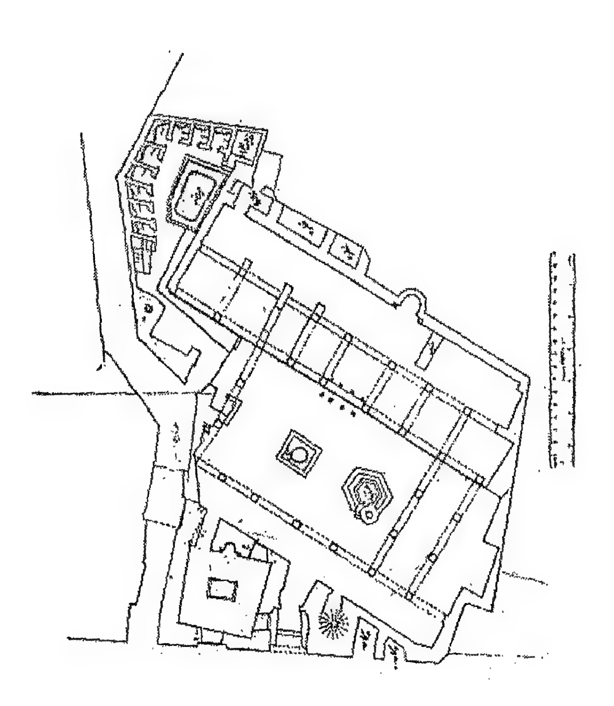

Piers : completely preserved
do : bases built by the Tanzim
do : conjectural
Columns : fragment with base
do : bases built by the Tanzim
do : conjectural
Arches : standing
do : conjectural

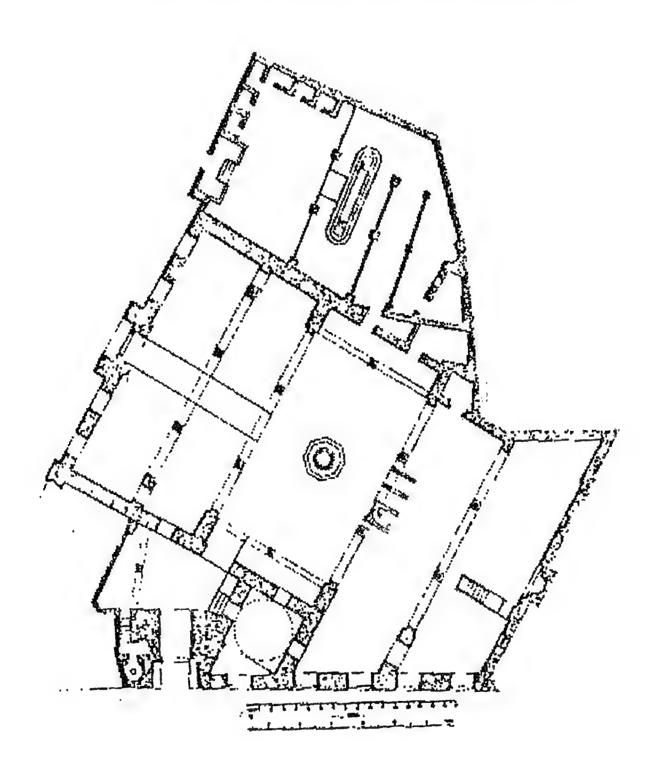


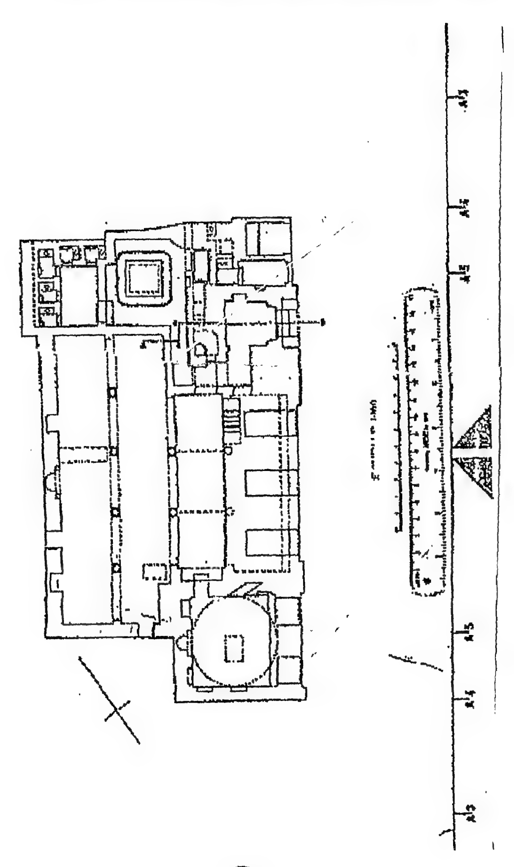


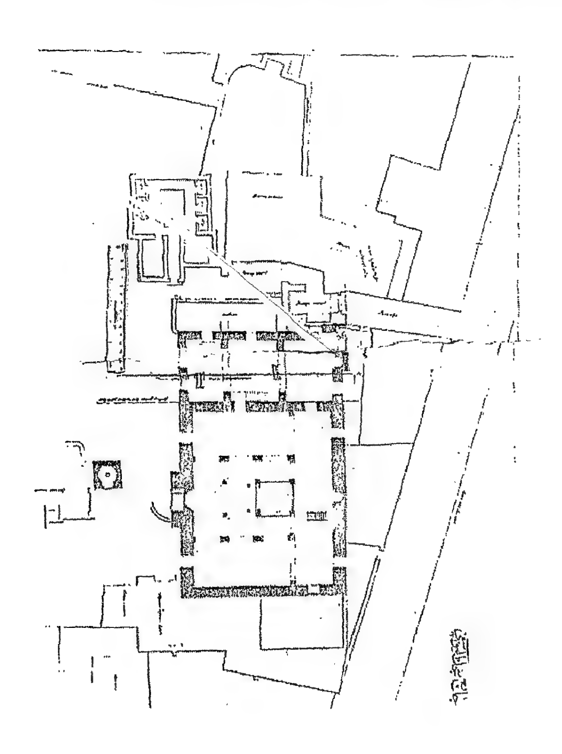
جامع برسباي بالخانكة وملحقاته

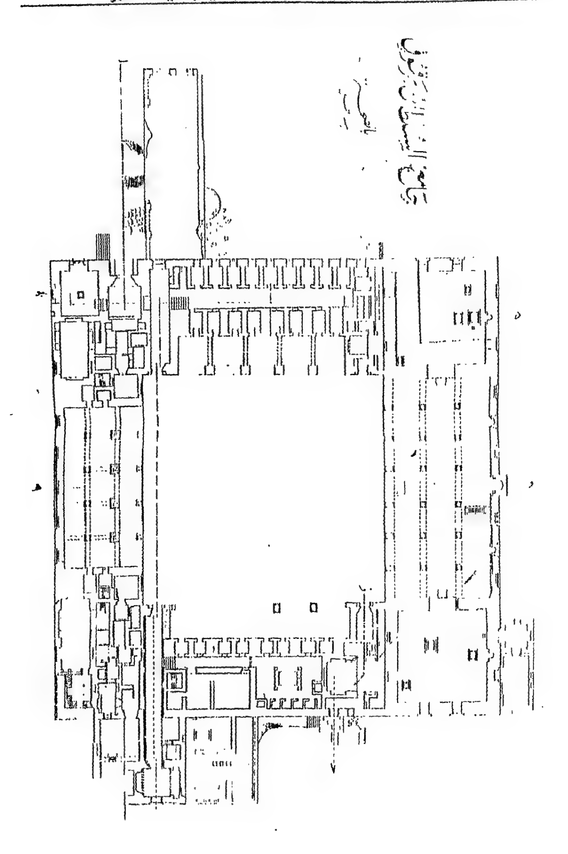


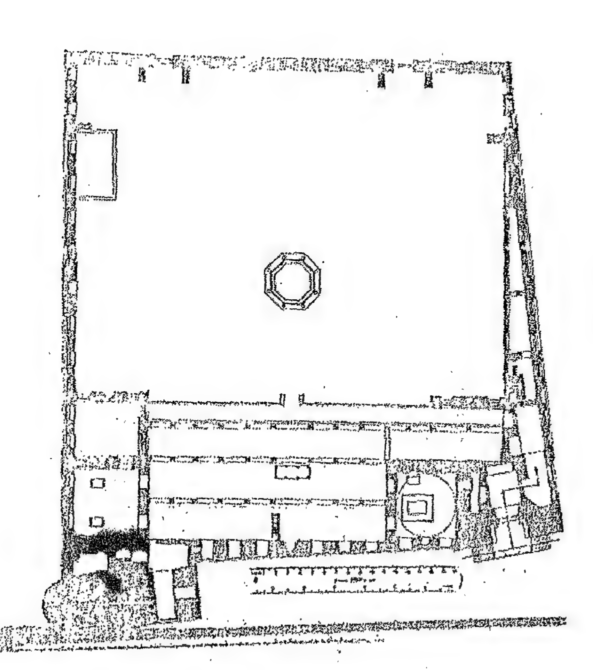


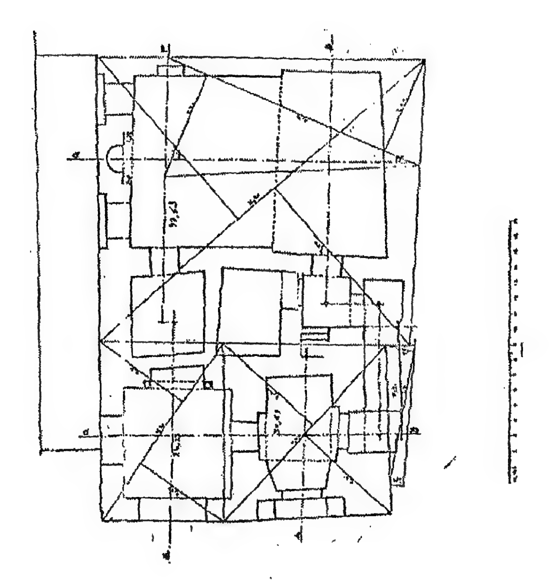


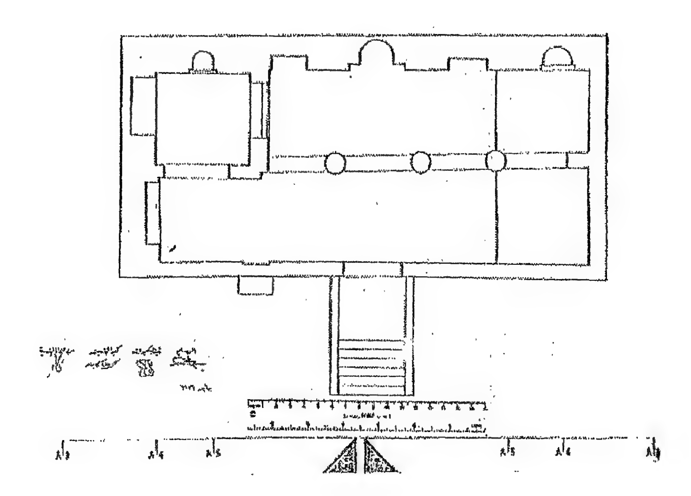


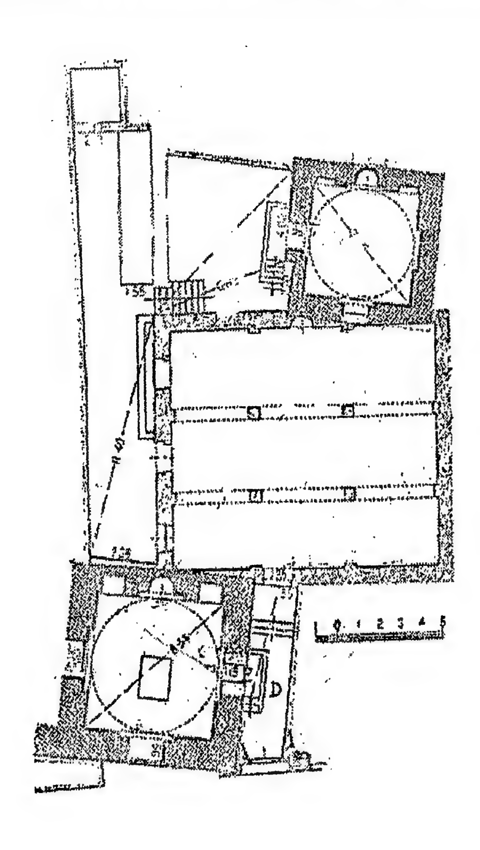


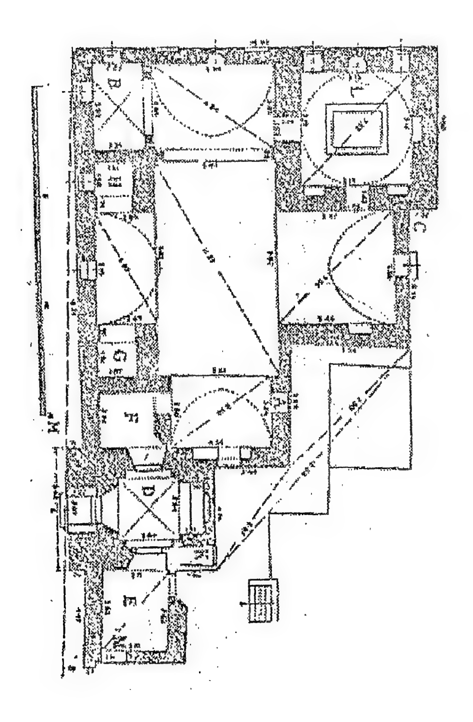


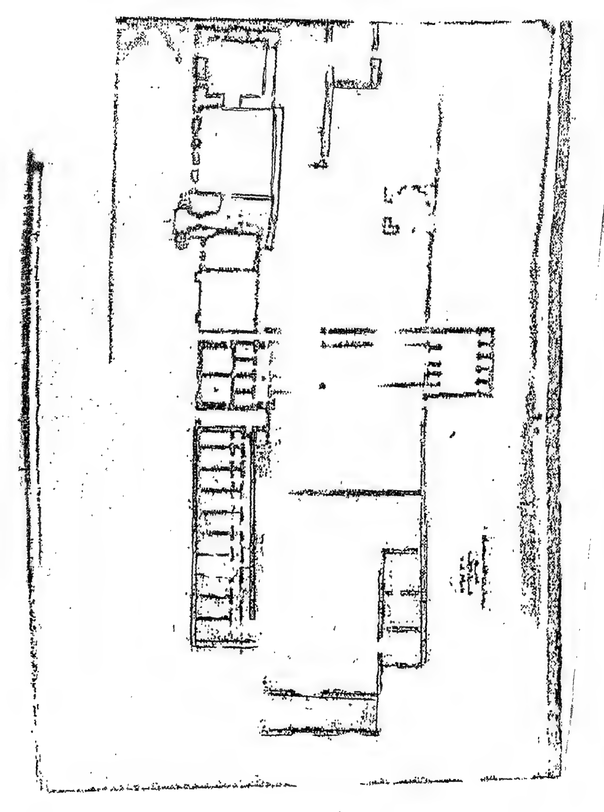




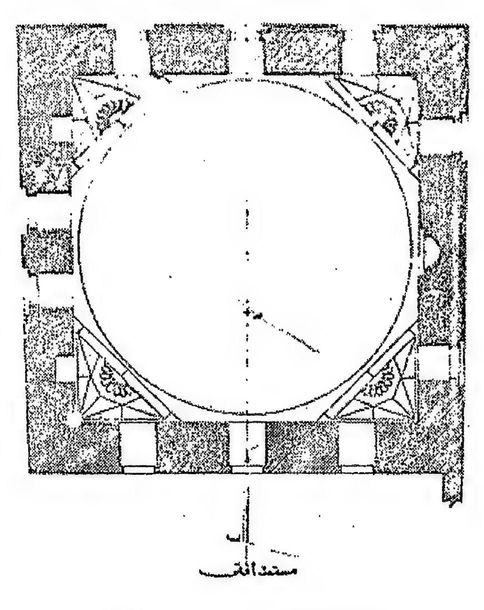



D
0 1 2 3 4 5



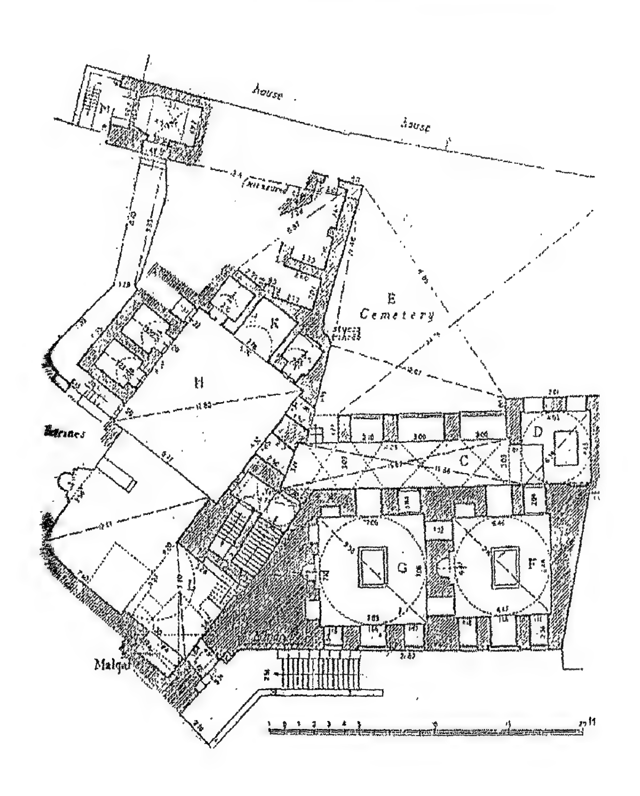


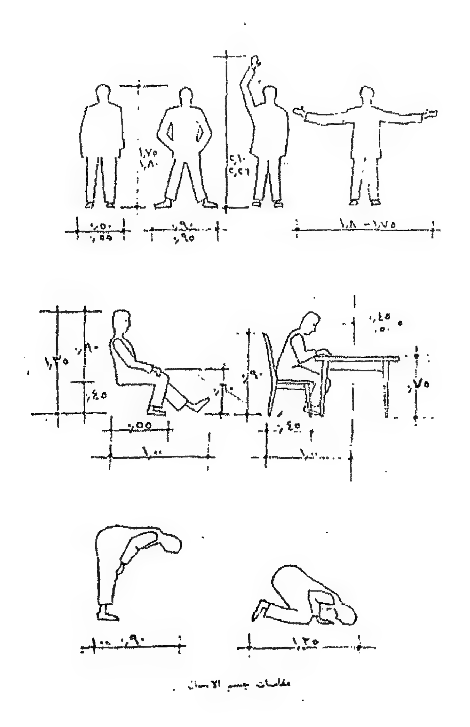
المسقط الافقي للخانقاه وملحقاتها "عن د. دولت عبد الكريم.



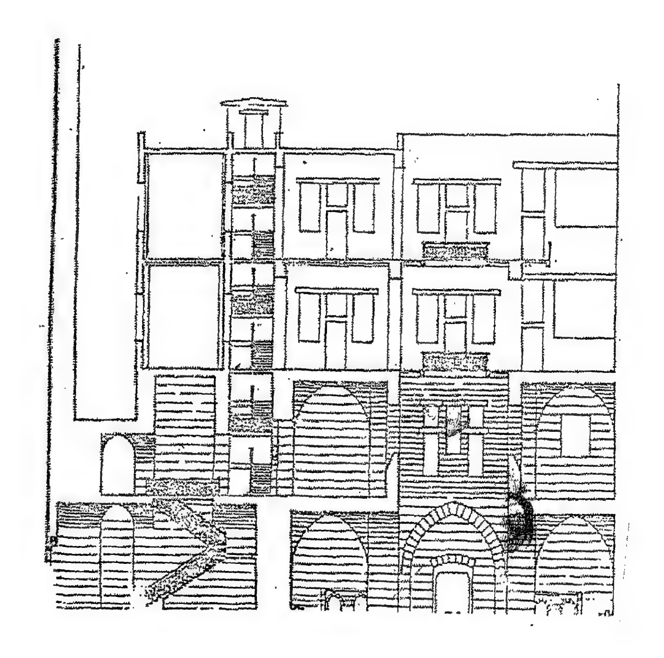
مستوى القبة

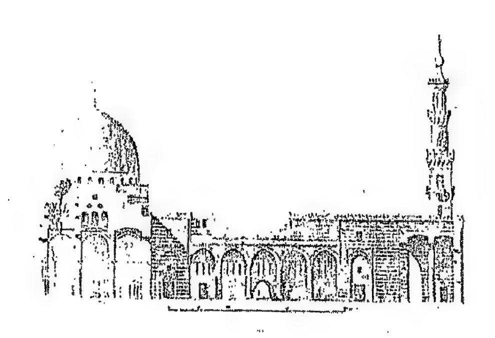
مقياس الرسم ١ : ٢٠٠

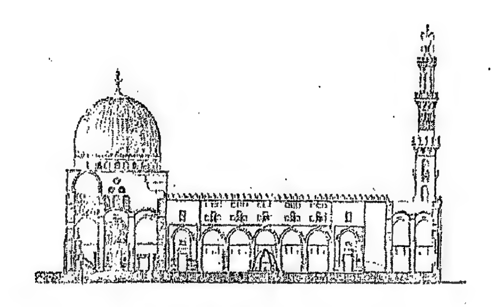

house
house
E
Cemetery
H
K
D
C
G
F
Latrines
Malqaf

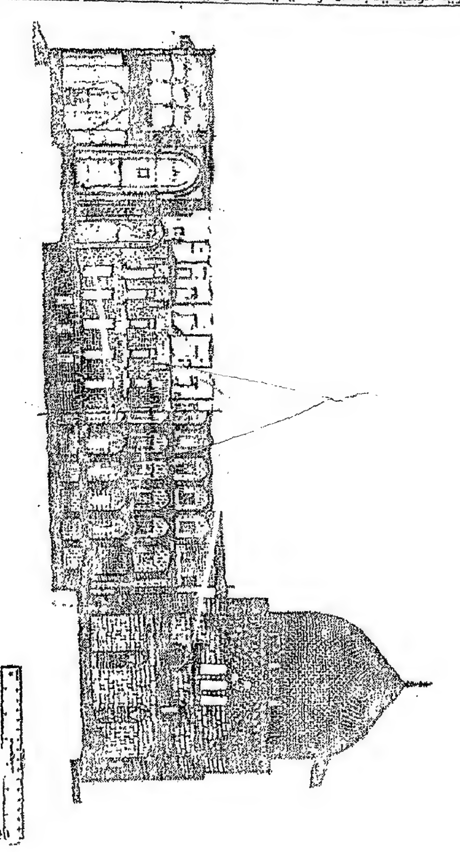


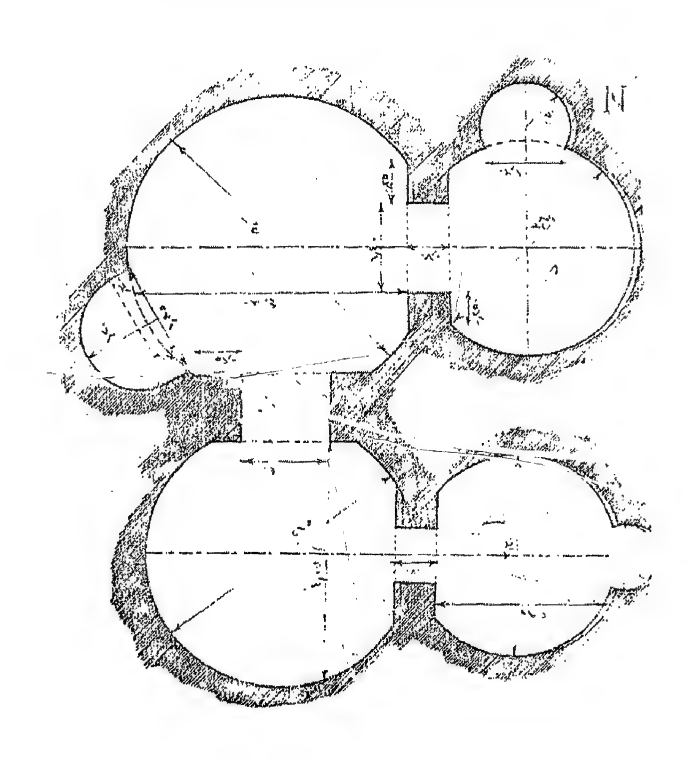
مقاسات جسم الانسان .

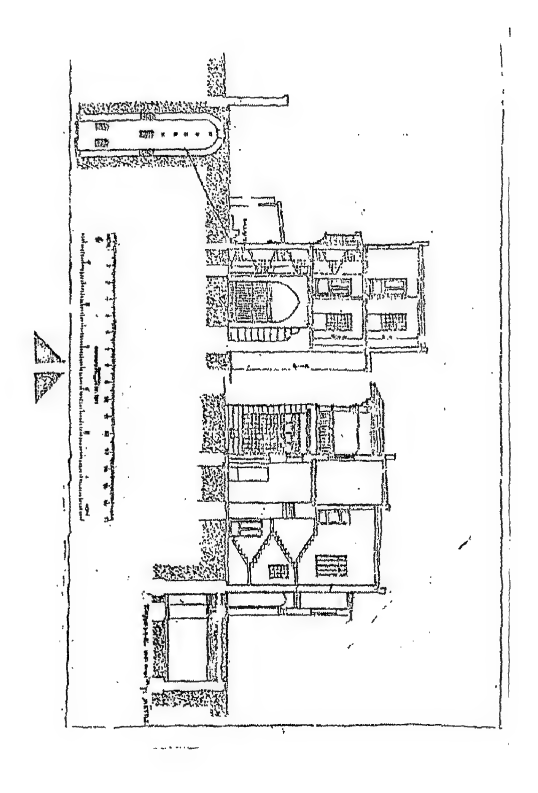


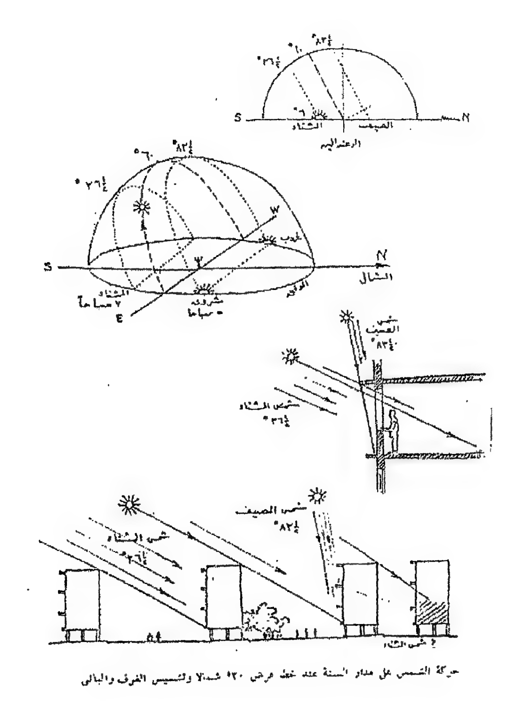




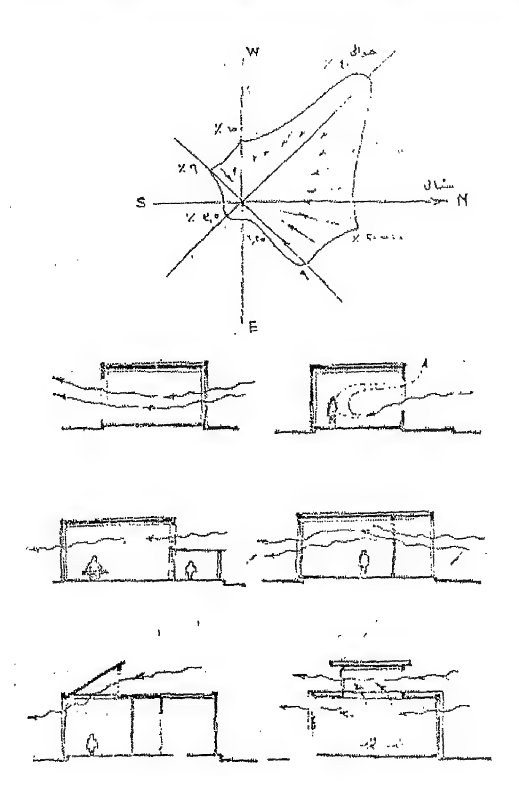


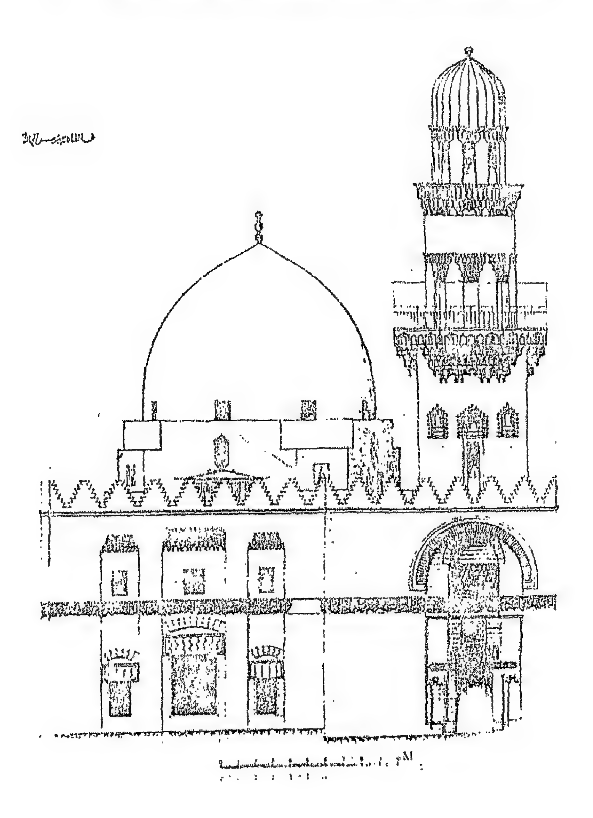




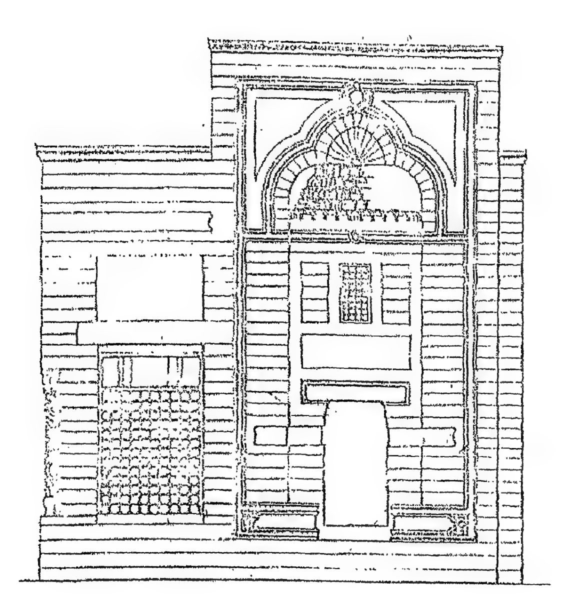


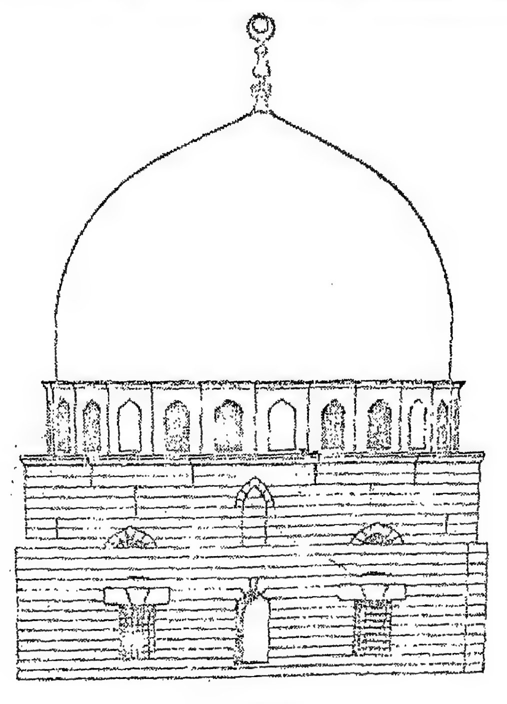
حركة الشمس على مدار السنة عند خط عرض ٣٠° شمالا والتشميس الغرف والبانى


W
S
E
شمال
N



زاوية السلطان فرج





٨١ ـ شكل يبين الواجهة الجنوبية للقبة الزناهية " من مصلحة الآثار "

الفهـــــــرس

الموضـــــــــوع	الصفحة
مقدمة	٧
الباب الأول: وظيفة المنشأت الدينية قبل العصر المملوكى نشأتها وتطورها	١٩
الفصل الأول: مبانى الصلاة	٢١
الفصل الثانى: وظيفة المدارس ونشأتها	٤٥
الفصل الثالث: وظيفة مبانى الصوفية ونشأتها قبل العصر المملوكى	٧٥
الباب الثانى: وظيفة المنشأت الدينية فى العصر المملوكى	٩٩
الفصل الأول: الوظيفة وكثرة المنشأت الدينية فى عصر المماليك	١٠١
الفصل الثانى: منشأت التصوف	١٦١
الباب الثالث: نظرية الوظيفية والمعمار الإسلامى	٢١٧
الفصل الأول: نظرية الوظيفية	٢١٩
الباب الرابع: عناصر الإنتفاع	٢٥٣
الفصل الأول: عناصر الإنتفاع	٢٥٦
الفصل الثانى: عناصر الاتصال والحركة	٣٨٥
الفصل الثالث: عناصر الخدمة	٣٩٩
الفصل الرابع: عناصر الوقاية	٤٠٩
الفصل الخامس: عناصر التهوية والإضاءة	٤١٦
الفصل السادس: عناصر الإنشاء	٤٣٥
الخاتمة	٤٥٧
الملاحق	٤٦٧
بيان الإشكال	٤٩٥
الفهرس	٥٦٧

تم بحمد الله

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

١ - يعتبر هذا الكتاب الاول في دراسة العمارة الدينية المملوكية من منظور يركز على وظائفها وتطورها .

٢ - يطرح هذا الكتاب فكر المعمارى الإسلامى ومفهومه للوظيفية كمفهوم وكصفة وكنظرية ويطبق ذلك على العمارة الدينية المملوكية بالقاهرة بإعتبار تعدد نوعياتها وكثرة أمثلتها الباقية

٣ - يتبنى هذا الكتاب منهجاً جديداً على الدراسات الأثرية في التحليل المعمارى فهو يحلل المنشآت الدينية إلى عناصرها المختلفة تحليلاً يساعد على اختيارها ودراستها دراسة وافية

٤ - يتابع هذا الكتاب تطور المنشآت الدينية الإسلامية حتى نهاية العصر المملوكى ويربط بين هذا التطور و إنعكاساته في أساليب تخطيط هذه المنشآت وطرق إنشائها.

٥ - ينتهى هذا الكتاب إلى أن مفهوم نظرية الوظيفية لدى المعمار المسلمة في العصر المملوكى كان أوسع وأثرى من مفهوم هذه النظريةج في العصر الحديث .